د / محمد سيد محمد

الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م

الناشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد

مدينة نصر ـ القاهرة ت ٢٦١٩٠٤٩

الغلاف تصميم :
الفنان شريف رضا

مركز فجر لخدمات الطباعة
✆ : ٢٤٠٤٢٠١ فاكس : ٢٤٠٤٢٠١

﴿ قَد جآءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِكّم فَمَنْ أَبصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيهَا وَمَآ أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ ﴾

« الأنعام : ١٠٤ »

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

قطعت رحلة شاقة وعسيرة لكي أصل إليك . نعم أنت أيها القارئ كنت على وجه التحديد مقصدي فى هذه الرحلة الشاقة ، فحشدت نفسي ، وأتيت لك بموضوع لا يتصل بثقافتك فحسب أو بالمعرفة وحسب ، وإنما يتصل بوجودك . أن تكون أو لا تكون - على حد التعبير « الشكسبيرى » المشهور - ألا وهو الغزو الثقافى والمجتمع العربى المعاصر .

ولا بد من الإعتراف بأن قضية الغزو الثقافى من القضايا المتشعبة . لا يستطيع بحث واحد أن يلم بكافة أبعادها فى عالمنا العربى المعاصر . ولعل ذلك فى حد ذاته مبرر لتحديد الظاهرة ، وإجلاء أكبر قدر من أبعادها . وطرحها فى دائرة الضوء . ووضعها على مائدة المناقشة ، وأن نطرق سُبُلَ مواجهتها . ومن البداية تبرز أمامنا عدة نقاط جوهرية تمثل اطارا عاما للدراسة .

* **أولها** : أن أهمية موضوع الغزو الثقافى لا تعود إلى خطورته فحسب ، وإنما تعود أيضًا إلى أهمية الاتصال والتفاعل الثقافى وضرورته لنا . كيف يمكننا أن نفرز بيسر وحكمة وبصيرة الغزو الثقافى من الاتصال والتفاعل الثقافى ؟ وكيف نفرق بينهما ؟ إن السبيل السليم لتحقيق ذلك هو المحاولات المستمرة لتعميق المفاهيم وتأصيلها وتحليلها . وهذا ما تحاول هذه الدراسة أن تؤدية بصورة مباشرة وما تحاول دراسات سابقة لى أن تؤديه بصورة عامة وغير مباشرة .

هذا الهدف العام الذى تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقه تتعلق به أهداف فرعية فرضتها الظروف المحيطة بالثقافة العربية المعاصرة . فلقد كان موضوع الغزو الثقافى موضع اهتمام الكتاب والمفكرين العرب والمسلمين منذ بدأ التدخل الأجنبى فى المنطقة العربية . ولكن المعالجة كانت فى أغلبها حماسية وخطابية . لذلك فإننا أمام ضرورة المعالجة الجديدة للموضوع. ومن الأهداف الفرعية التى فرضتها على البحث الظروف المعاصرة للثقافة العربية هى تتبع أساليب الغزو الثقافى بعد الاستقلال الشكلى لمعظم البلدان العربية . أما الظروف العالمية فقد أمدتنا بثورة باهرة فى الاتصال جعلت للقضية أبعاداً شديدة التشابك . لذلك أصبح من الضرورى ألا تشغلنا الشباك المتشابكة ، وأن نحدد بشئ من الدقة الأبعاد الضرورية لقضيتنا دون أن نتوه فى الشباك وتشابكاتها . فلقد أصبح الإعلام المعاصر متغيرا جديدا فى قضية الغزو الثقافى بسبب تقدم « تكنولوجيا البث » ، ونقل الرسائل الإعلامية ، وبسبب تزييف هذا الجانب من القضية وجدنا من يطلق على الإجبار والقسر فى الحقل الإعلامى تعبيرحرية التدفق الإعلامى .

وقد أثار عدد من الباحثين والمفكرين العرب قضية الغزو الثقافى من منطلق وجوده أو عدم وجوده . ويتلخص الجدل الذي دار بينهم فى سؤال جوهرى : هل الغزو الثقافى قضية

واقعية لها من الآثار ما يمكن أن نلمسه ونراه ونتحقق منه ، أم أن الغزو الثقافى مجرد وهم؟. وبين الرأى الذى يكاد ينكر وجود ظاهرة الغزو الثقافى والرأى الذي يهول من مخاطرها ويسرف فى هواجس التأثر بها ، وَيُضَيِّق سبل الاتصال والتفاعل الحضارى ، يكاد الباحث أن يضع يده على جوهر المشكلة بالنسبة لمجتمعاتنا العربية المعاصرة . ومن ثم فإن التساؤل الرئيسى فى هذا البحث هو كيف يميز القارئ العربى الغزو الثقافى وكيف يتجنبه ، وكيف يتعرف على الاتصال الحضارى وكيف يتفاعل معه ؟ ومن هذا التساؤل الرئيسى يطرح البحث عشرات التساؤلات التى تجيب عنها فصول البحث إجابات تحليلية .

* **وثانيها** أن مفهوم المجتمع فى هذا الصدد يعنى المفهوم الثقافى والعام . وعلماء الاجتماع [1] يقولون لنا : إن الاجتماع الإنسانى ليس حشدا من الأفراد كيفما اتفق ، ولكنه اجتماع منظم له نظمه وأوضاعه وله أغراضه العامة . ومن الضرورى أن تتدخل الإرادة الجمعية والعقل الجمعى لتنظيم المجتمع أيا كان نطاقه وطبيعته وفقا للاتجاهات العامة وما يرتضيه شعور الجماعة وما تراه محققا لأهدافها . ولأن كلمة مجتمع Society تعبر عن الإطار العام الذى يحدد العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه ، ولأن هذه العلاقات ينبغي أن تكون مستقرة ومنظمة وقائمة بصفة مباشرة وهذا لا يتوفر دائما ، ولأن المجتمع الحديث يتميز بتعقيد جماهيره وهيئاته وروابطه ، من أجل ذلك كله نجد معظم علماء الاجتماع يفضلون إستعمال مصطلحات أكثر دقة داخل الإطار العام للمجتمع . فهم يحددون مصطلح المجتمع المحلي Community للأفراد الذين يعيشون فى منطقة أو بيئة محدودة النطاق والمعالم ، ويحددون مصطلح الجماعات Groups لعدد من الأفراد يمتاز بطابع خاص ، ويرتبط أعضاؤها بروابط معينة ، ويسعون إلى هدف مشترك ، ويكونون فى صلة دائمة ، مثل فريق الكشافة وفريق كرة القدم وغير ذلك . ويحددون مصطلح الجمهورة أوالزمرة ومجموعها الزمر Crowds مثل مشاهدى مواكب العرس ومواكب الاستعراضات العامة ، والمشتركون فى المظاهرات العامة وما شابه ذلك . ويحددون مصطلح الجمهور The Public بأنه الحشد غير المنظم إراديا وهو يتألف من أفراد تجمع بينهم أفكار ورغبات مشتركة ورأي عام موحد ، وليس بينهم اتصال مباشر لأنهم من الكثرة العددية بحيث يتعذر على كل منهم أن يقيم علاقات شخصية بينه وبين الآخرين . ويحددون مصطلح الدهماء The Mob أو الغوغاء بأنه حشود غير منظمة تسودها الجلبة والضوضاء ، وتؤثر فيها الانفعالات والعواطف والأفكار غير المنطقية ، وتخضع للأهواء والرغبات الفردية أكثر من خضوعها لفكر واحد ومشاعر موحدة ومواقف جماعية. ويحددون مصطلح المنظمات والهيئات الاجتماعية Associations بأنه عبارة عن طائفة من الأفراد يجتمعون فيما بينهم وينتظمون بمقتضى دستور وقواعد

---

(١) فاروق محمد العادلى ـ المدخل إلى علم الاجتماع ـ دار الكتاب الجامعى ـ ١٩٨٩ م ، ص ٧ ، ٢٠ .

موضوعة ومحددة لتحقيق أهداف مرسومة وتنفيذ وظائف خاصة مثل الأحزاب والنقابات والجمعيات العلمية وغير ذلك . ويحددون مصطلح النظم الاجتماعية Social Instiutions بأنها الأوضاع التي يصطلح عليها المجتمع لتنظيم العلاقات بين الأفراد فى مختلف شئونهم ، وهي طرق التفكير والعمل السابقة فى نشأتها وقيامها على وجود الأفراد مثل نظم الزواج والبيع والقضاء والمعايير والقيم الأخلاقية .

هذا التحديد الذى يضعه أمامنا علماء الإجتماع داخل الدائرة العامة أو الإطار العام لمفهوم المجتمع تزيد من وضوحه . فنراه أشبه بالكرة الشفافة نعرف ما بداخلها ونستطيع أن ندرك التفاعلات التي يمكن أن تحدث بين العناصر الداخلية . ولقد عبر أحد علماء الاجتماع وهو « الثوسرAlthusser » عن هذا المعنى بقوله أن المجتمع موجود على هيئة عناصر كثيرة متشابكة مع بعضها وتتم بينها ممارسات مختلفة مثل الاقتصاد والسياسة و «الأيدلوجية » ، وتشكل هذه العناصر مجتمعة ما يوصف بالممارسة الاجتماعية .

والقاموس الذى وضعه نخبة من علماء الاجتماع العرب [1] يؤيد هذا المعنى فى تعريف كلمة مجتمع Society نجد الاستخدامات الشائعة الممثلة فيما يلي :

أ ـ مجموع العلاقات الاجتماعية بين الناس .

ب ـ تجمع للكائنات الإنسانية بين الجنسين ، ومن كل المستويات العمرية يرتبطون معا داخل جماعة إجتماعية لها كيان ذاتى ونظمها وثقافتها المتميزة .

جـ ـ النظم والثقافة التى تتحقق عند جماعة من الناس .

ويشير هذا المرجع إلى أن المجتمع جماعة الناس الذين لهم ثقافة مشتركة ومتميزة تحتل جزءاً إقليميًا محدداً ، وتتمتع بشعور الوحدة ، وتنظر إلى ذاتها ككيان متميز .

أما مفهوم المعاصرة فى وصف وتحديد المجتمع العربى المعاصر فإن أوضح تجلية له فى هذا البحث هى أن « خير تحديد لمفهوم المعاصرة هو البدء بالحاضر وتتبع أصوله أو مشكلاته إلى بداياتها .[2] » « والعصر ليس شيئا محددا يشار إليه بقولنا هذا هو ، وإنما هو خضم من الأحداث والكائنات تتشابك حينا وتتفكك حينًا آخر ، وهى ما تنفك فى حركة دائمة تحذف منها وتضيف إليها . فإذا تحدثنا عن العصر من الوجهة الثقافية وبالنسبة إلى الثقافة العربية

---

(١) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ، تأليف نخبة من أساتذة قسم الاجتماع ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ص٤٥١ .

(٢) د . شكرى عياد ـ مؤتمر الأصالة والتجديد فى الثقافة العربية المعاصرة الذى عقد فى القاهرة من ٤ ـ ١١ أكتوبر ١٩٧١ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

الحديثة على وجه التحديد ، هو تلك الأفكار والأحداث التى تمس حياتنا وتثير اهتمامنا بغير تكلف وبغير تعسف [1] .

وعندما نطرح فى هذا الكتاب مفهوم المجتمع العربى المعاصر فإننا نستضيىء فى مفهومنا للمعاصرة بالشرح الذى بسطه علماء المسلمين لتفسير قول الله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . ذلك الشرح لكلمة « العصر » بأنها تعنى الدهر وبأنها تعنى الوقت وبأنها تعنى صلاة العصر . هذا الاتساع للشرح فى تفسير كلمة العصر فى القرآن الكريم يعيننا على تصور معنى المعاصرة فى قضية الغزو الثقافى بصفة خاصة ، وعلى تصور معنى المعاصرة فى المجتمع بصفة عامة . لأن معنى المعاصرة فى قضية الغزو الثقافى يشمل دوائر شديدة القرب وقتيًا متصلة بدوائر أبعد منها فى الزمن متصلة بدوائر أكثر بعداً وعمقًا . وهكذا يصبح معنى المعاصرة فى هذا الصدد مثل الدوائر التى يحدثها إلقاء حجر فى ماء ساكن . وهذا مايصدق على المجتمع عندما نصفه بالمجتمع المعاصر . وهذا أيضا ما يجعل حديثنا عن الغزو الثقافى والمجتمع العربى المعاصر صالحا للغد.

وتعبير المجتمع العربى المعاصر يتداخل فوق التراب العربى مع تعبير المجتمع الإسلامى المعاصر تداخلاً شديداً . والدكتور عبد العظيم رمضان [2] عندما يحلل ظاهرة المقاومة فى الوطن العربى للغزوة الاستعمارية فى القرنين التاسع عشر والعشرين من الميلاد يقول : « لقد تميزت المجتمعات العربية بأنها لم تكن مجتمعات عربية خالصة ، وإنما كانت مجتمعات إسلامية بالدرجة الأولى ، فقد تواجدت فيها إلى جانب العناصر العربية عناصر أخرى إسلامية من الشراكسة والأتراك والألبان وغيرهم شكلت أرستقراطية فوق كل الطبقات ، وبرغم هذه الارستقراطية لم تكن ارستقراطية قومية إلا أنها كانت أرستقراطية وطنية ، بمعنى أنها كانت تعتبر الوطن العربى وطنها الأول » .

وعلى حد تعبير ـ سعيد سليمان [3] ـ فى ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافى (١٩٨٥) لقد آن الأوان لنتطلع إلى حاضرنا هذا من خلال واقعنا المباشر ، ومن خلال الظروف التي نعيش بها فى علاقاتنا مع الأمم المعاصرة ، أو ليس الحاضر على تأزمه هو الحقيقة الدائمة، وهو حياة الأمة فى شئونها اليومية وفى علاقاتها مع الدول والشعوب الأخرى ؟ أو

---

(١) د. زكى نجيب محمود - ثقافتنا فى مواجهة العصر - دار الشروق - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٨٩ - ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) د . عبد العظيم رمضان - الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٥ - ص٣١

(٣) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو اثقافى لدول الخليج العربى - مسقط - سلطنة عمان - فى الفترة من ١ - ٣ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ أبريل ١٩٨٥ م - الناشر مكتب التربية العربى لدول الخليج - الرياض - المملكة العربية السعودية - ١٤٠٨ هـ المواق ١٩٨٧ م - صفحة ١٩ .

ليس الحاضر هو الدائرة الممتدة للتراث من ماضيه وفيما سيئول إليه ؟ ويقول : إننى أرى أن الوعى بالزمن المباشر هو المنطلق الصحيح لتحسس مقومات الهوية الثقافية ووضعها فى إطارها الموضوعى » .

والدكتور يوسف القرضاوى [1] يتساءل : ماذا تعنى المعاصرة ؟ ويجيب قائلا : يراد بالمعاصرة أن يعيش الإنسان فى عصره وزمانه ، فى أفكاره وقيمه وسلوكياته ، فى انتصاراته وهزائمه ، فى معمعة أحداثه ، ومع أهله الأحياء المتحركين ، يفكر كمايفكرون ، ويعمل كمايعملون . لا يعيش فى عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد ، ومن قيم ومفاهيم، ومن أخلاق وتقاليد ، ومن شعائر وشرائع قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون. جوهرالمعاصرة إذن هو معايشة الأحياء لا الأموات ، والواقع الماثل لا الماضى الزائل ، وأول دلائل المعاصرة أو مقوماتها أن تعرف العصر الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصائبة » .

وليس فى المعاصرة قطيعة للماضى مهما بدا لنا من فارق زمنى بين السابق والآنى . والدكتورة بنت الشاطئ [2] تؤكد الرابطة العضوية بين المعاصرة وجذورها فتقول :

« الفهم الشائع للمعاصرة فى مجالها الزمنى يتجه إلى أن نشغل بحاضرنا ومستقبلنا دون التفات إلى ماض قريب أو بعيد يحجب عنا حركة سير الزمن ونبض العصر .

وحياة المفكر أوالمثقف والأديب بوجدان زمنه وروح عصره ليست موضع جدل أو مناقشة ، ولا ينبغى فى تقديرى أن تكون مثار خصومة أو خلاف ، لكن شخصيتنا المعاصرة مشحونة بميراث ماضينا لا يمكن عزله عنها أو بتره أو نبذه . وقانون الوراثة يتحكم هنا فى عقليتنا وتفكيرنا وأمزجتنا ، مثلما يتحكم فى حياة كل كائن حى ، ماديًا كان أو معنويًا . ومهما يوغل الأديب أوالمفكر المعاصر فى الماضى البعيد ليستوعب أبعاد الرؤية لما يشغله من قضايا الفكر ، ولتتحقق له الملابسة الوجدانية بالاندماج فى مسرح الأحداث التى يلمح اتصالها بالحاضر ، بل مهما يغيب عن الزمان والمكان فى تأملاته الفكرية واستغراقه الوجدانى فيما يطل عليه من العصور الخوالى ، فإنه يظل دائما على اتصال حتمى وثيق بعصرنا الحاضر . وليس من الضرورى أن يشعر المفكر أو الأديب بهذا الاتصال أثناء استغراقه فى تأملاته الفكرية ورؤاه الوجدانية للماضى البعيد ، بل يتحقق هذا الاتصال تلقائيا دون قصد عامد ،

---

(١) د . يوسف القرضاوى ـ ندوة الثقافة العربية (الواقع وأفاق المستقبل) ١٢ ـ ١٥ أبريل ١٩٩٣ ـ جامعة قطر ـ كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ـ الدوحة .

(٢) د . بنت الشاطئ ـ الفكر الإسلامى وتحديات العصر الجديد ، منطق المعاصرة فى عالم متغير ـ جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٨ .

لأنه فى موقفه بين حاضر وماض ، يتجه إليه بتأثير شخصيته ، ولا مفر من أن يقع ظله على ما يقرأ من حديث الزمن الغابر وما يتمثل من رؤاه . وهو فيما يكتب لا يستطيع أن يصم سمعه عن أصداء العصر حوله تلاحقه حيثما اتجه ، وإذا التمس فى عزلته معايشة الأحداث الماضيات التى جذبته فإنه يمضى إلى تلك العزلة بوجدان يلقى حظه المحتوم من مؤثرات شخصيته وبيئته وعصره » .

كذلك فإن مفهوم المجتمع العربى المعاصر يعنى بالضرورة المجتمع الإسلامى المعاصر. ولضرورة البحث ودقته اخترت المجتمع العربى نموذجا لسببين :

السبب الأول :دراستى للتاريخ العربى المعاصر ، وقصور تحصيلى فى التاريخ المعاصر للبلدان الإسلامية ، والسبب الثانى : أن الغزو الثقافى الموجه ضد العرب فى صلبه موجه ضد الإسلام .

ولقد نبهنا بعض الكتاب العرب [1] إلى حقيقة أن الغرب يفهم أفضل من بعضنا ـ للأسف ـ الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام ، ويفهم أن أنجع السبل لقتلهما معا .. هو فصلهما عن بعض ، أو الوقيعة بينهما ليفصلا بأيديهما ما شاء الله له أن يتصل .. ويستشهد الكاتب المصري جلال كشك بشاهدين من أهل الغرب فى اثبات ذلك . الشاهد الأول «موروبيرجر » فى كتابه العالم العربى اليوم حيث يقول : « لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ، ونفس الشئ يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة فى أفريقيا » . والشاهد الثانى « هنريش كاستر » حيث يقول : ربما كان من الخطأ أن نخلط بين الإسلام والقومية العربية ، ولكن لا يقل خطأ عن ذلك أن نحاول التغاضى عن العلاقة الوثيقة بين الاثنين .

* **وثالثها** أن الاطار العام لهذه الدراسة ، فرض ضرورة المزاوجة والتركيب بين عدة مناهج منسجمة لتحقيق أهداف البحث : فلقد سألت نفسى فى مطلع كتابة البحث هل هذه الدراسة ، دراسة استكشافيه ؟ أم أنها دراسة وصفية ؟ أم أنها دراسة فى العلاقات السببية ؟ . ثم تبين لي أنها تكاد تجمع بين هذه الأنواع من الدراسات فى شكل مثلث يعبر كل ضلع من أضلاعه عن نوع الدراسة . ولقد سألت نفسى فى بداية البحث : أي مناهج البحث أنسب لهذه الدراسة ؟ فوجدت أمامى منهج البحث التاريخي ضروريا لتتبع الظاهرة فى تاريخنا العربى المعاصر . كذلك ألحت على أداة تحليل المضمون فى تحليل منشورات الغزو الغربى للعرب . وعندما تصفحت أعداد صحيفة « العروة الوثقى » لاقتفى أثر معالجتها للغزو الثقافى ، ثم أقارنها بصحيفة المسلم المعاصر ، وجدت نفسى استخدم منهج « المسح » والمنهج المقارن فى

(١) محمد جلال كشك ـ مفاهيم إسلامية (الماركسية والغزو الثقافى) القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ص ٤٣ .

وقت واحد . وهكذا تبين لى أن المزاوجة والتركيب بين هذه المناهج المنسجمة جعل بحث الظاهرة يقتضى بحثها فى ضوء نظرة الأبعاد المتعددة . بمعنى معالجتها فى ضوء أكبر قدر ممكن من جوانبها التاريخية والعقدية والاقتصادية وغير ذلك ، حتى يمكن رؤيتها فى إطار كافة الظروف الموضوعية المحيطة بها .

بعد هذه النقاط الثلاث الجوهرية التى تحدد لنا إطار الدراسة ، ندخل فى هيكل البحث ، فنبدأ بالمصطلح . من أين جاء هذا المصطلح : « الغزو الثقافى » ؟ . لقد جاء إلى واقعنا العربى المعاصر ثقافيا وإعلاميا ولغويا مع ظاهرة الاستعمارالحديث الذي استولت فيه البلدان الأوربية على معظم الوطن العربى ، من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين . وكانت هذه الظاهرة الاستعمارية * قد بدأت عالميا عقب بداية الكشوف الجغرافية (١٤٩٢) حيث بدأت ظاهرة الاستعمار التى تطورت إلى موجات محمومة من الأوربيين للاستيلاء على البلدان الأفريقية والآسيوية بصفة أساسية والأمريكية ثم انضمت اليابان والولايات المتحدة إلى الدول الاستعمارية .

وراء هذه الظاهرة الاستعمارية تكمن أسباب عديدة : منها نهب الثروات والمواد الخام ، ومنها تحقيق مركز مرموق بين الدول القوية ، ومنها ايجاد أسواق لمنتجاتها . ومنها تأمين مصالحها الاستراتيجية والعسكرية . ولقد أدى التفاعل بين هذه الأسباب وغيرها إلى بلورة ذلك النموذج المعقد الذى سمى بالاستعمار . وكان من أشكاله الهيمنة الثقافية ، وكان من وسائله الهيمنة الثقافية .

ومن هنا برز هذا المصطلح : الغزو الثقافى . وعلى أساس هذا السياق الذى يؤكد مولد مصطلح الغزو الثقافى من رحم الاستعمار أو من خلال الظاهرة الاستعمارية نمسك ببداية مبررة علميا لدراسة الظاهرة فى واقعناالعربى المعاصر . ونفرق فى الوقت نفسه بين هذاالمصطلح بمعناه الحديث وبين جوهره فى التاريخ وفى الصراع الإنسانى . كما نفرق بين الظاهرة الاستعمارية

* كلمة « امبرياليزم » Imperialism فى دوائر المعارف الغربية تعنى امتداد سلطة دولة أو أمة ونفوذها على أمم أخرى أو أراض أو جماعات من الناس . هذه الكلمة ترجمت فى اللغة العربية حديثًا بكلمة استعمار . برغم أن الأصل اللاتيني « امبريوم » Imperium يعنى سلطة عسكرية ، ومن هذا اللفظ يرد لفظ امبراطور Imperator ومعناه قائد عسكرى له سلطة تتجاوز سلطة الحرب ، ويسمح له بممارسة هذه السلطة داخل مدينة روما ، ولم يكن لغير الامبراطور من القادة العسكريين ممارسة السلطة داخل مدينة « روما » . وربما يكون لفظ الاستعمار قريبا فى الترجمة من مدلول « كولونيالية » حيث أن الأصل اللاتيني Colonolia يعنى مستوطنة فى منطقة نائية هاجر إليها عدد من المواطنين الرومان مع تبعيتهم للسلطة الرومانية . أما لفظ الاستعمار فله فى اللغة العربية معنى الإعمار أصلا . ولكنه فى لغتنا الثقافية والسياسية والإعلامية المعاصرة يحمل معنى الاحتلال والخراب والهيمنة .

الحديثة وبين جوهر الاستيلاء والاحتلال فى الحضارات القديمة ، بل والاغارة بين الجماعات والقبائل البدائية والقديمة .

وكان إجلاء المصطلح فى الفصل الأول ، بالإجابة عن السؤال الجوهرى : ما الغزو الثقافى ؟ وكانت الإجابة بتتبع الصورة الذهنية لهذا المصطلح فى كتابات العرب المعاصرين، ثم رسم ملامح الصورة الذهنية للمفهوم نفسه عند الأمريكيين ، ثم عند الكتاب الفرنسين . ومن العلوم الطبيعية اقتبست مثلا ، ومن الأدب صورة ، يجلى لنا مفهوم الغزو الثقافى ، ويفرق بينه وبين الاتصال الثقافى . ويرشدنا للموازين والمقاييس التى بها نفرق بين النقيضين: الغزو الثقافى ـ والاتصال الثقافى .

وكان الهدف الرئيسى لهذا الفصل هو الإمساك بمصطلح الغزو الثقافى الذى يشبه الزئبق ، ووضع هذا المصطلح بأبعاده وأشكاله المتعددة أمام بصائرنا . كما يوضع الزئبق فى الأنبوبة الزجاجية لدراسة خواصه ـ لكى ندرس وسائله وأساليبه ، وما يتمخض عن ذلك بتقليب النظر فى جوانبه المختفة .

وهكذا أسلمنى الفصل الأول إلى وسائل الغزو الثقافى وأساليبه عنوان الفصل الثانى . وفيه حاولت صياغة نموذج لوسائل الغزو الثقافى وأساليبه يقوم على محورين : المحور الرأسى خصصته لأهم الوسائل وهى ثلاث : الإعلام ، ثم التعليم ، ثم المنظمات وتشمل الشركات والنوادى والهيئات وما شابه ذلك . والمحور الأفقى خصصته لأهم الأساليب وهى ثلاثة أيضا الدوائر المتتابعة ، ثم أنماط الحياة ثم رواد التغريب . وبالتفاعل المستمر بين الوسائل والأساليب يحقق الغزو الثقافى أهدافه بطريقة تشبه الربح المركب أو تشبه المتوالية الهندسية .

وجاء الفصل الثالث فصلا توثيقيا ودليلا على الارتباط العضوى بين الغزو الثقافى والغزو العسكرى ، وكان عنوانه دليلاً عليه ، وهو : المنشورالغربى وغزو العرب . فتناولت منشور الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م . درست بايجاز الخلفية التاريخية ، ثم الدراسة الوثائقية ، ثم نص المنشور ، ثم تحليل المضمون فيه . وكذلك فعلت مع منشور احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م . ومع المنشور البريطانى الذى طبع ولم يوزع على مصر عام ١٩٥٢ م . ومع المنشورات الإسرائيلية على لبنان عام ١٩٨٢ م . وذيلت هذا الفصل بملاحق لخطابات الصليبيين والتتار والبرتغاليين فى غزو العرب .

واختص الفصل الرابع والأخير بالمواجهة : استراتيجيتها ووسائلها . وفيه بدأت الحديث عن أهداف الغزو لأحدد استراتيجية المواجهة وأساليبها . وختمت هذا الفصل بالاتصال الثقافى لأنه ضرورة لنا لكى نعيش عصرنا وكى نعيش غدنا أفضل وأعمق وأكبر تأثيراً .

وكانت الخاتمة سطور التأمل لما أفضى به البحث من خلال فصوله الأربعة . وسطور التلمس للطريق الجديد الذى نخرج به إلى عالمنا نحن المعاصر لا إلى عالم الآخرين .

أما مصادر البحث ومراجعه فأرجو أن يلقى القارئ نظرة عليها فهى تبوح بما فيها من تنوع وثراء وأهمية . وكانت المقالات فى الصحف اليومية مصدراً نديداً للوثائق ودوائر المعارف وكتب المراجع فى بحثى هذا . وذلك لسببين : الأول هو اسهام المفكرين والكتاب فى الصحف إسهاما لا يقل فى أهميته عن اسهامهم فى التأليف ، والثانى أن طبيعة العصر جعلت من الصحف رافداً غزيراً فى البحوث المعاصرة ، وبخاصة مثل هذا البحث الذى يشترك فيه القارئ مع الكاتب حواراً ومساجلة وانتباهًا .

وبعد .. لقد استغرق هذا البحث منى بضع سنين وكنت أظن فى مطلعه أننى سأنجزه قبل ذلك بسنوات . ولكن البحث دائما إبحار من المعلوم فى المجهول ، وعندما ترسو سفينة البحث على الخاتمة ، وهى جزيرة الأحلام ، يبدأ الباحث فى الإعداد لحلم جديد عساه يكون خيرا لنا كافة .

والله المستعان وهو ولى التوفيق ،،،

د . محمد سيد محمد



الفصل الأول
ماالغزو الثقافى

عندما وصف الشاعر العربي القديم (زهير بن أبي سلمي)الحرب قال :

وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُم وذُ قْتُمُ   وما هو عنها بالحديث المُرَّجــمِ

متي تبعثوها تبعثـــوها ذميمـــةً   وتَضْــرَ إذا ضَرَيْتُمـوها فَتَضْـرَمَ

وهكذا أدْخلَ الشاعرُ مستمعية داخل إطار دلالة الحرب مباشرة ، ووضعهم أمام الصورة الذهنية عن الحرب بغير تكلف في كناية أو استعارة .

هل نستطيع سلوك سبيل الشاعر الجاهلي في إيلاج القارىء المعاصر إطار دلالة الغزو الثقافي مباشرة ، ووضع هذا القاريء أمام الصورة الذهنية عن الغزو الثقافي بغير إلْغازٍ في كناية أو استعارة ، وبغير تكلف ؟ .

لو أننا سلكنا سبيل الملاحظة لما يَبُثُّهُ إعلام الحضارة الغربية المعاصرة ، وما تنتجه هذه الحضارة من انتاج ثقافي ، لوجدنا أنه تعبير عن قيم وعن سلوك ، وتعبير عن بضاعةتشق طريقها إلي أسواق العالم في صُور أموالٍ (ربا وقروض ومعونات) أو سلع مادية أو خدمات ، وسبيل الملاحظة هذا يقدم لنا النماذج أكثر مما يضع لنا التعريف ، أو هويربط ما بين الظواهر والأسباب .

ولو أننا سلكنا مسلكا تاريخيا لنَفرزَ خيوط الغزو الثقافي في نسيج الصراع البشري منذ قتل قابيل هابيل إلي آخر نشرة أخبارٍ نُشَاهدها في التلفزيون أونستمع إليها في المذياع أو أخبار نقرؤها فى أعمدة الصحف ، لوجدناَ أن السبيل التاريخي يلتقى مع سبيل الملاحظة في ميدان النماذج والأمثلة .

ماذا لو سلكنا سبيل إقتفاء الأثر للصورة الذهنية ؟، وتتبعنا مصطلح الغزو الثقافي لدي المفكرين والكتاب المعاصرين ، وحللنا ونقدنا حصاد أقلامهم ، لنصل إلي دلالة واضحة لمفهوم الغزو الثقافي ؟، ولنصل إلي صورة ذهنية عن هذا المسمي أو المصطلح أو التعريف ؟ أعتقد أنه السبيل الأساسي البارز أمامنا لنصل إلي ما نريد ، فليكن ذلك طريقنا الرئيسى ،وتمدنا الطرق الأخري بمدد يضرب الأمثال أو مدد يفسر العلاقات السببية .

يُعَرِّف الدكتور عبدالله التركى (١) مفهـوم الغـزو الثقافـى مـن منـطلق إسلامـى

(١)د . عبدالله عبدالمحسن التركى - تحديد مفهوم الغزو الثقافى - محاضرة ألقيت فى ملتقى الفكر الاسلامى التاسع عشر بالجزائر (شوال ١٤٠٥ يوليه ١٩٨٥) .

فيرى أنه « كل فكرة ، أو معلومة ، أو برنامج ، أو منهج ، يستهدف - صراحة أو ضمنا - تحطيم مقومات الأمة الاسلامية :العقدية والفكرية والثقافية والحضارية أو يتحرى التشكيك فيها ، والحط من قيمتها ، وتفضيل غيرها عليها ، وإحلال سواها محلها ، في الدستور ، أومناهج التعليم ، أو برامج الإعلام والتثقيف ، أو الأدب والفن ، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة » .

والدكتور التركي يري أن أسباب الغزو الثقافي الواقع علي المجتمعات الإسلامية هي:

١ - أن النضال السياسي والعسكري ضد الاستعمار في العالم الإسلامي لم يواكبة جهاد مماثل - من حيث القوة والوضوح والجد والشمول ،ضد آثار الإستعمار وقواعد نفوذه الثقافية .

٢ - إن البدائل الثقافية التي تقررت - كثقافة وطنية - بعد رحيل الإستعمار ، كانت متأثرة بأفكار الغازى وثقافته يضم إلى ذلك «الثقافة الماركسية » وما تفرع عنها من أفكار ومصطلحات تدثرت بأردية وطنية في كثير من الأحيان والبلدان - قدمت نفسها كبديل للثقافة الرأسمالية الكنسية ، فأُشْرِبها قومٌ علي علمٍ ، وتأثر بها أخرون دون أن يعلموا .

٣ - الخلط بين العلوم التجريبية والمسائل الثقافية ، فاستقبلت فلسفات الحياة ومناهج الثقافة ومفاهيم الأدب والفن استقبال العلوم التجريبية: ترحيباً وتمثلا واستيعابا وحرْصاً .

٤ - طبعت معالم النهضة المعاصرة وبخاصة في المدن بطابع دخيل ، وذلك لأن قيما سكانية أجنبية عديدة - متعارضة مع القيم السكانية الإسلامية - قد غزت فن المعمار الإسلامي ، وسبب ذلك أن مصممي العمارة والمدينة في العالم الإسلامي وهم يخططون ويرسمون لم يستصحبوا قيم الإسلام وثقافته .

٥ - زاد الطين بلة التدفق الإعلامي الغربي وإعتماد الإعلام الإسلامي المحلي علي إنتاج الإعلام الغربي في كثير من مواده الإعلامية .

والدكتور التركي يري أن الغزاة حرصوا علي غزو العالم الإسلامي ثقافيا بأربع قضايا كلية هي :

١ - النظرة الغربية إلي الإنسان .

٢ - النظرة الغربية إلي الدين .

٣ - النظرة الغربية إلي الحياة ٠

٤ - النظرة الغربية إلي السياسة والإقتصاد ٠

وهو يؤكد بأن مفهوم النظرة الغربية الذي يعنيه يشمل النظرة الماركسية أيضا ٠

وعندما وجهت صحيفة الجمهورية القاهرية فى عام ١٩٦٨ سؤالا إلي نجيب محفوظ نصه [١] :هل تري أن هناك غزوا ثقافيا يجتاح العالم العربي ؟ ٠

قال : لا أحب أن أقرن كلمة الغزو بالثقافة ، قد يصح أن يكون سياسيا أو إقتصاديا ، أما الثقافة فهي حق لكل البشرية ،و الإنسان هو الذي يحولها إلي غزو ،و لايستحق كلمة الغزو إلا في حالة واحدة هي حالة تلقيه بسلبية بمعني التأثر به دون أن نُنَاقش وَنَنْقُد ونجعله غذاءً صالحا للنمو ، وربما المقصود بالغزو تلك الدعاية الإعلامية الموجَهة لأغراض سياسية معينة ، وهي شيء غير الثقافة . لأن الثقافة نشاط إنساني قد يوجد أو ينشأ في بلد لكنه حق الجميع ، وهو بالتفاعل مع العقول في مختلف أماكن الأرض يجب أن يكون معينا علي الإنتاج الثقافي وإثرائه .

ولما سألته الصحيفة عن الربط بين الإستقلال الفكرى و الإستقلال الإقتصادي ؟ أجاب بقوله : لا شك أن الإستقلال الإقتصادي قد يعمل علي الإستقلال الفكري ،و لكن قد ينتج أو يوجد استقلال فكري مع عدم وجود استقلال اقتصادي ، ونحن نملك هذا الإستقلال الفكري لأننا غير قاصرين ، ونجيد معرفة ما هو فى صالحنا وما فى غير صالحنا، والقضية هي أن نربي أجيالنا تربية استقلالية ، بمعني أن يتأثروا وينتفعوا دون أن يكونوا في حالة سلبية يتلقون بدون نقد وبدون تفكير .

ومن الكتاب [٢] من يعرفه بأنه الأسلوب الجديد «للامبريالية » العالمية الذي تحاول من خلاله ضمان استمرار هيمنتها وسيطرتها علي البلدان النامية ، من خلال ما أطلق علية بعض المنظرين الأمريكيين (البعد الرابع) ويعنون به إحكام النفوذ من خلال الثقافة بإعتباره بعداً جديداً ، يضاف إلي أبعاد السيطرة السابقة : الاقتصادية ،والسياسية ،و العسكرية ، ومن خلال التغلغل الثقافي ، يتم نشر مفاهيم ثقافية وفكرية معينة ، تخدم وجود الدولة «الامبريالية » ،حيث يتم مَسْخ الثقافة الوطنية ، وتشويهها،والاقناع بأنها ثقافة متخلفة لاتواكب العصر ومتطلباته الحضارية ، فيصبح كل ما هو أجنبي له السيطرة والتفوق ، وهو المثال والنمط الذي يجب أن يقلد في ميادين الحياة كافة ،الأدب والفن والموسيقي

(١) جريدة الجمهورية - بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٨٦ .

(٢) د . أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافى - مجلة الناقد - العدد ١٧ بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

وتقاليد الحياة اليومية ،من المسكن والمأكل والرقص ولغة التخاطب ، أو كما عبر عن ذلك الطيب صالح في روايتة (موسم الهجرة إلي الشمال) بقوله : «لقد أسسوا المدارس ليعلموننا كيف نقول نعم بلغتهم » . وبعد سنوات من هذه الممارسات والتغلغل الثقافي ، تصبح ثقافة البلد (ثقافة تابعة) للنمط الأجنبي ،وليست (ثقافة وطنية) تعبر عن خصائصها وسماتها القومية ، لذا فإن الغزو الثقافي من أحدث الاساليب « الامبريالية » لضمان فرض الهيمنة والتبعية ، لأن غزو العقول أخطر من غزو الأرض ،لأنه غزو غير منظور وغير مباشر ، مما يعني أن مكافحته أصعب وأقسي ،ويلاحظ أن الغزو الثقافي أو «غزو العقول » ملازم للقوة السياسية والعسكرية والإقتصادية ، مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأقوي في استعمال هذا الاسلوب ، وهذا ما يفسر العدد الهائل للوكالات والادارات والأجهزة الأمريكية العاملة في خدمة هذا الميدان ،وصولا إلي هيمنة النمط الأمريكي في السلوك والتفكير علي أوسع بقعة في العالم ، بما فيها أوربا ذاتها ».

ومن الكتاب (١) من يفرق بين مفهوم الغزو الثقافي ،و الاحتكاك المطلوب بين الحضارات ، فيفرق بين جانبين : جانب الثقافة الإنسانية الرفيعة التي تحمل بطبيعتها قيّماً إيجابية ، وجانب آخر ينذر بالخطر وهو البضاعة الرديئة التي تتزين بزي ثقافي وهي من الثقافة الحقيقية براء . والثقافة الإنسانية الرفيعة تحمل بطبيعتها قيماً إيجابية ففي ميادين الأدب والفن والفكر لايصح أن تثار فكرة مثل الغزو الثقافي ،لأن الأمر هنا هو تبادل خَلأّق ،ولا يتصور قيام ثقافة بإنغلاقها علي ذاتها ،وطردها لعوامل التأثير ،أي التفاعل النشيط في جو من إحترام الحرية وتقدير المسؤلية في وقت واحد .

والدكتور أحمد عبدالرحمن إبراهيم (٢) يختار تعبير الإحلال الثقافي لأنه أكثر دقة - في رأيه - عن تعبير الغزو الثقافي ،ومن خلال هذا الإختيار يُفَنّدُ الرأي القائل بأن الغزو الثقافي مجرد شبح لاوجود له ، ومن خلال هذا التّفنيد يَسُوق حيثيات من التاريخ الحديث علي النحو التالي :

● «إن لفظ (غزو) في هذا السياق لامحل له لأنه استعمال أريد له أن يُفْهَم علي نحو مجازي ، ولاينبغي أن يكون للمجاز مكان في تقريرنا للحقائق الموضوعية أو الظواهر

---

(١) إدوارد خياط - جريدة الجمهورية - بتاريخ ٢٧ - ١ - ١٩٨٦ .

(٢) د . أحمد عبدالرحمن - الغزو الثقافي . هل هو شبح أم حقيقة ؟ جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ /١٢/ ١٩٨٣

الثقافية والعبارة الصحيحة التي تصدق على الظاهرة موضع النظر هنا، هي (الإحلال الثقافي) وأعني به المحاولات الرامية إلي إحلال الثقافة الاوربية محل الثقافة الأصلية . ويلاحظ المشتغلون بالثقافة وتغيرها وتطورها أن الإحلال يمثل مكونا باطنا فى الثقافات البشرية فالثقافة - أية ثقافة - تميل بطبيعتها إلي التوسع وإلي تنحية الثقافات المنافسة جانبا ، والإنفراد بالنفوذ الفكري والإجتماعي والفني والأخلاقي .

● والدارسون لتاريخنا المصري الحديث يعلمون أن عملية إحلال الثقافة الأوربية محل ثقافتنا الأصلية لم تجر ضمن حدود التنافس الحر بين الثقافتين ،وأن تدخلا مؤثرا واسعا قد حدث لصالح الثقافة الأجنبية ،علي أيدي الفرنسيين الفاتحين في نهاية القرن الثامن عشر ، فلقد أدخل بونابرت من (البدع) الكثير ،الأمر الذي كان سببا في ثورات المصريين عليه ، كما يقرر (كريستوفر هيرولد) وكما قرر(الجبرتي) و(نقولا الترك) من قبل. ويذكر هؤلاء المؤرخون أن بونابرت حاول (ربط الشعب المصرى بالعادات والنظم الفرنسية)وأن الجنود الفرنسيين أستهتروا استهتارا خطراً بالآداب العامة وأن النساء خرجن (خروجاً شنيعا مع الفرنساوية) ، وبقيت مدينة مصر (أى صارت مدينة القاهرة) مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات ، والأشياء التي لا ترضي رب السماوات. وأنشأ الفرنسيون بعض الخمارات في المساجد وكان المصريون يتمنون الموت كل ساعة من شدة الحنق والغيظ . »

● وربما قال القائل إن هذا كله لا يعدو أن يكون مسلكا عاديا من جند فاتح غشوم، وليس فية إحلال ثقافي ، ولازلزلة للقيم الأصيلة ، ولاترويجا للعادات والأخلاق الفرنسية المناقضة ،ونقول له حسبك فلا يزال هناك الكثير، المصريون المعاصرون للأحداث أدركوا أنها عملية (فرنسة) لمصر ، والمؤرخون يشهدون بصدق إدراكهم ،و نحن لايسعنا إلا أن نقرر أنها كانت عملية إحلال ثقافي اصطناعي مخطط وليس مجرد تنافس حر (طبيعي) بين ثقافتين .

● واذا أردنا الحصول علي نسخة مكبرة لهذا الإحلال الإصطناعي ، فأمامنا «كمال أتاتورك » في تركيا ، لقد أعلن أتاتورك حربا حقيقية علي كل مظهر أو أثر أو شخص من شأنه أن يذكر الناس بثقافتهم الأصلية ، نكل بالزعماء والقادة ، وساق أتباعهم إلي أعواد المشانق .وبهذا تمت أوسع عملية إحلال ثقافي اصطناعي في التاريخ شملت العقائد ،والتشريع . و النظام السياسي ،والأخلاق ،والعادات ، والأبجدية ، والشعائر الدينية ،والأزياء ،وكل المظاهر الثقافية الأخري .

● ونعود إلي ديارنا لننظر جامعاتنا الحديثة ودورها في عمليات الإحلال الثقافى، لقد خطط المخططون للجامعة المصرية بحيث تكون طليعة متقدمة للثقافة الأوربية في مناهجها ،ونظمها وأساتذتها وطبقا لهذه النظم والمناهج وعلي يد هولاء الأساتذة تخرجت فيها ألوف

من الذين فتحت عيونهم علي فكر أوربي ،قديم أو جديد ،حتي سبقت إلي خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لافكر سواه ،لأن عيونهم لم تفتح علي غيره لتراه حسب توصيف الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود .ويستطرد أحمد عبدالرحمن قائلا : وأنا أتأمل هذا التوصيف الحاسم الصريح فألقاة يصدق علي القسم الذي تخرجت فيه إلي حد بعيد - وهو قسم الفلسفة بكلية الأداب جامعة عين شمس ، فقد قدم لنا القسم الفلسفة الأوربية ابتداء من «طاليس » و« أنكسمندريس » إلي « هيدجر » و«سارتر » ،وغفل عن إبن تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ،ودرسنا منطق أرسطو وحرمنا من دراسة نقد إبن تيمية له . وتخرجنا وفينا من يظن أن جمال الدين الأفغاني هو سفير باكستان في القاهرة ، ومحمد عبده لاعب كرة في نادي الترسانة الرياضي. تخرجنا وكلنا مصاب بالعَورالثقافي ،وبالانفصال الشبكي تجاه الحياة الثقافية في بلادنا ، في القديم والحديث علي السواء .»

وَمنَ الْكتّاب (١) من يُصَحح المفهوم - فيما يرى - فيقول بأنه لايوجد غزو ثقافى لأن المعرفة شيىء متوارث لايختص به شعب دون شعب وإلاتوقفت حركة الإستمرار الحضاري ، وأن هناك حوالى عشرين حضارة سبقت الحضارة المعاصرة ، وظهرت فى أماكن متعددة من العالم ، وكل حضارة ترث ما سبقها وتضيف إليه ، ويقول : ولكن أحب أن أصحح الكلمة ، الغزو الذي نتعرض له غزو إعلامى لاثقافى ، و الإعلام جزء من معركة السياسية ، الذي يؤهل لها الانتصار علي الإنسان نفسه ،وقهر قواه المعنوية ، وقد أستعمل هذا زمناً طويلا ، ولعل أبرزه ما عرفناه بأسم « الطابور الخامس » فى الحرب العالمية الثانية .

ومنهم (٢) من يقطع بأننا واقعون تحت استعمار ثقافى ، وأنه عندما بدأت أوربا تستيقظ من الغزو العربى ، وبعد أن علمتهم الحروب الصليبية إستخدام الإستعمار الثقافى مع الإستعمار السياسي فأرسلوا بعثات المستشرقين التى ظاهرها الاهتمام الزائد بالعرب ، لكن معظمها كان يعمل علي تغيير الفكر العربى لاستعماره ثقافيا ، تمهيداً للاستعمار السياسيى ، ويقول : لقد تخلصنا من الاستعمار السياسى ونحاول الآن التخلص من الإستعمار الإقتصادى ، ولكن ما زلنا واقعين تحت الإستعمار الثقافى :فلا توجد تراثية مطلقة ، ولاتغرب مطلق ، قد يتغلب جانب على الجانب الآخر لكن الاثنين موجودان .

ومن الكتاب من يطرح السؤال المباشر : ماذا أعنى بالغزو الثقافى ؟

ويجيب : « إننى أعنى بالضبط ذلك التفاعل غير الحر وغير المتكافىء المفروض بقوة نوايا الغزو وذلك بقصد واضح هو التأثير بشكل ما ،مقصود ومخطط ، يمارسه شعب فى ظروف

(١) فاروق خورشيد - جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٩٨٦ .

(٢) د .محمود ذهنى - جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠ /١/ ١٩٨٦.

تملكه لكل وسائل التقدم على شعب آخر فى ظروف افتقاره لمعظم وسائل هذا التقدم ، بقصد الالحاق الحضارى ، وفى المجال الثقافى فإن أخطر حلفاء الغزو الثقافى من الخارج هو التبعية الثقافية من الداخل التى تتضافر فيها عقد النقص أمام الأجنبى مع ظروف التخلف الداخلى ، حتى يصل الأمر إلى حد قد لا تعود معه القوة الخارجية بحاجة إلى أى مجهود إضافى لفرض سيطرتها الثقافية (أو غير الثقافية) ، بل تكتفى فى مرحلة ما بالتبعية الثقافية التى تكون دائرتها قد أحْكم إغلاقها تماما ،، [1] .

والدكتور « برهان غليون » [2] يقول إن مفهوم الغزو الثقافى يستخدم - فى مطلع العقد التاسع من القرن العشرين الميلادى - فى اللغة العربية أكثر من غيره للإشارة إلى حركة انتقال الأفكار والعقائد، والقيم والعادات الغربية بشكل مكثَّف وغير مسيطر عليه إلى المجتمعات العربية .ثم يمضى الدكتور « برهان » فى تعريف مصطلح التبعية الثقافية فيقول بأنها نمط العلاقة التى تجعل بعض الثقافات تعتمد إعتماداً بنيويا فى إنتاج القيم والمعانى والأفكار والمعارف التى تحتاج إليها مجتمعاتها على ثقافات أخرى تمارس تجاهها سيطرة ما ، سواء كان ذلك بسبب تفوق هذه الثقافات الموضوعى فى مقدرتها على مثل هذا الإنتاج أو بسبب إنعدام الثقة بالنفس لدى الثقافات الضعيفة ، وقد أطلق المفهوم بشكل أساسى على العلاقة بين الثقافات التقليدية والثقافات الغربية الحديثة ، ولكن التبعية ترتبط أيضا بالظواهر التى تفرزها علاقات التبعية هذه من إنعدام الإتساق داخل الأنساق الثقافية التابعة ، والميل نحو التحلل والتفكك الثقافى ، فالتبعية بما تمثله من علاقة غير متكافئة وسطوة معنوية للثقافات السائدة ،تُفْرِغ الثقافة المحلية من قيمتها الذاتية، وتجعل أنظمتها ولوائحها وأفكارها ورموزها جميعا مفتقرة للصدق فى نظر أصحابها، ومن هنا فإنها تدفع بالضرورة إلى نشوء ظواهر الإغتراب ،واهتزاز الشخصية،وأزمة الهوية،وليس التأكيد المتزايد على الهوية الثقافية لدى الشعوب النامية فى الربع الأخير من القرن العشرين إلارد الفعل المباشر على هذة الأزمة ومشاعرالقلق والخوف على الذات الثقافية.

والدكتور محمد عمارة فى كتابه «الغزو الفكرى وهم أم حقيقية لايضع تعريفا مباشرا لهذا المصطلح ،ولكنه يضع تصورا شاملا يجلى به وجه الحقيقة فى هذا الموضوع ، ويبدأ بقوله: إذا تصورنا وطنا من الأوطان ، بحدوده الجغرافية السياسية وشهدنا تحرك جيش هذا

---

(١) سليم سحاب - أثار الغزو الثقافى فى الموسيقى العربية - مجلة البحوث العدد ١٤ بتاريخ ابريل ١٩٨٥ - بغداد - المركز العربى لبحوث المستمعين والمشاهدين .

(٢) د. برهان غليون - الثقافة العربية بين التبعية والتبادل - جريدة الخليج بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٩

الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود فلن يكون ثمة مجال لحديث عن « غزو » لهذا الوطن لأن الحركة طبيعية ،فى الاطار الطبيعي للحدود الطبيعية. ثم يقول الدكتور عمارة : كذلك ،إذا تصورنا الخريطة السياسية ل «الدول » التى تقتسم أرض الكوكب الذى عليه نعيش ،ثم نظرنا إلي حركة الهواء وتيارات الرياح ،التى تعبر «حدود» هذه الدول ،وكذلك التيارات المائية التى تأتى إلى «المياه الاقليمية من المياه الدولية ،فلن يتسنى لقائل أن يصف عبور الهواء والماء لهذه الحدود بأنه غزو يستدعى المنع والانكار والإستنكار، ثم يتساءل : هل الفكر على هذا الكوكب الذى نعيش فيه بمثابة الهواء والماء لايعرف ولايعترف بالحدود ،ومن ثَّم فإن عبوره - سواء أكان بالهدوء أو بالاقتحام - لحدود الدول والأوطان ،لا يحمل شيئا من سمات «الغزو » التى تستدعى المقاومة ؟ أم أن هذا الفكرهو بمثابة « الجيش » لابد وأن يلزم إطار وطنه وحدوده ،فإذا تعدى الحدود كان غزوا يستحق المقاومة والإجلاء ؟وإلى هذه النقطة يصل الدكتور عمارة إلى سؤال وسط هو: أم أن من هذا الفكر ما هو بمثابة الهواء - الماء ،لايعرف ولايعترف بالحدود والسدود والقيود - ومن ثم فان عمومه لوجه الكرة الأرضية بدولها وأوطانها المتعددة لا يعد غزوا. ومنه ما هو بمثابة الجيش لا بد وان تتخصص حركته وتختص حريته بحدود دولته، دون أن يتعدى هذه الحدود ؟ هذا التصور يراه المؤلف مدخلا للإجابة عن السؤال : الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟.

ويدافع عن هذا التصور بقوله إن الذين يفكرون ويستنكرون وجود الغزو الفكرى معتبرين الحديث عنه مجرد وهم من الأوهام ،إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره وطناًواحداً لحضارة واحدة يسمونها حضارة العصر أو الحضارة العالمية ،ويتصورون الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات فى البناء الواحد لهذه الحضارة الواحدة ، ولهذا فإن عبور الفكر -كل الفكر - الحدود -كل الحدود -ليس فيه ،عندهم ،شبهة غزو ولاأثر عدوان . ويستطرد بقوله أما الذين يُفَكرُون أن يكون عالم اليوم ليس وطنا حضاريا واحداً لحضارة عالمية واحدة ،فإنهم يدعون إلى ضرورة احترام الحدود الحضارية ،لأن العالم فى تصورهم ،هو أقرب ما يكون إلى منتدى عالمى لحضارات متميزة ،تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى ،ومن ثُم فَإن بينها ماهو «مشترك حضارى عام» ،وأيضا فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً ،الأمر الذى ينفى الوحدة الحضارية ،ويستدعى الحفاظ على «الهويات » الحضارية المتميزة ،لالمجرد الحفاظ عليها - رغم أهميتها -إنما لأسباب وطنية ،وقومية وعقدية ،هذه الأسباب تؤدى دورا فى إنهاض الأمم من كبواتها وتراجعها، وفى شحنها بالطاقة المحركة للابداع كذلك فان الاعتراف بالتعددية الحضارية يكشف روح الهيمنة والعدوان والإستعلاء التى تخفيها الحضارة المتغلبة فى عالمنا المعاصر وهى الحضارة الغربية تحت ستار وحدانيتها وعالميتها ،وفى الوقت نفسه يجنب الأمم المستضعفة مأزق الحضارة الغربية فلاتعم مأساته كل بنى الإنسان .

وبناء على ذلك فإن الذين يعترفون بوجود الغزو الفكرى وينبهون إلى مخاطره يؤكدون على أن عالمنا أقرب ما يكون إلى منتدى عالمى لحضارات متميزة وأن الأمم المستضعفة حضاريا لابد لها من النضال الحضارى ضد نزعة التفرد والهيمنة التى تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة .ومن ثم فإن هناك حالات فى رأيهم- لتعدى الحدود الحضارية تمثل غزوا فكريا لاشك فيه .

والدكتور عمارة يرى أن الواقع - مع الفطرة - ينهض شاهداً على صدق هذا الرأى الأخير ، فيقول إن التمايز الحضارى والتعددية الحضارية التى لاتنفى واقع المشترك الإنسانى العام هى المذهب الذى يلتزم به ويزكيه ويبشر به .وهو ينكر تصور العالم وطناً حضارياً واحداً لأنه طريق التبعية الحضارية الذى يحولنا إلى هامش لحضارة الغرب ،والدكتور عمارة يذكر أيضا تصور العالم بأنه حضارات منعزلة تماما ،ومكتفية بذاتها كلية ،لأن هذا التصور يتجاهل الواقع المتمثل فى المشترك الحضارى الإنسانى ،وفى الوقت نفسه يقود الأمم التى تفرض العزلة الحضارية على نفسها إلى مايشبه الانتحار الحضارى إلى جانب عدم إمكانية سلوك مثل هذا الطريق مع ثمرات ثورة الاتصال التى تقتحم مغاليق النوافذ والأبواب على الأمم والشعوب .

ويخلص الدكتور عمارة إلى الموقف الوسط أو الموقف العدل الذى يرى أن من الفكر ما هو بمثابة الجيش لابد أن تلتزم حركته الحدود ،وإلاكانت هذه الحركة غزواً فكرياً تستوجب الرفض والصد والمقاومة والتحصين ،ومن هذا الفكر ما هو بمثابة الهواء لن يؤدى منعه من عبور الحدود -على افتراض تصور إمكانية هذا المنع - إلا إلى الاختناق .

والدكتور عمارة يضع كل العلوم الطبيعية والتجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات ضمن المشترك الإنسانى العام . ويضع العلوم التى تتخذ النفس الإنسانية موضوعها سواء فى الآداب أو الفنون أو العلوم ضمن الفكرالمتميز بالخصوصية الحضارية وباطار حضارى بعينه ،وتتميز مكوناتها وطبائعها ومفاتيح عوالمها بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات .ويصل الدكتور عمارة إلى نتيجة أو حكم أويضرب مثلا،وهو أن العالم أو المثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من النُّفُورأو الغربة أو الاستغراب ،إذا هو نظر فى الحقائق والقوانين التى أبدعتها الحضارة الغربية فى الكمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والطاقة وغير ذلك ،وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم فى الممارسة والتطبيق - كما أنه مستطيع - دونما حرج أو تعديل - أن يبدأ إبداعاته وإضافاته فى ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الإبداع الغربى فى ميادينها ،لأنه أمام فكر هو مشترك إنسانى عام ،لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر فى كثير من المكونات الثقافية التى هى طبيعية فى إطارها الغربى ،ففنون الغرب التى تحترم العرى ،بل تقيم تماثيله فى الميادين

والمتنزهات،وفلسفات هذا الغرب التى لاتحرم الحرية الجنسية طالماخلت من الجبر والإكراه والإغتصاب ،ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد ،ولاالدعوة إليهما والتبشير بهما والتى تؤسس علومها الإجتماعية والسياسية والإقتصادية على النزعة المادية التى ترى فى الإنسان سيداً لهذا الكون والمحور الحاكم باطلاق فى هذا الوجود.هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب وما ماثلها لابد وأن تثير فى نفسى العالم والمثقف المسلم من النفور والغربة والغرابة ما لا يجده عندما ينظر فى إبداع الغرب بميادين علوم المادة وظواهر الطبيعة ،لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب يجد نفسه بازاء خصوصية حضارية غربية .

وقد سبق للدكتور محمد عمارة أن كان مباشرا فى وصف الغزو الثقافى وإن لم يستخدم كلمتى الغزو والثقافة حيث ذكر « أنه منذ بدء الهجمة الإستعمارية الحديثة على ديار العروبة والاسلام وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدى ،وتميز ت عن غيرها من الموجات التى ابتليت بها أمتنا عبر تاريخها الطويل ، فهى لاتبغى فقط : السيطرة على التجارة الدولية ،ولا تقنع بالنهب الاقتصادى الإستعمارى ولا تكتفى بتفتيت وطن أمتنا ،لتحول دون وحدتها فقوتها فنهوضها ولاتقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربى والاسلامى إلى هامش أمن للغرب ،لاتكتفى هذه الهجمة الإستعمارية بكل ذلك ،بل إنها تسعى إلى سحق شخصيتنا القوميةالخاصة ،ومسخ هويتنا الحضارية المتميزة ،والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة استقلالهاالحضارى المفقود وَرأَتْ فى تحويلنا إلى هامش حضارى للغرب ،الضمان لبقائنا هامشا فى الأمن والإقتصاد (١).

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافى فى البحث لابد من إجلاء معنى الإتصال الثقافى، لأن الخيط الفاصل بينهما هو الخيط الذى يحدد هوية كل منهما. وبقدر الإحكام فى تحديد هذا الخيط وتميزه يكون الصواب فى التعريف وفى التطبيق بين المفهومين المتناقضين : الغزو الثقافى - الإتصال الثقافى .

وَيُقْصَد بالإتصال الثقافى أو الإتصال الحضارى - وهما تعبيران يعبران عن حقيقة واحدة - إتصال ثقافة أو حضارة بثقافة أخرى أو بيئة ثقافية أخرى أو بحضارة أخرى أو بيئة حضارية أخرى بغَضٍّ النظر عن مستوي الثقافة أو درجة التطور الحضارى فى الْمُتَصِل (بكسر الصاد) أو المتُصَل به (بفتح الصاد) وكلا التعبيرين فى الحقل الإعلامى يقصد به الدائرة الأوسع فى الإتصال بين البشر التى تبدأ بالاتصال الذاتى وهو اتصال الإنسان بنفسه ، ثم الإتصال الشخصى وهو اتصال الإنسان بأصدقائه وأهله وزملائه ، ثم الإتصال الجماهيرى مثل الإتصال

(١) د . محمد عمارة - ماذا يعنى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية ؟ دار ثابت - القاهرة - ١٩٨٣ ص ٣ .

بجماهير غفيرة عن طريق التليفزيون والراديو والصحيفة،ثم الإتصال الثقافى أو الحضارى الذى يمثل أوسع دوائر الإتصال .

ويشترك المفهومان المتناقضان : الغزو الثقافى - الاتصال الثقافى فى إستخدام وسائل الإعلام ، ولكن ذلك لايعوق الفصل بينهما ، بل إن لكل منهما وسائل يختص بها غيرالوسائل المشتركة ،والتداخل بين النقيضين يبدو ظاهريا فحسب ،لأن الفروق الرئيسية بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافى شديدة الوضوح . هذه الفروق هى الخيط الذى يبين لنا بيانا جَلياً هوية كل منهما .

ويمكننا أن نُجْمل هذة الفروق الرئيسية فى ثلاثة فروق هى :

١ - الإكراه و الإخضاع فى الغزو الثقافى ،وفى المقابل التلقائية والإيجابية فى الاتصال الثقافى ،مبدأ الحرية إذن هو المبدأ الأول الذى يفرق بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافى ،وكما ينص القرأن الكريم (لاإكراه فى الدين) نقول لاإكراه فى الثقافة .

٢ - خلق الاستعداد للانفصال عن الجذور الثقافية والحضارية الوطنية بل والتنكر لها وإحتقارها فى الغزو الثقافى ،وفى المقابل خلق روح الإنتقاء والمفاضلة فى الاتصال الثقافى .مبدأ عدم التنكر للتراث الحضارى والثقافى والإنتقاء فى الوقت نفسه يمثل (بشقى عدم التنكر من جانب والإنتقاء من جانب آخر) المبدأ الثانى الذى به نفرق بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافي .

٣ - صياغة العقول فى الغزو الثقافى ،وفى المقابل الإضافة واستكمال البناء العقلى فى الإتصال الثقافى ، هذا هو المبدأ الثالث الذى نفرق به بين المفهومين المتناقضين مفهوم الإتصال الثقافى - مفهوم الغزو الثقافى .

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافى بعد أن أمسكنا بخيط يفصل بينه وبين نقيضه ينبغى أن نقلب النظر فى المحاولات السابقة لصياغة تعريف محدد، غير التعريفات التى وردت فى سياق أقوال المفكرين التى عرضناها ،ولأن أسماء الغزو الثقافى متعددة وربما هى أسماء أشكاله المختلفة فإننى أعتبر مصطلح الحرب النفسية هو أكثر الأسماء حظاً فى محاولات التعريف ومرد ذلك - عندى - أن الحرب النفسية جزء من حرب الإنسان للإنسان التى واكبت رحلة البشرية على ظهر الأرض .

ولقد حظى مفهوم الحرب النفسية بسيل من المسميات منها ما يشترك فيه مع مفهوم الغزو الثقافى ،فمن المسميات التى أطلقت على الحرب النفسية : غسيل الأدمغة ، حرب الأعصاب ، الطابور الخامس ،الحرب السياسية ، النضال من أجل الحصول على عقول الرجال

وإراداتهم ، حرب الأفكار ، الحرب الباردة ، حرب الكلمات .

وبرغم أن محتوى الحرب النفسية قديم قدم صراع الإنسان مع الإنسان ، وَقِدَمَ الحرب البشرية ذاتها إلا أن المصطلح حديث العهد ، فهو ينتمى إلى القرن العشرين الميلادى ، والتعريف العلمى للحرب النفسية لم يستقر حتى الآن وقد قارب القرن العشرون على الانتهاء . بل إن هذا المصطلح بدلالاته ومعناه لم يدخل مجال البحث العلمى والجامعات إلا قليلا ، وإنما ظل مطروحا على خبراء الدعاية وخبراء التعبئة المعنوية فى الجيوش ، ولم يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يضعوا تعريفا جامعا للحرب النفسية ، لأنهم يفكرون فى الوسائل والغايات أكثر مما يفكرون فى جوهر العلم نفسه .

ويمكن القول بأن تعبير غسيل العقول (١) أو غسيل الأدمغة أو غسيل المخ هو فى جوهره تشكيك فرد أو جماعة ، وزعزعة يقينهم بمختلف الوسائل ، حتى تذيب صلابة العقائد الراسخة والأفكار الثابتة فى عقولهم . ثم الوصول بهم إلى مرحلة الحيرة والشكوك ، وبعد ذلك على الفور تبدأ عملية غرس الأفكار الجديدة والمعتقدات التى تحل محل اليقين القديم ، وباستمرار العمل تثبت الأفكار الجديدة والمعتقدات التى تم غرسها . ويتصرف الفرد أو الجماعة وفق هذا الغرس الجديد .

وثمة تعريف لغسيل الأدمغة أو قتل العقل بأنها العملية التى توجد خضوعا لاإراديا ، تجعل الناس تحت سلطان نظام " لا تفكيرى " وتجعل الناس فى غمرات رقٍ آلى لا حيلة لهم فيه(٢) .

وكما كان الخيط واضحاً بين الغزو الثقافى والاتصال الثقافى فى النقاط الثلاث التى أوردناها للتفرقة بينهما فان الخيط نفسه يفرق لنا بوضوح بين غسيل الأدمغة وبين التثقيف العقائدى مثل التوجيه الدينى والتعليمى والاجتماعى . فَصْلُ الخطاب بين التربية العقائدية أو التثقيف العقائدى وبين غسيل الدماغ هو حرية الإرادة فى الاختيار والاقتناع، وهو فى الوقت نفسه عرض الأفكار المقابلة والرد عليها ، وكلا النقطتين يتطلب إعمال العقل ، فاذا تم التلقين عن طريق سلب الإرادة وإخفاء الأفكار المقابلة ، كان غسيلا للدماغ ، أما إذا تم بالإرادة الحرة وبعرض الأفكار المقابلة ، والرد عليها فهو تثقيف عقائدى أو تربية عقائدية .

---

(١) د . محمد سيد - المسئولية الإعلامية فى الإسلام - مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٨٣ ص ١٥٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٣ .

وإلى جانب مصطلح الحرب النفسية ظهر مصطلح " غسيل المخ " أو الدماغ ويقول " دينيس ون " (١) Denise Winn فى مقدمة كتابه العقل المُسَخَّر أو المُضَلَّل The Manipulated Mind لقد ظهر مصطلح " غسيل المخ" مطبوعا لأول مرة فى مقال نشرته صحيفة " ميامى نيوز " Miami News فى سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وكان إدوارد Edward Hunter هو الذى صك هذا المصطلح ترجمة للكلمة الصينية " هس - ناو " التى تعنى " غسيل المخ " وقد أستخدم هذا المصطلح فى مقال " إدوارد " ليقول بأن القادة الصينيين إستخدموا بعد الثورة الصينية أساليب اقناعية لم تعرف من قبل ، لإجبار الصينيين على الإنضمام إلى الحزب الشيوعى ، وتناول " هانتر " هذا المصطلح بعد ذلك فى مقالات عديدة ، ثم شاع هذا المصطلح " غسيل المخ " واتسع مدلوله ، وكما يقول " دينيس ون " : لقد أنطلق مصطلح غسيل المخ ، وتمت ممارسته على نطاق واسع على جمهور لديه استعداد لتقبل الأفكار ، ولكن كانت صدمة كبيرة أن يتحول الشبان الأمريكيون الذين تم أسرهم فى كوريا عن الخط الوطنى بنسبة كبيرة ، لقد اختلف عدد الجنود الذين تحولوا إلى الجانب الآخر بعض الشىء طبقا لقوة ورصانة المصادر المختلفة للمواد التى تعرضوا لها .

وقد وجد بعض الكتاب أمثال جوست ميرلو Joost Meerloo الخبير فى علم النفس والذين كانوا يخشون من أثار التلاعب بعقول الجماهير - أنه من بين ٧١٩٠ أسير أمريكى فى الصين استجاب ٧٠ ٪ منهم للدعاية الشيوعية . وأدلوا بتصريحات أو وقعوا إلتماسات تدعوا إلى إنهاء الحرب ، وذلك على الرغم من أن قليلين منهم ظلوا شيوعين بعد الحرب ، وبعد عودتهم إلى الوطن .

وفضلا عن ذلك هناك روايات أخرى تشير إلى أن ثلث أسرى الحرب الأمريكيين يؤيدون القضية الشيوعية ، وكان هذا الرقم كبيراً بما فيه الكفاية كى يدفع الأمريكيين إلى قبول تفسير غسيل المخ ، وان ينبههم إلى أن قليلين من أسرى الحرب البريطانيين والأتراك الذين عانوا من المعاملة نفسها استسلموا وكفوا عن المقاومة . إن أسرى الحرب

(1) Denise Winn - The manipulated mind : Brainwashing ,Conditioning And indoctrination - the octagon press - London - 1983 P.1-5

الأمريكيين العائدين أصبحوا ظاهرة صالحة للدراسة من جانب العديد من الأطباء النفسيين والإخصائيين الإجتماعيين الحريصين على حل رموز (لغز) ما هو غسيل المخ ؟ وإذا لم يكن هناك غسيل مخ فقد كانوا يرغبون فى معرفة ماذا حمل أولادهم على تخفيض ولائهم للرئيس وللبلاد بدرجة كبيرة ؟ .

ولكن " دينيس ون " يكشف لنا فى هذا السياق أمراً بالغ الدلاله حيث يقول : " لقد أفترض كثير من المحققين للأحداث فيما بعد أن الفزع من " غسيل المخ " رعته وشجعته وكالة المخابرات الأمريكية CIA فقد كان هانتر الذى ابتدع المصطلح موظفا فى وكالة المخابرات الأمريكية عندما كتب عن المصطلح ولم يكن صحفيا فحسب ، وإنما كان متخصصا فى الدعاية ، وعمل إخصائيا فى الحرب النفسية فى " البنتاجون " .

ويمضى " دينيس ون " فى مقدمة كتابه فيقول : لقد هيأ " هانتر " الأذهان فى كتابه الأول لنقل رسالة تفيد بأن الولايات المتحدة تتعرض لهجوم من جانب عدو يستخدم تكنيكات للسيطرة السرية على العقل ، وأنه يمكن فقط من خلال أنشطة سرية مماثلة إزالة هذا التهديد ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا يبحث فى أنشطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عندما درست احتمالات استخدام التنويم المغناطيسى والبرمجة والمخدرات وغيرها للسيطرة على العقل ، ويبدو من الكتب التى تناولت هذا الموضوع أن جهود وكالة المخابرات الأمريكية انتهت إلى التشوش بدلا من الوصول إلى نتائج واضحة . لقد كان من الأشياء التى لها صلة بالموضوع دراسة أصل كلمة غسيل المخ لأنها حالة هامة لكلمة تم ابتكارها لتعبر عن مفهوم معين ، وهكذا بدلا من أن يصبح المفهوم هو بؤرة الدراسة ، أصبحت الكلمة نفسها هدفا للاهتمام .

لقد أهتم كثير من خبراء الاجتماع والمحققين الجسورين بهذا الموضوع . فركز البعض على إثبات أن العقول لا يمكن غسلها . وأنتهت المسألة بالنسبة لهم . واستنتج البعض الآخر أن غسيل المخ هو " تكنيك " قوى ومتغلغل يسمح بالهيمنة والسيطرة على الفرد أولا ، ثم على العالم . أما جوست ميرلو oost MeerloJ فَيُطْلق عليه " التكييف السياسى " Political Conditioning " ويقول : يجب ألا يخلط بين التكييف السياسى أو التدريب أو الاقناع أو حتى التلقين . إنه أكثر من ذلك ، إنه ترويض ، إنه السيطرة على كل من الأنماط العصبية البسيطة والمعقدة للإنسان ، إن " الديكتاتور " يريد أولا تحقيق الإستجابة المطلوبة من الخلايا العصبية ، ثم السيطرة على الفرد ، وأخيرا السيطرة على الجماهير .

وهناك وجهة نظر لكل من " شيفلين " وأوبتون : أن غسيل المخ كان ومايزال كلمة عاطفية ومفزعة تستخدم فقط لمنعنا من مواجهة التشويش ، أو الحقائق البغيضة .

وكلما برزت قضايا أو موضوعات تتعلق بإغواء الناس أو إجبارهم على الإنضمام لجماعات

عقائدية أثيرت الأسئلة المعتادة حول غسيل الدماغ أو " غسيل المخ " . وَتُطْرَحُ الأسئلة من جديد : ما هو بالضبط غسيل المخ ؟ هل من الممكن إجبار أى إنسان على تبنى نمط حياة يختلف تماما عن ميوله المفترضة ؟ كيف يختلف غسيل المخ عن التلقين ، أو عن التأثيرات الإغرائية المسيطرة للاعلان ، أو عن النظام التعليمى ؟ أم أن كل هذه الأمور شىء واحد ؟ .

يجيب " دينيس ون " بأن تحليل مصطلح غسيل المخ لم يُقْبَل باعتباره مصطلحاً فنياً ، وهذا ما جعل تحليل المصطلح أمراً فيه صعوبة . والمصطلح الذى عبر عنه " هانتر " عبارة عن صورة أولية انطباعية (اسكتش انطباعى) تظهر أحيانا وتختفى فى أحايين أخرى مع السنين ، وطبقا للميول والدوافع ، ولكن هذه الصورة لها أجزاء أساسية محددة جدا ، بدونها لا يمكن رؤية الصورة كاملة ، أما بالنسبة للبعض الآخر فإنها لوحة ضبابية ، وكل الحياة الإنسانية مخبأة فيها . ويشرح وجهة نظر " دينيس ون " استشهاده بدراسة موسعة أجراها " روبرت ليفتون " فى " هونج كونج " على عدد من المدنيين الغربيين والصينيين الذين حاول الصينيون تحويلهم إلى الشيوعية بعد الثورة ، ونشر نتائجه فى " اصلاح الفكر وسيكولوجية الشمولية " وقدم لنا نقطة هامة فى مقدمته يقول فيها : وراء هذا الملف الضخم من التشوش فى الدلالة اللفظية وغير اللفظية تكمن صورة لغسيل المخ كأسلوب قوى لا يقاوم ، وطريقة سحرية لا يمكن سَبْر أغوارها لتحقيق سيطرة كاملة على العقل البشرى ، إنه بالطبع ليس شيئا من هذه الأشياء ، ولكن استخدام المصطلح على نطاق واسع يمثل منطلقا للخوف والإستياء يدفع إلى التسليم وتبرير الفشل ، والاتهام غير المسئول ، وسلسلة واسعة من التطرف العاطفى ، وقد يستنتج الفرد أن الكلمة بعيدة عن أن تكون ذات فائدة محددة ، وأنه قد يجد من الأفضل نسيان كل شىء عن الموضوع ككل . وأن نفعل هذا معناه إغفال واحدة من المشكلات الكبرى فى عصرنا ، ألا وهى " سيكولوجية " المحاولات الموجهة إلى تغيير البشر وأخلاقياتها . وعلى الرغم من تقلبات معانى غسيل المخ ، فإن العملية التى أعطت إزدهارا وبروزا لهذا الإسم هي حقيقة .

تمثل هذه التحليلات وهذا الطرح الذى أورده " دينيس ون " عن " غسيل المخ " الصورة الذهنية للغزو الثقافى فى الأدبيات الأمريكية أو فى الكتابات الأمريكية بصفة عامة .

وفى الجانب الآخر من هذا التصور الأمريكى لغسيل المخ ، لا يري الوعى الأمريكى بصفة عامة ، أو الوإجدان الأمريكى عامة ، أن سيل التدفق الثقافى والاعلامى الأمريكى إلى العالم يمثل غزوا ثقافيا .

ويدلنا جميل طراد (١) على جذور الفكرة الأمريكية في هذا الصدد فيقول : لقد صاغ " جون أدمز " الرئيس الثانى للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٩٧ - ١٨٠١) فى وقت مبكر النزعة

(١) جميل طراد - الغزو الثقافى الأمريكى لأوربا وللعالم الثالث- مجلة الوحدة - العدد ٣ بتاريخ ديسمبر

الأمريكية للتدخل عالميا فى عبارة شبه توراتية (أى عبارة رسالة مقدسة) بقوله «إن قَدَر جمهوريتنا ، النقية الفاضلة ، هو أن تحكم الكرة الأرضية وتُدَخِل إليها كمال الإنسان»، ومن بعده قال الرئيس "كنيدى " إن الأمريكان هم الحراس على أسوار حرية العالمُ ، ثم قال الرئيس " كارتر " إن الزعامة العالمية التى آلت إلى الولايات المتحدة يجب أن تؤسس بصلابة على احترام العالم وإعجابه بالمزايا الرفيعة لأمتنا ، الدليل الهادى في مملكة الأفكار والروح ، وقد عبر(بريجنسكى) المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى عن هذه الروح الأمريكية بوصفة لبلاده بأنها المركز الفكرى للعالم، مركز الفنون والعلوم والأقتصاد ، وهذه النزعة الزعامية الأمريكية تري فى التطور " التكنوتروني " أى التقدم فى " التكنولوجيا " وفى " الألكترونات " تطوراً محايداً برغم نتائجه الثقافية ، فى تجاوز السيادة القومية ، لأية اوطان أو مجتمعات ، وعلى أساس هذا التصور الأمريكى فإن الرسالة الأمريكية باسم حيادها " التكنولوجي " تدعى لنفسها حق تجاوز أو تحطيم جميع العقبات التى قد تقيمها الدول القومية هذه الدول المتعلقة بالماضى أمام التطور " التكنوتروني " ، وقد أفصح " جون ايجر " Eger الرئيس الأسبق للمكتب الإتحادى للإتصالات ، والمستشار للرئيسين السابقين " نيكسون " وفورد " إفصاحاً صريحا عن ذلك المعنى بقوله : إن الولايات المتحدة الأمريكية ملزمة حرصا منها على الصالح المشترك للإنسانية ، وعلي نقاوة المجال " الاستراتيجي " الجديد الذي أوجدتة الثورة " الإلكترونية " فى مجال الاتصالات الدولية عن طريق الأقمار الصناعية ، ملزمة بتحطيم الحواجز التى تُنقَى الإعلام أو تمنعه وملزمة بالغاء رقابة الدول على كل إعلام .

ويذهب " كارل روان " Rowan ، وأحد السفراء الأمريكيين ثم مدير الوكالة الأمريكية للإعلام Usia إلي القول صراحة : إننا بنشر ثقافة الولايات المتحدة نساعد على تحقيق أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، فليس لنا من مهمة أخرى . ولقد كان " فيليب كومبس" وهو أول من شغل منصب مساعد وزير الخارجية للشئون الثقافية والتربوية أول من صاغ نظرية البعد الرابع في النشاط الدولى ، فإلى جانب الأنماط الثلاثة من النشاط الدولى التقليدى : الدبلوماسى ، والعسكرى والإقتصادى ، تضيف الحكومة الأمريكية بعداً رابعاً هو العلاقات الثقافية .

ويختم جميل طراد هذه الحيثيات الأمريكية بقوله : ليس المطلوب عند الأمريكيين أقل من تكوين وعى عالمى عن طريق إتصال عالمى ، ولكن هذا الوعى العالمى الذى يتنافى مع كل حدود قومية ، ومع كل " أيدلوجية قومية " ، يفترض فيه فى الوقت نفسه أن يتسع على رحب لاستيعاب الرسالة الأمريكية ، فهنا القومية لاتتنافى مع العالمية ، لأن أمريكا هى العالم ، ولأن التربية العالمية هى جزء لايتجزأ من الحلم الأمريكى ، ولأن الثقافة الأمريكية هى طليعة التقدم ، سواء كانت الثقافة الأمريكية خفيفة أو عميقة ، وسواء كانت تعبيراً عن خير ،أو أسوأ ما لدى الأمريكيين

فمن الواضح أنها تشكل قوة هائلة تعيد صياغة الثقافات القديمة ، والحياة اليومية للشعوب الأخرى وتُقَوْلب مسالكها وفق مثال الولايات المتحدة وسياستها .

هذا التصور الأمريكى لنفى مقولة الغزو الثقافى بسبب التطور " التكنولوجى " والالكترونى يتبناه بعض العرب مختلطا بشوائب التبرير ومحاولات التوفيق غير العلمية وغير الصحيحة ، مما يجعل الأصل الأمريكى أوضح وأكثر تماسكا .

يناقش " راجى عنايت " (١) كتاب الغزو الفكرى وهم أم حقيقة للدكتور محمد عمارة فيقول: وقبل أن نناقش أفكار د. عمارة التى طرحها فى كتابه هذا لابد من طرح بعض الأساسيات التالية :

- جميع الأديان السماوية ، بما فى ذلك الإسلام ، وجميع العقائد غير السماوية ، ظهرت كلها فى عصر الزراعة ، الذى تواصل لما يقرب من عشرة آلاف سنة .

- كلما نشأ مجتمع زراعى ، قامت الحياة على أسس ومبادىء واحدة ، هى أسس ومبادىء عصر الزراعة ، سواء كان هذا المجتمع فى أسيا أو أفريقيا أو أوربا أو أمريكا أو أستراليا .

- أسس ومبادىء المجتمع الزراعى كان لها التأثير الأول على حياة البشر وعلى أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم . كانت الأرض هى أساس الإقتصاد والحياة والثقافة ونمط الأسرة والنشاط السياسى . وفى كل مجتمع زراعى كانت الحياة تنتظم حول القرية ، مع الإلتزام بتنظيم بسيط للعمل ، وتبلورت فئات و طبقات محدودة . وفى كل منها كانت السلطة شاملة يخضع فيها الفرد خضوعا كاملا لمصلحة الجماعة وفى كل منها كان مولد الإنسان يحدد وضعه فى الحياة ، وكان الإقتصاد غير مركزى ، بمعنى أن كل مجتمع كان ينتج معظم احتياجاته .

- رغم كل هذا ، ومع الإلتزام به ، قامت حضارات عديدة على مدى عصر الزراعة ، فى أنحاء مختلفة من العالم . وقد تمايزت هذه الحضارات ، وكانت لها خصوصياتها .

وقد تحاربت هذه الحضارات وقامت واندثرت وتقاربت واندمجت ، لكنها كانت دائما تشترك فى خاصية أساسية ، وهى أنها نابعة من مبادىء المجتمع الزراعى . وكانت الحضارة الإسلامية واحدة من بين هذه الحضارات ، ولم تكن - على حد قول دكتور كمال أبو المجد - نتوءا فى التاريخ

- كانت الثورة الصناعية نقطة تحول فى تاريخ البشر ، بالضبط كما كان قيام المجتمع الزراعى نقطة تحول بعد عمر طويل من الصيد والقنص .

- قام المجتمع الصناعى على أسس جديدة ، مناقضة للأسس التى قام عليها المجتمع الزراعى ، ومن ثُم مناقضة للأسس التى قامت عليها الحضارات السابقة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية .

(١) راجي عنايت - مستقبليات - الفكر الجيش والفكر الهواء - مجلة المصور - بتاريخ ١٩٩٠/٤/٦ .

وأيضا ، كما حدث فى عصر الزراعة ، كلما قام مجتمع صناعى جديد ، فى الغرب أم فى الشرق ، في الشمال أم فى الجنوب ، خضع ذلك المجتمع لأسس ومبادىء الصناعة فى مختلف مجالات النشاط البشرى .

- كان التوسع الإستعمارى سمة أساسية ، وحاجة ملحة . بالنسبة للدول الصناعية ، لقد كان نموها يقتضى أن تضع يدها على ما تستطيع من المواد الخام والوقود المتوافر فى الدول الأخرى ،بالإضافة إلى حاجتها إلى الأسواق الأوسع ، والأيدى العاملة الأرخص ، من أجل هذا قامت الحروب الإستعمارية للتسابق على تقسيم هذه الخيرات .

- لما كانت النمطية ، أو السعى إلى القولبة والتوحيد القياسى ، سمة أولى من سمات المجتمع الصناعى ، فقد حرصت الدول الصناعية على تنميط الحياة فى الدول الزراعية التى استعمرتها ، تسهيلا لنشاطها ، وفرضت بذلك على دول الحضارات الزراعية السابقة أسس ومبادىء المجتمع الصناعى ، حتى قبل أن تنشأ أى صناعات على أرض هذه الدول . وخلقت بذلك كل التناقضات ، التى قادت إلى " القضايا - المشكلة " ، فى حياة أبناء الدول الزراعية.

هكذا يفرض " راجى عنايت " أساسيات من عنده ليس لها سلطان من العلم وليست لها علاقة بالموضوع . ثم يقول بعد هذا ، نعود لننظر فى مسألة " الغزو الفكرى " . ما الذى يجعلنا نحس بها هذه الأيام بهذا القدر من القوة ، مع أننا تناولناها برفض طوال سنوات الغزو الفكرى الحقيقى على إمتداد قرون الصناعة ؟ هل هى صحوة إسلامية خاصة . أم أنها جزء من صحوة عامة لجميع أبناء الحضارات الزراعية ، أصحاب العقائد والأصول العرقية المختلفة ، الذين أكْرِهُوا على الخضوع لنمطية عصر الصناعة .

الشواهد من حولنا تقول أن تسارع المعلومات وتدفق المعارف ، خلق واقعاً فكرياً بشريا جديدا ، يُخْرِجَ البشر من شرنقة النمطية إلى عالم من بدائل التنوع والتعدد والحفاظ على الذات ، ليس إستجابة لكفاح معين ، ولكن لأن صالح المجتمع الجديد الآخذ في التشكيل يقتضى هذا ، ونحن فى مواجهة هذا الوضع - الذى ليس لنا فيه فضل حتي الآن - نكون أمام أحد خيارين :

● أن ننتهز فرصة خروجنا من شرنقة النمطية ، لكى نسرع بالإرتقاء فى أحضان الماضى العزيز ، الذى افتقدناه طويلا . ونحاول أن نعكس حركة التاريخ ، فنفرض قيم المجتمع الزراعى الذى ينبع منه ذلك الماضى على المجتمع الجديد .

● أن نفهم طبيعة المجتمع الجديد ، وأن نفهم على ضوء ذلك حقائق واقعنا الحالى بأمانة ، ثم نُخْضِع القيم القديمة التى نعتز بها لأصول التفكير النقدى ، لنرى ما إذا كانت تتناقض مع مسار التاريخ أم تتوافق معه ، ثم نرسم رؤيتنا المستقبلية الخاصة التى تقودنا إلى مجتمع الغد ، والتى

تنسجم مع أفضل ما فى وجداننا .

المهم ، أننا سنكون أحرارا فى إختيار أى من الطريقين . لماذا ؟ لأن المجتمع الجديد بطبيعته وبعكس المجتمع الصناعى ، لا يؤسس مصلحة الدول المتطورة على فرض واقعها وتعميم أفكارها على الدول الأخرى . هل تعرفون معنى هذا ؟ معناه أن العالم سيتركنا لكى نَتَخَلف اذا كان هذا هو اختيارنا ، ولا أعتقد أن تخلفنا فى هذه الحالة سيؤرقه كثيراً . ومعناه أننا نتخلف هذه المرة بمحض إختيارنا ، وليس كما حدث من قبل عندما فرضت علينا الدول الصناعية ذلك التخلف الذى نعيش اليوم آثاره .فى هذا المجال ، لن يفيدنا القول بأننا سنقف موقفا «وسطا » بين التخلف والتقدم ، بدعوى أن حضارتنا العربية الإسلامية تعتمد الوسطية ويهمنى هنا أن أسجل أن معنى التقدم والتخلف الذى أقصده يتخلف تماما عن المعنى القسرى الذى فرضة عصر الصناعة (أو الغرب على حد قول د . عمارة) هذا المنطق ، منطق المتوسط الحسابى للنقيضين . يمكن أن يكون مهربا مريحا عند غياب الفهم الحقيقى للنقيضين والكثير من أمور الحياه لاتحتمل ما نطلق عليه تعبير « الوسط - العدل »وإلا .. فما هو الرأى فى الموقف الوسط بين الايمان والإلحاد ؟ .

إلى هذا الحد يقع الخلط والتخليط فى مقال راجى عنايت عندما يفهم الوسطية فى السلوك بأنها وسطية فى الإعتقاد ،أو على الأقل عندما يوازى بين الأعتدال في السلوك وبين الإيمان بالله الواحد الأحد .

ومن الغريب أنه يصف منطق د. محمد عمارة بالتناقض فيقول : من هذا المنطق يقع د. عمارة فى كثير من التناقضات ، فهو يقبل مثلا أن نأخذ من الغرب (يقصد من الحضارة الصناعية) شكلها الذى إبتدعته لمؤسساتها النيابية والديمقراطية ، باعتبار أن هذا الشكل هو مجرد (وعاء) يمكن أن نضع فيه ما نحب من المضامين والمثل . وهذا القول فيه تجاهل لحقيقة أساسية ، هي أن نظام التمثيل النيابي نبع من إحتياجات المجتمع الصناعي ، الذى يقوم على أسس ومبادىء تختلف عن الأسس والمبادىء التى قامت عليها جميع الحضارات الزراعية .لقد وقفت الدول الزراعية فى ممارستها الديمقراطية عند حد " الشورى " لأن طبيعة المجتمع الزراعى لم تكن تحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك ، لهذا لم يشر الإسلام إلى " ما هو أبعد من ذلك . فكيف يتصور د. عمارة إمكان تطبيق التمثيل النيابى على المجتمع العربى والإسلامى ، فى إطار الثوابت التى يتمسك بها ؟ لقد جاء التمثيل النيابى كشكل للممارسة الديمقراطية نتيجة للظروف الخاصة التي اقتضاها نمو المجتمع الصناعى . وجاء هذا الشكل متوافقا مع عقائد ومبادىء المجتمع الصناعى ، التى تتناقض مع العديد من الثوابت والخصوصيات الحضارية التى أشار إليها ، والتى يتمسك بها. الشىء نفسه ينسحب على المؤسسات التى تبلورت فى عصر الصناعة ، لكى تخدم المجتمع الصناعى ، وفقا

للفلسفة السياسية والإجتماعية والاقتصادية والصناعية . لماذا تصور د. عمارة أنها صالحة لمجتمع إسلامى تتمايز علومه السياسية والإجتماعية والفلسفية والإقتصادية ؟

من هذا ، نرى أن الموقف الانتفاعى الذى اختاره د. عمارة يقود إلى مزيد من الخلط والتناقض . ومع أعترافى بأهمية الأحتفاء بخصوصية الحضارات . وأيضا المجتمعات والأقليات والأفراد ، إلا أن التقسيم الذى أجراه بين " المشترك الإنسانى العام "و" الخصوصية الحضارية" يحتاج إلى إعادة نظر .

ثم يختم راجى عنايت مقاله قائلا : لقد وصلنا إلى زمن تتدفق فيه المعلومات تدفق الرياح وهو زمن يستحيل أكرر يستحيل فيه أن يتحكم فى إنسيابها أحد سواء كان دولة أو رأيا عاما أو عقيدة أو أيدلوجية . وخير إستراتيجية فى مواجهة هذا ، هو أن نفتح النوافذ والأبواب . وأن نستثمر هذه المعلومات والمعارف فى مزيد من الفهم لأنفسنا ولما حولنا ، وفي مزيد من التنمية لذواتنا والنضج لوجداننا . . لا أن نغرق فى وهم البحث عن نوع المتاريس التى سنتحصن خلفها ، أو السدود التى ستتيح لنا أن نحجز بعض هذه المعلومات ونحجب باقيها .

وحقيقة الأمر أن المقال يعكس الرأى الذى ينفى مقولة الغزو الثقافى ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعونا بإلحاح إلى أن نقذف بأنفسنا فى بحر المعلومات وإلا هلكنا ثقافيا وحضاريا .

والمقال يحمل فى طياتة عناصر الحكم عليه بأنه بعيد عن واقع العالم النامى بقدر قربه من التصور الأمريكى للموضوع .

ويشارك الدكتور غالى شكرى الأستاذ راجى عنايت فى نفى مقولة الغزو الثقافى ويشاركه فى الإنبهار بثورة المعلومات . ويقع مثله فى الخلط والتخليط ، ولكن بصورة أخرى ، فهو يساوى بين البعثات وبين الغزو الثقافى ، بل إنه يصور ظهور مصطلح الغزو الثقافى بصورة البشارة التى جاءت مع فجر النهضة العربية الحديثة حيث يقول : فالغزو الثقافى مقولة ارتبطت بفجر النهضة العربية الحديثة . وقد ارتبطت أيضا بدفاع التيارات السلفية عن نفسها ، أمام أفكار جديدة وقيم جديدة من المستحيل أن تنفصل عن التكنولوجيا القادمة من الغرب . واذا كانت الحملة الفرنسية قد صدمتنا بالغزاة وأوجعتنا بأسلحتهم ، فقد كنا نحن الذين ذهبنا إلى فرنسا نطلب من المعرفة الجديدة أن " تغزو " رؤوسنا . كان محمد على وسعيد وإسماعيل هم الذين أرسلوا البعثات إلى أوربا لنتعلم ونتثقف ونفهم ماذا جرى ويجرى فى العالم ، ولم ننقطع عن طلب الغزو الثقافى فى أى وقت سواء عن طريق البعثات أو تأسيس الجامعات . ومن المفارقات التى لا يريد البعض أن يدرك مغزاها أن هؤلاء الإستعماريين الملاعين كانوا يرفضون تعليمنا إلا فى حدود تخريج الموظفين . وأنهم كانوا يرحبون كثيراً بالبعثات التى تطلب الحرفة التكنولوجية ، أما العلوم الإنسانية فجامعاتنا الوطنية هى التى بادرت بإرسال أبنائها لإستيعاب مناهجها الحديثة . وكان الأزهر لأمد طويل يرسل البعثات

إلى الغرب .

ويبدو أن البعض منا يحلو له إسباغ صفة الغزو على كل شيء ما عدا «التكنولوجيا»، فأهلا بالطائرات والسيارات والتليفون والتليفزيون والفاكس وآلاف المخترعات طالما أنها بعيدة عن مجال الأفكار والقيم . وحتى هذا الوهم مجرد وهم لأن إستخدام الآلة يفرض بصمته المؤثرة على العقل والوجدان تدريجيا ولو بدون وعى . غير أن هذا الإنقسام بين الرغبة فى إستخدام «التكنولوجيا» بهدف المنفعة الحسية والمادية المباشرة وبين الإعتزال الفكرى فى بروج مشيدة هو الذى يولد الشروخ النفسية العميقة والأزدواجية المستعصية عن الحل .»

ثم يمضى الدكتور غالى شكرى قائلا : ونحن الآن لا نتكلم فى القرن الماضى أو فى بدايات القرن الحالى أو حتى فى منتصفه وإنما نحن نتكلم فى ظل ثورة جديدة للمعلومات والإتصال والديمقراطية التى تفتح آفاقا غير مطروقة للمعرفة لا يستحقها إلا الذين يشاركون فيها من خارج " الجيتو " ودون أوهام عنصرية عن الذات أو الآخرين .

وحوار الأنداد لا يبدأ بهذا الإحساس المدمر . إننا مغزوون من الأخرين لا محالة ، وإنما يبدأ ويثمر حين نقطع العهد على أنفسنا بأنه ليس فى الوجود من يحتكر الحقيقة كلها أو أنه يحتكرها بمفرده . وأن من أبسط حقوق الإنسان حقه فى المعرفة دون وصاية من أحد (١).

والدكتور غالى شكرى إذا وجد غزوا ثقافيا لمصر فإنه يراه من الداخل أو من العالمين العربى والإسلامى وهو يفسر ذلك بقولة (٢) : إنما الثقافة المصرية فى الوقت الراهن محاصرة بالإختراق المزدوج من الداخل والخارج على السواء . أما الإختراق من الخارج فلا قبل لنا على مقاومة أسبابه ، ولكننا نستطيع - إذا كانت هناك الإرادة - أن نواجة نتائجه . وأما الإختراق الداخلى فلا يحتاج إلا إلى أن تتحول ثقافة المقاومة الوطنية من كونها ثقافة النخبة لأن تصبح ثقافة الأمة ومن كونها ملفات وأضابير ومتاحف وأرشيفا لأن تصبح ثقافة حياة . وهو أمر كان ميسورا فى أزمنة الأمية الساحقة وفى أزمنة الإحتلال السوداء وفى أزمنة الإستبداد الطاغية ، فكيف لا تتيسر فى زماننا الراهن ؟ الجواب هو الإرادة أيضا إذا توافرت والإختيار الحاسم بين مجتمع مدنى حديث وبين الإنقراض فى مجتمع الغابة الدموية التى لا عمل لوحوشها سوى تمزيق الحبل السرى بيننا وبين الحضارة والعصر والمستقبل . والآن ، ما هو الإختراق الخارجى وكيف نواجه نتائجه طالما أننا لا نملك معالجة أسبابه ؟

إنه أولا الوجه السلبى لثقافة النفط . فالنفط بحد ذاته ليس لعنه ، فما أكثر الجامعات

---

(١) د . غالى شكرى - أساطير الجيتو الثقافى - جريدة الأهرام - بتاريخ ٦ / ١١ / ١٩٩١ .

(٢) د . غالى شكرى - إختراق الذاكرة - جريدة الأهرام - بتاريخ ١/ ٧ / ١٩٩٢ .

ومراكز الأبحاث والمنابر التى يستحيل اتهامها على إطلاقها وإنما ثقافة المهاجرين إلى ينابيع " الثروة " قد اختلطت بثقافة اللاجئين إلى " السياسة " ، وكانت العودة " المظفرة " إلى الوطن إختراقا ثقافيا بالمال والسياسة ، بالمدلول الواسع لكلمة الثقافة بدءا من السلوك والزى والأفكار والقيم وليس إنتهاء بشركات توظيف الأموال وإعتزال الفن ، ومحاولة بناء مجتمع مواز للمجتمع تمهيدا لبناء دولة داخل الدولة ، وتكفيرا للخارجين من أهل المجتمع ، وسلطة الدولة ، وتحريضا للجميع على هذا الإختراق الثقافى بالمال والسياسة ، هو فى جوهره اختراق للذاكرة بملء الفراغ الذى تصنعه المخدرات والبطالة والإستهلاك المجنون ، بذاكرة أخرى مجلوبة من الخارج ، أقلها خطرا طقوس السحر والتنجيم والخرافات ، وأرفعها شأنا التاريخ الدموى لعصور الإنحطاط وما إشتملت عليه من تفرقة وتمييز بين الأعراق والمذاهب والطوائف والأديان ، مرورا بتقاليد الظلام والتخلف الذى أطفأ شعلة الحضارة الإسلامية ، وكانت تضىء العالم .

والإختراق الخارجى الثانى هو مجموعة الحروب ذات الطابع الدينى أو المذهبى من إيران إلى لبنان إلى السودان . وهى الحروب التى اختلط فيها الفكر بالسياسة بالمصالح الإقليمية . والدور الإسرائيلى فى هذه الحروب كلها لا يحتاج إلى بيان . ولم يقتصر الإختراق على التخطيط والتدريب والتنفيذ المسلح لأنصار " تصدير الثورة الإسلامية " من طهران أو " الحدود الآمنة لأرض الميعاد وشعب الله المختار " من تل أبيب ، أو " تطبيق الشريعة " فى السودان ، وإنما كانت حرب إيران والعراق وحرب إسرائيل فى لبنان ، والحرب بين الشمال والجنوب فى السودان ، إختراقا ثقافيا يمحو الذاكرة الوطنية تدريجيا ، ويستبدل بها ذاكرة أخرى تحارب معارك الأسلاف منذ عشرات القرون . جدرانها مطلية بدماء الأقدمين كأنهم حاضرون ، ينتقم لهم أحفاد الأحفاد من مواطنيهم فى العقيدة والوطن بعد أن هاجر الوطن الواقعى من الذاكرة وسكن مكانه وطن آخر من صنع المخططين ، للسيطرة على الأوطان جميعا باسم الدين أو المذهب أو العرف .

ويبقى الإختراق الداخلى الذى يلعب على موجتين : أولاهما الإبقاء على ثقافة النخبة بعيداً عن ذاكرة الأمة بأن تخلو برامج التعليم والإعلام الشائعة كالماء والهواء من منجزات الثقافة الوطنية . ولا تتحول المؤلفات العظيمة والرسوم والمنحوتات والموسيقى إلى دماء فى شرايين التلميذ فى البيت والمدرسة والطالب فى الجامعة . وفى عروق كل مواطن يشاهد التليفزيون

ويسمع الإذاعة ويقرأ الصحف. وتظل الذاكرة الوطنية إحتكاراً لفئة شبة منبوذة من المثقفين . والموجة الثانية هى العكس تماما : توصيل الذاكرة المضادة إلى مجموع الشعب عبر أكثر أجهزة الإعلام جماهيرية ولن يغفر المصريون أنهم ذات أمسيات طويلة شاهدوا أجدادهم علي شاشة التليفزيون بإعتبارهم عبيدا لبنى إسرائيل . ويمثل هذه الذاكرة المخترقة يحشو " الشباب مسدسه.

بهذا التصور المُصطنع يرى د. غالى شكرى الغزو الثقافى . وهو يتجافى مع أبسط قواعد المنطق ، ويصبح كمن يجمع البرتقال مع العنب فى مسألة الحساب فلا يعبر حاصل الجمع عن حساب وإنما عن أغلاط .

وفى مقابل هذا التطرف فى تفسير الغزو الثقافى تطرفا سلبيا على الواقع المصرى والعربى والإسلامى نجد الموقف المعتدل الإيجابى تطرحه مجلة المسلم المعاصر فى عددها الأول عام ١٩٧٤ ، فيقول عبد الحليم محمد أحمد (١) : الغزو الفكرى (أو التغريب) فرع من الغزو الاستعمارى وهو نوع من التشويه الفكرى يعنى انتقاء المستعمر لنواح فكرية منحطة من حضارته فيقدمها بغية تحقيق هدفه الأساسى ،وهو استمرار التخلف ،واستمرار حالة التبعية أطول فترة ممكنة ، وهو يختار ما يهدم لامايبنى وإن كان لابد من قدر من البناء فهو محدود أيضا بالهدف نفسه ، وهو تمكن المستعمر من تحقيق أكبر كسب من البلاد المستعمرة .

وتلك النواحى الفكرية المنحطة وهذه الأوجه الهزلية من ثقافة المستعمر لايمكن أن يطلق عليها إسم الحضارة الحديثة . والمُسْتَعْمَر (بفتح الميم) إزاء الغزو قد يقف موقفا سلبيا فيتلقى ما يُلْقَى إليه ، دون إختيار أو تمحيص . بينما التفاعل الحضارى (أو التحديث) جهد إيجابى شاق فى الدراسة والبحث والتمحيص للحضارة الحديثة، ثم فى الإختيار والإقتباس ، ثم فى الأقلمة والتكيف مع خصائص حضارتنا الأصلية و مع ظروف بلادنا . على أننا نقرر أنه يحدث عادة قبل التفاعل الحضارى ما يمكن أن نسميه التحدى الحضارى . والتحدى كما يقع بين حضارتين مزدهرتين يقع أيضا بين حضارة متفوقة وحضارة متهالكة . ونحن نواجه فعلا تحديا حضارياً صارخا يهزنا من الأعماق ، وأمامنا أحد أمرين : أن نواجه هذا التحدى مواجهة إيجابية بالتفاعل الواعى ، أى بالأخذ والعطاء . وبين المواجهة السلبية بطرفيها المنحرفين الرفض المطلق أو الخضوع المطلق ،وفرق كبير بين إنكار ذلك الغزو الفكرى الإستعمارى وبين الموقف السلبى العام من الحضارة الحديثة والخلط بين الأثنين يعنى إقامة هذا الحاجز الصفيق بيننا وبين الفكر الإنسانى . »

---

(١) عبدالحليم محمد - خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر - مجلة المسلم المعاصر - العدد الافتتاحى - شوال ١٣٩٤ هـ نوفمبر ١٩٧٤ م.

وفى أوائل العقد التاسع من القرن العشرين الميلادى برزت صورة ذهنية جديدة لمفهوم الغزو الثقافى فى أوربا الغربية ،وفى فرنسا على وجه الخصوص . لقد شهد عام ١٩٨٢ مؤتمرا دوليا حاشدا لمناقشة القضايا الثقافية ، عقد فى المكسيك ، ونظمته « اليونسكو » . وفى هذا المؤتمر فَجَّر المندوب الفرنسى مشكلة الغزو الثقافى الأمريكى على النطاق العالمى . ورد عليه المندوب الأمريكى ، ثم اشتعل الحوار حول هذه القضية . وفى عام ١٩٨٢ أيضا صدر فى فرنسا كتاب غزو العقول أو غزو الأرواح La conquéte des Esprits لمؤلفه « ايف اود » Eudes Yves . وكان قد صدر كتاب الحرب الثقافية La Guerre Culturelle لمؤلفه هنرى جوبارد Henri Gobard عام ١٩٧٩ . وكتاب فرنسا مُسْتَعْمرة عام ١٩٨٠ isee La France Colon لمؤلفه جاك تيبو Jacques Thibau .وكتاب « ايف أود » يحمل عنوانا فرعيا له دلالة كبيرة هو : هيكل التصدير الثقافى للحكومة الأمريكية إلى العالم الثالث . ويؤصل المؤلف الفرنسى فى كتابه هذا رؤية الزعماء الأمريكيين الأوائل للدور الأمريكى على المستوى العالمى ، ثم تَبَنَى مَنْ خَلَفَهم من الزعماء لهذه الرؤية .

ويقول د . محمود الذوادى (١) إن صاحب الكتاب يعتقد أن المطلع على تاريخ الشعب الأمريكى منذ فترة ما قبل انتصار عام ١٧٨٣م على بريطانيا ، وخلال القرن التاسع عشر ، لا يكاد يجد رجل دولة أو مفكرا أمريكيا لم ير فى نشأة المجتمع الأميريكى الجديد - بعد انفصاله عن المجتمع الأم بريطانيا - بداية جديدة لتاريخ الإنسانية جمعاء ، ويذهب هذا الإعتقاد فى الولادة الجديدة للإنسانية بظهور الأمة الأميريكية إلى حد نكران الروابط البيولوجية والثقافية التى تربط المجتمع الأميريكى المستقل « بإنجلترا » فهذا المجتمع الجديد حسب ما ورد فى ميثاق الإستقلال الامريكى على لسان « جفر سن » Jeffersen هو الذى سوف ينشئ العصر الذهبى على سطح هذه الأرض ، وهو بالتالى سوف يحقق حلم المجتمع المثالى (الطوبائى الإنسانى) *

أما « جورج واشنطن » فقد رأى هو الآخر فى حصول الولايات المتحدة الأمريكية على إستقلالها لمسات خفية . ولقد ذهب بعد « جورج واشنطن » عدد من الفلاسفة والمفكرين المتدينين إلى حد مقارنة تاريخ الشعب المختار بمغامرة الأمة الأمريكية . وفى نظر « جول بارلو » "Joel Barlou" ، أن المواطن الحر الأمريكى سواء كان متدينا أو غير متدين ، «ليبراليا» أو ثوريا ينبغى إعتبار نفسه كمشرع لنصف الجنس البشرى . أما بالنسبة « لجون آدمس » John Adams ، فالجمهورية الأمريكية الطاهرة والفاضلة مكتوب عليها أن تأخذ بقيادة الكوكب الأرضى وإعطاء الإنسان فرصة تجسيم الكمال المثالى .

(١)د. محمود الذوادى - فى كتاب غزو العقول - مجله الفيصل - العدد ٨١ .

* المثالى التلقائى

ومن وجهة نظر ايف أود Yves Eudes ، فإن هذا المثل الأمريكى لقيادة كل الإنسانية لم يفتأ أن غَيَّرَ أُسُس الشرعية من وجهة النظر الأمريكية ، فالديمقراطية أصبحت بذلك هى البديل . ودور الولايات المتحدة الأمريكية هو أن تجعل من العالم مكانا يطمئن الناس فيه أكثر على مصير الديمقراطية والحرية . وقد ظلت راية الديمقراطية مُنَاداً بها من طرف الرؤساء الأمريكين أمثال « روزفلت » Rousvelt « وكيندى » Kennedey « وكارتر » Carter . ومن هذه الخلفية الأيديولوجية لقادة الشعب الأمريكى استمدت فكرة حق الولايات المتحدة - حسب رأى بعضهم - وواجبها فى التأثير على عقول البشر وأرواحهم . فالشعب الأميريكى بطبيعته لا يمكن أن يكون شعبا عاديا أو أنانيا لا يعيش إلا لنفسه . ومن هنا يأتى مفهوم التثقيف الأمريكى للإنسانية جمعاء كمشروع شرعى لكل من تَفَهُّم وتَعَرُّف على طبيعة عقائد ورؤى قادة الأمة الأميريكية الجديدة منذ دخولها سجل التاريخ حتى يومنا هذا .

ولا تأتى قيمة هذا الكتاب ومساهمته فى ربط الغزو الثقافى الأميريكى المعاصر بالأيديولوجية الثقافية التى نادى بها زعماء ومفكرو الأمة الاميريكية الأوائل فحسب ، وإنما تتميز مساهمته خاصة فى التحليل المنظم والمفصل للأجهزة الأميريكية الثقافية المختلفة وسبل عملها واستراتيجيتها الأكثر اختفاءً وتستراً من الأجهزه الأمريكية الإقتصادية والعسكرية المنتشرة فى كثير من مجتمعات العالم الحديث ، والعالم الثالث على الخصوص . فالكتاب بهذا المعنى لا يطرح قضية الغزو الثقافى الأميركى بطريقة دعائية . وإنما يعرض القضية للقارئ بتحليل يتصف بالمنهجية ذات المعطيات والتفاصيل والظروف السياسية . »

وفى كتاب الحرب الثقافية يطالعنا هنرى جوبارد بنبرة خطابية عالية فيقول : « لقد بدأت الحرب الثقافية بالفعل بدون إعلان ، وبدون نفير ، وبدون دق الطبول ، ولكن بدق الكلمات التى تكذب ، وبدق الصور التى تزيف ، وبدق الإبتسامات التى تخون و (تغدر) . الحرب التقليدية تستهدف القلب لكى تقتل وتهزم ، والحرب الاقتصادية تستهدف المعدة من أجل الإستغلال والإثراء ، والحرب الثقافية تستهدف الرأس لكى تشل بدون أن تقتل ، لكى تهزم من خلال التدهور والتردى ، ولكى تحقق الثراء من خلال تفسخ الشعوب وإنحلال الثقافات . الحرب الثقافية تستخدم كل الحريات وتضلل من أجل التغلغل فى جميع الأنحاء ، ومن أجل أن تدمر من الداخل كل القيم وكل التشكيلات وكل الثروات الروحية للشعوب التى تستقبل ألسنة حال موحدة اللغات لهيئات دولية .

وإذا كان صحيحا أن الجامعات معاقل قوية للمقاومة ضد الحرب الثقافية ، وأنها الحصون الأخيرة ضد التفسخ والإنحلال الذى يتهددنا ، فإن الجامعات ومعها المدارس الأولى تستطيع إدارة النضال ضد الحرب الثقافية . إن الأساتذة والطلاب يجب أن يكونوا أركان الحرب الأوائل الذين يعدون الاستراتيجية والتكتيك لهجوم مضاد لمواجهة المد الأسود الهائل مثل (مياه البحر الملوثة

بالبترول) لتغلغل الدعاية غير المباشرة ، تماما كما يفعلون بالنسبة للدعاية الإعلانية المباشرة التى تسلب الناس إرادتهم وتحولهم إلى جمهور من المستهلكين .

إن الجميع يجب أن يكرسوا أنفسهم من اليوم لخوض حرب حتى الموت ضد أسوأ عدو لم تعرفه البشرية من قبل . إن هذا العدو المرعب يقدم نفسه مبتسما ، وليس هناك عدو أسوأ من ذلك الذى يتنكر فى صورة الصديق ، لأن يده تصافح يدنا وابتسامته ملء كفه . إنه يحشدنا بخطبه ، وعندما يعتقنا أى (يحررنا) فى النهاية ، فما ذلك إلا لكى يمنحنا الحق الوحيد فى التصفيق .

لقد حان الوقت ، ومازال هناك وقت كبير ، كما أنه الوقت المناسب لكى نستيقظ ونستعيد أنفسنا ، وطالما أنه قد تم طعننا بعمق فى الداخل أو غرقنا ، فإنه يجب من الآن أن نحاول النهوض أو أن نقفز لنطفو على السطح .

هذا الوثوب أو القفز سيكون رمزا لرفضنا المطلق أن نترك أنفسنا للإستغلال بواسطة المد الأسود للإنحلال الصناعى والرأسمالى . إن المد الأسود قد تغلغل بالفعل فى شواطئنا ، لقد أصبحت الأنهار مجارى آسنة ، وتحولت المدن إلى صناديق قمامة ، أما الضواحى فأصبحت متسودعات للمُخَلّفَات ، والمكاتب بيوتاً للنمل ، والمصانع سجوناً ، والمدارس ثكنات ، والثكنات سجوناً ، والسجون جحيماً . وفى هذا العالم المجنون من الطبيعى أن تصبح الجامعات ملاجئ حينما تصبح الملاجئ النفسية سمة عالمية .

لقد استسلمت كل دول العالم دون مقاومة أمام أسوأ عدو للثقافات ألا وهو المال. إن أى شعب باستطاعته أن يقاوم ضد الأسلحة التى تدمر بضراوة . إن ذكرى « فارسوفيا »- وارسو - هى دليل حى على أن الروح تسود على القوة ، ولكن إذا كانت أهوال القصف المرعبة لم تستطع النيل من روح مدينة ، فإن إبتسامة تجارية تكفى اليوم لإبادة كل القرى وكل المدن ، وكل البلاد ، وكل الثقافات ، وتحويل الأمم الى شركات مساهمة مجهولة ، والرجال إلى زبائن .

إن الاستغلال الإقتصادى يمضى على قدم المساواة مع التصدع الثقافى ، الذى يستهدف القضاء على كل السمات والخصائص القوية لثقافة من الثقافات (لخلق سمات أو خصائص صناعية غير حقيقية) باسم الديمقراطية المزيفة ، ويسمح لأولئك الذين لا وطن لهم والذين لا يدافعون إلا عن حرية واحدة هى حرية رأس المال بأن يتنكروا ويتخفوا .

يقول « آلان بيرفيت » Alain Peyrefitte إن الاستقلال كل لا يتجزأ ، إنه يعتمد على الإقتصاد وكذلك على الجيوش . وإهمال الشرط الأول سيكون خطيرا تماما كإهمال الشرط الثانى . ولأنه يمكن إستعمار الشعوب وإخضاعها واجتياحها بدون صراع وبدون هزيمة واضحة ، وفى سلام كامل ، وبدون معاناة ، وبدون أن يشعر أحد ، وليس بواسطة خصوم ، وإنما من خلال أصدقاء لا

تتطابق مصالحهم مع مصالح هذه الشعوب ، إلا أن الناس يقبلون رسالتهم دون تفكير . إن الحرب القصيرة يكون لها دائما نهاية ، فى حين أن النضال الإقتصادى ليست له نهاية على الإطلاق . (لوموند فى ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٧٥) .

وينسى « آلان بيرفيت » Alain Peyrefitte الشرط الثالث الذى يفرض الشرطين الأخيرين : الثقافة ، وذلك ثابت واضح ولكن بالتحديد لا يوجد شيئ ثابت اليوم حتى الثقافة وما يتعلق بها بالنسبة لاستمرارية النضال الاقتصادى : النضال هو التصدى للخصم ، والحرب هى التدمير المادى للعدو ، والحرب الثقافية هى إعادة الروح . ولكن مما يؤسف له أننا لا نهتم بشئ مما يحدث أمامنا . »

ثم يتحدث المؤلف « هنرى جوبارد » عن الإنهيارات الأربعة فيقول : لأن الأركان العامة تأخرت أو تخلفت عن الحرب ، فإن الثوريين تخلفوا عن الثورة . وفى العصور القديمة ، أدى تدهور أو انهيار الفكر « اللاهوتى » إلى ترك المجال للمسيحية ، كما أدى الإنهيار السياسى للملكية إلى ترك الميدان للثورة . اليوم سيترك التدهور أو الإنهيار الاقتصادى المجال أمام المؤسسات غير القومية . التحليل يقف عموما عند هذه المرحلة فى حين أننا نعيش الإنهيار الرابع والأخير وهو الإنهيار الثقافى ، تفسخ كل قيمنا التى تحولت إلى سلع وإلى دولارات .

إن الشعوب يمكن أن تخسر معركة وأن تخسر حربا ، ومع ذلك تولد من جديد : « فارسوفيا » دمرت منذ ثلاثين عاما ويعاد تشييدها اليوم كما كانت من قبل ، بل وأفضل مما كانت عليه ، وذلك لأن بولندا فقدت ستة ملايين قتيل ، ولكن لم تفقد ثقافتها - أى كبريائها - ولم تفقد إيمانها بنفسها وكذلك قوتها . وعندما يفقد شعب ثقافته ، فإنه لن يكون أكثر من قطيع سهل الإنقياد ، يلقى بنفسه نحو المجزر الآلى شاكرا التقدم الذى قام بتحديث سبل وفاته .

أن تكون بلا ثقافة فمعناه أن تكون بدون إنتماء إلى مجتمع له قيمة ، فالإنسان ليس أكثر من « مخلوق آدمى » ، وفرد منعزل ، وفريسة معدة لدراسات السوق ، وللشراء ولكى يكون الإنسان إنسانا يجب أن ينتمى إلى جماعته التى تعطيه : إمكانية الميلاد ، وأن يكون محبوبا ، وأن يغذى ويربى وتتم حمايته ، وأن يستمع إلى لغة ، ويعيش ثقافة هى ثقافته الأصلية التى بدونها لن يكون العالم سوى خواء وفوضى عديمة الشكل .

إن كل ثقافة هى مفهوم لعالم الإستقلال الذاتى الذى لن يعترف إلا بنفسه فى تحديد ما هو المقبول وما هو غير المقبول . ومن المؤكد أن كل ثقافة لها معاييرها المحددة التى تختلف عن معايير الثقافات الأخرى ، التى قد تبدو متعسفة للمراقب البعيد ، ولكن لنتذكر أن المراقب عن بعد ليس سوى مشاهد أو جاسوس ضمن مجموعة من المراقبين الذين هم « بوليسيون » بلا شك ، يراقبون دون تدقيق وتمحيص .

إن الثقافات ليست لديها حسابات لتقدمها ، فكل ثقافة تنظم بطريقتها الأسرار التى تمر بنا كما يستمع الطفل إلى البحر أو المحيط وإلى صوت الأصداف والمحار وكما يرى الحب فى الابتسامة . ولكن عندما لا تكون المحارة إلا قطعة من الصخر حيث لا نسمع فيها إلا الضوضاء والضجيج ، وعندما لا تكون الإبتسامة إلا مجرد تكشيرة عن أسنان طويلة فإن ذلك هو الرعب ، هذا الرعب هو رعبنا ، رعب العصر الذى نعيشه .

إن الحروب والسياسات والسلب والنهب تكون دائما مفاجئة وطارئة . بين رجال كانوا يعيشون داخل ثقافتهم كما يعيش السمك فى الماء . ولكن البحر قذر اليوم ، وغدا سيكون ميتا فهل يجب الإنتظار دون قول شئ أو عمل شئ إلى أن يدمر الناس كل المجتمعات الطبيعية ، وكل الأجناس ، وكل الثقافات ، وكل الشعوب ، وكل الأمم ، لتحويل العالم إلى مناطق اقتصادية ، وتحويل الرجال إلى اقتصاديين ؟! .

شيئا فشيئا سنكتشف بصعوبة التناقض و التعارض بين الإقتصاد والثقافة . يجب الاختيار بين أولئك الذين يحبون إحصاء نقودهم وأولئك الذين يحبون أن يقصوا أحلامهم . ولكننا نتردد على الرغم من أن الحلم أكثر حقيقة من المال ، فالحلم حى وفيه حياة والأموال ليست إلا مواتا . لدينا الدليل على ذلك ، فالدول التى أثرت تبدأ فى الموت ، وكلما ازدادت ثروتها ، زادت شيخوخةً ، لأن الثروة لا تعطى أبداً الرغبة فى الحياة . وسوف ندرك أخيرا أن الانسان وحده لا شئ ، وأن الإنسان الفرد هو أسوأ ما يتم إختراعه لصالح كل أولئك الذين لا يتحدثون إلا عن أفضل طريقة لسرقتك ، دون أن يقولوا لك شيئا ينبع من ضمائرهم لأنها بيعت . هل نبيع نحن أيضا أنفسنا مقابل ثلاثين ألفا أو ثلاثين مليون دولار ؟ وهل نقدم ونعرض أنفسنا جميعاً للسوق الأمريكية . هذا الخيار هو خيار سياسى وهو الخيار الأساسى الذى يُعَد ويُجَهَز للآخرين .

وإذا كانت السياسة فى خدمة الإقتصاد فإن ذلك معناه تدمير الثقافة ، كما أنه يعنى تبعية السياسة للمال . إن بلدا بدون ثقافة لن يلبث أن يحل محل رئيسه مدير عام قادر على التهدئة ، وعلى إجراء تصفية سكانية يسهل التنبؤ بها ، وقتل أى موت كبار السن فى كل شعب . وعلى العكس من ذلك إذا وضعت السياسة الإقتصاد فى موضعه بأن تكون الثقافة أولا والاقتصاد بعد ذلك ، فإن البلاد ستذوق طعم الحياة وطعم النضال ، ضد مجتمع التفسخ والإنحلال ، عندما يتخفى وراء الحرية . حرية إفناء مجتمع وإبادة جنس .

كل شعوب أوربا مهددة أولا بالفناء القادم من الغرب : الإستثمارات الربوية ليست مالية فقط ، إنها أولا ثقافية ، الدعاية الربوية هى دعاية دائمة تفرض علينا منتجات على شكل أفلام ، وتليفزيون ، وأغانى ، وملابس ، وهذه تلقى رواجا فى جميع الأنحاء ، لأن الولايات المتحدة يمكنها

تصدير أعمال على الموضة ، وبأعداد كبيرة لا تترك للإنتاج الوطنى فى أى دولة منفذاً للتوزيع ، وتستطيع أيضا إغراق العالم بانتاج من الدرجة الثانية ، وبأسعار رخيصة ، لأنها استوفت نفسها أولا على صعيد السوق الربوى الداخلى ، وكل ساعة يتم استثمارها فى إنتاج ربوى هى ساعة ضائعة من الإنتاج الوطنى . ولكن السوء لا يأتى فقط من البائعين (التجار) وبل من الإختيار التجارى « للمشروع » . ويجب أن نقول مرة للجميع : الثقافة ليست «مشروعا» تجاريا . إنها مسألة حياة أو موت . »

هذه الصورة الذهنية الجديدة لمفهوم الغزو الثقافى تَسْطَعُ من فرنسا فى أواخر القرن العشرين مبينة أن التفكير والتحليل وإعادة النظر يمكن أن يضع فى أيدينا حلولا شجاعة لمشاكلنا الثقافية كجماعات إنسانية لها ثقافاتها التى تدافع عنها . ويبين لنا أن القول « بأن الغزو الثقافى مجرد وهم » غفلة فادحة .

وتقدم لنا العلوم الطبيعية صورة للغزو الثقافى فى المجتمع بنموذج ما يحدث فى مرض الجسم . إن « الفيرس » " Virus " الذى يتكون من غطاء بريتونى من الخارج ومن مواد « كربوهايدراتية » ومن الحامض النووى شهوُ أو DNA وليس الاثنين معا . هذا الحامض النووى DNA مركب عضوى يتألف من مجموعة من النيوكليوتيدات التى تترتب على شكل لولب مزدوج وتتألف منها الجينات .

إن هذا الحامض النووى هو الذى يحمل الإرشاد الوراثى لبناء البروتين . وعند دخول « الفيرس » جسم الإنسان فإنه يلغى هيمنة الإرشاد الوراثى للجسم ، ويفرض إرشاده الوراثى . وبذلك يبنى داخل خلايا الجسم « فيروسات » من نوعه . وبزيادتها تستطيع أن تهيمن على البناء لصالحها . « ففيرس » « الايدز » مثلا ماذا يفعل عندما يدخل جسم الانسان ؟ ، بعد فترة تحضين يلغى إرشاد الجسم الوراثى ويفرض إرشاده ، ويهاجم البروتينات المناعية المسئولة عن المقاومة فى الجسم ، أو الخط الدفاعى الأخير . و« الانفلونزا » عند دخول « فيرسها » جسم الانسان فإنه يتوجه بالإصابة الى الأغشية المخاطية بالأنف ، ويبنى على حساب هذه الأغشية المخاطية نظامه ، لماذا ؟ لكى يأخذ المواد الغذائية اللازمة لتكاثره منها ، كما أنه يلغى الإرشاد الوراثى فى منطقة الإصابة ، ويفرض إرشاده أو هيمنته الوراثية الخاصة .

ليست المقابلة بين إصابة المجتمع بالغزو الثقافى وبين مرض « الايدز » من باب زخرف القول ، وإنما هى من باب العلم وباب الواقع . لقد أخذت العلوم الانسانية مصطلحات العلوم الطبيعية لتعبر تعبيرا دقيقا عن نفسها ، فالطاقة الاجتماعية ، وخلايا الحزب ، والنسيج الاجتماعى ، والتخطيط الاعلامى ، وماشابه ذلك ، دليل على مدى الترابط بين مصطلحات العلم فى مجالاته الإجتماعية ومجالاته الطبيعية . ودليل على تلمس الدقة والتقريب إلى الأذهان والتصور .

ويصور نجيب محفوظ فى قصته « صباح الورد » مدى ترسخ الغزو الثقافى فى حياة أسرة مصرية مسلمة عندما يقابلها تحول الإبن إلى الإتجاه الدينى فيقول فى القصة : « كان اسم الولد شكرى كجده ، وكان وسيما رياضى الجسم ومتقدما فى الدراسة ، وكان سامح يحبه حبا فاق حبه أى شئ . ولاحظ بعينيه المحبة أن الشاب لم يعد كسابق العهد به . فترك مرحه . ومال إلى الانطواء ، ورمق والديه بنظرات غريبة حائرة . لعلها أزمة من أزمات المراهقة ، أو قصة حب خائب . وإذا بأمه تسأله :

- ما لشكرى يا سامح ؟ . . إنه لا يعجبنى .
- ولا أنا ، فلنعترف أنه جيل مجهول رغم أى إدعاء آخر .
- ولكننا ربيناه على الحرية والصراحة . .
- حلمك وصبرك ، إنه جيل يعانى من ذكريات الهزيمة والغلاء والمستقبل المسدود .
- عليك أن تستدرجه إلى الكلام .
- إنى أتوقع أن يتكلم هو .

وتكلم ، غادر حجرته الحاوية لفراشه ، ومكتبه، إلى حجرة المعيشة ، حيث يجلس والداه أمام التليفزيون . ضغط على مفتاح التليفزيون فأسكته ، وجاء بكرسى صغير فجلس أمام والديه وهو يقول :

- ثمة سؤال يشغل بالى .

فقال سامح بشئ من الجدية :

- ولكنك أغلقت التليفزيون دون استئذان ؟
- آسف ، ولى عذر فى الهم الذى يركبنى .
- ليكن وإن كنت لا أوافق على هذا الأسلوب . ماذا لديك ؟
- لماذا لا تصليان ؟

ذهلا للمفاجأة . وخيم صمت فاندفع فيه زفيف رياح خريفية تهب فى الخارج . أى سؤال لم يتوقعا أن يسمعاه أبدا .

- ولِمْ تصوما رمضان قط ؟

ثم بنبرة أعلى :

- ولدى كل سهرة فى الصالون تقدمان الخمر وتشربانها .

كيف يجيبان ؟ ليسا متدينين . لا يضمران للدين شراً ولا خيراً . لا يشغل لهما بالا ، ولا فلسفة وراء ذلك ، ولا يتصوران أن الله يكترث لشرب الخمر أو الامتناع عنها . الأمور تجرى بلا تفكير ولا مشكلات . إنهما لا يؤذيان أحداً ، ولا يسمحان لأحد بالتدخل فى شئونهما الخاصة . ولكن المتدخل هو ابنهما الوحيد . وهو يطرح سؤاله فى حرية كاملة ، ولكن لا حرية لهما فى الإجابة ، بل ويشعران بأن الإجابة يجب أن تلتزم حدودا معينة .

وتبادلا نظرة . نظرة حيرة واستغاثة . ولما طال الصمت ، تساءل الشاب :

- ألستما مسلمين ؟

فقال سامح :

- طبعا .

- المسلم ليس مجرد إسم ولكنه عقيدة وسلوك .

فقال سامح بضيق :

- المسلم مسلم فى جميع الأحوال .

فقال شكرى بأسى :

- كلا . . إما أن تكون مسلما أو لا .

- هذا رأيك ؟

- نعم . . مُذْ هَدَانى الله إلى طريقه .

فتساءلت أمه بقلق

- هل انضممت إلى التيارات التى يتحدثون عنها . . ؟

- هدانى الله إلى طريقه

- إنه طريق شديد الخطورة

- هو طريق الله ولايهم ما عدا ذلك .

فقال سامح باستياء :

- لم تحدثنا من قبل بهذه اللهجة ؟

- كنت فى غيبوبة الجاهلية .

- لا أقبل أن تخاطبنى بهذا الأسلوب

– أنظر . . طالما شجعتنى على الصدق والصراحة ، ها أنت تضيق بمن يخالف رأيك .

– فليمض كل فى حياته كما يرضاها .

فقال الشاب بتصميم :

– غير ممكن – قال الرسول عليه الصلاة والسلام : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان .

لم يسمعا بالحديث من قبل فرجعا وهما يتفكران فيه .

ثم سأله سامح متهكما :

– وماذا اخترت ؟

فقال بتأثر :

– إنى حائر بين الواجب وبين البر بكما .

وتنهد سامح ، ثم قال لينهى الحديث الأليم :

– شكرى ، أحصر انتباهك الآن فى دراستك الصعبة ، ولما تقف على قدميك أفعل بنفسك ما تشاء . أسرتنا لم تقم يوما على الإكراه أو العسف .

وظن أنه تحاشى الزلزال كى يسترد أنفاسه . ولما انفرد بزوجه قال :

– إنه يتكلم مستنداً إلى الدين والتراث فكيف نناقشه ؟

فقالت بحيرة :

– لن تستطيع أن تقول له أنه مخطئ . أو نقنعه بأننا على صواب .

– هذه هى المشكلة .

وضايقه موقفه المتخاذل فقال مدافعا عن كرامته أمام نفسه وأمام زوجته :

– لو أن لى رأيا محدداً فى الدين لألقيت به فى وجهه .

وانبثق سؤال من عدم لم يطرح من قبل . ترى ما الرأى فى الدين ؟ خيل إليه أنه مؤمن بالله ومؤمن أيضا بأنه لا شأن لله بحريته الشخصية . وأن الفرائض لا معنى لها ، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة . ولكنه مقتنع تماما بأنه لا يستطيع أن يصارح ابنه بذلك . ولم يتصور من قبل أنه سيواجه هذا الموقف الحرج .

وقال لزوجته :

- إنه يطالبنا بالتخلى عن أجمل ما فى حياتنا .

فحركت رأسها بالموافقة دون أن تنبس . فتساءل :

- كيف نستطيع أن نواصلها دون متاعب ؟

كيف يمارسان حياتهما المألوفة تحت سمعه وبصره ؟ وضاعف من همهما أنه دأب على تجنبهما تماما . فهو إما فى الكلية أو فى جامع الحى ، أو فى حجرته . طعامه يتناوله فى المطبخ . أنها مقاطعة مطلقة . هما نفسهما فضلا ذلك - مع الألم والأسف - على مواجهة أخرى أليمة . إن يكن استطاع أن يتحدى ناقديه طوال حياته بلا مبالاة كاملة فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فى بيته ومع ابنه . إنها مصيبة لا تخف بمرور الزمن ولكنها تتعقد وتستفحل وتنذر بشر العواقب .

- كدرت صفوى ، عليك اللعنة .

واضطر أخيرا إلى إحياء سهراته فى بيوت أصدقائه بعيدا عن إبنه ، وخوفا من أن يقدم على تصرف أحمق يحرجه أمام المدعوين . وحنق على تلك التيارات المتطرفة واعتبرها غريمه الأول فى الحياة .

لا تهمنا نهاية البطل « شكرى » فى قصة نجيب محفوظ ، ولا يهمنا التيار الدينى الذى انجذب إليه . بل لا يعنينا « شكرى » فى هذا السياق ، وإنما تعنينا رؤية الأب للمؤمن ، بأن الفرائض لا معنى لها ، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة . وأن هذه الأمور هى أجمل ما فى حياة الأب والأم معا .

إنها صورة التغريب ، وليست صورة الكفر .

وخلاصة القول أن مصطلح الغزو الثقافى من الصعب الإمساك به لأنه مثل الزئبق . ولكن من الممكن وضع المصطلح أمام بصائرنا مثلما نضع الزئبق فى أنبوبة زجاجية فنراه وندرس خواصه . وأن مصطلح الغزو الثقافى يحمل أسماء كثيرة ومعانى مختلفة ، وهو بذلك أشبه «بالحرباء » التى تتلون بألوان البيئة الجغرافية السائدة . وبرغم ذلك فإن هذه السمات للحرباء هى التى تبين هويتها بين أقرانها ، كذلك فإن سمات الأسماء الكثيرة والمعانى المختلفة هى العامل الرئيسى فى تحديد هوية الغزو الثقافى بين المصطلحات الثقافية والاجتماعية .

الفصل الثانى

وسائل الغزو الثقافى وأساليبه

ما الأساليب ؟ وما الوسائل ؟ هل هما شيئان متباينان ؟ أم مختلفان ؟ أم أنهما شيئ واحد ؟ وهل الرابطة بينهما فى مجال الغزو الثقافى لها صفة أو سمة خاصة أم لا ؟ وإن كانت الرابطة تتسم بصفات أو سمات خاصة فما هى هذه الخصوصية فى هذا المجال؟ .

نحن نقول فى لغتنا الإعلامية المعاصرة وسائل الإعلام ، ونعنى بها الصحيفة ، «والراديو» « والتليفزيون » ، و« السينما » ، والكتاب ، ووكلات الأنباء . وما شابه ذلك من وسائل « تكنولوجية » جديدة ، كما نعنى بها المحاضرة ، والخطبة ، الندوة ، والمؤتمر ، وما شابه ذلك من وسائل قديمة ، ونحن نقول فى لغتنا التعليمية المعاصرة الوسائل التعليمية ، ونعنى بها الكلمة المنطوقة ، وأجهزة التسجيل ، والصور الشفافة ، والشرائح الفوتوغرافية ، والأفلام التعليمية ، والخرائط ، والرسوم ، وما شابه ذلك من وسائل التعليم .

أما الأساليب فهى الطرق والاختيارات التى أفرزها التفكير وأفرزها التخطيط لتحقيق أهداف معينة ومحددة .فإذا كُنْتَ فى النقطة (ا) وَهدفُك الوصول إلى النقطة (ب) فإن وسائلك هى الطائرة والباخرة والقطار والسيارة والدراجة والسير على الأقدام ، وإن أساليبك أو طرقك هى الطريق البرى أو البحرى أو الجوى وهكذا . وهكذا نجد التباين بين الأساليب والوسائل ونجد الترابط بينهما . وفى الغزو الثقافى تتمركز سمات وخصائص هذا الترابط فى أهداف الغزو الثقافى .

ويمكن تحليل الرابطة بين أساليب الغزو الثقافى ووسائله كما نحلل الضوء بواسطة المنشور الزجاجى إلى ألوان الطيف، ولأن الغزو الثقافى عملية إتصالية فإن تحليل علماء الاتصال لأطراف العملية الاتصالية ينطبق تماما على عملية الغزو الثقافى . وأطراف العملية الاتصالية تشمل :

١ - المُرْسِل : وهو هنا القائم بالغزو .

٢ - المُسْتَقْبِل : وهو هناً الجمهور المستهدف .

٣- الرسالة : وهى هناً مضَامِين الغزو .

٤ - الوسيلة : وهى الوسائل المختلفة المستخدمة فى الغزو الثقافى .

٥ - التأثير : ويختلف باختلاف المَتَلقى وباختلاف ظروفه المُرَكَبة والمُتَشَابكة .

٦ - رد الفعل : ويتباين تبايناً شديداً بين الاستسلام ، أو المقاومة ، أو التذبذب ، أو

تعديل السلوك والاتجاهات ، أو تأكيد الهوية الذاتية الثقافية وحمايتها كما يفعل التطعيم فى تنبيه مناعة الجسم ضد المرض أو العَدْوَى ، وغير ذلك .

هذا التحليل يبين لنا حتمية الترابط بين وسائل الغزو وأساليبه ، لأن أهداف الغزو هى التى دفعت القائمين بالغزو والمخططين لة لسَلِّ الوسائل سَلَّ السيوف والإمساك بزمام الأساليب إمساك الفارس بزمام الخيل . والأهداف هنا هى الأهداف المباشرة أو التنفيذية . وليست الأهداف العليا أو « الاستراتيجية » . لأن لها حديثا يستغرق الفصل الرابع برمته .

ولقد حاولت صياغة نموذج لوسائل الغزو الثقافى وأساليبه يَقُوم على محْوَرَين : المحور الرأسى خَصَصْتُه لأهم الوسائل وهى ثلاثة : الإعلام ، ثم التعليم ، ثم المنظمات وتشمل الشركات والنوادى والهيئات والظواهر وما شابه ذلك . والمحْوَر الأُفُقى خَصَصْتُه لأهم الأساليب وهى ثلاثة أيضا : الدوائر المتتابعة مثل الدوائر التى تتوالى عند إلقاء حجر فى ماء راكد . بعد الدوائر المتتابعة تأتى أنماط الحياة . ثم ثالثها رُواد التغريب أو حَمَلَة حَطَبَ الغزو الذى أصبح يعبر عنه فى زماننا بحملة المشاعل ، لأن التكنولوجيا جعلت حمل النار فى المشاعل أيسر وأخفى من حملها فى الحطب . وبالتفاعل المستمر بين الوسائل والأساليب فى هذا النموذج - الذى حاولت صياغته بالارتكاز على النظريات الاجتماعية الغربية - يحقق الغزو الثقافى أهدافه بطريقة تشبه الربح المركب أو تشبه المتوالية الهندسية ، بمعنى أن الإعلام يحقق أهداف الغزو فى الدوائر المتتابعة ، وفى أنماط الحياة ، وفى دَعْم رواد التغريب . والتعليم يعمل العمل نفسه فى الأساليب الثلاثة .. وهكذا يُصْبِحُ التفاعل المستمر مثل تكاثر الجراثيم ومثل الأرباح المركبة ومثل المتوالية الهندسية . ويصبح الجمهور المستهدف بالغزو الثقافى يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ومن فوق رأسه ومن تحت أقدامه .

ولقد بَنَيْتُ النموذج مستنداً إلى خَلْفِية التصور الإجتماعى الغربى (١) بأن السمات الأساسية لمجتمعاتهم المتقدمة هى الأنماط المثالية للحياة المتقدمة والحديثة . كما يستند إلى خلفية التصور الإجتماعى الغــربى بــأن نموذج التقدم يشبه إلقــاء حجر فى مــاء ساكن فإنه يصنع سلسلة من الدوائر المتتابعة ، تبدأ صغيرة عند المركــز ثم تتسع فى تتــابع واستمــرار . وعلى هــذا التصور فإن نموذج الإنتشار الثقافى والحضارى الغربى يرتكز على إيجاد النموذج فى المجتمع ثم بمرور الوقت

---

(١) يقسم الدكتور سعد الدين إبراهيم النظريات الإجتماعية الغربية فى التنمية إلى ثلاث مجموعات طبقا لنوع المتغيرات التى تستند إليها كل مجموعة وطبقاً لمصدر ومسار التغيير الإجتماعى المنشود وهى :

(أ) اتجاه الأنماط المثالية للمؤثرات .Ideal type of index models

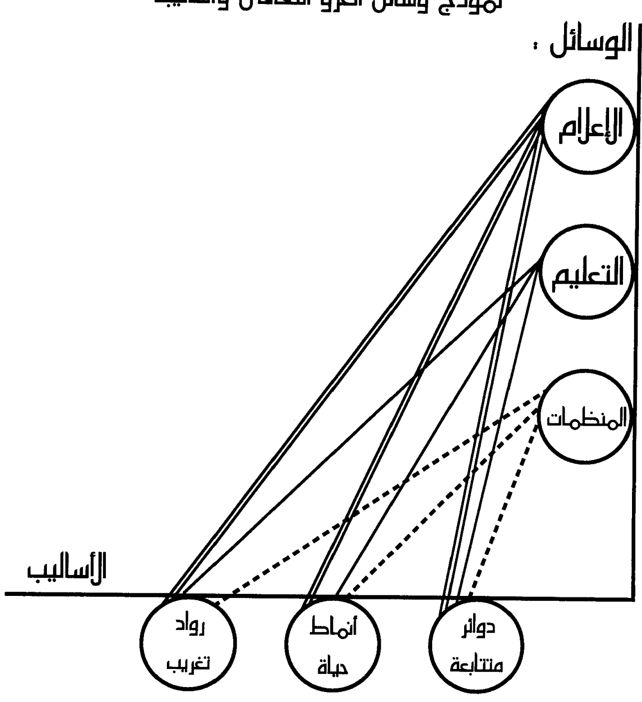
(ب) اتجاه الإنتشار الثقافى الحضارى . The acculturation diffusion model

(ج) اتجاه تغيير الأفراد نفسيا . Individual psychological change model

(انظر كتاب الإعلام والتنمية للمؤلف ص ٩٧) .

واستمرار عملية الإنتشار ، تتحول المجتمعات التقليدية إلى صورة المجتمع الغربى. كما تستند إلى خلقية التصور الاجتماعى والنفسى الغربى بأن تغيير الأفراد فى المجتمعات التقليدية نفسياً وعقلياً ليصبحوا قدوة ونموذجاً لأبناء جلدتهم فى محاكاة الحياة الغربية هو الطريق لصَبْغ المجتمعات بالصبغة الغربية الحديثة . وأنه لكما زاد عدد هؤلاء الأفراد أسرع المجتمع في التحديث والإصْطِبَاغ بالصِبْغَة الغربية.

نموذج وسائل الغزو الثقافى وأساليبه



الإعلام :

يَفْصِلُ اختراع " جوتنبرج " للطباعة عام ١٤٣٦ بين نوعين رئيسين فى تاريخ الإعلام المتمثل فى الخطابة والندوات وما شابه ذلك ، وهو الإعلام القديم ، ثم الإعلام الذى بدأ مع الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى التى أدت إلى ظهور الكتب بأعدادها الكبيرة وتكلفتها الرخيصة ، ثم ظهور الصحف . وجاء " الراديو " عام ١٩٢٠ ليبين أهمية هذا الإعلام الحديث ، ثم " التليفزيون " عام ١٩٣٦ ، وبانتشاره بعد الحرب العالمية الثانية وبتوسعاته الخطيرة فى استخدام البث المباشر عن طريق الأقمار الصناعية ، أصبح الإعلام المعاصر نسيجا أساسيا فى حياتنا المعاصرة ، ويتوقف المؤرخون والباحثون كثيرا أمام اختراع الطباعة ، وهم يتحدثون عن تاريخ الحضارة ، وعن الإنتشار الثقافى ، وعن المدى الواسع والأثر العميق للكلمة المطبوعة . وجوهر اختراع " جوتنبرج " هو صب حروف معدنية منفردة وبارزة فى أمهات يمكن جمعها فى أسطر أو صفحات ، ثم فكها بعد الطباعة حتى يمكن استخدامها من جديد . . وهكذا .

منذ حروف الطباعة المعدنية (والرصاص هو المعدن الغالب فيها) أحس أعداء العرب والمسلمين بأن رصاص المطابع بين أيديهم يُمَكِنُهم من أن يطلقوه فى الكتب على عقول المسلمين ونفوسهم كما يطلقون رصاص البنادق والمدافع على صدور المسلمين وقلوبهم . وهكذا بدأت تصدر الكتب التى تَحُطّ من قيمة الدين الإسلامى وتَسُبُ رسولَه . وبدأت الكتب التى تروج طريق الخلاص أمام العرب والمسلمين بالانسلاخ عن دينهم وثقافتهم وسلوك الطريق الغربى وبدأت الكتب التى تزكى المثل والقيم والفكر الغربى لتصبح جميعها قدوة للعرب والمسلمين . وكان الصدى العَرَبى لهذا الدوّى الغرْبى هو ظهور كتابات وبحوث بأقلام العرب تقلد . وفى أحيان أخرى تهلل وتطبل .

وحتى لا يقع الخلط بين الطباعة " الجوتنبرجية " وبين استخدام الكتاب كوسيلة للغزو الثقافى ضد العرب والمسلمين نقول إن النماذج التى بين أيدينا تسبق الطباعة " الجوتنبرجية " وتمتد إلى الطباعة الحديثة القائمة على التصوير (أى جمع الحروف تصويريا) . والقائمة على استخدام " الكمبيوتر " والتى نستطيع تسميتها الطباعة " الكمبيوترية " .

الكتاب :

إن النماذج التى نَضْرِبُها لاستخدام الكتاب فى الغزو الثقافى ضد المسلمين والعرب تمتد من كتابات " دانتى " فى الكوميديا الالهية (١٢٦٥م - ١٣٢١م) إلى كتابات سلمان رشدى فى الآيات الشيطانية (١٩٨٨م) .

لقد صَوَّرَ دانتى فى كتابه " الكوميديا الالهية " رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم صورة تعبر عن مدى الحقد والكراهية الفَظَّة للإسلام ولرسوله . ففى درجات الجحيم يضع رسولنا فى الدرجة الثامنة من درجات الجحيم التسع . ولا يوجد بعد الدرجة التاسعة إلا الشيطان فى قعر الجحيم . ويُسْهِب دانتى فى وصف العذاب الخاص برسولنا الكريم إسهابا قبيحا إلى حد بعيد.

وكشف الدكتور / محمد صالح البنداق (١) عن مراسلة بين ڤولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وبابا روما " بنوا بنلاكتوش " الرابع عشر Benoit xiv بتاريخ ١٧٤٥/٨/١٧ حول المسرحية التى وضعها " ڤولتير " ضد النبى صلى الله عليه وسلم وضد الإسلام وسماها " التعصب أو النبى محمد " وقدمها لهذا البابا . وفى عنوانها دليل إدانتها .

ويورد محمد سليم قلالة (٢) نماذج لكتابات الأدباء والمفكرين الغربيين ضد عقيدة العرب والمسلمين فيقول :

* لو نبدأ " بشاتوبريان " (١٧٦٨ - ١٨٤٨) نجده يكتب عن جوهر الحروب الصليبية فيقول : لم تَدُرْ الحروب الصليبية حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من الذى سينتصر على هذه الأرض ، مذهب تعبدى هو عَدُوٌ للحضارة ، مُحَبِذٌ باطراد للجهل (يقصد الإسلام) وللطغيان وللعبودية ، أو مذهب تعبدى أدى إلى أنْ يوقظ فى البشر المعاصرين عبقرية الزمن وألغى العبودية الدنيئة . وكان " شاتوبريان " وزيرا للخارجية فى فرنسا قبيل فرض الحصار البحرى على الجزائر فى سنة ١٨٢٧ .

* الشاعر " لامرتين " يصف العرب بأنهم أمم دون أرض أو أوطان أو حقوق أو قوانين أو أمْن ، وهم ينتظرون الملاذ الأمين باحتلال الأوربيين لهم . وقد تولى " لامرتين " وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٨٤٨ .

---

(١) د. محمد صالح البنداق - المستشرقون وترجمة القرآن الكريم - الطبعة الثانية - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٣ ص ١١٥
نقلا عن Theatre de Voltaire Paris, Firmin Diderot Edz, ١٨٥٣

(٢) محمد سليم قلالة - التغريب فى الفكر والسياسة والاقتصاد - الطبعة الأولى - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٨ ص ١٨ إلى ص ٢٢ .

* كارل ماركس يقول إن على انجلترا أن تحقق فى الهند (كانت آنذاك تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش) رسالة مزدوجة : الأولى تدميرية ، والثانية إحيائية تجديدية ، إفناء المجتمع الآسيوى وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربى فى آسيا .

* " أرنست رينان " (١٨٢٣ - ١٨٩٢) صاحب الرسالة الحضارية للاستعمار ، والقائل دائما بعدم أهمية الحضارة الاسلامية وانعدام أىِّ دَوْرٍ لها فى التاريخ ، يقول إن الحضارة تشكلها ثلاثة تواريخ : التاريخ اليونانى ، وتاريخ بنى إسرائيل اليهود ، والتاريخ الرومانى . اليونان قدموا النزعة الانسانية والعقلية . بنوا اسرائيل غطوا النقص لدى اليونان فقدموا الدين . الرومان أتموا الحلقة بتقديم القوة التى انتشر بها الانتاج العقلانى والدين والحضارة . أما الحضارة الاسلامية فلم تقم إلا بدور الناقل والمُخَزِّن لعدة قرون لهذه الحضارة حتى تَسَلَّمَها منهم الغرب الحديث ، حتى يواصل المسيرة .

* " وليام موير " مؤلف كتاب حياة محمد ، وكتاب الخلافة ، يقول : إن سيف محمد ، والقرآن ، هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهما العالم حتى الآن عناداً .

* " سيلفان ليفى " يرى أن الغرب هو المسئول عن الشرق وينبغى أن يوجهه ويقول : لقد أخذنا على عاتقنا مسئولية التدخل فى تطورهم . ونحن ندعى خطأً أو صواباً ، أننا نُمَثل حضارة أسمى ، وبسبب الحق الذى يمنحنا إياه هذا التفوق . . فقد وضعنا جميع تقاليدهم موضع تَسَاؤُل .

ويروى الدكتور ابراهيم عبده (١) نقلا عن " بروشى " Brocchi واقعة حدثت فى المطبعة الأميرية بالقاهرة فى حكم محمد على ، لها دلالة واضحة على رُوح العداء الغربى للإسلام فيقول : "كان بين مدرسى مدرسة الفنون الجميلة " بيلوتى " الإيطالى Bilotti وقد نَظَم هذا المدرس قصيدة شعرية طويلة سماها ديانة الشرقيين ، أَسَاءَ فيها إساءةً بالغةً إلى الإسلام والمسلمين . ودعا فيها إلى التهوين من أمر هذا الدين والسخرية برجاله ، وقد اتفق " بيلوتى " سرا مع " نقولا مسابكى " أفندى ناظر مطبعة بولاق على نشر قصيدته فى المطبعة . وكان مسابكى تلميذا لإيطاليا ، وأحد مبعوثى الوالى فيها ، وهو لايعنيه أمر احترام الدين الإسلامى فى شىء ، وإيطاليا فى ذلك الوقت موطن العداء لهذا الدين ، فتم طبع القصيدة دون علم الوالى . وعندما علم الباشا بالخبر من أحد القناصل . وَتَبَيَّن للباشا أنَّ فى الكتاب فحشاً فى القول وزرايةً بالدين ، إلى درجة أنه يستحيل على أى حكومة أن تقبل ألفاظه أو معانيه مهما تساهلت فى حرية النشر أو حرية القول والكتابة ، أمر محمد على بمخطوط الكتاب فألقى فى النار . وكاد يقتل مسابكى ولولا شفاعة " عثمان نور الدين" أحد رجاله المقربين لتـَمَّ القضاءُ علـى المؤلف وناشره معا .

(١) د. ابراهيم عبده - محنة الصحافة وولى النعم - سجل العرب - القاهرة ١٩٧٨ ص ٨ -٩

* وفى مجال العلوم البحتة لم يَسْلَم العلماء المسلمون من تقليل الشأن وَبَخْس دورهم ، ويلفت الدكتور أحمد فؤاد باشا (١) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة الأنظار إلى وجود نوع جديد من الاستشراق لا يكتفى بمعرفة الشرق من أجل إختراقه وإحكام السيطرة عليه ، ولكن يهدف أيضا إلى بث أفكار خاطئة عن الإسلام والمسلمين من أجل حماية الإنسان الغربى من أنْ يرى نور الإسلام فيؤمن به ويحمل رايته . ويسوق أمثلة من كتابات مؤرخى العلم يشوهون وينكرون الدور الإسلامى فى تاريخ العلوم ، فهذا هو " جورج سارتون " G. Sarton الذى يعد على رأس المشتغلين بتاريخ العلم فى القرن العشرين يقول فى مقدمة الجزء الأول من كتابه " تاريخ العلم " : وحديثنا عن الماضى محدود من عدة وجوه . أحد هذه الوجوه الضرورية أنه يجب أن نقصر أنفسنا على أسلافنا فحسب . ثم يواصل حديثه مركزا على ما أسماه بالمعجزة اليونانية ، وتفوقها على الحضارات المجاورة لها قائلا : والواقع أن ثقافتنا النابعة من الأصل الإغريقى والعبرى هى الثقافة التى تعنينا كثيرا ، إن لم تكن هى كل ما يعنينا . وفى سلسلة تاريخ العلوم العام التى تقع فى أربعة أجزاء ساهم فى تأليفها أكثر من مائة باحث باشراف " رينية تاقون " نجد المدح والثناء يُكَالان على ما يسمى " بالعلم العبرى " والعلم المسيحى " كما تساق التبريرات الواهية لاعتبار اسرائيل ضمن الحضارات الكبرى القديمة فى الشرق الاوسط وللاشادة بالعصر الذهبى للعبقرية السامية فى حضارة بابل وآشور . وفى كتاب " العلم فى التاريخ " لم يستطيع " جون ديزموند برنال " J. Bernal أن يخفى تَحَيُّزَه الواضح إلى جانب الإغريق والفرس والرومان ، فى الوقت الذى يكيل فيه إتهامات متنوعة للإسلام والمسلمين دون أن يشرحها أو يُدَلِّل عليها ، فالإسلام فيما يزعم " برنال " أقام ثقافة متلاحقة ظلت باقية إلى يومنا هذا بالرغم من أنهَا ليست ثقافة تقدمية . واللغة كما يزعم " برنال " - هى التى حجبت الدور الكبير للعنصر الفارسى فى العلوم الاسلامية الشرقية . والمسلمون يتحملون مسئولية كبيرة عن إقامة حواجز بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية إلى يومنا هذا ، بدعوى أنهم لم يترجموا إنسانيات الاغريق مثلما ترجموا معارفهم العلمية والفلسفية . فانتقلت الإنسانيات والعلوم إلى الثقافة الحديثة عن طريقين مختلفين .

وينكر " برنال " مآثر علماء المسلمين ويَقْصُرها فقط على مجرد حفظهم لمواريث القدماء ، قائلا : رضى معظم علماء المسلمين بالنمط الكلاسيكى الأخير للعلوم ، وَوَثَقوا هذا النمط ولم يكن لديهم طموح كبير ليحسنوه ، ولم يكن لديهم أى طموح لأن يطوروه تطويرا ثوريا " .

* وقد أُستُخْدمت دوائر المعارف العالمية لبث سموم التشكيك فى رموز الاسلام . إن أعرق الموسوعات العلمية وأكثرها شهرة فى العالم وهى دائرة المعارف البريطانية لم تخلو من الإفتراء على

---

(١) د. أحمد فؤاد باشا- الاتجاهات المعاصرة فى دراسة العلم الإسلامى - مجلة الأزهر- عدد ذى الحجة ١٤١٢ الموافق يونية ١٩٩٢

الإسلام ، وعلى القرآن الكريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ففى طبعة عام ١٩٧٨م نتناول الأضاليل الفاحشة فى المادة المنشودة بدائرة المعارف البريطانية (١) تحت عنوانى " الاسلام " و "محمد " بالبحث والتمحيص حيث يقول مؤلف مقال " الإسلام ":

" إن الصورة التى تتداخل فيها صفات القوة والعدل والرحمة ذات صلة بالتراث اليهودى المسيحى ، حيث استمدت منه بعد أن طرأ عليها بعض التعديلات ، وكذلك تتصل بالوثنية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية " . وقد حاول الكاتب بكل دهاء وَخُبْث وعن عمد الزَّعْم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد استقى مفهوم الله من المصادر اليهودية - المسيحية والمفاهيم الوثنية التى سادت شبه الجزيرة العربية ، ويقول مؤلف المقال نفسه " لم يأت (النبى محمد " بمعجزة إلا معجزة القرآن . . . ومع ذلك فقد نسب المسلمون إليه عقب وفاته فيضا من المعجزات.
وتتناول هذه الموسوعة موضوع " الإسراء والمعراج " بأسلوب أكثر وقاحة وأشد خبثا فنشرت صورة بين سطور الموضوع تصور النبى صلى الله عليه وسلم ممتطيا صَهْوَة " البراق " وهو يعرج إلى السماء وفى مَعيَّته جبريل عليه السلام ، وظهرت الحوريات أيضا وهن فوق ظهور الجمال .

وكتبت أسفل الصورة العبارة التالية : " زيارة محمد للجنة " قد ظهر محمد إلى اليمين فوق البراق ذى الرأس الآدمى ، وجبريل إلى اليسار " وفى أسفل الصورة ظهرت ثلة من الحور العين وهن يتبادلن باقات الزهور إحتفاء بيوم الجمعة الذى يعتبر يوم عطلة إسلامى " .

و تَدُلُّ مثل هذه الصور والرسوم والعبارات دلالةً واضحةً على خبث كل من اختارها وكتبها ونشرها ، وسوء نيتهم وعدائهم وسخريتهم من عقيدة الإسلام ومبادئه وسيرة رسوله الكريم .

وفى الصفحة نفسها من هذه الموسوعة التى انخدع بها - ولا يزال ينخدع بها - عدد كبير من المثقفين المستغربين ، من العرب والمسلمين ، صورة أخرى تسخر بالشخصيات الإسلامية الدينية ، مع التركيز على الاستهزاء بالزى العربى التقليدى وهى : صورة ظهرت فيها الملائكة وهى تسجد لآدم بينما جلس ابليس رافعا هامته وقد أبى أن يشارك فى السجود .

وكتب أسفل الصورة التعليق التالى :

" رفض ابليس أن يعبد آدم . وقد ظهر ابليس على هيئة إنسان فوق سجادة صلاة إلى اليمين"، والملاحظ فى هذه الصورة أن هؤلاء المستشرقين الذين يضمرون كراهيتهم وسوء نيتهم تجاه الاسلام والمسلمين والعرب قد صَوَّروا الشخصية التى يتخيلها العرب والمسلمين رمزا للتدين والآداب الاسلامية ، على هيئة " ابليس " فهو (فى الصورة) قد ارتدى عباءة وعمامة ، وقد أطلق

---

(١) وقائع ندوة التحدى الحضارى (مرجع سابق) ص ١٦٠ الى ص ١٦٣ .

لحيته وجلس فوق سجادة للصلاة بينما ظهرت فيها صورة آدم عليه السلام عاريا حليق الوجه وفى وضع مضحك للغاية ، وهل يمكن تصور صدور مثل هذا الخداع والغش والمكر من العلماء الأكاديميين؟! .

ومن الزيف الصريح ، والضلال المبين الذى حفلت به هذه الموسوعة العالمية ، فى تناولها إطار العقيدة الاسلامية التى جاء بها القرآن الكريم وبينتها السنة النبوية الشريفة . زيفها عن المصادر الأصلية للعقيدة الاسلامية إذ تقول :

" إن النبى محمدا قد تبعه سبعة أئمة يتولون تفسير إدارة الله إلى الناس ، وهم بمعنى معين ، أسمى منزلة من النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم يستمدون علمهم مباشرة من الله وليس من ملك التنزيل " . وهل يمكن تصور صدور مثل هذه الترهات من عالم باحث يريد التَعَرُف على حقائق الأمور من مصادرها الأصلية ؟ مهما كان اتجاهه السياسى واعتقاده الدينى . وهل يخفى عليه أن الإسلام يتعرف عليه من خلال مصادره الأصلية ألا وهى القرآن والسنة النبوية ؟ ولا ينبغى أن يحكم عليه من خلال أقاويل أو أضاليل المخرفين والمحرفين ! .

وتقول الموسوعة فى مقالها بعنوان " محمد " :

" وفى أغلب الأوقات كان المسلمون يشاركون محمدا فى الصلاة فى داره التى تحولت بعد وفاته إلى مسجد المدينة " ، والواضح جدا من هذا القول أن المؤلف لاعلم له حتى بأبجدية حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ بناء مسجد الرسول بالمدينة المنورة الذى هو أهم معالم التاريخ الإسلامى ، ويعلم التلميذ المبتدئ لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن أول وأهم عمل قام به الرسول عقب وصوله إلى المدينة مباشرة هو بناء المسجد ، الذى تضافر فى إقامته الرسول وصحابته الكرام ، وبعد ذلك شيدت دار للرسول بجواره من الطين مكونه من غرفتين ، ومنذ أول وهلة للهجرة كان مسجد الرسول فى المدينة مركزا للقيادة ومقرا للتعليم والقضاء والإدارة والشورى ، فكيف يهذى هذا الكاتب العالم الموسوعى بأن دار النبى تحولت بعد وفاته إلى مسجد المدينة !؟ ولا يقتصر التشوية لصورة الاسلام و المسلمين فى دائرة المعارف البريطانية على تشويه رموز الاسلام والمعتقدات الاسلامية ، بل يصل إلى دجة تزييف الارقام والاحصاءات . ففى الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية عام ١٩٦٨ والكتاب السنوى لعام ١٩٧٢ يرد الجدول التالى:(١)

---

(١) د. أحمد اسماعيل - دراسات فى جغرافية العالم الإسلامى - معهد الدراسات الإسلامية القاهرة - ١٩٨٢ - ص ١٢

الديانة	١٩٦٨		١٩٧٢	
	العدد بالملايين	النسبة المؤية	العدد بالملايين	النسبة المؤية
المسيحية	٩٧٧.٤	٢٨.٨٪	٩٨٥.٤	٢٧.٧٪
الاسلام	٤٧٤.٣	١٤٪	٤٧١.٣	١٣.٣٪
اليهودية	١٣.٥	٠،٤٪	١٤.٥	٠،٤٪
جملة الديانات الثلاثة	١٤٦٥.٢	٤٣.٢٪	١٤٧١.٢	٤١,٤٪
معتقدات وديانات أخرى	١٩٢٦.٦	٥٦.٨٪	٢٠٨٠.٨	٥٨.٦٪
جملة سكان العالم	٣٣٩١.٨	١٠٠٪	٣٥٥٢	١٠٠٪

من هذا الجدول يبدو أن الديانة الوحيدة التى حدث تناقص فى عدد أتباعها هى الاسلام . والأمر ليس قاصرا على النسبه المئوية . ولكن يمتد إلى العدد المطلق . و هذا يوضح مدى التحيز . فى الوقت الذى تجمع فيه المصادر المختلفة فى الغرب ذاته أن معدلات الزياده الطبيعية والانجاب بين المسلمين أعلى المعدلات بين أتباع الديانات المختلفة ، إلى جانب إعتناق أعداد من الديانات الاخرى الاسلام ديناً لهم .وكشف التزييف الرقم الخاص باليهود فإنه يعطى إنطباعا بثبات نسبتهم المئوية ولكن الواقع يؤكد أن نسبة الانجاب لديهم أقل وأنه دين مغلق لا يقبل أعضاء من خارجه .

* « أنطوان شلمت » أديب فلسطينى يعيش داخل إسرائيل ويعمل فى صحافة اليسار ويكتب النقد الأدبى والمسرحى ، أصدر فى لندن عام ١٩٩١ كتابا بعنوان « أسطورة التكوين ، الثقافة الاسرائيلية الملفقة » والمؤلف كما يصفه - فاروق عبد القادر (١) - يصحبنا فى جولة حول مختلف جوانب الثقافة فى إسرائيل ولكننا نتوقف أمام الكتب الاسرائلية التى تحط من شأن الانسان العربى والفلسطينى خاصة ، وتسفه العادات والتقاليد العربية ، فى الفصل الأول يتناول الكتاب بعض الكتب التى لا يتضمنها منهاج التدريس الرسمى ، لكنها ترد فى قائمة كتب المراجع للمعلمين ، والتى تقررها وزارة المعارف والثقافة فى منشور دورى خاص . أول هذه الكتب

(١)فاروق عبدالقادر - الدولة العنصرية تستخدم الكتاب والمسرح والصحف والأفلام لتأكيد أهدافها - صحيفة الأهالى بتاريخ ١٩٩٢/٧/٨

وواحد من أكثرها بشاعة عنوانه « موضوعات مركزية فى تاريخ الشعب والدولة إبان العصور الاخيرة » من تأليف « أمنون حيفر » الذى يقول فى كتابه هذا أن كل الأقوال بشأن الحقوق التاريخية التى يحفل بها النقاش بيننا وبين العرب تفتقد إلى الحقيقة ، وناجمة لدينا عن قلة الفهم ، وقلة المعرفة والدراية بتاريخ الاستيطان اليهودى فى أرض إسرائيل . إن أمتنا ولدت فرضيات كاذبة ، بينها تلك الفرضية أنه لدى عودتنا إلى البلاد ، بعد هجرة دامت ألفى سنة ، وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر أقام لمدة مئات السنين ، هذا غير صحيح ، لا من قريب ولا من بعيد ، الحقيقة هى أننا عندما أتينا إلى هنا ، الآن ، لم نلق أى شعب ، وبالتأكيد ، لم نلق شعبا أقام مئات السنين.... »

وبطبيعه الحال لابد أن تتعرض هذه الكتب لما حدث عام ١٩٤٨ ، وأن تسعى لتقديم إجابتها عن السؤال : هل تم تشريد اللاجئين العرب من أرضهم ؟ الإجابة فى :كتاب أخر هو «أسطورة التشريد الصهيونى » . من تأليف « أريبه أفنيرى » والصادر أيضا عن وزارة المعارف والثقافة ، الإجابة من شقين مرتبطين ، تأكيد الحق المطلق لشعب إسرائيل فى العودة والاستيطان على أرض أبائه وأجداده ، من ناحية ،و إسقاط هذا الحق ، عن الفلسطنيين من الناحية الأخرى ، وتأكيد الشق الأول لا يتم إلا بنفى الثانى ، هنا يأتى القول بأن « الجماهير العربية (لاحظ التسمية التى تهدف إلى تغييب الهوية الفلسطينية تماما) لم يزد عددها أبدا عن ٣٠٠ ألف نسمة ، وهذه الحقيقة عائدة إلى افتقار هذه الجماهير إلى الروابط القوية بالأرض ، وإلى انعدام العوامل التى تجعل منها مجتمعا قائما بذاته ، ويركز الكتاب على الحديث حول «العربى » أو « البدوى » أو « المستأجر » ولا يتحدث أبدا عن الفلسطينى ، ويؤكد إختفاء الروابط بين هذا البدوى أو المستأجر وبين أرضه ، وبما أن الأرض هى الوطن فإنه يفتقد الروابط القوية بالوطن ، لهذا يتنازل عنه طائعا مختارا راضيا، ثم إن هذا العربى أو البدوى «متخلف » ولا يسطيع أن يستغل جميع الإمكانات التى تتيحها الأرض ، وهو - من ثم لا يستحقها ، ويخلص المؤلف إلى القول أنه يتعين على كل مواطن إسرائلي مخلص للدولة والأمة ، أن يواجه مزاعم الفلسطنيين بالإنتماء إلى أرض فلسطين بإسقاطها كليا . فكما أن أجداد العرب غادروا بلادا عربية أخرى .. وجاؤا للسكن فى الأماكن التى تقوم عليها اليوم دولة إسرائيل ، فإنه ليس اقتلاعاً قوميا أن يعود أحفاد المستوطنين العرب من تلك الفترة إلى أراضى أبائهم فى بلادهم الأصلية .... »

ثم يقف الكاتب بالتفصيل عند كاتب قصص الأطفال « شراغا غفنى »، ومن الواضح أنه من أهم أولئك الكتاب وأخطرهم، يكتب بإسمه السابق وبأسماء مستعارة ، وقد كتب حوالى مائة وعشرين مجموعة قصصية للأطفال وللفتيات ، وهو يعلن دائما أنه أحد رجال جماعة « أرض إسرائيل الكاملة » وأنه عمل فى صفوف المنظمات الإرهابية المختلفة ،و يؤكد ولاءه وتبعيته لأفكار

«إبراهام شترين » ،وهو يقول فى قصصه بصراحة ووضوح " إن العربى الصالح هو العربى الميت أو العربى الذى انصهر فى الشعب العبرى » وهو يصوغ مقولات التوراة فى مسلسل رائج جدا باسم «عالم التوراة للأطفال » وينطلق فيه من قبول العنصرية » تماما مثلما إنطلق مؤسس الصهيونية «تيودر هرتسل » فى صياغة مقومات أيدلوجيته من قبول العنصرية ، وإعتبارها عاملا مقرراً وهاما. ويدلل « أنطوان شلحت » على وجهة نظرة بعرض مفصل لأحد أسفار التوراة هو «سفر استير» ليخلص إلى القول بأن حصيلة ما تقوله المعطيات والنماذج السالفة لا نجد تفسيرا لها إلا فى إحتواء الثقافة الاسرائيلية الرسمية ذاتها ، ومن ثم الوعى الاسرائيلى برمته ، من قبل السياسة الصهيونية ، أو بمعنى آخر فى تحويل هذه الثقافة وذلك الوعى إلى أدوات فى معركة تلك السياسة . وحرمانها من أية أصالة ذاتية أو استقلالية .

ما الموقف الذي تؤدى إلية هذه " الثقافة " تجاة الإنسان العربى ؟و ما شروطه ؟ ، وكيف تتولد تلقائيا لدى أجيال الفتيان فى إسرائيل ؟ أجرى أحد المحاضرين فى كلية التربية بجامعة حيفا - " أويركوهينى " - استطلاعا بين طلاب الصفوف النهائية فى مدارس حيفا ، ثم كتب مقدمة لبحثه ونشر نتائجه فى كتاب : " انعكاس شخصية العربى فى أدب الأطفال العبري " وشارك فى الاستطلاع ٥٢٠ طالبا حيفاويا ، طلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة موضوعات :

أولا : ما هى التداعيات التى يثيرها سماع كلمة : عربى ؟

ثانيا : كتابة قصة أو وصف قصير ، أو موضوع إنشاء ، حول لقاء مع عربى .

ثالثا : تلخيص كتاب قرأوه ، وينطوى على وصف للعربى ، وشرح تأثيره عليهم .

رابعا : محاولة شرح أسباب النزاع مع العربى .

خامسا : المجاهرة بأرائهم فيما إذا كان إحراز السلام ممكنا ، وفيما إذا كان ممكنا قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب

وقد تمثلت أهم نتائج الاستطلاع فيما يلى :

أولا : مستوى الخوف من العربى عالٍ بشكل مذهل ، ففى أكثر من ٧٥ ٪ من الإجابات ترافقت شخصية العربى مع " خاطف الأولاد والقاتل " و" المخرب " و"المجرم "وماإلى ذلك .

ثانيا : تجريد شخصية العربى تجريدا سلبيا (قولبتها) ، ففى حوالى ٨٠ ٪ من الأجابات تأطرت تشابيه العربى فى العبارات التالية :

" يعيش فى الصحراء و" راعى بقر " ، " ذو سحنة مخيفة " ، " فى وجهه ندبة " قذر"ونتن " ، تنبعث منة رائحة كريهة " .. ألخ .

ثالثا : الجهل التام بين أوساط الطلاب اليهود لشكل العربى وهيئته وتاريخه وعاداته ، فقال بعض الطلاب إن العرب أصحاب شعر أخضر ، وأكد البعض الأخر أن العرب لهم ذيول " .

رابعا : تسعون بالمائة من الطلاب يتنكرون لحق العربى فى البلاد ، ويؤمنون بأنه ينبغى قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم .

خامسا : قلائل هم الذين حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر من التفصيل ، وأكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومُبْتسرة مثل " إنهم يَنْوُون قتلنا . " وتشريدنا من البلاد " واحتلال مدننا وقذفنا فى البحر !

سادسا : غالبية الطلاب الذين يرغبون فى السلام يرون أن السلام يعنى تسليم العرب بالسيادة الاسرائلية على " أرض اسرائيل الكاملة " بما فى ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة .

تعليق : أليس هذا كله هو الحصاد الطبيعى والمطلوب !؟

آيات شيطانية :

فى أكتوبر ١٩٨٨ نشر الكاتب « سلمان رشدى » رواية فى لندن عنوانها آيات شيطانية ،و « سلمان رشدى » من الهنود المسلمين ، أصبح قبل ما يزيد عن ثلاثين عاما من نشر رواية انجليزى الجنسية .

والكتاب رواية وليس بحثا فى الاديان ولا نقداً للتدين . ولغة الرواية هى الانجليزية التى يكتب بها سلمان . هذه الرواية تحمل - كما وصفها الكاتب القدير « فهمى هويدى » بعد قراءتها - قدرا من الفحش غير المسبوق فى سب الإسلام . فالمؤلف لم يترك رمزا من رموز الاسلام الا وسَبَّه وهَتَك حُرْمتة . والمؤلف - على حد وصف فهمى هويدى - لم يترك للقارىء مجالا للإلتباس ، وإنما أشار إلى الجميع بإسمائهم الصريحة.

وإمعانا فى ذم النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه أشار إليه بكلمة " مهوند " ومعناها الشرير أو النبى المزيف . وهو فى كتاب سلمان رشدى مصابُ بالصرع والهلوسة . وفى مستهل الكتاب يصف سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء بأنه ابن زانية . ثم يصف الصحابة بأنهم من الأوباش والحثالة ،

وزوجات الرسول أمهات المؤمنين توزعت أسماؤهن على مجوعة من الساقطات يعملن فى بيت للدعارة يحمل اسم الحجاب .

وقد ظل أمر هذا الكتاب عند صدوره فى وسائل الاعلام العالمية والعربية هينا حتى أصدر الإمام " الخومينى " رحمه الله فتوى باهدار دم المؤلف وحث المسلمين على قتله . واهتزت دوائر الغرب السياسية والإعلامية وأرغت وأزبدت ، فسحبت أثنتا عشر دولة أوربية غربية سفراءها من إيران . واعتبرت المؤسسات الغربية والولايات المتحدة الامريكية هذا السباب قضية حرية رأى . واعتبرت فتوى الإمام الخومينى ردة حضارية وتعصباً إسلامياً وعودة الى القرون الوسطى . ومن هذا الهدير الغربى نشرت صحفنا العربية أطرافا من الحكاية. وكان طبيعيا أن يتصدى كتابنا العرب للموضوع لاعتبارات متباينة . ومن خلال سَيْل الكتابات المصرية تبين أن مَنْ قرأ الرواية وألَم بأطرافها هم : أنيس منصور ، وأحمد بهاء الدين . وفهمى هويدى . قال أنيس منصور (١) تحت عنوان (سلمان الكذاب .. مؤامرة على الاسلام) إن سلمان رشدى يستحق ضرب الجزم (الأحذية) من كل المقاسات . فما هى هذه الرواية ؟ انها رواية طويلة فى ٥٤٧ صفحة . وقد إنطلق خيال المؤلف فى كل الاتجاهات .. طبعا هو كمسلم يعرف الكثير من الأحداث فى تاريخ السيرة النبوية ، وعدد من الأسماء العربية من الصحابة . هذه الأسماء قد حرفها .و هذه الرواية قد بدأت بانفجار إحدى الطائرات الهندية فوق بحر « المانش » ليموت كل الركاب ، وينجو إثنان من نجوم الشاشة الهندية . أحد هما أسماه جبريل رمز الخير ، والآخر رمز الشر . ويسقط الاثنان على الأرض دون أن يصاب أحدهما بأذى ، ولكن بعد ذلك تبدأ المشاكل .

والمؤلف عنده عدة مشاكل نفسية وثقافية ، فهو هندى وليس هنديا . بريطانى وليس انجليزيا ، فهو هندى حتى العاشرة من عمره وبريطانى بعد ذلك . وروايته هلوسة تاريخية وفنية- وهو يلعب بالأحداث وبالأسماء . فمكة يسميها الجاهلية . وأبو سفيان يسمية أبو سمبل والرسول صلى الله علية وسلم يسمينه « محندا » . ثم يصفه هو وجبريل بأنهما من رجال الأعمال . وأن القرآن الكريم ينزل على شكل أوامر من جبريل للناس فى كل شىء فى الطعام والشراب وكيف ينامون معا وكيف يستحمون ، وكيف العلاقات فى الفراش وبعيدا عنه . وأسلوب سلمان رشدى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن وعن الوحى فية قدر هائل من الوقاحة والاستخفاف والتشكيك ، والهلوسة المسمومة . ويختم أنيس منصور مقاله قائلا : المؤكد أن سلمان الكذاب قد تعمد الإساءة إلى الإسلام والقرآن والرسول و الوحى ، وكل العلاقات الشريفة الرفيعة للرسول صلى اللة علية وسلم .

---

(١) أنيس منصور – سلمان الكذاب .. مؤامرة على الإسلام – صحيفة أخبار اليوم بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٨٩ .

أما فهمى هويدى (١) فقد ذكر أنة تلقى الكتاب وقرأه . وإن أمرين استلفتا نظره . أكذوبة مألوفة ، وفحش غير مألوف ، وهذا الفحش هو سَبٌ رموز الإسلام الظاهرة سباً لم يسبق مثله أما الأكذوبة المعادة ، والمكررة فى كتب المستشرقين فخلاصتها أن الشطان استطاع أن يُلقى على لسان النبى صلى الله علية وسلم بآيات تمتدح الأصنام وتُعَظم من شأنها وتثبت شفاعتها للناس عند الله ، وتلك هى الآيات الشيطانية التى جعلها المؤلف عنوانا لكتابه . والقصة لها أصل مدسوس فى بعض كتب التراث ، ويُرْجع العلماء وضعها إلى الزنادقة . ويضيف فهمى هويدى أنّ المرء يُصْعَق وهو يقرأ كتاب سلمان رشدى، ويشعر بأن إنسانا جاحدا وكارها يلاحقه بسكين مسموم ، يغرزه فى قلبه كلما لاحت له الفرصة . ينتهك عقيدتة ويمزق أوصال إيمانه ، ويدوس عليها بحذاء قذر.

وتناول أحمد بهاء الدين (٢) هذا العمل فقال إنه رواية تزيد عن خمسمائة صفحة ، وكاتبها « سلمان رشدى » الهندى المسلم سابقا الانجليزى الملحد حاليا . وقد كتب هذه الرواية بطريقة مغرقة فى الخيال ، أقرب إلى الأحلام غير المنطقية ، للتعبير عن غربته وتخلصه من هنديته وحياته القديمة ، بما فيها الإسلام . ولكنه اتخذ الإسلام مادة له فى هذه القصة . ويقول أحمد بهاء الدين : لن أحاول هنا سرد القصة أو تلخيصها ، فناقل الكفر فى هذا المجال كافر ، وما قاله فيها فاحش ومفجع لأى مسلم . ويضيف أحمد بهاء الدين أنه يمكن الإشارة إلى الرواية فى أضيق الحدود . وتبدأ الرواية بنسف طائرة فى الجو فتسقط فوق « انجلترا » . ينجو هنديان ويبدآن حياتهما الجديدة . يروى الكاتب أحلامة وذكرياته وهلوساته الفنية . وسلمان رشدى يُدْخل الأزمة فى بعضها البعض ، الجاهليةُ متَدَاخلة فى الإسلام ، وشبه الجزيرة فى لندن الحالية ، وصوت بلال ينطلق من ميكروفونات الإذاعة . كله بأسلوب ساخر مستهتر ، محتقر لكل هذا . وهو لا يخفى كفره وارتداده ، وإنما يسجله فى أواخر الكتاب حين يسجل سعادته بأنه صار انجليزيا ، ونجا من حياته الأولى ، ويضيف أحمد بهاء الدين قائلا ، على هذا النحو من الهلوسة الفنيه صاغ سلمان رشدى روايته ، وتجرأ على الإسلام ورموزه ببذاءة ليس لها مثيل فى أى كتاب آخر عن الإسلام .

---

(١) مقال فهمى هويدى بجريدة الاهرام بتاريخ ٢٨ / ٢ /١٩٨٩ م.

(٢) أحمد بهاء الدين -يوميات - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٨٩ ، ٢٦ / ٢ . ٢٧ / ٢ / ، ٢٨ / ٢ ، ٣/١ ، ٣/٢ / ١٩٨٩ م .

وكشف أحمد بهاء الدين عن موقف دار النشر وهى دار«بنجوين» التى يصفها بأنها أشهر وربما أكبر دار نشر إنجليزية فقال إن دار « بنجوين » لها جزء هندى ، بإعتبار سوق قراءة اللغة الانجليزية فى شبه القارة الهندية من أكبر الاسواق . ودور النشر الكبرى فى العالم الخارجى تعرض المحظوطات التى تتلقاها على نقاد خبراء فى الموضوع مهما كان حجم الكاتب ليكون هناك أكثر من رأى . وقد ظهر أن دار «بنجوين »للنشر عرضت مخطوط آيات شيطانية قبل نشره على أستاذ وخبير هندى - غير مسلم هو « مستر كوشوانت سنج » وقد قال وأعلن ذلك فى صحيفة «التاميز» الانجليزية أنه رفض الموافقة على نشر الرواية ، وأنه كتب تقريراً بذلك لدار «بنجوين» وبعد فترة عادوا فطلبوا منه تقريرا آخر، فكتب لهم تقريرا ثانيا يؤكد رأيه الأول فى خطورة نشر هذا الكتاب ، وقال لهم إن الكتاب ينطوى على إساءة غير محتملة ، بالنسبة لتسعين مليون مسلم هندى ، وأنه يعتقد أن الحكومة الهندية لن تسمح بطبعه فى الهند . ولكن دار «بنجوين» برغم هذه التحذيرات لم تأخذ برأيه ونشرت الرواية (١)

والواقع أن «سلمان» ودار النشر ينفذان فى آيات شيطانية عنصرا من عناصر خطة العمل التى اقترحها قادة الحرب الثقافية ضد الاسلام من الاوربيين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهى تفنيد تعاليم الاسلام ورموزه وإثارة السخرية حولها والاستخفاف بها .

ويقول الدكتور أحمد عبد الرحمن (٢) إن هذه الخطة لا تزال تطبق فى أوربا وأمريكا إلى اليوم « فمنذ ذلك التاريخ لم تنقطع السخرية بالقرآن الكريم ، ولم يوقف الاستخفاف بنبى الاسلام ، وبذلت المحاولات بلا إنقطاع لتصوير محمد صلى الله علية وسلم على أنه المسيخ الدجال ، والنبى الكاذب . ومؤسس أشنع فرقة دينية فى تاريخ المسيحية، لقد لاحظ بعض كتاب الغرب المعاصرين أنه من بين عظماء العالم أجمعين لم تشوه سيرة كما شوهت سيرة رسول الله صلى الله علية وسلم . ولم يؤذ أحد كما أوذى . وهى ملاحظة صحيحة دون شك . وفى الشعر الاوربى بمختلف اللغات اللاتينية والفرنسية والالمانية والانجليزية ملاحم طويلة تسب الرسول صلى الله علية وسلم وتشتم دينه وتتطاول على القرآن الكريم »

إن الجمهور المستهدف في المقام الأول المسلمون الهنود لتشكيكهم فى دينهم ثم فى المقام الثانى غير المسلمين حتى لا يقتربوا من الاسلام . لقد ظهر ذلك واضحا من سلمان رشدى نفسه . فبرغم إختفائه عقب إعلان فتوى الامام الخومينى رحمة الله إلا أنه صاح من مخبئه عندما منعت الهند دخول الكتاب . فقد كان من ضمن البلاد التى بادرت بمنع دخول الكتاب إلى بلادها الهند

---

(١) أحمد بهاء الدين - يوميات - جريدة الأهرام - بتاريخ ٨ - ٣ - ١٩٨٩ م

(٢) د. أحمد عبدالرحمن إبراهيم - كتاب آيات شيطانية ، الصياغات الجديدة لتراث الإسفاف ، صحيفة الشعب بتاريخ ٢٨ - ٢ - ١٩٨٩ م .

والذى أصدر قرار المنع ، وزير مالية الهند عن طريق مدير الجمارك . وقد أرسل سلمان رشدى خطابا إلى رئيس وزراء الهند (١)، يرجو فيه أن يقرأ كتابه «آيات شيطانية»، ثم يحكم عليه ، وقد نشرت الرسالة جريدة «النيويورك تايمز» وهذه أول رسالة يكتبها سلمان رشدي من مخبئه يقول فيها :

عزيزي راجيف غاندي .أصدر وزير ماليتكم قراراً بحظر دخول روايتي (آيات شيطانية) بمقتضي المادة ١١من قانون الجمارك الهندية. وقد دهش الناس في أنحاء العالم أن يكون وزير المالية هو الذي يقرر ماذا يقرأ الشعب الهندي وما لا يقرأ ؟ وقد منع الكتاب بناء على طلب إثنين من أعضاء مجلس البرلمان الهندى المسلمين وهما : سيد شهاب الدين ، وخورشيد علام خان ، ومن المعروف أنهما من الجماعات الإسلامية المتطرفة ، وأنهما صرحا بأنهما لم يقرآ الكتاب بعد ، والحكومة الهندية بإستسلامها لهذا المنطق أمر يدعو إلى القلق العميق . أن الأمر يدعو إلى الاستغراب الشديد. هكذا يقول (سلمان رشدى) مخاطبا « راجيف غاندى » ، لأن مثلى كمثل «إنسان برئ ، إختير هدفا من البعض فيوضع فى السجن لحمايته ويمضى سلمان رشدى ، قائلا : دعنا « نميز بين الحقيقة ، والزيف» وأنت ياسيادة الرئيس (راجيف) لم تقرأ كتابى ، تماما كما فعل أعدائى ، ولذلك دعنى أشرح لك بعض الحقائق البسيطة ، فأنا متهم بأننى صرحت بأن كتابى يهاجم الإسلام . أنا لم أصرح بشئ من هذا القبيل وأنكر أننى فعلت هذا ، والجزء من كتابى محل الاتهام والكتاب كله بالمناسبة لا يتناول الاسلام فى موضوعه بتاتاً ، ولكنه يتحدث عن (الهجرة ، وتغير الأشياء ، وإنقسام الشخصية ، والحب والموت ، ولندن ، وبومباى) وهو يتحدث عن نبى - ليس اسمه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يعيش فى مدينة خرافية من الرمال ، تنهار بمجرد سقوط الأمطار عليها ، وهذا النبى محاط بأتباع خرافيين يحمل أحدهم بالصدفة الجزء الأول من اسمى ...كل هذا الجزء من الرواية ، يحدث برمته فى المنام حين يحلم شخص خرافى ، حلما خرافيا ، هذا الشخص هو نجم سينمائى هندى . ويمضى مخاطبا راجيف غاندى . إن ترك أمر هذا الكتاب إلى وزير المالية ، والجماعات المتطرفة من كل إتجاه ، من أجل الحصول على أصواتهم هو إستخدام كتابى « كرة قدم فى اللعبة السياسية » .

هكذا تكشف رسالة الكاتب الى حاكم الهند جانبا مما كانت تهدف إلية الرواية .

وقد إستطاع سامى خشبة (٢) ، أن يحلل أهداف سلمان رشدى فى روايتة تحليلا يؤكد توظيف فصول الرواية للدعاية المضادة للاسلام والمسلمين فيقول : « إن الرواية موجهة إلى جمهور

---

(١) - سعد كامل - خواطر سياسية ، فى الجانب الآخر من فتوى الخومينى ، جريدة الأخبار بتاريخ ٥-٣-١٩٨٩م

(٢) سامى خشبة - الأسئلة الأولى والملامح الخارجية فى آيات شيطانية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٢/ ٥/ ١٩٨٩م

المسلمين المقيمين فى أوربا الغربية والطامحين إلى هدفين فى وقت واحد : الهدف الأول هو أن تقبلهم المجتماعات الغربية التى هاجروا إليها -وكسب الكثيرون منهم جنسياتها - قبولا نهائيا بوصفهم أعضاء أساسيين ومواطنين لهم كل حقوق وامتيازات الموطنة وذلك فى مواجهة موجة الكراهية العنصرية والطبقية ضدهم والتى ترسمها الرواية أيضا باستفاضة و الهدف الثانى الذى تتحدث الرواية عنه بأنه الهدف الرئيسى للمسلمين الملونين فى أوربا هو قولهم بإن الاسلام هو هداية أوربا وخلاصها وإنقاذها من نفسها .

إن أحد بطلى الرواية المسمى « جبريل فاريشتا » الذى أصابه سقوطه من الطائرة بخلل عقلى كما تقول الرواية يتخيل نفسه سيدنا جبريل رسول الله إلى الأنبياء وكبير الملائكة ، إن جبريل الروائى المختل عقلياً يقرر فى نوبات مرضية أن يهدى لندن رغم أنفها، مثلما ساعد من قبل فى تحويل العرب ومدينتهم التى يسميها المؤلف الجاهلية . ولكن جبريل الروائى لا ينفرد بهذه الرغبة فى فرض هداية الإسلام على لندن ، وإنما يشاركه فيها الكثيرون . هكذا يقدم سلمان رشدى المسلمين المستوطنين فى أوربا الغربية ، بإعتبارهم خطراً داهما على أوربا ، وعلى تكوينها الحضارى والثقافى ، ليس فقط بوصفهم إرهابيين فعليين أو محتملين ، وإنما أقلية تتكاثر بسرعة وتجذب أعداداً متزايدة تمثل خطراً داهما على أوربا والغرب » .

تعقيب :

إن كتاب آيات شيطانية حلقة فى سلسلة طويلة متعاقبة . فقبل سلمان رشدى بأكثر من قرن من الزمان نقرأ فى صحيفة العروة الوثقى»(١)

« إن الافرنج تأكد لديهم إن أقوى رابطة بين المسلمين إنما فى الرابطة الدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ليقضوا بذلك على الملة الإسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزابا »وتمضى العروة الوثقى قائلة : « من هذا ما سلك الانجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطة يطوف على أفكار المسلمين لقرب عهدها بهم وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى إسترداد ما سلب منهم. وأرشدهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة الملية سائدة فيهم فلا يؤمن من بعثهم إلى طلب حقوقهم ، فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة . وهم المعروفون بالدهريين ، فاتخذهم الإنجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين وتوهين علائق التعصب الدينى ،ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ويمزقوا

(١) العروة الوثقى - الطبعة الثانية - دار العرب للبستانى - القاهرة - ١٩٥٨ ص ٤٦ .

شملهم .وساعد الانجليز هؤلاء على إنشاء مدرسة كبيرة ، وإصدار صحيفة لبث الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف فى العقائد وتضعف الصلات بين المسلمين ، فيستريح الانجليز فى التسلط عليهم».

ومع موجة التشويه العالمية لصورة الإسلام والمسلمين ، وإتهامهم جميعا بالإرهاب والبربرية ، تطالعنا كتب عربية لمؤلفين عرب ، يمكن تسميتها بكتب الفتنة . بعضها سافر الوجه ظاهر القصد فى الهجوم على الاسلام وعلى العرب وعلى الفكر الاسلامى . وبعضها يختفى وراء مسميات ومصطلحات مثل المستقبلية ، والحداثة والتنوير . وبعضها مقحم كأنه دسيسة فى بضاعة، يتربص بها تاجرها فرصة بيع أو سوق من الأسواق فيدسها فى بضاعته زيادة على البيع الذى يبيعه .

والمثال نجده عند الدكتور غالى شكرى فى كتابه ذى العنوانين : أقنعة الارهاب - البحث عن علمانية جديدة . الذى نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر عام ١٩٩٢ . إن المؤلف قبل مقدمة الكتاب يدس على القارئ ثمانى صفحات بعنوان « برولوج » عبارة عن رسالتين : الأولى من فرج فودة ، وهى ليست من فرج فودة ...! إنما تخيلها المؤلف ، وفيها كلام من نخاع الفتنة حيث يقول غالى شكرى فى الرسالة التى تخيلها من فرج فودة مخاطبا قاتله : « كان أبوك الذى يرسلك إلى العم جرجس لتأتيه بما لذ وطاب من الجبن والزيتون وكانت أمك هى التى تحملك كعك العيد إلى الست جميانة . وكنت وإخوتك تلعبون فى الحارة مع إبراهيم وسعدية وبطرس ... ويمضى غالى شكرى فى رسالته التى جعلها على لسان فرج فودة مخاطبا قاتلة فيقول : فى السادسة من عمرك ذهبوا بك إلى المدرسة البعيدة عن الحى .... وذات يوم أثناء عودتك من المدرسة - هل تذكر - قابلك بطرس فلم تقف وتصافحة كما هى عادتك . قلت لوالدتك فى السر : لن ألعب معه بعد الآن ، لأنه وأهله أجمعين سوف يذهبون إلى النار ، هكذا قال الأستاذ ، وهكذا قرأت فى كتاب المحفوظات ... وذات يوم آخر ، أنت لا تنساه قال الأب أنه سمع وشاهد فى التلفزيون عند أحد الأصحاب كلاما قريبا مما سبق أن سمعته فى المدرسة عن الكفرة والمشركين أعداء الله . ثم يمضي غالي شكري قائلا: فى إحدى ظلمات الليل وفى رقعة من الصمت والسر والخوف الغامض قيل لك إن المسدس هو الذى يبنى البيت الجديد ، وهو الذى يحقق وجودك ويكسبه معنى . به تظهر الاسلام من الجاهلية الجديدة وتفتح دياراً للإسلام مازالت فى غيبوبة الكفر »

هكذا يدس غالى شكرى على القارئ أن تعليم المحفوظات فى المدرسة الابتدائية فى مصر هو سبب الفتنة الطائفية وهو سبب الإرهاب ...!! وأن برامج التلفزيون المصرى المزدحمة بالرقص والغناء والمسلاسلات والاعلانات تسبب الإرهاب لأنها تقدم قليلا من البرامج الدينية بعضها يفسر القرآن الكريم !! هكذا يكون نموذج الدس . فإذا عرفنا أن فرج فودة كاتب مصرى مسلم أبدى آراء

فى الفكر الاسلامى إعتبرها شباب مسلمون مصريون أنها تسخر من أفكارهم فوقع الصدام . فرج فودة إستخدم فى حربه معهم مساحة واسعة من الإعلام، فردوا هم بالرصاص . فقتلوه . وهو أمر مؤسف متكرر فى التاريخ . ولكن اصطياد الحادثة ، ووضع لحن جنائزى كنسى عليها هو الدس وهو البهتان .

الصحافة

لكى ندرك دور الصحافة فى الغزو الثقافى تتبادر إلى أذهاننا تساؤلات ، ومن الإجابة عنها، وتحليل الإجابة ، وما يحيط بها ، تتحدد ملامح الدور الذى إقترفته الصحافة فى الغزو الثقافى بإعتبارها وسيلة أساسية من وسائل هذا الغزو فى المجتمع العربى ؟ أول هذه التساؤلات : من أنشأ الصحف فى الوطن العربى ؟ ومن الذى كان وراء إصدارها ؟ ومن الذى أمدها بالمال والتأييد ؟

ثم ما هو المضمون الذى نشرته هذه الصحف ؟ ما هى الأفكار والقضايا التى وقفت منها موقف الدفاع أو الهجوم ؟ وما هى المادة الإعلامية التى قدمتها لقراءها ؟ ثم ما هى الأهداف التى سعت الصحف لتحقيقها ؟ هذه التساؤلات تتعلق بالصحف العربية التى صدرت فى الوطن العربى باللغة العربية متوجهة أساسا إلى القارئ العربى . ولكن خارج الوطن العربى هل اقترفت الصحف الأجنبية دوراً فى الغزو الثقافى ضد العرب ؟ وما المدى الذى بلغته ؟ وما الأثر الذى خلفته ؟وفى داخل الوطن العربى صدرت صحف بلغات أجنبية - فى مصر مثلا - أصحابها ومصدروها أجانب يحمل بعضهم الجنسية المصرية ، وتقف وراء كل منها قنصلية من قنصليات الدول الكبرى المعنية بأمور مصر فى ذلك الوقت . فماذا كان دورها ؟ إلى جانب تلك الصحف المختلفة صدرت صحف تعبر عن أقليات أو منظمات مثل الصحف «اليهودية»فى مصر والصحف «الماسونية»فى مصر أيضا . فهل كان لها ثمة دور فى ذلك الصدد ؟

لقد كانت نشأة الصحف فى البلدان العربية ، وفى مصر على وجة الخصوص فى كنف الحكام ثم فى كنف القراء بحكم حركة التطور فى التعليم والتقدم السياسى . وفى المواجهة بين الاحتلال العسكرى والصحافة الذى سجلته وقائع الغزو البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ تبدو صورة للغزو بالصحافة يمكن تعمييمها على نموذج الغزو الثقافى للعالم العربى والعالم الاسلامى ، فى القرنين التاسع عشر والعشرين .كذلك يمكن تعميم الصدام الصحفى بين القوى الوطنية وبين الاحتلال ومؤازريه فى التجربة التاريخية المصرية تعميما ينطبق على صور الصدام الصحفى فى البلدان العربية والاسلامية بين الغازى ومؤازريه و بين القوى الصحفية الوطنية .

وقصة الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٩٨٨٢ ليست قصة إحتلال وحسب ، وإنما هى قصة القضاء على ثورة وطنية مسلحة بقيادة عرابى ، وقصة وأد للتطور السياسى والاجتماعى فى مصرو إحكام طوق الهيمنة الغربية عسكريا وثقافيا بعد الهيمنة الاقتصادية . وبنزول القوات الانجليزية

الاسكندرية واحتلالها أصبحت فى مصر صحافتان، صحافة فى القاهرة وصحافة فى الاسكندرية التى انتقل إليها الخديوى، تصف عرابى ورجاله بالبغاة والجهال العاصين . أما عن الصحافة فى عهد الاحتلال فقد شوهت صورة الثورة العرابية والنضال الوطنى بصورة لم يسبق لها مثيل ، فقد صورت الثورة ورجالها بأنهم أتوا كبيرة لم تعرفها أمة من الأمم .واستلم الانجليز - على حد تعبير الدكتور إبراهيم عبده - أمة ذاهلة أوفى شبة ذهول ليس لها قادة فقد أخرجهم الاحتلال من الميدان ، فظهر الخمود على الخاصة ، وبلغ الإعياء عند العامة مبلغا مضى بهم إلى لون من التسليم . (١)

بل إنه مما يلفت النظر فى مجال الغزو بالصحافة أن الخطوات الأولى للغزاة بدأت قبل نزول القوات أرض مصر ،وبإحكام الهيمنة كان يهدف إلى حجب تأثير الرأى العام الخارجى عن الواقع المصرى حتى يمكن تنفيذ الجريمة فى هدوء

ويورد الدكتور إبراهم عبدة (٢) فى كتابه تطور الصحافة فى مصر واقعة لها دلالتها وهى أن جريدة ليجبت « L'Egypte » التى يصدرها فرنسى فى القاهرة نشرت فى ٢ أكتوبر ١٨٨١ مقالا عرضت فيه بالنبى محمد صلى الله علية وسلم ، فهاجت لذلك الصحافة المصرية ولفتت النظر إلى هذا المقال فصدر الأمر بتعطليها ، كما ذكرت الوقائع المصرية فى ٨ / ١١ /١٨٨١ ، وحاول صاحبها أن يحتمى بالقنصلية الفرنسية غير أن حزم الحكومة المصرية حال دون هذا التدخل ،كما يذكر الرافعى فى كتابه عن الثورة العرابية ،وذكرت صحيفة المحروسة فى ٧ /١٨٨١/١١ فى إبتهاج شديد نبأ إغلاق جريدة "L'Egypte" وموقف الحكومة المشرف من القنصل الفرنسى الذى نصح صاحبها بمغادرة البلاد، ثم يورد موقفا يبين مدى الدور الذى أدته الصحف الأجنبية التى صدرت فى مصر تعبيراً عن التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية بوجه خاص ، بسبب الديون وفوائدها ، قبيل الغزو الإنجليزى العسكرى لمصر. وذلك أن صحيفة «الاجبشيان جازيت "Egyptian Gazette" حملت على البرلمان المصرى حملة عنيفة فردت عليها صحيفة المحروسة بأن «الاجيبشيان جازيت» تكيد للمواطنين ، وتزعم تعصبهم للدين وحملتهم على المسيحيين .

وأشارت إلي مصر البلد الذى يكرم الأجانب ، وهم يسيئون إليه . وأكدت بعد المصريين عن التعصب فى أمور الدنيا أو شئون الدين . وساهمت معظم الصحف الأوربية فى لندن وباريس فى الحملة على المصريين ومجلس نوابهم وحكومتهم . (٣)

وإلى جانب ذلك كانت وكالتا « رويتر » و« هافاس » خاضعتين لنفوذ المراقبة الثنائية

---

(١) د . إبراهيم عبده - تطوير الصحافة المصرية - مرجع سابق ص ١٣٣ .

(٢) د . ابراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - مرجع سابق ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(الانجليزية والفرنسية) فى مصر . ولا ترسل « رويتر » برقياتها إلى لندن إلا بعد إجازتها من القنصلية البريطانية أو الرقيب الانجليزى . وقد أضر هذ الأسلوب الصحفى بالقضية المصرية فى الخارج ، إذ وضعت الأنباء الصحيفة تحت المراقبة السياسية أو ما يشابهها ، فقد كان لموظفى فرنسا وإنجلتر فى مصر السيطرة التامة على الأخبار التى يجوز أو لا يجوز إرسالها إلى لندن، (١) وبذلك أمكن تشويه صورة الثورة العرابية حتى يمكن إحكام مؤامرة الغزو العسكرى .

وقد لاحظ الدكتور إبراهيم عبده (٢) وهو يؤرخ للصحافة المصرية قبيل الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ أن الصحفيين المصريين لم تكن لهم الزعامة الصحفية فى بلادهم . لأن محررى تلك الصحف وأصحابها فى أكثرهم غير مصريين . ويرى الدكتور إبرهيم عبده أن ذلك كان مصدرا من مصادر التصدع فى الوحدة الصحفية المصرية . ويقول أن بعض الصحف المصرية أو المتمصرة كانت تعتمد فى حياتها على القنصلية الايطالية أو الفرنسية أو الروسية .

وقد أحصى أمين سامى باشا الصحف الصادة فى مصر قبل الاحتلال البريطانى لمصر إحصاءاً يبرز بصورة واضحة قدر التدخل الأجنبى وحجمه فى مصر إقتصاديا وثقافيا ، بل وحجم الوجود الأجنبى فى مصر تحت مظلة الامتيازات الأجنبية ، فقال بأن الجرائد التى كانت منتشرة فى عصر الخديوى إسماعيل سبع وعشرون ، منها تسع باللغة العربية ، وواحدة باللغة العربية والتركية وواحدة بالعربية والفرنسية وواحدة بالعربية والايطالية . والباقى خمس عشرة جريدة باللغات الفرنسية والايطالية واليونانية و الانجليزية . (٣)

وفى ظل الثورة العرابية ومخاطر التهديد الأجنبى لمصر متمثلا فى غزو الانجليز لمصر عسكريا تعمد صحيفة الأهرام إلى نشر رأى الغرب فى الشئون المصرية ، ثم تنشر رأى الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى الحركات السابقة على تأليف وزارة شريف باشا ، وموقفها الجديد " لكبح كل حركة " وهى تنذر العرابيين وأحمد عرابى بالذات . (٤)

وقد عمدت الأهرام إلى التحدث عن أوربا وتقدمها من الناحتين المادية والأدبية ، وقابلت بينها وبين تركيا . فأفرطت فى ذكر المساوئ التى نتجت عن نظم الحكـم العثمـانى ثم نقلت عن صحف لندن ، حملات على الباب العالى ، وفى ألفاظها ما لا يليق أن ينشر ، حتى أن الحكومة

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٢) د . ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٨١) الطبعة الرابعة - مؤسسة سجل العرب - القاهرة ص١٩٨٢ م ص ١٠٢

(٣) د. بنت الشاطئ - جبل الشتات الفكرى والثقافى - جريدة الاهرام بتاريخ ٤/ ٢/ ١٩٩٣ .

(٤) الأهرام فى ٨ / ١٠ / ١٨٨١ .

أنذرتها مرتين . (١) هكذا كانت الصحيفة خنجرا فى ظهر الحركة الوطنية بدلا من أن تكون سيفا فى يدها على العدوان الخارجى .

ولما دخل الإنجليز القاهرة وبسطوا غزوهم على مصر كلها ، وضعوا حكومة تنفذ أوامرهم وتخطو خطاهم . فألغت وأنذرت الصحف الوطنية خلال أربع سنوات من الاحتلال . ومنعت صحيفة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها الأفغانى ومحمد عبده فى باريس من دخول مصر. بل إن التعطيل وصل إلى جريدة لوبو سفور اجبسيان Le Bosphore Egyptien وهى صحيفة فرنسية النزعة تحتمى بالقنصلية الفرنسية . وكان تعطيلها بسبب دأبها على الحط من الإحتلال ، وتَتَبُع نَقَائصه ونشرها . وكانت تصدر باللغتين الفرنسية والعربية . هذه الصحيفةَ نَشَرت منشور الزعيم السودانى «المهدى» عند قيام الثورة المهدية فى أبريل ١٨٨٥ ، وكان هذا هو السبب المباشر فى تعطيلها . ولكن القنصلية الفرنسية عندما فشلت فى تدخلها لمنع ذلك محليا ، كتبت إلى الحكومة الفرنسية بذلك ، فهددت بقطع العلاقات مع الحكومة المصرية إذا لم تعتذر الحكومة وتعيد الجريدة والمطبعة إلى الحياة . وذهب نوبار باشا بملابسه الرسمية إلى معتمد فرنسا وقدم إعتذاره ، وعادت الجريدة والمطبعة . وكان ذلك بتَخَلى الإنجليز عن «نوبار» فى تلك المحنة ، بل ونُصْحهم له بحل الموقف مهما يكن الثمن .

لم يكتف الإنجليز عند إحتلالهم مصر عام ١٨٨٢ بتعطيل الصحف الوطنية التى ساندت الثورة العرابية ، بل أبعدت الأقلام الوطنية بطرق مختلفة عن الصحافة . وقدمت مبالغ سخِّية للصحف غير الوطنية بحجة أن خسائر مالية أصابتها بسبب ظروف الثورة العرابية ، وأسمت هذه الأموال تعويضات . فتسلمت الأهرام ٨٠ ١ ألف فرنك بما يزيد عن ثمن مطبعتها أكثر من ثلاث مرات . وقبض سليم نقاش ٤٠ ألف فرنك تعويضا . (٢)

وبالقضاء على الثورة العرابية وسيطرة الإحتلال الإنجليزى حَمَلَت الأهرام على " العاصى عرابى " ورفاقه البغاة . ثم نشرت صورة منتقاة بعناية للجنرال " ولسلى " قائد الحملة الأنجليزية وأرَّخت لحياته فى صدر صفحتها الأولى . وحتى صحيفة الوطن لصاحبها ميخائيل عبدالسيد ، أصبحت هى وصاحبها بعد وقوفه وصحيفته إلى جانب الثورة العرابية عبدين للإنجليز بعد الاحتلال .وصفت عرابى ورجال الثورة بأنهم أشبه بالطاعون ، وأن سياستهم كانت كناية عن إلقاء الوَحْشَة فى الصدور ، وتَمزِيْق البلاد بالتعَصُّبَات ، وكانوا أعداء لكل مصرى عاقل .

---

(١) د . إبراهيم عبده - تطوير الصحافة المصرية - مرجع سابق - ص ١١٤ ، ١١٥

(٢) د. سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٨ - ص ٦٦ الى ص ٩٣ .

ولقد أدرك الإنجليز خطورة تأثير الصحف فى الرأى العـام الاسلامـــى فى مستعمراتهـا فأقدم الإنجليز على شراء مليون نسخة من جريدة " الجوائب " التى كانت تصدر باللغة العربية فى " الأستانة " لأنها نشرت القرار السلطانى بإعلان عصيان عرابى . وقامت السلطات الإنجليزية بتوزيع النسخ فى الهند حتى تطفىء لهيب الرأى العام الهندى المؤازر لعرابى وللعرابيين فى مصر .كما أدرك الإنجليز خطورة الصحف ذات الصبغة الإسلامية مثل العروة الوثقى ، أو ذات الصبغة الوطنية المعادية للإستعمار الإنجليزى مثل « أبو نظارة » تلك الصحف التى هاجرت من مصر فى أعقاب الاحتلال ،لتصدر من أوربا ومن باريس على وجه التحديد ، فعمد الإنجليز إلى منع وصولها إلى مصر بطرق وأساليب عديدة .

ولإحكام السيطرة الإنجليزية على العقل المصرى . وعلى الرأى العام فى مصر . لجأ الإنجليز إلى إصدار صحف تنطق بلسانهم بصورة مباشرة ،مثل تشجيع جريدة التايمز السياسية الأسبوعية على الصدور باللغة العربية. وقد صدرت قبيل الاحتلال ، ثم ظلت بعده أربع سنوات . وقد توخى صاحبها خدمة مصالح بنى جنسه المحتلين ، وإفهام سكان مصر الوطنين منافع الإحتلال لتوفير أسباب نجاحهم وتأييد الأمن فى مصر (١). كما لجأ الإنجليز إلى إصدار صحف جديدة إنجليزية العقل والقلب والتمويل ، أهمها وأشهرها صحيفة المقطم . أصدرها ثلاثة يتحدثون العربية ، ويحملون الجنسية العربية ، ولكنهم أكثر إنجليزية من كثير من الإنجليز، هم «شاهين مكاريوس «و«فارس نمر »و«يعقوب صروف» وقد نشأ الثلاثة فى أكبر مدرسة غربية تأسست فى الشرق فى أواخر القرن التاسع عشر، وهى الكلية الأمريكية فى بيروت . وقد اقترن فارس نمر عام ١٨٨٨ بإبنة قنصل انجلترا السابق فى الاسكندرية . ثم سافر إلى لندن واجتمع فيها بكبار السياسين، وفى العام التالى ١٨٨٩ صدر المقطم فى مصر . ومورخو الصحافة ومؤرخو فترة الإحتلال يُثْبِتون أن «المقطم»كان يقبض مبلغا ضخما من المال من الإنجليز،(٢) فهو لسان حالهم ، ووسيلتهم فى إفساد الرأى العام المصرى ، وإلى جانب ذلك كانت المطبوعات الحكومية تطبع فى مطبعة المقطم بمبالغ تعادل عشرة أمثالها. وعينته الحكومة ناشراً للإعلانات القضائية لمحكمة الاستئناف الأهلية ثم للمحكمة الإبتدائية الأهلية .وقد بلغ من مساعدات الإحتلال للمقطم أن أعِدّت للصحيفة مطبعة خاصة فى إنجلترا ، كانت تطبــع المقــطم ثم تقــوم بطيــة فى طيات (٣) صغيرة حتى يسهل حملها ، وأُطلِق على هذا النوع من المطابع تعبير مطبعة حجم المقطم .

وكانت مقالات المقطـم تدور حـول الإشـادة بالإنجليز وتقدمهم حربيـا وعمليــاً ، وتفوقهــم على

---

(١) المرجع السابق ص ٩٤ نقلا عن فليب دى طرازى ص ٣ ، ص٢١ ، ص٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

جميع دول العالم، وأن إنجلترا سلطانة البحار وجيشها يحكم ٣٢١ مليونا من الأنفس،و تدور حول مدى الفائدة والسعادة التى تحققت للمصريين بإحتلال الإنجليز لبلادهم ..! فتقول عن التعليم إنه يحول بينه عدم تيسر المال ، والضرورة تقتضى إبقاء زمام التعليم بأيدى الأساتذة الأوربيين ، وتقول لقد تقدمت الأشغال العمومية بفضل " ويلكوكس" و"فوستر" . وأن أعيان الفلاحين يعترفون بأن الهناء الذى شملهم وشمل وطنهم كان للإحتلال فية اليد الطولى .وعندما تُلقى ملكة إنجلترا خطبة فى لندن تنشرها المقطم كاملة باللغة العربية فى صفحتها الأولى ، وفى عيد ميلاد الملكة تصبح الصفحة الأولى من المقطم مخصصة لهذه المناسبة . ويقول الدكتور سامى عزيز(١) لعل أشد المقالات قسوة على الشعور الوطنى المصرى المقال الذى تقول فيه المقطم : «ما هو الاستقلال الذى يبكونه، والحرية التى يندبونها ؟ ففى زمان أىًّ الأباء والجدود تمتعوا باستقلال وحرية حرموها الآن؟ ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب الآن منهم ؟ وأى شيئ تغير عليهم . وماضرهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لاسبع عشرة دولة أجنبية وأى خسارة خسروها بتقليد رجال من الإنجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب . وما ضرهم وجود فرقة من الجنود الانجليز لزيادة توطين الأمن ».

وإلى جانب المقطم اجتذبت سلطات الإحتلال عدداً وفيراً من الصحف ، جلبت أصحابهم من خارج مصر ، وسهّلت لهم إصدار صحفهم ، كما سبق لها أن جذبت إليها أو اجتذب إليها من داخل مصر بعض الصحف . وشملت الحركة الإنجليزية الصحفية صحفا أدبية وفنية وصحفا أقليمية ، ففى أسيوط أصدر " جورجى خياط " صحيفة النزهة يكتب فيها عن لندن أكبر مدينة فى الدنيا ، ومقر كرسى جلالة ملكة إنجلترا وامبراطورة الهند ، وللحكومة فيها ميل مفرط لإنتشار التعليم ، وتعميم الآداب ، وهى معمورة بأسباب التقدم وبواعث الإرتقاء ، يتسابق فى مضمارها العلم والصناعة والتجارة (٢)"

ومن المجلات الأدبية والفنية نجد مجلة اللطائف لصاحبها "شاهين مكاريوس "تفرد عشر صفحات كاملة بمناسبة مرور خمسين عاماً على جلوس المللكة ڤيكتوريا على العرش . وتنشر المجلة أن مساحة بلاد الانجليز ومستعمراتهم والبلاد الداخلة فى حماهم تساوى ثلاث قارات، مثل أوربا والأساطيل الانجليزية دائمة الحروب .

ويحلل الدكتور سامى عزيز (٣) إنتشار المجلات المتخصصة ، تحت جناح الإحتلال بأنها

١- المرجع السابق ص ١٠٢ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) - د. سامى عزيز (المرجع السابق) ص ١٢١ .

كانت تهدف إلى تحويل إهتمامات الناس بعيدا عن الموقف السياسى . وأنها تهدف إلى أن ترسخ فى الأذهان الدعاية للإنجليز ، وأن مداومة القراء الإطلاع على مثل ذلك ستتكون منه رواسب ترْسَخ بمرور الوقت حتى تصبح يقيناً. وهذا ماكان الاحتلال يعمل على تحقيقه، ومتبعا هذه الخطط الملتوية التى يغفل عنها الكثيرون ، فتتسرب إليهم دون وعى ، وتتركز فى أذهانهم، وتتخذ طابع الحقيقة يوما ما ."

ولكن أخطر ما مارستة سلطات الإحتلال فى مصر فى مجال تشويش الرأى العام المصرى هو استخدامها لصحف إسلامية تبرِّرُ الإحتلال ، وتدعو إلى مسالمته ، فى محاولة لتلفيق تفسير أو تطويع للنصوص الدينية تخدم هذه الأهداف ، وتقاوم بالصحافة تيار الجهاد الوطنى الصحفى ضد الإحتلال .

وقد كان استخدام سلطات الإحتلال لصحف ذات مداخل إسلامية فى وقت مبكر لاحتلالهم أرض مصر، لقد أوعزت إلى تونسى مقيم فى مصر هرباً من الإستعمار الفرنسى فى تونس لكى يصدر فى مطلع عام ١٨٨٥ صحيفة تحمل اسم الإعلام ، واسمها الكامل هو الإعلام بعلوم الإسلام ومقتضى المقّام بحوادث الأيام ونصائح الأنام . ولكنها تُعْرف فى تاريخ الصحافة بإسم الإعلام إختصاراً. ولعل ذلك يعود إلى إبراز كلمة الإعلام فى عنوان الصحيفة ، ودوران بقية الكلمات حول الكلمة الأم . وهو ما يسمى فى لغة الإخراج الصحفى " ترويسة * الصحيفة ". ،كانت هذه الصحيفة تصدر فى أربع صفحات فى حجم الصحف اليومية الكبيرة . وكانت تصدر أسبوعيا فى يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت كما تذكر فى " الترويسة تُطْبَع بالمطبعة الإعلامية لمحمد بيرم ، أى أنها كانت لها مطبعتها الخاصة .

ومما يورده مؤرخو الصحافة فى مصر، ومن أقوال الصحف المعاصرة للإعلام يتبين بوضوح أن الإنجليز أنفقوا عليها وعلى مُصْدِرها بسخاء .

ويقول " محمد بيرم " أن مجاراة الصُحُف للديانة والشريعة جارٍ فى سائر الممالك المتمدينة ، ولم نَرَ صحيفة تنحو منحى الملائمة بين الشريعة والسياسة فى كون هذه المملكة جديرة بمثل ذلك حيث كانت أعظم ممالك الأسلام . (١)

وكان محمد بيرمُ يثْبط هُمَمَ المسلمين والمصريين ، ويوهمهم بمقالاته أن الاستعمار قضاء وقدر كتب على هذه البلاد ،فلا محالة فى رده . وأنه أصبح حقيقة واضحة فيجب الاستسلام والخضوع ، فيقول :" إن كانت هناك دولة قوية ودولة ضعيفة فلا يسع الضعيفة إلا السكون والاستسلام

* الترويسة إصطلاح فى الإخراج الصحفى يطلق على إسم الصحيفة وبياناتها من رئيس التحرير الى العنوان والتاريخ ورقم العدد وما الى ذلك . ويكون فى أعلى الصفحة الأولى عادة وفى المنتصف منها .

(١) صحيفة الاعلام بتاريخ ١١ يناير ١٩٨٥ م.

للقضاء ، وأغلب شطوط أفريقيا الشمالية قد جرى عليها الحكم من الأزل أن تكون خاضعة لغيرها ، وعقلاء الأمة الخبيرون بأغوار السياسة لا يكرهون الاحتلال الانجليز لما يرون من المنافع لبنى جنسهم على أيدى الإنجليز .

ويُؤكد الشيخ علي يوسف (١) صلة " محمد بك بيرم" بالإنجليز " ويصفه بأنه مقرب من الوكالة الانجليزية ومن رئيس النظار (الوزراء) ".وكان " محمد بيرم " ماهرا فى مزج الدين بالسياسة ، وكان كسبا للإستعمار الإنجليزى، فالرجل يسوق الحُجَج والأسانيد التى يريد بها إثبات فَضْل الإستعمار وأهمية بقائه . بل يذهب إلى القول بأن الاستعمار أفضل من بنى الجنس الذين يتفقون معنا فى اللغة العربية والدين . ويقع " محمد بيرم " فى المحظور فنراه يقول : فإذا كان لامندوحة عن أجنبى فالذى رأيناه فعل مع أبناء جنسنا الحسن يكون أولى ممن فعل معهم الإضرار. فنرى مثلا الأموال تأتى فى كل عام من الهند إلى مكة والمدينة ، ولا نرى درهما واحدا أتى من الجزائر أو القوقاز ، حتى إن نفس أوقاف الحرمين لم يبق لها هناك ذكر (٢) . ثم نراه يتحدث عن أن أنجلترا هى الدولة الوحيدة فى معاملة رعاياها باللطف و اللين ، والمحافظة على عوائدهم ودياناتهم ، فلا بدع إذا استماتوا في المحافظة على تخليد وزيادة شرفها (٣) .

ولم يقتصر محمد بيرم على الدفاع عن الإستعمار الإنجليزى فى مصر ، بل أخذ يدافع عن الإستعمار الإنجليزى فى الهند ، ويذكر أنها تحسنت أحوالهم تحت سيطرة الإنجليز . ويذكر الحاكم العام الإنجليزى للهند وأعماله قائلا عنه : وذلك مما يشهد له بحرية الضمير وخدمة الإنسانية . "(٤)

وتحاول الإعلام تبرير اعتماد توفيق على الإنجليز فتأتى من التاريخ الإسلامى بشواهد على ذلك .وأن هذه السياسة ليس فيها ضَيْر ولا ضرر . بل إنها صحيحة ، ومن الاسلام ، وأن هذا مافعله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أمر أصحابه أن يهاجروا إلى ملك الحبشة ويحتموا به من ظلم مشركى مكة، رغم أنه نصرانى . ويقول بيرم : إن القسم من المصريين اَلْمُعَضد للإنجليز بحق ساع فى نفع وطنه ، والشريعة تؤيده ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر جمعاً من أصحابه وفيهم إبنته بالإحتماء بملك الحبشة - وهو نصرانى - من ظلم مشركى مكة . وأقاموا عنده مدة ، وهذا دليل لجواز الاحتماء بغير المسلم ، وقد استدل به الفقهاء فى الأفراد ، والعلة جارية فى الكل . والحالة الراهنة شاهدة به فإن لم يكن تسلط الانجليز الذى هو عبارة عن حراسة فقط مع

(١) صحيفة المؤيد بتاريخ ٣ شعبان ١٣٢٤ هـ .

(٢) صحيفة الإعلام بتاريخ ١ مارس ١٨٨٥ م .

(٣) صحيفة الاعلام بتاريخ ١٧ يناير ١٨٨٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

بقاء الأمور على مجراها كان تسلط غيرهم ، وحالة الـدين تحت أيديهم معلومة ، ولو مع أبناء ملتهم. (١)". هكذا يصل التلفيق فى كتابات صحيفة الإعلام وهى تسعى إلى تسميم العقل المصرى .

وهكذا كان محمد بيرم الخامس . وشتان ما بين موقفه الذى هو حياته ، وبين موقف بيرم التونسى الشاعر والزجال الذى ملأ سمع مصر ووجدانها دفاعا عن الوطنية المصرية ، والعدالة الاجتماعية فى مصر .. ولذلك كان حظ بيرم الشاعر من الذيوع والانتشار فى قلب مصر ووجدانها وتاريخها النضالى مثل شمس الظهيرة ، وكان حظ بيرم الصحفى مثل شعاع الغروب الخافت المتلاشى .

وهلكت صحيفة الإعلام عام ١٨٨٨، ولكن سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر استدعت حسن حسنى باشا من الأستانة لينشىء فى مصر عام ١٨٩١ جريدة وادى النيل ،فى محاولة للحدمن القبول والذيوع لجريدة المؤيد ، للشيخ على يوسف،لدى الشعب المصرى والحركة الوطنية المصرية . ولكن على حد قول الياس فاخورى - فى كتابه مرأة العصر : إن حسن حسني جاء إلى مصر وأنشأ جريدة "وادى النيل "على خطة نَفَّر منها الناس ، فبقى " المؤيد" كما كان الجريدة الوطنية الإسلامية ."

وقد وصل الأمر بالأنجليز إلى حد إستخدام الرموز الإسلامية الراسخة لبث دعايتهم المفضوحة ،فلقد وصل بهم الأمر إلى أن مهندس الرى الإنجليزى ، "وليم ويلكوكس" يشترى إمتياز الصحيفة التى كانت تسمى " الصحة "وأصبح إسمها "الأزهر" ظناً منهم أن إسم الأزهر المجلة سيكون مقبولا من المصريين ، ومن ثَمَّ يستطيع الإنجليز بث غزوهم الثقافى من خلال هذا العنوان الشريف . ويكتب"ويلكوكس" فيها عام ١٨٩٣ مقالا بعنوان : لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ ويقول إن سبب ذلك يعود إلى إستعمال المصريين لغة ميتة هى اللغة الفصحى . ويدعو إلى التعليم والتأليف بالعامية . ! (٢)

وعندما نقلب صفحات كتاب "الصحافة والأقلام المسمومة" لأنور الجندى (٣) الكاتب الإسلامى عالى الصوت الذى يكتب وكأنه يصرخ لا نستطيع بصوتنا العادى وبحديثنا الهادىء إلا أن نوافقه فى كثير مما صرخ به فى وجوهنا . أنور الجندى عندما يتحدث عن الصحافة العربية

---

(١) صحيفة الاعلام بتاريخ ٣١ / ١ / ١٨٨٥ .

(٢) د. سامى الكومى - الصحافة الاسلامية فى مصر فى القرن التاسع عشر - رسالة دكتوراه - جامعة الأزهر - قسم الصحافة والاعلام - عام ١٩٨٥ ص ٢٣٨.

(٣) أنور الجندى - الصحافة والأقلام المسمومة - الطبعة الأولى - دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٨٠ص ٧ إلى ص١٠ .

بعامة فى كل الوطن العربى فى مرحلة الهزيمة والنكبة والنكسة .وهى كما يسميها بدأت فى عام ١٩٤٨ تقريبا بقيام رأس جسر للصهيونية فى فلسطين ، إلى ما يطلق عليه النكسة عام ١٩٦٧ . وهو يرى أن خطورة هذه المرحلة على التاريخ الإسلامى العربى لا يوازيها جسامة ولا يماثلها أثراً الا مرحلة الحروب الصليبية والتتارية فيقول :

« إن دراسة هذه المرحلة الجديدة التى تجمعت فيها قوى النفوذ الإستعماوى الصهيونية والشيوعية تحتاج إلى النظر فى تلك الآثار التى تركتها الصحافة على الأحداث . ثم يقول : وإذا كانت هناك قوى خطيرة عملت على توهين القوى بحيث خضعت للهزيمة والنكبة والنكسة ومنها الاستشراق والتبشير والتغريب فقد كانت الصحافة عاملا هاما فى إحتضان كل ما قدمته هذه القوى وتفريخه وبثه وإذاعته يوما بعد يوم وفق ألوان الطيف ومن خلال كل القنوات . ثم يقول : منذ وقت طويل كشف "هاملتون جب "عن خطة الصحافة العربية بأن معظم الصحف اليومية العربية واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية. ويؤكد أنور الجندى أنّ الصحافة العربية قد قامت أعمدتها بأيدى " المارون" خصوم الإسلام والعروبة منذ اليوم الأول لا فى مصر وحدها (المقطم ، الأهرام ، الهلال) ولكن فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، حتى المغرب الأقصى . ثم تَسَلّمت هذه ، الصحافة من بعد أيد عربية ومصرية كانت أشد عنفا وقسوة وأكثر ميلا إلى الكشف والإباحية . ثم جاءت أخبار اليوم فعادت الصحافة فى الوطن العربى على نحو أشد خطورة ، قوامه المزيد من التقليد للصحافة الأمريكية المثيرة ، القائمة على إرضاء رغبات الجماهير ، والاهتمام بالتفاهات ، والبعد عن الأصالة وتكوين أجيال لا ترى فى الحياة إلا هزلاً ورقصا ومتعة .وإنصرافاً عن التبعات الجسام التى تواجه المجتمع العربى الإسلامى ، وقد جاءت هذه الموجة الصحفية موازية للنفوذ الصهيونى والشيوعى فى الوطن العربى ، ويمضى المؤلف قائلا : وقد أدخلت الصحافة أعرافاً جديدة تعارض تماما الأعراف الأصلية ، ومفاهيم زائفة تضاد القيم الصحيحة ، وبدت ميادين الرقص والغناء والمسرح وكأنها دور لها قدر وجلال وخطر ، وانخداع الشباب المسلم بهذه المفاهيم ، التى آزرتها صور عارية ، وقصص مكشوفة ، وأغانٍ خليعة ، وتقديم المغنين والممثلين على أنهم أبطال ومثل عليا ، ولهم تاريخ يروى وأحاديث تجرى وذكريات تجدد ، بينما لم يحظ بمثل هذا علماء أفذاذ، ولا أبطال مجاهدون ، ولا نوابغ قدموا لأوطانهم أجل الخدمات وضحوا فى سبيل بلادهم واستشهدوا أو ماتوا مغتربين . ويختم قوله : هذا هو الخطر الذى قدمته الصحافة العربية خلال فترة الهزيمة والنكبة والنكسة و الذى كان بعيد الأثر فى الواقع الذى يعيشه العرب والمسلمون اليوم. وفى الواقع أنك لا تستطيع أن تجد مقولة خطيرة أو مؤامرة مبيتة أو كلمة مسمومة أو فكرة مدسوسة أو دعوى باطلة إلا وقد وجدت عن طريق الصحافة طريقا لها إلى الناس ، أيدتها صحف ، وعارضتها صحف، ولكنها على كل حال استطاعت أن تبلبل خواطر الناس ، وتنال من كيانهم وتزلزل رواسيهم » .

ومهما قيل عن كتابات أنور الجندى من أسلوب خطابى ومن اندفاع فى التعميم أحيانا .ومن إصدار أحكام كثيرة ومتشددة إلا أن أقواله فى هذا المقام لا يستطيع ناقد عادل إنكارها أو التخفيف من آثارها .

وإذا انتقلنا إلى الساحة الدولية ونظرنا إلى الصحف فى بلدان العالم الغربى المتقدم نجد سيلا من تشويه صورة الإسلام وصورة الإنسان العربى والقضايا العربية . وهو سيل دائم الهدير، متواصلُ فى تتابع محكم سريع ، وهذا السيل المعادى يتنوع ويتشكل ويتلون ، ولكن خيطا مشتركا يتواجد فى كافة تنوعاته واختلاف أماكنه وأزمانه وألوانه هو الخيط الصهيونى .

يوجز الدكتور سليمان صالح (١) تجربة السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام بنصوص منقولة عن برتوكولات حكماء صهيون على النحو التالى :

- إن القنوات (أى وسائل الاعلام) التى يجد فيها الفكر الإنسانى تُرْجماناً له يجب أن تكون خالصة فى أيدينا . وإن أى نوع من أنواع الصحافة أو النشر أو الطباعة يجب أن يكون تحت سيطرتنا .

- يجب ألا يكون لأعدائنا وسائل صحفية يعبرون فيها عن آرائهم ، وإذا وجدت فلا بد من التضييق عليها بجميع الوسائل لكى نمنعها من مهاجمتنا .

- لابد من الهيمنة على الصحافة الدورية والسيطرة على الأخبار فلا تَصل للقارىء دون أن تمر علينا ، فالأخبار تتسلمها وكالات قليلة تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم ، وحينما نسيطرعليها لن تنشر إلا ما نختاره نحن من هذه الأخبار .

- سيكون لنا صحف شتى تُرْضى الطوائف المختلفة من أرستقراطية وجمهورية وثورية بل وفوضوية أيضا، وستكون هذه الصحف مثل الإلة الهندى "فشنو" لها مئات الأيدى ، وكل يد ستحس لنا نبض الرأى العام المتقلب .

- يجب أن نكون قادرين على إثارة عقل الشعب عندما نريد ، وتهدئته عندما نريد ، وسنفعل ذلك بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حسبما يوافق غرضنا ، وستنشر الأخبار بطرقنا الخاصة بحيث يتقبلها الشعب ويصدقها ، ولكننا يجب أن نحتاط جيدا قبل ذلك لجس الأرض قبل السير فيها .

ولقد استخدم اليهود فى سباقهم المحموم للسيطرة على وسائل الاتصال جميع الأسلحة . ويوجز الدكتور سليمان (٢) صالح مثالا بجريدة التايمز البريطانية كيف حازها اليهود ؟ وتعتبر جريدة التايمز أعرق الصحف البريطانية ، وتمثل للجماهير البريطانية جزءا مهما من تاريخ

(١) د. سليمان صالح - الإنتفاضة الفلسطينية ، ثورة الذات الحضارية - الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٩٢ - ص ١٥٥ ، ص١٥٦ .

(٢) د. سليمان صالح - الانتفاضة الفلسطينية ، ثورة الذات الحضارية - المرجع السابق - ص ١٥٧ ، ص ١٥٨

بريطانيا ، أى أنها تشكل مصدر اعتزاز وفخر للشخصية الإنجليزية . ولكن ثورة الاتصال ، وظهور الآلات الحديثة فى مجال الطباعة قد أدى إلى أن تواجه التايمز هذه الثورة الاتصالية ، وهى مثقلة بتركة الماضى من ناحية العمال ومن ناحية المضمون .

فقد كان إصرارها على أن تحتفظ بشخصيتها الصحفية المحافظة ، وما تقدمه من مادة رفيعة للقارىء دون الإتجاه إلى إثارة غرائزه قد أدي إلي الهبوط المستمر في توزيعها ،و انصر اف المعلنين عنها لنشر إعلاناتهم في الصحف ذات التوزيع الكبير ،التي يمكن أن تصل بإ علاناتهم إلي عدد أكبر من الجماهير. و قد أدي ذلك إلي تزايد خسائرها ،وفى الوقت نفسه فإنها لم تكن قادرة علي أن تواجه هذه الخسائر بهذا العدد الكبير من عمال الطباعة الذين عارضوا إدخال الألات الحديثة .و استحكمت الأزمة بين إدارة التايمز و عمالها ، فاضطرت التايمز إلي التوقف عن الصدور ، وهنا تقدم المنقذ اليهودي "روبرت ميردوك " ليشتري التايمز. ومن المؤ كد أن "ميردوك "لم يشتر "التايمز " كمشروع تجاري يمكن أن يحقق ربحا ،بل إنها يمكن أن تستنفد معظم أرباحه من صحفه الأخري مثل "الصن " و نيوز أوف ذي وورلد" فلماذا إذن يقدم هذا الملياردير اليهودي علي شراء مثل هذه الصحيفة الخاسرة ؟ إنه لم يتقدم لشراء التايمز بعقلية التاجر ،ولكن بعقلية السياسي الذي يريد تحقيق أهداف سياسية حتي لو أدي ذلك إلي تحمل خسائرمالية . لقد كانت التايمز من الصحف القليلة في الغرب التي تقدم تغطية للأحداث العربية تعتبر متوازنة إلي حد كبير .و جاءت و فاة رئيس تحريرها " تشارز دوجلاس هيوم "فرصة ذهبية أمام " ميردوك "" ليقضي علي استقلالها التحريرى ، و سرعان ما انقلبت طريقة معالجتها لقضايا الشرق الأوسط ،و ظهر تعاطفها مع إسرائيل واضحا ،وضد حقوق الانسان العربي .

وفى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى كشف الموت الغامض لإمبراطور الصحافة فى بريطانيا جانبا من جوانب السيطرة الصهيونية على إعلام العالم المعاصر . فقد عثر على جثة "روبرت ماكسويل" بالقرب من جزر الكنارى فى أسبانيا كان وقد اختفى من فوق يخته فى تلك المنطقة .

وماأعلن عن وفاته أنها طبيعية وأنها بسبب أزمة قلبية إنتابته فسقط من فوق يخته ليلاً دون أن يحس به أحد . وتناولت وسائل الإعلام العالمية قضية « ماكسويل » صاحب «الديلى ميرور » الصحيفة اليومية الواسعة الانتشار فى بريطانيا ، وغيرها من توابع إعلامية . ولد روبرت ماكسويل فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٢٣ ولما كبر نذر حياتة للدفاع عن اليهود وقضايا الصهيونية . وارتبط بالمخابرات الاسرائيلية . وكرس حياته فى الصحافة الشعبية الواسعة الانتشار ، وكرس هذه الصحف للدفاع عن إسرائيل والصهيونية العالمية ، ووظف كل طاقاته وإتصالاته لخدمة إسرائيل ، وجعل صورتها براقة أمام الرأي العام العالمى . وقد دفن فى جبل

الزيتون بالقدس يوم ١٠ نوفمبر ١٩٩١ كما طلب فى وصيته . ودفنت معه أسرار كثيرة كلها تؤكد الهيمنة الصهيونية على صناعة الإعلام فى عالمنا المعاصر .

وعند ما برز الدور الأمريكى منذ الحرب العالمية الثانية بروزا يعبر عن وراثته للإستعمار الأوربى القديم لدول العالم الثالث تحول النصيب الأكبر للغزو الثقافى بواسطة الصحف إلى الأيدى الأمريكية . ويكشف محمد حسنين هيكل (١) فى كتابه «الصحافة والسياسة» النقاب عن دور المخابرات الأمريكية فى إنشاء الصحف التى تسعى إلى نشر القيم الأمريكية . وطريقة الحياة الأمريكية، فى كل أنحاء الدنيا. ويورد فى هذا الصدد تقرير اللجنة الخاصة التى شكلها الكونجرس الأمريكى برياسة السناتور «تشرش» سنه ١٩٧٤ لتقصي نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبالذات الجزء الخاص بعمليات إنشاء دور صحف ونشر فى عدد كبير من بلدان أوربا والعالم الثالث ، وحتى فى الولايات المتحدة ذاتها . ومن الظواهر الملفتة للنظر فى هذا التقرير أن مجلة الريدرز دايجيست - أو المختار ، كما صدرت باللغة العربية فيما بعد - ورد إسمها ضمن المجلات التى ساعدت المخابرات المركزية على نشرها . ومن الغريب أن أول طبعة عربية ظهرت فى مصر رأس تحريرها الدكتور فؤاد صروف ، وهو الذى يشير إليه الأستاذ مصطفى أمين فى رسالته - الاعتراف - ويقول إنه هو الذى قدمه إلى «كيرميت روزفلت» سنة ١٩٤٤ التى صدرت فى نهايتها صحيفة أخبار اليوم : - كذلك فان المختار صدرت فيما بعد عن دار أخبار اليوم ، وذكر الأستاذ مصطفى أمين فى رسالته - الاعتراف - إن ذلك كان بين الفوائد التى حصل عليها من صلاته الأمريكية .

ويسترعى النظر فى القيم التى تروج لها المختار شيئان : الأول أن النجاح مرهون بالحظوظ والمصادفات - والثانى أن العدل الاجتماعى معلق بكرم المستعدين للتبرع والإحسان .

«ويقول تقرير لجنة نشاط المخابرات فى الكونجرس على سبيل المثال أن سلطات الاحتلال الأمريكى فى ألمانيا كانت هى التى ساعدت آكسيل سبرنجر - الناشر الألمانى المعروف - على إعادة تأسيس دار صحفية كبرى فى هامبورج ، وهى التى جاءت له بالمطابع والورق - لكى يبدأ على الفور فى إصدار صحف تتولى غسيل مخ الشعب الألمانى مما قد يكون عالقا فيه من بقايا التراث النازى .

نفس الشىء حدث فى اليابان مع الدور الصحفية التى كانت على استعداد لكى تغسل مخ الشعب اليابانى من آثار العسكرية اليابانية التى كادت تنجح فى رفع علم الشمس

---

(١) محمد حسنين هيكل - بين الصحافة والسياسة - الطبعة الأولي - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت ١٩٨٤ - ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣٧ .

المشرقه فوق المحيط الهادى ، ونفس الشىء حدث فى بريطانيا .

وينتقل الأستاذ هيكل إلى العالم الثالث فيقول : فور إنتهاء الحرب على سبيل المثال ظهرت فجأة ، سنة ١٩٤٥، فى طهران دار صحفية كبرى كان أبرز ملامحها دعوتها المستمرة لمجموعة قيم جديدة وطريقة جديدة فى الحياة ، وهى دار كيهان المشهورة . ولم تترك الوثائق التى وجدت فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران - حين احتلها طلبة الثورة الإسلامية فى إيران - مجالا لأحد أن يشك فى الملابسات التى إكتنفت تأسيس الدار وظهور صحفها.

ثم يتناول الأستاذ هيكل الواقع المصرى فى هذا الصدد ، وأخبار اليوم على وجه التحديد فيقول : يخطر على البال أن أخبار اليوم ظهرت فى نفس الفترة - أواخر ١٩٤٤ - فهل كانت، أخبار اليوم منذ اليوم الأول حلقة من هذه السلسلة ؟ فقد كتب الأستاذ مصطفى أمين فى هذه الفترة أول كتاب له فى حياته وكان عنوانه (أمريكا الضاحكة) وكان موضوعه عرضا شيقا وجذابا لطريقة الحياة الأمريكية .

إن الأستاذ مصطفى أمين فى رسالته - الوثيقة - يعترف أنه قابل «كيرمت روزفلت» «وأرشى روزفلت»- لأول مرة - فى نفس السنة -١٩٤٤. فهل هى مصادفة.. أو هى أكثر؟

خاطر آخر يطرح نفسه وهو أن مراسلى أخبار اليوم فى الخارج وقت إنشائها كانوا - كما يبدو الآن - طرازا غريباً من الصحفيين . كان مراسلها فى نيويورك - مثلا - هو جوزيف ليفى واتضح فيما بعد أنه لم يكن يهوديا فقط ، وإنما كان واحداً من أبرز الدعاة للوكالة اليهودية - المقدمةالأولى لحكومة اسرائيل ، وكان مراسلها فى لندن هو « جون كيمشى » والآن نعرف أنه ابن عم دافيد كيمشى وكيل وزارة الخارجية الاسرائيلية . ثم يقول الأستاذ هيكل إن قصة الصحافة المصرية هى قصة الصحافة فى بقية البلدان العربية . وكان يضرب المثل - فى وقت من الأوقات - بصحافة لبنان . والحقيقة وقد عبر عنها جمال عبدالناصر ذات مرة بقوله : إن فى لبنان حرية صحافة ولكن ليس فى لبنان صحافة حرة - إن التعدد والتنوع الذى كان ظاهرا فى صحافة لبنان فى وقت من الأوقات كان سببه تعدد وتنوع مصادر التمويل . ومبكرا كان للولايات المتحدة ولبريطانيا ولفرنسا صحافتهم ، وبعد ذلك أصبحت لمصر صحافتها ، وللسعودية صحافتها ، وكذلك لسوريا ... الشكل الظاهر أن هناك حركة متنوعة الاتجاهات لكنها لم تكن صحافة حرة بالمعنى المطلوب أو المرجو ، وإنما شىء أخر . صراع قوى يحدث فى لبنان ، وتغيرات متعددة متنوعة بتعدد وتنوع القوى التى تعمل فى ساحته باعتباره مركزا مفتوحا لصراعات العالم العربى كله وتوازناته ."

ويرى الأستاذ هيكل « إن الصحف الكبرى التى نشأت فى العالم الأكثر تقدما - بمعونة أمريكية -إستطاعت بعد وقت أن تقطع الحبل السرى الذى يربطها بالسياسة الأمريكية - حدث

ذلك بالنسبة ل" دى ڤيلت" فى ألمانيا، وكذلك على وجة اليقين حدث لجريدة يميورى فى اليابان وصحيفة أساهى أيضا - فهل يمكن أن تكون الصحف التى نشأت فى بلدان العالم الأقل تقدما - إيران ومصر وغيرهما - أعجز عن أن تقطع الحبل السرى مع جهة المنشأ، ومن ثم بقى نمط العلاقات كما كان ،ثم نزلت به الحوادث إلى ما هى أدنى من مجرد نشر القيم الأمريكية وطرق الحياة الأمريكية ؟."

يحذر الصحفى الأمريكى جورج بول فى صحيفة النيويورك تايمز ماجازين بتاريخ ٢٨ يونية ١٩٧٠ من أن مأساة فيتنام قد تؤدى إلى اللاعنف والعزلة فى أمريكا ، فى حين إن مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط كبيرة إلى الحد الذى يجعل لزاما على الرئيس أن يشقف الأمريكيين حول إمكانية التدخل العسكرى هناك .

وإلى جانب هذا القول الصحفى يذكرنا الدكتور إدوارد سعيد (١) بأمر جدير بالإهتمام والنظر هو أن الشخصية الدينية التى تتمسك بها إسرائيل لاتذكرها الصحافة الغربية إلا نادرا. فلم ترد أى إشارات صريحة إلى تعصب إسرائيل الدينى إلا مؤخرا ، غير أن هذه الإشارات جميعا كانت تتعلق بجماعة غوش إيمونيم المتطرفة فى تعصبها ، والتى ينحصر نشاطها الرئيسى فى إقامة مستعمرات غير قانونية فى الضفة الغربية بشراسة عنيفة . ولكن معظم التقارير المنشورة في الغرب حول غوش إيمونيم تغفل ببساطة حقيقة مزعجة وهى أن حكومات حزب العمل العلمانية هى أول من أنشأ مستعمرات غير قانونية فى المناطق العربية المحتلة ، لا المتطرفون الدينيون الذين يقومون بالإثارة والشغب ، وحدهم . ويعلق الدكتور إدوارد سعيد قائلا : أن هذا الصنف من التقارير الأحادية الجانب يشكل دلالة على الطريقة التى استخدمت بها إسرائيل الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط والحليف العتيد للولايات المتحدة الأمريكية فى مقابل الإسلام . وهكذا ظهرت إسرائيل كأنها معقل للحضارة الغربية تم تشييده فى الصحراء الإسلامية ،.(مع كثير من الفخر والإطراء الذاتى) . وهكذا ثانيا أصبح أمن إسرائيل فى العيون الأمريكية ، قابلا للتبادل بصورة مرضية ومريحة ، مع إتقاءخطر الإسلام ، وديمومة السيطرة الغربية ، وعرض فضائل التحديث ، وبهذه الطرق تتكاتف وتتعاضد إقتصاديا ثلاث مجموعات من الأوهام ، وتولد كل منها الأخر فى صالح تدعيم الصورة الذاتية الغربية وتعزيز القوة الغربية على الشرق . وتوكيد القيمة العامة لاسرائيل بالنسبة للغرب .

ويعتمد جهاز كامل للإعلام فى وضع السياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الأوهام وينشرها على أوسع نطاق . ومن هنا ينتج التصور " الكاريكاتورى " والغوغاء المخيفة

---

١ - د. ادوارد سعيد - تغطية الإسلام ،كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربى فى تشكيل إدراك الأخرين وفهمهم - (ترجمة : سميرة نعيم خورى) الطبعة الأولى - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٣ - ص ٦١ ص ٦٢

والتركيز على العقاب الإسلامى ، وما إلى ذلك . وتنتصب على رأس كل ذلك مؤسسات القوة الهائلة : شركات النفط الأمريكية والشركات المتحدة العملاقة والشركات متعددة الجنسيات ، وجماعات الدفاع ، والمخابرات ، والفرع التنفيذى للحكومة .

وعلى ضوء ما تبين لنا من خيوط عالمية ومحلية ترتبط وتتشابك وتتقاطع فى محاولة غزو القارىء العربى ثقافيا بواسطة الصحف ، وعلي ضوء المصباح الذى يكشف لنا التاريخ العربى الحديث فى هذا الحقل نستطيع أن نقرأ مجلدات الصحافة العربية قراءة جديدة ، وسوف نرى عروق الغزو الثقافى كيف تشعبت فى الصحافة العربية حتى فى الجوانب الشكلية . لقد كشفت دراسة عن مجلة حواء لنيل درجة الماجستير فى قسم الصحافة بجامعة القاهرة أن غلاف المجلة لم ينشر صورة إمراة عربية واحدة وإنما كان دائما ينشر صورة إمرأة أمريكية أو أوربية ..! وعلى ضوء الخيوط المتشابكة مثل بيت العنكبوت فى عالم الصحافة نستطيع إعادة قراءة الرسوم والكلام المصاحب لها التى قدمها الرسام الصحفى بيكار فى أخبار اليوم ، وهو زعيم من زعماء البهائية، كمانستطيع أن نفهم أهداف الكاريكاتير الذى نشرته صحيفة الأهالى القاهرية لسان حزب التجمع والذي يصور الطيار السعودى الذى سافر فى سفينة فضائية أمريكية باعتباره من الفريق الفضائى ،لقد نشرت الأهالى صورة كاريكاتيرية له ومعه أربع نساء بملابس الفضاء تهكما على مبادىء الإسلام ، لان الطيار السعودى لم يكن قد تزوج عندما قام برحلتة الفضائية . وعندما تزوج بعد ذلك تزوج بامرأة واحدة . ونشر ذلك فى معظم الصحف العربية لأن الطيار السعودى أمير من العائلة المالكة .

الراديو والتليفزيون

لم تمض سنوات قلائل على انتشار الراديو حتى دخل ميدان الحرب النفسية . وبدأت الدول الكبرى فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين الميلادى فى بث إذاعات باللغات التى يتكلم بها أبناء البلدان الموجهة إليهم دعاياتها، وكان فى طليعة الدول التى مارست أساليب الحرب النفسية فى هذين العقدين إيطاليا والإتحاد السوفيتى وألمانيا وبريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت الحرب العالمية الثانية ساحة للحرب الإذاعية فى الوطن العربى ، كما كانت ساحةً للمعارك التى جرَتَ على الأراضى العربية بين الحلفاء (بريطانيا وفرنسا والدول الأوربية ثم أمريكا وروسيا وغيرها) وبين دول المحور (ألمانيا و إيطاليا واليابان). فلقد أنشأت الحكومة الإيطالية فى عام ١٩٣٥ إذاعة باسم « بارى » باللغة العربية ، وأدخلت عليها تحسينات متعددة فى البث الخارجي وتوسيعه حتى أصبحت فى عام ١٩٣٧ قوة بارزة مسموعة فى الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط . وعمدت إذاعة «بارى» إلى تقديم برامجها باللهجات الشامية والمصرية

والعراقية . وأمر الزعيم الإيطالي " موسوليني " بتوزيع أعداد كبيرة من أجهزة الراديو على المستمعين العرب مجانا . وكانت أجهزة الراديو هذه لا تلتقط غير محطة « بارى ». وكان مضمون الدعاية الإيطالية فى هذه المحطة ينصب على مهاجمة السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط وتحريض العرب ضدهم . وإضعاف صورة القوة والسيطرة للبريطانيين بالحديث عن عجز وضعف الإمبراطورية البريطانية .

ومن جانب آخر أمر القائد والزعيم الألماني " هتلر " بإنشاء إذاعة بالعربية ، بدأت فى إبريل ١٩٣٩ باسم محطة «برلين العربية ». وهى أول إذاعة أجنبية فى برلين . وكان مضمون الدعاية الألمانية فى هذه المحطة هو إلهاب الشعور القومى العربى ، بصفة عامة، بالحديث عن الحرية والاستقلال . واستمرت إذاعة برلين العربية تبث برامجها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتحطم النازية الألمانية فأغلقت الإذاعة أبوابها فى أبريل ١٩٤٥ .

الإذاعة البريطانية :

ولكن أهم الإذاعات الموجهة إلى العرب بلغتهم هى الإذاعة البريطانية .وتبدأ قصة الإذاعات البريطانية عام ١٩٢٢ محطة إذاعية تمتلكها شركة تنتج أجهزة الراديو .(١) ثم تبين للحكومة البريطانية أهمية هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة فأصبحت هيئة الإذاعة البريطانية قطاعا حكومياً عام ١٩٢٧ ووضع النظام الداخلى للهيئة الذى يضمن للبرلمان حق التدخل فى شئوون الإذاعة .

والكتب السنوية لهيئة الإذاعة البريطانية ، والأوساط الرسمية البريطانية تنفى مرارا إشراف الدولة على الإذاعة . وتقول إن إذاعة لندن مستقلة ،وغير خاضعة للحكومة البريطانية ، وأنها فوق الخلافات الحزبية ، وأنها تتمتع باستقلال واسع فى النقد .

ومن الباحثين (٢) من يعتبر الحديث حول استقلالية هذه الإذاعة وهماً من الأوهام . ويتندرون بما قاله تشرشل فى هذا الصدد بأن فى أوربا ثلاث دول محايدة هى النمسا ، وسويسرا ، وهيئة الاذاعة البريطانية . ويتندرون بقول بعض مديرى هيئة الإذاعة البريطانية بأنه ليس فى العالم مؤسسة أخرى مثل مؤسستهم فى الإستقلال . ويقول الباحثون إن كل هذا هدفه أن تحصل الإذاعة على ثقة مستمعيها . وهو شرط أساسى لنجاح الإذاعة . وإن الزعم باستقلالية هيئة الإذاعة البريطانية مردود عليه بأربع نقاط . أولاها : المساعدات المالية والحكومية للإذاعة وثانيتها : السلطات التى يخولها القانون لوزير البريد والمواصلات فى مجال الإذاعة . وثالثتها: حق الحكومة فى إختيار أعضاء مجلس الإدارة للإذاعة ويعينون بمرسوم ملكي ورابعتها : العلاقة

---

(١) محمد خير الوادى - من خفايا وأسرار إذاعة لندن - دار بن هانى- دمشق-(غيرمبين) تاريخ ص ٢٦ص٢٧ص٢٨

(٢) محمد خير الوادى - من خفايا وإسرار إذاعة لندن - مرجع سابق - ص ١٤ إلى ص ١٧

بين الإذاعة والمخابرات البريطانية .

أما القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية فقد تأسس عام ١٩٣٨ وأهداف الإذاعة البريطانية الموجهة إلى العرب أو بمعنى أدق القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية الذى بدأ عام ١٩٣٨ هى :

١ - المساعدة على نشر معلومات أوسع حول المملكة المتحدة فى الوطن العربى .

٢ - نشر اللغة الإنجليزية .

٣ - إقامة علاقات ثقافية بين بريطانيا وشعوب الدول العربية .

٤ - توجيه النشاط الإعلامى والثقافى لخدمة المصالح العليا البريطانية .

وهذا ما يلمسه المستمع . ولكن ما يعلنه الكتاب السنوى لهيئة الإذاعة البريطانية يقول إن أهداف الإذاعة البريطانية هى :

١ - توصيل الأخبار عن الأحداث الجارية إلى المستمعين فى الخارج دون إنقاص أو تضليل .

٢ - إبراز وجهة النظر البريطانية فيما يخص الأحداث السياسية الدولية .

٣ - تعريف المستمعين الأجانب بمنجزات الثقافة الإنجليزية وبحياة البلاد . أو كما عبر أحد كبار موظفى الإذاعة إظهار المجتمع الحر فى حركته المستمرة .

٤ - تعليم اللغة الإنجليزية للمستمعين الأجانب .

ومما يسترعى النظر أن إبتداء البث باللغات الأجنبية لهيئة الإذاعة البريطانية بدأ بالعربية ثم تلاه البث بلغات أخرى بلغت حوالى أربعين لغة .والأطوار التى مرت بها الإذاعة البريطانية باللغة العربية يمكن إجمالها فيما يلى :

* كان إسم المحطة إذاعة الشرق الأدنى .وكان مقرها فلسطين وكان ذلك هو الطور الأول الذى يمكن أن نحدده زمنيا بإنشاء هذه المحطة من ٣ /١ / ١٩٣٨ حتى قيام الحرب العالمية الثانية . كانت برامج هذا الطور نشرات الأخبار ، والتعليق عليها . ثم أضيف إلى ذلك إستعراض أقوال الصحف البريطانية . وأضيفت الأحاديث الإذاعية مع بعض الشخصيات العربية التى تزور لندن . هذا إلى جانب الموسيقى والأغانى ، بطبيعة الحال ، ودروس تعليم اللغة الانجليزية .

* أما الطور الثانى فيبدأ مع الحرب العالمية الثانية حيث زادت ساعات الإرسال . وزاد عدد نشرات الأخبار التى تغطى المعارك الحربية فى أوربا وأفريقيا . واستخدمت برامج المحطة فى الحرب النفسية ضد ألمانيا ودول المحور فأصبحت تصف الألمان بالزندقة والكفر ، ولكن المحطة برغم ذلك حافظت بقدر الإمكان على الأسلوب الهادىء الرزين وحافظت على الجرعة الثقافية فى برامجها إلي حد ما ، فى الوقت الذى كانت الإذاعة الألمانية والإذاعة الإيطالية تتسم بالصراخ

والنبرة العالية والانفعال . ويستمر هذا الطور الثانى من أطوار الإذاعة البريطانية باللغة العربية إلى أعقاب الحرب ، بل ويمتد إلى عام ١٩٤٨ حيث كان الصدام المسلح الأول بين العرب وإسرائيل ذلك الصراع الأول الذي قامت على أثره دولة إسرائيل فى معظم الأراضى الفلسطينية . والذي به بدأت سلسلة الصراع العربى الإسرائيلى المسلح بعد ذلك.

* ويبدأ الطور الثالث بانتقال مركز المحطة وكان إسمها لايزال إذاعة الشرق الأدنى إلى قبرص . ولكن هذا الطور الثالث لم يستمر زمنيا لفترة طويلة فهو ينتهى بالعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ . وخلال الفترة من قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ إلى العدوان الإسرائيلى الفرنسى البريطانى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ كانت المحطة تهاجم حركة التحرر الوطنى المصرية بوجه خاص ، والعربية بوجة عام . وزادت ساعات إرسالها من ٣ ساعات إلى ٤ ساعات يوميا . فلما وقع العدوان الثلاثى غيرت الإذاعة إسمها من إذاعة الشرق الأدنى إلى صوت بريطانيا . وأخذت تؤيد العدوان بشكل علنى، وتدعو إلى القضاء على مقاومة الشعب المصرى. وأخذت تذيع الأوامر العسكرية والموسيقى الحربية ، وتقدم برامج سافرة فى الحرب الدعائية ضد الشعب المصرى وضد قادته . وفى أعقاب ذلك أغلقت المحطة أبوابها فى مارس ١٩٥٧ وانتقل القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية إلى لندن .

* والطور الأخير من أطوار الإذاعة البريطانية باللغة العربية يبدأ من عام ١٩٥٧، حيث ارتفع عدد ساعات الإرسال إلى ٦٣ ساعة أسبوعيا عام ١٩٥٨ ثم ٨٨ ساعة أسبوعيا عام ١٩٥٩.

وفى أعقاب هزيمة يونية ١٩٦٧ زادت ساعات الإرسال يوميا عن ١٩ ساعة ثم خفضت بعد ذلك بسبب الظروف المالية . ولكن فى عام ١٩٧٣ إرتفعت إلى ٨٤ ساعة أسبوعيا .

ويقول محمد خير الوادى (١) عن إذاعة لندن باللغة العربية إن الخطورة تكمن فى النفوذ الواسع الذى تتمتع به داخل الوطن العربى،فكثير من المستمعين يعتمد على إذاعة لندن فى نقل الأخبار ، وأحيانا ينطلقون في تقييمهم للأمور السياسية من تعليقات إذاعة لندن ، ومازال العديد من المستمعين يعتقدون أن القسم العربى هو المصدر الوحيد للأخبار الصادقة والموضوعية ، ويحاول محمد خير الوادى أن يعلل هذه الظاهرة بعدة أسباب . أولها أن البريطانيين نتيجة إحتلالهم لبعض الأقطار العربية ظلوا لفترة طويلة على إتصال مع العرب . وقد مكنهم ذلك من دراسة النفسية العربية ومعرفة كل خصائصها . وكذلك معرفتهم للعادات والتقاليد العربية وأسلوب الحياة فى المجتمع العربى. ثم تبع المرحلة الإستعمارية قيام معاهد الإستشراق والمعاهد العلمية بإستمرار

---

(١) محمد خير الوادى - من خفايا وأسرار إذاعة لندن - مرجع سابق - ص ٤٦ إلى ص ٥٢

بالدراسات حول جوانب الحياة العربية . وثانيها أن القائمين على هذه الإذاعة يقومون بدراسات منتظمة للمستمعين العرب بطرق العينات ، والاستمارات ، ثم رسائل المستمعين التى ترد إلى الإذاعة ، والتى تشجع البرامج ذاتها على كثرتها وزيادتها مثل برامج : ندوة المستمعين ، ولكل سؤال جواب، والسياسة بين السائل والمجيب، وقول على قول ، وما شابه ذلك من البرامج . وثالثها أن هذه الإذاعة تحاول استغلال شعور الوحدة النامى لدى المستمعين العرب بأن تجعل برامجها بعيدة عن التحزبات والإنشقاقات و الخلافات العربية ، وخلق هذا الانطباع عند كثير من المستمعين يزيد من تعلقهم بهذه الإذاعة ، ورابعها يعود إلى المستوى المنخفض نسبيا لكثير من الإذاعات العربية ، فكثيرا ما تقوم بعض الإذاعات العربية بتجاهل أحداث حصلت فى بلدان عربية أخرى أو قد يجرى الحديث عنها باختصار شديد وبشكل ضبابى وبعيد عن الموضوعية . لذلك يتجه المستمعون العرب إلى إذاعة لندن التى تقدم لهم صورة مفصله لما يجرى فى الوطن العربى .

وقد كشف محمد خير الوادى فى دراسته الحيلة الإذاعية فى ترويج وجهات نظر سياسة معينة دون التبنى المباشر لوجهات النظر هذه بقوله : إن النظام الداخلى لهيئة الإذاعة البريطانية يمنع موظفيها من إبداء آرائهم حول مختلف القضايا السياسية أو الاجتماعية ، ولكن قادة القسم العربى استطاعوا إيجاد صيغة مرنة يعبرون من خلالها عن أفكارهم ومواقفهم باختيار أقوال الآخرين من صحف ، ورجال سياسةتقيم أو تفسر حدثا معنيا بما يتلائم ووجهة نظر الإذاعة . هذا بالإضافة إلى تكرار ذلك فى البرامج .

راديو مونت كارلو * :

وهو الوجه الإذاعى الفرنسى باللغة العربية المقابل للوجه الإنجليزى المتمثل في هيئة الإذاعة البريطانية (القسم العربى) . وقصة التنافس ، بين الإنجليز والفرنسيين فى إستعمار الوطن العربى والسيطرة اقتصاديا وثقافيا فى التاريخ الحديث من القرن الثامن عشر حتى الآن ، تكاد تشبه التنافس بين أكبر أسرتين فى القريه المصرية حول « العمودية » ونسبة المشايخ ومركز شيخ الخفراء وقد تتعداها إلى مجالات أخرى كالترشيح لمجلس النواب ، أو بناء المساجد أو حيازة وابور الطحين . برغم ما بين المثلين من اختلاف جذرى فإن الصورة تظهر بجلاء التنافس بين فرسى رهان .

وكان ميلاد إذاعة راديو مونت كارلو صورة من صور التنافس بين الإنجليز والفرنسيين فى

---

* مونت كارلو شاطئ في إمارة موناكو التى تقع فى الجنوب الشرقى من فرنسا والتى تبلغ مساحتها تقريبا ميلا مربعاً وهى إمارة صغيرة جدا تعيش على السياحة وفيها كازينو القمار الشهير عالميا وهو فى مونت كارلو .

الوطن العربى، تروى جيلان حمزة (١) هذا الميلاد الإذاعى فتقول : بعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ . وبعد الغارة الاسرائلية على مطار بيروت عام ١٩٦٨، وبسبب الود التقليدى بين لبنان وفرنسا فكر الجنرال ديجول فى أنه ليس لفرنسا حضور إعلامى فى المشرق العربى ، خلافا للحضور الفرنسى فى المغرب العربى بواسطة إذاعاتها الفرنسية اللسان.. فجمع الرئيس الفرنسى ديجول عددا من مستشاريه وطلب منهم دراسة مشروع إعلامى فى الشرق العربى يؤمن الحضور الفرنسى إعلاميا كما تؤمنه الإذاعة العربية لبريطانيا. وعلى الفور تشكلت لجنة لهذا الغرض ، وذهب رئيسها إلى المنطقة فى زيارة إستطلاعية على الطبيعة ، وتبين له أن إذاعات المنطقة لا تعمل على الموجة الطويلة الشائعة فى الإرسال الفرنسى. وكذلك الموجة القصيرة نادرة الاستعمال . وبدأ التفكير فى ضرورة البث من مكان قريب . وبرز التفكير فى مكان محايد حتى لا يكون البث من بلد عربى سببا فى تورط البلد أو فرنسا أو تورطهما معا . ثم استقر الرأى على قبرص لتكون بلدا مناسبا . وعندما خلف جورج بومبيدو الجنرال ديجول فى الرياسة الفرنسية عام ١٩٦٩ واصل الفكرة وشجعها. ثم ظهرت مشكلة تاريخية تحول دون الإرسال الفرنسى من جزيرة قبرص . ذلك أن البريطانين عندما غادروا قبرص إثر حصولها على الاستقلال فى أغسطس عام ١٩٦٠ اشترطوا فى معاهدة الاستقلال ألا تنصب قبرص على أراضيها أجهزة بث لأى دولة كبرى حتى عام ١٩٩٩ . ولأن فرنسا دولة كبرى وإمارة موناكو دويلة صغرى تم تغير اسم المحطة الذى كان مقترحا هنا باريس ليصبح راديو مونت كارلو وهكذا وجدوا الحل .

هذا الراديو الفرنسى كان قد سبقه راديو باريس باللغه العربية الذى يوجه إلى المغرب العربى ، ويبث إرساله بالموجة القصيرة .

وبدأت إذاعة راديو مونت كارلو فى أول مايو عام ١٩٧١ بمدة إرسال تبلغ أربع ساعات(٢) فى اليوم . وبتأجير استديو للبث من راديو مونت كارلو الذى يذيع بالفرنسية ، وباستخدام المكتبة الموسيقية لراديو مونت كارلو الفرنسى، ثم أصبحت منذ٢ أبريل عام ١٩٧٢فى باريس ، وكانت قوة المحطة فى قبرص ٢٠ كيلو وات ، وهى لاتكاد تغطى الساحل العربى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، ثم أصبحت المحطة فى عام ١٩٧٩ قوتها ٦٠٠ كيلو وات ، بالإضافة إلى استخدام الميكروويف والكابل الممتد تحت البحر . وبذلك غطى إرسالها الوطن العربى ، وعلى إثر حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل دخلت إذاعة راديو مونت كارلو

---

(١) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - ا لهيئه المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ ص ٢١ الى ٢٩

(٢) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٠٩ ، ص١٢٥ ،الى ص ١٢٩ .

مرحلة جديدة من حيث ساعات الإرسال ، وتغير المضمون من مضمون شبابى مرح إلى مضمون إخبارى إلى حد ما. وبعد أسبوع من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣ أصبحت ساعات الإرسال تمتد من الساعة الخامسة صباحا بتوقيت جرينتش إلى العاشرة مساء بالتوقيت نفسه ثم أخذت إذاعة راديو مونت كارلو فى إجراء أحاديث إذاعية مع شخصيات عربية بارزة ، وبخاصة فى أعقاب الحرب الأهلية فى لبنان ، ثم الاجتياح الإسرائيلى لبيروت .

وبالرغم من التنوع والتعدد فى أشكال الفن الاذاعى الذي تطور فى هذه المحطة مع اتساع جمهورها إلا أن المضمون ظل فى جوهره الترفيه ، من موسيقى وأغان عالمية ، إلى جانب الأخبار ، وأصبح للمحطة عدد من المراسلين فى معظم العواصم العربية للتغطية الإخبارية إلى جانب إعتماد المحطة على وكالات الأنباء ،وتقدم المحطة الرأى والتعليق فى برامجها مثل البانوراما أو جريدة الجرائد.

وتقول جيلان حمزة (١) : إذا قيل ما هو راديو مونت كارلو ؟ فالجواب يكون فورا بأنها محطة تجارية يشكل الإعلان ٧٠ ٪ من دخلها ، والحكومة الفرنسية تدفع مرتبات العاملين في المحطة ، ولكنها لا تملكها ملكية مباشرة وإنما هى مؤسسة تتألف من أسهم إلى جانب رأسمال حكومى . وعندما بدأت المحطة كان مكتب إعلانات فى بيروت يتولى حق الحصول على الإعلان فى راديو مونت كارلو العربى ، بعمولة تصل إلى ٤٠ ٪ من ثمن الإعلان . ثم ظهر لون آخر من ألوان برامج الإعلانات على خريطة راديو مونت كارلو وهى إعلانات ضمن برامج مكفولة، وفيها تقوم مؤسسة ما بدفع تكاليف إنتاج البرامج كاملة ، وهذا البرنامج يتحدث بالطبع عن نشاط تلك المؤسسة ، وعن أهدافها ،وهناك شكل ثالث للإعلان وهو برامج المسابقات ، على أن تقوم أيضا إحدى الشركات أو المؤسسات بتمويله. ثم هناك برامج مكفولة لا يذكر إسم ممولها ، وإن كان يفهم ضمنياً جهة التمويل . هذا إلى جانب تقديم برامج منوعات مثل أجمل أغانى الأسبوع ، ويتم إذاعته تحت رعاية إحدى الشركات المنتجة لأجهزة التسجيل .

وتذكر جيلان حمزة (٢) نقلا عن تقرير لتوم رستم أحد الناطقين بلسان الخارجية الأمريكية عام ١٩٨٦ م أن لإذاعة راديو مونت كارلو ٣٢٪ من المستمعين فى المشرق العربى ، بينما للإذاعة البريطانية ٢٤ ٪ ولصوت أمريكا ٤ ٪.

---

(١) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٥٨ .

(٢) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٥٨ .

وعندما اشتدت الحرب الباردة بين الإتحاد السوفيتى والمعسكر الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية منذ النصف الثاني من القرن العشرين الميلادى حتى منتصف العقد الثانى من القرن العشرين نفسه ، استخدمت الإذاعة وسيلة في هذه الحرب الباردة بألوان وأشكال مختلفة ومتنوعة .

ومن أهم هذه الحروب الاذاعية ما كانت تبثه خمس عشرة محطة إذاعية غربية موجهة إلى حوالى مائة ألف بحار سوفيتى فى بحار العالم حيث يقضي هؤلاء البحارة ما يقرب من العام متنقلين بين السواحل العالمية . وكانت برامج هذه المحطات تبث معلومات معدة خصيصاً لإشاعتها بين البحارة السوفيت ، وفي المقابل نظمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى ذلك العهد حملة توعية لبحارة سفنها فى البحار العالمية لمواجهة الحرب الإذاعية الغربية .

التليفزيون :

وسائل الإعلام لا ينسخ أوْ يلغي بعضها بعضاً ، ولكنها تتكامل ، وتتنافس أيضا ، ويظل لكل منها دوره وجاذبيته فى الاتصال الانسانى . وهكذا كان ظهور التليفزيون منذ عام ١٩٣٦ ، وانتشاره بعد الحرب العالمية الثانية التى أعاقت انتشاره المباشر بعد اختراعه .وعندما جاء التليفزيون ، وهو وثيق الصلة بالراديو ، لم تكن دائرة بثه تتعدى الحواجز الجغرافية للدول كما تفعل الإذاعة . حتى جاء العقد الأخير من القرن العشرين فأصبح نقل برامج التلفزيون عن طريق الأقمار الصناعية حافزا لمحطات تلفزيونية عديدة أن تبث إرسالها عالميا وفضائيا .وأن يستقبل المشاهد العادى هذه البرامج العديدة باضافة « ايريال» أى هوائى على شكل طبق إلى جهاز التلفزيون العادى . وأصبحت هذه الظاهرة تسمى ظاهرة الأطباق .

وهكذا أصبح التليفزيون متخطياً الحواجز الجغرافية مثل الراديو ، بعد أن كان يتخطاها بإنتاج البرامج وبيعها للمحطات التلفزيونية المحلية فحسب . أصبحت المحطة التليفزيونية الفضائية بكامل إرسالها فى متناول المشاهد العادى بعد أن كان الأمر قاصرا على نوعيات من الانتاج تشتريها المحطات المحلية ، أو تهدى إليها ، أو تتبادلها . ومن ثمَّ أصبحت الظاهرة الجديدة حديث الناس فى الوطن العربى . حديث الخبراء ، وحديث الآباء . لأن بعض المحطات الأوربية ، والتجارية منها بخاصة تبث برامج جنسية ، وأفلام عُرى تَضُر بصحة الشباب العربى جسديا ونفسيا . والاختلاف بين تلك المحطات التى تعبر فى برامجها عن القلق والتوتر الذى يسود مجتمعات غرب أوربا إختلاف فى الدرجة وليس فى النوع . ففى الدانمارك مثلا تعرض هذه المحطات جنسا حقيقيا ، أما فى إنجلترا فتعرض هذه المحطات جنسا تمثيليا .هذا فيما يتعلق بالجنس والعرى . إما فيما يتعلق بالأخبار ، والإعلانات ، والبرامج الدرامية فانها تَعبِّر عن ثقافة أخرى ، ورؤية أخرى ، وتطور إقتصادي واجتماعى مختلف عن الواقع العربى .

وبرغم أن الجمهور العربى الذى يتعرض لهذا البث التلفزيونى محدود ، إلا أن الظاهرة فى

سبيلها إلى الانتشار ، وسوف تقدم التكنولوجيا تسهيلات جديدة تجعل البث بالأقمار الصناعية للتلفزيون قليل التكاليف .

والعلاقة بين التلفزيون والغزو الثقافى للمجتمع العربى المعاصر يمكن إجمالها فى ثلاث نقاط جوهرية ، النقطة الأولى : هى الأحدث و الأكثر إثارة وانتباها وهى البث المباشر عبر الأقمار الصناعية . والنقطة الثانية : هى البضاعة الأمريكية بصفة عامة والأوربية وغيرها التى تبثها محطات التلفزيون العربية والإسلامية . والنقطة الثالثة : هى صورة العرب والمسلمين المشوهة فى المحطات التلفزيونية الأمريكية والأوربية .

لقد تذكرت مقولة الدكتور جلبرت أستاذ التاريخ اليونانى بجامعة أكسفورد فى منتصف القرن العشرين الميلادى ، حين قال : لو كان لليونان صحف ، ولو أن صحيفة واحدة أو حتى صفحة واحدة من صحيفة وصلت إلى أيدينا لكانت معرفتنا بالتاريخ اليونانى أكثر حيوية وأعظم مما هى عليه الآن ، تذكرت هذا القول وأنا أطالع تجربة أستاذ مصرى باحدى كليات الطب مع البث التلفزيونى عبر الأقمار الصناعية عام ١٩٩٣ . حيث يقول :

واشتريت « الدش » أى الطبق الذى يتيح لى استقبال إرسال محطات التلفزيون العالمية فى بيتى ، وكان شراؤه بالنسبة لى أمرا هاما مطلوبا فأنا أصلا من هواة إستعمال الموجة القصيرة بالراديو لأنها تقدم لى كنزا من المحطات المختلفة وحضارات متنوعة ، وأخباراً وتعليقات وفنونا من كل أنحاء العالم ... «والدش » يمثل لى نفس المميزات تلفزيونيا ، وقد انتظرت حتى هبط السعر حتى صار فى حدود ثمن التلفزيون الجديد .. بل وأصبح بالتقسيط المريح ثم أشتريته .. فى يوم وصوله صباحا.. جلست أمام التلفزيون ومعى جهاز الريموت كونترول أتجول معه بين ٣٦ محطة متنوعة ، وجبت أقطار العالم كله من أمريكا لفرنسا لتركيا للمجر لألمانيا والمغرب يا إلهى إنه أمر مذهل ، مسرحية فرنسية ، مباراة كرة قدم فى ألمانيا ويمبلدون بانجلترا ، أوركسترا تركى كلاسيكى، فرقة غجرية من المجر، تعليق سياسى رصين من ايطاليا، أحداث عالمية على الهواء من محطة انجليزية .. العالم كله بين يديك أو قل تحت قدميك. ثم أتى المساء .. وأمسكت الريموت كونترول وحركت المحطات ففوجئت بمناظر لا ينفع معها لفظ مخفف أو كلمات ديبلوماسية ، لأنها بصراحة.. مناظر فاحشة ... !!

وحمدت الله أن كان أبنائى نياما.. وأن الريموت كونترول مازال فى يدى استعداداً لأى مفاجأة ، ولكن هل ينام الجميع ؟!! ومن سوف يمسك بالريموت كونترول فى يده فى كل بيت ؟! بل فى كل مقهى؟! إنها كارثة حقيقية ، لم أتصور حجمها . ومن إنطباعاتى عن البث القمرى :

أنه أولا : كنز من الثقافة والمعلومات .. فقط لمن يجيد اللغات الأجنبية إجادة عالية متمكنة.
ثانيا : أنه إلى جانب ذلك قد يكون مصدرا خطيرا للإخلال بالتوازن الأخلاقى والاجتماعى لدى

المجتمع ، ولا تحدثنى كثيرا عن حكاية التربية العائلية والترابط الأسرى ،وأنهما حاجزان ضد الانحراف !! فمن يقول ذلك إما لم يشاهد ما شاهدت أو لم ينجب !! ثالثا : أن منع الأطباق أمر غير ذى فائدة وصعب تطبيقة ، فقد بدأت التلفزيونات فى أنواعها الجديدة تدخل هوائيات الاستقبال الفضائى بداخلها ، كالراديو تماما عندماأصبح يستقبل الموجات القصيرة بدون ايريال خارجى . رابعا : أن محطات البث الفضائى إما محطات دول كقنوات سوبر شانل والمحطة الفرنسية والايطالية والألمانية وهى تتقيد إلى حد كبير بحدود الأخلاقيات العامة وإما المحطات التجارية فهى تتنافس فيما بينها بمثل هذه الأفلام.

و الحل فى رأيى : أمران أولهما حل عاجل يتم بفرض ضرائب باهظة على هذا الطبق وهو طبعا أمر سهل بل وسوف - يجد هوى لدى المسئولين - بحيث يصبح شراؤه بعيدا عن متناول - أى صاحب محل أو مقهى صغير فى الشارع . أما الحل الحقيقى فهو لابد من ميثاق تعده منظمة «اليونسكو» وتلزم به دول الأمم المتحدة ، وخاصة دولها المتقدمة فى صناعة الأقمار لوضع الحد الأخلاقى - أو قل اللا أخلاقى - الأقصى لما بث بواسطة الأقمار . وأظن أنه مهما اختلفت أخلاقيات الأمم فلا اختلاف فى أن المناظر الفاحشة أمور خارجة عن كل عرف ودين، وإلى أن يتفق العالم على ذلك ويطبق هذا الميثاق فلتشجع الدولة محطات الكابل الرصينة بل والمشوقة مثل ال C.N.N وقناة الرياضة بل لا مانع أن تقدم الدولة محطة غنائية ومحطة رياضية ومحطة دينية . وأقرب ما خطر ببالى هو قناة للمعلومات جاهزة ،ولكن لم تحتل قناة كاملة لأنها مشفرة أى تعمل بالشفرة وإن لم يتيسر الحلان فأظن ألابديل عن التشويش علي إرسال بعض المحطات أسوة بما يحدث في الارسال المسموع ، لابد من ذلك لأن الأمر جاد جدا والخطر قريب ويدخل البيوت من نوافذها بدون إستئذان (١) ".

هذه التجربة أشبه بالصورة المعبرة للإنسان العربى وللإنسان المسلم فى العقد الأخير من القرن العشرين مع البث التلفزيونى عبر الأقمار الصناعية .

ويحلل د . السيد عليوه (٢) ظاهرة البث التلفزيونى المباشر عبر الأقمار الصناعية من زاوية تأثيره على المشاهد العربي فيرى أن الجوانب الإيجابية تتمثل فيما يلى :

---

(١) د . خليل مصطفي الديوانى - ولا تحدثنى كثيراً عن التربية - جريدة الأهرام بتاريخ ٣ - ٦ - ١٩٩٣ .

(٢) د . السيد عليوة - ماذا يفعل هذا الطبق الأمريكى الشهى؟ - مجلة الأهرام الإقتصادى- بتاريخ ١ - ٤- ١٩٩١

● تجديد الثقافة الوطنية الراكدة فى بعض الأحيان بتطعيمها بنماذج وتطلعات عصرية جديدة تتعلق بالإبداع والأداء الرفيع والإيقاع السريع، مع تشجيع التبادل الحضارى، ونشر التسامح الثقافى بين الأمم والشعوب .

● تطوير وسائل الاتصال المحلية وبالذات التلفزيون حيث تفرض عليها المنافسة مع القنوات العالمية ضرورة تحديث أساليبها .

● إختفاء فكرة السيادة الإعلامية التى كانت تتمسك بها الدول ،الأمر الذى سوف يثير قلق الحكومات الاستبدادية و النظم العنصرية لأنه يتضمن مزيداً من الدعوة إلى التحرير والانطلاق، كما سوف يزود الناس بالمزيد من المعلومات التى تساعدهم على حرية الاختيار.

ويرى أن الجوانب السلبية تتمثل فيما يلى :

● تشكيل العقول والتلاعب باتجاهات الرأى العام وتوجيه رغبات الناس بما يتفق مع سياسات ومصالح أصحاب هذه المحطات من الدول الصناعية الغربية (وفى مقدمتها الولايات المتحدة) وغيرها من رجال الأعمال.

● حقن الوجدان القومى بقيم ومعايير وسلوكيات قد لاتتفق مع الثقافة التقليدية ،الأمر الذى يهدد النسيج الاجتماعى .

● إشاعة الميول الاستهلاكية النهمة ، والرغبة فى التقليد والمباهاة .

ويضيف إلى ذلك أن بعض المحطات الإخبارية فى الولايات المتحدة الأمريكية تهتم بجذب اهتمام المشاهد فى تقديم الأخبار بعيدا عن المجرى الصحيح أو الحقيقى للأحداث بغرض الإثارة والتشويق والملاحقة .

وإذا انتقلنا إلى النقطة الثانية التى تتمثل فى البضاعة الأمريكية بصفة عامة، ثم الأوربية وغيرها التى تبثها محطات التلفزيون العربية والإسلامية فإننا نجد شهادة الدكتور إدوارد سعيد الأستاذ الأمريكى من أصل عربى معبرة عن واقع حال حيث يقول :

« إن أجزاء عديدة من العالم الإسلامى تغرق الآن فى برامج تلفزيونية من إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية . ذلك أن المسلمين، شأنهم شأن جميع سكان العالم الثالث ، يعتمدون غالبا على عدد صغير من وكالات الأنباء ووكالات الأخبار المصورة ، مهمتها نقل الأخبار وإعادتهـــا إلى العالم الثالث ، حتى فى العدد الكبير من الحالات التى تكون الأخبار فيها عن ذلك العالم . لقد تحول العالم الثالث عامة والبلدان الإسلامية خاصة من مصدر للأخبار إلى مستهلك للأخبار . ولأول مرة فى التاريخ (أى لأول مرة على مثل هذا النطاق الواسع) يمكن القول بأن العالم الاسلامى يتعلم عن نفسه عن طريق تصورات وتواريخ ومعلومات مصنوعة في الغرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك

حقيقة أن الطلاب والباحثين فى العالم الإسلامى لا يزالون يعتمدون على المكتبات و المؤسسات العلمية الأمريكية والأوربية فيما يعتبر الآن دراسات شرق أوسطية . وإلى جانب ذلك لا توجد مكتبة مركزية كاملة حقا للمواد العربية في أى مكان فى العالم الإسلامى برمته . وإى جانب حقيقة واقعية وهى أن معظم العالم الإسلامى الذى يقوم اقتصاديا على النفط، ويعتمدالآن فى نخبته على توليد طبقة مديرين من المواطنين الذين يعتمدون فى اقتصادياتهم ومؤسساتهم الدفاعية والكثير من فرصهم السياسية ، علي نظام السوق الإستهلاكى العالمى الذى يسيطر عليه الغرب . كل هذه الحقائق تزودنا بصورة دقيقة ، وإن تكن مثبطة إلى أقصى حد ، عما فعلته ثورة وسائل الإعلام بالإسلام ، وهى ثورة تخدم قطاعا صغيرا من المجتمعات التى أنتجتها(١)."

يقول الدكتور مصطفى محمود (٢) عن المسلسلات الغربية التى تعرضها محطات التلفزيون العربية والاسلامية :

«كل ما يتسلسل أمامنا من أحداث هى جرائم قتل وسرقة واختلاس واغتصاب وانحلال وعهر وتبذل ، ولكن تلك السفالات نراها ملفوفة في أجمل الثياب وأبهى الأزياء وأرق الأجسام وأنور الوجوة وأحلى القدود وأشهى الخدود ، وكل ما تقع عليه العين فى المسلسل نظيف ولامع وباهر ومتألق وجذاب وخلاب فلا نملك إلا أن نبتلع الجرعة بما فيها من سموم ، ونحتضن المضمون بما فيه من انحلال دون أن نفطن إليه، ويتمنى الساذج منا أن يكون مثل هؤلاء الأبطال و أن يمتلك مثل تلك البيوت ، ويرتدى مثل تلك الثياب ويعيش فى تلك الوفرة ويستمتع بذلك الثراء - وهكذا يأكل الطعم الذى يهدف إليه هذا اللون من الفن ،والطعم هو أن تحتال وتسرق وتقتل وتخون وتكذب وتطعن فى الظهر وتتآمر فى الظلام ، مثل ما يفعل الأبطال الذين تراهم لتكون لك تلك الوفرة وتلك المتع ولتعيش حياة فيها كل ذلك البريق .

ويغرق الأبطال فى تلك السفالات ، مع أنهم بخير وأصحاب ملايين ، ويمرحون فى النعمة والرزق الوفير والمال الكثير . ولكن هذا ضرورى لمثل تلك الفنون . فمن الضروري أن يكون المجرم أنيقا ومهذبا ومعطرا ، وعنده يخت ، وأسطول سيارات ، وفى جيبه مليون جنيه ليبدو فى عينك نموذجا ومثالا تشتهيه ، و لا يجوز أن يكون مثل مجرمى الصعيد الحفاة المطاردين من البوليس .

إن شخصية بطلنا محمود المليجى لا تنفع لأنها قد تعطى عبرة .. وهم لا يريدونك أن تخرج بعبرة ،بل يريدونك أن تتقمص تلك الشخصية الإجرامية فى حب وعشق وتذوب فيها .

(١) د . إدوارد سعيد - تغطية الإسلام - مرجع سابق - ص ٨٠

(٢) د. مصطفى محمود - جريدة الأهرام بتاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٩٢

يريدون أن يستلوا منك هويتك ويلبسوك هويتهم وأن تلبس ثوبهم بمزاجك واختيارك ، وهذا هو التنويم الثقافى الرفيع الشيك .

ولو ارتفع صوت ينقد هذا اللون من المسلسلات ، فسوف يخرج عليه مليون صوت يرجمونه بالحجارة ، ويتهمونه بالرجعية والتخلف والانغلاق والتحجر، وسوف تنتفض قبيلة من النقاد الأكابر يدافعون عن حرية الفن وحرية الابداع وحرية الخلق .. الخ .. الخ "..ثم يقول :

«فى السوق الغربية التى تبيع هذا اللون من المسلسلات نجد ألوانا أخرى من الثقافة الجيدة والفنون الرفيعة ، ونجد ألوانا رائعة من البرامج الوثائقية والأفلام العلمية والأفلام التاريخية والدراما الراقية لا تقل عنها إقناعا مع فارق كبير أنها لا تقدم هذه النماذج الساقطة ، ولا تمتع المشاهد إمتاعا فارغا بل تثرى عقله وتفتح بصيرته وتعمق وجدانه ، وهى أولى بالاستيراد من هذه المسلسلات »

ولم يُقَصر النقاد السينمائيون وكتاب « الدراما » العرب فى كشف ما تعبر عنه البضاعة الأمريكية والأوَربية فى مجال الأفلام والمسلسلات ولم يترددوا فى نقد زملائهم المنبهرين ببضاعة الغرب هذه وبيان مدى تفاهتها وتفاهة المنبهرين بها .

فى عام ١٩٩٢فاز فيلم « صمت الحملان » بالجوائز الست الكبرى من جوائز «الأوسكار» المعروفة عالميا . فاز بجوائز أحسن ممثل ومخرج وممثلة وكاتب سيناريو وأحسن روائى وأحسن فيلم. وصاحب هذا الفوز ضجيج إعلامى عالمى. ولكن الصحفى المصرى عبدالنور خليل (١) يصف ذلك بالمفاجأة لأن الأفلام التى نافست صمت الحملان فى الحصول على الجائزة أثارت عند عرضها ضجيجا سياسيا ، مثل الفيلم الذى حاول تعقب حادثة إغتيال « كينيدى » الرئيس الأمريكى الأسبق . ولكن الفوز كان « لصمت الحملان »، الذى عرض عالميا لأول مرة فى مهرجان برلين فى فبراير ٩١ وقدمه مهرجان القاهرة السنمائى الدولى فى ديسمبر من العام نفسه ، فيلم جريمة ،وإن زادت عليه صفة العنف الدموى الذى يحكى تحول طبيب نفسى بارع إلى آكل وحشى للحوم البشر . يبدأ فى قضم خدود مرضاه أو يأكل سمانة أذرعتهم ويحاكم ويسجن لمدى الحياة فى جب تحيطه الأسوار الحديدية وجدران من الزجاج غير القابل للكسر .

وقصة الفيلم تبدأ بسفاح نساء مطلق السراح اطلق علية اسم بافلوبيل يختار ضحاياه من نسوة ممتلئات الجسد لحبسهن حتى يفقدن الوزن ، ويسهل علية نزع جلودهن بعد قتلهن ، لأنه يريد أن يصبح له جلد إمراة ، وتتعدد ضحايا السفاح ، ويختار ضابط المباحث الفيدرالية جاك كراوفورد تلميذة جادة فى أكاديمية الشرطة اسمها كلاريس ستارلنج كان أبوها ضابطا قتله بعض المجرمين

---

(١) عبد النور خليل - صمت الحملان بطلاه طبيب يأكل لحوم البشر وسفاح نساء - مجلة المصور- بتاريخ ١٠- ٤- ١٩٩٢

أمام أعينها فقررت أن تصبح ضابطة تكافح الجريمة .ويرسلها كراوفورد لمقابلة الطبيب المجرم ليكستر فى سجنه لكى تحاول أن تصل إلى شخصية السفاح الذى كان واحدا من مرضاه ذات يوم . وبرغم المحاذير وبرغم القضبان المزدوجة والحوائط الزجاجية المدرعة ، تلقاه فى الجب الذى سجن فيه ، وبنظرة خبيرة ينفذ إلى أعماقها . إنه يكشف كابوس حياتها . صيحات الحملان وهى تساق إلى الذبح لكنه يضعها على أول الطريق لتعاقب سفاح النساء بافلوبيل الذى استمر في ذبح ضحاياه ، ثم اختطف ابنه سيناتور فى مجلس الشيوخ الأمريكى فقامت ضجة ضخمة أدت إلى المطالبة بأن يجىء البوليس بالطبيب آكل لحوم البشر من سجنه مكمم الفم بقيد حديدى محبوسا داخل قفص . ورغم ذلك ينجح فى نهش وجه حارسيه ويهرب ، وإن كانت الضابطة الشابة قد استطاعت أن تصل إلى معقل سفاح النساء وتقتله وتحرر ابنة السيناتور ، وتصبح بطلة وتتخرج وتتزوج ضابط المباحث الفيدرالية وتتلقى مكالمة عبر البحار وهى بملابس الزفاف أن الطبيب آكل لحوم البشر يهنئها بصمت الحملان فى كابوسها اليومى ، وزفافها، ولا ينسى أن يخبرها أنه في وسط افريقيا ، يوشك أن يتمتع بوجبة عشاء من لحوم البشر طبعا. هذا الفيلم وهذا الفن برمته يعبر عن ثقافة أخرى لا تتوافق مع الثقافة العربية ، مهما قيل من توحد الفكر الإنسانى ، ومهما قيل من مبررات .

والكاتب المصرى أسامة أنور عكاشة (١) مؤلف المسلسلات التلفزيونية المشهورة يرد علي المنبهرين بالأعمال الدرامية الأجنبية التى يبثها التلفزيون المصرى قائلا :

«فوجئت ذات صباح بكلمات منشورة فى العدد الأسبوعى لإحدى صحفنا القومية الكبري لمحرر فني كبير وقديم بعاموده النقدى الأسبوعى يدعو فيها كتاب الدراما المصرين ليواظبوا على متابعة مسلسل الجرئ والجميلة يوميا على شاشة القناة الثانية لكى يتعلموا منه فن الكتابة الدرامية !! ولو أن حضرته قد اكتفى بالتعبير عن إعجابه وإنبهاره بالمسلسل لما استوقفنا هذا ولا أثار فينا أى نوع من الاستفزاز وخاصة أن ملايين المشاهدين يشاركونه الإعجاب بالتفافهم اليومى حول أجهزة التليفزيون فى انتظار إطلالة السيد "ريدج فورستر" وشقيقه" ثورن" مع الأنسة "بروك" وصاحبتها "كارولين سبنسر" وباقى شخصيات هذا المسلسل الأعجوبة ولكن أن يتطرف فيدعونا إلى الجلوس فى مدرسة " ريدج فورستر" لتعليم الدراما الرشيدة، فهذا ما يدفعنى بحماس لمراجعة دروس هذا المسلسل و المدرسة مع سيادته ومع القراء الأعزاء . ولنبدأ أولاً بدرس النجاح لنحسم منذ البداية قضية المبدأ الفنى، ولا نطيل اللجاج حولها.

---

(١) أسامة أنور عكاشة - لغز نجاح مسلسلات الصابون - مجلة روز اليوسف - بتاريخ ١٨ - ١ - ١٩٩٣ .

فهذا المسلسل ناجح بلا شك ،وعلى حد تعبير الأخت المذيعة التى تقدمه كلما جاء عليه الدور بقولها أعزائى كل أفراد الأسرة موعدكم الآن مع الحلقة رقم كذا من المسلسل اليومى المثير الممتع "ذى بولد أند ذا بيوتيفل" إذاً فنحن لا نمارى ولا نماحك فى أن المسلسل ناجح كما نجح قبله دالاس و فالكون كريست ونوتس لاندنج وآل كولبى وسائر درر هذا العقد من التحف الدرامية التى تمتعنا وتثيرنا بها شركات الإنتاج الأمريكية والأسترالية وغيرها. وتجلسنا فيها نحن شعوب العالم الثالث المتعطشة للفرجة على أنماط الحياة والعلاقات والسلوكيات التى حرمنا منها فى مجتمعاتنا المقفولة والتى تجعلنا نلهث ونتقلب على جمر النار ونحن نشاهد أحلى فتيات العالم الأول، تستطيع كل واحدة منهن أن تحل من على حبل المشنقة ، ومجموعة العلاقات الجنسية غير الشرعية التى تصل فى كثير منها إلى الزنا بالمحارم، فتضرب على أوتار "التابوهات "الشرقية مستخرجة من العقل الباطن لدينا كل أحلام وكوابيس خالد الذكر سيجموند فرويد !

ولكننا نرفض أن يكون النجاح بهذا المعنى هو المقياس الفنى ،فكل هذه الأعمال لا تصمد أمام التحليل الدرامى المنهجى والموضوعى ،وكلها تعتمد على الإبهار الإنتاجى ودقة الصنعة وتخفي وراء هذا تلفيقا دراميا فاضحا وأخطاء لو اقترفها مؤلف دراما - مصرى ابن بلد وليس خواجة - لنصبت له المشانق النقدية !

ولن نقارن بين تلك الأعمال وأعمالنا نحن، بل سنقارنها بالأعمال الدرامية المحترمة عندهم ولنتذكر معاً مسلسلات مثل الغنى والفقير والجذور والشمال والجنوب و أعلا السلم وأسفل السلم وإدوارد ومسز سامبسون وغيرها من الأعمال القيمة التى شهدناها .وهناك الكثير لم نشاهده لأن السادة المنوط بهم اختيار الأعمال الدرامية الأجنبية وشرائها فى التلفزيون المصرى لا يعرفون أن هناك سلسلة مثل" البست سيلرز" تقدم دراما جيدة وممتعة وغيرمسفة، أو يعوفون ولكنهم يفضلون بشكل شخصى أو لأسباب لا نعلمها . مسلسلات السوب أوبرا soap opera والترجمة الحرفية لها مسلسلات الصابون أى تلك التى تذاع لربات البيوت فى فترة انشغالهن بأعمال المطبخ. ومسلسلنا الأخير موضوع هذا المقال الجرىء و الجميلة هو المثال الواضح لهذا النوع .

ففى الجرئ والجميلة نرى نموذجا للدراما - اسمحوا لى أن أطلق عليها اسماً من عندى - أعتقد أنه أصدق وصف موضوعى لها وهو الدراما الحلزونية فهنا لا يجرب الكاتب تكنيك فن السيناريو المتوازى ،أو المستعرض، أو المتتابع ،أوالمتقاطع أو التراكمى ،أو أى تكنيك آخر فى السيناريو بل يخترع تكنيكا فريدا فى نوعه هو السناريو الحلزونى ،أى يبدأ من نقطة ثم يدور حولها، ثم يتقدم خطوة ليعود إلى حيث بدأ ويكرر التقدم والدوران والعودة حتى يقطع نفسك معه ولكى لا يفقدك كمشاهد يحافظ على اللعبة البوليسية القديمة (الملبس فى الايد دى ولا فى الايد دى) ، إنه يغيظك باللف والدوران ، ويثيرك بأن يجعل من الحبة قبة ، ويجعلك فى الوقت نفسه

تضطر للمتابعة حتى تعرف أخرتها معاه ".

ويضيف الكاتب قائلا :

«الدروس الحقيقية التى يمكن أن يستخلصها كتاب الدراما من هذا المسلسل هى كيفية الابتعاد عن أخطائه الدرامية وركاكة بنائه فلو حاول أحدهم أن يقلده فلن يجد عقدة الخواجة لتحميه بل سيسلق ويشوى على نار النقاد وكتاب أعمدة الانطباعات .

وكتاب الدراما فى مصر ليسوا فى حاجة لمسلسلات الصابون ليتعلموا منها دروسهم. وإذا وضعنا فى الإعتبار فارق الإمكانيات المادية والتقنية وأدوار الابهار والثراء فى الكوادر الفنية فسنجد أن كثيراً من الأعمال الدرامية المصرية تتفوق - كتابة واخراجا - على هذه المسلسلات . ولن استشهد بأعمالى أنا حتى لا تكون شهادة مجروحة ! ويكفى أن أذكر السادة القراء ومعهم الأستاذ الناقد الذى يطالبنا بتلقى دروس الدراما فى مدرسة الجرىء والجميلة - بأعمال مصرية- مثل عيلة الدوغرى ، ولسه باحلم بيوم ،وليلة القبض على فاطمة للأستاذ محسن زايد، و الكتابة على لحم يحترق، وليلة سقوط غرناطة للأستاذ محفوظ عبدالرحمن ، وسفر الأحلام، و أحلام الفتى الطائر للأستاذ وحيد حامد ، وزينب والعرش للأستاذ صلاح حافظ ،و رأفت الهجان للأستاذ صالح مرسى ، وغيرها مما تضيق به الساحة !

لقد ذكرت أكثر من مرة فى أكثر من حديث صحفى أننى أحزن حين يقارن المتحمسون بسلامة نية بين ليالى الحلمية وفالكون كريست أو نوتس لاندنج لأنى اعتبر هذه المقارنة إجحافا بحق ليالى الحلمية ، وتصغيراً من حجمها، وأكرر الآن أن مطالبة الكاتب الدرامى المصرى بالتعلم من الجرىء والجميلة هو إهانه له فضلاً عن كونه نوعاً من اختلاط الفهم والعجز عن التقييم النقدى السليم ،وربما كان جهلا بأصول الدراما وقواعدها ! وكان الأحرى بصاحب هذه الدعوى أن يطالب الرقابة فى التلفزيون المصرى والتلفزيونات العربية بأن ترفع وصايتها واعتسافها عن قلم الكاتب المصرى، وعقول الجماهير العربية ، وسنرى حينئذ إبداعات درامية متفوقة لا يمكن أن تصبو إلى قامتها أعمال مثل مسلسل السيد "ريدج فورستر" ساحر النساء ومحطم قلوب العذارى وسنرى فى هذه الابداعات معايير وقضايا أخلاقية وإجتماعية أسمى بمراحل من تلك المنظومة الأخلاقية العجيبة التى تجعل الأخ يدفع أخته لعلاقة حرة والأبناء يدفعون أمهم والأم تصطاد احد "الجيجولوهات" لتنصب به فخا لابنتها ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وقد نشرت الصحيفة تعليق مديرة الرقابة على الأفلام الأجنبية على هذا المسلسل قائلة : مسلسل الجرىء والجميلة يحمل قيما ومبادئ إنسانية عامة ،ويناقش مشاكل ليست محلية بل تقترب كثيرا من مشاكل المجتمع الشرقى، ولهذا أجزناه رقابيا وأقبل الناس على مشاهدتــه .

وفيما يتعلق ببطء الايقاع فقد طرحت فكرةعمل مونتاج للحلقات ولكن بعض المسؤلين فى التلفزيون رفضوا كما أن الشركة المنتجة أكدت أن مخرج المسلسل تعمد هذا البطء أما المشاهد التى حذفت رقابيا فهى قليلة وأهمها مشهد اغتصاب كارولين ،وأخر لقبلة بين ريدج و بروك!!"

وإذا إنتقلنا إلى النقطة الثالثة المتعلقة بالصورة المشوهة للعرب وللمسلمين وللاسلام فى محطات التلفزيون الأمريكية والأوربية فإن الأمثلة أكثر من الحصر ففى تحقيق عرضته إحدى المحطات الأمريكية (عام ١٩٨٨) عن الاسلام فى بلاده ، كانت الحلقة الرابعة عن مصر (١). ويحلل أحمد بهجت مدى التشويه فى المادة التلفزيونية قائلا :

« الفرق بين الدراسة الموضوعية والدعاية الموجهة هو الفرق بين الحياد العلمى ، والانحياز لفكرة سابقة أو مخاوف داخلية تلقى بظلالها على موضوع الدراسة .

ويعبر التحقيق الذى أذاعه التليفزيون الأمريكى وقامت به جريدة كريستيان ساينس مونيتور عن وجهة نظر الغرب حين يدرس الاسلام فى موطنه .. إنه يدرسه من خلال أحاسيسه هو وتاريخه وأفكاره السابقة وعلاقته به ونفوذه عليه .. وبالتالى فإن الدراسه تتلون بالهوى الشخصى ، وتخرج عن كونها دراسة هدفها البحث عن الحقيقة . ولعل أبرز مثال على ذلك هو قول شيرمان:

- هناك مئات الآلاف من المصرين الذين إنجرفوا إلى الأصولية الاسلامية ، وهؤلاء ليسوا إرهابيين ولكن هدفهم هو هدف الارهابيين . إنهم يريدون تحويل مصر العلمانيه إلي دولة إسلامية متشددة . هنا فى جامعة الأزهر ، يدرس الطلبة فى فصول الذكور المنفصلة ، القانون الاسلامى ، بكل قواعده المتشدد كالتمييز بين الجنسين ، وتحريم الخمر ، وأوامر الزى الصارمة للرجال والنساء ، وموضوع عمل النساء ، وأيضا هذه القواعد الجديدة للعمل الاقتصادى والبنوك ، وكل حركة فى الحياة . والحق أن تأمل هذه العبارة يعكس موقف الغرب عموما من القضية ، وهو موقف يدرس تاريخ الاسلام من خلال حركة المسيحية فى أوربا ، ويقيسه بها برغم إختلاف ظروف التاريخ والحياة والطبيعة . وفى موضع آخر من البرنامج يقول ويليس :

- تنمو الأصولية الإسلامية فى مصر وتؤثر حركتها على الحياة اليومية بما فى ذلك حركة المال والاقتصاد .. وهذه الحركة فى الغرب لا تخضع للدين مطلقا ، ولكن الأصوليين الاسلاميين يرون أنه لا تمييز بين العقيدة والحياة والسياسة ، ولا انفصال بين الكنيسة والدولة (يقصد المسجد والدولة) ،عندهم أن القوانين التى وردت فى القرآن يجب أن تطبق ، حتى فى الحياة المعاصرة وبنوك الاستثمار .. ومن هنا جاء ما يسمونه بالبنوك الاسلامية .

---

(١) أحمد بهجت - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٦ - ١٩٨٨ ، ٥ - ٦ - ١٩٨٨ ، ٦ - ٦ - ١٨٨٨ .

ونلاحظ على قول ويليس دهشته ورفضه المبدئى لفكره تدخل العقيدة فى الحياة الاقتصادية أو المالية أو البنوك . كما نلاحظ عليه أنه ينظر إلى حركه تاريخ المسيحية فى أوروبا ، ويحاول فهم الاسلام من خلالها ، وعلى حين كان فصل الدين عن الدوله إنجازا هائلا فى أوروبا فإن نفس الفكرة فى الشرق تبدو بعيدة وغريبة عن الاسلام ، الذى يعتبر الحياة كلا لا يتجزأ بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . »

وفى الولايات المتحدة الأمريكية يقول الدكتور «إدوارد سعيد » : (١) «لعلنا لا نبالغ إلا قليلا فى قولنا إن المسلمين والعرب تتم تغطيتهم الاعلاميه أساسا ، ويدور النقاش حولهم ويتم إدراكهم بوصفهم موردى نفط إرهابيين محتملين ، أما تفاصيل الحياة العربية الاسلامية والكثافة الشعورية الانسانية وزخمها النابض ، فلم يدخل إلا النذر اليسير منها حتى فى وعى أولئك الذين إمتهنوا تغطية العالم الاسلامى والكتابة عنه . ونجد ، عوضا عن ذلك ،سلسلة محدودة من الكتابة الكاريكاتورية الفجة المختزلة حول العالم الاسلامى ، معروضة بطريقة من شأنها أن تجعل هذا العالم معرضا للعدوان العسكرى بالاضافة إلى أشياء أخرى تسمح بها هذه الطريقة . »

وإذا كانت معظم وسائل الاعلام فى الغرب تشترك فى تشويه صورة الانسان العربى ، وصورة الاسلام ، وصورة المسلمين ، إلا أن الصورة التليفزيونية لها تأثير مضاعف . إن الصورة تعد وتتحور وتتشكل فتصبح صورة كاذبة برغم ما فيها من لقطات واقعية . إن عملية التركيب والاختيار تجعل المغالطة أكثر إحكاما من الواقع ذاته .

ويضرب الدكتور إدوارد سعيد (٢) مثالا معبرا عن تشويه الاسلام والمسلمين فى الاعلام الأمريكى المعاصر قائلا : ومن أمثلة ذلك الكتاب الذى صدر فى الطبعة الشعبية عن كتب «مانورا» وهو كتاب « الحكومة الاسلامية » للامام الخومينى ، غير هذا العنوان فقد استبدل ليصبح: كفاحى لآية الله الخومينى . وأرفق بالنص تحليلاً أعده « جورج كربوازى » وهو من كبار مراسلى صحيفة « النيـويورك بوست » . وقد زعم لأسبـاب خاصـة به أن الخومينـى عربـى وأن الاسلام ظهر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ويبدأ تحليل « كربوزى » بشكل مرتب كما يلى «إن آيه الله روح الله الخومينى مثله مثل أدولف هتلر فى زمان آخر ، طاغية ، حاقد ، يغوى الناس ، وهو خطر على نظام العالم وسلمه . والفرق الأساسى بين مؤلف كتاب كفاحى وبين مؤلف كتاب الحكومة الاسلامية التافه ، هو أن أولهما كان ملحدا بينما يتظاهر الثانى بأنه من رجال الله »

---

(١) د. إدوارد سعيد – تغطية الإسلام ، كيف تتحكم وسائل الاعلام الغربى فى تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم – (ترجمه : سميرة نعيم خورى) – الطبعه الأولى – مؤسسه الأبحاث العربية – بيروت – ١٩٨٣ – ص ٥٧

(٢) د. إدوارد سعيد – تغطية الاسلام ،– مرجع سابق ص ٦٩ ثم ص ٧٢ .

هذه النماذج والأمثلة التى يقدم بها الاسلام فى وسائل الاعلام الأمريكية تحاول فرض أنماط وقيم ومعلومات خاطئة ومزيفة إلى جانب تكرارها وتجنب التفاصيل ، وغياب الرؤية الأصلية والصحيحة .

أما فرع الجهاز الثقافى الذى زود ويزود معظم الأمريكيين ، وينطبق ذلك على الأوربيين بصورة عامة، بما يتلقونه عن الاسلام فيشتمل فى معظم الأحيان على الشبكات الاذاعية والتلفزيونية، والصحف اليومية ، والمجلات الإخبارية الواسعة الانتشار . وتلعب الأفلام دورا ، دون شك ، حتى لو إقتصر ذلك الدور على ما نستمده من إحساس بصرى بالتاريخ ، والبلاد البعيدة، الذى يتم عن طريق السينما ، فى غالب الأحيان . ويمكن القول بأن هذا التركيز القوى لوسائل الاعلام مجتمعة ، يشكل نواة مشتركة من التفسيرات توفر صورة معينة للاسلام وتعكس ، دون شك ، الاهتمام والمصالح المسيطرة فى المجتمع الذى تخدمه هذه الوسائل ، ويرافق هذه الصورة ، وهى ليست مجرد صورة بل هى أيضا مجموعة من الأحاسيس توصلها الصورة وما حول الصورة ، ما يمكن أن ندعوه بالسياق العام . أى الخلفية أو الاطار لهذه الصورة وموقعها بالنسبة للواقع الفعلى ، وما تتضمنه من قيم ، وأخيرا وليس آخرا ، نوع الموقف الذى تولده فى نفوس المشاهدين .

فإذا دأبت الشبكات التلفزيونية الأمريكية على عرض الأزمة الايرانية عبر صور وحشود إيرانية تنشد الأناشيد وترافقها التعليقات حول العداء لأمريكا ، فإن من شأن البعد المكانى وانعدام الألفة مع مثل هذه المشاهد ، وما تتضمنه من تهديد أن تحدد الاسلام فى نطاق تلك الخصائص .وهذا بدوره يولد لدى المشاهد الأمريكى شعورا سلبيا وغير جذاب . وبما أن الاسلام هو ضدنا نحن الأمريكيين ، وهو يقبع هناك بعيدا . تصبح الحاجة إلى إتخاذ موقف مواجهة ضده ضروره لا شك فيها . وهذا ما يفسر قول « جين دانيل » فى صحيفه «النوفيل أوبزرڤاتور» بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ : إن الولايات المتحدة الأمريكية محاصرة بالاسلام ."

إلى جانب ذلك فإن الضعف المهنى فى المحطات العربية يسهل أهداف الغزو الثقافى الذى يقدم إلى المشاهدين العرب . أذكر أنه فى يوم الثالث من شهر نوفمبر عام ١٩٨٦ قرأت العمود الصحفى « يوميات » للكاتب المصرى أحمد بهاء الدين فى جريدة الأهرام يستنكر إغفال الاعلام المصرى لذكرى حرب السويس . ويقول : ماذا تذكرت الدولة ؟ ماذا فعل الاعلام التلفزيونى والاذاعى الذى يحيي ذكرى كل من هب ودب ، ولديه برنامج يومى إسمه حدث فى مثل هذا اليوم ؟

وفى مساء اليوم ذاته أذاع التلفزيون المصرى صورة لقرار تأميم شركة قناة السويس . وإستعرض بعض الجنود المصرين ،وذلك ضمن برنامج « الكاميرا الأجنبية » ....!! مع تغيير فى الرسالة المنطوقة . والواقع أن سبب هذا التناقض يعود إلى مستهلك الاعلام ومنتج الاعلام . إن هذا البرنامج يعتمد على الأفلام التى تأتيه من الخارج ، من المصدر الغربى . لذلك فإن أقصى ما يفعله

المخرج ومقدم البرنامج أن يقدما أو يؤخرا أو يحذفا ما يتعارض مع الرقابة . ولا أكثر من ذلك .وهذه صورة تلقائية ويومية للغزو الثقافى الذى يعتمد فيه مستهلك الاعلام على ما يقدم له ويقف عاجزا عن الانتاج فى ذكرى أعظم إنتصاراته الوطنيه فى عصره الحديث ...!!

السينما :

أخترعت السينما عام ١٨٩٥ ، وبدأ إنتاج الافلام الصهيونية عام ١٩١١ ، وينقسم تاريخ السينما الصهيونية إلى مرحلتين . الأولى : قبل إنشاء الدولة اليهودية (١) فى فلسطين ، والثانية بعد إنشاء الدولة ، فى المرحلة الأولى كان الهدف هو إنشاء الدولة ، وفى الثانية كان الهدف تثبيت وجودها . وأبرز ما استخدمته السينما الصهيونية فى المرحلة الأولى اضطهاد اليهود فى ظل النازية والفاشية فى أوروبا قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد اعتبرت أن هذا الاضطهاد يبرر إنشاء دولة يهودية فى فلسطين . وظلت تكرر هذا المعنى بعد إنشاء الدولة برغم أن اليهود لم يعانوا من أى اضطهاد فى العالم العربى كله ، بل وفى العالم الاسلامى . وبعد إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين أصبح موضوع الحروب العربية الاسرائيلية أكثر بروزا فى السينما الصهيونية . وتم تناول هذه الحروب باعتبار أن حرب ١٩٤٨ هى حرب الاستقلال وأن الحروب التالية حروب دفاعية تدافع فيها الدولة المسالمة الديمقراطية عن وجودها الضعيف تجاه الدول العربية القوية والكبيرة والغنية. ويرى سمير فريد (٢) إن ما ساعد على نجاح السينما الصهيونية فى غسل دماغ البشر ضعف السينما العربية ، وضعف الاعلام العربى بصفة عامة وهذا الضعف ليس مسئولية السينمائيين أو الاعلاميين العرب ، إذ لا يرجع إلى ضعفهم المهنى ، أو الثقافى ، أو قصور وعيهم السياسى ، أو الفكرى ، وإنما يرجع أولا وأخيرا إلى ضعف المؤسسات السينمائية والاعلامية، وتقصير الدول والحكومات العربية ، فقوة الاعلام الصهيونى تكمن على وجه التحديد فى قوة المؤسسات ، وعدم تقصير الدول والحكومات المعنية بنصرة الصهيونية . وليست على الاطلاق فيما يسمى العبقرية اليهودية . وباستمرار ضعف المؤسسات العربية وعشوائية الأسواق ، ومع انتشار الفيديو ثم البث التلفزيونى بالأقمار الصناعية أدى ذلك كله إلى انتشار الأفلام الصهيونية فى الوطن العربى . وفى شهر مارس ١٩٩٣ حضر الكاتب المسرحى المصرى سعد الدين وهبه ندوة عن الصوتيات والمرئيات بين الغرب والعرب . أو بمعنى أوضح وأقصر كيف ينظر الغرب للعرب من خلال السينما والتلفزيون والاذاعة ، وعاد من الندوة ليكتب عن الندوة التى حضرها ، ولكنه لا يكتب بقلم الصحفى أو الكاتب المسرحى ، وإنما يكتب بقلم الفنان الباحث صاحب الخبرة الطويلة . ويؤصل كتابته أو بحثه،

---

(١) - سمير فريد - السينما والإعلام الصهيونى - مجلة العربى - بتاريخ مارس ١٩٩٣ .

(٢) المرجع السابق .

ويرد القضية إلى جذورها الموثقة بالبحث والدراسة فيقول : (١) « تحدث فنانون فرنسيون كثيرون فى الندوة ، اعترف بعضهم بأن رأى الغرب فى العرب لا يناسب الحقيقة ، ولام بعضهم أو أكثرهم العرب على تقصيرهم فى تقديم أنفسهم للعالم بصورة صحيحة ، حتى أنه ليست هناك محاولات جادة لتصحيح المفاهيم فى الأعمال الفنية التى يشاهدونها تعرض ، وهى تسود صورتهم ، أو تقدمهم فى شكل غير حقيقى ، وقال « إدجار بيزانى » مدير معهد العالم العربى إن الهوية العربية لا يعكسها الاعلام العربى ، بل ، وبصراحة ، هناك خلل فى النظم الاعلامية . وأن العرب لا يحسنون إقامة العلاقات مع العالم الخارجى . وشكا « بيزانى » من الغزو الأمريكى للثقافة الفرنسية ، وقال إن جاذبية الارسال والاستقبال أصبحت ضرورة فى عالم يفقد هويته الثقافية ، وطالب العرب بتأكيد هذه الهوية ، مع ضرورة حل مشكلة الأصالة والمعاصرة ، وقال « كلود شيسون» وزير الخارجية الاشتراكى الأسبق: إن فرنسا لا تعامل العرب على مستوى واحد ، بل تعامل كل دولة على حدة ، وعلى قدر حرص الدولة على العلاقات مع فرنسا ، فعند الحديث عن علاقة العرب بفرنسا فعلا لا يمكن التعميم، فعلاقة فرنسا بالمغرب العربى غير علاقتها بمصر ، وهكذا ، ولكنه أيضا لام العرب على تقاعسهم الشديد فى تقديم أنفسهم للعالم الغربى تقديما مناقضا للصورة المزيفة التى تصورهم بها أجهزة إعلام مأجورة ، أو مسيسة ، والواقع أن المشاكل بين العرب والغرب ليست وليدة اليوم ، بل هى قديمة قدم الاستعمار القديم ، وحياته فى الدول العربية ، وحروبها المتصلة للخلاص منه ، واستقلالها جميعا ، بعد حروب طويلة أو مفاوضات مضنية، فإنجلترا، وفرنسا ، وإيطاليا وأسبانيا ، عاشت فى العالم العربى ، اقتسمت أرضه وهى تعرفه تماما، وتعرف كل ما فيه ، ولكن اليوم غير الأمس وشباب اليوم ، أو العاملون اليوم فى الأنشطة الفنية يحتاجون لشئ كبير من الصبر والصدق ، كى يعكسوا الصورة الحقيقة ، لا الصورة التـــى يريدون إظهارها، أو تريد لهم إظهارها قوى الصهيونية العالمية التي دون شك تملك قوة كبيرة فى الاعلام العالمى .

وشخصية العربى فى السينما ، والتلفزيون ، لا يمكن تجاهلها ببساطة على أساس أن الفيلم مجرد وسيلة للتسلية ، بل على العكس ، فالواقع إنهما يلعبان دورا فى تشكيل نظرة الغرب إلى العرب ، وخاصة بالنسبه النشء فالشباب الصغار بإنطباعاتهم الخاصة هم عشاق السينما الذين يتأثرون بها ، والأفلام بعد أن تترك دور العرض تنتقل إلى داخل المنازل من خلال التليفزيون والفيديو ليتسع تأثيرها على الأسرة الغربية بكامل أفرادها .. وقد إهتم بهذه الظاهرة « جاك شاهين» الأستاذ فى مادة الاعلام الجماهيرى فى جامعه « الينـــوى » الجنوبيـــة وهو أمريكـى من أصل لبنانى، نشر دراسة هامة حول دور التلفزيون الأمريكى فى تشويه الشخصية العربية ، يقول

(١) سعد الدين وهبة - العرب فى عيون الغرب - جريدة الآهرام بتاريخ ١٠ / ٤ / ١٩٩٣ .

فيها : أهم الادعاءات الأيديولوجية التى يمكن أن نجدها فى الأفلام التى تنتج من أجل العرض التليفزيونى أن العربى إرهابى ، وعلى الرغم من أن هذا النوع من «الأكليشيهات» أصبح مستهلكا، وعلى الرغم من أن تأثير أى فيلم منفرد أيا كانت أهميته يظل محدودا فإن التأثير الأكثر خطورة والبعيد المدى يكمن فى عملية تكرار القولبة والتنميط ، فمن شأن هذه الصورة التى توفر لها عنصر الثبات والتوكيد التى لم تجد من يغير من شأنها ، أن تشوه القيم والتصورات التى يأخذها المشاهد عن المواطن العربى . ينطبق هذا على هؤلاء الذين يعملون فى الأجهزة الحكومية حيث أن القوالب المنمطة السلبية لا تتواجد من فراغ ، رغم أنها لا تشكل ظاهرة عامة.

وقد عولج هذا الموضوع أيضا فى العديد من الدراسات العربية ، فقد قدم الناقد المصرى أحمد بهجت فى عام ١٩٨٨ كتاب « الشخصية العربية فى السينما العالمية » ، وفيه يصل إلى أن السينما العالمية بدلا من أن تساعد على خلق جو من التفاهم بين العرب والغرب . أكدت مع مرور الأيام أنها لا تستطيع أن تلتقى بالآمال العربية خاصة والانسانية عامة، بل زرعت الشك والخوف فى النفوس وأفسدت على الإنسانية بشكل عام أملا عزيزا فى أن يسود التعاون والتفاهم مختلف الأجناس . وكان عمادها التعصب ، والتشويه ، والتزييف ، والسخرية ، بشكل لايبرر الاستمرار فى إنتهاج رد الفعل السلبى المضطرب الذى انتهجه العرب تجاه هذه السينما .

كما واصل الناقد اللبنانى « وليد شميط » دراساته الهامة فى هذا المجال ، فكتب فى عام ١٩٨٦ دراسة بعنوان « العربى فى العيون الأمريكية » ، وفى عام ١٩٨٩ كتب دراسة بعنوان « حرب التشويه الحضارى » حدد فيها جذور هذه الظاهرة بقوله : « لقد حكمت العلاقة بين العرب والغرب خلفية شائكة ومعقدة ، قائمة على تاريخ طويل من الصراع المجبول بالخوف والعنف أحيانا ، والتنافس والتناحر أحيانا أخرى ،والاستعمار ومحاولات الهيمنة فى أحيان كثيرة . هذا التوتر فى العلاقة التى بدأت مع الحملات الصليبية . واستمرت مع الفتوحات الاسلامية التى وصلت إلى جنوب أوروبا وبلغت وسط فرنسا ، إزدادت حدة فى زمن الاستعمار . وخضوع الشعوب العربية خلال عقود طويلة لهيمنة المستعمر الأوروبى ، مع ما تبع ذلك من حركات إستقلال ، وحروب تحرير، وضعف هذه الشعوب فى مواجهة مباشرة مع الأوروبيين ، وهى مواجهة لا تزال قائمة ومستمرة ، وإن كانت فى أشكال مختلفة عن تلك التى سبقتها . فرضها الاستعمار نفسه الذى تحول إلى «إمبريالية » تمارس هيمنة ثقافية، وإقتصادية ، وحضارية ، لا تقل ضراوة عن هيمنة المستعمر القديم ، السياسية ، والعسكرية ، فالعلاقة بين العرب والغرب بين جنوب المتوسط وشماله غالبا ما كانت علاقة صراعات أدت إلى تكوين أفكار مسبقة عن العرب ، وإلى صنع أنماط جاهزة لهم حفل بها الأدب الأوربى وفنونه ، ووصلت إلى الأمثال الشعبية ، وترسخت فى الذهن العام .

ويبدو أن الأمريكيين أنفسهم ، وهم فى النهاية أبناء أوروبا الذين هاجروا إلى القارة الجديدة،

ورثوا كل هذه الرواسب، وعندما بدأت الصهيونية تخوض ضد العرب حرب التضليل الاعلامى وجدت الأرض خصبة جدا ، فالانسان عدو ما يجهل ، والأمريكيون يجهلون العرب تماما.

والمحصلة التى وصل إليها الجميع هى أن شاشة العرض السينمائي ، والتليفزيونى ، أصبحت تمثل المكان الرئيسى الذى يلتقى عليه العرب ، الذين صنعتهم الأفلام ، ولذا فإن النمط العربى كما تقدمه هذه الأفلام يستحق منا نظرة تحدد ملامحه التاريخية بإيجاز .

لقد ارتبط ميلاد السينما الأمريكية والأوربية منذ قرن من الزمان بهذه الصورة النمطية للعربى ، ففى عام١٨٩٣ عندما أسس « توماس أديسون » أول استديو سينمائي فى الولايات المتحدة بولاية « نيوجرسى » كان أحد أوائل أفلامه عن العرب بعنوان « رقصة المحجبات السبعة» The Dance of the seven Veils وكانت وسيلة العرض هى آلة « الكنتوسكوب » . وفى السينما الفرنسية ظهر النمط العربى فى أفلام «جورج ميليه» فى عدة أفلام بدأ ظهورها عام ١٨٩٧ «المهرج المسلم » Le Musulman Rigola «وبياع جوارى الحريم» Vent Desclaves Au Harim .

وأثناء العصر الذهبى للسينما الألمانية قدم « إرنست لوبيتش » عام ١٩١٨ فيلما ضخما لحساب شركة UEA بعنوان Sumunun وفيه يجسد الصراع بين الشيخ العربى الشرير وابنه من أجل الحصول على الراقصة المثيرة « بولانجرى » بينما كانت زوجه الشيخ « زليخة » تخونه مع تاجر أوربى شاب ، وقد عرض الفيلم فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢١ تحت عنوان : One Arabian Night ليلة عربية .

وتعاملت السينما التعبيرية الألمانية مع « النمط العربى الشرير » فى عدة أفلام منها «الأضواء الثلاثة » ()les trois Lumiers لفرينز لانج عام ١٩٢١ و« حجرة الوجوه الشمعية » عام ١٩٢٤ إخراج أحد رواد هذه السينما ، وهو « بول فينى » وفيه يجمع بين ثلاث شخصيات تاريخية : العربى « هارون الرشيد» ، والروسى « إيفان الرهيب » ، والانجليزى « جاك السفاح » (باقر البطون) الذين مارسوا على الأرض سلوكا إرهابيا ليسوموا الناس أنواعا من التعذيب الوحشى .

وفى العشرينات وصلت حصيلة الأفلام التى تدور حول موضوعات عربية بصورة أو بأخرى فى السينما فقط ٨٧ فيلماً كان بعضها ينتمى إلى نوعية الأفلام الكوميدية حيث يظهر العربى كشخصية تهريجية تثير الضحك والسخرية ، وأحيانا يبدو بروح طيبة وفى أحيان أخرى شريراً كريها، وكان البعض الآخر ينتمى إلى نوعية أخرى أكثر شعبية وهى أفلام الميلودراما المعتمدة على المغامرات الغربية الطابع التى تدور أحداثها فى الصحراء وتركز حبكتها على علاقة مشبوهة بين الشيخ العربى الشاب الذى تتوحد شخصيته مع القفار والأودية ، فتصبح حياته موحشة جافة لا يأنسها إلا الحلم بإمرأة بيضاء ، ربما يعثر عليها بين الشابات الأوربيات ، أو أعضاء بعثات

التبشير. وقد حققت هذه النوعية من الأفلام شهرة عظيمة ، لنجوم من أمثال «إدجار سلوين » و«رودلف فلانتينو » و « رومان نوفارو» . وكانت أفلامهم « العرب (١٩١٥ the Arabs والشيخ TheSheik وابن الشيخ Son Of shaik (١٩٢٦) والهمجى (The Barbarian) (١٩٣٣) وخطيبة الشيخ La Fiancee de Cheik نموذجا لهذه النوعية التي استؤنف التعامل معها خلال الثمانينيات فى أفلام مثل الفردوس Peradise ١٩٨٢ صحارى Sahara (١٩٨٤) جوهرة النيل The Jewel of The Nile ١٩٨٥ حريم Harem (١٩٨٥) بروتوكول Protocol (١٩٨٥) بوليرBoler (١٩٨٥) وفي أفلام شبيهة مثل أشانتي Ashanti (١٩٧٩) . وعشتارishatar (١٩٨٧). ورغم الفارق الزمني في تتابع هذه النوعية فان حبكتها والأهداف منها لم تتغير أو تتبدل علي الأقل بحكم تطور الزمن حيث تؤكد هذه الأفلام أن مجتمع الصحراء لايسمح للعربي بالتطور والنمو كفرد عادي فرغم أنه قد يصل إلي أعلي درجات السلم الاجتماعي إلا أنه في النهاية يعتبر نمطا لكل الملامح السلبيةالتي تفرزها حياة الصحراء.

لقد تعددت الموضوعات التي تعاملت معها السينما الأمريكية والأوروبية حول الشخصية العربية ،ومع ذلك تكرر موضوع الفيلم الواحد في أكثر من مرة والهدف التجاري لم يكن هو وحده السبب وراء هذا التكرر إنماالدوافع الأيدولوجية والسياسية ومحاولة استغلال نجاح بعض الأفلام ، لترسيخ الملامح الشائعة عن العرب، ومن النماذج السينمائية التي تكرر إنتاجها نذكر الآتي :
قسمت Kismet عن أجواء الجواري والحريم ١٩٢٠ ألمانيا ١٩٣١،١٩٤٤،١٩٥٥ U,S ,A لص بغداد" Theif of Bagdad أجواء ألف ليلة وليلة ، وبطش الحكام العرب ١٩٢٤ ١٩٤٠ ، ١٩٦١، ١٩٨٧ ، ١٩٨٤ . هي أو عائشه She أجواء السحر في العالم العربي ، ٧ مرات في السينما الصامتة أهمها ١٩٢٦ ، وفي السينيما الناطقة أعوام ١٩٣٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٨١ . الريشات الأربع)The four feathers (البطولات الإستعمارية في مواجهة العربي البدائي) ١٩٢١ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٨٧ .

أما الإرهاب الذي قدمته السينما خلال الثمانينات فقد أصبح طاعوناًتنقل عدواه الأقلية العربية في الولايات المتحدة إلي الجسد الأمريكي كله، من خلال أحداث ليس لها أي أساس من الواقع . لقد أبرزت أفلام الثمانينات زعامات إرهابية عربية طرحت جانباً كل ما هو إنسانى ، وتمكنت من إشعال شرارة التخريب والعنف داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد أسقط أيضاً الهدف الذي يحاربون أو يخربون من أجله ، فاللبناني الشيعي «أبولادين» المقيم في ولاية"ديترويت" في فيلم تحت الحصار (Under Siege) إنتاج تليفزيوني (١٩٦٦) يقود العمليات الإرهابية ضد المواطنين الأبرياء ، فى المعسكرات والشوارع والمطاعم والمطارات والطائرات ، وتصل به الجرأة فى النهاية إلى التحريض على تفجير البيت الأبيض ، وفى فيلم مطلوب حيا أو ميتا (١٩٦٧) نرى

اليمنى الشيوعى " مالك الرجيم " ينشر إرهابه فى لوس أنجلوس حيث يقتل ١٣٧ أمريكيا بعد أن فَجَّر داراً للعرض السينمائى ، وبمساعدة الطلبة العرب فى جامعة لوس انجلوس ينجح فى تحضير مواد ناسفة لتفجير صهاريج غاز الميثيل فى أحد مصانع الكيماويات الكبرى ، بهدف قتل ٣٠ ألف شخص بعد أن يتحول الميثيل إلى ايروسول مشتعل ، وتقوم الريح بالجزء الباقى من خطته ، ويظهر الليبي محمد فى فيلم عصر الإرهاب (١٩٧٩) وهو يقود مجموعة من الشباب الليبى ، من أجل تفجير القاعدة النووية فى ولاية انديانا . وعندما تفشل خطته ينطلق فى شوارع المدينة ، ليجعلها بواسطة الصواريخ ، ومدفع آربى جى ، والرشاشات مقبرة جماعية ، لكل المارة من الرضع والأطفال والشباب والنساء والكهول ، ثم يلجأ إلى حرم جامعة «انديانا» ليحتجز مجموعة من الطلبة والطالبات ، ولتبدأ أحداث مذبحة جديدة . وحاولت أفلام تلفزيونية أخري التنقل بأحداثها الدموية بين الولايات المتحدة الأمريكية ، لتجعلها جميعا فى متناول الإرهاب العربى ، مثل الطائرة الرهيبة (١٩٨٥) وسيف جديعون (١٩٨٦) ومحاكمة إرهابى (١٩٨٨) .

ولا جدال أن هناك ارهابيين عرباً ، ومن المؤكد أن الإرهاب «تيمة » تقليدية للأفلام ، ولكن مع ذلك يمكن أن نتبين على حد تعبير جاك شاهين إنه على الرغم من كل هذا الوقت الذى يخصصه التلفزيون لعشرات الأفلام عن الأرهاب العربى ، فانه لم يتم أبدا عرض أو تناول تيمة الإرهاب بصورة جدية أو عميقة .. فلم يحاول أى فيلم تلفزيونى أن يقترب من طبيعة التعقد الذى ارتبط بتواجد بعض الإتجاهات الإرهابية العربية ، والاكثر من هذا أن الأفكار والصور التى بينها التلفزيون أحادية الرؤية ، ولا تتغير، فالمشاهد يرى العرب على أنهم إرهابيون ، مرتكبون لأعمال العنف فقط ولا يراهم أبدا كضحايا ، وخاصة إذا كانوا من ضحايا حالة الإرهاب الموجودة فى الضفة الغربية ، فلم نر على الشاشة أية مشاهد لأى عربى ، كسرت ذراعه ، أو فجر منزله أو أطلق علية الرصاص ومات فى إحدى المظاهرات كذلك لم نر أية مشاهد للعرب ، بعيدا عن الصور السياسية ، فعلى سبيل المثال ، لا يرى المشاهد أى أم عربية تغنى لطفلها الرضيع . ولم ير طبيبا عربيا يرعى مريضا أو مدرسا عربيا يعطى دروسا فى الجبر أو مبرمجا عربيا يعمل على جهاز كمبيوتر ، ولم ير المشاهد رجلا عربيا يحتضن زوجته ، ولم ير أسرة عربية تتجمع لتذهب إلى الكنيسة أو المسجد .

والغريب أنه فى خلال الثمانينات تم التعامل مع الحضارة الفرعونية من خلال أفلام معاصرة تبغى تشويه الإنسان المصرى فى ماضيه وحاضره ، منها الصحوة (١٩٨١) أبو الهول (١٩٨١) تابوت العهد المفقود «١٩٨٦» . ويرى "لورنس ميشالك" أن أفلام المومياء فى السينما الأمريكية ، توحى للمتفرج برائحة القدم والتنانة والطين والتحلل والموت ، بينما يمثل عالم الأثار الأوربى الغربى الذى يسيطر بطبيعة الحال على هذه المومياء الحس الديمقراطى ، والشباب ،

والقوة ، والحياة ، والعلم. ولا نريد مجاملة أو محاباة ، ولكن تقديم الصورة بصدق ، مجرد الصدق، مهما كانت العناصر السلبية ، فمن المؤكد أن العرب يملكون في ماضيهم وحاضرهم الكثير من الإيجابية .

ويتولى المهاجرون العرب في الولايات المتحدة الرد على الإعلام الذي يشوه صورة العرب ، وبخاصة في الأفلام .ويكتبون إلى الصحف في الوطن لعلها تنبه المواطنين العرب في ديارهم إلى هذه السموم . وفي ربيع عام ١٩٩٣ ينشر الصحفي المصري صلاح منتصر (١) رسالة واضح فيها الانزعاج." يقول كاتبها محمود عبدالهادي بالفاكس من مكان إقامته في "سان فرانسيسكو" : أشارت بعض الصحف المصرية إلى أن إحدى الشركات السينمائية المصرية قد اتفقت مع شركة «والت ديزني » الأمريكية على عرض برنامج الحسناء والوحش في مصر في الصيف القادم .وقد أصاب هذا الخبر أفراد الجاليات المصرية والعربية في معظم أنحاء الولايات المتحدة بالذهول بسبب ما تحاوله هذه الجاليات طوال الشهرين الماضيين مع شركة والت ديزني لمنع عرض فيلم انتجته يحمل اسم علاء الدين الذي يسيء إلى المسلمين والعرب بشكل لا مبرر له . فالفيلم يبدأ بأغنية تقول على لسان علاء الدين : إني آتيكم من بلاد بعيدة ، بلاد تركب الجمال التي تمرح في الشوارع ، آتيكم من بلاد يقطعون فيها أذنك لمجرد أنهم لا يحبون وجهك ، أنها بلاد بربرية ، بلاد يقطعون فيها ذراعك إذا سرقت تفاحة تعطيها لطفل جائع ، إنها بلاد بربرية ، إنها وطني !!.

وهذا الوطن الذي يشير إليه علاء الدين هو العالم العربي بأجمعه ، وبعد ذلك يصور فيلم علاء الدين - وهو فيلم كارتون مثل فيلم الحسناء والوحش - العرب على أنهم جنس متوحش ، أنوفهم طويلة مدببة ، شواربهم ضخمة وقذرة تصرفاتهم غير إنسانية بل هي الوحشية ! في أحد مشاهد الفيلم هربت الأميرة ابنة السلطان من قصر أبيها الذي حاول أن يفرض عليها الزواج بمن لا تحب . وتجد الأميرة نفسها في أحد أسواق المدينة حيث يبيعون الأطعمة من مختلف الأنواع ، والفاكهة من كل صنف . وتمد الأميرة يدها وتأخذ بحسن نية تفاحة تعطيها لطفل رأته على الرصيف جائعا ، ولكن صاحب المحل يكتشف جريمة الأميرة فيقرر (هكذا قطع ذراعها لأنها سارقة، وعقوبة السرقة في شرع المسلمين هي بتر الذراع حتى لو كانت لإطعام طفل جائع !).

وتتوالى أحداث الفيلم على هذا الشكل البالغ القسوة في الإساءة إلى العرب والمسلمين على غير أساس . وقد حاولت الجاليات العربية التدخل لدى الشركة المنتجة لحذف بعض مشاهد الفيلم أو حتى أغنية المقدمة ، ولكن بدون فائدة ، وإذ بخبر التعاقد مع الشركة لعرض فيلمها الأخير (الحسناء و الوحش). يأتي كضربة فوق رءوس ألوف العرب . فالتشويه هنا متعمد

(١) صلاح منتصر - من بلاد بربرية - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٣ - ١٩٩٣ .

ويتجه إلى ملايين الأطفال الذين يخاطبهم الفيلم، ويغرز فيهم هذه الصور التى لا علاقة لها بحقيقة العرب . إننا نرجو من مصر ومن العرب أن يقفوا معنا فى مواجهة هذه الهجمة علي كل العرب . هذه رسالة محمود عبدالهادى من سان فرانسيسكو ، وهي هجمة فعلا فلا أقل من أن ندافع فيها عن حقيقتنا . »

تلك شهادة التاريخ وشهادة شهود العصر . مشاهدين ونقاد ومفكرين تبين دور السينما فى غزو العرب ثقافيا ، وفى تشويه صورتهم عالميا.

وفى المقابل كان الفيلم العربى متأثرا بالتطور الإجتماعى والاقتصادى والثقافى ، وقد أنتج العرب والمصريون على وجه الخصوص أفلاما مُشَرِّفة . وعلى المستوى العالمى كان فيلم « الرسالة » الذى أنتجه مصطفى العقاد فيلما ممتازاً . ولكن الكثرة من الأفلام المصرية كانت موضوعات مكررة ومعادة وتسعى إلى التسلية وضياع الوقت ، فاذا أضفنا إلى ذلك احتلال الفيلم الأجنبى لدور السينما فى الوطن العربى كانت المحصلة هى مضاعفة تأثير الغزو الثقافى بالسينما . وإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الڤيديو ، وعرض محطات التليفزيون العربية للأفلام الأجنبية تضاعف التأثير .

الإعلان :

قصة الإعلان مع وسائل الإعلام بدأت مع الصحف . وكانت الإعلانات فى الصحف قليلة متواضعة التأثير . ونحن نبتسم الآن عندما نقرأ إعلان القهوة المشهور الذى نشر عام ١٦٥٧ م فى لندن بصحيفة The Public Adviser وهذا نصه : فى شارع « بارتلمو » خلف مبنى البورصة يباع شراب القهوة فى الصباح وبعد الظهر ، وهو شراب صحى له مزايا عديدة ، فهو يدفىء المعدة ويساعد على الهضم ويشرح النفس ويشيع فيها السرور، ويفيد فى علاج التهابات العين والسعال والروماتزم والسل والصداع والخمول وأمراض أخرى كثيرة » .

ولكن الانتاج الصناعى الكبير الذى برز فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين جعل للإعلان فى الصحف شأنا كبيرا . حتى أن موارد الصحف من الاعلانات أصبحت فى بعض الأحيان تفوق مواردها من التوزيع . وبدأت سيطرة الاعلانات على الصحف .

وفى القرن العشرين عند اختراع الراديو فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث كان الاعلان فى الراديو شديد التواضع، ولكن سرعان ما أصبح موردا رئيسيا . وأصبحت محطات إذاعية كثيرة تعتمد على الاعلانات باعتبارها المورد الرئيسى لها . وهكذا كان الشأن مع التلفزيون فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، لكن النصف الثانى من القرن العشرين شهد دورا خطيرا للإعلان باعتباره وسيلة للغزو الثقافى . لقد أصبحت الاحتكارات الرأسمالية والشركات العملاقة

المتعددة الجنسية أكبر وأخطر معلن فى وسائل الإعلام . وأصبح توسيع نطاق الاستهلاك معركة رئيسية لها على النطاق العالمى .

« وفى عديد من النظريات الاقتصادية يُعرّفُ الاستهلاك بمصطلح الإحتياجات الاقتصادية للإنسان ، والوسائل التى يمكن بها إشباع هذه الاحتياجات .

ولكن الانتاج الرأسمالى يقلب هذا المفهوم الإنسانى للاحتياجات ، فلا يمكن تعريفها بمفهوم الطبيعة الانسانية ، ولكن يمكن تحليل هذه الإحتياجات بعلاقتها بفاعلية هيكل الانتاج .

إن عملية الانتاج أى دولاب الإنتاج يقوم بانتاج السلع التى يتم استهلاكها كما يقوم بتقديم النمط الاستهلاكى لهذه السلع . وعلى هذا الأساس فإن الانتاج الرأسمالى يولد استهلاكا على النحو التالى :

١ - توفير مادة الاستهلاك .

٢ - تحديد شكل المنتجات .

٣ - خلق الرغبة لدى المستهلك للاقبال على المنتجات .

والاستهلاك يفتح شهية المستهلك باقناعه أن هذا الشيء مفيد له (١) »

ولم يقتصر دور الشركات العملاقة المتعددة الجنسية ، ودور الاحتكارات العالمية على توسيع قاعدة الاستهلاك عالميا مهما كان الثمن ، بل امتد نشاطها الإعلانى إلى السياسة .

يذكر الدكتور إدوارد سعيد (٢) وصـفا لإعلان تجارى عرضتـه شركة (إديسـون المتحـدة - نيويورك) في صيف ١٩٨٠ في التلفزيون يعبر تعبيرا بليغا عن كيفية استخدام الإعلان التجاري لأغراض سياسية ، فقد كان الإعلان عبارة عن عرض لقطات حيَّة لعدد من الأشخاص المرموقين الذين يمكن التعرف عليهم على الفور من أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) - تتداخل بينها صور ولقطات حية أيضا لشخصيات أخرى ترتبط في ذهن المشاهد بالنفط والاسلام : الخوميني ، وحافظ الأسد، وياسر عرفات . ولم يذكر الاعلان اسم أى شخصية من الذين عرضت صورهم ، غير أن الأعلان يُخبِّر منذرا بالشؤم أن هؤلاء الرجال يسيطرون على مصادر النفط بالنسبة لأمريكا . ولا يورد الصوت الرزين الجاد المرافق للصور ، أى إشارة إلى ماهية« هؤلاء الرجال » أو مراكزهم أو

---

(1) Gohn G. Taylor - From Modernization To Modes Of Production - Unwin Brothers London . ٧٤ . 1979 . P

(٢) د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام ، وكيف تتحكم وسائل الإعلام الغربى فى تشكيل إدراك الأخرين وفهمهم- ترجمة سميرة نعيم خوري - الطبعة الأولى - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٨٣ - ص ٣٥ .

الجهة التى أتوا منها ، مما يترك فى نفوس المشاهدين الأمريكيين انطباعاً بأن هذه الزمرة من الرجال الأشرار قد وضعت الأمريكيين جميعا فى قبضة ساديين (محبى التعذيب) لاضابط لهم . ويكفى أن يظهر هؤلاء الرجال بالصورة التى ظهروا عليها فى الصحف و التلفزيون حتى يتولد فى نفوس المشاهدين الأمريكيين مزيج من مشاعر الغضب والخوف والنفور . ولقد أثارت شركة أديسون المتحدة هذا المزيج من العواطف بسرعة فائقة واستغلته لأسباب تجارية وداخلية وأسباب دعائية . وكان من بين الأهداف تعبئة الرأى العام الأمريكى ضد الأويك .

وفى عام ١٩٩٣ قدم كبير الحاخامات اليهود فى مدينة نيويورك الذى تجاوز عمره تسعين عاما خدمة إعلانية لشركة يهودية للتنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة كانت على وشك الافلاس، فانقلب حالها بسبب الإعلان الذى يمنح فيه الحاخام بركته للشركة وصاحبها . كانت الشركة قد حصلت من الحكومة الأسترالية علي حق التنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة فى إحدى المناطق الاسترالية . وخلال عدة أعوام فشلت الشركة فى العثور على أية ثروة تدفع عنها الإفلاس . إلى أن خرج صاحب الشركة بشريط «ڤيديو» يبدو فيه الحاخام الكبير محاطا بمجموعة من الملتحين اليهود بملابسهم السوداء ، وهو يشير بأصبعه إلى المنطقة الأسترالية محل التنقيب ، ومع الصورة يخرج صوت صاحب الشركة قائلا : الحاخام باركنى قال إننى خلال ستة أشهر سوف أصيب نجاحاً كبيرا أي أن هناك ثروة فى انتظارى . وتضاعف سعر السهم لهذه الشركة فى البورصة أربع مرات .

ويعلق الكاتب العربى أنور الياسين علي ذلك قائلا : بالطبع يمكن الاستنتاج بسهولة أن الحاخام عندما يتحول إلى سمسار فإن القضية برمتها تدخل فى باب النصب والإحتيال ، وتعيدنا إلى أيام صكوك الغفران فى روما الكاثوليكية . ولكن ما يدعو إلى الدهشة أنه فى عصر الاتصالات والتكنولوجيا ومراكز المعلومات فإن بركة رجل دين يهودى تكاد تلغى العقل فى أسواق المال التى لا تقوم إلا على الأرقام والحسابات والرياضيات (١) .

وحقيقة الأمر أن ما أثار دهشة الكاتب العربى ، هو الواقع المعاصر للسيطرة اليهودية على الإعلان وعلي البورصات والأسواق فى الوقت نفسه .

وقد انزلقت وسائل الإعلام فى الوطن العربى إنزلاقا واضحا فى سلبيات الإعلان . وانعكست الأشكال الغربية للإعلان على الإعلان فى العالم العربى بدرجات مختلفة .

يرصد الكاتب الصحفى المصرى أحمد بهجت (٢) ظاهرة الاعلانات فى التلفزيون قائلا : تشترك معظم الإعلانات فى التلفزيون فى شيء واحد .. هو الرقص .. أو الاهتزاز الدلوع الذى يدخل في باب الرقص .

---

(١) أنور الياسين – الحاخام والتيس – مجلة العربى – بتاريخ يوليو ١٩٩٣ .

(٢) أحمد بهجت – هتلر والشاى – جريدة الأهرام – بتاريخ ١٠ – ١٠ – ١٩٩٢ م .

إذا كان الاعلان عن صابون جديد لغسيل الثياب ، وجدت السيدة المعلنة تتلوى دلالا وسحرا «وتتقصع» إغراء ولطفا وهى تتحدث عن الثياب المغسولة البيضاء .و إذا كان الاعلان عن مياه غازية وجدت شبابا من الجنسين وهو يرقص ويتنطط حتى إذا انتهى من الرقص وسال العرق على الوجوه كانت المكافأة زجاجة من المياه الغازية .

يمكن القول إذن أن الرقص هو أساس الإعلان ، والتثنى والدلع هما بداية الإعلان ومنتهاه ولحمتة وسداه ، ومن هنا يمكن الزعم بأن الدنيا تبدو راقصة من خلال إعلانات التلفزيون وإن كانت رقصا بغير بهجة فلا السلع فى مقدورنا ولا وجوه النساء فى الحياة اليومية ملونة مثل الوجوه التليفزيونية الراقصة ...

أخيرا خرج علينا أحد إعلانات التلفزيون بتقليعة جديدة يبدأ الأعلان بالهر «أدولف هتلر» وهو يخطب ويزداد الهر حماسا في خطابه ، بعد ذلك نفاجأ بأن «هتلر» يمسك في يده «باكو» من الشاى الانجليزى الذى يقوم بالاعلان عنه .. وسخافة هذا الاعلان لا تقل عن سخافة الإعلانات الراقصة. ولكنها تزيد علي الإعلانات الراقصة أن هتلر أصبح يستخدم فى الدعاية للشاى الانجليزى . وهذا أمر فيه من فساد الذوق ما فيه ،كما أنه يغضب هتلر - لو عرف به - أشد الغضب ، وإغضاب هتلر أمر غير مأمون العواقب رغم أنه مات . هل نفهم من هذا أن الشخصيات التاريخية سوف تصبح نجوما للاعلانات في التلفزيون .فيدعو هتلر للشاي الانجليزي ويدعو ستالين للجبنة الفلمنكي ويدعو فرعون مصر لشوربة الدجاج. مثلا هناك إعلان فى التلفزيون فيه رسم كاركاتيرى لفرعون وهو يقوم بالرقص ، بينما هو يعلن عن سلعة ..

هل هذه هى أصول الإعلان ؟ هل يجوز الهزل مع التاريخ واستخدام الشخصيات التاريخية للإعلان عن السلع ؟ هل هناك من يفعل ذلك فى العالم! .أم أننا وحدنا أصحاب السبق فى فساد الذوق والجليطة ؟»

وفي الصحف تبدو سلبيات الإعلان ، أكثر خطورة وتأثيرا .ففى الجهة المقابلة إعلان نشرته جريدة الأهرام فى ٢٤ - ٩ - ١٩٩٢ ، ونشر فى غيرها من الصحف . وهو إعلان يتناقض مع الدين ، ومع العلم ، ومع التفكير المادى فى آن واحد . ويدخل في باب النصب والاحتيال وتخريب العقول .

وفى معظم دول العالم تنص المواثيق الاعلامية والقوانين المنظمة لنشر الإعلانات على قواعد دقيقة لهذا العمل ، وقد طلب مكتب مراقبة الإعلانات الفرنسى (عام ١٩٩٢) ، وهو هيئة فرنسية تشرف على كافة مجالات الاعلانات والحملات الإعلانية ، حظر عرض إعلانين من

الإعلانات الستة التى أعدتها مؤسسة « بنتون » الإيطالية المتخصصة فى النسيج والملبوسات . وقالت فى أسباب الرفض أن أحد الإعلانين يقدم اثنين من مرضى الأيدز وهما يحتضران أمام ذويهم. وأن الاعلان الثاني المرفوض يصور جنديا يلوح وفى يده جزء من اللحم ومدفع رشاش (١) .

ومع عالمية الأسواق فى العقد الأخير من القرن العشرين ، ومع سطوة الشركات المتعددة الجنسية وسطوة الاحتكارات أصبح الإعلان قوة بالغة فى تشويه الذوق فى بلدان العالم العربى والإسلامي، وتشويه العقول ، وإثارة غرائز الانسان العربى ونهمه إلى نمط الحياة الغربية وطرق استهلاكها .

وكالات الأنباء :

لم يعد أمر سيطرة وكالات الأنباء العملاقة على الإعلام عالميا من أمور البحث العلمي فحسب ، وإنما أصبح حديث المثقف العام في بلدان العالم الثالث . لقد سيطرت وكالات : «رويتر الانجليزية » ووكالة الأنباء الفرنسية ، وكالة

---

(١) جريدة عمان بتاريخ ٤ - ٢ - ١٩٩٢ .

تاس الروسية ، و«الأسوشيتدبرس» الأمريكية ثم «اليونيتد برس» إلى حد ما علي سوق الأخبار في العالم بأسره.

و برغم إنشاء وكالات أنباء و طنية في معظم دول العالم إلا أن السيطرة باقية وتزداد يوما بعد يوم لوكالات الأنباء العملاقة التي أشرنا إليها . لقد شهد الربع الأخير من القرن العشرين إنشاء وكالات أنباء وطنية في الدول الحديثة الاستقلال ، و قد اعتبرت هذه الدُوَل إنشاء وكالة أنباء وطنية من أهم مظاهر استقلالها مثل الْعَلَم و النشيد الوطني ، لذلك وجدنا سعي دول العالم الثالث إلي إنشاء وكالات أنباء وطنية يأتي في قائمة المهام الأولي التي تحرص عليها هذه الدول ، و لقد ساعد ذلك الاهتمام اعتماد الحكومات علي الإعلام كسند للحكم يباشر مهامه اليومية . و لكن هذه الوكالات المحلية و إن تفاوتت قدراتها تظل محدودة التأثير .

إن معرفة دولة نامية أخبار جارتها تتم عن طريق وكالات الأنباء الدولية . والمشكلة تتعلق بالوقاية من تحريف الأخبار مثل تسمية المجاهدين بالمخربين و ما شابه ذلك . و تتعلق بأن القارئ في البلدان النامية أو المستمع أو المشاهدلايجد أخباراً تتعلق بواقعه و إنما يجد سيلا من الأخبار التي تتعلق بالدول الغنية المتقدمة و المؤسسات الدولية الكبري .

والخبر باعتباره السلعة الرئيسية في الساحة الإعلامية يحتاج إلي جهود الأمم المتحدة في إنشاء وكالة للأنباء تابعة "لليونسكو "لتنشر الخبر محايدا إلي أقصي حد مستطاع . ولكن يحول دون تنفيذ ذلك النظام الدولي الحالي للاعلام والذي يجعل السيطرة للإعلام المتقدم الغني . ومن أجل ذلك ترتفع أصوات بضرورة إيجاد نظام عالمي جديد للإعلام .

و هذا الواقع الاعلامي الذي يعاني منه العالم الثالث في مجال وكالات الأنباء هو واقع العالم العربي والعالم الاسلامي . و قد يظن البعض أن بروز مشكلة عدم التوازن في النظام الإعلامي المعاصر مشكلة جديدة في حقل و كالات الأنباء . الواقع أن أجدادنا من الصحفيين العرب قد تنبهوا إلى هذا الخلل في عمل وكالات الأنباء منذ أكثر من قرن من الزمان . نقرأ علي صفحات المقطم (١) (عام ١٨٩٧) : يظهر أن هافاس (وكالة الأنباءالفرنسية حاليا) يستخف بجميع الذين يقرأون أخباره في مصر "

و نقرأ في المقطم (٢) (عام ١٩٠١) : "مللنا القول ونحن نقول لوكلاء "رويتر " و "هافاس "

(١) جريدة المقطم بتاريخ ٦ - ١٠ - ١٨٩٧ .ص ٣

(٢) جريدة المقطم بتاريخ ٢٣- ١٠-١٩٠١ص١

في هذا القطر أن أخبار الشرق هي التي لها المنزلة الأولي عند سكان بر مصر ، ثم تليها أخبار السياسة الأوربية العمومية ، و آخرها في الأهمية أخبار الأقطار القصوي . مثل تفصيل ما يجري في العالم الجديد و الصين والهند من الحوادث التي لاعلاقة لها بنا و لا تؤثر في العالم أقل تأثير » و نقرأ في صحيفة المؤيد (١) " لاتزال شركتا "رويتر "و " هافاس "«كما كانتا منذ بضع سنوات لا تأتيتا إلا بالنذر اليسير و التافة القليل من أخبار العالم وحوادث الكون . ولايزالان علي جمودهما معأفي الأخبار الخاصة بالشرق ، ومايهم مصر والمصريين، بالرغم من الترقي الذي حدث في الصحافة المصرية ، ومضاعفة صفحاتها ، والحاجة إلي زيادة المواضيع و المواد ، وبالرغم من زيادة عدد القراء". و تمضي صحيفة المؤيد قائلة :" فإذا أتانا "رويتر "بتفصيل مشبع عن خبر من الأخبار فإنما يكون عن خطبة من الخطب لأحد رجال السياسة في إنجلترا ، عن "الهارلم رول " أوعن الرسوم والضرائب في انجلترا ،أو عن طيار قطع بضع مئات من الأميال علي متن طيارته ".منذ أكثر من قرن مضي أدرك أجدادنا من الصحفين العرب الخلل الواضح في أخبار و كالات الأنباء..و خلال قرن و بعده سنوات لم يستطع المسئولون العرب إنشاء و كالة أنباء عربية متحدة !

و ظلت و كالات الأنباء العربية تستقي الكثير من أخبارها من الوكالات العالمية بعد ترجمتها ، و حذف مالا يناسب سياساتها الإعلامية . و كأنما كان الجهد المبذول هو إلباس الخبر العقال أوالعمامة أو الطربوش فحسب . ويظل ما تحت ذلك أجنبي المنبت و المصدر و البث ..!

و تتعدد و تتجدد الوسائل : إلي جانب وسائل الإعلام المختلفة المستخدمة ،في الغزو الثقافي للعالم العربي تتجدد و تتعدد الوسائل الأخري باختلاف الظروف فنجد البحوث المشتركة ، و تأثر المبعوثين ضعاف النفوس ، و تأثر المتزوجين بالأجنبيات من مرضى القلوب ، و نجد غير ذلك من وسائل الغزو الثقافي كلما وهن وضعف وارتخي النسيج الثقافي في العالم العربي . وفي مجال العلاقات العامة نلمس طرقا للغزو الثقافي للإنسان المسلم وللإنسان العربي جديرة بالتأمل والتدبر والحذر . يروي الدكتور محمد الهواري (٢) عضوهيئة التدريس بجامعة دمشق و أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين في أوربا أنه في أوائل عام ١٩٦١ م كان يودع زميلا له في محطة القطار في مدينة " بروكسل " في بلجيكا ، فيقول " بينما نحن في انتظار موعد القطار إذا بنا نشاهد علي الرصيف المقابل قطارا احتشد فيه عدد كبير من الأطفال ، وعلي الرصيف جمع وفير من الاشخاص

(١) جريدة المؤيد بتاريخ ٢٣ - ٩ - ١٩١٣ ص٥

(٢) الإعلام الإسلامى والعلاقات الإنسانية - أبحاث ووقائع اللقاء الثالث لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامى . الرياض - ١٩٧٦ م - ١٣٩٦ هـ ص ٧٥

يودعونهم بينهم عدد لا بأس به من الرهبان والراهبات . لفت نظرنا هذا المشهد العجيب . وأردنا استطلاع الأمر فذهبنا إلي الرصيف ، وتبين لنا هناك أن الاطفال هم أبناء من عائلات إسلامية تعمل في شمال فرنسا في عدد من المعامل والمناجم ضمن ظروف معيشية سيئة ووضيعة ، ويعاني أبناؤها نقصا كبيرا في التغذية و الرعاية والصحة . وتنبهت لهذا الأمر جمعيات تبشيرية تعمل في فرنسا وبلجيكا ، فأرسلت أفراداً منها للاتصال بهذه العائلات و اقناعها بضرورة إرسال أولادها إلي بيوتات نصرانية تستقبلهم وتعتنى بتغذيتهم و تقدم لهم الرعاية والعناية و كل وسائل التسلية والترفيه خلال فترة الصيف ، إلي ما هنالك من الأمور التى تترك أكبر الأثر في نفوسهم و كان الأمر كذلك .

لقد شاهدت بعيني هؤلاء الأطفال في أحسن حلة من اللباس وأجمل منظر من الطلعة وفي أيديهم الهدايا والحلوي ولذائذ الطعام . و اغرورقت الدموع في عيون كثير منهم أسفا علي الفراق ، فقد كانت الإقامة مؤثرة في حياتهم . وفعلت فيهم فعلتها ، ووصلت إلى غايتها المنشودة، حتى أن هذا المنظر (الإنسانى الأليم) أثر فى نفوس بعض المودعين فلوحوا بأيديهم وأعينهم تفيض من الدمع . ووقفت جانبا مع صديقى نبكى هذه الحالة التى وصل إليها المسلمون ، حتى أصبحوا لقمة سائغة وفريسة ضعيفة لكل من يتربص بهم الدوائر . نبكى على حال هذه الجماعة البيضاء هنا التى تتمثل بهؤلاء الأطفال المساكين الموجودين فى حالة نفسية صعبة . ،مستعدة لتقبل جميع ما يقدم إليها من أفكار وتأثيرات نفسية . والهدف النفسى : هنا هو التأثير على معنوياتهم . وازدراء الحياة البائسة الأليمة التى كانوا يعيشونها بين أهليهم ، وبالتالى حضهم على المقارنة اللاشعورية بين معيشتهم فى البيئة الإسلامية المختلفة ، وبين ما قدمته لهم العائلات النصرانية التى أقاموا لديها ، من عطف ومحبة وعناية من كل الوجوة . والمهمة النفسية : هنا هى الوصول إلى الهدف النفسى عن طريق إثارة القلق لدى هؤلاء الأفراد ، ووضعهم فى حاله نفسية يختارون بموجبها بين حياة بائسة ومستقبل ملؤه الأمل والازدهار . وأسلوب العمل النفسى يتجلى فى محاولة استقطاب أفكارهم نحو حياتهم البائسة الراهنة ، وتذكيرهم بالمستقبل الأسود إذا ما استمروا فيه ، وإثارة اهتمامهم بما لا قوه من حسن الضيافة والإكرام ،وربط ذلك بالعاطفة الإنسانية النصرانية التى تنبهت لبؤسهم وقدمت لهم كل عون . أما النداء فيتجلى بالمحاورات والقصص والأحاديث العاطفية، التي تتلى عليهم خلال إقامتهم الطويلة فى هذه البيوتات ، التى ترمى للتأثير على مشاعرهم وعواطفهم ، بغرض تحقيق الهدف النفسي ، وإخراجهم عن دينهم إن استطاعوا . »

وبعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما يتعرض المسلمون فى البوسنة والهرسك للإبادة من الصرب

والكروات بتدبير أوربى محكم . ويصبح مئات الألوف من الأطفال المسلمين يتامى مشردين - هائمين على وجوههم فى البلدان الأوربية . فتستقبلهم القلوب الصليبية بترحاب مزيف وتسرف وسائل الإعلام الصليبية فى الحديث عن الحنان الواجب لرعايتهم.

وفى أواخر يوليو ١٩٩٣ تنشر وكالات الأنباء خبرا من بلجراد العاصمة التى يتم منها تدبير أمور ذبح المسلمين يقول أن السكرتير العام لمنظمة سفارة الأطفال الإنسانية ومقرها مدريد أعلن أن وفدا من هذه المنظمة سيتوجه إلى السويد لترشيح أطفال البوسنة والهرسك لجائزة نوبل الخاصة بالسلام . وكانت المنظمة قد قامت باجلاء الأطفال من سرايفيوً عاصمة البوسنة والهرسك . ويعلق الكاتب المصرى أحمد بهجت (١) على ذلك قائلا :

توقفت أمام الخبر وقرأته أكثر من مرة وفى كل مرة كان يتصاعد داخلى إحساس مختلف . فى البداية أحسست بالدهشة وخيبة الأمل لقد تركت أوربا مأساة البوسنة تتصاعد ، وتركت المذابح تستمر، لم تضرب على يد السفاحين من الصرب ، لم تساعد مسلمى البوسنة بالسلاح أو العتاد ، كل ما فعلته هو ترك القضية فى أيدى المنظمات الانسانية ، وقد نجحت إحدى المنظمات فى إجلاء مائة ألف طفل وبسبب هذا النجاح الباهر .. تتجة النية إلى منح جائزة نوبل للسلام لهؤلاء الأطفال .هذا هو عدل أوربا .. وهذه هى إنسانيتها .لقد وقفت تتفرج على المذبحة ، ساهمت فى تكتيف الضحية ، ولكنها أخرجت بعض الأطفال من أرضهم لانقاذهم من الذبح .. ومجرد خروج بعض هؤلاء الأطفال من بلادهم يعنى نجاح سياسة التطهير العنصرى التى بدأها الصرب ثم اشترك فيها الكروات وساهمت فيها أوربا كلها ودول العالم الغربى .

والآن .. بعد أن انتهت الجريمة ووصل الجانى لأغراضه يقولون لنا أن هؤلاء الأطفال مرشحون لجائزة نوبل للسلام أي سلام ؟! سلام التشرد .. والبعد عن الوطن . أم سلام فقد الآباء والأمهات والأهل والأقارب ..عن أى سلام تتحدث أوربا وإلى أى سلام تشير ؟! هل تشير إلى سلام اليتامى، أم سلام الشتات ..لقد اختلط علينا الأمر وبات من الصعب أن نفهم المقصود بالسلام .. أو العدل أو الإنسانية. »

(١) أحمد بهجت - نوبل للسلام - جريدة الأهرام - بتاريخ ٢٦ - ٧ - - ١٩٩٣ .

التعليم:

س : أين ظهرت الفلسفة أم العلوم ؟

حـ : في اليونان .. عند « أرسطو وأفلاطون » .

س : وأين آخر الابتكارات العلمية اليوم ؟

جـ : في الغرب عند أحفاد اليونان .

س : متى بدأ التاريخ السياسى وأين ؟

جـ : فى العهد اليونانى بدولتى « أثينا واسبرطا ».

س : أين يوجد أرقى فكر سياسى اليوم ؟

جـ : فى الغرب ، فى المدرسة الانجلوسكسونية بفروعها .

س : متى وأين بدأ قول الشعر فى التاريخ ؟

جـ : فى القرن السادس قبل الميلاد ، عند هومر فى « الالياذة والأوديسة » ،ثم عند فرجيل قبيل الميلاد .

س : أين بدأ التمثيل وَمَنْ أَلَّف فيه أول مرة ؟

جـ : بدأ فى اليونان ، وأول من أَلَّف فيه إشيل (٥٢٥ -٤٦٦) قبل الميلاد.

س : أين ظهرت النقود لأول مرة ؟

جـ : اخترعها اليونان سنة ٦٨٠ قبل الميلاد .

س : وأين هى أهم مراكز النقود اليوم ؟

جـ : عند روكفلر ، وتشيز منهاتن بنك ، وبنك أوف أمريكا .

هكذا يدعونا محمد سليم قلالة (١) فى كتابه التغريب لتأمل مثل هذه الأسئلة وإجاباتها التى أوردها ثم يُعَقب قائلا : هكذا بكل بساطة تُرْبَطُ الحلقة من اليونان إلى أمريكا ، وببساطة أكثر تُلَقَن هَذه الأسئلةَ والأجوبة كل يوم ، وغيرها كثير ، وتنقلها وسائل الاعلام وتتحدث بها ويحفظها الناس وترتسم فى الذاكرة سلسلة التاريخ طرفها فى اليونان والآخر فى أمريكا ، أو فى أى بلد من بلدان الغرب . أما بقية بلدان العالم فقد كانت فى الظلمات !.

ثم يضيف : هكذا يريدون أن يُصَاغ تفكيرنا ، وبالرغم من وضوح معالم المخطط فى محتوى كل ما يقدم لنا ، ونقدمه نحن فى جامعاتنا ، هناك من يصر على تسمية الفترة من القرن السادس

---

(١) محمد سليم قلالة - التغريب ، فى الفكر والسياسة والاقتصاد - الطبعة الأولى - دار الفكر دمشق - ١٩٨٨ ص ٥٥ و ص ٥٦

الميلادى ، إلى القرن الخامس عشر ، كما يسميها الغرب ، عصر الظلمات !! وهناك من يصر على تقسيم تاريخ الانسانية إلى : ما قبل الميلاد ، وعصور وسطى ، وحديثة ومعاصرة ! ما معنى هذا ؟ أليس معناه أننا جميعا نفكر بواسطة العقل الغربى !! إن هذا التقسيم يلغى عشرة قرون من الحضارة بكاملها ويسمى عهد الاشراق الإسلامى ، بكلمة تعبر عن نقيض الواقع تماما ، عصر الظلمات ، لماذا ؟ لأن الغرب بذاته كان يعيش فى تلك الفترة فى الظلمات ، هو يفكر إنطلاقا من واقعه ، ونحن نردد ما يقول ..!

والكاتب يعمق هذا المثل بقوله إن الغرب المسيطر اليوم إقتصاديا وعسكريا سيطر قبل ذلك ومازال ثقافيا ، إن الظاهرة الإستعمارية بذاتها هى تعبير عن درجة من الإدراك للثقافة الذاتية . وللثقافة المضادة لها التى تجب محاربتها . وكذلك الظاهرة الاستقلالية هى تعبير عن درجة عليا من الادراك الذاتى الثقافى ترجمت بحمل السلاح ، أو بالنضال السياسى من أجل التحرر . وقد أدرك الغرب هذا ومن ثم راهن على أن لا بقاء له دون بقاء سيطرته ثقافيا ، فهى التي تضمن له بقية أنواع السيطرة .

ويستطرد الكاتب قائلا بأن الغرب عقب استقلال الدول التابعة له بحث عن الوسيلة التي تضمن له أن لا تستطيع شعوب هذه الدول تطوير استقلالها الثقافى ،وكانت الجامعة هي الوسيلة . لأن البلدان النامية هذه يصعب عليها التحكم فى هذه المؤسسة العلمية العليا. ومن ثم فانها الأداة السياسية التى يمكن بواسطها تمرير سياساته الإستعمارية . وهكذا كان تحت غطاء العلم كانت تمرر اللغة ، والعادات ، ونمط التفكير والسلوك ، وكان الهدف الأساسى من كل هذا هو خلق الانسان التابع فى تفكيره، قبل أن يكون تابعا فى نمط استهلاكه وسلوكه . كان أساس هذا المشروع هو ترسيخ فكرة رئيسية في أذهان الشباب المتعطش للعلم ، إن الغرب هو كل شيىء، وبدونه لا يمكن عمل أى شيىء ، هو البداية ، وهو النهاية . وما عدا ذلك فهو معتقدات وغيبيات و تقاليد وتراث ونوم عميق (١) .»

إن المدرسة في أى مجتمع من المجتمعات تقوم بوظيفتين رئيسيتين هما : نقل التراث الثقافى الاجتماعى للأمة من جيل إلى جيل ، والعمل علي تكوين شخصية الطالب ليصبح مواطنا نافعا وصالحالأمته . ومن خلال هاتين الوظيفتين تتفرع الوظائف الفرعية العديدة وفق ظروف المجتمع ، ووفق درجة التطور والتقدم التي تقطعها المجتمعات ، واستخدام التعليم وسيلة للغزو الثقافى يتخذ أساليب رئيسية ثلاثة هي :

١ - زرع النمط التعليمى الغازى فى المجتمعات المراد غزوها ثقافيا، والهيمنة عليها .

(١) المرجع السابق ص ٥٣ و ص٥٤ .

٢ - هدم وإضعاف النظام التعليمي الوطنى عقب الاحتلال مباشرة ،أو الوقوف أمام تطوره وانتشاره .

٣ - استمرار النموذج التعليمي الغازى في المجتمعات التي نالت استقلالها .وخلق النموذج فى البلدان التى لم يتم احتلالها عسكريا ، وإنما تمت الهيمنة عليها سياسيا واقتصاديا ومراقبة عدم خروجه عن النمط المسموح به أو المطلوب .

ومن خلال هذه الأساليب الرئيسية تتعدد وتتفرع الأساليب الفرعية، والأشكال المختلفة لتحقيق الغزو الثقافي بوسيلة التعليم.

١ - الأسلوب الأول :

وإذا تناولنا كل أسلوب من هذه الأساليب بالإجلاء وضرب الأمثال ، فان الأسئلة و الأجوبة التي طرحها الأستاذ قلالة وتعليقه عليها تبين لنا مضمون أسلوب زرع النمط التعليمى الغازى . ومن المهم أن ندرك أن أسلوب زرع النمط التعليمي الغازى يبدأ قبل الاحتلال ، ويستمر ويتضاعف معه ، ويبقي بعد رحيله عسكريا ، واستمرار هيمنتة بدون تواجد عسكري مباشر .

وفي تاريخ التعليم المصري يبرز دور التعليم الأجنبى باعتباره طلائع للغزو العسكرى . بل يسبقه بقرن .

والباحث المصري جرجس سلامة (١) الذي أرخ للتعليم الأجنبي في مصر . ونال ببحثه درجة الماجستير في التاريخ من جامعة القاهرة ، توصل إلي نتائج بالغة الدلالة في إستخدام التعليم وسيلة للغزو الثقافي . يقول الباحث أن التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن الثامن عشر الميلادي حتي نهايته بعد حرب السويس ١٩٥٦،أو بمعني أدق إشراف الحكومة المصرية عليه إشرافا كاملا قد بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر بصفة خاصة، وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرياستها ، ومن جانب آخر بذلت الإرساليات الدينية البروتستانتية مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلي "البروتستانتية" بل إن الباحث يرجع مجهودات " الكاثوليك" في هذا السبيل إلي القرن الثالث عشر الميلادي . ويقول إن الهيئات الدينية الكاثوليكية كثيرة متشعبة ذات فروع في جميع أرجاء العالم ، وهي ليست فرنسية أو إيطالية، فحسب ، وإنما هيئات دينية عالمية تتبع معظمها "البابا" في روما . وهذه الهيئات تنتشر في جميع أنحاء العالم، حيث تبني الكنائس، وتلحق بها المدارس ، وتحاول أن تجذب إليها من يمكنها جذبه لكي تزيد من أعداد تابعيها، وتنشر الكاثوليكية ما أمكنها . من هذه الهيئات

---

(٢) جرجس سلامة - تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب و العلوم الاجتماعية بالقاهرة - نشر الرسائل الجامعية - القاهرة - ١٩٦٣ - صـ ١٥ ، صـ ٤٠ صـ ٥٣ .

(الفرنسسكان والجزويت والفرير والراعى الصالح و القلب الأقدس) وغيرها ، ولقد امتد نشاط هذه الهيئات والإرساليات إلى مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادى، حين وفد الفرنسسكان إلى مصر . ويقول جرجس سلامة إن الفرنسسكان حينما حضروا إلى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كان هدفهم تحويل أقباط مصر عن المذهب الارثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكى . وقد كانت هناك سياسة عامة من البابوية تجاه هذا الهدف ، وكان يشرف على توجيه هذا العمل كلية الدعاية بروما ، وتشرف على أعمالهم هذه رياسة أخرى بالقدس .

وقد لجأ الفرنسسكان لتحقيق أغراضهم هذه بالتوغل في الصعيد، وقد بلغ الأمر من ناحية الاهتمام بتحويل الأقباط إلى الكاثوليكية إلى الحد الذى جعل البابا يصدر أوامره للفرنسسكان بمصر بإمساك أطفال الأقباط وإرسالهم إلى روما، لكى يتعلموا وفق الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

وفى عام ١٧٤١ تم إنشاء كنيسة فى مصر تشمل جماعة من الأقباط يتبعون نظمهم الخاصة ، ولكنهم فى نفس الوقت يعترفون برياسة البابا في روما ، وكان ذلك ضمن مجهودات تبذلها البابوية لإجبار الكنيسة القبطية على الاعتراف برياستها ، ولكن البابوية وجدت أن إجبار الكنيسة القبطية على الاعتراف برياستها أمر بالغ الصعوبة ، ولذلك تحولت مجهوداتها إلى تحويل الأقباط فى مصر إلى الكاثوليكية . وبدأ الفرنسسكان ينشئون الكنائس كمقدمة للقيام بحركة دينية تعليمية لتحقيق هدفهم . غير أن هذه الحركة لاقت مقاومة شديدة من الأقباط الذين قاموا بالاستيلاء على هذه الكنائس وطردوا منها الفرنسسكان ، مثال ذلك ما حدث للكنيسة التى أنشأها الفرنسسكان عام ١٦٩٨ فى مصر القديمة وقام الأقباط بالاستيلاء عليها (١) .

ولم يقتصر نشاط الإرساليات الدينية على الكاثوليك وحدهم وإنما كانت هناك إرساليات دينية بروتستانتية من إنجلترا وأمريكا أسهمت بنصيب فى نشاط التعليم الأجنبى ذي الطابع الدينى في مصر . وفى وقت مبكر اهتم الأمريكيون بارسال الإرساليات البروتستانتية إلى مصر .فقد بدأ هذا النشاط عام ١٨٥٥ بافتتاح أول مدرسة للبنين بالقاهرة ، ثم افتتاح مدرسة أخرى للبنات بالقاهرة أيضا عام ١٨٦٠ ، وفى العام نفسه افتتحت مدرستان بالإسكندرية .

ثم فى عام ١٨٦٥ أنشأت الارسالية الأمريكية مدرسة فى أسيوط وتوالى إنشاء المدارس فى المدن . ويذكر جرجس سلامة أن المدرسة كانت تتخذ بداية ومركزاً لنشر المذهب البروتستانتى .

ويدعم رأيه بما قاله مستر واطسن عن الإرسالية الأمريكية إذ يقول : وكانت المدارس هى المدخل الوحيد إلى المدينة ، وبمجرد أن يوجد هذا المدخل ، وتنشأ جالية بروتستانتية صغيرة ، كانت

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .

المدرسة تترك للأهالى . وقد بلغ عدد مدارس الإرسالية البروتستانتية الأمريكية عام ١٨٩٦ حوالى ١٦٨ مدرسة منها ١٣٣ للبنين و٣٥ للبنات وزاد عدد طلابها من الجنسين عن ١١ ألف طالب وطالبة وقد قفز عدد البروتستانت فى مصر من ٦٠٠ فى عام ١٨٧٥ إلى ٤٥٥٤ فى عام ١٨٩٥، ثم قفز إلى أكثر من ٦٦ ألفا فى عام ١٩٣٧ ثم اقترب من مائة ألف عام ١٩٤٧ . وكذلك قفز عدد الكاثوليك فى مصر من ٢٢ ألفا فى عام ١٩٠٤ إلى أكثر من ٨٠ ألف فى عام ١٩٥٧ . (١)

لقد ساعدت الظروف التاريخية المتمثلة في ضعف الدولة العثمانية ، وحملة نابليون بونابرت علي مصر عام ١٧٩٨ ، ثم الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ، هذه الارساليات وغيرها فى تحقيق أهدافها . وكان تطور المدارس الأجنبية في مصر ينبع أساسا من ظروف الجهات والهيئات التى أنشأتها وليس له علاقة بالظروف المصرية . فقد تطور التعليم الفرنسى فى مصر من غلبة الجانب الدينى إلى النزوع العلمانى نتيجة لتطور التعليم فى فرنسا . والمدارس الانجليزية التى افتتحت قبل الاحتلال كانت ذات طابع دينى ، أما المدارس الانجليزية التى افتتحت بعد الاحتلال كانت لتعليم أبناء الجالية البريطانية الكبيرة التي جاءت إلى مصر عقب الاحتلال . وكانت ذات صبغة علمانية . ومن جانب آخر زاد وفود الارساليات الأجنبية بعد الاحتلال زيادة كبيرة .

وقد بين الإحصاء التعليمى فى العام الدراسى ١٩٥٥ / ١٩٥٦ أن عدد المصريين فى التعليم الأجنبى بلغ ٦٦٥٠٥ تلميذاً وتلميذة بينما كان عدد الأجانب ٢٦٦١٤ ، فقط ،مما يبين انخراط أعداد كبيرة من المصريين مسلمين ومسيحيين فى هذه المدارس الأجنبية . وكان التلميذ المصرى فى المدارس الانجليزية يدرس تفاصيل تاريخ بريطانيا وجغرافيتها واقتصادها ،ويتخرج دون أن يعرف شيئا عن بلده إلا من خلال التاريخ الانجليزى بأنها مستعمرة من المستعمرات البريطانية .

وقد ظلت محاولات الحكومة المصرية فى إخضاع التعليم الأجنبي للإشراف الحكومى بين شد وجذب منذ عام ١٨٧٢ وعام ١٩١٣ حتى كانت حرب السويس عام ١٩٥٦ فرصة سانحة لإشراف الحكومة المصرية إشرافا كاملا على هذا التعليم .

٢ - الأسلوب الثانى :

واذا تناولنا الأسلوب الثانى المتمثل فى هدم وإضعاف النظام التعليمي الوطنى عقب الاحتلال مباشرة ،والوقوف أمام تطوره وانتشاره، فإننا نجد النموذج الصارخ يتمثل فى تجربة المغرب العربي مع الاستعمار الفرنسى ، فقد كان الهدف هو القضاء على اللغة العربية، والنظام

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ .

التعليمي الوطنى قضاءً كاملا .

وفى مصر كانت المؤسسة التعليمية قد نبتت وأزدهرت أيام محمد على ، إلى جانب الأزهر، الجامع والجامعة العريقة ، لقد أنشأ محمد علي مدرسة الهندسة عام١٨٢٠ م كما أنشأ الطب والصيدلة والطب البيطرى عام ١٨٢٧ . و كانت هذه المدارس أو الكليات بمعناها المعاصر لنا تستمد طلبتها من الأزهر . وجاء عصر إسماعيل ليدفع بالنهضة التعليمية المصرية دفعة إلى الأمام، فقد أنشئت دار العلوم عام ١٨٧٢ وفى عام ١٨٧٣ افتتحت أول مدرسة للبنات تحت رعاية زوجة اسماعيل . فماذا حدث عندما بدأ الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ؟

عمد الإحتلال البريطانى فى مصر إلى إحلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وجعلها لغة التدريس فى المرحلتين الابتدائية والثانوية عام ١٨٨٢ .

وجعل التعليم فى المرحلتين بمصروفات لايحتمل دفعها إلا القادرون من أبناء الشعب . وقد ساعد ذلك على تكوين طبقتين متميزتين فى الثقافة والميول والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالأخرى ، أو تقوم بالتفاهم الجدى معها ، إلى جانب تشجيعه للمدارس الأجنبية على خلق طبقة تتسم بالأرستقراطية فى ثقافتها الأجنبية ، ولا تستطيع أن تلتقى مع الشعب فى الثقافة والقيم الموروثة والتراث المشترك (١)

ولقد هبطت ميزانية التعليم فى ظل الاحتلال الانجليزي هبوطا مضطرداً ففى عام ١٨٨٥ نجد ميزانية التعليم ٨٤٦٨٩ جنيها ثم نجدها فى عام ١٨٨٩ قد هبطت إلى ٨٠٣٣٨ جنيها ، وكان التعليم فى مصر خلال ٢٥ عاما قضاها كرومر فى تدهور مستمر.

ولقد أورد الكتاب الغربيون شهادتهم فى إضعاف التعليم المصرى فى ظل الاحتلال البريطانى فها هو« ناداف سافران »الكاتب الأمريكى فى كتابه مصر فى البحث عن مجتمع سياسى موحد «Egypt in search of political Community» يقول إنه لا يمكن إنكار اتهام الوطنيين للإنجليز فى مجال التعليم ، لأنه يجب أن يقال إن التعليم سار ببطء شديد تحت الحكم البريطاني ، واستمر التعليم في هذه المرحلة يهدف لتخريج موظفين للحكومة . وليس هناك أى دليل على أن المصريين لم يكونوا فى نهم إلى التعليم ، فقد كان إقبالهم على المدارس الخاصة والمدارس الأجنبية واضحا تماما .

٣ - الأسلوب الثالث :

يتمثل هذا الأسلوب فى استمرار النموذج التعليمي الغازى فى المجتمعات التى نالت استقلالها . وخلق النموذج فى البلدان التى لم يتم احتلالها عسكريا ، وإنما تمت الهيمنة عليها

(١) جرجس سلامة - تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر - مرجع سابق - ص ١١٣ ، ص ١٣٢

سياسيا واقتصاديا ، ومراقبة عدم خروجه عن النمط المسموح به أو المطلوب ، والأمثلة فى هذا الصدد أكثر من الحصر . ويثير تنوعها وتعددها أمثلة متباينة ومتفاوتة . الجامعة الأمريكية فى القاهرة والجامعة الأمريكية فى بيروت لم تفتح كلية للطب أو الصيدلة أو الزراعة فى حين أن تعليم الإعلام والصحافة بدأ فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٣٣ على الرغم من أن جامعة القاهرة لم تبدأ فى تعليم الصحافة إلا فى عام ١٩٣٩ وهى أقدم جامعة عربية تقوم بتعليم الصحافة . كانت الجامعة الأمريكية تدرك دورها فى تخريج إعلاميين يفكرون أمريكيا..!!

والجامعات التى أنشئت في البلدان التى لم يتم استعمارها عسكريا، وإنما وقعت تحت الهيمنة الأمريكية أو الانجليزية أو الفرنسية سياسيا واقتصاديا كانت جامعاتها صورة مصغرة وباهته للنمط الغربى إلى جانب الظروف المحلية الفقيرة فى الإبداع والحرية.

ويروى الشيخ على عبدالرحمن الأمين (١) ، السودانى وعضو مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر قصة ذات دلالة عميقة في الغزو الثقافى عن طريق المدرسة فيقول :

« أرجو أن أقص على حضراتكم واقعة ، تدلكم على حيًل المبشرين ومكرهم ، فقد أردت أثناء مرورى فى بحر الغزال : أن أزور مركز راجا، وهو مركز تسكنه قبيلة مسلمة ضمن سكانه الوثنين والمسيحيين ، وبالمركز كنيسة كبيرة حاولت إنشاء مدرسة في مدينة «حورشمام» عاصمة القبيلة المسلمة ، فعارض عمدة القبيلة ونشبت بينه وبين القسيس محاورة حادة فتدخل مفتش المركز مؤيدا القسيس ، وحاول الضغط على العمدة ، لقبول مدرسة الكنيسة بين قومه المسلمين.

ولما أصر العمدة نفاه المفتش ، بموافقة الحكومة المركزية بالخرطوم ، إلى مديرية دارفور ، وعين أخاه بدله ، فأذعن الأخ لأوامر المفتش ورغبة القسيس ، وبعد أن تعهدوا له بأنهم لا يعلمون الدين المسيحى ، وكانت المدرسة يؤمها عدد كبير من أبناء المسلمين ، فلما أخبرت مدير بحر الغزال : بأنى سأزور« راجا » قال لى : إن «راجا » تبعد ٢٥ ميلا من واو ، وتبعد مسافة أكثر من ذلك ، من حدود دارفور ، فلا وسيلة لتعليم أبنائها إلا بواسطة الارسالية ، وقد أذنت للإرسالية أن تفتح مدرسة بحور شمام ، لتعليم أولاد المسلمين التاريخ والجغرافيا والرياضة والصحة واللغة الانجليزية ،وحظرت بشدة أن يدخل فى المدرسة أى درس دينى ، فإذا وصلت راجا أرجو أن تزور المدرسة ، لتقف على هذه الحقيقة ، وتزيل الشكوك من أذهان بعض المتعصبين الذين يظنون أن مجرد تبعية المدرسة إداريا للإرسالية معناها التنصير ، فوعدته أن أزور المدرسة مصحوبا بالعمدة وبعض كبار الوطنيين ، وفعلا تمت الزيارة التى استغرقت يوما دراسيا كاملا ، حضرت أثناءه كل الحصص فى كل أنواع الدروس ، فذهبت كل الدهشة ، لأن جدول الحصص خال من أى مادة دينية ، ولكن

---

(١) الدعوة إلى الاسلام - المؤتمر السابع لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م ص ١٤٤ ، ١٤٥

الدروس كلها باستثناء الحساب : هى فى الواقع دروس دينية مسيحية ، فالتاريخ كله يتعلق برحلات المسيح والحواريين ، وسير المسيحية من قطر إلى آخر ، والصحة كلها تتعلق بالشفاء ببركة المسيح ومسه للمصابين ، وشفاء المرضى بدعواته وصلواته ، والجغرافيا كلها تتعلق بدراسة الرقعة المسيحية بوجه عام ،و منطقة فلسطين وسوريا والأردن والفاتيكان بوجه خاص ، والمحفوظات عبارة عن ترتيل الكنيسة وتمجيد المسيح ورسله ، والانجليزية عبارة عن مطالعة من الكتب المسيحية ، والقصص الدينية .

ثم خرجنا من المدرسة ، وذهبنا إلى الاستراحة ، وأفهمت الجميع أن كل ما سمعته فى المدرسة دروس دينية مسيحية ، وأن الطالب حينما يستوعب هذه الدروس ، ويتخرج من المدرسة لابد أن يكون مسيحيا ، أو على الأقل مستعدا لاعتناق المسيحية ، ولا أثر بالمدرسة للغة العربية ، ولالإسلام، مع أن الطلبة لغتهم العربية ودينهم الاسلام ، أو هكذا يعتقدون ، لأن عربيتهم ركيكة مفككة أقرب إلى الرطانة ، ولأن إسلامهم إسمى يتعصبون له ولا يعرفونه ، واتفقت معهم على إحضار رجل يحفظ القرآن من أقرب منطقة وأن ينشئوا خلوة لتحفيظ القرآن . »

ولقد أخذت القوى الاستعمارية فى الغرب تشكل مثقفين عرب يقومون بتسويق النموذج الغربى فى العالم العربى ، ويساهمون بوعى أو بلا وعى في فصل الجماهير العربية عن ذاتها الحضارية . ويشير جان بول سارتر إلى هذا المعنى حيث يقول : لقد كنا نأخذ أبناء السراة والأشراف من الدول المستعمرة ، ونطوف بهم بضعة أيام فى أوربا ونعلمهم لغتنا ، ونزوجهم زوجات أوربيات ، لكى يعودوا يرددون ما نريد أن يرددوه ، وأن يقولوا ما نريدهم أن يقولوه . لقد كان جزءا من استراتجية الغزو الثقافى الغربى للعالم العربى الذى يستهدف فصل الجماهير العربية عن ذاتها الحضارية القادرة على المقاومة . ولقد قام هؤلاء المثقفون الذين صنعهم الغرب بالدور المطلوب(١) .

ويقول بول موفلان ، أحد كبار اليسوعيين ، إن تعليم الناس لغتنا لا يعنى مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسى ، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما . إن هذه السياسة تؤدى إلى فتح بلد بواسطة اللغة ، (٢) .

ويقول محمد حسنين هيكل (٣) إن العلم الحديث في معظم بلداننا منقول ، والتجديد مظاهر

(١) د. سليمان صالح – الانتفاضة الفلسطينية ثورة الذات الحضارية (مرجع سابق) ص ٦٥ .

(٢) محمد السماك – تبعية الاعلام الحر – الطبعة الأولى – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٩١ ص ١٤ نقلاعن مراسلات القناصل السياسية (وزارة الخارجية الفرنسية) المجلد رقم ٢

(٣) محمد حسنين هيكل – بين السياسة والصحافة مرجع سابق ص ٨ ، ١١

مستعارة ، لأن التغريب بالتقليد سهل والتجديد الأصيل مشقة . وهكذا فانه حتى وسائل التنوير يمكن أن تتحول فى أيدينا إلى أدوات تعتيم. ثم يصل هيكل إلى القول بأن النموذج الجاهز للنقل من الغرب قوى .والقوة لها قدرة إقناع كامنة . والقيم المطروحة مثل الحرية والمساواة لها جاذبية باهرة تفرض نفسها على الناس فلا تترك لهم فرصة كافية ليتدبروا ويدركوا أن هذه القيم لم تجىء بمجرد التمنى ، وإنما جاءت لأن تفاعلات اجتماعية وإقتصادية طويلة وعنيفة مهدت لها وفتحت الطريق أمامها . »

ويظل التعليم فى البلدان العربية والاسلامية مستهدفا بالغزو الثقافى الصهيونى والاستعمارى والعلمانى ، فمن كان يصدق أو حتى يخطر على باله أن التعليم الأساسي فى مصر فى العقد الأخير من القرن العشرين يختزل فيه التاريخ الاسلامى وتحذف من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غزواته ضد عدوان اليهود وتآمرهم على الجماعة الاسلامية الأولى؟!

لقد نشرت الصَحَفيَّة المصرية مايسة عبد الرحمن بقلمها الأمين سلسلة موضوعات صحفية فى ربيع عام ١٩٩٣ حول ما أطلق عليه تطوير التعليم تبين منها أن التطوير يعنى اختزال التاريخ الاسلامى فى مراحل التعليم المصري الابتدائى والاعدادى والثانوى ، ويعنى حذف غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ضد العدوان والتآمر اليهودى فى عصر النبوة . وكتب الكاتب الاسلامى القدير فهمى هويدى مقالا عن ذلك عنوانه «فتنة فى الأرض وفساد كبير » (١) ثم كتب الدكتور مصطفى محمود (٢) ملخصا وفاضحا الأمر تحت عنوان تطوير أم تزوير ؟! قائلا :«فى محاولة لتطوير المناهج التعليمية قامت الجهات المسؤلة بحذف واختصار جانب كبير من التاريخ الاسلامى وقلصته إلى أربعين صفحة فقط تقرر على الصف الأول الاعدادى بدلا من فصول الابتدائى ، والاعدادى والثانوى ..وحذفت من المقررات القديمة .. المعارك التى خاضها الرسول ضد اليهود فى خيبر ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، ومؤتة وتبوك .. وقصقصت كل ما هو إسلامى فى تاريخنا ، وعمقت كل ما هو فرعونى!!

وهذه العملية التطويرية باشرها ٢٩ أستاذا،ومستشارا أمريكيا بينهم اثنان من اليهود بتمويل من المعونة الأمريكية .

والسؤال .. أين كانت وزارة التربية والتعليم ورجالها الأفاضل .. وكيف تقبل مثل تلك التوصيات من لجنة أمريكية .. وهل أصبح التاريخ الاسلامى قابلا للبيع .. والحقائق التاريخية قابلة للمساومة.. وهل يتغير التاريخ لمجرد أننا عقدنا سلاما مع اسرائيل ؟

---

(١) جريدة الأهرام بتاريخ ٦ - ٤ - ١٩٩٣ .

(٢) د. مصطفى محمود - تطوير أم تزوير ؟! جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ - ٤ - ١٩٩٣ .

وهل شطبت فرنسا حملة نابليون على مصر حرصا على حسن علاقاتها مع مصر ، أو شطبت اليونان ، ومقدونيا حملة الاسكندر المقدونى على بلادنا على سبيل المجاملة .. ، هل نشطب من القرآن ما قاله الله في حق اليهودمجاملة لأولاد العم ؟!

ومن قال إن الصراع العربى الاسرائيلى قد انتهى ، وأن اسرائيل أخذت العرب بالأحضان .. ولو أخذتهم بالأحضان ، وأغرقتهم بالقبلات فلن يتغير شىء مما كان، ومما سجلته صحائف التاريخ .. فحقائق التاريخ لا تسقط بالتقادم .

إن العقلية التى سمحت بهذا يجب أن تسأل ، إن شطب الحقائق لايدخل تحت بند التطوير بل يدخل تحت بند التزوير ، ولن ينفعنا أن نصبح مزورين . بل إننا سوف نسقط بهذا التزوير حتى فى نظر أصدقائنا الذين نجاملهم ». ولقد حاول وزير التعليم أن يبرر اختزال التاريخ الاسلامى بعذر يؤكد الاختزال أو بأعذار تؤكد الاختزال .ولكن الأكثر سفوراً كان قوله بالحرف الواحد : « ثالثا : حذف المعارك التى خاضها الرسول ضد اليهود . واقتصر على بعض الغزوات كغزوات بدر وأحد والخندق وفتح مكة . وذلك تخفيفا على تلاميذ الصف الثانى الاعدادى الذين يدرس لهم هذا الموضوع ، وهذا معمول به من عام ١٩٩٠/١٩٩١ »(١) هكذا بالنص .

وحاول أناس آخرون أن يكتبوا تبريرا لفعلة الوزير وللجانه المختصة بذلك ولكن الأمور كانت أشد وضوحا من كتاباتهم ، حتى أن أحمد عبدالمعطى حجازى(٢) الذى دافع عن التاريخ الفرعونى واتهم الكتاب الاسلاميين بأن بعض المعلومات التى نشروها حول تطوير مناهج التعليم كانت غير صحيحة بناء على ما قرأه من رد الوزير ، ختم حجازى مقاله بالحرف الواحد قائلا :

« ويظل فى بيان السيد الوزير شيئ لم أستطع أن أقتنع به ، وأطالب الوزارة بأن تعيد النظر فيه ، وهو المتصل بغزوات الرسول التى اتفق فيها بيان الوزير مع ما ذكره بعض الكتاب، إذ جاء في البيان أن التلاميذ المصريين يدرسون غزوات بدر ، وأحد ، و الخندق ، وفتح مكة ، ولايدرسون بقية الغزوات تخفيفا عليهم . فمما يلفت النظر فى هذا التخفيف أنه حذف من المنهج كل المعارك التى وقعت بين النبى صلوات الله وسلامه عليه وبين اليهود . ولو ذكر بعضها وترك بعضها لكان التوازن واضحا ، وكان التخفيف غير مثير للشبهات ! صحيح أن هذا التعديل معمول به منذ ثلاث سنوات ، ولكن هذا لا يعفى الوزارة من إعادة النظر فيه . »

وعاد للرد على الوزير الدكتور مصطفى محمود (٣) قائلا :

---

(١) د. حسين كامل بهاء الدين (وزير التعليم) - لافتنة ولا تزوير - جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ - ٤ - ١٩٩٣

(٢) أحمد عبدالمعطى حجازى - خدعوك فقالوا - جريدة الأهرام بتاريخ ٢١ - ٤ - ١٩٩٣ .

(٣) جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ - ٤ - ١٩٩٣ .

«ما كنت أحب أن أعود إلى ذلك الموضوع المؤلم موضوع التطوير الذى هو أقرب إلى التزوير في مناهجنا التعليمية .. لولا أن أولياء الأمور جاءوا إليّ بكتب أولادهم . وبناتهم ، وقد خططوا ملاحظاتهم على الصفحات هنا وهناك .. وهى ملاحظات تخالف ماكتبه السيد الوزير فى مقاله ..

قال السيدالوزير أن الغزوات الاسلامية التي شطبت من المناهج كان شطبها من أجل التخفيف على الصغار من تلاميذ الصف الثانى الاعدادى فقط .. والحقيقة أنها شطبت من كتب الصغار والكبار ، وتجاوزت كتب الاعدادى إلى الابتدائى والثانوى .. والسؤال الأهم : لماذا جاء الشطب فى معارك النبى عليه الصلاة والسلام ، وانتصاراته على اليهود .. فى خيبر وبنى قريظة.. وبنى النضير .. وهى جزء هام من التاريخ الاسلامى ويؤصل الصراع العربى الاسرائيلى ويبين جذوره .. وهل يكون الاختصار فى الحشو أم فى الأصول .. ولماذا الشطب فى هذه النقطة بالذات ؟؟!!

وقال السيد الوزير فى مقاله : أن مركز تطوير المناهج لم يتعرض لكتب الاعدادى ، والثانوى وهو اعتراف ضمنى بأنه تعرض لمناهج الابتدائى.. ولكننا نصحح معلومات السيد الوزير ونقول له بل تعرض أيضا لمناهج الاعدادى ، الصف الأول والثانى أيضا ونقول له افتح كتب التاريخ فى هذه الصفوف ،وانظر الى الصفحة رقم ٢ واقرأ البادج أسفلها ، والمكتوب فيه .. أجاز هذا الكتاب مركز تطوير المناهج.

والسيد الوزير يعلم جيدا حكاية هذا المركز الذى يعمل فيه فريق أمريكى من الخبراء برئاسة د . جيرالد فيرس ، وعضوية د . بيتر نويمان ،ود. جوان كابرود ، ود. ديفيد بتس ، ود . ايفرت كيتش ،ود ليندا لامبرت ، ود. كارولينا .. وأنه قام بمراجعة سبعين كتابا فى مختلف المواد الدراسية .. وأن مديرة المركز السيدة كوثر كوجك - التى خرجت علي المعاش لتتولى إدارة هذا المركز - قد انفقت من المنحة الأمريكية ثلاثين مليونا من الدولارات ، وأعطت لنفسها خمسة آلاف جنية مرتبا شهريا من هذه المنحة بالاضافة إلى معاشها .. وأن الجهاز المركزى للمحاسبات يحقق في هذه المخالفات المالية . هناك إذن فريق من المنتفعين وراء هذا المركز وما يقوم به من تطوير وتزوير وهناك تقرير مفصل أمام السيد الوزير بهذا الدور المشبوه وبهذه المخالفات . ولم نكتب ماكتبناه من فراغ .. وإذا أراد السيد الوزير مزيدا من التفاصيل يمكننا أن نفتح باقى الدوسيه .

وللحق نقول أن ما حدث من أمر هذا المركز لم يحدث فى عهد السيد الوزير بل بدأ فى عهد الوزير الذي سبقه .. ولكن السيد الوزير أراد أن «يكفى على الخبر ماجور»، فقال فى مجلس الشورى فى جلسة الأحد ١١ /٤ /١٩٩٣ إن دور الأمريكان اقتصر علي تحديد المقاس الأنسب للصور ، وعدد الأسطر وبنط الحرف .. بقى ده معقول ياسيادة الوزير؟ بنط ايه ، وحروف ايه ..

وهل يدفع الأمريكان ٥٧ مليون دولار من أجل تغيير مقاس الصور وبنط الحروف، ويحشدون كل هذه الأموال ، والدكتوراهات والخبرات من أجل هذا الهدف العبيط .. بل كان الموضوع أكبر من ذلك بكثير .. وكان المطلوب تغيير عقل أولادنا ، ومحو ذاكراتهم ، ومحو فترات بعينها من تاريخهم ، ودفع الملايين من الرشاوى في مقابل ذلك .. والحكاية واضحة ، وهناك تقرير مكتوب بهذا الموضوع بين أيدى المسؤلين.

ولانشك ياسيادة الوزير فى غيرتك ولا فى وطنيتك .. وأنك سوف تبادر بغلق هذا المركز المريب .. فلا أحد فى مصر ولا أنا ولا أنت يريد أن يعود ببلادنا إلى عصر دنلوب ، وعصر الوصاية الأجنبية على ما يقرؤه أولادنا ، وما لا يقرءونه .

وقد فعلوها فى أبو ظبى ، والامارات فقاموا بشطب كل الآيات القرآنية ، وكل الأحاديث النبوية من كثير من كتب الأطفال والأولاد وبذلك تم تقشير هذه العقول الغضة من دينها ، ومن عروبتها وأصبحت الآن تتعلم ما يريد الأوصياء الأجانب الجدد أن يتعلموه .

وهم يحاولون منذ سنتين أن يفعلوا فى مصر نفس الشىء .. لكن مهمتهم ستكون أصعب بفضل يقظة أمثالكم .

ولماذا نحرص على غسل الأيدى الأمريكية من أى شبهة بينما الواقع يقول إنها شريكة فى كل صنوف التآمر على المنطقة ..ومن أين تلقى الارهابيون أوامرهم بضرب السياحة ؟ ألم يعترفوا بأفواههم أنها أوامر الشيخ عمر عبد الرحمن ؟! وأى بلد يأوى الشيخ عمر عبد الرحمن ويقوم بتلميعه فى أجهزته الاعلامية ؟ أليست هى أمريكا التى أخذته في أحضانها وأعطته البطاقة الخضراء ووضعته على شاشات تليفزيوناتها خمس مرات كل يوم ليقول أن النظام فى مصر كافر ، وأن رئيسها كافر ، وأن السياحة كفر، وضلال ، ويستحق العاملون عليها القتل ؟

وأنت ترى تلك الاذاعات وتسمعها على شاشات ال CNN كل يوم وأنت تعلم - ولا شك- بالتحقيق الذى يجرى فى تكتم شديد حول اللقاءات السرية التى تمت بين بعض قيادات الارهاب . وبعض أفراد السفارة الأمريكية .. وأنت تعلم أن أمريكا هى التى زرعت الخنجر الاسرائيلى وسط المنطقة العربية ، وهى التى سلحتها ، وساندتها بالمليارات ، وأيدتها بالصوت العالى فى الأمم المتحدة ، ودافعت عن جرائمها بالفيتو ، وصنعت لها ترسانتها الرهيبة من القنابل النووية ، والميكروبية والكيماوية ثم اتخذتها مخزنا لفوائض أسلحتها.. وحرمت على أى دولة عربية أى معلومة أو حتى شبهة تفكير فى سلاح نووى ..

وهذه هى أمريكا ياسيادة الوزير .. فكيف يخطر ببالك أنها تحشد ٢٩ من خبرائها وعلمائها، ودكتوراهاتها ، وملايينها فى مركز تطوير المناهج من أجل تغيير مقاس الصور وبنط الحروف ؟!

لاياسيادة الوزير .. ليس إلى هذه الدرجة يكون حسن النوايا .. وفى موقع حساس وخطير

مثل الموقع الذى تحتله كوزير للتعليم فى بلدنا ، من حقنا عليك أن تعيد النظر فى جميع أحكامك الخاصة بهذه القضية . مع تحياتى »

هذا ما حدث فى التعليم فى مصر فى العقد الأخير من القرن العشرين فى ظل وزيرين من كبار أساتذة جامعة القاهرة هما الدكتور فتحى سرور ثم الدكتور حسين كامل بهاء الدين . وهما من أبناء ثورة ٢٣ يوليو فكرا واشتغالا بالسياسة ، ولكن طاغوت الاستعمار الأمريكى والغزو الثقافى الصهيونى حلقة فى سلسلة الصراع بين الإسلام وبين أعدائه ، والمناخ الذى يعيشه المجتمع فى الاعتماد على القوى الاستعمارية السائدة فى العالم يختلف عن المناخ الذى يعتمد فيه المجتمع على تنمية ذاتية وقوة ذاتية . ومن هنا يختلف دور الخبير الأجنبى من عصر إلى عصر . ويختلف تأثير البعثات والمبعوثين إلى العالم المتقدم من عصر ناهض متوثب إلى عصر مقلد يستجدى التطوير والمساعدة .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء (١) : « طلاب البعثات العلمية الأولى على عهد محمد على فى النصف الأول من القرن الماضى كانوا جميعا ممن تخرجوا فى الأزهر الشريف وعادوا من أوربا جنودا فى كتائب اليقظة لا مبشرين بالانسلاخ الفكرى من قوميتنا والـــولاء للفرنجـــة ومنهم كان النظار والأساتذة بالمدارس العليا للألسن والطب والصيدلة والهندسة والعلوم العسكرية و البحرية والزراعة والمساحة وسائر المدارس التى عمرت بها ديار مصر فى الوجه البحرى والصعيد ، وفى عهده أنشئت مطبعة بولاق وطبعت بها مترجمات العلوم .وفى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٠ هـ ٣٠/ ٨ / ١٨٣٤م صدر أمر عال بتشكيل المجلس العالى للتعليم برياسة عبدى بك شكرى أحد رجال البعوث وعضوية اثنين من العلماء يرشحهما شيخ الجامع الأزهر واثنين من أعضاء مجلس التجارة يرشحهما النقيب واثنين من ذوى الخبرة يختارهما رئيس الديوان واثنين مندوبين عن كل مديرية من مديريات مصر ينتخبهما الأهالى .. وانتصف القرن الماضى وليس فى مصر غير مدارسها القومية ومدرسة واحدة لأبناء الطائفة الأرمينية تابعة للبطريركية الأرثوذكسية وأربع مدارس لتعليم ذرارى الجاليات الأوربية بالقاهرة والاسكندرية .

فلنتابع ما طرأ علي الموقع التعليمى فى النصف الثانى من القرن الماضى ابتداء من سنة ١٨٥٤ م أيام سعيد باشا ، وصل المرسلون الأمريكيون لأول مرة وفتحوا مدرستهم بالأزبكية وسط العاصمة . وعلى أثرهم أسست ارسالية الفرير مدرستين : سانت فام للبنات وسان جوزيف للبنين .

وابتداء من سنة ١٨٥٦ م فتحت الارسالية الأمريكية المدارس الانجيلية فى الدلتا

---

(١) د. بنت الشاطىء - الفكر الاسلامى والتحضير للعالم الجديد - جيل الشتات الفكرى - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٢ - ١٩٩٣ .

والصعيد ، والارسالية الايطالية ومدارس الراهبات الفرنسيكان ، ثم أنشئت مدارس ملية على غرار مدارس الارساليات منها (مدرسة تلمود) للطائفة الاسرائلية بحارة اليهود بالعاصمة سنة ١٨٦١ م.

وفى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) كان الانفتاح الواسع على أوربا والامتيازات الأجنبية والاحتلال الاقتصادى لمصر بصندوق الدين، وفى عهده أنشئت اثنتا عشرة مدرسة أهليه مقابل ثلاث وأربعين مدرسة أجنبية للبنين والبنات غير مقصورة على تعليم ذرارى الجاليات الأجنبية بل مفتوحة لأبناء المسلمين .

كتب شاهد المرحلة أمين سامى باشا فى تأريخه للتعليم بمصرفى عصر اسماعيل : (ولم تنتشر المدارس الأجنبية إلا من عهده، وأول مدرسة فتحت بالأقاليم مدرسة الارسالية الأمريكية بأسيوط ، قبل أن تمد إليها السكك الحديدية بسنتين ، ثم انتشرت فى أنحاء القطر وفتح فى وجه خريجيها مكاتب البوستة وفروع المصالح والمحال التجارية ووظائف المترجمين فى القنصليات والمحاكم المختلطة والبنوك وغير ذلك . وزين للموسرين من المتعلمين فيها حب الميل إلى التماس حماية الدول الأجنبية فرغبوا فى ذلك ولم يخضعوا للقوانين المصرية.وفى عهد ابنه الخديو توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) كانت الثورة العرابية واقتحام عسكر الانجليز مصر لاخمادها بعد أن وطأ الغزو الفكرى للاحتلال الانجليزى لمصر مع تبعيتها الإسمية لدولة الخلافة العثمانية .

فى السنة الثانية من ولاية توفيق ، صدر أمره العالى فى ٢٨/ ٣/ ١٨٨١ م بتشكيل (المجلس العالى بنظارة المعارف) برئاسة ناظر المعارف واشترك فيه السادة الأجانب الأعضاء باسمائهم :

مدير صندوق الدين و السكرتير العام للمراقبة ورئيس عموم أركان الحرب وناظر المدرسة الطبية وناظر مدرسة المعلمين ومدير أملاك الميرى وناظر مدرسة الحقوق وناظر مدرسة الفنون والصنايع وناظر المدرسة العلية وناظر الكتبخانة الخديوية والمدرس الأول للفرنسية بمدرسة الألسن.

وفتحت فى عهد توفيق تسع وثمانون مدرسة للارساليات التبشيرية والبعثات العلمانية مقابل إحدى وثلاثين مدرسة أهلية ، وسجل الاحصاء لسنة ١٨٨٤ م أن نسبة التلاميذ المصريين فى المدارس الأجنبية ٥٢ فى المائة . ثم أُدْخل على برامج المدارس الوطنية التعديل التالى :

فى التعليم الابتدائى : صدر المنشور بتاريخ ١١/ ١١/ ١٨٨٨ من نظارة المعارف إلى جميع المدارس الابتدائية يقضى بحذف حصص القرآن الكريم المقررة على السنتين الثالثة والرابعة وأن تكون دراسة الأشياء فيهما باللغة الأجنبية وأن تدرس الجغرافية فى حصتين بالسنتين الثالثة والرابعة حصة باللغة العربية وحصة بلغة أجنبية .

(المدارس الثانوية) جاء فى المنشور بشأنها ما نصه :

«إن تعليم اللغات الأجنبية لها فى هذا العصر من الأهمية مالا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت إلى الآن بالنتائج المطلوبة ، وليس لتقصير من المعلمين فانهم فى الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف حتى تكسب التلامذة ملكة استعمالها ويسهل عليهم التكلم بها . وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر. فلتلافى هذا الأمر بقدرالإمكان تقرر أن العلوم الجارى تدريسها الآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعد بمدارس اللغة الأجنبية الفرنسية أو الأنجليزية فإذا درس التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية وضم هذا إلى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود، هذا ويناط تعليم اللغات الأجنبية بمدرس فرنسى وانجليزى ذى أهلية نظرا لكونها لغتهم الأصلية».

هكذا هيمن النفوذ الأجنبي علي أجهزة التعليم الرسمية والمؤسسات الثقافية الكبري وفتحت ثغور وطننا للإرساليات التبشيرية والبعثات العلمانية من كل جنس وملة ، تتلقي أفواجا من أبناء الأمة في مرحلة التنشئة والتوجيه لتخرجهم غرباء في وطنهم لسانا وفكرا ووجدانا ومزاجا، قد برئوا تماما من عقدة مقت الفرنجة وأبدلوا بها عقدة الشعور بالنقص من قوميتهم ، وعز علي هؤلاء الغرباء أن يلتقوا فيما بينهم إذ توزعتهم مدارس الليسيه واليسوعيين والإ نجيلية والأمريكية والفرير وسان جورج والتلمود وفيكتوريا ، ومدارس البنات الإنجيلية الأمريكية والقلب المقدس وأم الاله والراهبات الفرنسسكان وسيدة الرسل . فضلا عن أن يلتقوا بإخوة لهم وأقارب وجيران تلاميذ المدرسة الإسلامية ومعاهدها الدينية المحصنين بمناعة ضد بضاعة الفرنجة ، وأزيحت المدرسة الإسلامية عن موضعها الأول في التربية والتثقيف والتوجيه . وبدأ العمد إلي ترسيخ الطبقية الثقافية ليقود الحياة الفكرية والإجتماعية والوجدانية للأمة ، أخلاط المتخرجين في مدارس الفرنجة ودونهم طبقة المتخرجين في المدارس المصرية التي عدلت مناهجها في عهد الخديوي توفيق ، ومن دونهم طبقة أبناء المدرسة الإسلامية أشبه بمنبوذين علي هامش الحياة الحديثة . وبقدر ماحطت الرجعية بكل ثقلها علي الجامعة الإسلامية ، حط الإستعمار بأشد وطأته علي جامعتنا الحديثة، فكانت للأجانب علي عهدي بها أكثر كراسي الأستاذية في كلية الحقوق التي يتخرج فيها رجال السياسة والقضاء والتشريع وكلية الآداب التي تدرس شخصية الأمة في لغتها وآدابها وتاريخها وفلسفتها وتراثها وآثارها وما تلقت وتتلقي من روافد فكرية وثقافية شرقية وغربية قديمة وحديثة . وظاهرت هذا الغزو لحصوننا الفكرية مؤسسات ثقافية أجنبية - كمؤسسة فرنكلين - بأجهزة إعلامها المدربة وعصريتها الخلابة وخزائن مالها الغنية السخية .

وطرأت علينا المذهبيات المحدثة فازدادت أزمة الغربة بين جيلنا ، حدة وتعقيدا . وبهذا الجيل من المثقفين الغرباء كان التحضير لمرحلة ما بين التقسيم والكارثة فما بعدها ، وفيها انسحب الأجانب من المواقع المكشوفة للغزو الفكري وتركوا الميدان لتلاميذ من مريديهم حملوا ويحملون إلي

فكرنا المعاصر بضاعة الإسرائيليات ومفرزاتها ، تعاطاها الناس في غيبة الوعي التاريخي وغفلة عن الذرائع الماكرة والأقنعة والأزياء المتغيرة .

وجدت علي وجودنا المعاصر عوامل التغيير فأشرفت وزارة المعارف علي المدارس الأجنبية ، فاستبدل بعضها باسماء فيكتوريا وكلية البنات الأمريكية ، أسماء مدارس النصر وكلية رمسيس وبقيت بمبانيها الفخمة ومناخها وسمتها ورموزها تغض من مدارسنا المتواضعة، كما بقيت معاهد الجزويت والليسيه وأم الإله تخرج طبقة متميزة مؤهلة للمناصب القيادية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وتتابع التحضير لتحديات العالم الجديد بجيل أفدح شتاتا وتمزقا ، يرسخ طبقية عصرية علي المستوي الوطني والاقليمي والدولي والعالمي .»

منظمات وحركات التحريف والتشويه وقتل روح الإسلام:

تتناول كتب تاريخ عصر الخلفاء الراشدين ، وهو العصر الذي يلّي عصر النُبُوَّة ، حكاية عبد الله بن سبأ وحكاية جماعته الفكرية المسماة بالسبأية نسبة إليه . وتقول الروايات التي ذكرها الطبري أن عبدالله بن سبأ كان يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، لذلك يسمي أحيانا بإبن السوداء . وأنه أعلن إسلامه زمن سيدنا عثمان . ثم تنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم ، ثم استقر في مصر يقول للمسلمين (وأعتقد أن جمهورهم كان من جند الفتح ، فمن غير المعقول أن يكون بعض المصريين الذين أسلموا فور حدوث الفتح يمثلون رأيا عاما فيما يقول عبد الله بن سبأ) أن علياً وَصِّيُّ محمد ، وأنه أولي بالخلافة ، ويقول لهم انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن علي أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوا إلي هذا الأمر . وتمضي الروايات المتعددة في شأن عبدالله بن سبأ بأنه كان يريد إفساد دين المسلمين ، وأنه أول من أظهر الطعن علي أبي بكر وعمر وعثمان ، وأنه وَالَي سيدنا عليّ . وأن سيدنا عليّ أَرَادَ قَتْلَه لمَا وَجَدَ في قوله من غُلُو ، ولكن أصحاب سيدنا علي اعترضوا فنفاه إلي المدائن . وكان عبدالله ابن سبأ يقول أن عليا وصي الرسول صلي الله عليه وسلم ، كما أن " يوشع بن نون " وصي موسي . وظهرت فرقة السبأية كأول منظمة للغزو الفكري والثقافي ضد الإسلام . ومن الغريب أن بعض المستشرقين يجتهد في إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ ، تماما كما تُصْدر الأمم التحدة في أواخر هذا القرن العشرين قرارا بالغاء قرار سابق يَنْعَتُ الصهيونية بالعنصرية . !! برغم أن الكيان الصهيوني واليهودي المعاصر يقوم علي أساس عنصري شديد التعنت والتعصب .

ومن الباحثين من يربط الإسرائيليات التي بدأت منذ إنطلاقة الإسلام وعصره الأول بنوادي " الروتاري" "والليونز" القائمة في أواخر القرن العشرين ، بديلا عن الماسونية التي تُعَد أبرز المنظمات

(١)محمد الشاذلي – الماسونية ، عقدة المولد وعار النهاية – الطبعة الثانية – مكتبة وهبه – القاهرة – ١٩٩٠ ص٢٩،ص.٣٠

ويوثق الشاذلي في كتابه عن الماسونية توثيقا تحليليا مقولات إخوان الصفا ، الفرقة السياسية الفلسفية المعروفة في التاريخ الإسلامي بالشيبة والريبة ، ويبين الرابطة بينها وبين أقوال أحد أقطاب الماسونية ، هو الإنجليزي "أرثر إدوارد " في القرن العشرين الميلادي ، علي النحو التالي :-

عبارات آرثر إدوارد	عبارات إخوان الصفا
- تشتتوا فى أماكن عديدة حيث طردتهم مؤامرة الأحداث المشئومة .	- تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان.
- أولئك الآتون من المنفى مُمَثَلاً فى مصر وبابل .	- حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق فى البلاد فى مملكة صاحب الناموس الأكبر.
- وجوههم متجهة إلى المدينة الروحية «أورشليم» التى فوق .	- وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء .

ويعلق الشاذلي علي ذلك بقوله : نفس الألفاظ ، وفي لغتين مختلفتين : العربية والإنجليزية . وبين النصين عشرة قرون !!

هذه الحركات والمنظمات والظواهر لاتتوقف ولاتهدأ منذ ظهور الإسلام ، حتي يومنا المعاصر، وحتي غدنا القادم . وهذه النماذج التي نقدمها ترتبط بالسابق واللاحق في هدف محوري مستمر هو محاولة قتل الروح الإسلامية . وهذه النماذج تدور مثل الدوَّامات في بحر الغزو الثقافي الموجه إلي المجتمع العربي المعاصر ، تختفي وتظهر وتبرز في مكان أو تكثر فيه كما تتشكل فى زمان مختلف عما تشكلت فيه . ولكنها تحمل من السمات والخصائص ما يجمع بينها ويربطها برباط ما . ونتناول أظهرها وأهمها بغير إفراطٍ وبغير تقتير في آن واحد .

العَلْمَانيَّةَ أو الدُنْيوِيَة :

تشيع فى حياتنا الفكرية وحياتنا السياسية نحن العرب ونحن المسلمين مقولة تزعم أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية ليست لديها صِلَة بموضوع العلمانية بحجة أن العلمانية ظهرت فى مجتمعات أوربية كرد فعل لسيطرة الكنيسة ، وهيمنتها ، وفى ظروف نهضة ما كانت لتتحقق لو ظلت الهيمنة الكنسية على حياة الناس . ونتيجة لذلك ظهرت العلمانية لِقَصْر النشاط الدينى داخل

مجتمعاتنا العربية والإسلامية ليست لديها صلة بموضوع العلمانية بحجة أن العلمانية ظهرت فى مجتمعات أوربية كرد فعل لسيطرة الكنيسة ، وهيمنتها ، وفى ظروف نهضة ما كانت لتتحقق لو ظلت الهيمنة الكنسية على حياة الناس . ونتيجة لذلك ظهرت العلمانية لقَصْر النشاط الدينى داخل الكنيسة ، وممارسة أنشطة الحياة والتطور والتقدم على أسس دنيوية متحررة تماما من اللاهوت وأن يبقى التدين للأفراد، بعيدا عن القوانين والنظم والمؤسسات التى تشكل هيكل الدول ، والتى تشكل قواعد الحياة .

هذه المقولة الشائعة فى حياتنا عرباً ومسلمين بنَفْىٌ الصلة بموضوع العلمانية . والمقولة بأنه موضوعٌ مُقْحمُ على حياتنا الفكرية وحياتنا السياسية ، ليست صحيحة .. وواقع التاريخ يُؤكد غزونا بالعلمانية كُرْهاً ، ويُؤكد أن توجيه النظر إلى ظروف نشأة العلمانية تاريخيا فى أوربا ، وبالتأكيد على أوجه الإختلاف بين هيمنة الكنيسة ، وفلسفة الهيمنة الكنسية ، وبين عدم وجود هذه الهيمنة من المسجد ، وأنه لاكهنوت فى الإسلام ومن ثَمَّ ليست لدى العرب فى عالمهم المعاصر مشكلة عَلْمَانيةً ، هذا الطرح ، وهذا التوجيه للنظر بعيدا عن طبخة العلمانية أسلوب من أساليب الغزو الثقافى بصرف النظر عن الخطر حتى يتم تحقيق الهدف ، دون مقاومة ، بل دون إدراك . !!

وليس أمامى منْ خيار إلا أن أبْدَأ بمناقشة مُصْطَلح ومفهوم العلمانية قبل النظر فيما وقع للبلدان الإسلامية والعربية من جرائها ، وفيما وقع للفرد العربى والمسلم من فتنتها .

أول من صَكَ مصطلح العلمانية secularism الكاتب الانجليزى هوليوكHolyoake فى صحيفة The Reasoner عام ١٨٤٦ (١) .

وفى لغتنا العربية المعاصرة نجد روايتين لتحديد أول استعمال لها، الرواية الأولى تقول أن أول من أدخل هذه الكلمة - وكتبها هكذا - عالمانى وعالمانية - نسبة إلى العالم - كمقابل لله والدين والمقدس - هو أحد المترجمين عن الفرنسية ، ويدعى الياس بقطر المصرى . والذى عمل مترجما للحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨ - ١٨٠١) والذى رحل إلى فرنسا حيث عمل مدرسا للعربية العامية بمدرسة اللغات الحية بباريس . وكان الياس بقطر هو أول من ترجم هذا المصطلح عن الفرنسية عند ترجمة المعجم الفرنسى إلى العربية سنة ١٨٢٨. (٢)

---

(1) G.M. young - portrait of an age victorian england - second edition - oxford university press london 1953 p. 36 . The term secularism was invented by Holyoake and first appears in hes paper The Reasoner 1846 The Badge secularism was the defence of sabbatarian restriction

(٢) الدكتور محمد عمارة - الاسلاميون والعلمانيون - جريدة القدس العربى العدد ٢٧٩ بتاريخ ٢٣ - ٣ -

ولكن الشيخ عبدالله العلايلى أستاذ علم اللغة اللبنانى يقول : « العلمانية وضعت بادئ ذى بدء فى أواسط القرن التاسع عشر فى مقابل كلمة secularism الإنجليزية و laicisme الفرنسية. وكان أسبق الواضعين (لعله يقصد المترجمين) لها اللغوى التركى شمسى. واقتبسها عنه المعلم بطرس البستانى فى معجمه محيط المحيط. كما تبناها الدكتور خليل سعادة فى معجمه الكبير الإنجليزى - العربى ، وشاعت شيوعها الكبير بين الناس بكسر العين وهو خطأ فاحش ، إذْ لا علاقة للأصل اللاتينى بالعلم من قريب أو من بعيد ، وإنما صحتها بفتح العين وتسكين اللام ، بمعنى العالم الدنيوى ، ذلك بزيادة الألف والنون. وبتأصيل هذه الكلمة صَرَّفُوها تصريف المَزيدمن الأفعال، أو الملحق بالمزيد فقالوا عَلْمَنَ السلطة أى جعلها بأيدى العامة ، وهذا متفق مع الأصل اللاتينى لأن ال laicisme تعني الإشاحة عن الإنتساب إلى فئة الكهنوت ، فهى مُفَرَّغَة من أى محتوى إيجابى ، وأعنى خلواً من أى مفهوم معتقدى ، ولذا درج الباحثون الإجتماعيون على مصطلحي العلمانية المؤمنة والعلمانية الملحدة ، وساعدهم على هذا أنها بنفسها وضعا واستعمالاً لا تشتمل على محتوى معين (١) .

وقد وجد بعض الكتاب المسلمين أن كلمة الدنيوية أكثر صوابا لمفهوم كلمة secularism الانجليزية ، كما وجدوا أن مصطلح الدنيوية يبعد أى لبس لكسر العين فى كلمة العلمانية فتصبح منسوبة إلى العلم وذلك مجاف لحقيقة كلمة Secularism وذكر الكاتب الاسلامى المصرى فهمى هويدى (٢) أن الكُتَّاب في باكستان هم الذين ترجموا الكلمة الإنجليزيةsecularism بالكلمة العربية "دنيوية" ، وهم الذين أدخلوا الكلمة العربية في لغتهم الأردية ، واعتبرت الدنيوية من الكلمات العربية المستقرة في اللغة الأردية . وقد زكي فهمي هويدي تعبير الدنيوية واعتبره الأكثر صَوَابا ، لأنه يحدد بدقة إطار الدعوة المطروحة ، التي تقوم أساسا علي فَصْل الدين عن الدنيا . كما أنه يزيل لبسا يقع فيه كثيرون ، حينما يتوهمون أن العلمانية مشتقة من العلم ، بينما هي تخريج من العالَم -بفتح اللام - الذي هو بخلاف الديني أو الكهنوتي . وذكر فهمي هويدي أن الكلمة الفرنسيةlaique تُعَبِّر عن معني العلمانية . وهذا خطأ اقتنصه الكاتب المصري أحمد بهاء الدين (٣) اقتناصاً يزيد الأمر وضوحا فقال :

" لقد بدأ الزميل فهمي هويدي حديثه قائلاً :فلنبدأ بالتصحيح!. وبالتالي فليسمح لنا أن نبدأ

---

(١) أحمد حاطوم - العلمانية - مجلة الناقد - فبراير ١٩٩٠ نقلا عن مجلة آفاق (البيروتية) يونية ١٩٨٧ م.

(٢) فهمي هويدي - العنف ليس إسلاميا -جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٧/٥/٢٦ .

(٣) أحمد بهاء الدين - يوميات - جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٧/٦/١٢ .

الحرفي "الزمنية" وقد ترجمها اللبنانيون إلي «العلمانية" » نسبة إلى «العالمانية» لا إلى العلم ، ونقلت محرفة فى مصر إلى علمانية ومعناها الاصطلاحي السياسى هو فصل الدين عن الدولة. أما كلمة laique الفرنسية ، أصلها الرومانى «لا يكوس» أى الذى ينتمى إلى الشعب وليس إلى الكهنه . وقد استخدمت وما تزال أساسا فى مجال التعليم ، بعد الثورة الفرنسية ، فوجد تعليم مدنى لأول مرة ، إلى جانب مدارس كنائسية ، كالجزويت والفرير ، وقاموس «لاروس» موجود فى مكتبات القاهرة . والكلمتان متقاربتان فى فصل الدين عن الدولة ليس بمعنى اللادينية الموجودة فى الاتحاد السوفيتى مثلا ، ولكن بمعنى فصل القرار السياسى عن المؤسسة الدينية ، فملكة إنجلترا هى رئيسة الكنيسة الإنجليزية . ولكنها لا تأمر وتوجه ناقلة رأى « الكنيسة » إلى البرلمان المنتخب من الشعب . والعملة الامريكية مكتوب عليها نحن نؤمن بالله In god we Trust ورونالد ريجان فى حملته الانتخابية الأخيرة كان يحمل الإنجيل ويخطب قائلا : إن فى هذا الكتاب حلا لكل المشاكل ، وعندما رشح جون كنيدى نفسه للرئاسة وكان أول رئيس كاثوليكى . اعترض كثيرون على رئاسته لأن كاثوليكيته ستجعلة يطيع أوامر البابا الكاثوليكي فى روما . الأمر غير الموجود فى البروتستنتينية ، وعقد جون كنيدى اجتماعا شهيرا مع ألف رجل دين بروتستنتي ، يشرح لهم أن مسيحيته وكاثوليكيته لا تجعله تابعا لقرارات البابا ، وأنه ملتزم بالدستور الأمريكى . فالترجمة الباكستانية الأردية غير دقيقة . »

هكذا أصدر الأستاذ بهاء حكما على ترجمة المصطلح بأنه خطأ دون حيثيات يطمئن إليها مترجم أو باحث . فواقع الطرح الذى طرحه الكاتبان يبين ببساطة وتعمق أن الدنيوية هى الترجمة الأكثر تعبيراً عن المُصْطَلح وعن المفهوم ، برغم شيوع وسبقْ كلمة العَلْمَانية .

وفى دائرة معارف العلوم الاجتماعية (١) نجد كلمة secularism تشغل نحو أربع صفحات من الحجم الكبير . تبدأ بالبحث فى أصول نشأة العلمانية فى أواخر العصور الوسطى فى غرب أوربا . وتسعى إلى محاولة تعريف العلمانية ، باعتبارها محاولة لإنشاء عالم معرفى مستقل بذاته وخال من المقولات الإيمانية والخارقة للطبيعة ، وتتناول الفروق بين اللاهوت الظاهر وبين اللاهوت الفلسفى،و استيعاب المنظور الإنسانى للمعرفة الطبيعية . وتستعرض آراء الفلاسفة فى العقائد الإيمانية ، وقبول المنطق أو عدم قبوله لها ، والاستنتاج القائل بأن المنطق يمكن أن يكون فعالا فى حيز التجريب وليس فى خوارق الطبيعة، وضرورة وجود خط يفصل ما بين عالم المعرفة المستند إلى المنطق الإنسانى وبين عالم الإيمان القائم على الهيمنة «الاكليركية».

(1) Encyclopedia of Social Sciences, Volume Thirteen, The macmillan Company , Newyork, P . ٦٣١ - ٦٣٤ .

وتقضى دائرة معارف العلوم الاجتماعية إلى القول بأن الاختلاف المتزايد بين الدين وبين البحث العلمى القائم على استبعاد الافتراضات الإيمانية قد مهد الطريق لتطوير العلم الحديث ، ولكن على الرغم من إسهامات عصر النهضة الأوربية فإن العلمانية أو الدنيوية لم تتقدم وتلقى الدعم المستمر إلا فى القرن السابع عشر . ثم تطور الإهتمام بالعلمانية فى القرن الثامن عشر إلى مطلب ملح وتجريبى للمعرفة بكل ظواهرها الملموسة . وكما تطور تفسير العلمانية أو الدنيوية فى المجال الفلسفى فإن المفهوم نفسه قد تطور فى المجال السياسى والاجتماعى وذلك بالخروج من المفهوم الذى يعتبر الدولة مؤسسة سلبية ، إلى المفهوم الذى يرى أن الدولة مؤسسة إيجابية ، ومصدر ثقة يعهد إليها بترسيخ الأوضاع الاجتماعية الضرورية . وهكذا بدت فكرة أن الدولة هى الوصية على الانسان وسعادته ورفاهيته ، بعد أن كانت الفكرة السائدة فى العصور الوسطى هى أن الكنيسة ، هى الوَصِّية على الانسان وسعادته . وهى التى تنظم وجود الانسان على الأرض ، ولها الأسبقية على الدولة ، ثم ركز ميكيافيلى فى كتابه « الأمير » على واجب الأمير بأن يحكم بأسلوب مستقل طبقا لمبادئه ، ثم ظهر النمط العلمانى الجديد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر المسمى بالتنوير وأصبحت فكرة أن الانسان باعتباره وحدة متماسكة يسعى وراء الأهداف التى تتطور وفق عوامل البيئة ، وانبثق من هذه الفكرة نمط من المبادىء والقيم ومجموعة من التشريعات والقوانين الصالحة لكل الشعوب ، ولكل العالم ، ولقيت هذه الخلاصة تأييدا فى النظريات الاجتماعية للقرن التاسع عشر، وبصفة خاصة فى محاولات الطبقة العاملة إقامة تنظيم يعمل على المستوى الدولى ويشمل البشرية جميعها .

وتختتم دائرة معارف العلوم الاجتماعية موضوع العلمانية أو الدنيوية بقولها : إن انتشار الإتجاهات العلمانية قد أدى الى التركيز على العناصر العملية فى الحياة التى تبتعد عن اللاهوت* والميتافيزيقا . كما ركز بعض الفلاسفة الواقعيين فى بحثهم على التجربة التى تحكمها مثالية الكنيسة ، ولكن جنبا إلى جنب مع هذه العلمانية الواقعية فهناك إتجاه أضاف إلى العلمانية عدداً من العناصر المثالية القديمة التى تتعلق بالدين وقد ظهر ذلك واضحا فى فرنسا حيث امتزجت الفكرة المثالية للسعادة الانسانية والاجتماعية كما صورها الأنبياء وكما صورها زعماء الثورة الفرنسية . ولم يكن هذا المزج موافقا لطبيعة ومزاج الطبقة البرجوازية (الوسطى) الفرنسية ، بل أصبح موافقا لمجموعات كثيرة فى بلاد مختلفة . حيث أقرت المجموعات البشرية الكثيرة بأن الانسان عليه أن يسعى بكل الطرق المستنيرة لإرساء العدالة الاجتماعية والرفاهية فى العالم . إن

* اللاهوت هو علم العقائد المسيحية ، وهو يختلف عن الفلسفة فى أنه يقوم على معطيات الإيمان ، فى حين أن الفلسفة تعول على العقل وحده.

هذا النمط من العلمانية إرتبط بالاجتماع والعلم ارتباطا وثيقا،و هكذا نمت العلمانية ووصلت الى ذروتها .

والباحث اللغوى أحمد حاطوم (١) اللبنانى يرى أن التسمية الصحيحة هى العِلْمانية بكسر العين لا بفتحها ، وهو يقيم حيثيات حكمه على أساس لغوى صِرْف . فهو يُفَنِّدَ مقولة الشيخ عبدالله العلايلى . وَيُفَنِّدُ قول القائلين بفتح العين فى الكلمة ، بأن لسان العرب شغلت مادة (ع ل م) فيه خمس صفحات ، وأنه لم يعثر على أى أثر ل "العلم" المفتوح العين الساكن اللام بمعنى العالم الدنيوى المقابل للعالم الدينى . ويقول أنه يرى ، بكل بساطة ، أن كلمة علْمَانية هى نسبة مزيدة بالألف والنون إلى كلمة عِلْم المكسورة العين . وإنها نموذج من نماذج النسبة التى منها على سبيل المثال : روحانى ، جسمانى ، عقلانى وما شابه ذلك ويشرح تَصَوُّرَه اللغوى بأن النسبة البسيطة المجردة فى اللسان العربى تتكون كلماتها بياء النسبة المعروفة على النحو التالى : روح + ى = روحى ، جسم + ى = جسمى ، عقل + ى = عقلى . ثم النسبة المزيدة وتتكون كلماتها من ياء النسبة المعروفة وألف ونون تزدادان على النحو التالى : روح + ان + ى = روحانى ، جسم + ان + ى = جسمانى ، عقل + ان + ى = عقلانى .

وَيَخلصُ أحمد حاطوم في بحثه إلى القول بأن كلمة العَلْمَانية بفتح العين منسوبة إلى كلمة واهية سابحة فى الهواء ليس لها جذر ثابت فى تربة اللسان العربى . وأن القول بولادة الكلمة من النسبة إلى العلم المكسور العين الذى هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة هو قول مُوَثّق .وأن إقامة العِلْمانية بكسر العين مصطلحا ومضمونا على العِلْم إقامة على أساس ثابت.

وهكذا أسرف الباحث اللغوى على نفسه وعلى استخدام علم الصرف ليثبت مفهوما بعيد الصلة بالترجمة لكلمة secularism التى هى أساس وجوهر المصطلح والمفهوم . ولكن بحثه اللغوى فى - رأيى - يبين أن كلمة دنيوية هى الأصوب ترجمة واصطلاحا ومفهوما لما أسميناه فترة طويلة فى لغتنا العربية بالعلمانية بكسر العين أوبفتحها .

وعندما نتجاوز إجلاء المصطلح ، وتحديد مفهوم الدنيوية ، نَقّلب صفحات التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى الحديث لُنبصِّر كيف استبدلت الدنيوية بالإسلام ، أو على أقل تقدير بالنظام الإسلامى .

كانت تركيا مقر دولة الخلافة العثمانية وكانت عاصمتها هى عاصمة الدولة الكبرى . وعندما تدهورت أحوالها كانت تركيا أول دولة إسلامية تتحول من النظام الإسلامى إلى النظام الدنيوى أو العلمانى . فكيف تم ذلك عام ١٩٢٤ ؟ بعد أكثر من ستين عاما زار فهمى هويدى

---

(١) أحمد حاطوم - العلمانية بكسر العين لا بفتحها - مجلة الناقد بتاريخ فبراير ١٩٩٠ .

استنبول عام ١٩٨٦ وكتب يقول (١) .

فى استنبول سعيت إلى لقاء بعض المخضرمين الذين عاشوا التجربة الكمالية وقلت لهم إننى أريد أن أسمع منهم حقيقة ما جرى ، جميعا تحفظوا على الفور . وقالوا إن القانون التركى يسمح بالتعرض بالنقد والتقييم والتجريح للذات العلية ، وللرسل وللكتب السماوية ولأى شىء مقدس ، باستثناء رمز واحد هو : شخص كمال أتاتورك .

ليس هذا فقط ، بل إن ذكر الإسلام أو الشريعة يُعّد من المحظورات التى يعاقب عليها القانون بالسجن ١٢ عاما ، والمشتغلون بالعمل الإسلامى يتحايلون على ذلك النص القانونى ، فلا يذكرون أمثال تلك الكلمات المشبوهة ولكنهم يشيرون إلى الإسلام والشريعة أحيانا ، بكلمة الحق أو وجدان الأمة (مللى شعور) وفى هذا الصدد يذكر أن نجم الدين اربكان، رئيس حزب الرفاة - وهو حزب إسلامى لم يجرؤ على ذكر صلته بالإسلام - سئل أثناء محاكمته عما إذا كان يعنى الإسلام أو الشريعة . بكلمة الحق التى يرددها أحيانا ، فكان رده أنه لم يقل بأنه يقصد المعنى الذى أشارت إليه المحكمة ، وأنه يحاسب على نص كلماته لا على تفسير المحكمة له .

وعندما ألححت فى الأسئلة ، اشترطوا على قبل أى حديث ألا يشار إلى أسمائهم . ونصحونى فى الوقت ذاته بالرجوع إلى كتابين - إن أردت التعرف على الوجه الآخر للصورة - هما: الرجل الصنم (أتاتورك) وهو من تأليف ضابط تركى مات منذ عام ١٩٨٤ حجب اسمه ووضع صفتة فقط على غلاف الكتاب ، خشية التعرض للعقاب أو الملاحقة من جانب الكماليين .

والكتاب يتداول سراً فى تركيا ، وقد ترجم إلى العربية فى السبعينات وطبع فى بيروت والكويت ، أما الكتاب الثانى فعنوانه هو : النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة (يقصد الكماليين) من تأليف شيخ الاسلام فى عهد السلطان عبدالحميد . الشيخ مصطفى صبرى. وقد طبع خلال الخمسينات فى القاهرة ، وصدر له نسخة محققة فى العام الماضى ١٩٨٥ م قدمها الدكتور مصطفى حلمى من جامعه الأسكندرية .

تشير مجمل تلك المصادر إلى أن مصطفى كمال - الذى أعطى لاحقا لقب أتاتورك أو أبو الأتراك - قدم نفسه فى البداية باعتباره منقذاً للخلافة وللأمه الإسلامية ، وفى بيان أصدره بمناسبة افتتاح مجلس الأمة التركى سنة ١٩٢٠ ، قال إن افتتاح المجلس المحلى فى يوم الجمعة هو من أجل الاستفادة من بركة هذا اليوم وباشتراك جميع النواب فى صلاة الجمعة بجامع حاجى بيرام سيؤخذ الفيض من نور القرآن والصلوات علي الرسول .. سيبدأ من الآن فى جميع أرجاء الوطن المقدس والجريح بقراءة القرآن والبخارى الشريف ، وستتلى الصلوات من فوق المنابر في يوم الجمعة

(١) فهمى هويدى - شهادات من أزمنة - الخلاص - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ -١١ - ١٩٨٦.

بعد الآذان . وعندما تتلى الأسماء السلطانية لمولانا وسلطاننا وخليفتنا ، فستتلى الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية ، ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته وتحقيق السعادة لهم فى أقرب وقت.

ولكنه بعد عامين فقط من هذا الكلام ، فى سنه ١٩٢٢ أعلن أن تجربته أثبتت إمكانية فصل السلطنة عن الخلافة ، وأن مجلس الأمة التركى يستطيع أن يمثل الحاكمية والسلطنة ، وبذلك تعود السلطة إلى الأمه .

على الفور شكلت لجنة لبحث الأمر ، وأعدت مشروع قانون الفصل بين الخلافة والحكومة ، وعندما طرح المشروع للتصويت ، اعترض مصطفى كمال على مبدأ التصويت ، قائلا أنه من الطبيعى أن يوافق مجلس الأمة بالإجماع على إعادة السلطة إلى الامة ، والحفاظ على استقلال الأمة والوطن .

كانت هذه الخطوة هى التمهيد الطبيعى لإلغاء الخلافة بعد ذلك فى شهر مارس من عام ١٩٢٤ بالقوانين الثلاثة الشهيرة ، التى حملت ارقام ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١- وينص أولها على إلغاء الخلافة وطرد الخليفة هو وأسرته من البلاد - وينص الثانى على إلغاء وزارة الأوقاف الشرعية- بينما ينص القانون الثالث على أن تلحق جميع المؤسسات العلمية والدينية بوزارة المعارف.

كان ذلك إيذاناً بميلاد الدولة العلمانية الجديدة التى بدأت هويتها تلك تتردد على مختلف الألسنة وفى مختلف المحافل ، وفى مذكرات على كليتج - أحد رجال أتاتورك -أن قضية العلمانية أثيرت فى اجتماعات مجلس الأمه ، فى حضور مصطفى كمال فقام أحد العلماء من أعضاء المجلس وقال ، إن الكل يتحدث عن العَلْمَانية ، ولكنني لا أستطيع فهم معناها على وجه التحديد .عندئذ قاطعه مصطفى كمال بحده وقال : إنها تعنى أن نكون آدميين ياشيخنا .. آدميون!

وبينما كانت الدعوة إلى العَلْمَانية تشتد ، فإن الحملة على الشريعة كانت تمضى معها فى خط مواز ، وكان مصطفى كمال هو الذى قاد تلك الحملة حيث بدأها بأن قال غامزا : إن الدين المتعلق بالضمير شىء ، والشريعة التى تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا عند القرن السابع الميلادى شىء آخر (لاحظ أن العبارة تردد بنصها الآن فى أوساط العلمانيين المتطرفين) ومما قاله أيضا : أن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا مطابقين لأحوال الزمان ، لا للمبادىء ولا للتقاليد ، أما وزير العدل فى حكومته ، محمود أسعد ، فقد هاجم الشريعة ووصفها بأنها قانون الصحراء ، وقال" إن الشعب التركى جدير بأن يفكر بنفسه دون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . فقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية تبدأ بكلمة قال المقدسة أما الآن فلا يهمنا أصلا ماذا قالوا فى الماضى ، بل يهمنا أن نفكر نحن ، وأن نقول نحن وقد شاعت فى أنقره آنذاك

عبارة تقول : لا نويك شرعا فيه قال وقالوا ، لكنا نريد شرعا فيه قلنا ونقول ».

هذه التظاهرة أفرزت القانون المدنى الجديد ، الذى جاء ترجمة للقانون المدنى السويسرى وكان هو البديل الذى حل محل الشريعة الاسلامية . وقد اعتبره أتاتورك تحقيقا للانتصار النهائى للكفاح فى سبيل المدنية فى عصر تأسيس الجمهورية ، وقال أن إقرار القانون المدنى وتنقية الدستور لصالح العلمانية (بحذف المادة التى تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام) هو بمثابة لبس التاج فى مراسم انتصار مبادئنا الثورية .

أراد الكماليون أن يتخلصوا (من الشريعة فترجموا كل ما أمكن نقله من مواد القانون السويسرى ، وقد واجهتهم بعض المشاكل الصغيرة فى هذا الصدد . إذ تبينوا - مثلا - أن القانون السويسرى يمنع الزواج بين الإخوة فى الرضاعة ، استنادا إلى اجتهادات الكنيسة الفرنسية، شأنه فى ذلك شأن الشريعه الاسلامية ، وقد عرضوا الأمر على أتاتورك الذى أغضبه هذا التماثل، مما دفع ناقلى القانون إلى الغاء الحظر ، والسماح للتركى بأن يتزوج أخته فى الرضاعة ، إمعاناً في رفض كل ما جاءت به الشريعة .

وألغيت كل مدارس التعليم الدينى ، وألغيت أعياد الفطر والأضحى لعدة سنوات . ومنع الآذان باللغة العربية حيث أصبح يؤذن بالتركية .

واستمر هذا الوضع حتى سنه ١٩٥٠أى بعد وفاة كمال أتاتورك . وألغيت عطلة يوم الجمعة وأصبحت العطلة يوم الأحد ، ومنع الحجاب ، فضلا عن أن القانون المدنى كان قد منع تعدد الزوجات ، وأباح زواج المسلمة بغير المسلم ، صدر قانون يمنع إرتداء الطربوش، الذى عد رمز الانتماء للدولة الإسلامية ، وتم استبداله بالقبعة ،التى كان الناس يعتبرونها لباس أهل الكفر ، لأن حافة القبعة تحول دون السجود فى الصلاة ، كما قرر أتاتورك إلغاء الحرف العربى واستبدل به الحروف اللاتينية ، وتم ذلك تحت شعار إتاحة الفرصة للناشئة الأتراك لأن يستفيدوا من علوم الغرب، ولتخليص الأتراك من إسار اللغة العربية ، ليكون انتماؤهم القومي صافياً ، كما كتب فالح رفقى ، أحد رجال أتاتورك ، ولكن القرار كان يعنى فى حقيقة الأمر ليس فقط قطع الصلة بين الأتراك وبين لغة القرآن ومنابع الثقافة الاسلامية ، ولكن أيضا إسقاط كل التراث الثقافى الإسلامى الذى نهل منه الأتراك معارفهم الدينية .

وكانت الذروة فى جنون أتاتورك للالتحاق بالغرب والتعلق به ، أن طلب - وهو على فراش المرض - من السفير البريطانى فى أنقرة أن يخلفه في حكم تركيا !!.. وهى المفاجأة التى أعلنتها صحيفة الصنداى تايمز قبل سنوات (عدد ١٤ فراير ١٩٦٨) عندما نشرت القصة ونقلت تفاصيلها ووثائقها المثيرة عن ابن السفير البريطانى الأسبق السير بيرسون ديكسون .

لقد تمت عملية التحول من النظام الاسلامى إلى العلمانية فى تركيا بالقوة المسلحة وبالبطش والقتل والسجن والتعذيب . واستمر ذلك لما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان .

يقول أحمد بهجت (١) :

« بعد ولاية كمال أتاتورك أصبح محـرما علي النـاس إرتداء ملابـس الشيـوخ ، وتم قهر الناس على لبس الملابس الإفرنجية بالقبعة .. وأعلنت علمانية الدولة .. وبدأ اضطهاد المشايخ ورجال الدين، وأصبح الهمس بالرغبة فى تطبيق الشريعة الإسلامية جريمة كبرى تتصل بأمن الدولة العليا ولها عقوبتها وهى الشنق .

وفى هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس ، كما حذفت كلمات الخالق .. والرب. والله جل جلاله من كتب المدارس ، ووضعت بدلا منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية .. كان الهدف هو محو مفهوم الاله ومحو فكرة الخالق من الأذهان ، وأصبحت النظرة إلى المتدينين تعتبر جماعة من الأفاقين الذين يعتقدون فى وجود شىء وراء الطبيعة .

سنة ١٩٣٢ نشرت فى أستانبول بتركيا دائرة معارف الحياة ، فماذا كتبت دائرة المعارف هذه. أو بمعنى أصح دائرة الجهالات . تحت كلمة لفظ الجلالة الله ؟

كتبت دائرة المعارف التركية فى عهد العلمانية تقول :" أن الفكرة التى تريد الأديان الموجودة حاليا أن تبثها هى أن الله واحد ، وأنه هو الذى خلق الكون ، ولكن التقدم العلمى بدأ يوضح لنا شيئا فشيئا أن هذه الفكرة باطلة ، وأنه لا وجود لشيء اسمه الله ، وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين أوساط المثقفين .. هذا ما كتبته دائرة المعارف التركية ، فى هذا الجو الكئيب كان الاسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل أجهزتها ».

كانت التجربة التركية هى التجربة الكاملة فى التحول إلى العلمانية أى الدنيوية ، وكان ذلك مشهودا أمام المسلمين وأمام العرب ، فقد تم ذلك فى ضحى وسائل الإعلام العصرية ، حيث كانت الكتب والصحف ووكالات الأنباء وكان الراديو . وتَمَ ذلك فى دائـرة انتبـاه العـرب لأنهم جميعا كانوا ضمن دولة الخلافة العثمانية . ولقد وعى الوجدان العربى هذه التجربة برغم انشغاله بمناهضة الاستعمار الأوربى لبلاده ، وترسبت فى أعماق هذا الوجدان ، وإن كانت الأقطار العربية قد تعرضت للغزو العلمانى أى الدنيوى منذ أواخر القرن الثامن عشر بحادثة الحملة الفرنسية على مصر ، ثم الاستعمار الأوربي لمعظم البلدان العربية ، في القرن التاسع عشر ، إلا أن التجربة

---

(١) أحمد بهجت - إنقاذ الايمان - جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٩٢ .

التركية هى التجربة الكاملة ، وما التجارب الأخرى إلا تجارب جزئية ، وبدرجات متفاوتة . فعند المقارنة بين حملات الغزو العلمانى التى تمت فى مصر وسورية من جانب ، والتى تمت فى تونس والجزائر من جانب آخر ، نجد أنها كانت أكثر عنفا فى المغرب العربى وأعمق تخريبا ، كانت الوسائل تتسم بالصليبية التقليدية ، مثل تحويل أكبر مساجد مدينة الجزائر إلى كنيسة ، وإحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، بل والقضاء على العربية من جذورها . وألغيت عطلة يوم الجمعة لتصبح الأحد . وفى أيام الاستقلال الأولى أعيدت الكنيسة إلى أصلها مسجداً فى ساحة الشهداء بالعاصمة الجزائر . ولكن عطلة يوم الأحد ظلت ما يقرب من عقدين من الزمان لتعود إلى يوم الجمعة.

وفى مصر يقول الدكتور محمد عمارة (١) : أمتنا على مدى ثلاثة عشر قرنا تُحْكَم بالشريعة الإسلامية . كيف تم الإختراق ؟ كيف أصبحت هناك ثنائية فى القانون ؟ كيف زاحمت القوانين الغربية شريعتنا الاسلامية فى مؤسسات الحقوق ، وفي مؤسسات القضاء ، وفى مؤسسات التشريع ؟ نحن نعلم جميعا أنه حتى عصر الخديوى إسماعيل لم تكن هناك علمانية ولم يكن هناك قضاء مدنى بالمعنى الغربى . ولم يكن هناك تشريع وضعى بالمعنى الغربى ، بعد افتتاح قناة السويس وزيادة الجاليات الأجنبية فى بلادنا نشأت المحاكم القنصلية التى يحتكم إليها المصرى والأجنبى إذا كانا طرفين فى قضية واحدة ، ويحكم فيها بالقانون الغربى . ثم جاءت المحاكم المختلطة فى سبعينات القرن التاسع عشر فنظمت هذه الفوضى القضائية وأصبحت المحكة المختلطة تحكم بالقانون الفرنسى بل وباللغة الفرنسية .

ثم جاء كرومر فصنع فى عام ١٨٨٣ ما سمى بالإصلاح القضائى وعممت القوانين الوضعية والقوانين العلمانية فى القضاء المصرى . إذاً هذه العلمانية وصمة عار وبصمة للاستعمار فى بلدنا ».

وكانت التجربة العلمانية فى العقد الثامن من القرن العشرين فى أكبر بلد إسلامى من حيث عدد السكان . يرويها فهمى هويدى (٢) بأسلوب تصويرى مباشر وبالتحليل الصريح فيقول :

« كانت رحلتى إلى بنجلاديش فى عام ١٩٧٧ ، لمهمة صحفية عادية . لا علاقة لها بمسألة العلمانية من قريب أو بعيد ، وأكثر من ذلك . فقد كنت خالى الذهن عن حقيقة ما جرى فى ظل حكم الشيخ مجيب الرحمن ، باستثناء ما كانت تتناقله الصحف والوكالات عن عملية تصفيات

---

(١) د . محمد عمارة - مناظرة في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة في يناير ١٩٩٢ نشرتها مجلة أكتوبر في العدد ٧٩٥ بتاريخ ١٩ / ١ / ١٩٩٢ .

(٢) فهمي هويدي - المقال السابق - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ / ١١ / ١٩٨٦ .

للمعارضين ، مما لم نعد نفزع له كثيراً أو نستهوله ، لكثرة وقوعه فى دول العالم الثالث ، حيث باتت أخبار الاعتقالات والتعذيب والإعدامات قصصا عادية ، ألفها الناس ، وصاروا يقرأونها بغير إكتراث ولا حزن. !

كان مما أثار انتباهى فى دكا - العاصمة - أن العطلة الأسبوعية الرسمية هى الأحد، وليست الجمعة كما كان عليه الحال فى باكستان ، قبل أن ينفصل عنها البنغال ويصبح بنجلاديش ، استغربت هذا التحول فى بلد ٩٥ ٪ من سكانه مسلمون ، وليست فيه جاليات أجنبية تذكر، وعلاقاته بالعالم الخارجى لا تتجاوز إقرار اعتمادات القروض ، ومحاولات الإغاثة فى أعقاب الفيضانات والأعاصير .

بدافع الفضول سألت عن السبب في تغيير يوم العطلة فقيل لى أن ذلك تم فى إطار خطوات «الإصلاح» التى قررها الشيخ مجيب الرحمن.

أثارت الإجابة مزيدا من الفضول عندى ، للتعرف على بقية خطوات الإصلاح التى جاءت بها المجيبية بعد الانفصال عن باكستان في سنه ١٩٧١ ، فكانت على النحو التالى : احتكر السلطة حزب رابطة الشعب (عوامى ليج) الذى خرج من رحم حزب رابطة الشعب الإسلامية ، وكان أول ما فعله الشيخ مجيب أن أعلن علمانية نظامه ، مما ترتب عليه تعديل دستور البلاد وإدخال صياغات العلمانية والاشتراكية فيه ، ثم حذف كل الإشارات التى تدلل على علاقة شعب بنجلاديش بالإسلام ، ابتداء من البسملة التى وضعت فى صدارة الدستور ، إلى النص فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام .

ويبدو أن الحرص على « الإصلاح » دفع الشيخ مجيب وبطانته إلى تتبع كل ما هو إسلامى فى البلاد ، وإزالته . فقد كان شعار جامعة دكا كتابا مفتوحا - قد يكون مصحفا - وضع فوقه كلمة إقرأ فألغى هذا الشعار واستبدل به غيره .

وفى داخل الجامعة كانت هناك قاعة عريقة وشهيرة ظلت مصانة طوال سنوات الإحتلال البريطانى ، برسمها واسمها ، وقد عرفت باسم قاعة سليم الله الاسلامية ، فحذفت الكلمة الأخيرة وأصبحت تحمل اسم قاعة سليم الله فقط . وكانت هناك جامعة أخرى في بلدة نجر معروفة باسم جامعة جهانجير نجر الاسلامية فشملها الاصلاح أيضا ، وشطبت كلمة الاسلامية.

وكانت هناك مؤسسة ثقافية متخصصة فى طباعة ونشر كتب الأدب والتراث الإسلامى تحمل إسم مكتب الإصلاح الوطنى ، هذه المؤسسة أوقف نشاطها وسحبت رخصتها ، ولم يصدر كتاب له بالإسلام نسب طوال حكم مجيب الرحمن .

لسبب أو آخر فليست هناك معلومات وافية عن تلك الفترة التى سادت فيها المجيبية لكن

هذا هو القدر من الإشارات الذى سجلته فى أوراقى منذ حوالى عشر سنوات ، متعلقا بعلمنة بنجلاديش ، وبالرغم من هذا وذاك . فربما كان القدر المتاح من المعلومات كافيا للتدليل على أن العلمنة التى تمت فى تلك الفترة اقترنت بثلاثة أمور : هى حكم الفرد والحزب الواحد - الخصومة الشديدة لكل ما هو إسلامى - محاولة الالتحاق بالغرب ومحاكاته حتى فى عطلته الأسبوعية.

وهكذا يتبين لنا أن الدنيوية التى أسميناها وما زلنا العلمانية كانت غزوا ثقافيا شاملا . وأنها لم تكن بعيدة عنا نحن العرب نحن المسلمين لا فى بداياتها ولا فى ذروتها الكمالية ولا مسخها المعاصر على ألسنة سفهاء العصر أوعلى أيدي عملاء الغرب ، وأن محاولة صرف أنظار وبصائر الجماهير العربية والاسلامية بأن الدنيوية العلمانية مسألة مقحمة على حياتنا السياسية والثقافية والإجتماعية هى محاولة إلهاء حتى يتم تحقيق التحول إلى الدنيوية بديلا للنظام الإسلامى أو التطبيق الإسلامى أو العودة للذاتية الاسلامية .

الماسونية وتوابعها

كلمة الماسونية Freemasonry" تعني البناء الحر ، والماسوني"Freemason " هو البنّاء، وجمعها الماسون أو الماسونيون"Freemasons" أي البناءون الاحرار ، هذا هو المفهوم المعلن عن الماسونية . كما أنها تعلن أنها جمعية أو محفل Lodge مفتوح الأبواب لجميع البشر ، من كل النحل والمذاهب والديانات . ولادخل للماسونية في عقائد الناس . وكل ما يهم المنظمة وحدة الجنس البشري . بهدف الأخُوّه والخَيْرِيَّة والحرية والمساواة والسلام والخدمة والمصلحة العامة للإنسانية . ويقول أحد قادتها : نحن نهدف إلي بناء الانسانية بناءً معنوياً في بناءٍ مُنَظَّمٍ وفْقَ خُطَّةٍ وتصميم . (١)

وقد اختلف المؤرخون في منشأ هذه الحركة ، ويرجع السبب في ذلك الي السرية والغموض اللذين تحيط بهما الحركة الماسونية نفسها ، ولكن المرجع من الناحية التاريخية أن هذه الحركة بدأت في إنجلترا عام ١٧١٧ م . وهذا الترجيح لبداية التاريخ العملي أو الفعلي للماسونية يرجع إلي أن حوليات الماسونية تبدأ بهذه السنة ، التي تعد ذات أهمية خاصة في تاريخ الحركة (٢) .

ففي أحد الدهاليز الخفية في" إنجلترا" سنة ١٧١٧ م اجتمع نفر من اليهود الوارثون لما كان

---

(١) محمود ثابت الشاذلي - الماسونية عقدة المولد وعار النهاية - الطبعة الثانية -مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٩٠ م صـ ٦٦ ، صـ ٦٧

(٢) د. سهام نصار - الصحافة الاسرائيلية والدعاية الصهيونية في مصر - الطبعة الأولي - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة - ١٩٩١ صـ ٨٥ نقلاعن نجدة فتحي صفوة : الماسونية في الوطن العربي - سلسلة أوراق عربية رقم ٤ مركز الدراسات العربية - لندن - سبتمبر ١٩٨٠ .

يسمي" القوة الخفية" ، وقرروا تشكيل المحفل الأكبر الانجليزي (١) ليكون ممثلا للماسونية الجديدة، ويتولي هذا المحفل حذف مايراه من تعاليم المحافل القديمة ، وإضافة ما يجدونه ملائماً لروح العصر، مع تخفيف حدة الطقوس التي كانت تجري داخل الهيكل ، وتطوير الرموز والاشارات التي خَلَّفَهَا لهم القدماء . في هذا الاجتماع التاريخي اتخذوا قرارهم الجرئ بأن تتحول كل محافلهم من الماسونية العملية الخاصة ، إلي الرمزية العامة . علي أن تحتفظ هذه الماسونية الجديدة بما كانت عليه القديمة من سرية وكتمان . وأن يكون شعارها البراق : المساواة والإخاء والحرية . وقد انطبق علي الماسونية في إخفاء هويتها وأهدافها ما قاله الشاعر العربي :

وَمَهْمَا يَكُنْ عند إمرءٍ من خَلِيقَةٍ
وإنْ خَالَها تَخفَى علي الناس تُعْلَمِ

لقد تجمعت حصيلة كبيرة من كتابات مؤلفين غربيين ، ومن دراسات باحثين مسلمين ، في باكستان مثلا ، ومن الكتاب العرب ، هذه الحصيلة الكبيرة إلي جانب الصحف الماسونية، وبعض الممارسات العلنية للماسونية ، جعلت ما خفي من هويتها واضحا ، وما خَبَّأت من أهدافٍ شديد الوضوح .

وعلي طريقة كثير من المؤلفات القديمة التي تبدأ بابها الأول بخلق آدم عليه السلام ، لتصل بسلسلة النسب إلي نبي من الأنبياء أوملك من الملوك أو شعب من الشعوب ، نجد في المراجع الماسونية ما يُرْجِعُ تاريخها إلي الأزمات التى مرت بها الديانة اليهودية . وهذه العودة بالماسونية إلي الأزمات الأولي للديانة اليهودية . يمكن النظر إليها نظرة تحليلية ناقدة علي النحو التالي : -

أولا: إذا كان مصدر هذه الكتابات من زعماء الديانة اليهودية فإنهم بذلك يحاولون أمام شيعتهم، إكساب " الماسونية" صفة القداسة . وبرغم الأكاذيب والخرافات والإلتواء والتشويه في مضمون هذه الكتابات عن أنبياء بني إسرائيل وسيرهم فإن التحريف الذي وقع علي التوراة أشد ، والأباطيل أكثر بكثير ، بل وتشويه سيرة أنبيائهم في التوراة التي ابتدعوها أكثر بكثير . وبذلك يمكن قبول القول بأن المصادر يهودية .

ثانيا : إذا كان المَصْدَر من مؤلفين مسيحيين فإن كتاباتهم أخذت من مصادر مشوهة . وكان الربط بين التواريخ تحكمه صناعة التأليف التي كانت عادة من عادات الكُتَّاب الأقدمين .

ثالثا: إذا كان المصدر من فرق يهودية إنشقت - وهو أمر متكرر في التاريخ اليهودي - فقد أرادت أن تسجل تاريخاً أسود ، مثلما يفعل بعض المنشقين من الأحزاب السياسية فى القرن العشرين الميلادى .

---

(١) أبو إسلام أحمد عبد الله - الماسونية في المنطقة ٢٤٥ - الطبعة الأولي - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٦ - صـ ٢٩٠ ، صـ ٢٩١

رابعا : لم يكن للمؤلفين فى كافة النصوص والمؤلفات التى تناولت تاريخ الماسونية غير النقل والترجمة والاسترشاد بما جاء فى المصادر الغربية المعلومة المؤلف أو المجهولة المؤلف .
ومن كتب من العرب عن الماسونية من أمثال شاهين مكاريوس فقد كتبوا إجلالا وتعظيما . ومن المتأخرين العرب الذين اكتشفوا أهدافها التخريبية للروح الاسلامية وكانوا فى محافلها مَنْ كتب فاضحاً أمرها معرضا عنها محذرا منها .

حتى كانت قرارات الحكومات العربية فى العقد السابع من القرن العشرين بتجريم نشاطها بدءا من القرار أو القانون العسكرى المصرى بمعنى أدق الصادر فى عام ١٩٦٣ م .

وأهم المصادر التى تناولت التاريخ القديم للقوة الخفية وهو الاسم الذى آل بعد قرون إلى اسم الماسونية كتاب ترجمه الخورى عوض الخورى اللبنانى عام ١٨٩٨ م وطبع فى مطبعة الجهاد فى بيروت عام ١٩٢٩ م، بعنوان تبديد الظلام . ويقول المترجم أنه عاد من البرازيل بهذه الترجمة . وأن (١) الفضل قبل كل شيىء لله وحده جل جلاله ثم لمن هدانى وأوصلنى إلى تلك الضالة المنشودة ، وهو الدكتور برودانتى دى موريايس رئيس جمهورية البرازيل حينئذ ، الذى كان مفوضا إليَّ أسرار خاصة ، فهو الذى عرفنى بصاحب هذا التاريخ المخطوط العبرانى الخواجة لوران جورج صموئيل بن جوناس صموئيل لوران والمعروف باسم لوران ، وباسم حفيد أحفاد أحد التسعة ، أجداد جمعية القوة الخفية .

ويقول المترجم أنه اتفق مع لوران على ترجمة الكتاب من الفرنسية إلى العربية وبعدها التركية . وأن يجعل من الترجمة نسختين أخذ هو واحدة وأعطى لوران الأخرى وقد اشترط عليه لوران أن يترجم فى بيته ولا يخرج بالنسخة الفرنسية خارج بيت لوران .

وفى هذا الكتاب نجد الإشارة بأن المحفل هو خيمة الإجتماع ، ومحاولة ربط ذلك بخيمة سيدنا موسى عليه السلام بجانب الطور ، ونجد أن الجمعية الخفية هى الجماعة القيادية اليهودية التى تتجمع فى الأزمات التى تتلاحق نتيجة أعمالهم الشريرة ، ويقول بعض الكتاب أنه فى عام ٤٣ ميلاديا سمى هيرودس زعيم اليهود اثنين من مستشاريه وستة من صفوة الكهنة المقربين إليه ليكونوا التسعة المؤسسين للقوة الخفية ، وسمى أول أركان دعوتهم الإخاء وصاغ يمينا للقسم . وهكذا بدأ التاريخ الماسونى . ثم عقد هيرودس زعيم اليهود وملكهم إجتماعا خطب فى جمعية القوة الخفية قائلا : الآن قد تأسست جميعتنا القوة الخفية لتبقى قوتها وأعمالها ومبادئها وغايتها خفية إلى الأبد . هاقد صرنا إخوة ، وكل من ينضم إلينا أو إلى أحفادنا خلفاء المؤسسين يكتسب سر الإخاء ويوسم به ، وبهذه الرابطة وحدها نقهرالأعداء ، ونسحق قوتهم التى يزعمون

---

(١) أبو سلام أحمد عبداللة - الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ - الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٨٦ ص ٢٥٠ .

أنهم يقومون بها على ملاشاة ديانتنا . وليكن أساس أعمالنا الأمانة والكتمان والجرأة الدموية التي نمحوهم بها ، ولتورث هذه المبادىء أحفادنا الذين سنسلم إليهم هذه الأسرار.

ويسرد بعض الكتاب تتابع التاريخ والاجتماعات حتى إضطهاد الرومان لهم . وما تلى ذلك وما سبقه من تشتيت لليهود الذين تقوم فلسفتهم كما وصفها بولس حنا مسعد (١) إن النصارى يؤمنون بأن الله هو أبو الجميع ، والمسلمين يعترفون بأن الله رب العالمين أما اليهود والماسون فلا يريدون أن يكون الإله إلا لهم وحدهم . وينص التلمود * على أن جميع خيرات الأرض ملك لأبناء اسرائيل وأن النصارى والمسلمين وعبدة الأوثان خلقوا عبيدا لهم . وينقل بعض المؤلفين كلاما من سجلات محافل القوة الخفيه تسب المسيح عليه السلام وتسب محمدا صلى الله عليه وسلم فتقول : في أواخر الجيل السادس للدجال يسوع الذى أضحكنا بتدجيلاته ، ظهر دجال آخر ادعى التنبؤ بالوحى وأخذ ينادى بالهداية مرشدا العرب ، الذين كانوا عبدة الأصنام إلى عبادة الإله الحق وسن شرائع مخالفة لسنن ديانتنا اليهودية . فمال إليه كثيرون في مدة قصيرة ، فقمنا نناهض دعوته ، وسنته ، ونصرخ بأصواتنا الخفية لنفهم الذين يميلون إليه وإلى رجاله ، أنه وإياهم دجالون كسابقه يسوع (٢).

وإذا كان في التاريخ القديم للماسونية قدر قليل من التوثيق فإن تاريخها المعلن منذ عام ١٧١٧ يحوى قدرا كبيرا من التوثيق ، وفى الوقت نفسة يشرح ويؤكد السياق التاريخى للماسونية . ففى عام ١٧٣٢ أقيم فى باريس المحفل الماسونى على ما قرره المحفل الانجليزى الأكبر . وفى عام ١٧٣٣ توحدت محافل الماسونية في فرنسا ، كما توحدت فى فلسطين وروسيا وانجلترا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وفى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى عام ١٧٨٤ أصبح ٤٤٧

---

(١) أبو سلام احمد عبدالله – الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ ص ٢٨٨ ، نقلا عن بولس حنا في كتابه همجية تعاليم صهيون .

* تقول المصادر اليهودية أنه حوالى عام ١٥٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام جمع حاخام يهودى التعاليم الدينية فى كتاب سماه «ميشنا » ومعناه الشريعة المكررة أو الشريعة الثانية باعتبار أن ما أنزل على موسى عليه السلام من الوحى هو الشريعة الأولى ، ثم بعد فترة ثانية قصيرة من تاريخ اليهود علقت شروح إضافية على مشينا وسميت هذه التعليقات والشروح باسم جيمارا والمشينا والجيمارا هما معا التلمود أى كتاب شرائع وآداب بنى أسرائيل . كل ذلك تم حوالى عام ٢٠٠ بعد ميلاد المسيح.

أما بروتوكولات حكماء صهيون فتنتمي إلى ما بعد عصر النهضة الأوربية ففى عام ١٨٩٧ عقد فى مدينة بازل بسويسرا المؤتمر الصهيونى الأول برئاسة هرتزل ، وقد اجتمع فيه ثلاثمائه من زعماء اليهود الحائزين على الدرجة الماسونية الثالثة والثلاثين ، قمة التنظيم الماسونى . وقد صدر عن المؤتمر قرارات سرية عرفت باسم بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢) المرجع السابق .

من أعضاء محفل الشرق الأكبر فى فرنسا نوابا فى البرلمان الفرنسى البالغ عدد أعضائه ٦٠٥ عضوا . وكان لليهود دور فى تمويل الثورة الفرنسية . وبعد نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ ازدهر نشاط المحافل الماسونية فى فرنسا . وامتد نشاط الماسونية فى معظم الدول الأوربية وفى آسيا وأفريقيا . (١)

ويؤكد جمهور الباحثين أن الفكرة الرئيسية للماسونية تنطلق من العقيدة اليهودية ، وتتحرك فى إطار التاريخ اليهودى . وإن الطقوس الماسونية تستمد وحيها من التراث اليهودى ، والرموز الماسونية تمثل الفكر والثقافة اليهودية (٢) .

وقد فسر الكاتب الباكستانى مسبهول إسلام فارقى مدلول الاله عند الماسونية واسمه «يه ، بل ، أن ، jah - bul - on من النصوص الماسونية بأنها كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ يحتفظ كل عنصر فيه بخصائصه : يهوه Jahwehإله اليهود ، وبعل baal إله آشور ، وأوزريس osoris إله قدماء المصريين (٣) وهكذا يتم تخريب العقائد الإسلامية والمسيحية فى وقت واحد . بذلك حرمت معظم الكنائس فى العالم على أتباعها الإنخراط فى الماسونية ، واعتبرت إشتراك المسيحى فى الطقوس الماسونية ردة .

ولكل درجة من درجات التنظيم الماسونى قسم يقول فيه المنتسب إلى الدرجة أنه يقسم بإخلاص وجدية أنه يخفى أسرار الماسونية وأنه لا يرسم شيئا من رموزها وأسرارها . ويقسم على مراعاة ذلك بوقار ودون إنحراف أو مراوغة ، وأن عقوبة كشف هذه الأسرار أو انتهاك القسم ليست اقل من أن يترك شق صدره الأيسر يفتح ، وينزع قلبه ، ويعطى لطيور السماء الجارحة ، أو يلقى فريسة للوحوش المفترسة (٤) .

ولقد كشفت الدكتورة سهام نصار (٥) فى دراستها عن الصحافة الاسرائيلية فى مصر مدى الترابط بين الماسونية والحركة الصهيونية من واقع الصحف الصادرة فى مصر (عام ١٩٢٤) فهى تتساءل : هل كان للماسونية موقف من قضية فلسطين ومن مسألة الوطن القومى ؟ وتجيب بأن أولى هذه الإجابات تقدمها لنا مجلة الاتحاد الإسرائيلى * . فتذكر المجلة أن رجال الماسونية فى أمريكا اتفقوا على إمداد حركة تعمير فلسطين بالمساعدة المالية والأدبية لإعداد البلاد كوطن

---

(١) المرجع السابق ص٢٩٢ إلى ص٣٠٠ .

(٢) محمود ثابت الشاذلى – الماسونية عقدة المولد وعار النهاية – الطبعة الثانية – مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٩٠ ص ١٩

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٤ ، ص٧٥

(٥) د. سهام نصار – الصحافة الاسرائيلية والدعاية الصهيونية فى مصر – الطبعةالأولى – الزهراء للإعلام العربى – القاهرة ١٩٩١ ص ٨٦ ، ص ٨٧ .

*(مجلة الاتحاد الاسرائيلى مجلة لطائفة اليهود القرائين فى مصر صدرت عام ١٩٢٤)

قومى لليهود ، وأن ثمانية من الرؤساء السابقين لمحافل نيويورك أقاموا وليمة فاخرة للدكتور حاييم وايزمان عام ١٩٢٤ ، أعلنوا فيها وقف أنفسهم ومحافلهم لخدمة الحركة الصهيونية ، كما كونوا لجنة للتفاوض مع أستاذ أعظم محافل ولاية نيويورك لتحديد مبلغ المساعدة التى سيقدمونها ، وتوقعت المجلة أن يصل مبلغ الاكتتاب إلى ٢٠٠ ألف دولار نظرا للحماس الكبير الذى أبداه الماسون الأمريكيون .

وانضم اليهود فى مصر منذ وقت مبكر إلى المحافل الماسونية أيضا وتدل وثائق عابدين الخاصة بالمحفل الماسونى - على الرغم من قلتها - على مدى تغلغل اليهود داخل المحفل الأكبر والشرق الأكبر المصرى ، وجميع المحافل المصرية الفرعية الأخرى فى مدن الاسكندرية والقاهرة وبورسعيد من المدن المصرية ، كما تدل وثائق عابدين على أنه كانت هناك محافل أسسهااليهود وكانت تحمل أسماء يهودية مثل محفل سليمان ومحفل مجن ديفيد وقد سيطر اليهود على ما يقرب من نصف عضوية المجلس السامى المصـرى لدرجة ٣٣، وهى أعلى درجات الماسونية الرمزية . ومن المعروف أن بعض الزعماء المصريين كانوا أعضاء فى المحافل الماسونية قبل أن تكشف حقيقتها الصهيونية .

أما توابع الماسونية فقد نشطت وزادت بعد أن حرمت بعض البلدان العربية والاسلامية نشاطها . وتتناول الصحف العربية بين الحين و الآخر نوادى الروتارى وما شابهها بالنقد باعتبارها من توابع الماسونية ، ولكن هذه النوادى لم تمنع فى معظم البلدان العربية والاسلامية من ممارسة نشاطها . أما الكتب التى تناولت نوادى الروتارى وما شابهها فإنها توثق العلاقة بينها وبين الماسونية بتأكيد وحماس واضح .

أنشئت منظمة الروتارى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٥ تحت شعار الخدمة وتذويب الفوارق بين الأديان والأجناس . وشعار الخدمة والتذويب هما الدهان الخادع (١) واثنان من الشعارات التى تتستر من ورائها الماسونية . وترجمة كلمة روتارى تعنى الدوران حول نقطة مركزية . والنقطة المركزية التى تدور من حولها الماسونية هى بناء الهيكل فى أورشليم. وقد تعاصر وجود منظمة الروتارى فى بداية الأمر مع نشأة منظمة النهلست الدولية nihilisالتى تعنى العدمية أو اللاشيئية ، والنهلية وجهة نظر تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة . وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه . وكانت منظمة النهليست تضم أشتاتا من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ويتغنون بفضل النمسا وإتاحتها لهم فرصا لجمع المال ، كذلك

---

(١) محمود ثابت الشاذلى - الماسونية عقدة المولد وعار النهايه - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٩٠ ص ١١ ، ص١٢

كانت منظمة الروتارى تضم أشتاتا من الناس مرتبطين على المستوى العالمى بفكرة محبة اليهود ، ويجتمعون دوريا على المستوى المحلى أو القطرى أو الدولي . فيأكلون ويثرثرون ويدعون المتخصصين فى شتى فروع المعارف ، أو المسؤلين فى مختلف المواقع المؤثرة ، ليحاضروهم فيما استشكل عليم أوغاب عنهم من معلومات ، وذلك بقصد رصد الأخبار والتقاطها وتصنيفها وتقديمها من خلال الأعضاء المتقدمين فى السلك إلى مجلس شيكاغو اليهودى . وليس عجبا أن يكون المحفل الماسونى الكونى الذي يدير الماسونية العالمية هو الذى أوحى بإنشاء المنظمتين النهلية والروتارى .

ويربط كثير من الكتاب بين تحريم النشاط الماسونى فى البلدان العربية والإسلامية وبين انتشارأندية الروتارى فيها . وحقيقة الأمر أن الأندية هذه تشوبها شوائب الغموض . والدكتور عبدالصبور مرزوق (١) يضع عدة تساؤلات تبين جوانب الشبهات فى هذه الأندية على النحو التالى:

أولا : لماذا حرصت أندية الروتارى على أن يكون نشاطها شاملا لأى مجتمع توجد فيه ، بحيث يكون الروتارى للرجال ، والإنرهول للسيدات ، والروتارى آلت للشباب فتيانا وفتيات ؟

ثانيا : لماذا التركيز على ضم الشخصيات ذات المكانة الخاصة فى مجتمعها المهنى دون سائر أفراد المجتمعات ؟ وهل يصح الظن بأنهم يدخرون لأمر مافى زمن ما ؟

ثالثا : لماذا أصدر الفاتيكان أمره للمسيحيين بتحريم الإنتماء إلى هذه الأندية ؟

رابعا : كيف نفسر اعتراف بعض الأعضاء بأنهم انتقلوا إلى الروتارى بعد ما أغلقت الدول المحافل الماسونية التى كانوا بها أعضاء ؟

خامسا : هل يتبرع الأعضاء بقيمة ما يقدمه النادى من مساعدات للحى الذى يقوم فيه أم يحصلون على المساعدة من المنظمة الأم فى الخارج ؟

ثم يطرح الدكتور عبدالصبور سؤالين أكثر أهمية السؤال الأول : لماذا تختار نوادى الروتارى اعضاءها ولا يسمح لأى شخص أن يتقدم بطلب العضوية ؟ والسؤال الثانى : ما رأى الروتاريين من أبناء الأمة الأسلامية فى الملاحظات التى سجلها الباحث Charles . F. Marden تشارلز-ماردين فى كتابه الروتارى وأخواتها ، وهو من مطبوعات جامعة برنستون والتى تقول ما يلى :

١ - أن المجموعة الأولى التى اشتركت مع بول هاريس فى تأسيس الروتارى كانوا أعضاء فى المحافل الماسونية .

٢ - هناك حالات قصرت فيها عضوية الروتارى على الماسونيين فقط كما حدث بالنسبة

---

(١) د. عبدالصبور مرزوق - تقديم كتاب أبو إسلام احمد عبدالله الماسونية في المنطقة ٢٤٥ مرجع سابق .

لنادى أدنبرة فى بريطانيا عام ١٩٢١ .

٣ - التناسب العكسى بين نشاط الروتارى وأخواتها وهى الليونز والكيوانى ، والاكستشانج ، والمائدة المستديرة وما شابه ذلك ، وبين النشاط الماسونى ، أى أن الروتارى وأخواتها تحصل على شعبية كبيرة ، ويقوى نشاطها عند ضعف الحركة الماسونية . وهل هناك علاقة بين النشاط المكثف للروتارى في بلادنا وبين حظر النشاط الماسونى ؟

هذه التساؤلات فى حد ذاتها وبخاصة حقيقة أن النوادى هى التى تختار الأعضاء وأن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم للعضوية يجعل علامات الاستفهام موحيًة بالإجابة أكثر من الإجابة البسيطة أو الصريحة أو المباشرة .

ومن أبلغ الردود الحاسمة عن علاقة المسلم بمثل هذه المنظمات والنوادى ذلك القول البليغ للدكتور يوسف القرضاوى (١) : ليس هناك أدنى حاجة للمسلم للإنضمام لجمعيات يلابسها الغموض من جانب ، وتحيط بها الريب والشبهات من هنا وهناك . وقد وضع لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم القاعدة التى تقول : دع ما يريبك إلى مالا يريبك ، وأيضا من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، وإذا كانت هذه الجمعيات ، تدعو إلى الإخاء والمساواة والحرية ، أو تعليم المحبة والتسامح - كما يقال - فلسنا نحن المسلمين فى حاجة إليها ، لأننا أساتذة الدنيا فى هذه المعانى ونحن دعاتها ومعلموها للناس ».

البهائية
البابية

خرجت البابية من طائفة تدعى الشيخية من غلاة الشيعة ، من معتقداتها رجعة الإمام المستور، وترقب ظهور المهدى . وكان خروجها علي يد على محمد الشيرازى . كان طفلا فى المهد حين مات أبوه فكفله خاله فألحقه وهو فى السادسة من عمرة بمدرسة في شيراز* كان القائم عليها يسميها قهوة الأنبياء و الأولياء . ولكن الغلام عزف عن التعليم ، بعد ان حصل على قدر من مبادىء العربية والنحو الفارسي وبرع فى الخط وسرعة الكتابة . فألحقه خاله بمتجر فى شيراز ،ثم انتقل إلى بلدة تسمى سراى الحاج عبدالله حيث افتتح خاله متجرا بها للأقمشة ، وهناك التقى الغلام المراهق بأحد رجال الشيخية يدعى جواد الكربلائى الذى لقنه أقوال الشيخية . وزعم أن فيه ملامح المهدى المنتظر ، فعزف المراهق عن التجارة ، وأقبل على كتب الشيخية وغيرها . والتزم

---

(١) أبو إسلام عبدالله - الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ - مرجع سابق صـ ١٧٣ ، ١٧٤ نقلا عن مجلة الدعوة عدد شعبان ١٤٠٠ هـ

(٢) د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) قراءة في وثائق البهائية - مركز الأهرام للترجمة والنشر- الطبعة الأولى- ١٩٨٦ (*) شيراز مدينة فى الجنوب الغربى من إيران

بالرياضة الروحية المنحرفة ، فكان يقف ساعات طويلة على سطح الدار عارى الرأس فى حر الظهيرة حتى ظهرت عليه أعراض اختلال الأعصاب واهتزاز العقل ، وزار النجف وكربلاء للاستشفاء ، وهناك حضر مجالس الشيخية علي إمامها كاظم الرشتى الذى قربه وخصه برعايته وتصادف وجود كنياز الجوركى المترجم بالسفارة الروسية ، وكان يحضر مجالس الشيخية باسمه الإسلامى الشيخ عيسى النكرانى فقرر أن يصطاد الشاب الشيرازى ، ويتقرب إليه ، وقد كتب ذلك الروسى بعد سقوط القيصرية في مجلة الشرق السوفيتية يقول أنه فى بحثه عن الزائغين فى العقائد الإسلامية لضرب المسلمين من بينهم ضربة تقضى على وحدتهم ، فكان من أسهل الطرق الموصلة إلى هذا إنشاء الخلافات الدينية ونشرها وإسعار نارها بينهم . ويقول أنه عندما رأى على محمد الشيرازى بدأ يرسخ في ذهنه أنه سيكون الشخص المطلوب .

وقال أنه كان يخاطبه : ياصاحب الأمر ، وياصاحب الزمان ، فكان فى أول الأمر يترفع ويتأفف ، ولكن مالبث أن أبدى السرور والفرحة من هذه المخاطبات .

وفى حلقات كاظم الرشتى لقى على محمد الشيرازى فتاة من أتباع الشيخية اسمها زين تاج كان لها دور فى دعوة البابية فيما بعد ، وكانت الفتاة فائقة الجمال والذكاء هجرت ذويها فى قزوين وجاءت إلى حلقات كاظم الرشتى الذى سماها قرة العين ، وبعد موت كاظم خلفته قرة العين فى الحلقة ، وتوزع كثير من أتباعه فى البلاد ، وخرج الشيرازى من كربلاء إلى بوشهر يخطب ويعظ ويعقد مجالس الذكر . ثم مضي إلى شيراز ولحق به واحد من المريدين فزين له أنه الباب الموصل إلى الإمام الغائب .

واتفقا على أن يعلن الشيرازى دعوته فى الحج من مكة المكرمة . ولكن الشيرازى اختفى فى بوشهر وبعد الحج زعم أن الأرض المقدسة نزلت له من السماء ، وأنه حج ، وأنه أعلن دعوته بين الركن اليمانى من الكعبة وبين مقام ابراهيم .

وأعلن أنه ينتسب إلى البيت النبوى ، ثم اصطفى حواريين له ، لكن أهم الأدواركانت من نصيب قرة العين التى زعمت بأنه إله وأن البابية نسخت الإسلام وهكذا أصبحت البابية كفرا صريحا ، حتى حكم على الشيرازى بالإعدام. وكان من قضاته من ينتسب إلى الشيخية ذاتها . وكان إعدامه فى تبريز عام ١٨٥٠ بعد محاولات عديدة من القنصل الروسى والقنصل الإنجليزى فى الإبقاء على حياته . وألقى بجثته فى خندق خارج المدينة . وتقول روايات مؤرخين عديدين بأن الجثة سرقت ودفنت في قبر جميل على بضعة أميال من جبل الكرمل فى فلسطين .

هلك الباب على محمد الشيرازى ، وجاء دور البهاء والبهائية فى مدينة بدشت حيث التقى حسين على النورى بقرة العين فرنا إليها مأخوذا بسحرها والتفتت إليه معجبة بوسامته وفتوته ، وخلعت عليه لقب بهاء الله . واستقر حسين بهاء الله فى شيراز بينما فلول البابيين تقتلهم الدولة

وتقضى عليهم ، وبخاصة بعد مؤامرتهم لقتل الشاه ناصر الدين شاه عام ١٨٥٢ ، وأعدم المتآمرون وكانوا نحو أربعمائة فيهم قرة العين.

وقد أتهم حسين بهاء الله بالتحريض على اغتيال الشاه ، ولكن كنياز الجوركى القنصل الروسى السابق الذى أصبح وزيرا مفوضا حماه بإبقائه فى السفارة الروسية وتدخل فى محاكمته حتى انتهى الأمر ببراءة البهاء حسين من تهمة التحريض على قتل الشاه ، ثم نفى إلى بغداد . وفي بغداد اشتد التنافس بن البابيين والبهائيين ، وظهر زيغ الفريقين واضحا لعلماء الشيعة في بغداد والنجف وكربلاء ، واتصلوا بسفير إيران في بغداد ليعمل علي نقلهم من بغداد . وتم نقلهم بأمر الباب العالي بالدولة العثمانية إلي الآستانة . وكانت الخصومة والتنافس بين بهاء الله وأخيه صبح أزل قد بلغت أوجها ولكن رجح اليهود كفة بهاء الله وأهله . وَقُبْل الرحيل من بغداد، وفي ابريل ١٨٦٣ أسر بهاء الله إلي أحبابه بأنه الموعود الذي بشر به الباب . وأرخوا سنتهم البهائية بذلك التاريخ . وخلع بهاء الله أخاه ومن معه . وفي تركيا شاعت الفوضي بين فرقهم المختلفة ، فقررت الدولة العثمانية نفيهم مع التفريق بينهم : البهائيون مع رئيسهم إلي عكا ، والبابيون مع صبح أزل إلي جزيرة قبرص . وظل بها حتي مات عام ١٩١٢ . ولكن نجمه كان قد أُ فُل ببروز نجم أخيه ومساعدة اليهود للبهاء . وبعد عامين من الإقامة الجبرية الفقيرة في" عكا " أصبح له قصر يعيش فيه . وأطلق علي القصر إسم قصر البهجة . وفيه ألف كتاب البهائية بعنوان "الكتاب الأقدس" وهو كتاب كفرهم الصريح . ولكن الملفت للنظر ، الصلة الوثيقة بين ما ورد في الأقدس وما هو مستقر ومتصل في الخطاب اليهودي الصهيوني ، وما هو متعلق بمخطط زرع إسرائيل في فلسطين . فقد حرم حمل آلات الحرب . وبهذا النص منع البهائيون استعمال الاسلحة النارية لأي سبب . ودعا إلي لغة من اللغات يتكلم بها علي الأرض ، أي خلق لغة عالمية . وادعي الألوهية . ثم انتهي به الأمر إلي الجنون ثم إلي الموت عام ١٨٩٢ . وعمره إذ ذاك خمس وسبعون قضي أربعا وعشرين منها في فلسطين في رعاية الصهيونية .

وجاء ابنه عباس أفندي عبد البهاء- فهو في زعمه وزعم البهائيين والده وربه -وذلك بعد إبعاد إخوته بالمكيدة والاغتيال والحرمان والطرد . وكان عباس أفندي عبد البهاء قد ولد في طهران عام ١٨٤٤ وكان في الثامنة من عمره عند اعتقال أبيه في مؤامرة اغتيال الشاه ناصر الدين ، ثم رافقه في منفاه ببغداد . ومنذ صباه وهو يسرف في تعظيم إلهه أبيه . ويعمل حارساً وحاجباً له . وادعي عباس أفندي النبوة . وساندته الصهيونية بنصوص يهودية تبشر بنبوته . وسخرته وطائفته للأهداف الصهيونية . ومحاولة قتل روح الإسلام في نفوس المسلمين وعقولهم وقلوبهم . فعباس أفندي عبد البهاء هو الذي ابتدع لدعاته أن يقولوا بأن البهائي يكون مسلما ويكون نصرانيا ويكون يهوديا ، وأي شئ وكل شيء في وقت واحد . وفي عصر عباس أفندي عبد البهاء انتقلت البهائية بجهود اليهودية العالمية إلي مرحلة جديدة من حياتها هي مرحلة الانتشار . ففي الشرق الإسلامي

الآسيوي كانت "الهند" في قبضة الاستعمار البريطاني . وبتواطؤ معه جعلت مركزا للمنشورات البهائية باللغات : العربية ، الفارسية ، والأردية . وطبعت كتب الكفر البهائية بتلك اللغات . أما في الغرب فقد نشطت البهائية واعتنقتها يهوديات أمريكيات وأوروبيات وتوجهن للحج إلي مقر نبي البهائية ، بجوار جبل الكرمل في فلسطين . وأسهم المستشرقون اليهود في دعم البهائية إعلاميا ، وفرضها علي تاريخ الأديان ودوائر المعارف والموسوعات .

وأعدت الصهيونية لعباس أفندي عبد البهاء رحلات إلي الهند وأمريكا وأوربا يدعوللبهائية من خلال اليهودية العالمية . وكان يقول : إننا ندعو المجتمع البهائي بجميع طبقاته أن يبادروا في السنوات القادمة عند قيام دولة إسرائيل إلي تأسيس فروع للمحافل الروحية البهائية ، الإيرانية ، والعراقية ، والامريكية ، والأسترالية في إسرائيل .

وقد كان هذا الكلام يقوله نبي البهائية وإسرائيل ليس لها وجود ، فلم تقم الدولة الاسرائيلية إلا بعد موته (١٩٢١)بأكثر من ربع قرن .

وزار عباس أفندي مصر ولبنان . وهناك في بيروت قابل الشيخ محمد عبده ، وزعم للشيخ محمد عبده أنه يسعي إلي التقريب بين الشيعة والسنة . لكن الإمام كشف نفاقه ودعا إلي التحذير من كذبه ونفاقه .

وطاف نبي البهائية بلندن وباريس وألمانيا وسويسرا وبلجيكا وڤيينا وبودابست في رحلة استمرت عامين ، ختمها في الولايات المتحدة الأمريكية ، فأقام بتشجيع اليهود محافل بهائية هناك ، ثم لما عاد توجه إلي حيفا يصلي الجمعة في مسجدها نفاقا وزندقه. برغم أن اقامته الدائمة كانت في "عكا" .

وفي العام الأول من القرن العشرين تنبهت الدولة العثمانية إلى تآمره فحددت إقامته في عكا ، ولكنه كان تحت الرعاية اليهودية والاستعمار البريطاني . وبعد انتصار " الانجليز" علي الدولة العثمانية منحت الحكومة الإنجليزية عباس أفندي عبد البهاء وسام "فرسان الإمبراطورية " عام ١٩٢٠ . وهلك بعد ذلك في نوفمبر ١٩٢١ وليس له من ولد سوي أربع بنات . كبراهن ولدت شوقي . فعهد عبد البهاء إلي حفيده من ابنته الكبري بالخلافة وعمره إذ ذاك أربعة وعشرون عاما . والتحق هذا الحفيد بكلية بيروت الأمريكية ثم التحق في بريطانيا بجامعة "اكسفورد" ، وتزوج الأمريكية "ماكسويل " التي سمت نفسها "روحية" عام ١٩٣٦ ، ثم مات عام ١٩٥٧ ، في لندن ، ودفن بها . ولم ينجب شوقي ولدا ولابنتا . وآل أمر البهائية إلي مجلس من تسعة أعضاء يديرأمورها .

وكانت قد أدت دورها في محاولة تخريب عقول المسلمين ، وقتل الروح الاسلامية ، وتمهيد السبيل لإقامة دولة إسرائيل في فلسطين . لقد إستشري وباء المحافل البهائية في البلدان الاسلامية، والعربية علي وجه الخصوص . وكان البهائيون أكثر كثافة في إيران أيام الشاه الأخير . وفي وثائق

البهائية ما أذاعته وكالات الأنباء من طهران في شهر مايو ١٩٥٥ عن ضغط المسلمين علي حكومة الشاه لحسم شر البهائيين ، الذين كتموا بهائيتهم حتي هيمنوا علي الحكومة والجيش والمصارف والجامعات ، وتأهبوا لإقامة حكم بهائي بالقوة . وصدر قرار رسمي باعتبار هذه الطائفة المتآمرة علي نظام الدولة غير قانونية ، وفي صباح ٢٣ مايو ١٩٥٥ هدمت السلطات الإيرانية محفلهم المركزي في طهران ، وتم احتلال كافة المحافل الفرعية في أنحاء إيران . ثم صدر فرمان بمصادرة أموالهم في ٥ يونيه ١٩٥٥ ، ولكن السلطات اكتشفت أنهم سحبوا أموالهم من المصارف الايرانية وأودعوها في البنك السوفيتي الايراني قبل أيام من صدور قرار مصادرتها .

وفي مصر صدر القانون ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠ بحظر وتجريم نشاط البهائية في البلاد ، كما أن عددا من البلدان العربية والاسلامية فعلت ذلك ، وفي فبراير ١٩٧٩ صدر قرار من جامعة الدول العربية بمقاطعة المؤسسات البهائية وإدراجها في القائمة المعلنة لمن تحظر الجامعة العربية تعامل دولها معهم .

وبرغم ذلك فإن نشاطهم العلني ظل في البلدان التي لم تحظر هذا النشاط . كما أنهم في كل مرة يُحْظَر نشاطهم يقيمون مَأْتَماً صاخبا في دوائر الأمم المتحدة ، وحقوق الإنسان ، وكذلك يستمر نشاطهم السري . كما يبثون بعض معتقداتهم في صور جديدة ، أو بمعني أدق يدسونها كما يدس السم فيما يقدم للمجتمعات الاسلامية من معرفة أو ثقافة دينية .

والدليل علي إستمرار نشاطهم السري ما ضبط وأعلن من خلاياهم في مصر برغم كثافة الجهود الأمنية في مصر ، في هذا الجانب علي وجه الخصوص ، الذي يمس أمن الدولة ، ويتصل بحماية نظام الحكم . وقدمت طوائف بهائية للمحاكمة ، بعد تجريم نشاطها .

كما ناوشت طوائف منهم النشاط الاجتماعي والاداري والحكومي في مصر بمحاولة تسجيل الديانة البهائية في بطاقاتهم الشخصية والعائلية ، أو تسجيل عقود زواجهم البهائي في الشهر العقاري ، وغير ذلك مما شهدته المحاكم المصرية خلال عقود متتالية فيما بين عام ١٩٤٠ حتي عام ١٩٨٥ حيث ألقي القبض علي الرسام الصحفي " بيكار" زعيم الخلية البهائية ونائب الرئيس للمحفل الروحاني المركزي بمصر والسودان وأفريقية ، وقال في التحقيق الذي نشرته جريدة الأهرام في عددها الصادر أول مارس ١٩٨٥: " إن البهائية وهي ديانة عالمية ، طبقت في مصر منذ مائة سنة ، حيث كان يوجد مجمع بهائي مسجل في المحاكم المختلطة ومقره بالعباسية (حي من أحياء القاهرة) إلي أن صدر قانون ١٩٦٠ بحظر المحافل البهائية ومصادرة أملاكها ووقف نشاطها ، فكان لابد لأعضاء المحفل أن يعقدوا إجتماعاتهم ، فحولوها إلي زيارات بينهم كأصحاب عقيدة واحدة ، وكان طبيعيا أن نتزوج من بعضنا ، وكنا نقرأ المناجاة الخاصة بالبهائية ، وهي الأدعية التي نزلها حضرة بهاء الله ، والكتاب الأقدس وفيه تجمعت الأحكام البهائية ، وهي منزلة علي حضرته من الله تعالى.. "

انتهت قضية الرسام بيكار بحكم البراءة . ولكن الباحث في الإعلام أو الأديان أو الظواهر الإجتماعية يستطيع شرح الرسوم الأسبوعية البارزة وتفسيرها التي يرسمها بيكار في أكبر صحيفة مصرية توزيعا ، وهي " أخبار اليوم" ، وتشغل مساحة كبيرة وبارزة ، ومعها زجل يدور بطريق غير مباشر حول المعتقدات البهائية .

أما المدسوسات البهائية فيما يقدم للمجتمعات الاسلامية فأوضح مثل لها ما شاع في العقد السابع من هذا القرن العشرين الميلادي من فتنة الرقم ١٩ . وهو إدعاء بعض الكتاب بأن سر العدد تسعة عشر يظهرإحصائيا في القرآن الكريم ، بما يؤكد إعجاز القرآن الكريم . وقولهم بأن حروف البسملة تسعة عشر حرفا . وقول بعضهم بأن لفظ الجلالة (الله) يتكررفي القرآن ٢٦٩٨ مرة أي حاصل ضرب ١٩ X ١٤٢ ومثل ذلك من تكرارات عددية .

وكشفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن هذا الزيف العددي فذكرت أن لفظ الجلالة (الله) عدده الصحيح في القرآن الكريم ٢٦٩٧ وعقبت بقولها اختل "الكمبيوتر"ولم يختل نظام القرآن .

كما كشفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (١) المدسوس البهائي في سر الرقم ١٩ ، فزكاة البهائية تسعة عشر مثقالا من الذهب عن كل مئة ، كل سنة . وعدة شهور السنة عند البهائيين ١٩ شهرا ، وأيام الشهر عندهم ١٩ يوما . وبذلك فإن السنة البهائية ٣٦١ يوما وبقية الأيام الأربعة هي أيام اللهو والفرح والانبساط ، "عيد النيروز " . وغير ذلك كثير من ذكر العدد ١٩ في الكفر البهائي بصفة عامة .

الاستشراق Orientalism

يُطْلَق مصطلح الاستشراق في لغتنا العربية علي مفهوم orientalism في اللغة الإنجليزية .وفي الغرب يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار من مجمع ڤيينا الكنسي عام ١٣١٢ م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات: العربية ، واليونانية ، والعبرية ، والسريانية في جامعات باريس ، واكسفورد وبولونيا، وافينيون، وسلامنكا(٢).

ويستعرض الدكتور عدنان محمد وازن في كتابه الاستشراق والمستشرقون (٣) الآراء الواردة حول نشأة الاستشراق ؛ فيري أن تحديد بداية الاستشراق محل جدل وخلاف بين المؤرخين .

---

(١) عائشة عبدالرحمن ، المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٢) إدوارد سعيد -الاستشراق:المعرفة:السلطة:الانتشار -(ترجمة كمال أبو ديب)الطبعة الثانية -مؤسسةالأبحاث العربية -بيروت-١٩٨٤صـ ٨٠

(٣) عدنان محمد وازن- الاستشراق والمستشرقون.(وجهة نظر) -رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة - غير مبين تاريخ النشر ص ١٧ الى ص ١٩

فبعضهم يري أن ظهور الدراسات الإستشراقية يعود إلي تاريخ دخول المسلمين أسبانيا، وجنوب إيطاليا، وصقلية، في العصور الوسطي . وهذا الأمر لفت أنظار أهل تلك البلاد إلي أحوال المسلمين ، وإلي الحركة الإسلامية ، فعكفوا علي دراسة المسلمين ، وتاريخ الدعوة الاسلامية ، وأهدافها.

بينما يري فريق آخر من الباحثين أن الدراسات الإستشراقية بدأت في القرن الثالث عشر الميلادي.

ويرجعها آخرون إلي القرن العاشر الميلادي .ومن المؤرخين من يري أن الدراسات الإستشراقية بدأت في أعقاب الحروب الصليبية. وهناك من يعتبر أن الحملة الفرنسية علي مصر عام١٧٩٨ هي البداية الحقيقية للإستشراق .وهناك من يقول أن الإستشراق بدأ بصفة جدية بعد فترة عهد الإصلاح الديني ، في أوروبا ، أي في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر ، ذلك أن النواة الأولي للدراسات الاستشراقية التي كانت قد بدأت في عصور وقرون سابقة ، لم تسمح لهاالظروف بالظهور والعمل بصورة موجبة ومنتظمة إلا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . في حين يذهب أحد المستشرقين وهو"يوهان فول " إلي القول بأن الاستشراق إنما ارتبط بالحروب الصليبية ، وأن المستشرقين الأوائل كانوا يرون في عملهم أنه نوع من الجهاد ضد الإسلام

ويربط بعض الباحثين العرب بين حركة الاستعمار الحديث و نشاط الاستشراق ربطا منطقيا. فيذكرون أن أوربا والغرب عموما عندما بدأ يتطلع إلى استعمار الشرق ، أدي الاستشراق دورا حيويا في ذلك الصدد. وعندما أرادت الدول الغربية عقد صلات سياسية واقتصادية بدول الغرب استعانت بالمستشرقين . وأحسن ملوك أوربا إلي المستشرقين ، وضموهم إلي بلاطهم كأمناء أسرار ومترجمين وانتدبوهم للعمل في الجيوش والبعثات القنصلية إلي بلدان الشرق . وتم إنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الغربية الكبري . ويذهب معظم الباحثين المسلمين إلي تصنيف المستشرقين إلى نوعين رئيسيين:

النوع الأول هم الفئة التي درست الإسلام دراسة هدفها النيل من المسلمين والحضارة الإسلامية وكتاباتهم مملوءة بالحقد والتحامل علي الإسلام والمسلمين .والنوع الثاني من المستشرقين هم الفئة التي توصف بالاعتدال . والنقاد للاستشراق يرون أن المتعصبين من المستشرقين ليست لدراساتهم قيمة علمية صحيحة. أما المنصفون من المستشرقين فإنهم ينقسمون إلي قسمين: الأول جماعة إشتهروا بالانصاف في الأوساط العلمية ، وأظهروا أنهم أقبلوا علي الاستشراق بدافع من حب الإطلاع علي حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ، وأنهم متحررون تماما في بحوثهم من أثر العواطف الدينية، فكتبوا عن الإسلام وأظهروه في ثوب نظيف علي جسد متسخ فهم من منافقي المستشرقين. والثاني جماعة لهم أهداف علمية خالصة لايقصد منها إلا البحث والتمحيص ودراسة

تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم وهذا الصنف قليل جدا.

لقد كانت غالبية المستشرقين في بداية ظهور الدراسات الاستشراقية(١)من الرهبان والقسس والمبشرين .وكان بعضهم من الذين اهتموا بدراسة اللاهوت .

والاستشراق جزء مكمل للحضارة الغربية وللاستعمار. وقد يبدو الاستشراق وكأنه إتجاه أكاديمي يعمد إلي دراسة الشرق وحضارته عموما ،وإلي دراسة الحضارة الإسلامية والإسلام خصوصا. ولكنه في حقيقته جزء من الحروب الصليبية الحديثة التي أخذت صيغة جديدة بأن صارت حربا فكرية بدلا من الحرب العسكرية.

والدكتور مصطفي السباعي في كتابه السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي يحلل الصفات الرئيسية للمستشرقين فيما يلي :

* سوء الظن وسوء الفهم لما يتصل بالإسلام وأهدافه و مقاصده .
* وسوء الظن بعلمائهم .
* تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وبخاصة العصر الأول ، بصورة الأنانية والتفكك بين قادته .
* التهوين من شأن الحضارة الإسلامية، واحتقار آثارها ومساهمتها الانسانية .
* إخضاع النصوص الإسلامية للفكرة الاستشراقية وفق أهواء المستشرقين ، وتحريف النصوص فى بعض الأحيان تحريفا مقصودا لخلق جو من الشك والبلبلة حولها .
* الخلط في تقييم المصادر التي ينقلون عنها، فهم ينقلون مثلا عن كتب الأدب ما يحكمون به علي الأحاديث النبوية ، وينقلون من كتب التاريخ ما يحكمون به على التشريع والفقه .فنري بعض المستشرقين يُعْرِضْ عن النصوص الثابتة ليأتي بنصوص ملفقة من ألف ليلة وليلة ،وكتاب الأغانى وكتاب الحيوان للدميري ،وما شابه ذلك .

يقول الدكتور إدوارد سعيد إن (٢) الشرق جزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين. ويُعُبرالاستشراق عن ذلك الجزء، ويمثله ثقافيا ، بل حتي عقائديا ، من حيث هو الاستشراق نَهْج من الإنشاء الكتابي ، له ما يعززه من المؤسسات والمفردات ،وتراث البحث ،والصور والمعتقدات المذهبية ،وحتي الأجهزة الإدارية الاستعمارية والأساليب الاستعمارية .والفهم الأمريكي للشرق يبدو أقل كثافة بكثير . ولكن الدور السياسي والإقتصادي الأمريكي المتنامي تناميا هائلا في الشرق الأوسط يفرض علي الفهم الأمريكي للشرق مطالب كثيرة .

---

(١)عدنان محمد وازن- الاستشراق والمستشرقون "وجهة نظر" المرجع السابق.

(٢) د.إدوارد سعيد -الاستشراق : المعرفة. السلطة. الإنشاء- (ترجمة كمال أبو ديب) الطبعة الثانية -مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت -١٩٨٤)صـ٣٧:صـ٣٨:صـ٣٩ ثم صـ٧٢

ويعني الاستشراق عددا من الأشياء متبادلة الاعتماد ، فهناك الدلالة الأكاديمية ،ففي الجامعات الغربية من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ،سواءكان في علم الإجتماع أو فقه اللغة فهو مستشرق .ولكن الاستشراق - في رأي إدوارد سعيد -أسلوب من الفكر قائم علي تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب . ومنذ أواخر القرن الثامن عشر فإن الإستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشـرق .التعامـل معه بإصـدار تقريرات حوله ؛ وإجازة الأراء فيه وإقرارها ، وبوصفه ، وتدريسه ، والاستقرار فيه ، وحكمه. وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة علي الشرق ، وامتلاك السيادة عليه» .

وكانت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الإستشراق وفي مضمونه مواكبة لمرحلة التوسع الأوروبي الاستعماري .فمن عام ١٨١٥إلي عام ١٩١٤ اتسع مجال السيطرة الأوروبية الإستعمارية المباشرة من حوالي ٣٥٪من سطح الأرض إلي حوالي ٨٥٪ منه .

ويحلل الدكتور إدوارد سعيد (١) منطق الاستعمار المتولد عن فهم الشرق ومعرفته ومن ثم التفوق عليه من خلال خطاب ألقاة "بلفور " في مجلس العموم البريطاني حول المشكلات التي ينبغي علينا (الإنجليز) أن نعالجها في مصر في ١٣يونيو ١٩١٠. فيقول "بلفور ":قبل كل شيء أنظر إلي حقائق القضية .إن الأمم الغربية فور إنبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة علي حكم الذات. لأنها تمتلك مزايا خاصة بها .ويمكنك أن تنظر إلي تاريخ الشرقيين بأكمله فيما يسمي بشكل عام المشرق ، دون أن تجد أثرا لحكم الذات علي الإطلاق .كل القرون العظيمة التي مرت علي الشرقيين - ولقد كانت عظيمة جدا -انقضت في ظل الطغيان ، ظل الحكم المطلق . وكل إسهاماتهم العظيمة في الحضارة الإنسانية -ولقد كانت عظيمة - أنجزت في ظل هذا النمط من الحكم .فقد خلف فاتح فاتحا ، وتلت سيطرة سيطرة ، غير أنك في دورات القدر والمصير كلها لاترى أمة واحدة من هذه الأمم تؤسس بدافع من حركتها الذاتية ما نسميه نحن ، من وجهة نظر غربية ، حكم الذات. هذه هي الحقيقة . ثم يضيف "بلفور " قائلا : أهو خير لهذه الأمم العظيمة - وأنا أعترف بعظمتها- أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق ؟ في ظني أن ذلك خير . وفي ظني أيضا أن التجربة تظهر أنهم في ظل هذا النمط عرفوا حكومة أفضل بمراحل مما عرفوه خلال تاريخ عالمهم الطويل كله ؛ وأنها ليست مصدر نفع لهم فقط ، بل هي دون شك مصدر نفع للغرب المتحضر بأكمله.نحن في مصر لسنا من أجل المصريين فحسب ، مع أننا فيها من أجلهم، نحن هناك أيضا من أجل أوروبا كلها "

هذه المقتطفات من خطاب "بلفور" في مجلس العموم البريطاني عام ١٩١٠ وقف أمامها طويلا الدكتور إدوارد سعيد فبين أهم ملاحظتين وهما : المعرفة والقوة ."فبلفور "يبرر ضرورة

---

(١) المرجع السابق ،ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ .

الإحتلال لمصر بالتفوق بمعرفة الإنجليز لمصر ،المعرفة التي تعني المسح الشامل لتاريخها وأحوالها ، المسح الكامل لحضارة من أصولها الأولي إلي ذروتها، ثم إنحطاطها ، وتعني امتلاك القدرة علي القيام بهذا المسح .

وفي نهاية المطاف يقربنا د. إدواردسعيد من لُباب المعرفة الأساسية التي تشرح العلاقة العضوية بين الإستشراق والإستعمار .تلك المعرفة التي ردها إلي نوعيها: الجامعي ، والعلمي والتي ورثها "بلفور" و"كرومر" عن قرن من الإستشراق الغربي الحديث .معرفة حول الشرقيين ، بعرقهم وخصائصهم ، وثقافتهم ، وتاريخهم ، وتقاليدهم ، ومجتمعاتهم، وإمكانياتهم . وكانت هذه المعرفة فعالة . وقد آمن" كرومر" بأنه وضعها موضع التنفيذ في حكمه لمصر . وإضافة إلي ذلك ، فقد كانت معرفة موثقة بالامتحان ، وغير قابلة للتغيير ، مادام "الشرقيون"، عمليا ، جوهرا أفلاطونيا (جوهرا ثابتا) * يستطيع أي مستشرق ،أو أي حاكم للشرق ، أن يتفحصه ، ويفهمه ، ويعرضه ، وهكذا ، ففي الفصل الرابع والثلاثين من كتاب "كرومر" ذي المجلدين "مصر الحديثة" وهو السجل الجليل لتجربته وإنجازاته ، يثبت ما يمثل شرعا شخصيا للحكمة الاستشراقية حيث يقول "كرومر" :

قال لي "سير ألفرد لاتل" مرة : إن الدقة كريهة بالنسبة للعقل الشرقي ، وعلي كل إنسان أنجلو هندي أن يتذكر هذا المبدأ الأساسي .والإفتقار إلي الدقة، الذي يتحلل بسهولة ليصبح انعداما للحقيقة ، هو في الواقع الخصيصة الرئيسية للعقل الشرقي . الأوروبي ذو محاكمة عقلية دقيقة ، وتقريره للحقائق خالٍ من أي التباس ، وهو منطقى مطبوع ، رغم أنه لايكون قد درس المنطق ، وهو بطبيعته شاك ويتطلب البرهان قبل أن يستطيع قبول حقيقة أي مقولة ، ويعمل ذكاؤه المدرب مثل آلة ميكانيكية . أما عقل الشرقي فهو علي النقيض ، مثل شوارع مدنه الجميلة صوريا،يفتقر بشكل بارز إلي التناظر. ومحاكمته العقلية من طبيعة مهلهلة إلي أقصي درجة . برغم أن العرب القدماء قد اكتسبوا بدرجة أعلي نسبيا ، علم الجدلية (الديالكتيك) فإن أحفادهم يعانون بشكل لامثيل له من ضعف ملكة المنطق ، وغالبا ما يعجزون عن إستخراج أكثر الإستنتاجات وضوحا من أبسط المقدمات التي قد يعترفون بصحتها بدءا .خذ علي عاتقك أن تحصل علي تقرير صريح للحقائق من مصري عادي ، فسيكون إيضاحه بشكل عام مسهبا ،ومفتقرا للسلامة ، ومن المحتمل أن يناقض نفسه بضع مرات قبل أن ينهي قصته ، وهو غالبا ما ينهار أمام أكثر عمليات التحقيق ليناً"

وهكذا يظهر الشرقيون والعرب سُذَجا ًغافلين ، محرومين من الحيوية والقدرة علي المبادرة ، مجبولين علي حب "الإطراء الباذخ" والدسيسة" ، والقسوة علي الحيوانات ،والمكر ،والكسل، وسوء

* الجوهر في الفلسفة الأفلاطونية هو طبيعة الشيء الباطنة التي تحتمل عليها أعراض الشيء فالجوهر الحامل لأعراض الشيء المتغيرة

الظن ، والفوضي. وهم في كل شيء علي طرف نقيض من العرق الأنجلو - ساكسوني في وضوحه ، ومباشرته ونبله .

ولا يحاول "كرومر"إطلاقا أن يُخْفِي حقيقة كون الشرقيين بالنسبة له، دائما وحصرا ، المادة الإنسانية التي قام بحكمها في المستعمرات البريطانية . و"كرومر" يصرح مباشرة بأن الشرقي بوجه أو بآخر، وبشكل عام ، يتصرف ،ويتحدث، ويفكر بطريقة هي النقيض المطلق لطريقة الأوروبي . ويعلق الدكتور "إدوارد سعيد " علي ذلك بقوله ليس لدي "كرومر" من شك في أن أي معرفة بالشرق ستؤكد سلامة آرائه التي تعتبر الشرقي ،كما يتضح من وصفه لإنهيار المصري أمام التحقيق ، مذنبا. وكانت جريمة الشرقي ،أنه شرقي (١).

ويقول الدكتور محمد عبود (٢)"إن الاسشراق ظاهرة معقدة بالنسبه للدارس ، نظراً للتغيرات المختلفة، ولاسيما تلك التي حدثت إبان القرنين التاسع عشر والعشرين.حيث بلغت هذه الظاهرة أعلي مراحل تطورها . وبوسعنا أن نرجع سمة التعقيد تلك إلي عدة أسباب، مثل تزايد عدد التقاليد الوطنية التي أسهمت في عملية الاسشراق (كالبريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية). والبعد المتنوع المتعدد لهذه التقاليد وما تدخل في صنع هذه التقاليد من علوم مختلفة .أومختلف القوي الاجتماعية والسياسية، والعديد من التيارات الفكرية التي مارست ضغوطا خارجية علي أبرز المستشرقين ، عبرفترات زمنية مختلفة .وكذلك تنوعت أساليب المعالجة (المداخل) وطرقها التي طبقها الدراسون المستشرقون علي الدراسات الإسلامية من حيث الزمان و المكان،"و يسوق الدكتور محمدعبود مثالا في الدراسات الاستشراقية يمثل في واقع الأمر نموذجا للتناقض بين الرؤية الاسلامية،أوبمعني أدق رؤية المسلم في الإيمان بالله و الرسل السابقين، و بين الرؤية الاستشراقية - يهودية أو مسحية أو إلحادية للإسلام بإنكار أنه رسالة سماوية .فيقول بأن أثرالأديان والأفكار والحضارات المختلفة وغير ذلك علي الاسلام موضوعا مألوفا في مؤلفات المستشرقين الغربيين . وهناك يبرز مدي الاختلاف في المنظور .فإن ماقيل عن تأثيرات علي الإسلام ليس موضع الاختلاف، وإنما طبيعته ،هي التي موضع اختلاف . فالإسلام كما يراه المسلمون هو ذروة ما وصلت إليه رسالة التوحيد الموحي به إلي البشرية، من خلال الأنبياء عبر العصور ، وفق سياق كل فترة من الفترات . إلي أن أرسل في النهاية خاتم الأنبياء محمد صلي الله عليه وسلم . ومن ثم نجد أن جوهر رسالاتهم ينبع من المصدر نفسه ، علي الرغم من تنوع تعليماتهم ولغاتهم وكتبهم ، والطرق التي إتخذوها لتحقيق تلك الرسالة . والإسلام يتطابق مع رسالات الأنبياء الكتابيين ، ويشاركهم في محاولة رفع مستوي الإنسان روحيا بإعتباره إنساناً .

---

(١) إدوارد سعيد - الاستشراق - مرجع سابق - ص ٧٠

(٢) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الجزء الأول - مطبعة مكتب التربية العربى لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ص ٣٤٥ إلى ص ٢٥٣

فالمسلمون لاينكرون الصلة بين دينهم وبين سائر الأديان ؛ والثقافات ، ولكنهم يختلفون مع المستشرقين إزاء طبيعة هذه الصلة . فمن السمات الشائعة في الدراسات الاستشراقية الميل إلي دراسة الإسلام باعتباره إفرازاً لحضارات ليست إسلامية . وبعضهم يجرد الإسلام من أية سمات إبداعية أوأصليه. وذلك بطبيعة الحال لا ينفي وجود كتابات استشراقية قليلة تسلم للعرب ببعض التجديدات ، ومثال ذلك ما كتبه "جورج سارتون " من جامعة "هارفارد " بأن التجديدات العربية للرياضيات الجديدة ، وعلم المثلثات الجديد ، تقوم أساسا علي مصادر " سانسكريتية " و "إغريقية"، و لكن ذلك - على حد قوله - لايقلل من شأن إبداع العرب في الحالتين السابقتين ، لأن علماء الرياضة العرب لم يستنسخوا من المصادر الإغريقية و السنسكريتية ، صورة طبق الأصل . و لكنهم جمعوا بين الحضارتين و طعموا الأفكار الإغريقية بالأفكار الهندية . ويتساءل "سارتون "إن لم تكن هذه الإنجازات ابتكارات فليس ثمة ابتكارات في العلم إذن؟!.إن الابتكار العلمي في الحقيقة ما هو إلا نسيج موحد من خيوط متفرقة ، وربط عقد جديدة . فليس ثمة إختراعات تظهر من عدم .

ويورد الدكتور البنداق (١) نبذة عن ترجمات القرآن الكريم فيقول بأن "جهود المستشرقين والمستعربين انحصرت بوجه خاص في درس القرآن الكريم ، وبإهتمامهم بترجمة هذا الكتاب العظيم من لغته الأصلية أو فيما بعد ، من ترجمته ، إلي سائر اللغات الأوروبية والأمريكية . وتُجْمِع المراجع العديدة التي أمكن للدكتور البنداق الاطلاع عليها والتي عالجت هذا الموضوع ، تُجْمِع علي ما يأتي :

١. أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية ، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير "كلوني" Clugny بجنوب فرنسا ، الراهب بطرس المجل Pierre Venerable وكان ذلك سنة ١١٤٣ م . وعلي يد راهب إنجليزي يدعي روبرت Robert ، وراهب الماني يدعي هرمان Her-man .

٢. جابهت الدوائر الدينية المسيحية هذه الترجمة بإتخاذها من مخطوطتها موقفاً حازماً ، وهو منعها من الظهور بعد أن اعتبرتها هذه الدوائر ـ عاملا مهما من شأنه أن يُسَهل التعريف بالإسلام ، وإنتشار هذا الدين بدلا من أن تخدم الهدف الذى سعت إليه الكنيسة أصلا وهو محاربة الإسلام.

٣- ظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير ،ولم تصدر إلا فى سنة ١٥٤٣م أي بعد مئات من السنين على وضعها، حتى قيض لها الظهور فى مدينة بال Bale (بسويسرا) على يد الطابع "ثيودور بيبليباندر" Theôdore Biblinader . وبعد أن تم طبعها، اعتمدت لمدة طويلة أساسا للترجمات إلي عدد من اللغات الأوروبية.

(١) محمد صالح البنداق - المستشرقون وترجمة القرآن الكريم - الطبعة الثانية ـ منشورات دار الأفاق الجديدة ـ بيروت ـ١٩٨٣.صـ ٩٥

٤- تقول المصادر التى بين يدى الدكتور البنداق أنه بعد صدور طبعة من هذه الترجمة، على يد العالم الإيطالى باغانينى Paganini ، أمر البابا بولس الثالث باتلافها ولم تسمح الكنيسة بطبع ترجمة القرآن الكريم باللاتينية إلا فى عهد البابا ألكسندر السابع (١٥٥٥ - ١٥٦٧).

٥- بعد ذلك أخذت الترجمات تتوالى بالعديد من اللغات، ومنها العبرية، التى وضعها حاخام جزيرة زانتى Zante يعقوب بن اسرائيل عام ١٦٣٤ نقلا عن الترجمة اللاتينية.

هذا بطبيعة الحال غير ترجمات المسلمين غير العرب كالفرس والأتراك والباكستانيين والماليزيين والأندونسيين وغيرهم."

وقد اكتشف الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة (عام ١٩٦٩) وكان يعمل خبيرا فى الشئون المعنوية بالجيش المصرى، أن أحد الخبراء الروس للشئون المعنوية يعد بحثا عن الروح القتالية في القرآن ، كما يفهمها جند مصر. وعندما سأله الدكتور عبد الحليم عن الموضوع رد الضابط الروسى بأنه يجرى بحثا للدكتوراه فى جامعة موسكو، برغم أن وظيفته فى الجيش، وأن مهمته فى الجيش المصرى كانت إلقاء محاضرات عن الأبطال الروس فى الحروب.

ويفرق الدكتور "إدوارد سعيد" بين الإستشراق الكامن ذلك الإستشراق المتمثل فى الصورة التراكمية غير الواعية والتى تشبه جسدا من الأفكار والمعتقدات والشعائر اللغوية حول الشرق، وبين الإستشراق الظاهر المتمثل فى الدراسات التاريخية حول الشرق والدراسات اللغوية والآداب وما إلى ذلك. ويرى أن الاستشراق الكامن فى صورة ثابتة، لا تكاد تتغير. ويمكن تخصيص الفروق فى الاستشراق الكامن بين أفكار مستشرق وآخر، وهى فروق فى الشكل والأسلوب الشخصى، ونادرا ما كانت فروقا فى المضمون (١).

وفى أواخر القرن التاسع عشر، ومنذ المؤتمر الأول للاستشراق عام ١٨٧٣، عرف الباحثون فى هذا الحقل أعمال بعضهم البعض بصورة شديدة المباشرة . ومن جانب آخر أصبح معظم المستشرقين البارزين مشدودين إلى بعضهم سياسيا. وتولى البارزون منهم مناصب ترتبط بأعمالهم الإستشراقية. فقد انتقل "سنوك هير غرونج" مباشرة من دراسته للإسلام ليشغل منصب مستشار الحكومة الهولندية فى الشئون الإدارية لمستعمراته الأندونيسية المسلمة. كما كان ماكدونالد وماسينيون يستشاران على صعيد واسع من الإدارات الاستعمارية الأوربية باعتبارهما خبيرين فى القضايا الاسلامية ، من شمال أفريقيا إلى باكستان . (٢)

وفى أوائل القرن العشرين نجد صورة الاستشراق فى الثقافة الأوربية استطرادا ، وتواترا لما

---

(١) إدوارد سعيد - الإستشراق - مرجع سابق ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠ . ص ٢٢١

كان فى القرن التاسع عشر ، وورثت الثقافة الأمريكية هذه الصورة ، كما ورثت الولايات المتحدة الامريكية النفوذ البريطانى الفرنسى والأوربى بصفة عامه فى الشرق . وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية . وبسبب الصراع العربى الإسرائيلى قبيل النصف الثانى من القرن العشرين أصبح المسلم العربى شخصية فى الثقافة الشعبية الأمريكية . وأصبح الاستشراق الأمريكيى أكثر تخصصا وتشابكا وأكثر تحيزا ضد الاسلام وضد العرب .

يقول الدكتور إدوارد سعيد (١) فى الأفلام والتلفاز يرتبط العربى ، إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم ، ويظهر منحلا ، ذا طاقة جنسية مفرطة ، قديرا دون شك على المكيدة البارعة المراوغة ، لكنه جوهرا ، سادى ، خؤون ، منحط ، تاجر رقيق ، راكب جمال ، صراف ، وغد، متعدد الضلال ، هذه بعض الأدوار التقليدية للعربى فى السينما . وفى أشرطة الأخبار يظهر العرب دائما بأعداد ضخمة . لا فردية ، لا خصائص أو تجارب شخصية . وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعى، والإشارات والحركات اللاعقلانية والشاذة . وخلف هذه الصور جميعا يتربص خطر الجهاد المهدد . والعاقبة هى الخوف من أن المسلمين أو العرب سوف يحتلون العالم .

وتنشر الكتب والمقالات بانتظام عن الاسلام والعرب ، دون أن تمثل تغيرا إطلاقا ، بالقياس إلى الكتابات التى سادت القرون الوسطى وعصر النهضة ضد الإسلام والعرب . حتى إن دليل المقررات الدراسية لعام ١٩٧٥ فى كلية كولومبيا عن برنامج اللغة العربية يزعم إن كل لفظ من لفظين فى اللغة العربية له علاقة ما بالعنف .. !

وأن العقل العربى كما ينعكس فى اللغة تَبَجُحى دون انقطاع . وكتاب عن الإسلام يقول : بدأ الدين الإسلامى ، المسمى الإسلام ، فى القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثرى من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد . وقد ادعى أنه نبى ووجد أتباعا بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا ليحكموا العالم . ثم تتلو هذه النتفة من المعرفة نتفة أخرى مثلها ، تقول : بعد موت محمد بقليل ، سجلت تعاليمه فى كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام .

ويعلق الدكتور إدوارد سعيد قائلا : هذه الأفكار تلقى الدعم ، لا النقض ، من قبل الجامعى الأمريكي الذى هو متخصص فى دراسة الشرق العربى ..!

والإسهام الأمريكى فى تاريخ الاستشراق هو أن المستشرق لم يعد دارسا للغة ، وإنما باحث اجتماعى يطبق علمه على الشرق . لكن المستشرق الجديد ، على أية حال ، ورث مواقف العدائية الثقافية واحتفظ بها .

وخلاصة القول فى خطورة الاستشراق باعتباره وسيلة للغزو الثقافى أن هذا التراث المعادى

(١) المرجع السابق ص ٢٨٧

للثقافة العربية الاسلامية تسلل إلى عقول رواد التغريب فى الوطن العربى وأرواحهم وأصبحوا هم بتعديلات طفيفة ، وتلفيقات كثيفة ، تجار التجزئة لمخزون هائل من الإنتاج الفكرى المعادى للإسلام وللعربى باعتباره إنساناً وآدمياً .

إستمرار حركات التحريف والتشويه للإسلام :

فى سلسلة الحركات التى تظهر بين الحين والآخر مُحْرِفَةً للإسلام ومشوهة له ، مثل البهائية والبابية والقاديانية وغير ذلك ، ظهرت فى القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية حركة من هذا القبيل اعتمدت على مشاعر الزنوج فى مجتمع تشوبه شوائب التفرقة العنصرية حادة أحيانا ، وغير حادة فى أحيانٍ أخرى .

كانت البداية عام ١٩١٣ على يد أحد الأمريكيين السود من ولاية نورث كارولينا(١)، وكان يطلق على نفسه اسم النبيل على إلا أنه لم يعرف حتى الآن اسمه الحقيقى، قبل أن يبدأ دعوته، بدأ " على " هذا دعوته على نطاق ضيق ، حيث تركزت على جماعات صغيرة من السود الأمريكيين لاقناعهم بضرورة إقامة نواة مجتمع داخل أمريكا ، على غرار مجتمع العرب المسلمين فى الأندلس داخل أوربا فى العصور الوسطى .

في أعقاب وفاته ، انقسم أتباعه على بعضهم البعض ، حيث شكل كل منهم جماعة جديدة صغيرة ، ولم يستغرق الأمر عدة أسابيع بعد وفاة النبيل ، حتى ظهر فجأة فى شهر يوليو عام ١٩٣٠ شخص غامض فى مدينة ديترويت لم يعرف سوى باسم فارض وكان يعمل بائعا جائلا للحرير، وقد أدعى هذا الفارض أنه قادم من مدينة مكة المكرمة حيث كان يعيش بها من قبل . وأدت ملامحة الشرقية إلى تصديق العديد من الناس له ، وسرعان ما نجح الرجل فى ترسيخ فكرة كونه رسولا من الله لنشر الحرية والعدالة والمساواه لإخوانه السود فى أمريكا الشمالية . ولكن الأمر لم يقتصر على تلك المفاهيم البراقة ، وإنما تخطاها وجنح بها بنفس الشدة التى ذهب إليها الرجل الأبيض فى التفرقة ضد السود ، فطبقا لتعاليم فارض التى لا تمت للإسلام بأى علاقة ، أصبح الإنسان الأبيض هو الشيطان نفسه . وسرعان ما نجح هذا الفارض فى إعادة توحيد معظم الجماعات التى انشقت بعد وفاة النبيل على ، وإعادة تنظيمها بشكل جيد ، وتوسيع دائرة التنظيم وتتويج ذلك بتأسيس جناح عسْكرى للتنظيم أطلق عليه اسم ثمرة الإسلام!!! ثم اختفى فارض .

وجاء بعده اليشا محمد الذى تولى زعامة جماعة أمة الإسلام بعد الاختفاء الغامض لفارض ، حيث قام الرجل بادخال المزيد من التشويه والخرافات على تلك العقيدة التى تتمسح باسم الإسلام .

---

(١) يحيى غانم - مليون أمريكى أسود يتبعون محتالا يستغل التفرقة العنصرية ويزيف القرآن - جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ - ٨ - ١٩٩٢ .

فبعد أن إدعى بأن أسلوب سلفه ليس سوى تجسيد لله زعم أنه رسول الله ، ولأن أسلوبه فى حشد مؤيدين له كان يعتمد على اللعب على وتر التفرقـــة العنصـــرية، والتى كانت تمارس ضد السود الأمريكيين ، فإنه زعم بأن الله قد خلق الإنسان فى الأساس أسود ، وكان تفسيره فى ذلك ساذجا، وهو أن الإنسان خلق من طين !! ويمضى فى نسج خيالات مريضة فيقول إن الإنسان الأبيض ليس من خلق الله ، وإنما مسخ صنعه سيدنا يعقوب عليه السلام . وأن الإنسان الأبيض هو المسؤل عن جميع الاضطرابات فى العالم !! مزاعم كاذبة ولكنها كانت براقة نظرا لحجم الغضب المكبوت فى صدور السود تجاه البيض فى ذلك الوقت .

ويمضى اليشا محمد فى نسج خيالاته المريضة ، فيدعى أن الإسلام كان ديانه خاصة بالسود ، الذين ينتمون إلى قبيلة أسماها شاباس التى هبطت من السماء على الأرض منذ ٦٦ تريليون سنة ، على حد زعمه !! ويوغل الرجل فى تخاريفه فيقول إن الإسلام ابتلى بالبيض الذين كانوا على شكل مسخ نجح سيدنا يعقوب فى خلقه على مدار ٦٠٠ عام، وأن هؤلاء المسوخ البيض حكموا وسيطروا منذ ٦٠٤٥ عام بواسطة الخديعة والنفاق والدس !

وعلى مدى ١٣ عام منذ توليه قيادة جماعة أمة الإسلام نجح اليشا محمد فى كسب أكثر من ١٠٠ ألف من الأنصار والمؤيدين ، كلهم من السود ، حيث كان من المنطقى منع إنضمام أعضاء بيض ، بالإضافة إلى ثروة طائلة ، وصلت إلى أكثر من ٢٠ مليون دولار ، أموالا سائلة فى البنوك، و١٥ ألف فدان أرض زراعية ، ومزارع وماشية ، وصحيفة وصل توزيعها إلى ٥٠٠ ألف نسخة ، وعشرات الطائرات الخاصة ، وعشرات المطاعم ، ومحلات السوبر ماركت ، والمخابز ، وشركة كبرى للاستيراد والتصدير بالإضافة إلى ٧٦ مسجدا فى جميع أنحاء الولايات المتحدة !! .

ولعل كاسيوس كلاى ، محمد على كلاى فيما بعد ، البطل الأسطورى للعالم فى الملاكمة ، يعد واحدا من أشهر من أتبعوا التعاليم المحرفة لجماعة أمة الأسلام ، حيث كان من أشد مؤيدى اليشا محمد وذلك قبيل أن يهتدى إلى الطريق السليم، ويعود إلى تعاليم الإسلام الحنيف .

ولكن نقطة التحول الحقيقية كانت عام ١٩٤٧عندما انضم مالكوم اكس داعية حقوق الإنسان الشهير فيما بعد أثناء تمضية عقوبة السجن عامين حيث كان أعوان اليشا يمارسون التبشير ، وبعد خروج اكس من السجن وفى غضون سنوات قليلة أصبح من أبرز وأنشط أعضاء جماعة أمة الاسلام، حتى جاء عام ١٩٦٣ عندما ثار خلاف بينه وبين اليشا محمد بسبب ماوصف بسلوكيات اكس الفردية . وبناء على ذلك تقرر تعليق عضوية اكس فى الجماعة لمدة ثلاثة شهور أعلن قبل انتهائها انفصاله من الجماعة ، وعزمه على تأسيس حزب قومى للسود . بعد ذلك بشهر واحد سافر مالكوم اكس إلى مصر والسعودية حيث أعلن هناك توبته عن تعاليم اليشا وإسلامه حقا ، وفور عودته من مصر والسعودية بدأ اكس فى إعادة تنظيم جماعته إلا أنه بعد مرور ثمانية أشهر

اغتيل برصاصات مجهولة المصدر ، وإن كانت الشبهات حامت حول جماعة أمة الإسلام .

إلا أن اكس لم يكن أول المتمردين على تعاليم جماعة أمه الإسلام ، وإنما سبقه فى التمرد أقرب الناس إلى اليشا محمد وكان ابنه وارث الدين محمد الذى أعلن عام ١٩٦٠ أن والده أفاق ومخادع وأنه ليس رسولا من الله ، وأن فارض ليس تجسيدا لله ، وأنه يجب على الجميع أن يتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإسلام الحنيف ، وعلى الفور تم طرد وارث الدين من الجماعة وتم استنزال اللعنة عليه حتى تراجع عن تمرده وتوبته وكشفه عن حقيقة والده ، ولكنه يبدو أن تراجع وارث عن هذا لم يكن سوى خطوة تكتيكية عندما اكتشف أن الوقت ليس مواتيا لمثل هذا الموقف ، ولذا فإنه بمجرد تسلمه قيادة جماعة أمه الأسلام بعد وفاة والده اليشا عام ١٩٧٥ بدأ فى تنفيذ خطة وضعها من قبل لمحاولة هداية أتباع الجماعة أمة الإسلام هذه ، وكان ذلك على يد ادجار هوفر الرجل الذى رأس جهاز مكتب التحقيقات الفيدرالية - المخابرات الداخلية - المعروف - أختصاراً إف بى آى. ضرب هذا الرجل الرقم القياسى فى رئاسة هذا المنصب الخطير، كما أنه كرس جانبا كبيرا من وقته فى ضرب حركة أمة الاسلام ليس لأفكارها البعيدة كل البعد عن الاسلام ، وإنما لما تمثله هذه الأفكار من تهديد للنظام السياسى والاجتماعى . وخاصة مع تزايد ثروتها وأنصارها . ولم يكن "هوفر" وحده في تلك الحرب ، وإنما كان يقف معه جهاز وكالة المخابرات المركزية :« سي، آي ، ايه .» وإذا كان الجهازان قد إعتمدا في ضربهما لجماعة الفهود السوداء إحدي جماعات السود التي تتبني العنف للمطالبة بالمساواة ، علي العنف المضاد ، فإنهما إعتمدا علي العامل الإقتصادي في تدمير جماعة أمة الإسلام .

وحيث أن الثروة كلها كانت مركزة في أيدي وحسابات "اليشا محمد" فإن ذلك سهل من ضربها بهدف إفلاسها وإغراقها في الديون، بالإضافة إلي ذلك، لجأت أجهزة المخابرات الأمريكية إلي أسلوب تجنيد بعض من أعضاء الجماعة لحسابها، كما دست بعضا من عملائها داخل أعضاء الجماعة.

ولم تسفر مساعي أجهزة المخابرات الأمريكية عن تدمير الجماعة فورا ، وإن بدا للعاقلين من قياداتها أن الهزيمة واقعة . وبناء علي ذلك كانت "لوارث الدين" وقفة غيرت مسار حركة الإسلام بين السود الأمريكيين . كانت الوقفة هي تغيير جذري لسياسات الجماعة ، الأمر الذي يعني ببساطة العودة إلي الإسلام السمح و العودة للحق ، إلا أن الأمر لم يتم بهذه البساطة ، فقد أدي ذلك لانقسام أمة تحمل اسم الإسلام إلي جبهتين متنافستين داخل المجتمع الامريكي .

وفي داخل المجتمعات الإسلامية تسعي بعض هذه الحركات إلي التسلل بغية قتل الروح الإسلامية فقد كتب عبد الله كمال (١) في روزاليوسف (عام١٩٩٣) يقول :"خرجت شائعة مثيرة

(١) روز اليوسف العدد ٣٣٨٠ بتاريخ ٢٢ - ٣ - ١٩٩٣ .

من سجن طره ، تقول : إن هناك أربعة جواسيس من الولايات المتحدة ألقى القبض عليهم مؤخرا في قضية خطيرة .لم تنشأ الشائعة من فراغ، فقد دخل الأ مريكان سجن ليمان طره منذ أسبوعين ، لكن القضية لم تكن تجسسا ، و إن كانت تؤدي في النهاية إلي نفس النتيجة :ضرب المجتمع من الداخل.. ورغم هذا خرج المساجين الأربعة من الزنزانة ، كما تخرج الشعرة من العجين ، و بدون أي عقوبة !! بدأت القصة منذ عامين ، عندما أبلغ موظف أمريكي ، في شركة بترول ، معارفه المصريين بأنه مسلم .. ولم يكتف بهذا ، ويبدأ يصلي أمامهم بطريقة وصفت بأنها محرفة . ومن جلسة إلي أخرى بدا أن هذا الأمريكي ليس وحده وأن هناك ثلاثة غيره معهم "نيوزلندي "، يروجون لتقاليع علي أنها الدين الاسلامي .. بطريقة ابتكرتها جمعيات أجنبية تصل "بالهدف " مباشرة إلي أحد مذاهب المسيحية ، ولم تكن هذه قضية تبشير عادية ، إذ تختلف تماما عن قضية تبشير ضبطت العام الماضى في " ميت عقبة " ، عندما رحل أروبيان - بعد أن رصدا أمنيا - يقدمان أدوية و أموالا و كتبا لفقراء المنطقة .. و من ثم يدخلان من هذا الباب إلي عقول أصحاب الحاجة ، وتفتح المناقشة ، التي تنتهي بترك الرجل لدينه.. وإثارة المشاعر ، ثم اشتعال الفتنة الطائفية بأيد أجنبية .لكن القضية الأخيرة لم تكن كذلك ..فالفريق الأ جنبي كان يقدم هدايا مميزة ، ليست أدوية يحتاجها فقير لتشفية من مرض ..و لكنها أشياء يمكن أن تسبب شعورا بالسعادة .. ملابس مثلا ، أو جهاز راديو أو خلاط .. وغير ذلك . وبعد تقديم الهدية ، يبدأ دس السم في العسل ..فيقول "الأمريكي للمصري إن الإسلام للمسلمين والمسيحية للمسحيين " .. ومن هنا يضمن أن تبقي العقول في حالة استسلام ، بعيدة عن موقف الاستنفار الديني ، والعداء المذهبي ، إلا إن الأ مر لا يقف عند هذا الحد.. فمن التعارف ، إلي الهدية ، إلي زيارة البيوت حيث يري المصريون من الأجانب تقاليع دينية جديدة ، و ملفتة .. فالآذان يرفع بدون أن يتضمن اسم الرسول ، والصلاة تؤدي بالعكس ، وآيات القرآن تحرف ، اعتمادا علي أن المستمعين من ضعاف الثقافة .. الذين قد يستمعون لآية فتمر عليهم فيها كلمات جديدة تقلب المعني ، بدون أن ينتبهوا . و تبدو تلك الطريقة مختلفة إلي حد كبير ، عن أساليب أخري كانت معروفة من قبل .. مارسها أجانب ، ثم ضبطوا ورحلوا .. وحسب ما يقوله الدكتور رفيق حبيب فإن أغلب هؤلاء الأوروبيين والأمريكيين كانوا يستخدمون في التبشير أسلوبهم في حياتهم الغربي .. يعتمدون فيه علي مناهج الدعاية التي تقدم الدين ، وكأنها تعلن عن قطعة شيكولاتة أو صابونة برائحة جديدة ". وبثت وكالة الأنباء العالمية "رويتر" من القاهرة خبرا يوم ١٢ مايو ١٩٩٣ وفى ١٣ مايو ١٩٩٣ تنشر الصحف العربية الخبر : مصر تفرج عن أربعة مبشرين حاولوا تنصير مسلمين (١). القاهرة رويتر ـ قالت محامية عن أربعة غربيين مسيحيين

---

(١) جريدة عمان - بتاريخ ١٣-٥ - ١٩٩٣ ص ١٧ - ، عمود ٤ .

كانوا معتقلين بتهمة محاولة تنصير مسلمين أمس أن السلطات المصرية أفرجت عنهم . وقالت مجيدة رشوان أن الرئيس حسني مبارك أمر الأسبوع الماضي بالإفراج عن الأربعة الذين كانوا معتقلين منذ مارس الماضي . وأضافت أن ثلاثة أمريكيين غادروا القاهرة إلي قبرص يوم الإثنين، أما الرابع وهو نيوزيلندي سيرحل قريبا . وبموجب قانون الطوارئ الساري منذ عام ١٩٨١ يمكن للسلطات اعتقال مشتبه فيهم دون توجيه اتهام لفترات غيرمحددة . والأربعة يعملون موظفين أو مستشارين في شركة "اندستيريال سيستمز اند كومبوننتس " ومقرها في الولايات المتحدة ، التي تعمل في توزيع مساكن مؤقتة ، وأجهزة كمبيوتر مستعملة ، و سلع أخري في الشرق الاوسط ، لحساب شركات أمريكية صغيرة ومتوسطة .

الغزو الثقافي في العمارة و المساكن

يقول وزير التعمير الجزائري (١٩٨٥) عن الغزو الثقافي في المجال المعماري و المجال الهندسي إن ميدان التعمير والهندسة والعمارة ميدان ثقافي . وعلى ذلك فهي موضع غزو. إن كيفية تنظيم حجرات السكن وتقسيمها شقة وأخري ، يرتبط بالعلاقات الإنسانية و الاجتماعية .فالفن الهندسي مرتبط بالمجتمع ، لذلك نجد تباينا بين الإنتاج الهندسي المعماري الأوروبي ، وبين العربي ، أو الصيني مثلا . وقال الوزير الجزائري : هناك ارتباط عضوي بين التفكير الدينى والهندسة المعمارية منذ القدم ، والهندسة المعمارية الغربية لم تقدم للفرد المسلم ولا للأسرة المسلمة المتطلبات الأساسية السكنية التي تلبي حاجاتهم .مثل صون حرمة العائلة . مثل تسهيل عملية الوضوء ، وما شابه ذلك (١) .

ومن أبلغ صور الارتباط بين الثقافة و المباني ، الكوارث التي تقع لبعض "العمارات" ويدفن فيها أصحابها ، لأنهم غشوا أو ارتفعوا بالطوابق فوق ما سمح به القانون أو علم الهندسة ، وهم غافلين ، أو غير مقتنعين بصرامة العلاقة بين التصميم وسلامة مواد البناء ، وبين انهيار المباني .

ويعلق أستاذ الهندسة بجامعة عين شمس الدكتور يحيى محمد (٢) عيد(عام١٩٩٢) علي عدم وضوح الرؤية المعمارية للشخصية المصرية بأنه يمثل صراعا بين القديم المورث الذي يمثل القيم والعادات المصرية ، والحديث الوارد وما يمثله من تكنولوجيا وحضارة غربية لها عاداتها ، وقيمها ، التي نقلدها ، بخيرها ، وشرها . ولعل الإعتبارات الإقتصادية التي تحكم عصرنا من أهم العوامل التي أدت إلي تدهور شديد في مستوي الأعمال المعمارية ، وإلي إغفال النواحي الجمالية ،في

(١) من كلمة لوزير التعمير الجزائري في ملتقي الفكر الاسلامي بالجزائري عام ١٩٨٥

(٢) من مقال أحمد عبد المعطي حجازي بعنوان روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار نشر بجريدة الأهرام في ١٩- ٨- ١٩٩٢

سبيل الحصول علي أقصي استثمار لرأس المال . ونحن نمر هذه الأيام بمرحلة حاسمة لها أبلغ الأثر في تكوين الملامح المعمارية ، والتخطيطية ، مرحلة تركت فيها المدينة المصرية للنمو العشوائي ، واختفت فيها شخصية المدينة و طابعها ، ودعائم ذاتيتها ، فكل شئ يتم دون أي ضابط ، مما يقضي علي أي جمال و يشجع علي إتلاف البيئة الطبيعية ، وتلويثها . مرحلة خلت فيها أغلب المباني من الاحتياجات الوظيفية ، بحجة الإقلال من التكلفة الاقتصادية ، وبدت غريبة علي البيئة والمكان ، لاتمت إليهما بأي صلة و اختفت المسطحات الخضراء وتحول الكثير من الفراغات العمرانية، والحدائق التي كانت موجودة في و سط الأحياء السكنية إلى مبان حكومية أو ما شابهها ، أو أسواق تجارية ، خلت جميعها من القيم الفنية ، تلك الصفة التي تمتع الحواس ، وتبعث الشعور بالتوافق بين التكوينات المعمارية و البيئة المحيطة . لقد اعتاد سكان المدن علي التلوث البيئي بكل أنواعه و اختلط الأمر علي الكثيرين من البسطاء ، والمتعلمين أيضا ، و منهم بعض المشتغلين بمهنة العمارة ، الذين يساهمون في هذا التدهور المعماري بقصد ، أو بدون قصد ، لإرضاء نزعات الملاك و أهوائهم ، فيقومون بتشكيل واجهات المباني في بهرجة بصرية تئن منها النفوس ،وتهدم ما تبقي من التذوق الفني لدي المجتمع .

ولو أنك تجولت في أنحاء المدينة لوجدت تشكيلات غريبة من الحوائط الصماء ، أو البلكونات التي أغلقها أصحابها كل حسب هواه ، وأضاف إليها إضافات ، ودهنها بألوان كل حسب مزاجه الشخصي ، والنتيجة هو هذا الخلط الغريب من الأشكال المختلفة ، التي تراها في أي شارع من شوارع القاهرة. معبرة عن الإنفصام الذي أصاب شخصيتنا ، وعن فقداننا هويتنا الثقافية. فإذا انتقلنا إلي كورنيش النيل ، وجدت العمارات الشاهقة التي نمت هنا وهناك مخالفة للمقياس والحس المعماري ، وخاصة تلك التي نراها في المناطق المؤدية للمعادي ، والتي شبت فيها إحدي الحرائق فأظهرت عدم إستكمالها لشروط الأمان ، وأكدت أنها مصدر خطر علي قاطنيها . ولو انتقلنا إلي أطراف المدينة وجدنا أن النمو العشوائي يزحف علي إمتداداتها العمرانية بشكل غير مخطط ، يزيد المشكلة تعقيداً ويؤدي إلي مزيد من المشاكل ، وعلي رأسها مشكلة التلوث العمراني، والبصري ، وهو من أهم عوامل التلوث البيئي لماله من تأثير ضار علي صحة الإنسان النفسية والفسيولوجية وعلي نشاطه وحجم إنتاجه .

إن ما يقوله أستاذ الهندسه المصري يكاد ينطبق علي عدد كبير من بلدان العالم الثالث ، التي تنتمي إليها الأغلبية العربية والإسلامية . وكما فرض الإستعمار الغربي غزوا في المباني ، فرضت الشيوعية غزوها . ومن يَزُرْ مدينة إسلامية قديمة مثل "طشقند " ، بعد تفكك الإتحاد السوفيتي ، في العقد الأخير من القرن العشرين ، يلحظ بجلاء شديد ، المدينة القديمة إسلامية المباني والمعمار، برغم أن الشيوعية خلال سبعين عاما حولت المساجد إلي مخازن ومصانع ، وغير ذلك ، والمدينة الجديدة التي لا أثر فيها لمسجد ولا فن إسلامي ، إنما هي نمط آخر كله شيوعي فيه تماثيل لينين ، ورموز الشيوعية ، وأفكارها وشعاراتها .

*مدخل الفصل الثالث : صور طبق الأصل لمنشورات الغزو الثقافي الغربي ضد العرب :



بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوي المبني على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابارته امير الجيوش الفرانساوية يعرّف اهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار في حق الملة الفرانساوية ويظلموا تجارها بانواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم ٠

وحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الابازا والكرجستان يفسدوا في الاقليم الاحسن الذي يوجد في كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على انقضاء دولتهم ٠

ياأيها المصريين قد قيل لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا المفترين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم ٠

وقولوا ايضا لهم ان جميع الناس متساويين عند الله وان الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضا هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم يتملكوا وحدهم كلما يحلو به حياة الدنيا ٠

حيثما يوجد ارض مخصبة فهي مختصة للمماليك والجواري الاجمل والخيل الاحسن والمساكن الاشهى فهذا كله لهم خاصة ٠

ان كانت الارض المصرية التزام للمماليك فليورونا الحجة التي كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى احد من اهالي مصر من الدخول في المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها ٠

سابقا في الاراضي المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما ازال ذلك كله الا الطمع وظلم المماليك ٠

ايها القضاة والمشايخ والائمة وياأيها الشوربجية واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرانساوية هم ايضا مسلمين خالصين واثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالليرية الذين كانوا يزعموا ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرانساوية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني واعداء اعدائه ادام الله ملكه ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم ٠

طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم طوبى ايضا للذين يقعدوا في مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا يعرفونا بالاكثر يتسارعوا الينا بكل قلب ٠

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم اثر ٠

المادة الاولى ٠

جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرانساوي فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر بعض وكلاء من عندها لكيما يعرّفوا المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا السنجاق الفرانساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر ٠

المادة الثانية ٠

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرانساوي تحرق بالنار ٠

المادة الثالثة ٠

كل قرية التي تطيع العسكر الفرانساوي الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوي وايضا نصب سنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه ٠

المادة الرابعة ٠

المشايخ في كل بلد ليختموا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكيلا يضيع ادنى شيء منها ٠

المادة الخامسة ٠

الواجب على المشايخ والقضاة والائمة انهم يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من اهالي البلد انه يبقى في مسكنه مطمئن وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريين باجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثماني ادام الله اجلال العسكر الفرانساوي لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية ٠

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ست من اقامة الجمهور الفرانساوي يعني في اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية ٠

صورة طبق الأصل لمنشور الحملة الفرنسية

على مصر عام ١٧٩٨ م



هذه مناداة من سار عسكر امير الجيوش الفرانسوية

الى سكان الجزائر واهالي القبائل

بسم الله المبدي المعيد وبه نستعين

صورة طبق الأصل لمنشور احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م

الى سكان غربي بيروت

ان آلاف كثيرة من اخوانكم قد استغلوا الفرصة التي اعطيت لهم وغادروا غربي بيروت واصبحوا يعيشون في حرية وامان ٠

ان وقف اطلاق النار يوفر فرصة لا تعوّض لسكان غربي بيروت لانقاذ حياتهم وحياة اعزائهم ٠ .

وانت الذي تتواجد في بيروت اليوم تذكر ان الوقت اخذ يتضاءل وكلما تأخرت كلما ازدادت المخاطر على سلامتك وسلامة اعزائك ٠

اعلم

ان محاور الخروج من المدينة الى الشرق والى الشمال مضمونة ٠

اسرع لئلا تتأخر ٠

اعلم

ان جيش الدفاع الاسرائيلي يعود ويؤكد على انه ليس معنيا باصابة المدنيين الابرياء ، ومن لا يشهر السلاح ضده ٠

اسرع وانقذ حياتك وحياة اعزائك قبل فوات الاوان ٠

قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي

صورة طبق الأصل من المنشورات الإسرائيلية
على لبنان عام ١٩٨٢ م



الفصل الثالث

المنشور الغربي وغزو العرب

(نموذج الارتباط العضوي بين المنشور وطلقات الرصاص)

* منشور الحملة الفرنسية علي مصر (عام ١٧٩٨) م .
* منشور احتلال الجزائر (عام ١٨٣٠ م) .
* المنشور البريطاني الذي طبع ولم يوزع علي مصر (عام ١٩٥٢ م).
* المنشورات الإسرائيلية علي لبنان (عام ١٩٨٢ م) .
  - الخلفية التاريخية .
  - الدراسة الوثائقية .
  - نص المنشور .
  - تحليل المضمون .
* التحليل المقارن .
* ملاحق الفصل الثالث (خطابات الصليبيين والتتار والبرتغاليين في غزو العرب) .

تمثل الحروب – كما يقولون – ذورة صراع الإرادات . وتمثل الذروة في القصة قمة منحني الإثارة . وتمثل هذه المنشورات بيانًا حاسمًا للغزو الثقافي ، لأن بعض عناصر هذا الغزو الثقافي ترتبط ارتباطًا عضويًا مع طلقات الرصاص ، بحيث لا يصبح المجال مجرد وهم أو محل بحث أو اختلاف ، وإنما هو الحياة والموت ، والبقاء والفناء . وهذه المنشورات التي واجَهَتْها المجتمعات العربية في مرحلتها الحديثة والمعاصرة ترتبط بسياق تاريخي يبعد زمنيا عن مرحلة الدراسة ، وفي هذا التاريخ البعيد نجد خطابات تشبه المنشورات تستحق النظر . لذلك نجدها ملحقة بهذا الفصل بغير تفصيل ، حتي لا تغيب ظلال التاريخ عن عيوننا ، ونحن نستحضر الوقائع التاريخية القريبة بحاضرنا ، ونُمَحصُها ، لنستخلص مَفَازَةً للمستقبل . وبمجرد رفع الستار عن هذه المنشورات تتدفق الأضواء لتظهر الصورة شديدة الوضوح ، لأن في كلماتها ، القضية ، وحيثيات الحكم فيها .

* منشور الحملة الفرنسية علي مصر (عام ١٧٩٨ م)

الخلفية التاريخية :

تَشْغَل الحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ م موقعا بارزا في تاريخ مصر الحديث . وذلك لاهتمام المؤرخين بعلاقتها ببداية اليقظة الشعبية المصرية ، ولعلاقتها بالتدخل الأوربي المباشر، والغزو الاستعماري المسلح ، للمنطقة العربية . وتاريخ الجبرتي [١] يسرد وقائع الغزو سرداً خبريًا فيقول :

« وردت مكاتبات من الثغر (يقصد الاسكندرية) ومن رشيد ودمنهور بأنه في يوم ثامن عشر من المحرم ١٢١٣ هـ (الموافق ٢ يولية ١٧٩٨م) وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فأرسلوا في البحر ، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل [٢] وبعض أهل البلد . فلما نزلوا إليهم عَوَّقُوهُم عندهم . فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي [٣] ، وطلعوا إلي البر ، ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة ، وكاشف البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم ، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر إلي التَتَرُّس في البيوت والحيطان ، ودخلت الإفرنج البلد، وانبعث فيها الكثير من ذلك العدد [٤] .

وكل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون .. فلما أعياهم اليعال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود ، وكثرة العدو وغلبته . طلب أهل الثغر الأمان ، فأمنوهم، ورفعوا عنهم القتال ، ومن حصونهم أنزلوهم . ونادي الفرنسيس بالأمان في البلد ، ورفع « بند يراته » عليها، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه ، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه ، وأن يضعوا «الجوكار » في صدورهم فوق ملبوسهم .

---

(١) تاريخ الجبرتي - طبعة دار الشعب - القاهرة - ١٩٥٨ ص٢٤٣ إلي ص ٢٤٥ .

(٢) كان القنصل في هذا الوقت ابن أخي « ماجاللون » القنصل السابق لفرنسا في مصر . (حافظ عوض - فتح مصر الحديث صـ٨٠) .

(٣) كانت قرية لصيد السمك صغيرة تبعد حوالي الأربعة الأميال غربي الاسكندرية . وكانت خطة بونابرت توزيع قواته لإنزالها إلي البر في جملة مواقع ، والاستيلاء في وقت واحد علي الاسكندرية ودمياط ، ثم التوغل من هذين المركزين في الدلتا والوصول إلي القاهرة بسرعة . (دكتور محمد فؤاد شكري - الحملة الفرنسية وظهور محمد علي صـ١٣٤) . والعجمي الآن حي من أحياء الاسكندرية .

(٤) لم يخسر الفرنسيون في فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلا ، مع ثمانين إلي مائة من الجرحي . (حافظ عوض - فتح مصر الحديث صـ١٠٤) .

« والجوكار » ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة في قَدْر « الريال » سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها حتي تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض .

ولما وردت هذه الأخبار مصر ، حصل للناس انزعاج ، وَعَوَّل أكثرهم علي الفرار والهجاج . وأما ما كان من حال الأمراء بمصر ، فإن « إبراهيم بيك » ركب إلي قصر العيني وحضر عنده «مراد بك» من الجيزة لأنه كان مقيما بها ، واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي ، وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث ، فاتفق رأيهم علي أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلي « إسلامبول». وأن مراد بيك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم . وانفض المجلس علي ذلك ، وكتبوا المكاتبة ، وأرسلها بكر باشا مع رسوله علي طريق البر [١] ، ليأتيه بالترياق من العراق [٢] . وأخذوا في الاستعداد للثغر ، وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام ، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن .

ثم ارتحل « مراد بيك » بعد صلاة الجمعة . وبَرَّزَ خيامه وَوطَاقَه إلي الجسر الأسود ، فمكث به يومين حتي تكامل العسكر وصناجقه ، وعلي باشا الطرابلسي وناصف باشا - فإنهم كانوا من أخصائه ومقيمين معه بالجيزة - وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود ، وسار من البر مع العساكر الخيالة وأما الرجالة - وهم الألداشات القلينجية والأروام المغاربة - فإنهم ساروا في البحر مع الغلايين الصغار التي أنشأها الأمير المذكور .

ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلي مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخن والمتانة ، طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعا ، لتنصب علي « البغاز » عند برج مغيزل من البر إلي البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل - وذلك بإشارة علي باشا - وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع ، ظنا منهم أن الأفرنج لا يقدرون علي محاربتهم في البر ، وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب ، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتي تأتيهم النجدة .

وكان الأمر بخلاف ذلك ، فإن الفرنسيس عندما ملكوا الاسكندرية ، ساروا علي طريق البر الغربي من غير ممانع . وفي أثناء خروج « مراد بيك » والحركة بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والإرجاف ، وانقطعت الطرق ، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد ، وانقطع مَشْيُ الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب ، فنادي « الأغا » والوالي » بفتح الأسواق والقهاوي ليلا ، وتعليق القناديل علي البيوت والدكاكين ، وذلك لأمرين : الأول - ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس . والثاني - الخوف من الدخيل في البلد .

وفي يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلي دمنهور ورشيد ، وخرج معظم

---

(١) بطريق البر .

(٢) هو مثل شعبي قديم ، نصه : « علي ما يجي الترياق من العراق ، يكون العليل مات » .

أهل تلك البلاد علي وجوههم ، فذهبوا إلي « فُوَّة» ونواحيها ، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء .

وقد كانت الفرنسيس - حين حلولهم بالاسكندرية - كتبوا مرسومًا وطبعوه وأرسلوا منه نسخا إلي البلاد التي يقدمون عليها .. تطمينا لهم . ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأساري الذين وجدوهم « بمالطة » ، وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة إلي بولاق - وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو يومين - ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس ، وهم علي شكلهم من كفار « مالطة » ، ويعرفون باللغات . » .

هذا السرد الخبري لوقائع الغزو يورده جورجي زيدان [1] بصورة تكاد تقترب من تحرير المجلات الذي لا يقف عند السرد وإنما يتعمق إلي التحليل ، وتفسير الحدث ، وربطه بالماضي والحاضر فيقول :

« كان بونابرت قد قَرَّ في البحر المتوسط وضم قسما عظيما من سواحله إلي فرنسا فطمع بمصر ، وقد أعجبه شأنها وما فيها من الخيرات . فكتب مخاطبا الإدارة الفرنسية : أن مصر أيها السادة أكثر الأرض خصبًا . وقد كانت « لرومية » قديما « وللقسطنطينية » الآن ، وفيها الحنطة (القمح) والأرز - وأنواع البقول والسكر والنيلة والقطن والسنا والخيار والنطرون والكتان والقنب ، وفيها أنواع الماشية والطيور الداجنة ، وقد اشتهرت بحسن حميرها ، وقوة جمالها. »

وظل بونابرت يعدد أهمية موقع مصر التجاري إلي أن قال : فما هي مستعمراتنا بالنسبة إلي هذه البلاد الخصبة الشاسعة الأطراف ، هلم إليها فنستغل من أرزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا ، وهي تغنينا عن محصولات أمريكا وتكفينا مؤنة الارتباط معها .

ثم عدد « نابليون » أهمية غزو مصر ، في ترجيح الكفة الفرنسية علي الكفة الانجليزية في التنافس بينهما . ثم ركز علي الأهمية التجارية لهذا الغزو . وقد ترددت الإدارة الفرنسية في قبول مشروع بونابرت في غزو مصر . ثم أمام إلحاحة وافقت. وأرسلت الإدارة الفرنسية «تاليران » مندوبا عنها إلي « الأستانة » لمخابرة الباب العالي بشأن تلك الحملة، وطلب مصادقته عليها ».

وفي ١٩ مايو ١٧٩٨ أبحرت الحملة من ميناء « طولون » الفرنسي فوصلت « مالطة » في ٩ يونية ثم وصلت الاسكندرية في ١٨ يونية .

ولقد استغل نابليون الأسري الذين وجدهم بمالطة ، ليحملوا المنشور إلي مصر قبل وصوله إليها . وكان هؤلاء الأسري من رعايا الدولة العثمانية - كما يذكر المؤرخ أحمد حافظ عوض [2]

---

(١) جورجي زيدان - تاريخ مصر الحديث - الجزء الثاني - مطبعة المقتطف - القاهرة - ١٨٨٩ م ١٣٠٦ هـ - صـ١٤٩ - صـ١٥٦ .

(٢) أحمد حافظ عوض - فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر - مطبعة مصر - القاهرة ١٩٢٥ صـ١٠١ - صـ١٠٢ .

- يبلغ عددهم السبعمائة أسير . وكان بعضهم من أهالي طرابلس والجزائر وتونس ومراكش وسورية وأزمير ومن « الأستانة » أيضا . وقد أمر نابليون بفك أسرهم ، كما أمر بأن يصرف لهم الغذاء الحسن ، واللباس الجيد ، وأن يعاملوا معاملة طيبة . ووزعت عليهم مبالغ من النقود يستطيعون بها السفر. وسلم إليهم نسخا من المنشور الذي أعده «نابليون» لتوزيعه علي الشعب المصري» .

هؤلاء هم الذين ذكر الجبرتي وصولهم إلي بولاق قبل الغزو بيومين ومعهم المنشور وبينهم بعض الجواسيس .

الدراسة الوثائقية :

يعد تمحيص أحمد حافظ [1] عوض لهذا المنشور توثيقا دقيقا من جانب وله دلالة مقصودة في الترجمة من جانب آخر . فقد لاحظ أن الأصل الفرنسي نقل إلي العربية بلغة ركيكة غير مضبوطة ، ولكن الأهم هو أن الترجمة ليست منطبقة علي الأصل الفرنسي تماما .

ويقول أحمد حافظ عوض [2] :

« نقل هذا المنشور « جورجي زيدان » و« شارويبم » في كتابيهما عن تاريخ مصر الحديث . وغير فيه الأول بضع كلمات بما يقابلها ، فكلمة شرع بدل ساوون في قوله متساوون عند الله . والكرج بدل الجركس . ونسي الثاني كلمة دينكم في قوله « إنني جئت لإزالة دينكم « فكتبها لإزالتكم » .

أما الخلاف بين الأصل والتعريب - مع التجاوز عن سوء الترجمة وأغلاطها - فهو أن الأصل في خزائن وزارة الحربية الفرنسية ، والموجود في مكاتبات نابليون تحت نمرة ٢٧٢٣ ، ليس فيه ذكر في مقدمته لما ورد في الترجمة « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا هو لا شريك له «وليس فيه عبارة » من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية » بل جاء في أوله: « من بونابرت عضو « الانستيسيو ناسيونال» والقائد العام، وأوله « إنه من زمان مديد إلخ » .

وجاء في الأصل : « وأنني أكثر من المماليك احتراما لله ونبيه وللقرآن » وفي «التعريب» أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي واحترم نبيه والقرآن العظيم» . وليس في الأصل مطلقا قوله : « قولوا إن الفرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون » . والذي فيه هو : «قولوا إننا أصدقاء للمسلمين الصادقين » . وفرق بين العبارتين كبير » .

---

(١) أحمد حافظ عوض - المرجع السابق - صـ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٠٨ .

نص المنشور

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له في ملكه

من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته .

يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي. فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها .

« فأما رب العالمين القادر علي كل شيء ، فإنه قد حكم علي إنقضاء دولتهم » .

يا أيها المصريون ...

قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح ... فلا تصدّقوه ، وقولوا للمفترين إنني ما جئت إليكم إلا لأخلصّ حقكم من يد الظالمين ،

وإنني - أكثر من المماليك - أعبد اللّه - سبحانه وتعالي - وأحترم نبيّه والقرآن العظيم.

« وقولوا أيضًا لهم إن جميع الناس متساوون عند اللّه ، وأن الشيء الذي يفرّقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ... فماذا يميّزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملّكوا مصر وحدهم ، ويختصّوا بكل شيء أحسن فيها: من الجواري الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة » .

« فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها اللّه لهم ! ولكنّ رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .

« ولكن - بعونه تعالي - من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالي مصرعن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبّرون الأمور ... وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

« وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر... وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك » .

« أيها المشايخ والقضاة ، والأئمة والجربجية وأعيان البلد ...

« قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري ، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصاري علي محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن اللّه - تعالي- يطلب منهم

مقاتلة المسلمين » .

« ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبّين مخلصين لحضرة السلطان العثماني ، وأعداء أعدائه - أدام الله ملكه - ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان، غير ممتثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم » .

« طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ! فيصلح حالهم ، وتعلي مراتبهم » .

« طوبي أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب » .

« لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر ! .

« المادة الأولي : جميع القري الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوه ، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر .

« المادة الثانية : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي - أيضًا - تنصب صنجان السلطان العثماني ... محبنا دام بقاؤه .

« المادة الثالثة : المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدني شيء منها .

« المادة الرابعة : الواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلي كل أحد من أهالي البلدان أن يبقي في مسكنه مطمئنًا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع علي العادة .

« والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله - سبحانه وتعالي - لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ : أدام الله إجلال السلطان العثماني !

أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي !

لعن الله المماليك !

* وأصلح حال الأمة المصرية *

*** تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ شهر سيدور من إقامة الجمهور الفرنساوي ***

تحليل المضمون :

ينصب تحليل مضمون هذا المنشور علي تحليل أساليب الإقناع والتأثير بصفة أساسية ، إلي

جانب وصف الاتجاهات التي ينطوي عليها هذا المضمون . ومن ثَمّ يمكن اكتشاف الأهداف الدعائية للمصدر الذي صدر عنه المنشور . وهذا التحليل هو ما ينصب علي كافة المنشورات في هذه الدراسة .

أما الوحدة التي تناسب تحليل مضمون المنشورات فهي وحدة الفكرة أو الموضوع Theme . وهي العبارة أو الجملة التي تتضمن الفكرة ، وهذا ما أخذت به في تحليل مضمون هذا المنشور وبقية منشورات الدراسة .

وفي مجال فئات تحليل المضمون فقد وجدت في التقسيمين الرئيسيين : ماذا قيل ؟ وكيف قيل ؟ التصنيف الذي يحقق أهداف التحليل بموضوعية وسهولة في وقت واحد .

جدول يبين الأفكار الرئيسية لتبرير الغزو العسكري كما وردت بالمنشور وتكراراتها .

وحدات التحليل	التكـــرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٣
٢- الدافع إلي للغزو .	٢
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٢
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٢
٦- التخويف والترهيب .	٢
٧- العزل والتمييز .	٣
٨- استغلال الدين .	٦
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	٢
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣
١١- الإغراء والترغيب .	٩
١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٦

وعندما نتتبع الدلالات في هذا المنشور كما بينتها فئات تحليل المضمون نجدها علي النحو التالي :

١ - الهدف من الغزو :

أ) الصناجق يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية .
ب) الصناجق يظلمون تجار الملة الفرنساوية بأنواع الأذي والتعدي .
جـ) الماليك والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن والأحسن .

٢- الدافع إلي الغزو :

أ) تخليص حق المصريين من يد الظالمين .
ب) صلاح حال الأمة كلها .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

أ) يا أيها المصريون .
ب) أيها المشايخ والقضاة وأعيان البلد .

٤- الفاعل في الرسالة الدعائية :

أ) السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية (بونابرته) .

٥- التبرير للعمليات العسكرية :

أ) الآن ساعة عقوبة الصناجق .
ب) رب العالمين القادر علي كل شيء قد حكم علي انقضاء دولتهم.

٦- التخويف والترهيب :

أ) طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا .
ب) الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا .

٧- العزل والتمييز :

أ) ماذا يميز المماليك ليتملكوا مصر، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها.
ب) من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية .
جـ) المصريون ينبغي أن يشكروا اللّه سبحانه وتعالي لانقضاء دولة المماليك.

٨- استغلال الدين :

أ) لا تصدقوا أنني ما نزلت إلا بقصد إزالة دينكم .
ب) إنني أكثر من المماليك أعبد اللّه سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم .

جـ) رب العالمين رءوف وعادل وحليم .

د) قولوا لأمتكم أن الفرنساوية مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا .

هـ) الفرنساوية مخلصون لحضرة السلطان العثماني .

و) تكون الصلاة قائمة في الجوامع علي العادة .

٩- إثارة الشعب علي الحاكم :

أ) ما جئت إلا لأخلصّ حقكم من يد الظالمين .

ب) سابقا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر . وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك .

١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

أ) جميع القري الواقعة في دائرة قريبة من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوه .

ب) أنهم نصبوا علم الفرنساوية .

جـ) الواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم.

١١- الإغراء والترغيب :

أ) تخليص حق المصريين من يد الظالمين .

ب) الدخول في المناصب السامية واكتساب المراتب العالية .

جـ) العلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون أمور المصريين وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

د) طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا .

هـ) طوبي أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب.

و) المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة يلازمون وظائفهم .

ز) كل أحد من أهالي البلدان يبقي في مسكنه مطمئنا .

ح) تكون الصلاة قائمة في الجوامع .

ط) المصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالي لانقضاء دولة المماليك .

١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة :

أ) طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا.

ب) طوبي أيضا للذين يقعدون في مساكنهم .
جـ) جميع القري ترسل للسر عسكر وكلاء ليعرف أنهم دخلوا في طاعته.
د) وأنهم نصبوا علم الفرنساوية .
هـ) المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدني شيء منها .
و) المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة يلازمون وظائفهم. وكل أحد من الأهالي يبقي في مسكنة مطمئنا .

أما المرتكزات الأساسية للاختراق الثقافي في هذا المنشور الفرنسي الموجه للمصريين فنجدها علي النحو التالي :

- اصطناع التناقض بين المصرين والمماليك ، والتنبيه المستمر إلي سلطة المماليك المستبدة الظالمة، الطامعة ، الفاشلة التي يشكل استمرارها مصدر خطر علي مصالح المصريين .

- الترويج لحكمهم واستعمارهم للبلاد ، ودعوة الناس لقبوله باعتباره الأساس الذي يكفل إنهاء استبداد المماليك ، « وتخليص » البلاد من فسادهم . وفي هذا السياق يعرض الفرنسيون أنفسهم علي الشعب باعتبارهم القوة المخلصة التي تحرر البلاد من نفوذ المماليك وإذلالهم لأهالي البلاد .

- تعزيز موقفهم بالبحث عن السبيل الذي يكفل التنويم السيكولوجي للجماهير ، والاستناد إلي شرعية دينية تكفل هذا التعزيز ومؤداها أنهم قوة مرسلة من الله بهدف إنقاذ البلاد وتخليصها من حكم المماليك .

- الحرص علي قتل روح المقاومة في نفوس المصريين من خلال الإيحاء بأن الحرب بينهم وبين المماليك أصلا ، وأنه من الواجب علي المصرين أن يبعدوا أنفسهم عن هذا الصراع ، وأن في هذا الابتعاد لمن يلتزم به خيراً ومصلحة علواً في المراتب . وكذلك التهديد بالويل للمصريين الذين يمكنهم أن يتعاونوا مع المماليك في مقاومة الفرنسيين . والتأكيد علي أن التخلص من المماليك يعد من الأمور التي تستوجب شكر الله سبحانه وتعالي .

- التوجه إلي القوي المؤثرة في حركة المجتمع والتي يسهم بعضها في تشكيل الرأي العام ، فمرة يخاطب المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد ، ومرة أخري يتوجه إلي العلماء ويعيد التوجه إلي المشايخ والقضاة والأئمة . وفي الحالتين يتبين أن الفرنسيين يدركون بشكل كبير دور هذه القوي في تقديم صورة إيجابية لهم تؤثر أيضا بالإيجاب في أذهان الشعب المصري وتضمن الحيلولة دون قيام مقاومة ضدهم في مصر ، وذلك بالنظر إلي ما تتمتع به قوي المشايخ والعلماء والأئمة والقضاة وغيرهم من مصداقية لدي الجماهير تعطي لدورها وزنا وتأثيرا يصعب تجاهله من جانب الفرنسيين كقوة خارجية تسعي للسيطرة علي البلاد وتنصرف لتوظيف

واستثمار كافة السبل والوسائل التي تمكنهم من ذلك . واختيار هذه القوي من جانب الفرنسيين في ذلك الوقت يتسق مع المكانة الأساسية لها باعتبارها الممثل للنخبة . أو «الصفوة » في المصالح الاجتماعية والسياسية المعاصرة ، والمكانة الأساسية التي كان الفرنسيون يراهنون عليها حسبما يبدو من سياق النصوص الواردة في المنشور ، هي إمكانية قيام قوي النخبة السابق الإشارة إليها ، بدور « الوسيط » الذي يملك القدرة علي نقل صورة إيجابية وبراقة عن الفرنسيين إلي جماهير الشعب المصري .

- يبتعد الفرنسيون تماما عن أمور أساسية ، فهم لا ينظرون إلي أنفسهم كقوة غازية ، مستعمرة، وتنزع نحو « الاحتلال » ، وإنما يروجون لأفكار أخري تقدمهم باعتبارهم القوة « المنقذة » للبلاد من « ظلم المماليك وفسادهم وإذلالهم للمصريين » .

أما معالم الصورة السلبية للمماليك في المنشور الفرنسي لمصر فإنها تدور حول النقاط التالية :

* عني المنشور الفرنسي بالفصل بين المصريين والمماليك ، وبتقديم صورة الصراع علي أرض مصر بين طرفين لا ثالث لهما ؟ الأول : الفرنسيون والثاني : المماليك ، وأنه لا مصلحة لأهل مصر للدخول في هذا الصراع إلي جانب المماليك لأن ذلك سيمثل مصدر خطر علي من يحاوله ، وأن المصلحة الكبري لهم في الابتعاد عن الصراع إذا أرادوا لأنفسهم خيرا وصعوداً في المراتب.

وفي هذا الإطار ركز الفرنسيون علي تقديم المبررات التي تستدعي دخولهم البلاد واصطدامهم بالمماليك ، وتسريب الإيحاء للمصريين بأنهم القوة التي تكفل الخلاص من سيئات المماليك ، وقد بالغ الفرنسيون كثيرا في العناية برسم صورة سلبية علي النحو التالي :

١- يمثل المماليك مصدرا لإذلال المصريين واحتقارهم .

٢- يمثل المماليك قوة ظالمة تتعدي علي التجار الفرنسيين وتلحق بهم الأذي .

٣- يعتبر المماليك قوة دخيلة علي أهل مصر ، غرباء ، أجانب وبلغة المنشور نفسه : « مجلوبين من بلاد الأباذة والجراكسة » .

٤- يمثل المماليك مصدرا للفساد الذي يشوه إقليم مصر « الحسن الأحسن » .

٥- يبدو المماليك في المنشور الفرنسي باعتبارهم غير عقلاء ، متخلفين ، (ليسوا أصحاب فضيلة) ، والأكثر من ذلك أنهم يمثلون طرفا يتناقض تماما مع العقل والعلوم والفضائل ، وإن هذا يمثل مبررا قويا لخلعهم من حكم البلاد .

٦- ينبه المنشور للممارسة الاحتكارية في سلوك المماليك ، فهم في ضوئه : محتكرون «للجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة » ومحتكرون للأرض المصرية ومحتكرون « للمناصب والمراتب» .

٧- في رؤية المنشور ، يرتبط ظلم المماليك بسمات أخري في شخصيتهم ، وفي مقدمتها الطمع

والجشع الذي يدفعهم لنهب ثروات البلاد (المتجر المتكاثر) .

٨- يسعي المنشور لتثبيت فكرة تمرد المماليك وخروجهم عن طاعة السلطان العثماني ، وذلك في إطار تصوير الصدام علي أنه صدام بين طرفين فقط ، واختلاق المبررات التي تمثل الأسس الشرعية للتخلص منهم .

هذه الدلالات ، ومرتكزات الاختراق الثقافي تأخذ أولويات تبدأ بالإغراء والترغيب، وفق تكرار الفكرة الذي بلغ تسع تكرارات . ثم استغلال الدين ، والدعوة إلي الاستسلام بالمودة ، حيث يتساويان في تكرار الفكرة ، ثم تتسلسل بقية الفئات . وتصبح الصورة أظهر وأوضح عند المقارنة مع تحليل مضمون المنشورات الأخري .

* منشور احتلال الجزائر (عام ١٨٣٠ م)

الخلفية التاريخية :

اشتركت خزينة الدولة الجزائرية مع بعض التجار في تمويل صفقة إنقاذ لفرنسا من الجوع، صفقة قمح . وأصبحت فرنسا مدينة للخزانة الجزائرية بمليونين ونصف المليون من الفرنكات الذهبية . وتلكأت فرنسا في الدفع ، وألحت الحكومة الجزائرية في المطالبة .

وكانت الأحادث في فرنسا آنذاك تنذر بالشر ، فقد سقطت الجمهورية الفرنسية الأولي، وانتهي الحكم الامبراطوري ، وتسلم السلطة الملك الطاغية ، « شارك العاشر » ، وظلت المماطلة الفرنسية أمام المطالبة الجزائرية . ووجد « شارل العاشر » أن في غزوه للجزائر وهي بلد إسلامي فرصة لاستدرار عطف الكنيسة من جهة ، وفرصة للتخلص من العاطلين والمشاغبين في فرنسا من جهة ثانية . وكانت ظروفه الداخلية تنذر بالشر أيضا .

أرسل الملك « شارل العاشر » - كما يؤكد المؤرخ الفرنسي « هنري جارو » - إلي قنصله في الجزائر باغتنام الفرصة لخلق حادث يبرر غزو الجزائر .

ويقول « جوان جليس » [١] أن الملك « شارل العاشر » قد اتخذ قرار الغزو أساسا لانقاذ حكمه المتداعي ، إذ كان يأمل من وراء مثل هذه الحملة أن يحول اتجاه الاستياء الداخلي ، وأن يتيح لفرنسا أن تظهر بمظهر الذي يقوم بحرب صليبية غَرْبية ضد قراصنة شمال افريقيا » .

وجاءت الفرصة في يوم العيد . ذهب القنصل الفرنسي لتهنئة « الداي حسين » والي الجزائر في قصره بحي القصبة ، كعادة القناصل آنذاك [٢] ودار حديث بين القنصل الفرنسي والداي حسين .

---

(١) جوان جليس - ثورة الجزائر - ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب - الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة - ١٩٦٦ .

(٢) أحمد توفيق المدني - هذه هي الجزائر - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٦ - ص٧٦ إلي ص٨٠ .

- الداي حسين : لماذا لم أتلق إلي الآن جوابا من الملك عن رسالتي المتعلقة بتصفية حساب الدين؟

- القنصل الفرنسي : وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب « داي » الجزائر ؟

وهنا وجم الحاضرون ، وفهموا أن الأمر مدبر . ووقف « الداي » قائلا للقنصل الفرنسي : أخرج يا ابن الكلب وأشار - بمروحة من الريش كان يحملها - إلي الباب . وزعم القنصل أن ريش المروحة لمس وجهه ، وخرج هائجا محتجا .

وقف الملك « شارل العاشر » يوم ٢ مارس ١٨٣٠ يقول في خطاب العرش معلقا علي هذه الواقعة بأن العمل الذي سيقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بعون الله لفائدة المسيحية جمعاء .

وفي يوم ١٣ يونية ١٨٣٠ م نزلت القوات الفرنسية « بسيدي فرج » غرب الجزائر العاصمة بعشرين كيلو مترا . وقاوم الجزائريون مقاومة باسلة ، ولكن النتيجة النهائية للمعركة كانت في صالح الفرنسيين . واستسلمت العاصمة في ٥ يولية ١٨٣٠ م ١٢ محرم ١٢٤٦ هـ . وفي سنة ١٨٣٤ أعلن الملك « لويس فيليب » الجزائر ممتلكات فرنسية .

يقول أحمد توفيق المدني : [١]

إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحها الاستعمار في بلاد العروبة بأقطار البحر المتوسط ، ولم تستطع الدول العربية والإسلامية أن تغير ساكنا أمام ذلك الحادث العظيم ، فالدولة العثمانية ، صاحبة السيادة الأسمية علي قطر الجزائر ، كانت « الرجل المريض » . وكانت الحروب الفتاكة التي يشنها عليها جيرانها « الروسيون » قد انهكت قواها . ثم إن معركة « نفارين » التي حطم فيها الانجليز والفرنسيون والروس الأسطول العثماني والجزائري والمصري كانت قد أصابت الدولة في الصميم ، وسلخت عنها بلاد اليونان ، وفتحت بصفة رسمية وراثتها .

أما البلاد المصرية فكانت تُجَرب يومئذ مغامرات محمد علي ، وكانت سياستها تجامل الدولة الفرنسية إلي حد بعيد ، نكاية ، بالدولة الانجليزية ، وجريا وراء التوسع والاستقلال .

أما تونس والمغرب الأقصي فكان ضعف الدولتين « الحسينية » و« الشريفية » لا يكاد يمكنها من حفظ الأمن الداخلي فضلا عن التدخل لفائدة الجزائر ومد يد المساعدة للمناضلين الجزائريين » .

ويقول محمد علي دبوز [٢] عن أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر : « إن الجزائر لقمة سائغة بالقرب منهم . فلماذا يمدون إليها يد الاستجداء وهم أقوياء يستطيعون الاستيلاء عليها ! أيكون الانجليز ، والأسبان ، والبرتغاليون ، والهولنديون أحسن منهم . لقد تمطت كلها وامتدت وضربت أوتادها في بلد من بلاد الشرق أو الغرب ، ففتحت متسعا حيويا غنيًا لها ! إن الجزائر هي الأرض

(١) المرجع السابق صـ٨١ .

(٢) محمد علي دبوز - نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة - الجزء الأول - الطبعة الأولي - المطبعة التعاونية - غير مبين مدينة الطبع والنشر - ١٩٦٥ - صـ٧ .

الغنية الواسعة التي تتقلب فيها وترتع في خيراتها ! وفيها الدولة الإسلامية التي تُقْذي عيون الصليبيين وتقلق راحتهم . إن القضاء عليها يشفي أحقادهم ، ويورث ثناء ونفوذاً ومنزلةً كبيرة لفرنسا في العالم الميسحي ! » .

والواقع أن إحتلال فرنسا للجزائر كان محصلة لتدبير الاستعمار الفرنسي منذ أوائل القرن التاسع عشر . فقد كان « نابليون » الأول يضع الجزائر في قائمة ممتلكاته في المستقبل ، عند تجزئة الامبراطورية العثمانية . وكان يعتبرها سوقًا ضرورية لتطوير الصناعة الفرنسية . كذلك كان التعطش لأسواق جديدة [1] في عهد شارل العاشر ، والرغبة في إحياء السياسية التوسعية لفرنسا ، كل ذلك كان وراء احتلال الجزائر .

الدراسة الوثائقية :

توجد أكثر من نسخة من المنشور في المكتبة الوطنية الفرنسية و في المكتبة الوطنية الجزائرية . وفي هذه الأخيرة تحت رقم ٢٧٢ توجد « إضبارة » تحوي عددا من الوثائق والصور بعنوان « صور جزائرية » Iconographie de L'Algérie من إعداد الباحث الفرنسي « جابريل اسكير » Gabriel Esquer .

والمنشور يقع في صفحة واحدة (طولها ٣٦ سم وعرضها ٢٦ سم) .

وباستعراض صورة طبق الأصل من المنشور مع الدكتور أشرف صالح أستاذ الإخراج الصحفي بجامعة القاهرة أشار إلي عدة نقاط حول الجوانب الإخراجية تثري توثيق المنشور من جانب وتفسر بعض معانيه الإضافية من جانب آخر . وذلك علي النحو التالي :

أولا : الحروف :

١- تمت كتابة حروف هذا المنشور بخط اليد ، سواء بالنسبة لعنوانها أو متنها .

٢- استخدم كاتب الحروف التشكيل بالنسبة لبعض الحروف ، وخاصة (الشدة) مثل (سكان) فيْ العنوان .

٣- يلاحظ اختلاف طريقة كتابة بعض الحروف عن الطريقة الشائعة ، ومن ذلك مثلا :

أ) نقطة حرف (الفاء) تقع أسفله هكذا : [الأشراب بدلا من الأشراف] .

ب) تنقيط حرف (القاف) يتم بنقطة واحدة أعلي الحرف هكذا [فلبي بدلا من قلبي] .

جـ) وبالتالي يتم تنقيط حرف الجر (فى) هكذا [في] .

د) حرفا : الصاد والضاد يكتبان بدون أسنان [صـ بدلا من صـ] أي كالطاء والظاء بدون ألف.

---

(١) د. عبد العظيم رمضان - الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٥ - صـ٩٥ .

هـ) توضع نقطة حرف (ظ) الظاء إلي يسار الألف هكذا [ظا] كما في كلمة (المحفوظ) في آخر سطر .

٤- الاتساع بين كل سطر والذي يليه كبير جدار بالنسبة لحجم الحروف .

ثانيا : النقوش والزخارف :

١- أحاطت بالصفحة نقشة علي شكل حرف (٦) بالعربية ، أي من أعلي أفقيا ، ومن اليمين رأسيا .

٢- هذه النقشة في جزئين :

أ) الجزء الأول : يمتد علي الزاوية كلها (رأسيا وأفقيا) وهي نقشة ذات طابع إسلامي تشبه نقوش صفحات المصاحف ، وعرض هذا الجزء يبلغ ١,٧٥ سم في الضلع الرأسي من الزاوية ، لكنه يقل في الضلع الأفقي إلى ١,٥ سم فقط .

ب) الجزء الثاني : يعلو الضلع الأفقي (العلوي) من الزاوية المذكورة ، وهو عبارة عن نصف دائرة مكررة عدة مرات ، وهي تبلغ ربع دائرة فقط في الركن العلوي الأيمن من الزاوية ، ويغلب الطابع الكنسي (المسيحي) على هذه الوحدات المتكررة ، والتي فصلت بينها خطوط رأسية رقيقة ، يحمل كل منها في أعلاه دائرة ، تحوي في داخلها ثلاثة نقوش متشابهة ، كل منها تعطي شكل الصليب و نلاحظ أن بلوغ عدد الصلبان المذكورة **ثلاثة** ، له معنى في المسيحية ، وهو معنى (التثليث) .

(٣) ويشير ارتفاع هذه الصلبان إلى أعلى الخطوط الرأسية ، إلى الرغبة في تأكيد التفوق لهذا الرمز ، فهو يعلو ولا يعُلى عليه ، أما الوحدات المكررة والمكونة من نصف دائرة ، فهي أشبه بالشمس المشرقة ، والتي تعطي معنى البعث أو البزوغ ، ومن بين هذه الشموس (المجازية) تبرز الصلبان العالية المتفوقة .

(٤) أغلب الظن أن المصمم أراد في نقوشه أن يجمع بين الإسلام والمسيحية تأكيدا لعمق الروابط بينهما ولكسب تعاطف الجزائريين ، الأمر الذي يتفق مع الهدف من هذا المنشور الصادر عن الفرنسيين إلى سكان الجزائر ، ولكنه لم ينس - في غمرة توضيح الارتباط - أن يركز على تفوق المسيحية والمسيحيين ، باعتبار الفرنسيين غزاة أقوياء .

ومن ملاحظة اختلاف الحرف الواحد من حيث الشكل في المنشور فإن الأرجح أن تكون طباعة المنشور تمت على الحجر . وليست على طريقة الحروف المنفصلة التي يتم تجميعها في كلمات وسطور . وبخاصة أن النقوش تؤكد أن الطباعة في ذلك العصر لم تكن قد تقدمت في طباعة الصور اللهم إلا إذا كانت طباعة حجرية .

نص المنشور

هذه مناداة من سار عسكر امير الجيوش الفرنساوية

إلى سكان الجزائر وأهالي القبائل

بسم الله المبدئ المعيد وبه نستعين

يا أيها ساداتي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية ... اقبلوا مني أكمل السلام ، وأشمل إشراف قلبي بمزيد العز والإكرام ... أما بعد ...

اعلموا هداكم الله إلى الرشد والصواب أن سعادة سلطان فرنسا مخدومي وعزة جنابه الأعلى -عزّ نصره- قد أنعم عليّ بتوليته إيّاي منصب سارعسكر ، ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة أن الباشا حاكمكم من حيث إنه تجرأ على بهدلة بيرق فرانسه المستحق كل الاعتبار ، وأقدم على إهانته فقد سببّ بجهله هذه كل ما هو عتيد أن يحلّ بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا فإن عزة اقتدار سلطان فرانسه - دام ملكه - نزع الله من قلبه رحمته المعهودة ، ورأفته المعروفة المشهورة فلابد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدّر عليه ، وعن قريب يحلّ به ما استحقه من العذاب المهين أما أنتم يا شعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقينًا أني لست آتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سرّ، ثم إني أحقق لكم انّه ليس فينّا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في أعيالكم ، ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم - صغيراً كان أو كبيراً- فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل يكون في أيديكم دائما ، فآمنوا بصدق كلامي، ثم إننا نضمن لكم ونعدكم وعداً حقيقيًا مؤكداً غير متغيّر ولا متأوّل أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عليه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم فإن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء ، ومما لا يخفى عليكم غاية تحكّمه وقبح طبعه المشؤوم ولا ينبغي لنا أن نطيعكم على أخلاقه الذميمة وأعماله الرذيلة فإني واضح لديكم أنه لا يسعى إلاّ على خراب بلادكم ودثارها وتضييع أموالكم وأنفسكم ومن المعلوم إنه إنما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم ...

فمن أعجب الأمور كيف يخفي عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلا لذاته ، والدليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحليّ وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده ، فيا أيها أحبابنا سكان المغرب إنه - عز وجلّ - ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من أعمال الخبث والردي إلا إنعامًا منه - سبحانه وتعالى - عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدّة ، وإذ والحال هذه أسرعوا واغتنموا

الفرصة ولا تعمي أبصاركم عمّا أشرقه اللّه عليكم من نور اليسر والخلاص ، ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورنا الذي يؤول إلي خيركم وصلاحكم، وتحققوا أنه - تعالي - لا يبغي - قط ضرر خليقته بل يريد أن كل واحد من براياه يحوز ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها علي سكان أرضه .

يا أيها أهل الإسلام إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل علي الصلح والمودة وأنتم إذا شيّعتم مراسيلكم إلي أوردينا حينئذ نتكلم وإياهم ، والمرجو من اللّه تعالي . أن محادثتنا مع بعضنا بعض تؤول إلي ما فيه منافعكم وصلاحكم ، وعشمنا باللّه أنكم بعد ما تحققتم أن مقاصدنا وغاياتنا الفريدة ليست هي سوي خيركم ومنفعتكم تشيّعوا لنا صحبة مراسيلكم كل ما يحتاج إليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبه ، وحين وصلت مرسلاتكم هذه إلينا فحالاً ندفع الثمن فلوسًا نقدية علي ما تريدون وأكثر هذا ، وإما إن كان منكم - معاذ اللّه - خلاف ذلك حتي تختاروا محاربتنا ومقاومتنا إعلموا أن كل سايصيبكم من المكروه والشر إنما يكون سببه من جهتكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فأيقنوا أنه ضد إرادتنا فليكون عندكم محققًا أن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب ، وإن اللّه يسلطها عليكم فإنه - تعالي - كما أنه يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالمرحمة والمسامحة علي الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب علي المفسدين في الأرض العائثين علي البلاد والعباد ، فلابد إنكم إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم - هذا أيها السادة ما بدالي أن أكلمكم به ، فهو نصيحة مني إليكم فلا تغفلوا عنه وأعلموا بأن صلاحكم إنما في قبوله والعمل عليه ، وأن هلاككم لا يردّه عنكم أحد إذا أعرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به ، وأيقنوا يقينًا مؤكداً أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من اللّه - تعالي - غير ممكن تغييره لأنه مقدّر ، والمقدّر لابد أن يكون .

والسلام علي من سمع وأطاع ،

وهذا جدول يبين الأفكار الرئيسية لتبرير الغزو العسكري كما وردت بالمنشور وتكراراتها .

وحدات التحليل	التكـــرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٢
٢- الدافع إلي للغزو .	١
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	١
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٢
٦- التخويف والترهيب .	٥
٧- العزل والتمييز .	٣
٨- استغلال الدين .	٣
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	٤
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣
١١- الإغراء والترغيب .	٢
١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٣

وإذا تتبعنا الدلالات في هذا المنشور كما أوضحتها فئات تحليل المضمون نجدها علي النحو التالي :

١ - الهدف من الغزو :

أ) القضاء علي مفاسد الحكام السابقين وتأديبهم .

ب) التغيير من أجل خير البلاد وصلاح أهلها ومنفعتهم .

٢- الدافع إلي الغزو :

أ) أن الباشا حاكم الجزائر تجرأ علي بهدلة بيرق فرنسة وإهانته .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

أ) الشعب عامة .

٤- الفاعل في الرسالة الدعائية :

أ) سار عسكر أمير الجيوش الفرنساوية .

٥- التبرير للعمليات العسكرية :

أ) مسئولية الحاكم عما سيحدث من الكوارث والمضرات لأنه أهان سلطان فرانسة .

ب) الباشا هو البادئ بالعداوة والبغضاء .

٦- التخويف والترهيب :

أ) استحقاق بيرق فرانسة لكل اعتبار .

ب) اقتدار سلطان فرانسة علي إنزال العقاب .

جـ) إذا اخترتم محاربتنا ومقاومتنا فسيصيبكم كل مكروه وشر .

د) عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب .

هـ) إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم علي آخركم .

٧- العزل والتمييز :

أ) المقصود بالعقاب هو الباشا الحاكم أما شعب المغاربة فلهم الأمن والطمأنينة .

ب) الغزو لا يريد ضرر المغاربة .

جـ) الباشا لا يقصد الخير إلا لذاته والدليل أحسن العمارات والخيل والسلاح واللبس والحلي عنده .

٨- استغلال الدين :

أ) الوعد بصيانة الجوامع والمساجد .

ب) يا أيها أهل الإسلام .

جـ) إن الله يسلطها عليكم .

٩- إثارة الشعب علي الحاكم:

أ) قبح طبع الحاكم المشئوم وأخلاقه الذميمة وأعماله السيئة.

ب) الحاكم يسعي لخراب بلادكم وتضييع أموالكم وأنفسكم.

جـ) إنه يعمل ليجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين .

د) الباشا لا يقصد الخير إلا لذاته .

١٠ - استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

أ) أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم .

ب) إرسال الذخائر والمؤن للجيش المعتدي .

جـ) الدعوة للانضمام لصفوف الغازين .

١١ - الإغراء والترغيب :

أ) مقاصدنا وغاياتنا خيركم ومنفعتكم .

ب) طلب الذخائر مقابل الفلوس النقدية فورا .

١٢ - الدعوة إلي الاستسلام بالمودة :

أ) الحب الكامل .

ب) دعوة الحب والصداقة والسلام .

جـ) الصلح والمودة بإرسال مراسيلكم والتفاوض معنا للمنفعة والصلاح .

ويبين لنا التحليل الكمي للتكرارات أن التخويف والترهيب حظي بالصدارة ثم تلاه إثارة الشعب علي حاكمه . وبعد ذلك تساوت التكرارات في العزل والتمييز واستغلال الدين . واستخدام العاطفة وغريزة القطيع . وتصبح الصورة أوضح في التحليل المقارن لبقية المنشورات.

كذلك فإنه علي ضوء هذه الفئات تتحدد مرتكزات وأساليب الاختراق الثقافي علي النحو التالي :

*** أولا : مرتكزات الاختراق :**

١- اصطناع التناقض بين الباشا الحاكم للشعب الجزائري من ناحية والشعب من ناحية أخري ، فالأول الباشا لا يمثل الشعب ، وهو علي أقل تقدير يمثل السبب الرئيسي في « الاحتلال » الذي يقدمه المنشور الفرنسي باعتباره « تحريرا » للبلاد من نفوذ الحاكم (الباشا) الذي لم يحسن معاملة الفرنسيين وتجرأ علي الخطأ حق في « بيرق فرنسه المستحق كل اعتبار » .

٢- اختلاق مساوئ للباشا ، والبحث في مساوئه الحقيقية ، واستدعائها ، والمبالغة في تضخيمها والعمل علي الترويج لها بين الجماهير بهدف إيجاد فجوة يفقد معها الحاكم شعبيته وتضيع مصداقيته ، وينتهي به الحال إلي الوقوف وحيداً عند تفكيره في مقاومة «الاحتلال » الفرنسي للبلاد .

٣- الحرص علي الربط بين مجيئ قوات الاحتلال الفرنسي وتزايد الفساد والهوان والظلم ونهب ثروات البلاد علي يد الباشا ، وفي هذا السياق تبدو قوي « الاحتلال الفرنسي » باعتبارها «المنقذ » للبلاد الذي جاءت به العناية الإلهية .

٤- تهيئه العقول للقبول بالوجود الفرنسي الجديد ، وذلك بالإيحاء المستمر بأن ذلك يعد أمرا طبيعيا ، وأن الترحيب بالجنود الفرنسيين هو سلوك العقلاء الذين يلزمون أماكنهم ويواصلون

أعمالهم دون أن يشغلوا أنفسهم بأدني خوف ، وأن ما عدا ذلك ، وخاصة مساندة الحاكم ضد الفرنسيين والمشاركة في مقاومتهم ، فإنه يعد تحديا لمشيئة الله في « تحرير » البلاد علي أيدي الفرنسيين .

٥- التلويح المستمر بالعقاب الشديد لمن يجرؤ علي مساعدة الحاكم « الظالم والفاسد والمستبد » والترغيب الدائم في إعلان التأييد للتواجد الفرنسي باعتبار أن ذلك هو السلوك الواجب الذي يحقق لأصحابه الخير ويساعدهم في الوصول إلي أهدافهم سواء تلك التي تتعلق بالمال أو بالمنصب .

*** ثانيا : أساليب معالجة المرتكزات :**

١- تشويه صورة الباشا الجزائري (الحاكم) بالتحرك علي المحاور التالية :

أ) التركيز علي أفعال « سيئة » أقدم ويقدم عليها الحاكم - في رؤية المنشور - وتشكل مصدر استفزاز للفرنسيين .

ب) التركيز علي صفات « سيئة » للحاكم ، بعضها قد يكون مختلقا وبعضها الآخر قد يكون أمرا قائما ويصعب نفيه ، لكن المؤكد أن المنشور ينزع دوما إلي تضخيم مساوئ الحاكم ويبالغ في عرضها .

جـ) التنبيه إلي الأفعال السيئة التي ينبغي أن تقع علي الحاكم وغيره بسبب أفعاله وصفاته السيئة باعتبار أن ذلك رد فعل طبيعي ، وذلك في إطار الإيحاء للمواطنين بأن هذا الحاكم مصدر الخطر علي الشعب يجلب عليه الضرر وأنه لا منفعة وراء وجوده أو استمراره في الحكم .

أ) الأفعال « السيئة » للباشا (الحاكم) الجزائري :

- تجرأ علي بَهْدلة « بيرق فرنسا المستحق كل الاعتبار ، وأقدم علي إهانته» .
- أضمر لفرنسا العداوة والبغضاء .
- يسعي لخراب الجزائر ودمارها وتضييع الأموال والأنفس .
- يريد أن يجعل الجزائرين من الفقراء ، المنحوسين ، والمبهدلين الخاسرين .
- يقصد الخير لذاته ، ولا يهمه حال الآخرين ، إذْ احتكر أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحلي ، وما إلي ذلك لنفسه .
- تصدر منه أعمال خبيثة ورديئة .
- يؤدي استمراره في الحكم إلي دوام « حالة الغم والشدة » التي يعيشها الشعب الجزائري .

ب) الصفات السيئة للحاكم :

- جاهل ، أدي جهله إلي كوارث ومضرات عديدة لحقت بالشعب الجزائري ، وفي مقدمة هذه

الكوارث ، قدوم الفرنسيين أنفسهم في حرب تعتبر في مجملها رد فعل علي الأفعال السيئة للحاكم الجزائري بإهانة بيرق فرنسا الذي لا ينبغي لأحدٍ أن يتطاول عليه .

- قليل البصيرة .
- أعمي القلب .
- متسلط ، ومستبد في حكمه .
- قبيح الطبع .
- أخلاقه ذميمة .
- أعماله رذيلة .

جـ) الأفعال السيئة التي تقع علي الحاكم (الجزاء) :

- محاربته للتخلص منه بمفرده عقابا له علي أخطائه في حق فرنسا وفي حق الشعب الجزائري، ومن قبلهما في حق الله .
- الانتقام منه شخصيا ، باعتباره الإنسان الأول في الجزائر الذي يستحق ذلك .
- استخدام أقسي ألوان العذاب معه كمحصلة طبيعية لعدائه لفرنسا .

وهكذا ، ففي إطار أفعال الحاكم السيئة ، وصفاته السيئة ، والأفعال السيئة التي يتسبب في وقوعها ، تتم محاولة إقناع الشعب الجزائري ، بأن هذا الحاكم هو السبب الرئيسي في الحرب (التي هي غزو عسكري أصلا) ، وأن ما يجري من صدام مع الفرنساوية ليس سوي صدام بين طرفين الباشا والفرنساوية ، وأنه ليس هناك ما يعني الشعب في الاشتراك في هذا الصدام ، وأن الباشا يستحق ذلك ما دام علي هذا الحال السيئ ؛ فأفعاله وصفاته السيئة ، لابد وأن تقود إلي أفعال سيئة تقع عليه ؛ إنه العقاب الواجب في المنشور الفرنسي . والمحصلة الطبيعية لكل ذلك أن يجد الفرنساوية المبرر القوي والشرعية الأقوي لاحتلال الجزائر ، الذي يسمونه «تخليصا لشعبها من ظلم الحاكم وتسلطه » ، ومن ثم تضيع الحقيقة ، وعندما ينطلي ذلك علي عقول العوام يصدقون أن الأوضاع في ظل الوجود الفرنسي الجديد ستكون أفضل مما كانت عليه في ظل الباشا.

٢- التقدير « الخاص » للجماهير :

من اللافت للنظر في المنشور الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ أن صياغاته تحمل في طياتها نوعا من التقدير للشعب الجزائري . وإذا كان من الصعب إصدار حكم قاطع حول حقيقة هذا التقدير، فمن السهل القول بأن هذا تقدير « ظاهري » توحي به لغة المنشور نفسه ، وأن الواقع قد ينفي ذلك تماما ، فأي تقدير هذا الذي تكنه فرنسا لشعب تغزو أرضه وتنتهك استقلاله وتبيد ثقافته ؟ . وإذا كان هذا التساؤل ينفي التقدير الظاهر ، فإن هذا لا يمنع من رصد مظاهره ، وهي علي النحو التالي :

أ) لا يقدم المنشور أفكاره ومعلوماته باعتبارها « أوامر » أو « قرارات » يجب على الجزائريين الامتثال لها أو تنفيذها ، وإنما يحرص علي أن ينبه بداية إلي أنه - أي المنشور بمثابة « مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرنساوية » يعرض فيها أفكار ومعلومات الفرنساوية التي تهم الجمهور الجزائري بصياغات معينة « اعلموا هداكم الله » أو « اعلموا وتأكدوا » و « تتبعوا مشورتنا التي تؤول إلي الخير والصلاح » .

ب) يؤكد المنشور أن الشعب الجزائري لا يمثل طرفا في الصراع ضد الفرنساوية ، وفي هذا السياق فإنه يحرص علي التركيز المستمر علي أن الحرب ليست ضد الشعب الجزائري ، وإنما ضد الباشا، فهو يشير إلي « أننا لم نأت إلي بلادكم لمحاربتكم » ويؤكد « إن حضورنا عندكم ليس لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم » .

جـ) التنبيه علي ابتعاد الفرنسيين عن كل ما يضر الجزائريين في أموالهم وفي عيالهم ، والدعوة باستمرار الأمان والطمأنينة ومواصلة الأعمال في الصنائع والحرف .

د) التقرب إلي السكان من خلال التأكيد علي معزتهم وصداقتهم والتعبير عن الحب والمودة اللذين يحتفظ بهما الفرنسيون لأهل الجزائر . ومن ثم فإنه كان يستند إلي صياغات تعزز هذا الاتجاه مثل : « يا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة » أو « يا أهل الإسلام » أو « يا أحبابنا سكان المغرب » .

هـ) يمتلئ المنشور بالصياغات التي تؤكد حرصه علي التوجه إلي « سكان الجزائر وأهالي القبائل» ولكنه في الوقت نفسه يعطي اهتماما خاصا لبعض الكيانات الاجتماعية التي تحظي بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري . حيث يبدأ المنشور بمناداة « للقضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية » يدعوهم بقبول « أكمل السلام وأشمل أشراف قلبه بمزيد العز والإكرام». وبعد ذلك يبدأ المنشور في التوجه بلسان « سار عسكر أمير الجيوش الفرنساوية» إلي « أعز أصدقائه ومحبيه سكان الجزائر ومن ينتمي إليهم من شعب المغاربة » . وتتسق بداية المنشور في التوجه إلي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية مع مكانة هذه الفئات جميعها في حركة المجتمع الجزائري ، وفي تحديد رد الفعل الممكن أو المتوقع إزاء الاحتلال الجزائري ، بحكم ما تحتله هذه الكيانات أو القوي من مناصب تزداد فيها درجة الاحتكاك بالجماهير ، وبالتالي فإن الأهمية الخاصة التي تمنح لهذه الكيانات لا تمنح لها لذاتها ، وإنما لقدراتها التأثيرية في تحريك الشعب وإشعال المقاومة في مواجهة الغازي الدخيل ، أو في تهدئة الأوضاع لصالح الاحتلال ، إما بالصمت عن انتهاكه لاستقلال الجزائر وسيادتها ، وإما بالدعوة إلي القبول بالوجود الفرنسي تحت مسميات براقة في مظهرها ، خادعة في حقيقتها .

هذا التقدير المصطنع الهدف منه الوصول إلي غايات معينة ، يمكن حصرها فيما يلي :

- كسب ود الشعب الجزائري وقطع الطريق أمام أية مقاومة أو معركة متوقعة ضد الغزو الفرنسي.
- الفصل بين الباشا والشعب، وضمان بقاء الشعب بعيدا عن الباشا في حال تفكيره في مقاومة

القوات الغازية، وفي هذا الإطار فإن المنشور يفصح عن ذلك صراحة ويخاطب الجزائريين: «استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورنا «مشورتنا» الذي يؤول إلي خيركم وصلاحكم » .

- دفع الشعب الجزائري إلي إرسال مندوبيه لمقر «سار عسكر أمير الجيوش الفرنساوية» ومن ينوب عنه، لكي يعلنوا تأييدهم للوجود الفرنسي، وبعبارة أكثر دقة للاحتلال الفرنسي للبلاد.
- ضمان حصول الجيش الفرنسي علي امداداته من المؤن المختلفة . وفي هذا الصدد يطلب « سار عسكر» صراحة من الشعب الجزائري أن يرسل مع مندوبيه (مراسيله) « ما يحتاج إليه عسكرهم المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه» ويعرب الفرنسيون عن المبالغ المرتفعة التي يمكن أن يدفعوها مقابل ذلك : « حين تصل مراسلاتكم هذه إلينا فحالا ندفع الثمن فلوسًا نقدية علي ما تريدون وأكثر ».

في البداية تتضح لغة المنشور « الرقيقة » ويستمر حالها هكذا ، وهي تتدرج من العرض للأهداف المختلفة ، والتقدير الفرنسي « للشعب » في إطار الاحترام لكل من يدرك مساوئ الباشا، ويبتعد عنه ، ويقدِّر دور فرنسا في التخلص منه ، ويعلن تأييده لها ، ويوفر لها ما يحتاجه جنودها من مؤن ، ولكن سرعان ما يتحول « التقدير » إلي « تهديد » لكل من تسول له نفسه الخروج علي هذا . فيقول « وأما إن كان منكم معاذ الله خلاف ذلك [خلاف المؤيدين] حتي تختاروا محاربتنا ومقاومتنا اعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر إنما يكون سببه من جهتكم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وأيقنوا أنه ضد إرادتنا وليكون عندكم محققا أن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب ، وأن الله يسلطها عليكم ، ذلك لأنه تعالي كما أنه يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالمرحمة والمسامحة علي الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب علي المفسدين في الأرض علي البلاد والعباد ، ولابد أنكم إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم » .

وهكذا يتبين أن المنشور لا يكتفي بالتهديد بعساكر فرنسا المنصورة التي يفاخر بها والتي تحيط بالمعارضين في سهولة ويسر وإنما يتسلح في تهديده بالدين فيعتبر أن هلاك المعارضين أو قتلهم إنما هو نوع من العذاب الذي حكم به الله علي المفسدين في الأرض ، ويتبين أن كل هذا التهديد المبني علي التلويح باستخدام القوة لقتل المعارضين وضمان هلاكهم ، إنما ينبني علي موقف المعارضين الرافض لإتاحة الفرصة أمام فرنسا لتحقيق أهدافها .

٣- خلق الشرعية الدينية اللازمة لتثبيت النفوذ الفرنسي وضمان استمراره :

يعمد المنشور الفرنسي إلي تلفيق مفاهيم دينية يتم تزييفها لتصبح للفرنسيين سندا قويا لتحقيق أهدافهم في الغزو . ولا شك إن ذلك يثير قضية اهتمام قوي الغزو الاستعماري بالمعالم المميزة للمجتمعات العربية الإسلامية، وفي مقدمتها المكانة المركزية للدين الإسلامي في هوية هذه المجتمعات ، وفي صياغه حركتها وتحديد مواقفها وممارساتها . ومن الواضح إن المنشور الفرنسي

للجزائر يدل دلالة قاطعة علي وعي الفرنسيين بهذا وأهمية « توظيفهم » لتلفيقات دينية في تسهيل عملية الغزو ، وفي الإسراع بالتخلص من الحاكم وعزله عن شعبه وضمان تحييد الشعب الجزائري وإبعاده عن التفكير في مقاومة الاحتلال الفرنسي ، ويمكن ملاحظة ذلك علي النحو التالي :

- يبدأ المنشور الفرنسي مستفتحا بالبسملة « بسم اللّه المبدئ المعيد وبه نستعين » وبذلك فإنه يصدر نفسه باسم اللّه موحيا بحرصة علي التقليد الإسلامي في استهلال الحديث أو في بداية الأعمال وهو البدء بذكر اللّه سبحانه وتعالي . وهكذا فإن المنشور بدأ بتعليق لافتة «البسملة» ثم يقدم من أفكاره ما يشاء .

- يزعم المنشور الفرنسي أن ما ينقله لسكان الجزائر يمثل أمورا حقيقة ، صادقة ، لا كذب فيها ولا افتراء ، ولذلك فإنه عندما يتوجه إلي علية القوم من الجزائريين ، يطلب منهم التصديق ويدعو لهم بالهداية والرشاد ، ومن ثم يتجه الإيحاء هنا إلي أن من يقبل علي التسليم بما يقوله المنشور يكون اللّه له هاديا ومرشدا ، وبالتالي إذا أراد المرء الهداية والرشاد فلا ينبغي له التفكير في غير ما يقوله المنشور ، وإلا أُعْتُبر من هؤلاء الذين لم يَحْظَوا بشرف الهداية والرشاد .

- يحرص الفرنسيون علي التأكيد علي عدم المساس بالمساجد ، وضمان استمرارها معمورة كما هي عليه بل أكثر ، وكذلك عدم التعرض للجزائريين في عبادتهم وأمور دينهم .

- يعرض المنشور للأعمال الخبيثة للباشا باعتبارها أعمالا لا يقبلها اللّه .

- ينبه المنشور الجزائريين إلي أن زوال سلطة الباشا وهلاكه علي يد الفرنسيين يعد من النعم التي أنعم بها اللّه عليهم ، وأن دور الفرنسيين في هذا ، يعد بمثابة « إشراقة إلهية من نور اليسر والخلاص » . إذ يذكر الشعب الجزائري بأنه إذا كان الباشا قد احتكر كل شيء لنفسه ؛ العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحليّ ... إلخ ، فإن « اللّه يقضي بأن يحوز كل واحد من براياه ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها علي سكان أرضه » . ومن الواضح أن الإيحاء هنا ينصرف مباشرة إلي القول بأن الفرنسيين لا يقبلون ممارسات الباشا الاحتكارية التي تحول دون تمتع الشعب الجزائري بثرواته ، وإنهم سيمتثلون لإرادة اللّه التي تقضي بالتوزيع العادل للثروة . وأن فارقا بينهم والباشا كبيرا ؛ فبينما يتجاهل الباشا شريعة اللّه وحكمه ، ويقبل أن يكون علي درجة عالية من « الأنانية » يهيمن بمقتضاها علي الثروة والسلطة في البلاد ، يعي الفرنسيون شريعة اللّه وحكمه وسيؤدي تخليصهم من الباشا وتوطيد دعائم وجودهم في الجزائر إلي سياسات تفضي إلي توزيع عادل للمنافع ، يتغير معه حال الجزائريين ويودِّعون حياة الفقر والذل والغم والشدة التي أفرزتها سياسات الباشا. وبالإجمال « الخير في قدومهم » ، لأنهم الذين يعرفون اللّه حق المعرفة ويملكون الاستعداد للامتثال لموجبات شرعه ، و « الشر كل الشر في بقاء الباشا أو التجرؤ علي مساندته » لأن ذلك يرتبط - بالضرورة -

بإلحاق الأذي بالشعب الجزائري وبتعطيل شرع الله .

ومما سبق يتبين أن ثمة رؤية يعمد المنشور للتأسيس لها في العقل الجزائري ، وتقوم هذه الرؤية علي إقامة الارتباط المزيف بين الوجود الفرنسي ، ومعرفة شريعة الله وموجباتها من ناحية، وبين بقاء الحاكم الجزائري « الباشا » وتجاهل شريعة الله وتعطيل أحكامها من ناحية أخري. ولاشك في أنها تحاول جاهدة ، استثمار العاطفة الدينية لدي الشعب الجزائري في إقرار نوع ما من الانحياز لأي من طرفي الصراع ؛ « الانحياز مع » المحافظ علي الشريعة المدْرك لموجباتها ، و « الانحياز مع » المتجاهل للشريعة ، المعطِّل لموجباتها ، والأول هو في مجمله : «انحياز مع الله » والثاني : « انحياز ضد الله » وما دامت القضية تصاغ هكذا : إما هذا ؟ وإما ذاك؟ فلاشك أن هذا سوف يفضي إلي تحقيق المصلحة الفرنسية، ذلك لأنه من الذي يجرؤ علي الانحياز إلي جانب الباشا الذي هو في حقيقته - الظاهرة - انحياز ضد الله - كما يصوره المنشور.

وتلك واحدة من المغالطات الرئيسية التي تؤديها القوي الاستعمارية بوعي شديد لكي تضمن الاستيلاء علي عقول العوام ممن تنطلي عليهم هذه التلفيقات ، لكي تتجنب الثورة العارمة التي يمكن أن تشتعل من جراء الربط بينها وبين ضرب المجتمعات الإسلامية ، وإلحاق أبلغ الضرر بقيم هذه المجتمعات وتقاليدها .

* المنشور البريطاني الذي طبع ولم يوزع علي مصر (عام ١٩٥٢م):

كان قيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢ حدثا مشهودا في تارخها وبداية جديدة ، مثلما كانت الحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ بداية مرحلة تاريخية جديدة . وكما كان الجبرتي أيامها شاهدا ومؤرخا فَذاً ، كذلك يحتل محمد حسنين هيكل مكانا فذاً وفريداً بصفته شاهدا ومؤرخا للحقبة الناصرية في تاريخ مصر المعاصر . يبسط هيكل تحليلية لقيام الجيش بالثورة في ليلة ٢٢ يوليو وفجر ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فيقول :

« إن تدافع الحوادث من حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ وخلال ستة شهور إلي يوليو ١٩٥٢، لم يكن يترك لأحد مجالا للشك في أن التغيير قد أصبح علي الأبواب . ويمضي هيكل إلي القول بأن الجيش المصري كان مرشحا ليؤدي دور التغيير ويورد ثمانية حيثيات لهذا الحكم التاريخي يسوقها علي النحو التالي :

أولا : لأن الجيش كمؤسسة وطنية في مصر له دور قديم في التاريخ فهو الجهاز الرئيسي في سلطة الدولة في وطن تقوم فيه سلطة الدولة (في مجتمع مائي) بدور رئيس في حياته . ولقد كان من هنا أن الكهنة وقواد الجيش كانوا أهم شخصيات السلطة إلي جانب « الفرعون».

ثانيا : لأن تاريخ مصر الحافل بالغزوات الخارجية بسبب موقعها الجغرافي أعطي لقضية الدفاع عنها أهمية كبري .

ثالثًا : لأنه حتي في العصر الإسلامي ودوله المختلفة لعب القواد دورا رئيسيا في قيام وسقوط الحكام والعصور .

رابعًا : فإن خصائص العصور المملوكية ، والعصر العثماني في وسطها ، كرست هذا الوضع لقرون طويلة ، وإن كان الشعب المصري بكل قواه لم يكن له فيها غير دور المتفرج، حتي علي صراعات هؤلاء المماليك أو العثمانيين الأجانب، وأدوارهم الغريبة في قيام الدول وسقوطها.

خامسا : فقد كانت تجربة مصر الحديثة التي بدأت مع (محمد علي) تجربةً مَثَّلَ الجيش فيها دور أداة التطوير والانتقال .

سادسا : فإن الثورة العرابية في محاولتها اليائسة اعتمدت لأول مرة - أو حاولت - علي جيش وطني مصري ، الأمر الذي أدي بعد فشلها إلي حل الجيش المصري تماما .

سابعا : لأنه بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ فإن الباب قد انفتح مرة أخري لعودة جيش مصري وطني يدخله أبناء طبقات أخري غير أبناء الأمراء والنبلاء وأبناء ملاك الأراضي أو محاسبيهم .

ثامنا : فإنه مع طبيعة مرحلة النمو التي كانت مصر تجتازها بعد الحرب العالمية الثانية ومع تعثر نشأة طبقات اجتماعية قادرة علي تحقيق توازن يكفل الاستمرار والاستقرار في علاقاتها فإن جهاز الدولة أصبح هو في الواقع مكمن السلطة وأداتها ، وفي هذا الجهاز فإن القوات المسلحة تصبح بالطبع جزءا رئيسيا منه فهي القادرة بقوتها علي دعم أوضاع قائمة أو التخلي عن دعمها. ولأن الجيش المصري الوطني لم يتحول إلي مؤسسة عسكرية بالمعني الموجود والمتعارف عليه في بلدان أخري ، وإنما كان جزءا من الحياة العادية والطبيعية في الوطن المصري فقد كان منطقيا أن يظهر فيه ، وينعكس عليه كل ما يتعرض له « الكل » الوطني ويجري عليه».

ثم يسجل هيكل الواقع التاريخي لأحداث الثورة ممتزجا برؤيته التحليلية فيقول :

« وفي مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ وفجر اليوم التالي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كان تنظيم الضباط الأحرار ، داخل الجيش المصري هو الذي اقتحم الساحة ، واستطاع بلورة وتوجيه واستغلال «الحالة الثورية » ، وأطاح بأسرة « محمد علي » ، وبكل النظام الذي كان يمثل السلطة تحتها » .

ويقول هيكل : كانت المعضلة الكبري هي الاحتلال وقوته المتربصة والمتحفزة في منطقة قناة السويس . كانت هذه القوات هي الحقيقة الكبري في المواجهة الخطرة التي أعقبت قيام الثورة، وكانت تلك النقطة بالذات هي الشغل الشاغل ، « لجمال عبد الناصر » في الساعات الحاسمة السابقة علي إعلان الثورة والتالية لها ، وقد حاول جاهدا استكشاف الاحتمالات الكاملة فيها وتداعياتها وعواقبها .

كان السؤال الكبير المعلق فوق كل الرؤوس في تلك الساعات الحرجة هو :

- « هل تتدخل القوات البريطانية عسكريا لحماية النظام الملكي الذي استعملته واجهة لحكم مصر طوال فترة الاحتلال ، أو تتركه لمصيره (وهي في هذه الحالة لا تترك النظام الملكي وحده

لمصيره ، ولكنها تضع الاحتلال نفسه أمام عامل مجهول في مصر ظهر دوره فجأة ، ولم تتضح بعد حقيقة نواياه) ؟ » .

ولقد مال « جمال عبد الناصر » إلي الرأي الذي كان يري أن الانجليز لن يتدخلوا لحماية الملك لأسباب عديدة . ومن نتيجة ميله لهذا الرأي فإن تحسبه للموقف البريطاني إزاء الثورة اقتصر علي خطوات محدودة ، تمثلت في إرسال بعض القوات بسرعة صباح يوم ٢٢ يوليو ، لكي تحتل خطًا دفاعيًا مؤقتًا علي الطرق المؤدية إلي القاهرة والدلتا ، من السويس والاسماعيلية وبورسعيد ، ولم تكن هذه القوات في هذا الخط الدفاعي المؤقت قادرة علي ما هو أكثر من مجرد تعطيل التدخل لكن مجرد التعطيل بدا كافيا . فقد كان الجزء الأهم في المواجهة هو الاعتماد علي التأييد الشعبي المتوقع للثورة ، بحيث يكون هو الرادع الحقيقي لأي محاولة للتدخل وقد أضيف إلي ذلك علي أي حال إجراء آخر تمثل في إرسال مبعوثين في الصباح الباكر من قيادة الثورة الجديدة إلي عدد من السفارات الأجنبية في القاهرة ، وأولها السفارة البريطانية لإخطارها بأن التغيير الذي حدث في مصر هو قضية داخلية بحتة ، وأن السلطة الجديدة تتحمل كافة مسئوليات مصر الدولية إزاء العالم الخارجي .

ولقد أثبت الرأي الذي يميل لاستبعاد تدخل الانجليز أنه مثل كل اجتهاد إنساني يصدق في جزء منه ، وَيُخْطِئ في جزء آخر . فإن احتمال التدخل لم يتحقق في اليوم الأول للثورة ، وحتي بعد أن حاول الملك « فاروق » أن يناشد الانجليز بالتدخل لحمايته ، وعلي عكس ما نصحه به رئيس وزرائه « نجيب الهلالي » (باشا) في آخر لقاء بينهما في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٣ يوليو ، فإن الملك حاول الاتصال بعدد من أصدقائه العسكريين البريطانيين، ولم يستطيع هؤلاء أن يَعدوُه بأكثر من إخطار لندن بمطلبه . ولم يتلق الملك جوابا حتي خروجه من الاسكندرية ، إلي منفاة في إيطاليا تحت الحماية الشخصية للسفير الأمريكي « جيفرسون كافري » الذي وجدها فرصة لإسداء جميل أخير للملك ، إلي جانب كونها فرصة يقابل فيها مباشرة أي واحد من الرجال الجدد الذين اقتحموا المسرح .

ولكن الذي لم يعرفه الملك ، والذي لم يقدره الرأي الذي مال لاستبعاد التدخل البريطاني ، هو أن الحكومة البريطانية بدأت فعلا تعد للتدخل العسكري إلي الحد الذي دعاها إلي إصدار الأمر بالاستعداد لتنفيذ الخطة « روديو » (Rodeo) (لاحتلال القاهرة والدلتا والاسكندرية). كان تفكير لندن يتحرك بسرعة زائدة في الفترة ما بين ٢٣ و ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . في البداية كان وقع المفاجأة شديداً فإن لندن لم تكن مستعدة لقبول أن يقع حدث بهذا الحجم في القاهرة دون أن تكون علي علم مُسْبَق به ، ودون أن تكون لديها أدني فكرة عن مصدره واتجاهاته . ولقد بدا كل شيء غامضا بالنسبة للسفارة البريطانية في القاهرة ولما كان السفير البريطاني السير « رالف ستيفنسون » غائبا وقتها عن مقره في إجازة صيف في لندن فإن عبء السفارة كله وقع علي نائبه المستر « مايكل كريسويل » . وتظهر أول برقية من «كريسويل» إلي وزارة الخارجية بعد الثورة حيرته الشديدة في إخبار لندن بما حدث ثم تظهر برقيته الثانية صدمته من تلاحق التطورات

الجارية أمامه ، ثم تظهر برقيته الثالثة أن كل ما لديه هو معلومات مبتسرة ومشوهة عن دخائل ما جري . وصباح يوم ٢٤ يوليو كانت برقيات «كريسويل» لوزارة الخارجية حافلة بالنذر ، ولعله كان يريد أن يغطي موقفه بإظهار أقصي حالات التشاؤم لكي يبرر مفاجأته بالتطورات فأقصي حالات التشاؤم في مثل هذه الحالة تظهر الموضوع وكأن مؤامرة سرية كان من الصعب علي أحد أن يتنبأ مقدما بها ثم أن أقصي حالات التشاؤم كانت ترفع عنه مسئولية أية عواقب قد تتطور الأمور إليها فهو إذ يعد حكومته لأسوأ الاحتمالات يعفي نفسه في الواقع ومقدما من أي شيء.

وهكذا فإن « كريسويل » راح يومي ٢٤ ، ٢٥ يوليو يصور قادة الثورة في مصر علي أنهم مزيج من « الأشرار والمغامرين والبلطجية (Thugs) .

وتكشف ملفات وزارة الحربية البريطانية إن اجتماعا عسكريا عقد في مقر القيادة في فايد (قيادة قوات الشرق الأوسط البريطانية في منطقة قناة السويس) يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحضره القائد العام للقوات البريطانية في مصر وممثلون عن قيادة الشرق الأوسط بما فيهم البحرية والطيران وحضره أيضا المستر « مايكل كريسويل » القائم بأعمال السفير البريطاني في القاهرة وأنهم بعثوا بتقديرهم للموقف عما يرونه في مصر ، وبناء علي ذلك صدرت تعليمات للقيادة البريطانية بأن تكون جاهزة للتدخل بموجب خطة « روديو » (Rodeo) بعد إنذار لا تزيد مدته علي ست ساعات .

ولقد كان تقدير حجم القوات البريطانية الموجودة في قاعدة قناة السويس هو النقطة الرئيسية في خطأ الرأي الذي مال إلي استبعاد تدخل عسكري بريطاني ضد الثورة .

كان هذا التقدير يظن أن القوات البريطانية في قاعدة قناة السويس لا تزيد علي فرقة واحدة ، وكان هذا التقدير خطأ ، فإن حجم القوات البريطانية في منطقة القناة كما تقول بذلك ملفات وزارة الخارجية البريطانية لم يكن فرقة واحدة - كما كان الظن - وإنما كان أربع فرق أي ٨٠ ألف جندي بخلاف قوات الطيران والبحرية . والواقع أن حجم هذه القوات كان بالفعل فرقة واحدة ، حتي قامت حكومة الوفد بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ولكن إلغاء المعاهدة وتوتر الموقف بين مصر وبريطانيا في أواخر ١٩٥١ وأوائل ١٩٥٢ أدي إلي زيادة حجم القوات إلي درجة تكفيها لتحمل أعباء الخطة « روديو » (Rodeo) ، وفي يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ كانت آلات المطابع السرية في قاعدة قناة السويس تدور لتطبع المنشورات التي كانت القوات الغازية سوف توزعها عند دخولها علي السكان المدنيين في القاهرة المحتلة وفي الاسكندرية المحتلة » .

ويختم هيكل هذا المشهد التاريخي بقولة : إن خطر التدخل العسكري ضد الثورة في تلك الفترة ظل معلقا فوق الرؤوس لمدة شهر كامل .

الدراسة الوثائقية :

ظل هذا المنشور سرا علي جمهور القراء والدارسين حتي نشره محمد حسنين هيكل في الحلقة السادسة من كتابه ملفات السويس في صحيفة الأهرام في ٨ أكتوبر ١٩٨٦ ، وكان عنوان

الحلقة « سر يذاع لأول مرة » . وفي طبعة الكتاب نشرت صورة المنشور في الملحق الوثائقي تحت رقم ٧٨ في ترتيب الوثائق بالكتاب في صفحة ٧٣٤ من صفحات الكتاب [١] .

نص المنشور :

إلي سكان القاهرة

إن القوات البريطانية التي تحت إمرتي وقد وصلت إلي القاهرة لحماية أرواح الرعايا البريطانيين المقيمين فيها بشكل قانوني . وقد أصبح هذا ضروريا بسبب العجز الواضح للحكومة الملكية المصرية في القيام بواجبها الأساسي في حماية أرواح الأجانب في مصر . ولن أسمح بأي ثمن بتكرار الأحداث التي وقعت في هذه المدينة في ٢٦ كانون الثاني ، يناير ١٩٥٢ حيث قتل رعايا بريطانيون وخربت ممتلكاتهم .

ولتحقيق هذه النية أصدرت الأوامر الآتية ، والتي عليكم إطاعتها :

١- لحين صدور أوامر أخري سأعلنها عن طريق مكبرات الصوت أو بأي وسيلة أخري ، سيكون عليكم الوجود داخل حدود منازلكم إلا إذا كان بحوزتكم تصريح مرور صادر تحت أوامري يسمح لكم بالوجود في أماكن أخري ، وقد صدرت الأوامر للحراس والدوريات بإطلاق النار علي الأشخاص الذين يوجدون خارج منازلهم والذين لا ينفذون الأوامر الصادرة لهم فورا .

٢- عليكم التصرف بطريقة مسالمة ولن يسمح لكم بتعطيل أو إيذاء القوات التي تحت إمرتي .

٣- عليكم إطاعة جميع الأوامر الصادرة في إطار سلطتي دون إبطاء .

٤- طالما تصرفتم بطريقة مسالمة واتبعتم أوامري فلن يجري التدخل في شئونكم بأكثر مما هو ضروري ، ويمكنكم القيام بأعمالكم المعتادة دون خوف .

٥- سيجري احترام القوانين السارية والعادات والحقوق والملتكات طبقا للقانون الدولي ، وبقدر ما تسمح به الضرورات العسكرية .

٦- ومن مصلحتكم أن تسير الإدارة والخدمات المصرية بشكل كفء . ولذلك فعلي المسئولين والموظفين المصريين أن يبقوا في وظائفهم وأن يقوموا بأداء واجباتهم بإخلاص .

٧- وستصدر أوامر أخري من آن لآخر حسب الحاجة .

٨- وفي حالة حدوث أي اختلاف بين النصين الانجليزي والعربي لهذا الإعلان سيعتبر النص الانجليزي هو الأصل وسيفسر طبقا للقانون الانجليزي .

صدر في   هذا اليوم   ١٩٥٢ .

---

(١) محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - الطبعة الأولي - الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٨٦ .

ت . برودي ماجور جنرال

قائد القوات البريطانية في القاهرة » .

وفي الوقت نفسه كانت المطابع تدور بمنشور آخر موجه إلي سكان الاسكندرية موقع بتوقيع الماجور جنرال « ج . ن . بويت » قائد القوات البريطانية المكلفة باحتلال الاسكندرية .

تعقيب :

لم ير هذا المنشور النور . لذلك لم تَجْرِ عليه المقاييس البحثية التي أجريت علي بقية المنشورات ، ولكن القارئ يلحظ فئات تحليل المضمون فيه ، ويلحظ مدي تشابهها مع بقية المنشورات. وتفسير ذلك أن المصدر يشترك في صفاته الذهنية وفي رؤيته للواقع العربي . وصدق القرآن الكريم في تساؤله : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (آية ٥١ سورة الذاريات) .

* المنشورات الإسرائيلية علي لبنان (عام ١٩٨٢ م) :

الخلفية التاريخية :

أذاعت وكالات الأنباء العالمية والمحلية يوم ٤ يونية ١٩٨٢ خبرا تناقلته مختلف وسائل الإعلام ، مؤداه أن السفير الإسرائيلي في لندن أصيب أثر إطلاق النار عليه . وأن الشخص المجهول الذي أطلق النار وصفته مَصَادر الشرطة الإنجليزية بأنه شاب ملامحه تدل علي أنه من الشرق الأوسط. كما وصفت الإصابة بأنها بالغة ، وفيما بين الساعة الثالثة والربع والرابعة والربع من اليوم نفسه أغارت الطائرات الإسرائيلية علي مواقع الفلسطينين في لبنان تسع غارات جوية فقتلت ٦٠ شخصا وجرحت ٢٧٠ شخصا . وفي ٥ يونية ١٩٨٢ استع نطاق القصف الإسرائيلي ، وبدأت العمليات العسكرية لغزو لبنان ، وفي اليوم التالي ٦ يونية بدأت الألوية الإسرائيلية المُعزَزة بالدبابات اجتياح الجنوب اللبناني . وفي يوم ٨ يونية أصبحت القوات الإسرائيلية علي بعد ٢٠ كيلو مترا من بيروت ، مع استمرار القصف العنيف علي المواقع الفلسطينية في بيروت . واستمر العدوان الإسرائيلي محاولا تصفية المقاومة الفلسطينية في بيروت ، فقطعوا الكهرباء عنها ومصادر الماء ، وفي ٤ يولية عزز الإسرائيليون وجودهم علي مداخل بيروت الغربية ، وأحكموا الطوق علي العاصمة ، وقد بلغت القذائف الإسرائيلية علي بيروت والضواحي يوم ١١ يولية ٧٨٤٠ قذيفة . وفي أواخر يولية اشتركت الطائرات والزوارق والدبابات في فتح جحيم من النيران علي مواقع الفلسطينيين في بيروت حتي وافقت المقاومة الفلسطينية علي الانسحاب من بيروت في ٢٩ يولية ، وبرغم ذلك ظل الغزو الإسرائيلي مستمرا فسقط مطار بيروت الدولي بأيديهم في أول أغسطس ، واستمر الغزو عنيفا حتي بلغ عدد القتلي يوم ٤ أغسطس ٣٠٠ قتيلا. واحتلت القوات الإسرائيلية مبني مجلس النواب اللبناني يوم ١١ أغسطس ، وظل الغزو مستمرا حتي بدأ خروج الفلسطينيين يوم ١٩ أغسطس الذي استمر ١١ يوما .

الدارسة الوثائقية :

عندما دَعَتْ قواعد البحث العلمي أن أوثق نصوص المنشورات التي ألقتها الطائرات الاسرائيلية علي لبنان واجهتني صعوبة . فقد كنت أريد رؤية هذه المنشورات ، وطلبت من أحد الباحثين في الماجستير بقسم الصحافة بكلية الإعلام بجامعة القاهرة وأنا مشرف علي رسالته أن يحاول مساعدتي في ذلك ، وهو يعمل في الجهاز المَعْني بهذه الأمور ، ولكنه قال لي بعد جهد وبحث أن ما يحفظونه هو صورة المنشور التي نشرته إحدي الصحف اللبنانية . وطلبت من مسئول في الجهاز الفلسطيني المعني بهذه الأمور فكان جوابه أنهم لم يحتفظوا بهذه المنشورات . وطرحت الأمر علي الشيخ ماهر حمود رجل الدين الشاب اللبناني الذي كان يخطب الجمعة في جامعة بيروت العربية ، وعن طريق المصلين حصل لي علي عدة منشورات أصلية أحتفظ بها حتي الآن . وهي أوراق حمراء وخضراء مساحتها ٢١ سم × ١٦ سم ، والطباعة عليها بالحبر الأسود والحروف بالآلة الكاتبة العادية .

نصوص المنشورات إذاعيًا وطباعيًا :

يوم ٦ يونية ١٩٨٢ وجه الجيش الإسرائيلي بيانات إلي سكان جنوب لبنان بثتها الإذاعة الإسرائيلية تكرارا .

البيان الأول جاء فيه : « إن جيش الدفاع الإسرائيلي اضطر إلي دخول جنوب لبنان كي يزيل الكابوس الذي يخيم علي السكان ويعيد الأمن والطمأنينة إلي ما كانتا عليه في السابق . هدف جيش الدفاع الإسرائيلي هو القضاء علي أوكار المخربين فقط ، مع بذل كل مجهود للإمتناع عن المس بالمواطنين العزل . من أجل مصلحتكم والمحافظة علي سلامتكم التزموا الهدوء والسكينة واستمعوا في استمرار إلي صوت اسرائيل الذي يذيع بيانات وإرشادات للسكان المدنيين » .

وفي البيان الثاني : « لضمان سلامتكم وسلامة أقربائكم والحفاظ علي أرواحكم وأملاككم اتبعوا بدقة متناهية ما يأتي :

أولا : امنعوا العناصر المسلحة من استعمال أحيائكم وبيوتكم مراكز لإدارة قتال عديم الجدوي .

ثانيا : لازموا دوركم ولا تغادروها .

ثالثا : علقوا علي الشبابيك أو الشرفات قطعة من القماش الأبيض بحيث يمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

رابعا : تذكروا ، بغية الحفاظ علي أمنكم وسلامتكم أنه يجب تمكين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي توجد فيها عناصر تخريبية وتلك التي يوجد فيها المدنيون العزل » .

وجاء في البيان الثالث : « **أولا** - حاولوا ، رجاء ، إقناع المخربين الموجودين في منطقتكم

بالتخلي عن أسلحتكم في أسرع ما يمكن وعدم الاختباء وراء ظهوركم ، امنعوهم من أن يكونوا السبب في ضياع أرواح أبنائكم وأقربائكم .

ثانيا : نرجو منكم ملازمة بيوتكم وتعليق قطعة من القماش الأبيض علي شباك الشرفة بحيث تمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

ثالثا : الرجاء عدم مغادرة قراكم البتة لأن الطرق معرضة للقصف وغير ذلك بسبب المعارك.

رابعا : عليكم أن تجمعوا كل الأسلحة التي تملكونها ، ثم التصرف بها وفقا للأوامر التي تذاع في الميدان من قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

أما المنشورات فقد ألقتها الطائرات الإسرائيلية فوق المناطق الجنوبية يوم ٦ يونية موجهة إلي المقاتلين تدعوهم إلي ترك السلاح وجاء فيها ما يلي :

« إنكم تعلمون علم اليقين أنه ليس من أمل في استمرار القتال ضد قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المتفوقة . فكر جيدا في هذا الأمر ، لقد قمت بواجبك حتي الآن والمعركة علي وشك النتهاء . فهل تريد أن تضحي بنفسك عبثا وتلتحق بآخر القتلي ألق سلاحك فورا إلي جيش الدفاع الإسرائيلي . لا تمس بسوء العناصر التي لا تحمل السلاح » .

وفي يوم ٧ يونية بثت الإذاعة الإسرائيلية بيانا موجهاً من قيادة الجيش إلي من أسمتهم بالعناصر المسلحة في جنوب لبنان يقول البيان :

« جيش الدفاع الإسرائيلي ليس معنيا بسفك الدماء دون جدوي وإنه لقادر علي ذلك كما ثبت لديكم بعد أن ذقتم طعم قدرته الحربية . لقد قمتم بأكثر من الواجب الملقي علي عاتقكم كمتصدين لقوات تفوقكم عدداً وعدة ، وما من شك في أن ما أسهمتم به حتي الآن يفوق كثيراً ما قام به من يسمون أنفسهم ضباطا وكانوا أول الهاربين من الميدان فضلا عن الساسة والمتزعمين .

إخوانكم في المناطق التي اجتازتها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي ألقوا السلاح ويحظون الآن بالمعاملة الحسنة التي تمنحها قواتنا لهم ، في حين يحظي الجرحي منهم بالعلاج الطبي الأمين.

إنكم تدركون تماما عدم جدوي التصدي لجيش الدفاع الإسرائيلي الذي يملك أحدث الأسلحة التي أعدت خصيصا لهذه العملية . قف وفكر ، لقد أنجزت ما كلفت به علي الوجه المطلوب ، المعركة تقترب من نهايتها المحترمة . أمِنَ الأفضل التضحية بالنفس عبثا ، وإضافة أسمك إلي قائمة القتلي ؟ أم الأفضل إلقاء السلاح ؟ وضمان العودة إلي الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات وجها لوجه ؟ قف وفكر ، قف وفكر .

وفي يوم ١٠ يونية ألقت الطائرات الإسرائيلية منشورات فوق مدينة بيروت موجهة إلي القائد السوري « طلال » تدعوه إلي الاستسلام مع قواته وتشير إلي الطرق الواجب سلوكها لتسليم أنفسهم .

وهذا نموذج من البيانات التي ألقت بها الطائرات الإسرائيلية فوق مدينة بيروت في ٢٧ حزيران ١٩٨٢ :

إلي السكان :

إن جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين ولم يستعمل بعد بكامل قوته إنما ليس هو معني بالمس بالمواطنين الأبرياء وبمن لم يحارب ضده ، أنت الساكن في بيروت استغل وقف إطلاق النار وانقذ حياتك .

أمامك الإمكانيات التالية :

أ) عن طريق قوات جيش الدفاع الإسرائيلي شرقًا علي محور بيروت - دمشق .

ب) شمالا إلي اتجاه طرابلس .

انقذ حياتك وحياة أعزائك .

قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

الى السكان

ان جيش الدفاع الاسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين ولم يستعمل بعد بكامل قوته الا انه ليس هو معني بالمس بالمواطنين الابرياء ومن لم يحارب ضده .

انت الساكن في بيروت .

استغل وقف اطلاق النار وانقذ حياتك .

امامك الامكانيات التالية .

أ . عن طريق قوات جيش الدفاع الاسرائيلي شرقا على محور بيروت ـ دمشق .

ب . شمالا الى اتجاه طرابلس .

انقذ حياتك وحياة اعزائك .

قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي

نموذج من البيانات (المنشورات) التي ألقت بها الطائرات الإسرائيلية
فوق مدينة بيروت في ٢٧ / ٦ /١٩٨٢م

ويبين الجدول التالي تكرار الأفكار الرئيسية لتبرير الغزو العسكري كما وردت في المنشورات التي ألقتها الطائرات وفي البلاغات التي أذاعها الراديو الإسرائيلي باللغة العربية.

وحدات التحليل	التكـــرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٢
٢- الدافع إلي للغزو .	١
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٣
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٣
٦- التخويف والترهيب .	٣
٧- العزل والتمييز .	٤
٨- استغلال الدين .	-
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	-
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٦
١١- الإغراء والترغيب .	٤
١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٥

تبرز التكرارات الواردة في النداءات الإسرائيلية طباعيا وإذاعيا استخدام العاطفة وغريزة القطيع في المقام الأول ، تليها الدعوة إلي الاستسلام بالمودة ثم العزل والتمييز . وسنري ذلك كله متوافقا مع ظروف الغزو الإسرائيلي الذي يختلف في بعض الوجوه مع ظروف الغزو الفرنسي لمصر ثم للجزائر .

وعندما نتتبع الدلالات الواردة في المنشورات التي ألقتها الطائرات الإسرائيلية فوق مدينة بيروت عام ١٩٨٢ ، والدلالات الواردة في بلاغات الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية ، كما بينتها فئات تحليل المضمون نلاحظ ما يلي :

١ - الهدف من الغزو :

أ) مهاجمة المخربين .

ب) التغيير من أجل خير أهل البلاد وصلاحهم ومنفعتهم .

٢- الدافع إلي الغزو :

أ) أن هناك فلسطينيين مخربين .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

أ) السكان عموما .

ب) المقاتلون والمسلحون في جنوب لبنان (يومي ٦ ، ٧ يونية) .

جـ) القائد السوري (يوم ١٠ يونية) .

٤- الفاعل في الرسالة الإعلامية :

أ) قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

٥- التبرير للعمليات العسكرية :

أ) جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين .

ب) جيش الدفاع الإسرائيلي اضطر لدخول جنوب لبنان لإزالة الكابوس الذي يخيم علي السكان ويعيد الأمن والطمأنينة .

جـ) هدف جيش الدفاع الإسرائيلي القضاء علي أوكار المخربين .

٦- التخويف والترهيب :

أ) جيش الدفاع الإسرائيلي لم يستعمل بعد كامل قوته .

ب) قوات جيش الدفاع الإسرائيلي متفوقة .

جـ) جيش الدفاع الإسرائيلي قادر علي سفك الدماء بعد أن ذقتم طعم قدرته الحربية .

٧- العزل والتمييز :

أ) جيش الدفاع الإسرائيلي يريد المخربين ولا يريد المس بالمواطنين الأبرياء ومن لم يحارب ضده .

ب) إن الهدف هو القضاء علي أوكار المخربين وعدم المس بالمواطنين العزل.

جـ) القول بأن الضباط أول الهاربين من الميدان وكذلك الساسة والمتزعمين وترك الجنود للموت .

د) امنعوا العناصر المسلحة من استعمال أحيائكم وبيوتكم مراكز لإدارة قتال عديم الجدوي .

٨- استغلال الدين :

لا يوجد .

٩- إثارة الشعب علي حاكمه :

استبدل بهذا التخلي عن المقاتلين ، ومنعهم من استعمال البيوت والأحياء مراكز للقتال ، وتمكين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي يوجد بها المقاتلون وتلك التي يوجد فيها المدينون العزل .

١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

أ) انقذ حياتك وحياة أعزائك .
ب) من أجل مصلحتكم وللمحافظة علي سلامتكم التزموا الهدوء والسكينة .
جـ) امنعوا المخربين من أن يكونوا السبب في ضياع أرواح أبنائكم وأقربائكم .
د) هل تريد التضحية بنفسك عبثا وتلحق بآخر القتلي .
هـ) المعركة تقترب من نهايتها المحتومة فمن الأفضل عدم التضحية بالنفس وإضافة اسمك إلي قائمة القتلي .
و) الوقت يتضاءل وكلما تأخرت ازدادت المخاطر علي سلامتك وسلامة أعزائك .

١١- الإغراء والترغيب :

أ) قوات جيش الدفاع الإسرائيلي لا تمس بسوء العناصر التي لا تحمل السلاح .
ب) الذين ألقوا السلاح يحظون الآن بالمعاملة الحسنة التي تمنحها قواتنا لهم في حين يحظي الجرحي منهم بالعلاج الطبي الأمين .
جـ) إلقاء السلاح وضمان العودة إلي الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات .
د) الذين غادروا غرب بيروت يعيشون في حرية وأمان .

١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة :

أ) عدم المساس بالمواطنين العزل .
ب) عدم مساعدة العناصر المسلحة من المخربين .
جـ) مساعدة جيش الدفاع الإسرائيلي في التعرف علي مناطق العناصر التخريبية .
د) تسليم الأسلحة التي يملكونها .

هـ) علقوا علي الشبابيك أو الشرفات قطعة من القماش الأبيض بحيث يمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

مرتكزات الاختراق :

من القراءة التحليلية للمنشورين الصادرين عن قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي وكذلك البيانات التي أذاعها راديو صوت إسرائيل يتبين لنا ما يلي :

١- يتوجه المنشوران إلي سكان غربي بيروت .

٢- يحرص المنشوران علي عزل السكان تماما وضمان تحييدهم في الصراع من خلال اختلاق عدو آخر يتم فصله عن السكان يطلق عليه تسمية « المخربين » .

٣- يعني المنشوران بتكرار مخاطبة السكان بأن يسارعوا بالخروج من بيروت الغربية إلي بيروت الشرقية أو إلي الشمال حيث مدينة طرابلس . ولا يكتفي المنشوران بذلك بل إنهما يحددان طرق الخروج .

٤- يربط المنشوران بين بقاء السكان في بيروت الغربية وبين تعرضهم لخطر الموت والفناء والجيش الإسرائيلي يقدم نفسه باعتباره الحريص علي عدم الإضرار بالسكان المدنيين ، ويدعوهم لانتهاز الفرصة لإنقاذ حياتهم وحياة أعزائهم والإسراع في ذلك قبل فوات الأوان، وأن يتأسوا في ذلك بإخوانهم الذين استغلوا الفرصة من قبل .

٥- استعراض القوة وتنبيه إلي أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يستعمل كامل قوته ، وتذكير بأن اللبنانين ذاقوا طعم قدرته الحربية .

٦- يرمي المنشور إلي تسريب عدد من الأفكار المغلوطة يمكن تركيزها فيما يلي :

أ) الإيحاء بأن إسرائيل يهمها المحافظة علي حياة المدنيين وأنها تلتزم بالقوانين والمعاهدات الدولية الخاصة بحماية حقوق المدنيين وعدم ضرب أو تدمير تجمعاتهم ومدنهم أو أحيائهم السكنية أثناء الحرب .

ب) الإيحاء بأن إسرائيل لا تهدف إلي غزو لبنان وإنما تبغي تدمير الوجود العسكري الفلسطيني في لبنان قائلة بأنها تحارب « مخربين » .

جـ) الحرص علي توقيع المنشورات بهذا التوقيع : « جيش الدفاع الإسرائيلي » ، ويرتبط ذلك - في ضوء الخبرة التاريخية للصراع العربي الإسرائيلي - بموقف إسرائيل الإعلامي الدولي الخاص بالترويج لفكرة مؤداها أنها « حمل وديع » لا يملك الهجوم ، وأن كل ما تملكه هو الدفاع عن نفسها ضد العرب الذين يقومون بالهجوم أولا مما يضطر إسرائيل إلي الدفاع ، وهذا لا يتعارض أبداً مع احتلالها لأرض الغير ذلك لأن هذا الاحتلال من ثمار « الحرب الدفاعية » التي طاردت فيها المعتدين الذين « يخربون » .

٧- هناك ربط مستمر بين الفلسطينيين « المخربين » في المفهوم الإسرائيلي وبين قيام الحرب وتعرض لبنان لمخاطرها وأضرارها . وينطوي هذا الربط علي اللجوء لزرع فكرة مدمرة في نفوس اللبنانيين ، وهي أن مطاردة الفلسطينيين هي الهدف الوحيد للحرب وأن تدمير لبنان أو تعرضه لذلك إنما هو نوع من دفع الثمن باسم هؤلاء الفلسطينيين ، ويفضي كل ذلك في نهاية الأمر إلي نوع من الكراهية للفلسطينيين الذين يمثلون مصدر الدمار للبنان واللبنانيين .

٨- هناك نوع من التكرار المستمر علي فكرة التسليم ورمي السلاح ورفع الرايات البيضاء وعدم مساعدة المقاتلين ، بل الإبلاغ عنهم وتمكين جيش الاحتلال الإسرائيلي من التعرف علي أماكنهم، وجمع السلاح وتسليمه لقوات الاحتلال ، ومداومة البقاء في السكن وملازمته وعدم الخروج إلي الطرقات .

٩- يحرص جيش الاحتلال الإسرائيلي علي تعميق فكرة التسليم بالتأكيد علي مجموعة من المرتكزات يمكن حصرها فيما يلي :

أ) التركيز علي عدم جدوي مقاومة جيش الدفاع الإسرائيلي ؛ حيث لا أمل في ذلك ، فالجيش قوي ، متفوق ، لم يستخدم إمكانياته المتقدمة بالكامل ، ويملك أحدث الأسلحة التي أعدت خصيصا للغزو ، قادر علي سفك الدماء .

ب) التنبيه إلي أن التستر علي « المخربين » ، وعدم الإبلاغ عنهم ، ومنعهم من الاستمرار في المقاومة، يمكن أن يكون سببا في ضياع أرواح السكان وأرواح أبنائهم وأقربائهم .

جـ) تصوير الخروج إلي الطرقات باعتباره سلوكا خطرا يعرض صاحبه للقصف المستمر بسبب المعارك .

د) التشكيك في قدرة المقاتلين علي المواصلة ، وبث اليأس في نفوس المواطنين بالتركيز علي فكرة محورية مؤداها أن الحرب قد أوشكت علي الانتهاء لصالح جيش الدفاع أو اقتربت من نهايتها المحتومة .

هـ) نشر الأخبار الكاذبة حول صمود المقاتلين في المناطق المختلفة ، فمرة يزعم البيان الصادر في ٧ يونيو « أن الضباط كانوا أول الهاربين من الميدان ، فضلا عن الساسة « والمتزعمين » ومرة يزعم البيان نفسه في مخاطبته للبنانيين « إن إخوانكم في المناطق التي اجتازتها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي ألقوا السلاح » وهكذا يتجه المنشور مباشرة نحو تحطيم « القدوة » أو «القيادات من رجال المقاومة الفلسطينية واللبنانية » في ذهن السكان ، في إطار سعيه لقتل المقاومة الوطنية ، ودفع المواطنين لرمي السلاح ، من خلال خلق المبرر الذي يمكن أن يتسلحوا به في سلوكهم الانهزامي وهو « هروب الضباط والقادة » .

و) يصور البيان الصادر عن صوت إسرائيل الموقف ، وكأنه ليس أمام السكان سوي بديلين لا ثالث لهما ، الأول : التضحية بالنفس عبثًا وإضافة الاسم إلي قائمة القتلي ، والثاني : إلقاء

السلاح وضمان العودة إلي الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات وجهاً لوجه ، وباختصار يصور البيان الموقف باعتبار أن المرء مطالب بالاختيار بين الموت والحياة . ويحاول الغواية بالأمور التي تستثمر نقاط الضعف في النفس البشرية .

التحليل المقارن :

ويبين الجدول التالي المقارنة بين التكرارات في وحدات تحليل المضمون

م	المنشورات	منشور الحملة الفرنسية علي مصر	منشور الحملة الفرنسي للجزائر	منشورات وإذاعات الإسرائيليين في غزو بيروت
	وحدات التحليل	التكرار	التكرار	التكرار
١-	الأهداف العامة للغزو .	٣	٢	٢
٢-	الدافع إلي للغزو .	٢	١	١
٣-	الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٢	١	٣
٤-	الفاعل في الرسالة الإعلامية .	١	١	١
٥-	التبرير للعمليات العسكرية .	٢	٢	٣
٦-	التخويف والترهيب .	٢	٥	٣
٧-	العزل والتمييز .	٣	٢	٤
٨-	استغلال الدين .	٦	٣	-
٩-	إثارة الشعب علي الحاكم .	٢	٤	-
١٠-	استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣	٣	٦
١١-	الإغراء والترغيب .	٩	٢	٤
١٢-	الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٦	٣	٥

من القراءة الكمية لتكرارات وحدات تحليل المضمون في المنشورات المختلفة زمانيا ومكانيا والمتفقة في غزو العرب نفسيا في اللحظة ذاتها التي يتم فيها غزوهم عسكريا نلحظ الآتي :

١- تتفق المنشورات في تحديد الأهداف العامة للغزو بين ٣ أسباب (مصر) وسببين (الجزائر) و(لبنان) .

٢- الدوافع للغزو في المنشورات يتساوي في حالتي الجزائر ولبنان ويصبح دافعين في حالة (مصر).

٣- تختلف المنشورات في تحديد الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية وفق اختلاف ظروف الغزو فهي في الجزائر الشعب عامة . وفي مصر المصريون عامة وقادة الرأي بصفة خاصة . وفي لبنان: السكان عموما ، المقاتلون والمسلحون في جنوب لبنان ، القائد السوري بصفة خاصة.

٤- كان الفاعل في الرسالة الإعلامية محددا في مصدر واحد في كافة المنشورات .

٥- تتفق المنشورات في تكرارات تبرير العمليات العسكرية بتكرارين (مصر) و(الجزائر) وبثلاثة تكرارات في (لبنان) .

٦- في التخويف والترهيب ازدادت التكرارات في الحملة علي الجزائر إلي خمس تكرارات ، ثم تلتها في العمليات العسكرية ضد لبنان فوصلت إلي ثلاثة تكرارات وبلغت في الحملة الفرنسية علي مصر تكرارين .

٧- في العزل والتميز كانت أكثر في حرب لبنان ثم تلتها في غزو مصر وبعدها في غزو الجزائر.

٨- كان استغلال الدين في الحملة الفرنسية علي مصر أعلي التكرارات ثم تلتها في حملة الجزائر. أما في الحرب الاسرائيلية ضد لبنان فقد انعدم تماما .

٩- كانت إثارة الشعب علي حاكمة أعلي التكرارات في غزو الجزائر ثم في الحملة الفرنسية علي مصر . أما في غزو لبنان فقد انعدم هذا التكرار ، وحل محله التخلي عن المقاتلين ، ومنعهم من استعمال البيوت والأحياء مراكز للقتال ، وتمكين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي يوجد بها المقاتلون وتلك التي يوجد بها المدنيون العزل .

١٠- في استخدام العاطفة وغريزة القطيع كانت التكرارات في غزو لبنان ضعف التكرارات في الحملتين علي مصر وعلي الجزائر .

١١- أما الإغراء والترغيب فكانت تكراراته في الحملة الفرنسية علي مصر أعلي التكرارات (٩) وكانت في غزو لبنان (٤) بينما نزلت في غزو الجزائر إلي (٢) .

١٢- وفي الدعوة إلي الاستسلام بالمودة كانت أعلي التكرارات في الحملة علي مصر (٦) ثم قاربتها في غزو لبنان (٥) بينما وصلت إلي (٣) في غزو الجزائر .

ويمكن تخليص نقاط الدراسة المقارنة لتحليل مضمون هذه المنشورات فيما يلي :

اولا : المُرْسِل :

١- من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته .

٢- من سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية .
٣- من قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

ثانيا : المُستَقبِل :

١- إلي أهالي مصر جميعهم .
٢- إلي سكان الجزائر وأهل القبائل .
٣- إلي الساكن في بيروت ، إلي سكان جنوب لبنان .

ثالثا : سبب الحرب :

١- من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية . ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي .
٢- إن الباشا حاكمكم من حيث أنه تجرأ علي بهدلة بيرق فرنسه المستحق كل اعتبار وأقدم علي إهانته .
٣- الحرب ضد المخربين .

رابعا : الأفكار السائدة في المنشورات :

١- فكرة « العدو للمشترك » للمستعمر ولأبناء البلد .
أ) الداي وحاشيته .
ب) المماليك .
جـ) الفدائيون (المخربون) .
٢- فكرة عدم جدوي المقاومة .
٣- فكرة أن يكون السكان آمنين مطمئنين .
٤- فكرة التعايش بين الغازي وابن البلد والتعامل معه .
٥- فكرة السبب المنتحل .
أ) ضربة منشة للقنصل .
ب) إطلاق رصاص علي سفير أصبح مختفيا .
جـ) سب الملة ومضايقة التجار الفرنسيين .
٦- فكرة القضاء والقدر بالمفهوم الخاطئ .
٧- فكرة بث العداء لمن كان السبب في الغزو وطلب أبناء البلد في العمل ضدهم مع الغازي .
٨- فكرة الوعد بالسلام والأمن لأبناء البلد في حالة امتثال الأوامر .
٩- تلفيق الفكرة الدينية واستغلالها بقوة في عام (١٧٩٨) ثم أقل في عام (١٨٣٠) ثم انعدامها عام (١٩٨٢) .

خامسا : مرتكزات الاختراق :

أ) اصطناع التناقض بين المقاتلين والشعب .

ب) اختلاق مساوئ للقيادة وللمقاتلين .

جـ) الربط بين الفساد وبين مجيء الغزو المخلص .

د) تهيئة العقول للقبول بوجود الغزاة والتعايش معهم .

هـ) التلويح بالعقاب الشديد .

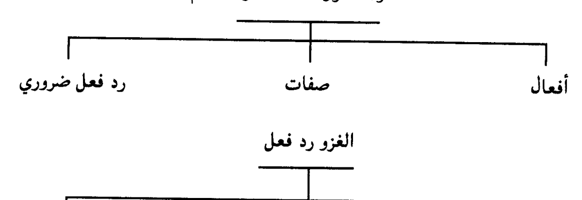
سادسا : أساليب المعالجة :

١- تشويه صورة المقاتلين .

٢- التنبيه علي أن الغزو رد فعل وليس فعلا .

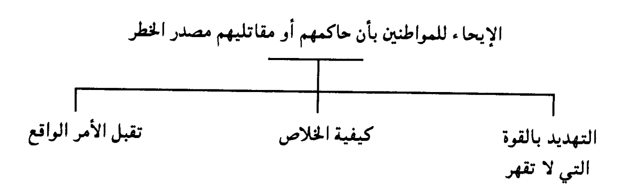
٣- الإيحاد للمواطنين بأن حاكمهم أو مقاتليهم مصدر الخطر عليهم ومصدر الضرر لهم .

وتتمثل هذه الأساليب في الشكل التالي :



الغزو رد فعل

التقدير للمواطنين | استغلال الدين | الأعمال الخبيثة للحاكم أو المقاتلين



تعقيب :

يتساءل القرآن الكريم في موضعين تساؤلا شديد الدلالة في التحليل الذي نقدمه في هذا المقام ، التساؤل الأول في الآية ٥٣ من سورة الذاريات : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ . والتساؤل الثاني في الآية ٣٢ من سورة الطور : ﴿ أمْ تأمرهم أحْلامُهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾. والتساؤلان استنكارا للطغيان . وكما يقول سيد قطب في ظلال القرآن : « وما تواصوا بشيء ، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين » .

وصدق الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ (سورة الذاريات الآية ٥٩) .

ولعل ملاحق هذا الفصل تؤكد تواصل الطغيان في صور الارتباط العضوي بين القول والسيف في غزو العرب .

ملاحق الفصل الثالث

خطابات الصليبيين والتتار (المغول)

والبرتغاليين في غزو العرب

تمتد الحروب الصليبية من عام ٤٨٩ هـ إلي عام ٦٩٠ هـ .

أي من عام ١٠٩٦ م إلـــي ١٢٩١م .

ويواكب الغزو المغولي الفترة من عام ٦٥٦ هـ إلي ٨١٧ هـ .

أي من عام ١٢٥٨ م إلي عام ١٤٠٤ م .

أولا : خطاب لويس التاسع الملك والقائد الصليبي إلي السلطان الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٩ م .

عندما وصل لويس التاسع علي رأس حملته أمام دمياط في أوائل يونية ١٢٤٩ م . اتبع أسلوبا أشبه بالأسلوب الذي اتبعه المغول من بعده في ذلك العصر من إرسال رسائل تهديد ووعيد ودعوة للاستسلام .

وهذا نص الخطاب كما أورده المقريزي [1] .

يقول المقريزي : وسير ملك الفرنج إلي السلطان كتابا ، نصه بعد كلمة كفرهم :

أما بعد فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أهل جزائر الأندلس « يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار. وقد أبديت ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلي النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت علي القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي بملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصي ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا » .

ومن يقارن بين أسلوب هذه الرسالة ورسالة هولاكو إلي قطز - كما سنشير في السطور الآتية - يجد التوافق شديدا في المعاني والأفكار . ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة لويس التاسع وصلت السلطان الصالح أيوب وهو يعاني آلام مرض الموت ، فأغرورقت عيناه ، وكتب الرد إلي

---

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (صححة ووضع حواشية) د. محمد مصطفي زيادة - الجزء الأول - القسم الثاني - طبعة ثانية منقحة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٧ صـ٣٣٤.

لويس يندد بغروره ، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين « فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، واخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان منك أن تعض علي أنا ملك للندم » .

ثانيا : خطابات التتار (المغول) :

هل المغول هم التتار ؟ الواقع أن المغول أشمل لأن التتار بعض من المغول . ولكن المصادر التاريخية تستخدم كلمة التتر أو التتار وكلمة المغول بمعني واحد . ولا بأس في ذلك لأن المقصود هو الدولة أو الأمة التي كونها « جنكيز خان » .

« وجنكيز خان » – يعني أقوي الحكام – وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في حياته فهو « تيموجين » ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص . وقد تمكن بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلي غايته وهي زعامة المغول وأن يجعل منهم قوة خارقة . وقد امتدت امبراطوريته من الصين إلي البحر الأسود عندما توفي عام ١٢٢٧م .

وفي عام ١٢٥٤ م زحف « هولاكو » حفيد « جنكيز خان » غربا نحو فارس فاستولي عليها ثم تقدم فقضي علي الخلافة العباسية ، واستولي علي بغداد في فبراير ١٢٥٨ م وقتل الخليفة وأهله ، ولم يبق أمامه سوي الشام ومصر . وفي سبتمبر ١٢٥٩ م غزا « هولاكو » الشام واستولي علي حلب في يناير ١٢٦٠ ، وفي مارس أسلم الوزير زين الدين الحافظي دمشق للمغول. في ذلك الوقت رأي هولاكو أن يعد العدة للهجوم علي القدس ثم يبدأ بغزو البلاد المصرية فأرسل رسله إلي مصر بكتاب الوعيد والتهديد . أمام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الأمراء المماليك واستقر الرأي علي مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . واتحدت كلمة المماليك ، بعد فرقة ، لمواجهة الخطر المغولي . وكانت وحدتهم سببا في انتصار « عين جالوت » الذي به تمت هزيمة المغول ودخل قطز دمشق علي رأس الجيوش المصرية والشامية في سبتمبر ١٢٦٠م ليطهرها من بقايا المغول » [١] .

وترجع أهمية عين جالوت في أنها حطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر. وأنها فتحت الطريق لتصفية الاستعمار الاستيطاني الصليبي الذي ظلت بقاياه بعد الانتصار علي المغول . وأنها فوتت علي الصليبيين أحلامهم في أن يعتنق المغول المسيحية ويتحالفوا معهم للقضاء علي المسلمين القضاء الكامل [٢] .

وهذا نص خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان إلي سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة « عين جالوت » .

---

(١) د. أحمد مختار العبادي – قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٩٨٦ .

(٢) د. السيد الباز – المغول – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٩٨٦ .

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم » .

باسمك اللهم باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلي هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا علي من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكي ، ولا نرق لمن شكي . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأي أرض تأويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فمالكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفّون عند كلام ، وخنتم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل . وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلي من أطاع الهدي ، وخشي عواقب الردي ، وأطاع الملك الأعلي .

ألا قُلْ لمصرهَا « هلاوون » قد أتي — بحـد سـيوف تنتضـي وبـواتـر
يصـير أعـز القـوم منها أذلـة — ويلحـق أطفـالا لهـم بالأكابـر[1]

ثالثا : خطابات المغول (التتار) بعد إسلامهم :

كان السلطان أحمد المغولي (٦٨٠ هـ - ٦٨٣ هـ) (١٢٨١ م - ١٢٨٤م) أول من أسلم من ملوك المغول وأعلن في بيان أذيع في بغداد اعتناقه للإسلام . وأرسل رسالة إلي حاكم مصر السلطان « قلاوون » بذلك المعني . وظلت الرسائل متبادلة بين ملوك المغول المسلمين ، وبين خليفة

(١) « هلاوون » صيغة لاسم هولاكو . المقريزي كتاب السلوك (مرجع سابق) صـ ٤٢٧ إلي ٤٢٩ ود . أحمد مختار العبادي قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام - مرجع سابق صـ ٢٥٤ و ٢٥٥ .

قلاوون ابنه الناصر محمد بن قلاوون ، تتناول بعض المناوشات حتي احتل « غازان» ملك المغول دمشق عام ٦٩٩ هـ . وظلت الحروب قائمة بين ملوك المغول بعد إسلامهم وبين المماليك في الشام وفي مصر . وكان « تيمورلنك » أقوي ملوك المغول المسلمين . وفي عهده اجتاحت جيوشه الشام وآسيا الصغري ، ثم بعث هذه الرسالة إلي السلطان « برقوق » الذي كان يحكم مصر والشام ، وكانت دولته تمتد من جنوب مصر إلي حدود آسيا الصغري شمالا ، متضمنة كل مصر وفلسطين ولبنان والأردن وسورية الحالية والتي كانت تسمي جميعها الشام .

وهذا نص الرسالة التي أرسلها «تيمورلنك» إلي الملك الظاهر « برقوق » وذلك قبل أن يبدأ غزوه لبلاد الشام سنة ٧٩٢ هـ أو سنة ٧٩٦ هـ :

قل اللّهم مالك الملك فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلون [١] .

اعلموا أننا جند اللّه مخلوقون من سخطه ، ومسلطون علي من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك ، قد نزع اللّه الرحمة من قلوبنا ، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ، ومن جهتنا قد خربنا البلاد ، وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها وملكنا بالشوكة أزمتها . فإن خيل ذلك علي السامع وأشكل وقال : إن فيه عليه مشكلا، فقل : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . [٢] وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا . فخيلونا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وأسنتها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال . وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام ، وعزنا لسؤدد منقام ، فمن سالمنا سلم ، ومن حاربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم إن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم وعلي بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم . فالحصون منا ، مع تشييدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها ، لقتالنا لا ترد ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يُسْتَجاب فينا فلا يسمع ، فكيف يسمع اللّه دعاءكم ، وقد أكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعدت لكم النار وبئس المصير . ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ [٣].

فبما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك . وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء . وأرقتم دم الأشراف . وهذا واللّه هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادي عليكم : ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ [٤]. فأبشروا بالمذلة والهوان يا أهل البغي والعدوان وقد غلب عندكم أننا

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٦ ونصها : قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

(٢) سورة النمل من الآية ٣٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠ .

(٤) سورة الأحقاف من الآية : ٢٠ .

كفرة، وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله له أمور مقدرة ، وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل ، وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقا وغربا ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكل الخطاب فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق : «فهل تري لهم من باقية » [1] وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، فما علي الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد أوضحنا لكم فأرسلوا برد الجواب والسلام [2] . (انظر : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ١٢، صـ٤٩ - ٥٠) .

رابعا : خطاب البرتغاليين :

وفي القرن السابع عشر نجد التهديد يعاود الظهور في الخليج العربي ، ففي كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان تأليف الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي (الجزء الثاني - الناشر وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان عام (١٩٨١م - ١٤٠١هـ) يقول المؤلف أن الإمام سيف خلصت له الإمامة في عام ١١٠٤ هـ ١٦٩٣م وظل حتي عام ١١٢٣ هـ ١٧١١ م حيث توفي فخلفه ابنه مالك . ويورد المؤلف (صـ١٠٨) هذا الخطاب قائلا:

وهذا كتاب من النصاري للإمام سيف بن سلطان اليعربي : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أعلم أننا جنود الله مخلوقون من سخطهُ مسلطون علي من يحل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي ولا نرحم عبرة باكي ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمتثل لأمرنا ، قد خرّبْنا البلاد وأهلكنا العباد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، فإن أعجبكم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم وعلي بغيكم تماديتم فالحصون منا لا تمنع ، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع ، لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع فابشروا بالذل والجزع ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون . فإن أعجبكم كلامنا إننا كفرة وقد صار عندنا أنكم فجرة ، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، كثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم ذليل ، قد ملكنا الأرض شرقا وغربا وأخذنا منها كل سفينة غصبا . قد أرسلنا إليك هذا الكتاب

---

(١) سورة الحاقة الآية ٨ .

(٢) ورد نص هذه الرسالة في كل من « نزهة النفوس » للمصير في جـ١ ، ٣٧٩ - ٣٨١ و « الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية « لابن صصري ١٤٧ و « تاريخ ابن الذوات » جـ٩ ٣٧١ - ٣٧٣ و « السلوك » للمقريزي جـ٣ ، ٨٠٣ مع وجود خلافات طفيفة فيها .

المرجع :

د. محمد ماهر حمادة - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة- ١٩٨٦ .

فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادي عليكم بالفناء هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ، وقد أنصفناكم وأرسلنا عليكم جواهر الكلام والسلام » .

ويورد الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي جواب الإمام سيف علي القائد البرتغالي في صفحة (١٠٨) ، (١٠٩) من كتابه فيما يلي :

« هذا جواب الإمام » قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير ، قد حصل الوقوف علي هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع ، وبغيتم وذكرتم أنكم كافرون ، ألا لعنه الله علي الكافرين ، من تعلق بالأصول فلا يبالي بالفروع ، ونحن المؤمنون حقا لا يصدنا عنكم عيب ولا يدخلنا شك ولا ريب ، والقرآن علينا قد نزل ، فهو رحيم بنا لا يزل ، وخيولنا برية وبحرية ، وهمتنا سامية عالية ، إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة . ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ . وقولكم قلوبنا كالجبال وعددكم كالرمال : الجزار لا يبالي بكثرة الغنم الكثيرة ، وإن الله مع الصابرين . فنحن بالمنع عاليه أمنية إن عشنا عشنا سعداء وإن متنا متنا شهداء « ألا إن حزب الله هم الغالبون ، « لقد جئتم شيئا إداً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » فقل لصاحبك إذا رجع وشيد مقالته حصل الوقوف علي هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب « سنكتب ما قالوا ونمد لهم من العذاب مدا » وما عندنا بعد ذلك إلا الخيل تمطر بالويل والنار مظهرة العار ، والسيوف مسقية بالحتوف والسلام علي من اتبع الهدي ، وخشي عواقب الردي ، وأطاع الملك الأعلي واختار الآخرة علي الأولي ، والصلاة والسلام علي خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

غير أن نصا آخر للخطاب يورده الدكتور سعيد عبد الله علي النحو التالي :

« وها هو القائد البرتغالي الذي جاء لغزو منطقة الخليج العربي موجها رسالة إلي إمام عمان الإمام » سيف بن سلطان الأول اليعربي » كتب فيها يقول :

« من ربان برتغالي إلي الإمام سيف بن سلطان الأول اليعربي ، قيد الأرض(*) .. الحمد لله خلق الأرض والسموات .. أنتم يا من تحكمون علي رعاياكم في خلافاتكم ، تعلمون أننا نحن جيش الله ، وقد خلقنا لنكون أداة لعقابة الإلهي ، ووهبنا السيطرة علي الذين يحل بهم سخطه ، وإننا لا نَحنُ علي من يشكو أو نشفق علي من يبكي ، فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا حقا ، والويل كلَ الويل لأولئك الذين لا يمتثلون لأوامرنا .. لقد دمرنا مدنًا وقضينا علي أهلها ، وأفسدنا الأرض ، فإذا قبلتم شروطنا فسيكون هذا من مصلحتكم أنتم لا مصلحتنا نحن ، أما إذا رفضتموها وثابرتم علي ظلمكم فلن تمنعكم حصونكم منا ، ولن تحميكم جيوشكم فقد أكلتم ثمار

(*) قيد الأرض اسم للسلطان يعني أنه عمّر الأرض واعتني بها .

الشر ، واضعتم أنفسكم تماما ... تتمتع اليوم فيما يساورك من قلق ، فإنك إنما تدفع عقوبة طفيفة لما فعلت .. وإذا كانت كلماتنا غير مقبولة منكم ، فيبدو لنا بالتأكيد أنك ظالم ، وأن قلوبنا قدت من حجارة ، وأعدادنا كحبات الرمال ونحن نعتبر أن أعدادكم الوفيرة قليلة ، وقوتكم خسيسة .. إننا نحكم الدنيا بالتأكيد من مشرق الشمس إلي مغربها .. وقد بعثنا لكم هذه الرسالة فأجيبوا عليها بسرعة قبل أن تتمزق جباهكم ولا يبقي منكم شيء .. وهذا لإبلاغكم لموقفنا .. مع تحياتنا » [1] .

(١) د. سعيد عبد الله حارب – الخليج العربي أمام التحدي العقدي – ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي (مرجع سابق ذكره – صـ٢٣٨ و ٢٣٩) .



الفصل الرابع

المواجهة ، استراتيجيتها ووسائلها

أولا : أهداف الغزو الثقافي .

ثانيا : التأثير .

ثالثا : استراتيجية المواجهة :

أ) الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي.

ب) الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي .

رابعا : الاتصال الثقافي :

أ) ضرورة الاتصال الثقافي ومعوقاته .

ب) وسائل الاتصال الثقافي .

أولا : أهداف الغذو الثقافي :

تتمركز سمات الترابط وخصائصه بين وسائل الغزو الثقافي وأساليبه في أهداف هذا الغزو. فما هي أهداف الغزو الثقافي ؟

لاشك في أن الأهداف العامة للغزو الثقافي تتمركز في السيطرة الشاملة علي الشعوب المستهدفة بالغزو . ووضع شعوب تلك البلدان وما يملكون في نطاق التبعية الكاملة . وهذه هي الأهداف العامة للغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر . والأهداف تتشكل وتتفرع وفق الظروف المتغيرة .

والهدف المحوري للغزو الثقافي هو الحيلولة بين شعوب الأمة العربية وبين عناصر بناء ذاتها أو استردادها وذلك بجعلها في حالة دائمة من الاغتراب ، ثم بالاختراق المستمر لها لتفتيت أية محاولة لبناء قاعدة ثقافية وحضارية تسترد بها ذاتها ، ثم **بالتفريغ** المستمر لطاقاتها حتي لا تتكون من هذه الطاقات شحنة تفجر قنبلة وعيها بذاتها الثقافية .

يرتبط بهذا الهدف المحوري أو يلحق به هدف رئيسي آخر هو **المحافظة** علي استمرارية الأسواق واستمرارية استنزاف موارد العرب . بمعني أن تصبح المنطقة العربية سوقا دائمة للأجنبي وأن يظل استنزاف المواد الخام والأموال العربية مستمرا وفي قبضة الأجانب .

بعد هذين الهدفين تتوالي الأهداف ثابتة ومتغيرة بحيث يمكن أن تتشكل في كل عصر وفي

كل مرحلة من مراحل الهيمنة الغربية وفق طبيعة المرحلة . لقد كانت محاولة الغرب تجنيد العرب وقودا للحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي هدفا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتي بداية العقد الأخير من القرن العشرين ، ثم بسقوط الدولة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي أصبح الهدف تجنيدهم للصمت والخذلان في مواجهة التطهير العرقي الأوربي والإبادة للمسلمين في البوسنة والهرسك .

كذلك ترتبط أهداف الغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر بأنها - بصورة أو بأخري - موجهة ضد الإسلام ، وأنها موجهة ضد المسلمين في الأقطار الإسلامية ، أو ضد الأقليات المسلمة في مختلف بلدان العالم . أي أن الأهداف تحمل سمة صليبية بلون معاصر .

وإذا انتقلنا إلي الأهداف المعاصرة للغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر يمكننا أن نحدد مجموعة من الأهداف الظاهرة ، هي بطبيعتها صورة للعصر ونحن في أواخر القرن العشرين الميلادي .

* من أهداف الغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية صرف انتباه هذه المجتمعات عن تنفيذ الخطط المعادية ، حتي تتم والناس مشغولون بالحَدَث أو الأحداث القريبة المفتعلة .

ولعل ما يوضح ذلك ، المثال الشائع في الأفلام المصرية القديمة ، حيث يكون حفل الزواج في القرية المصرية - قبل دخول الكهرباء - مضاء « بالكلوبات » ، و « الكلوب» مصباح كبير يعمل « بالكيروسين » ، فماذا يفعل الأشرار في « الفيلم » ؟ . إنهم يضربون « الكلوب » الكبير بأحد الكراسي، فيبدأ صرف الانتباه لتتم السرقة ، أو قتل العريس ، أو اختطاف العروس. ولقد أصبح النظام العالمي الجديد - متمثلا في القوي الاستعمارية القديمة والجديدة - يقوم بذلك العمل في أي عرس عربي أو إسلامي ، فتقوم أجهزة مخابراته ويقوم عملاؤه بتوجيه جماعات من المُضَلَّلين لإشاعة أعمال من الإرهاب حتي تتم سرقة البوسنة والهرسك من أبنائها المسلمين . وتعقد منظمة المؤتمر الإسلامي اجتماعها عام ١٩٩٣ لتبدأ بقضية الإرهاب . وفي آخر أعمالها تشجب هلاك البوسنة والهرسك دون فعل إيجابي أو قيمة معنوية لهذا الشجب .

* ومن أهداف الغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية أن تصبح هذه المجتمعات دائما في حالة من عدم الاستقرار ، ومن ثم يسهل استنزافها وإضعافها والسيطرة عليها .

* ومن أهدافها الغزو الثقافي أيضا بعث الحياة في المقبورين من أصحاب النظريات التي قضت نحبها في الغزو الثقافي . لقد أصبح ميسورا للقارئ العادي أن يشهد في مصر في عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ مثلا خروج الماركسيين من قبور الشيوعية ليحملوا أعلام التطرف العلماني . في دور جديد ضد الإسلام أولا والعروبة ثانيا .

* ومن أهداف الغزو الثقافي الذي تقوم به القوي العالمية المعادية للإسلام وللعرب **تشويه صورة الإسلام وصورة العرب والمسلمين** . وذلك علي النحو التالي :

١- تقوم وسائل الإعلام الغربية بتصوير سلوك المخربين علي أنه السلوك الإسلامي الأصولي . والإيحاء للقارئ والمستمع والمشاهد العالمي بأن الإسلام دين متأخر لا يصلح لهذا العصر.

٢- الربط بين الإسلام وبين العنف والإرهاب والتخريب والقتل .

٣- تصوير الإسلام بأنه لا يقر التعددية وأنه يتضاد معها ويتعارض مع الديمقراطية . وكما كان المستشرقون - بسوء نية - يأخذون حكايات ألف ليلة وليلة علي أنها صورة الإسلام فإن الإعلام الغربي اليوم يأخذ مقولات مجهولة المصدر بأن الإسلام لا يقر الديمقراطية .

٤- الانتهاء بالقارئ والمستمع والمشاهد العالمي إلي صورة حكمية وإلي انطباع راسخ بأن المسلمين- ونحن ندخل القرن الحادي والعشرين الميلادي - لابد من إبعادهم خارج الساحة الجديدة وخارج النظام العالمي الجديد . وإلقائهم في البحر لكي تنجو سفينة التقدم العالمي .

وهكذا أصبحت وسائل الإعلام في الغرب ومن ثم أصبح الرأي العام فيها وفي معظم أنحاء العالم يتحدث عن الإسلام وكأنه القوة التي ستدمر الحضارة ، إذا امتلك المسلمون عناصر القوة . وأن الإسلام سيعيد البشرية إلي القرون الوسطي . ونتيجة لهذا النوع المتحيز من التفكير ضد الإسلام ، ونتيجة لتضخيم الأعمال الإرهابية التي تقع في بلدان العالم الإسلامي ، وهي أقل ضراوة واستمرارا مما يقع في أمريكا وأوربا ، أصبحت المجتمعات العربية والإسلامية هي كبش الفداء المتوقع في القرن الحادي والعشرين .

وتسعي إسرائيل مع حليفها الاستراتيجي الولايات المتحدة الأمريكية والنظام العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلي مقولة كبيرة وخطيرة ، فحواها أن العدو البديل للعدو السوفييتي هو الإرهاب الإسلامي . وإن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تتعامل مع هذا الإرهاب بما يخدم أمريكا . وبالضغط الإعلامي الصهيوني عالميا يتم تضخيم وتجسيم حوادث إجرامية تقع في مصر أو الجزائر بأنها إرهاب إسلامي، وتساند في الداخل العربي والإسلامي جماعات منحرفة من المتطرفين لا تتقيد بقول الله تعالي في القرآن الكريم : ﴿ أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ سورة المائدة آية ٣٢ .

* ومن أهداف الغزو الثقافي الغزو **هدم اللغة العربية** . ولقد حاول الاستعمار في المشرق العربي هدم اللغة العربية وإحلال العامية محلها إلي جانب لغته الأجنبية التي سعي لأن تكون لها السيادة، ولكن محاولاته ومحاولات أنصاره المحليين لم تحقق هدفهم ، وإنما أضعفت الفصحي إلي حد ما. وكانت محاولة الاستعمار في المغرب العربي أقسي وأعتي ، ولذلك حقق بعض أهدافه في هدم اللغة العربية ، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليها .

وفي داخل الأوطان العربية ظل المرجفون من صرعي الغزو الثقافي يرددون اتهام اللغة العربية بأنها لغة دين ، وليست لغة حياة ، وأنها لغة الماضي ولا تصلح للمستقبل ، وأنها لغة الأدب والشعر ، وليست لغة العلوم البحتة مثل الكيمياء والفيزياء والهندسة والطب وغير ذلك .

إلي جانب الدعوة لاستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي في كتابة اللغة العربية . ولكن كافة المحاولات لم تفلح في هزيمة اللغة العربية وزحزحتها عن مكانتها باعتبارها وعاء الثقافة العربية وعمودها الفقري . وعلي حد تعبير الخطة الشاملة للثقافة العربية « التفريط في اللسان القومي تفريط في الهوية وكسر لهيكل تماسك المجتمع ووحدته ، واللغة العربية بمساندة القرآن الكريم قد حافظت علي وجودها وتطورها حتي العصر الحديث » . وفي الوطن العربي حتي العقد الأخير من القرن العشرين ست مجامع لغوية ونحو ثمانين جامعة .

وحتي لا يظن صرعي الغزو الثقافي في الوطن العربي أن رعاية اللغة العربية يعود لأسباب دينية باعتبارها لغة القرآن الكريم وحسب ، نقدم لهم ما أذاعته وكالات الأنباء عام ١٩٨٩ ونشرته معظم الصحف من قيام فرنسا بإلغاء استخدام أربعمائة وألفين كلمة (٢٤٠٠) فرنسية إنجليزية ، وذلك لتنقية اللغة الفرنسية من الكلمات ذات الأصل غير الفرنسي ، واستبدلتها بكلمات فرنسية تعطي المعني نفسه . وتم تشكيل هيئة خاصة لمتابعة تنفيذ هذا القرار وبخاصة في المعاملات الرسمية [١] .

لقد صدقت مقولة إن التفريط في القومي تفريط في الهوية .

* ومن أهداف الغزو الثقافي زرع القلق في صميم التاريخ الوطني والقومي . فمن صور الغزو في داخل الثقافة العربية ذاتها تصوير التاريخ الإسلامي بزاوية واحدة حادة هي صورة القهر والغدر والصراع الدنيوي القبيح . وتصوير التاريخ الإسلامي بأنه تاريخ عصابة إرهابية أهدافها الطمع والجشع والاغتيال . ورغم المبرر الذي يطرحه هؤلاء الغزاة بأن التاريخ الإسلامي شيئ والدين الإسلامي شيء آخر – وهذا أمر سليم وصحيح – إلا أن خطأهم العقلي، والمنهجي والعلمي هو الرؤية العوراء للتاريخ الإسلامي بقصد الوصول إلي نتيجة واحدة ثابتة هي عدم صلاحية تطبيق الإسلام في السياسة ، أو عدم إقامة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية علي أساس إسلامي أو أيدلوجية إسلامية .

لقد كشف محمد حسنين هيكل في كتابه « الانفجار » العلاقة بين الهجوم علي التاريخ وتشويه الذاتية الثقافية بقوله إن الهجوم علي الماضي يصبح في جزء منه هجوما علي التاريخ والهجوم علي التاريخ يصبح في جزء منه هجوما علي الثقافة ، والهجوم علي الثقافة يصبح في جزء منه هجوما علي الهوية .

إن المقصود هو أن تهتز وتتداعي كل ركائز الثبات واليقين وأن تزدحم الأجواء – علي حد تعبير هيكل – بسحابات من الشك والقلق .

ومن الكتاب العرب [٢] من يري أن الشعوبية التي بدأت في العصر الأموي واستفحل

---

(١) جريدة الأخبار بتاريخ ٦ – ٧ – ١٩٨٩ .

(٢) جهاد فاضل – فتافيت شاعر – دار الشروق – بيروت والقاهرة – ١٩٨٩ صـ١٣٨ و صـ١٤٩ .

أمرها في العصر العباسي مازالت لها صور جديدة في عالمنا العربي « وكدليل علي أن الشعوبية مازالت تحيا في عصرنا هذا ، وفي صور مختلفة ، ما نقرأه أحينا من أدب لا يمكن أن يؤدي مضمونه إلا إلي ضرب الكيان العربي من خلال ثقافته وفكره والقيم التي تضمنها تراثه الحضاري: ومن صور الشعوبية الجديدة النظرة إلي العرب علي أنهم من جنس فيه كسل فطري وعقم فكري ولغتهم تسودها المبالغات . ومن صور الشعوبية الجديدة النظرة إلي العرب علي أنهم مجموعات متفرقة وليسوا أمة واحدة وأنهم في حالة سمجة من الهمجية والتخلف ، وهي نظرة تقع في أسر الخطاب الشعوبي القديم الذي كان يقول إن العرب قبائل لا تربطها رابطة وليس لهم من الحضارة نصيب .

وكما يطالب الشعوبي الجديد بإحياء تراث بعض الملل والنحل والفرق ليؤسس عليها الحداثة، لا علي التراث الإسلامي الشائع والمعروف ، فقد طالب الشعوبي القديم بإحياء التراث السابق علي الإسلام للشعوب الأخري . حتي فكرة الحداثة التي يرفعها الشعوبي الجديد ويركز عليها كستار يخفي به كراهيته للثقافة العربية الإسلامية ، هذه الفكرة استخدمها الشعوبي القديم من أجل إرباك العقائد وتشويه المفاهيم الإسلامية والدعوة المبطنة إلي إحلال مفاهيم أخري. فباسم الحداثة والعقل والمنطق عملت الشعوبية علي تحوير معني النصوص والمفاهيم الإسلامية ، فأولتها عما يخرج بهذه النصوص والمفاهيم من معانيها الإسلامية إلي مفاهيم غريبة بعيدة عن الإسلام .

والشعوبية تفعل ذلك باسم الحرية الثقافية والفكر المتجدد ، وهي تندد بالقيم الإسلامية وتذهب إلي التحلل ، وهي تدرك أن هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط وإضعاف الكيان الاجتماعي. وقد مثلت الشعوبية القديمة تحديا هاما للعروبة وللثقافة العربية . وقد فند فريق كبير من الكتاب والمفكرين العرب مقولات الشعوبية . وقد اتفق هدف الشعوبية الجديدة مع هدف أسلافهم ويمكن تلخيصه فيما يلي :

* التوكيد علي المظاهر السلبية في المجتمع العربي وترك الجوانب الإيجابية .

* الموقف السلبي من الإرث الحضاري العربي وتشويه التاريخ العربي وتصغير شأن العرب قديما وحديثا .

* التشكيك في كون العرب أمة والحط من مزاياهم ومقوماتهم ووصمهم بالبلادة والانحطاط.

هجوم آخر علي الإسلام لا يقل عنفا عن الهجوم علي العرب علي أساس أن العرب هم مادة الإسلام » .

وفي العصر الحديث أسهمت الانقلابات العسكرية والسياسية المتتالية في الساحة العربية علي زيادة القلق وعدم المصداقية وبخاصة أن كل حركة انقلابية تلعن سابقها وساعدت الصحف بسعة انتشارها ، وبكثرة نفاق كتابها علي اتساع دائرة القلق وعدم المصداقية ، في مصر مثلا « ألم يتحول الملك فاروق من الوطني الأول والعامل الأول والفدائي الأول لكي يصبح بعد نزوله عن

عرش مصر وخروجه منها – أفاقا ولصا وهاتك أعراض ؟ – علي نفس المكان من صحف أخبار اليوم .

ألم يتحول مصطفي النحاس – علي نفس هذا النمط – وهو الذي كان علي الأقل طوال حقبة الثلاثينات – رمزا للمقاومة المصرية ضد الاحتلال وضد القصر – إلي خائن وفاسد وألعوبة في يدي زوجته ؟ – علي نفس صفحات أخبار اليوم .

ألم يتحول جمال عبد الناصر وهو رمز حركة الحرية والتحرر والعدل الاجتماعي – إلي طاغية وجلاد – بعد أن تأكد رحيله إلي رحاب الله ؟ بنفس الأقلام وإن اختلفت ألوان الحبر!!! »[1] .

* ومن أهداف الغزو الثقافي التربص بأي صحوة ثقافية إسلامية عربية وتشويهها وقلبها رأسا علي عقب ، أو الانحراف بها بعيدا عن مجراها الصحي والصحيح . إن الصحوة الإسلامية التي بدت واضحة في الوطن العربي بعد يونيو ١٩٦٧ ، هذه الصحوة التي شملت قطاعات وشرائح اجتماعية عديدة أمكن تدبير المكائد لها بدفع عناصر مضّللة في داخلها لتمارس نشاطا إرهابيا ، ثم مصادرة الصحوة وقد حصلت في الجزائر في ديسمبر عام ١٩٩٢ علي الأغلبية في الانتخابات فتم حصارها لترد أطراف منها علي ذلك بالعنف ، ثم بالحصار العام للاتجاهات الثقافية الإسلامية الناهضة ومحاولة التربص بها .. بكل ذلك وغيره أمكن إجهاض الصحوة الثقافية الإسلامية . ثم أمكن تحويل المسار التربوي والديمقراطي لها إلي صورة لا تمت لها بصلة هي صورة الإرهاب .

وعلي قدر قوة الدفع لأية صحوة ثقافية إسلامية تكون قوة التشويه والجذب إلي الوحل . إن كتابات الدكتور محمد حسين هيكل « باشا » الإسلامية مثل حياة محمد، و« في منزل الوحي» و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » ، وكتابات الدكتور طه حسين في « هامش السيرة» و « الفتنة الكبري » وغيرهما وعبقريات العقاد الإسلامية ، وكتاباته الإسلامية بصفة عامة ، هذه الكتابات مثلت في الربع الثاني من القرن العشرين ملامح صحوة ثقافية إسلامية أدبية وتربوية هادئة . هذه الكتابات وهؤلاء الكتابات كيف يصورهم حمالو الحطب في حرائق الغزو الثقافي ؟

يقول الدكتور لويس عوض في هؤلاء الرواد قولا يتناقض مع جهدهم في حقل الكتابات الإسلامية . « فخلاصة رأي الدكتور عوض أن هؤلاء الرواد بدأوا حياتهم زنادقة ، أي أنهم كانوا مفكرين لا يؤمنون بالدين ، ثم اتجهوا في النصف الثاني من حياتهم إلي الدين ، ولم يكن دافعهم إلي الكتابات الدينية إلا محاولة إرضاء الرأي العام والتقرب إليه ، ثم تحقيق النجاح والرواج والشهرة من خلال هذه الكتابات الدينية .. وهذا الموقف إن دل علي شيء فإنما يدل علي النفاق ..

---

(١) محمد حسنين هيكل . بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – الطبعة الأولي – بيروت – ١٩٨٤ صـ٤٠٨ .

وانعدام الصدق ، والازدواجية الفكرية عند هؤلاء الرواد ، فهم يؤمنون في أعماقهم بشيء ، ويعبرون عن شيء آخر مختلف .. وهذا أسوأ ما يمكن أن يصاب به الفكر الحر، فأحرار الفكر ينبغي أن يكون ظاهرهم مثل باطنهم ، وأن يبتعدوا تماما عن الجري وراء الجمهور والعمل علي إرضائه ، ولو كان ذلك علي حساب آرائهم الحقيقية التي كانوا يؤمنون بها في الفترة الأولي من حياتهم .

هذا هو المعني العام الذي نخرج به من رأي الدكتور لويس عوض في هؤلاء المفكرين الرواد الثلاثة وهم : هيكل وطه حسين والعقاد ..

والحقيقة أن رأي الدكتور لويس في هذه القضية هو رأي شائع بين الكثيرين من المثقفين ، وإن كان الدكتور لويس هو أشجع الجميع في إعلانه والتصريح به [١] »

ويفند الناقد والكاتب المصري رجاء النقاش هذه المزاعم ، فيثبت أن هؤلاء الكتاب الثلاثة كانوا من كبار المفكرين المصريين قبل أن يتجهوا إلي الكتابة في الموضوعات الإسلامية المختلفة . وبذلك فإن أي حديث عن اتجاههم إلي الإسلاميات بدافع البحث عن الشهرة والنجاح والتأثير الواسع علي الجماهير هو حديث لا يثبت للبحث العلمي . وأن إسلامياتهم قد حررت القارئ المصري من التعصب والتطرف والخصومة مع العصر » .

وعندما نقارن الفعل المتمثل في كتابات هيكل والعقاد وطه حسين الإسلامية ، برد الفعل المتمثل في تحليل الدكتور لويس عوض لهذه الأعمال الإسلامية ، يمكننا أن نفهم المقارنة المعاصرة خلال العقدين التاسع والأخير من القرن العشرين لفعل آخر هو اعتزال عدد كبير من الممثلات المصريات للفن الرخيص وارتدائهن الحجاب ، وانصراف عدد من الفنانين المصريين إلي الإنتاج الفني الإسلامي ، والتوقف تماما عن التمثيل والإخراج في اللون السائد تجاريا ، هذا الفعل قابله رد فعل يتمثل في السخرية وإلصاق التهم إليهن بالحصول علي أموال من جهات دينية خارجية للاعتزال ، وما شابه ذلك من أكاذيب .. !!

تفسر لنا المقارنات المماثلة أن أي فعل ثقافي إسلامي رشيد لابد وأن يقابله رد فعل من حمالي حطب الغزو الثقافي للمجتمعات العربية الإسلامية . بغية تشويه الفعل وقلبه رأسا علي عقب .

ثانيا : التأثير :

الذباب والتلوث وتأثير الأشعة ومثل ذلك ، هل يمكن لإنسان معاصر في مدينة معاصرة أن يتجنبها كلية ؟ لا .. ولكن يمكن تقليل أضرارها إلي أقل حد ممكن . ولكي يتحقق ذلك ينبغي أن تكون حواسه نشطة فيسد أنفه بمجرد خروج دخان السيارات والمصانع ويبتعد عن مجال الأشعة

---

(١) رجاء النقاش - الإسلام بين التسامح والتطرف - مجلة المصور بتاريخ ١ - ٦ - ١٩٩٠ .

وينظف مكانه ليبعد الذباب عنه . والغزو الثقافي شأنه شأن الذباب والتلوث وتأثير الأشعة يستحيل تجنبه كلية ، ولكننا نستطيع تقليل أخطاره علينا إلي أدني حد ممكن . ولكي يتحقق لنا ذلك ينبغي أن تكون عقولنا نشطة متيقظة ، عالمة به ، وبأساليبه . وأن تكون في أيدينا الوسائل التي تقينا هذا الغزو .

ولقد عبر الزعيم الهندي الراحل « المهاتما غاندي » عن العلاقة بين الغزو الثقافي والاتصال الحضاري عندما قال :

« لا أحب لبيتي أن تحجبه الحوائط العالية، ولا لنوافذه أن تغلق دون الهواء النقي . وكم أحب أن تهب رياح الثقافات جميعها علي بيتي طليقة لا تعوقها سدود ، إلا أنني لا أحب منها أن تنتزع قدماي من بيتي ، ولا أرضي أن أعيش في بيوت الآخرين طفيليا أو متسولا أو مستعبدا » .

وكلا الأمرين السيئين : الحوائط التي تحجب التفاعل الثقافي ، والعواصف التي تحمل رياح السموم المشبعة بالغزو الثقافي ، كانا من التأثير المباشر للغزو الثقافي لمجتمعاتنا العربية المعاصرة. لقد تخوف غلاة المحافظين والسلفيين من الغزو الثقافي فأحجموا عن التفاعل الثقافي وأقاموا الحوائط العالية حول القديم لا يتجاوزونه ولا يعرضوه للهواء والنماء . وعلي الجانب الآخر أسرف المولعون بتقليد الغرب والفرحون بريح السموم ما دامت قادمة من الغرب فعصفت بملابسهم كما عصفت بعقولهم فأصبحوا مجانين عراة في مجتمعات تقيم للحشمة والحكمة قيمة وقدرا ومكانة رفيعة .

* من تأثير الغزو الثقافي علي المجتمع العربي المعاصر **زرع روح الإحباط وعدم الثقة بالنفس** علي المستوي الفردي ، والمستوي المحلي ، والمستوي القومي . وذلك بمحاولة تجريد أي نصر عربي من استكمال طريقه أو الوصول إلي نقطة الثقة بالنفس . فانتصار الإنسان العربي متمثلا في الانتصار السياسي للشعب المصري عام ١٩٥٦ علي قوي العدوان الثلاثي (بريطانيا، فرنسا ، إسرائيل) لحقته رياح شديدة من العداء الإعلامي الغربي والحرب الباردة ، ودمغ مصر بالارتماء في أحضان الشيوعية . وكذلك انتصار الإنسان العربي متمثلا في الثورة الجزائرية المظفرة لحقه الحصار الاقتصادي وإعاقة التعريب من الداخل ، وإزكاء رواد التغريب في الداخل لروح الفساد والتطرف العلماني . وحتي الازدهار السياحي في لبنان لحقته حرب أهلية إجرامية مُخَطط ومُدَبَّر لها استمرت لما يقرب من عقدين من الزمن . وانتصار الإنسان العربي متمثلا في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ذلك الانتصار العسكري الذي قام به الجيش المصري والجيش السوري ، ومعه الانتصار السياسي والاقتصادي الذي قام به العرب جميعا ، هذا الانتصار لحقه تفريغ من ثماره بالفرقة بين العرب ، وبإرجاع سعر برميل النفط الذي زاد عن أربعين دولارا إلي أقل من خمسة عشر دولارا في بضع سنين ، وبالانفتاح الاقتصادي في مصر الذي خَرَّب الصناعة المصرية الوليدة ، وفتح أبواب النشاط الطفيلي ، وعوّق الإنتاج ، وزاد من

عدد العاطلين ، وأسهم في كثرة الديون . فإذا لم يبق للعرب نصر يمكن تحويله إلي هزيمة ، ثم التخطيط لدفع مجنون لأم المهالك في حرب الخليج في أغسطس عام ١٩٩٠ ليقتل العرب أنفسهم بأنفسهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، ويدفعون ثمنا ماليا واقتصاديا باهظا للخراب. حتي لا يصبح في جعبة الثقافة العربية غير الخزي والعار والإحباط وعدم الثقة بالنفس .

ويساعد الإعلام العربي في ترسيخ الكآبة في الوجدان العربي بذلك الجو المسيطر علي تحليل الموقف الدولي في معظم الأحيان وهو جو متشائم يطلق علي العالم أنه في أزمة . «وبالتالي فجميع التحليلات الفرعية تتسم بالسلبية والسوداوية والتشاؤم . وهذا انعكاس للأزمة التي يستشعر بها مركز الهيمنة الغربية . وهو مصدر المعلومات والأخبار . بينما لو تابعنا مصادر المعلومات علي سبيل المثال في اليابان أو الهند أو البرازيل سنجد الصورة مغايرة . هذه المصادر غير الغربية تقدم صورة خطها العام الإيجابية وليس التفاؤل الطوباوي (العفوي المثالي) بل الإيجابية الفعلية الواقعية ، المتمثلة في تطور الاقتصاد ، وتطور التعليم ، وتطور الثقافة . وفي مصر باعتبارها نموذجا للعالم العربي والعالم الثالث نجد مصدر الخبر المنشور ، وهو أساس التحليل في إعلامها من وكالات غربية وأمريكية . كيف يمكن أن نفهم الصين من خلال أعداء الصين ؟ كيف يمكن أن نفهم اليابان من خلال منافسيها منافسة ضارية تصل إلي حد العداء الشديد ؟ كيف يمكن أن نمنح هذه المصادر المصداقية ؟ إن خطورة الأمر هنا أن التأثير لا ينحصر علي القرار ، بل علي العقل والفكر فصندوق المعلومات خطأ . كيف أعمل وعدة الشغل غير صالحة ؟ فالاتجاهات التابعة والقائمة علي المعلومات ناقصة وغير صادقة [1] !»

وقد أجري علماء النفس تجارب أسموها العجز المُتَعَلَّم [2] Learned Helplessness وذكر « مارتن سيلجمان » أثر الخبرات السابقة التي تؤدي بالمكتئبين إلي أن ينظروا لأنفسهم علي أنهم عاجزون ، وحينما يواجه الأفراد العاجزون موقفا طارئا فإنهم يشعرون بعدم كفاءتهم. ويتجهون إلي السلبية ، وعدم الاهتمام . ولقد أجري « سيلجمان » تجربة علي الكلاب بتعريضها إلي صدمات كهربائية شديدة وفي الوقت نفسه سد منافذ الهرب . وبعد ذلك وضعت هذه الكلاب في مواقف تسمح لها بالهرب ، وعند تعريضها لصدمات كهربائية شديدة كانت محاولاتها للهرب قليلة للغاية ، لأنها تعلمت العجز . أما الكلاب التي لم تجبر من قبل علي الظروف السابقة فإنها تعلمت الهروب من تلك المواقف تحت نفس الظروف ، لأنها لم تتعلم العجز .

من تأثير الغزو الثقافي جعل الشعوب التابعة تستبطن الصورة السلبية التي يصنعها لها المجتمع المسيطر أو الثقافة المسيطرة ، حتي تشعر أنها من طبيعة دونية ، وتقبل هذا الوضع .

---

(١) أنور عبد الملك في حديث صحفي مع مجلة المصور بتاريخ ٢٩ - ٤ - ١٩٨٨ .

(٢) لندا ل. دافيدوف - مدخل علم النفس - الطبعة الثالثة (ترجمة د. سيد الطواب وآخرون) - الدار الدولية للنشر والتوزيع- القاهرة - ١٩٨٨ صـ٦٧٦ .

وتخضع من تلقاء نفسها للهيمنة الأجنبية . ويصبح مثلها مثل الكلب في تجربة « بافلوف » (١٨٤٩ - ١٩٣٦) عالم الفسيولوجيا الروسي المشهور . فقد عمد « بافلوف » إلي وضع كلب جائع في غرفة معزولة الصوت . ووضع الكلب علي منضدة مع ربطه ربطا مريحا ولكنه يمنعه من الحركة . ثم قام بعمل فتحة في خد الكلب وأدخل أنبوبة في هذه الفتحة أوصلها بإحدي الغدد اللعابية ، بحيث إذا سال لعاب الكلب . سال اللعاب من هذه الغدة إلي الأنبوبة المدرجة التي تمكن الباحث من التحقق من أن اللعاب قد سال والتحقق من كميته .

وتقوم التجربة أساسا علي إصدار صوت معين ، أو نفخة صوتية مسموعة في ضوء مصباح . فيلتفت الكلب عادة نحو مصدر الصوت إلا أنه لا يسيل لعابه . ثم يبدأ الجانب الرئيسي في التجربة حيث يبدأ الصوت ، وبعد جزء من الثانية ، يقدم الطعام للكلب . وبعد تكرار المزاوجة بين الصوت وتقديم الطعام عددا يتراوح بين عشر مرات إلي عشرين مرة ، فإن مجرد صدور الصوت منفردا سيستثير الاستجابة اللعابية .

ولقد أجري علماء النفس الكثير من تجارب الارتباط الشرطي علي نسق تجارب بافلوف ، واستخدموا فيها كائنات حية كثيرة غير الكلاب ، كما أجروا كثيرا من التجارب أيضا علي الإنسان ، وقاموا بدراسة ، استجابات شرطية أخري أكثر تعقيدا من إفراز اللعاب . ففي إحدي الدراسات تم تعليم الفئران بطريقة الارتباط الشرطي هذه الإرجاع المرتبط بالأنسولين . والمعروف أن الأنسولين هرمون يعمل علي التحكم في مستوي السكر بالدم . وهو يستخدم عادة في علاج مرضي السكر . وتؤدي الجرعات الزائدة من الأنسولين إلي أوجاع فسيولوجية شديدة تعرف بصدمة الأنسولين ، وهي تكون مصحوبة بفقدان الوعي .

وفي هذه التجربة يتم تعريض الفئران لضوء مبهر ، وفي الوقت نفسه حقنهم بجرعة مفرطة من الأنسولين . وهنا يعمل كل من الضوء المبهر وإبرة الحقن كمنبهات شرطية . أما الحقن بالأنسولين الذي يحدث الصدمة فكان يمثل المنبه غير الشرطي . وبعد عدة مرات تصاحب المنبه الشرطي بالمنبة غير الشرطي ، يتم استبدال الأنسولين بمحلول ملحي ليست له أية تأثيرات . ولكن الفئران بعد حقنها . بالمحلول الملحي الذي ليس له أية تأثيرات فسيولوجية لوحظ أنها تحدث لها صدمة تشبه إلي حد كبير ، الصدمة التي يحدثها الأنسولين . هنا يتأكد علماء النفس أن صدمة المحلول الملحي استجابة متعلمة .

ويؤكد علماء النفس أن التجارب المعملية في التشريط الكلاسيكي قد أشارت إلي أن كلا من الإنسان والحيوان يتعلم وفقا لهذا النوع من التشريط [١] .

* ولعل أخطر تأثير للغزو الثقافي هو تزييف الوعي ، ومن ثم تتصرف المجتمعات وفق وعي

---

(١) د. عبد الحليم محمود وآخرون - علم النفس العام - الطبعة الثانية - مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٩٠ - ص٢٥٣ إلي ص٢٥٨ .

مزيف كاذب بحمق وجنون يؤدي إلي هلاكها . والمثل الشائع بأن العملة المزيفة والرديئة تطرد العملة الصحيحة من السوق يمكن تطبيقه علي عقول الناس ، لأن تزييف الوعي يطرد التعقل . لقد كشفت مصادر إعلامية وكتابات صحفية أن وكالات المخابرات الأمريكية والأوربية عمدت إلي نشر أخبار كاذبة حتي تدفع الأمور في حرب الخليج إلي الكارثة التي شهدها العالم في أغسطس ١٩٩٠ . ويتجدد الهدف في الوقيعة بين الشعوب العربية والإسلامية ليسفكوا دماء بعضهم البعض .

يقول الدكتور مصطفي محمود [(١)] :

ألا نفهم ؟

ألا نريد أن نفهم ؟؟!

ألا نريد أن نري عدونا الحقيقي ؟

لماذا نتعامي عن حقائق تفصح عن نفسها كوضوح النهار ؟!

ولماذا نسارع إلي اتهام بعضنا البعض ، ونصدق أي شائعة ؟

ونجري وراء أي فتنة يطلقها الشارع الصحفي والإعلامي في أوربا وأمريكا . وهو الشارع الذي تملكه رؤوس أموال صهيونية . إن « الأوركسترا » الإعلامي الذي حشده الغرب قبل حرب العراق وإيران ، والذي اتهم إيران بسبق التحرش بالعراق تبين أنه كان أكذوبة ملفقة . والاتهامات التي أشاعوها عن الكويت بأنها كانت تسرق بترول بئر الرميلة العراقي ليوغروا صدر صدام علي الكويت كانت مكيدة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . واليوم (١٩٩٣) تنطلق وكالات الأنباء الغربية في أوركسترا يتهم إيران في وقت واحد بتفجير القنابل في تونس والجزائر ومصر . والهدف واضح وهو الوقيعة بين الدول الإسلامية وجرها إلي مسلسل النزاعات والحروب . ونحن ننساق وراء كل ناعق ، ونصدق أي شائعة وتخرج صحفنا بنفس العناوين التي تنشرها وكالات الأنباء والصحف الصهيونية وتنقلها عنهم نقلا كاملا . !! »

هذا التأثير المعاصر للغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية هو البديل بعد انهيار الحرب الباردة إعلاميا فبعد أن كانت المصادر الإعلامية الغربية تسعي إلي الوقيعة بين حركة القومية العربية وبين الدول الإسلامية التي تتمتع بعضوية الأحلاف الغربية ، أصبحت الوقيعة المعاصرة أشد وأقسي لتصل إلي حد الوقيعة بين مصر والسودان ..!! تسعي بأن يقتل الشقيق شقيقة . وقد فعلها صدام في الكويت ..!!

* والتأثير الخطير الآخر للغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية هو محاولات **تفتيت الوحدة الوطنية** علي المستوي القطري وعلي المستوي القومي ضمْن محاولة التفرقة الدائمة وأحب

---

(١) د. مصطفي محمود - أصابع الاتهام تشير - جديدة الأهرام - بتاريخ ١٠ - ٤ - ١٩٩٣ .

أن أبين بوضوح شديد أن تعبير الوحدة الوطنية تعبير ثقافي قبل أن يكون أي شيء آخر ، اجتماعي ، أو سياسي ، أو ديني .

لقد حاول الاستعمار في الوطن العربي إثارة أشكال من الصراع بين المسلمين والأقباط في مصر . كما حاول في الجزائر إحياء القومية البربرية ضد عروبة الجزائر . ومثل هذه المحاولات المشهورة في التاريخ العربي الحديث ليست إلا مدخلا مشهورا وشائعا للإطار العام الذي سعي إليه الاستعمار في تفتيت الوحدة الوطنية بمعناها الثقافي العام والوحدة القومية بمعناها الثقافي العام . ونستطيع أن نتبين ذلك بوضوح شديد عندما نطرح سؤالا : كيف تعامل الغرب مع ثقافة الشعوب المستعمرة ؟

١- حاول المحافظة علي كل قديم بال في حياتها الثقافية .

٢- اتهام المثقفين الوطنيين في محاولاتهم التجديدية بالعمالة .

٣- تزييف مفهوم الأصالة ودعم التقليد الأعمي لقيمه الثقافية .

٤- تعزيز الأساطير والخرافات والمحافظة عليها .

٥- تمجيد حكمة الشرق وجعلها البديل للتكنولوجيا والعلم التجريبي .

لقد جند الاستعمار أقلاما عديدة لتأدية ذلك الدور في داخل البلدان العربية وسانده سياسيا واقتصاديا بل عسكريا في بعض الأحيان . ولما جاء زمن البترول جاهد الاستعمار في إقامة سدود من التحفظ والخوف بين الشعوب العربية الثرية بالبترول وبين الشعوب العربية الثرية بالخبرات العلمية والمهنية حتي لا تثمر الثروة العربية الطارئة تقدما قوميا له قيمة كبيرة . وحل محل التنمية السباب والشتائم بالرجعية والشيوعية بين الأنظمة العربية . ولقد تنبهت الخطة الشاملة للثقافة العربية[1] إلي الوظيفة التاريخية للثقافة العربية باعتبارها أداة توحيد لا أداة تفتيت . كما تنبهت إلي ما تضمه الثقافة العربية في ثناياها من ألوان الثقافات المحلية التي تختلف حسب الوضع الجغرافي ، والأخلاط العرقية، والطوائف الدينية، ودور هذه الثقافات فيها كدورها ضمن جميع الثقافات الكبري ، وهو أن تزيد من غناها وألوانها ، وأن تنوع من عطائها لا سيما هي تعيش فيها ومعها، وضمن فلكها الواحد منذ العصور الإسلامية الأولي، وتتفاعل معها أخذاً وعطاءً وإنتاجا وتعبيرا طوال هذه العصور ولقد أسهم الكثير منها في تكوين الثقافة الإسلامية .

ولكن التنوع لا يعني التعدد الثقافي ولا يعني الصراع والتمزيق للوحدة الثقافية العربية . هذا الاستدراك الذي استدركته الخطة الشاملة للثقافة العربية ، هو الذي أثار انتباه الناقد والكاتب المصري سامي خشبة [2] قائلا : لماذا كان التعدد الثقافي في الماضي يزيد ثقافتنا ألوانا وغني وتنوعا في عطائها ؟ ولماذا يصبح هذا التعدد مشبوها ، ويوصم التنوع بأنه يصبح تعددا

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الأول - صـ٤٥ .

(٢) سامي خشبة - قراءة في الخطة الشاملة للثقافة العربية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٥ - ١ - ١٩٨٨ .

معناه الصراع وتمزيق الأمة ؟

إن ما ذكرته الخطة وما نقده سامي خشبة يرتبط بالصحة والمرض . إن الثقافة في حالة صحتها تصبح الإنسان السليم الذي يؤدي تنوع الطعام إلي زيادته قوة . والثقافة في ظل الدس الاستعماري تصبح الإنسان المريض الذي ينصحه الطبيب باللبن أو المسلوق . وهذا ما عبرت عنه الخطة بقولها إن المحاولات التي تهدف إلي خلق ثقافات محلية أو إيجاد كيانات ثقافية متناحرة يرتبط بشبهات تاريخية أو طائفيات ذات أغراض .

ويظل مفهوم الوحدة الوطنية مفهوما ثقافيا علي الساحة العربية قطريا وقوميا ، وتظل محاولة تفتيتها عملا من أعمال الغزو الثقافي . ولعل مثلا مما يكتبه الدكتور غالي شكري يبرز هذا المعني بوضوح شديد في كتابه ذي العنوانين أقنعة الإرهاب - البحث عن علمانية جديدة. هذا المثل الذي يُعَد غزوا ثقافيا ومحاولة لتفتيت الوحدة الوطنية وقف أمامه الكاتب المصري مأمون غريب [1] قائلا :

« ولكن الذي لم أفهمه - علي حد فهمي البشري - هي هذه المقارنة العجيبة بين الشيخ الشعراوي ، والممثل عادل إمام .. وتهجمه علي الشيخ الشعراوي بلا مبرر منطقي - وليس الشيخ الشعراوي فوق النقد - ولكن الطريقة التي عرض بها رأيه عجيبة وأترك الحكم للقارئ.. يقول غالي شكري :

عادل إمام والشيخ متولي الشعراوي هما ألمع نجمين في هذا العقد علي الصعيدين المصري والعربي - الأول كما هو معروف ممثل كوميدي والآخر كما هو معروف أيضا أحد الدعاة المتفقهين في الإسلام يجمع بينهما هذه الجاذبية التي تسحر الملايين حول شخصية كل منهما عن طريق الأسلوب التمثيلي الذي يخاطبان به الجماهير . وإذا كان التمثيل في حياة عادل إمام هو الحرفة المباشرة ، فإن التمثيل في حياة الشعراوي هو أداة تعبير بديلة للخطابة التقليدية .. وإذا كان التمثيل في حياة عادل إمام لا يتطلب سوي الاتقان الحرفي . فإن التمثيل في عمل الشعراوي يتطلب الحركة العفوية لعريف الكتاب أو مدرس القرية والكلام الحاذق المبسط الذي يبهر السامع .

ويتابع الدكتور غالي كلامه العجيب :

ولاشك أن مواهب الشعراوي الفطرية كمواهب عادل إمام هي التي نقلتهما إلي الصف الأول من « نجوم » العصر الجديد . ولكنهما النجمان النقيضان .. فالممثل الكوميدي المحترف يقتضيه الأمر أن يعارض وينتقد .. وهو في مجال الحياة العامة أقرب إلي اليسار الناصري إن جاز التوصيف . أما الشيخ الشعراوي فقد نقله « السادات » من عمله الإداري المتواضع في الأزهر إلي عضوية الحكومة التي وافقت علي (كامب ديفيد) وزيرا للأوقاف .. ومن يومها ظل الشيخ

---

(١) مأمون غريب - لأ يا غالي - مجلة آخر ساعة ، وكتاب غالي شكري ، أقنعة الإرهاب صـ٣٠١ .

في صفوف المؤيدين ، حتي وهو خارج الوزارة ، ولكن الحلقة التليفزيونية الأسبوعية التي يقيمها وتباع في أقطار عربية عديدة ، دفعت بمواهبه إلي الصدارة فأصبح في فترة وجيزة من أغنياء عصر الانفتاح .. وكانت جاذبية هي التي فتحت له أبواب الداخل والخارج .. كان النظام المصري كغيره من الأنظمة العربية يعاني ولا يزال من الجماعات الدينية الراديكالية ..

وكان الشيخ لا يزال صاحب بضاعة يبز فيها المعرفة المتواضعة لشباب هذه الجماعات . ولأنه أيد السادات والصلح مع إسرائيل . ولأنه يجادلهم بمنطق العامة من الشعب فقد راح يسحب البساط من تحت أقدامهم . وأصبحوا بدورهم يرون فيه خصما .. وبقيت المفارقة إلي الآن أن الشيخ قائد بلا جنود .. وإن جنود التنظيمات بلا قائد .. بالرغم من أن الفكر الذي يروجه الشيخ الشعراوي هو نفسه فكر هذه التنظيمات .. ولكن سلاحه هو موهبته التليفزيونية الطاغية. وأما سلاحهم فهو الإرهاب .. إنه رجل النظام ولكنه لا يقل راديكالية في تفسير القرآن والأحاديث . حتي أنه لا يشعر بأي حرج في التلميح والتعريض بالمسيحية والمسيحيين مما يساهم - وقد ساهم - في خلق مناخ طائفي يعبئ العواطف والانفعالات في قنابل موقوته .. ثم وقعت (المواجهة) المتوقعة بين النجم عادل إمام والنجم متولي الشعراوي !!

ويتابع غالي .. كلامه .. وهو لا يجد للشيخ أي فضيلة .. فهو مثل الجماعات المتطرفة .. بل تدخل حتي في تفسيره للقرآن الكريم !!

ما علينا .. يتابع حديثه :

فجأة ظهرت علي سطح الحياة المصرية قضية « الفن حلال أم حرام » وأقول علي السطح، لأن الحياة المصرية تغلي بمشكلات أبعد ما تكون عن هذه الافتعالات المقصودة ، ولأن المصرين في حياتهم اليومية يمارسون الفن في تجلياته المختلفة دون التوقف عند الحلال والحرام .. ولكن بعض الجماعات الإسلامية أعلنت أن الموسيقي صوت الشيطان ، وإن المسرح رجس والغناء عورة والفنون التشكيلية وثنية ، والأدب غواية الكافرين .. هكذا دفعة واحدة .

وينتقل بنا المؤلف خطوة أجرأ .. فيقول :

- في مواجهة هؤلاء جميعا .. وفي موقف هذه الأفكار كلها ، قام الشيخ متولي الشعراوي بمشاهدة عرض مسرحي عنوانه (دماء علي أستار الكعبة) .. وفي الوقت نفسه أدلي بحديث إلي جريدة أخبار اليوم (٢٣ / ١ / ١٩٨٨) أجاب فيه علي سؤال حول الرقص : بأنه ليس فنا .. إنه اهتزازات في الجسم بشكل خاص .. الأمر الذي يثير الغرائز .. ويستعرض الحديث .. ولا أعرف وجه المقارنة بين آراء الشيخ وبعض الجماعات الإسلامية - كما يقول - فالرجل الذي يدخل مسرحية لأنها تحمل عنوانا دينيا .. لا يعني أن الرجل جامد متحجر يضع قيودا علي الفن .. فهو لم يدخل « كابريها » في شارع الهرم .. أما حكمه علي الرقص بأنه حرام .. فلم يكفر الرجل .. فمن قال إن الرقص الذي نراه .. في أي مذهب .. وأي دين حلال !

والأعجب من كل ذلك في مقارنته العجيبة بين عادل إمام والشيخ الشعراوي .. إن عادل

إمام يحارب من الخندق العلماني بالكوميديا والشيخ الشعراوي الذي يحارب من التليفزيون أي خطوة نحو التقدم ! .. وكلاهما في مصر .. وربما في الوطن العربي بأكمله نجم النجوم !! »

هذه الصورة المشوهة للشيخ الشعراوي التي يصورها الدكتور غالي شكري تردنا إلي مقالات الفتنة الطائفية في العقد الثاني من القرن العشرين قبل ثورة ١٩١٩ في مصر .

يقول فهمي هويدي [١] : التفكيك هو خلخلة مختلف الثوابت في وعي الأمة وواقعها، وإضعاف أو ضرب الأصول التي يقوم عليها انتماؤها واستمرارها ، بحيث تتضعضع أو تنهار الأعمدة التي ينهض عليها البنيان العربي . وبلوغ أهداف التفكيك يقتضي أمورا عدة في مقدمتها :

* إضعاف صلة الناس بالإسلام أو أملهم فيه .
* التشكيك في قيمة انتمائهم إلي العروبة .
* إذكاء النعرات العرقية والعصبيات الدينية .

الواقع العربي الراهن محمل بكل الجراثيم التي توفر متطلبات التفكيك علي تلك الجبهات الثلاث . وإذا ما حاولنا أن نتتبع ما يجري في تلك الساحات فسوف نجد ما يلي :

** أولا : في صدد الانتماء الإسلامي : والانتماء الذي أعنيه هنا يتجاوز الالتزام العقيدي إلي الهوية الحضارية . هذا الانتماء يتعرض منذ سنوات لصور عديدة من الطعن والتجريح في الداخل قبل الخارج ، خصوصا بعدما تم الربط بين الإسلام والانغلاق والتحجر من ناحية ، وبينه وبين العنف والإرهاب من ناحية ثانية .

الكلام عن فصل الدين عن السياسة ليس جديدا . والهجوم علي الشريعة مستمر بقدر ملحوظ من الضراوة والحدة منذ بداية الثمانينات ، أي منذ ارتفعت أصوات كثيرة داعية إلي تطبيق الشريعة ، وتكفل الذين اشتغلوا بشئون المال ، ناسبين أنفسهم إلي الإسلام، بتحقيق كل ما يتمناه الداعون إلي فصل الدين عن الاقتصاد ومختلف المعاملات ، وأخيرا قرأنا عن دعوة لفصل الدين عن الثقافة .

هكذا لوحق الإسلام وطورد في العديد من ميادين الحياة بحجج وذرائع مختلفة ، الأمر الذي من شأنه إضعاف علاقة الدين بالمجتمع . وحصر تلك العلاقة في أضيق نطاق ممكن .

علي صعيد أخر فقد صار التدين « أصولية » ، وأصبحت الأصولية عنوانا لقائمة من الشبهات والاتهامات التي أشرنا إليها توا .

بعد تلطيخ صفحة الإسلاميين عن طريق تعميم الإدانة علي كل من له صلة بالخطاب الإسلامي ، صرنا نقرأ خطاب « التينيس » ، الذي يصر علي أن كل الإسلاميين متطرفون

(١) فهمي هويدي - تفكيك الأمة - جريدة الأهرام - بتاريخ ١٥ - ١٠ - ١٩٩١ .

وإرهابيون ، وإن الذين يزعمون إنهم معتدلون ، ليسوا سوي جناح متآمر بدوره ، لكنه تخفي تحت أقنعة الاعتدال .

والأمر كذلك ، فلا يبقي شيء يعتز به المرء ، لا في الإسلام ولا في المسلمين . حيث يوجه الجميع إلي خلاصة مفادها أن الإسلام فاسد والمسلمين أشد فسادا !

** ثانيا : عن الانتماء العربي : في أعقاب حرب الخليج بوجه أخص ، ظهرت جماعات «التكفير بالعروبة » ، التي أصبحت تصم العرب بكل نقيصة ، وتسعي للتبرؤ من تلك الوصمة بكل وسيلة .

قرأنا خطابا خليجيا لا يزال مستمرا يعلن أن مختلف الوشائج العربية قد سقطت إلي الأبد بعد الذي حدث إبان أزمة الخليج .

وسمعنا أصواتا فلسطينية تنسب إلي العرب العديد من الخصال غير الحميدة ، التي دفعتهم إلي التخلي عن حقوقهم المشروعة ، « وبيعهم » في أول صفقة أتيحت . ومن ثم التآمر علي تبديد القضية وإجهاض الحلم الفلسطيني .

وقرأنا خطابا مغاربيا صدر أخيرا عن شخصيات نافذة ، يبدي أسفا لتلك المصادفة الجغرافية غير السعيدة ، التي أوجدت شيئا اسمه « البحر المتوسط » ، كان من شأنه فصل منطقة الغرب عن أوروبا ! . ويعبر الخطاب عن رغبة حارة في إحياء وتجديد تلك الوشائج التي لم تتصل، فربما أمكن إنشاء تاريخ جديد يصحح خطيئة الجغرافيا !

كأنها لوثة أصابت قطاعات ودوائر عديدة ، جعلت هؤلاء جميعا يندمون علي انتمائهم إلي العروبة ، ويعتبرون أن خلاصهم يتحقق بالانسلاخ عن ذلك الانتماء والالتحاق بالعالم الغربي !

** ثالثا : عن التعايش بين عناصر الأمة : أزعم إننا نعيش الآن ثقافة التخاصم والتنابذ والتقاطع !

لقد خرجنا من أزمة الخليج بشحنة معتبرة من التباغض والحساسية ، بين الشعبين الكويتي والعراقي من ناحية ، وبين أكثر شعوب منطقة الخليج ومختلف الشعوب العربية التي صنفت في الصف الداعم للرئيس صدام حسين من ناحية ثانية .

ذلك الخليط من التباغض والحساسية أفرز تداعيات معروفة ، سجلت تفاصيلها المحزنة تقارير منظمات حقوق الإنسان والعفو الدولية ، وترددت أصداؤها في مختلف المحافل العالمية .

إلي جانب ذلك ، فثمة مشكلات عرقية متفاقمة بدرجات متفاوتة في عدة أقطار عربية : الأكراد في العراق - البربر في الجزائر - الزنوج في موريتانيا - الجنوبيون في السودان ..

علي صعيد ثالث ، فالتوترات الدينية والمذهبية أسهمت بنصيب معتبر في تكريس ثقافة التخاصم والتقاطع ..

لننح جانبا ومؤقتا توترات الشيعة والسنة ، والوهابيين وكل من المتصوفة والزيود والأباضية، فتلك حساسيات كامنة ، ولا تظهر إلا في فترات متباعدة . لكن هناك ما هو أهم وأعمق : الموارنة في لبنان ، والعلويون في سوريا ، والأقباط في مصر .

أخيرا ، فهناك « الحرب الأهلية » المستعرة بين فريقي العلمانيين والإسلاميين في العديد من الأقطار العربية ، والتي أشرنا إلي بعض مظاهرها ووقائعها توا .

هذه التشققات كلها تتحرك الآن علي الساحة العربية ، ليس علي أساس من التفاعل والتعايش والتكامل ، ولكن باتجاه الاشتباك والتصادم ، الذي بلغ حد التصفية الدموية في أقطار عدة ، والاحتماء بالقوي الأجنبية في أقطار أخري » .

ويري فهمي هويدي أن المسئول عن ذلك ثلاثة أسباب ، الأول : غيبة الديمقراطية في العالم العربي . والثاني أزمة المشروع العربي لأننا نعيش حقبة « اللا مشروع العربي » التي تقلص في ظلها المشترك ، وأحيطت الأهداف الكبري بضباب كثيف . والثالث هو الاختراق الأجنبي الذي لا يعد « التجنيد » هو صيغته الوحيدة وإنما قد يتم أيضا من خلال « الانحياز التطوعي » الذي يلقي ترحيبا ودعما معنويا من القوي الخارجية ، ونحن نعرف نماذج من البشر تتعبد بالغرب - مثلا - دون أن تكون مجندة أو مأجورة من جانبه .

ويختم فهمي هويدي حديثه قائلا :

علي ذلك فوقائع تفكيك الأمة ليست فحسب شهادة الدخول في طور الالتحاق والانسحاق، لكنها أيضا إرهاصات ميلاد إسرائيل الكبري - وربما كان الأمران وجهين لعملة واحدة - والله أعلم! » .

ويسمي أحمد عبد المعطي حجازي [١] محاولة الوقيعة الثقافية بين أبناء الأمة العربية بالفتنة. ويقول : هذه الحملة المسعورة التي يشنها الآن بعض المشتغلين بالكتابة والسياسة في بعض الأقطار العربية علي الثقافة المصرية وعلي المثقفين المصريين ليست مفاجأة لي . فقد بدأت في أواخر الستينات ، واشتدت في السبعينات ، واستمرت في الثمانينات متصلة أحيانا ، ومتقطعة أحيانا أخري ، فالذي نراه الآن منها ليس قرنها الأسود ، بل هو ذنبها المبتور ونفسها المبهور ، ولهذا كان يمكننا تجاهلها ، إذ هي لا محالة منتهية من نفسها ، ميتة حتف أنفها .

لكننا إذ نتحدث عنها الآن لا نقصد الدخول في مهاتراتها ، وإنما نريد أن نفهمها ، فإذا فهمناها كفينا شرها ، إذ هي كالوباء الأصفر أو الطاعون الأسود لا يناله السيف ولا يفيد معه العنف ، وإنما يسحقه سحقا إن نكشفه . تعرفون ذلك الوحش الغريب الذي حدثتنا عنه الأسطورة اليونانية ، وكان قد أقام علي أبواب طيبة يلقي علي كل من مر به لغزا يطلب حله ، فيعجز الرجل عن الحل فيعدو عليه الوحش فيقتله . حتي مر به أوديب فحل اللغز فخر الوحش صريعا !

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي - هذه الحملة المسعورة - جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ - ١١ - ١٩٩١ .

وأنت تسمع الآن أن كاتبا سوريا أجرت معه بعض الصحف العربية حديثا قال فيه - لا فض فوه - إن مصر لا ثقافة فيها ولا مثقفين ، وليس فيها إلا سعاد حسني !

وتسمع عن عبقري من تونس أعلن أن السينما المصرية ماتت ، وإن بلاده وحدها المؤهلة لصناعة سينما عربية !

وتسمع أن مسئولا في بلد عربي قال في مؤتمر للفنانين أن ما يسمي بحركة التنوير في مصر ليست من النور في شيء ، وإنما هي ظلام في ظلام ، أو كما قال !

ويبلغك أن بعض الصحف العربية لم تكتف بالتطاول علي فكر طه حسين وتشويهه كما فعلت كثيرا خلال السنوات العشرين الماضية ، وإنما تعدت ذلك إلي محاولة النيل من شخصه والطعن في نزاهته ، فمن قائل إنه كان بحكم زواجه من سيدة فرنسية يمالئ الفرنسيين ويعمل في خدمتهم ، ومن قائل بل إن زواجه من هذه السيدة تم في الكنيسة . فإذا قلت له : وكيف ينعقد زواج كاثوليكي بين رجل مسلم وامرأة مسيحية ؟ أجابك الأخ العليم ؟ لأن طه حسين تنصر وهناك وثيقة تثبت ذلك ؟!

وأنت تقرأ في صحف عربية أخري عن الثقافة المصرية والمثقفين المصريين كلاما شبيها بهذا الكلام وأكثر بذاءة أحيانا ، فيخيل إليك أن الحرب الأهلية قد اشتعلت ، وأن الأخوة الذين عشت معهم تاريخك ، وربطت بمصيرهم مصيرك قد اجتمعوا عليك يطالبون برأسك ، فلا مفر من أن تدفع عن نفسك ، وأن ترد الصاع صاعين واللطمة ثلاثًا !

تلك هي الفتنة التي ينبغي أن ندرك أبعادها ، وهذا هو الوحش الذي يجب أن نكشف أمره لنتقي شره » .

ولقد كانت آثار الغزو الثقافي للمجتمعات العربية موضع اهتمام عدد كبير من الندوات والمؤتمرات الثقافية العربية يلخص الدكتور « مقداد يالجن [1] » مؤثرات الغزو الثقافي فيما يلي :

* التشكيك في قدرات المسلمين علي بناء الحضارة العصرية ، والتشكيك أيضا في صلاحية القيم الإسلامية الحضارية . ونشأ عن هذا وذاك الاهتمام بالحضارة الغربية وتعظيم شأنها ، ثم تقليدها .

* استعارة نظم التربية والتعليم ونشأ عنها تغير شخصيات الناشئين وسلوكياتهم علي نحو لا يتلاءم مع العقيدة الإسلامية وقيمها المختلفة .

---

(١) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي والتي عقدت في مسقط بسلطنة عمان في الفترة من ١- ٣ شعبان ١٤٠٥ هجرية الموافق ٢١ - ٢٣ ابريل ١٩٨٥ ميلاديا - الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض بالمملكة العربية السعودية - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م صـ٧٤، صـ٧٥ ، صـ٩٧، ١٠١ .

* تقليد الغربيين في عاداتهم وأخلاقياتهم ومعاشراتهم الاجتماعية ونشأ عنها الابتعاد عن الآداب والقيم الأخلاقية الإسلامية .

* استعارة القوانين أو النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من الغرب ونشأ عنها إبعاد النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية عن معظم الدول الإسلامية .

* الافتنان بالثقافة الغربية وبمفكريها ومناهج تفكيرهم . ونشأ عن ذلك الاهتمام بالثقافة الغربية وبالدراسات الغربية ومناهج تفكير الغربيين .

ثم يطرح الحل أو العلاج بأنه إبراز التربية الحضارية الإسلامية ووضعها في موضع التنفيذ. وهو يعرف التربية الحضارية في الإسلام بأنها تنشئة الأجيال وإعدادهم وتنمية قدراتهم واستعداداتهم وتشكيلهم حضاريا وفقا لمفهوم الحضارة الإسلامية . أو بعبارة مختصرة هي إعداد المسلم إعدادا حضاريا في ضوء التفكير الحضاري في الإسلام . وأن دورها يتلخص في مواجهة الأيدلوجيات المعادية . وفي مواجهة التحديات الاجتماعية . وفي مواجهة التخلف الحضاري . وفي انقاذ الحضارة من الصراع الحضاري .

« ويري بعض الكتاب [1] أن واقع الوطن العربي المعاصر (١٩٨٩) ، يسهل للقوي الامبريالية غزوه ثقافيا . وذلك لأسباب عديدة يجملها فيما يلي :

١- غياب القوة العسكرية القادرة علي تحقيق الطموح القومي في دحر العدو الإسرائيلي، وتحرير الأراضي العربية المحتلة ، مما أوجد إحباطات متعددة لدي المواطن العربي نتيجة إحساسه بالعجز والفشل ، مما يسهل عملية الاختراق النفسي والعقلي .

٢- تراجع العمل القومي في مختلف الميادين ، وتحديدا في ميدان العمل السياسي ، حيث لم تتمكن الأقطار العربية من تحقيق حد أدني من التنسيق السياسي ، بعد مرور ما يزيد علي أربعين عاما علي تجربة تأسيس الجامعة العربية ، مما أدي إلي تضخم الإحساس القطري علي حساب العمل القومي ، في زمن أصبح فيه المستقبل للتجمعات الكبيرة الممثلة في الدولة القومية الواحدة ، وهذا ما يفسر ركض أوروبا الغربية نحو تحقيق الوحدة السياسية الكاملة ، بعد أن حققت وحدتها الاقتصادية من خلال السوق الأوروبية المشتركة ، التي مكنتها من الصمود في وجه الولايات المتحدة الأمريكية التي تطمح إلي بسط نفوذها واستمرار هيمنتها علي أوروبا الغربية .

٣- غياب التصور القومي الموحد لطبيعة الثقافة الواجب سيادتها في الوطن العربي الواحد . وينعكس ذلك علي برامج التربية والتعليم في كل قطر عربي ، مما يحول دون تشكيل وجدان عربي مشترك ، فتظل الاهتمامات والتطلعات مختلفة من قطر إلي أخر ، ويؤثر ذلك علي تقييم الحاضر وطموحات المستقبل .

---

(١) أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي - الناقد - العدد ١٧ بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

٤- محاولات العدو الصهيوني الدؤوبة لاختراق الصف العربي في مجال الثقافة وغيرها ، ويواكب ذلك العمل الصهيوني - الامبريالي لإثارة مشكلة الطوائف والأقليات في الوطن العربي ، وقد أثار هذه المسألة علنا الكاتب اليهودي (أوديوبيتون) عام ١٩٨٢ في دراسته : و«استراتيجية اسرائيل في الثمانينات » ، فاعتبر أن من مهمات اسرائيل الراهنة العمل على إثارة مسألة الطائفية ، في الوطن العربي ، مستغلة وجود بذور لهذه القضية قابلة للنمو إذا ما أحسن إرواؤها ، وتجديد تربتها .

٥- غياب الحد الأدني من الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان ، في أغلب أقطار الوطن العربي ، حيث مصادرة الحريات هي الأساس ، مما جعل الغالبية العظمي من المواطنين ، وتحديداً الطبقة المثقفة المتعلمة - صانعة الرأي العام ، تتطلع دوما نحو (الغرب) كمثال للحرية والهامش الديمقراطي ، ويتجلي ذلك في الهجرة المستمرة للكتاب والصحفيين والمثقفين ، والصحف والمجلات ودور النشر ، وآلاف المواطنين العادين نحو الأقطار الغربية والاسكندنافية والولايات المتحدة الأمريكية . إن هذه المصادرة للحريات ، تجعل النموذج الغربي هو المرتجي ، وهو الأمل. رغم كل ما تحمله دول هذا النموذج . من خطط عدوانية نحو الوطن العربي ، وهذا من شأنه أن يجعل النفوس والعقول العربية بشكل جماعي غير قادرة علي الصمود أمام وسائل وأدوات الغزو » .

هذه الأمثلة والنماذج لتأثير الغزو الثقافي من باب الإيضاح وليست من باب الحصر . لأن تأثير الغزو الثقافي علي المجتمع العربي المعاصر هو الجانب السلبي من العمل الثقافي برمته . وكما يقول ابن الأثير إن الكتابة أهوالها غير متناهية - وكان يعبر عن عصره حيث الكتابة هي شكل التعبير السائد - نقول إن آثار وسائل الإعلام غير متناهية . وإذا كانت استخداماتها صلب العمل اليومي في الغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر فإننا نستطيع تصور مدي التأثير . وخلاصة القول إن وراء كل طلل وكل تخريب في نفس الإنسان العربي وعقله وقلبه ، وفي عالم الأشياء المادية علي الساحة العربية أثر من تأثير الغزو الثقافي .

ثالثا : استراتيجية المواجهة :

تتلخص استراتيجية المواجهة في تحقيق الأمن الثقافي ، ولتحقيق ذلك الأمن الثقافي فإن المواجهة تعني مواجهتين . الأولي كيفية مقاومة الغزو الثقافي . والثانية كيفية التفاعل والاتصال الثقافي . فالغزو الثقافي ، والاتصال الثقافي لا يمكن الفصل بينهما في عالمنا المعاصر فصلا قاطعا. ولم يعد في مقدور أمة في عالمنا المعاصر أن تقيم ستارا حديديا بينها وبين العالم ، فتستغني عن الاتصال الثقافي ، وتتفرغ لمواجهة الغزو الثقافي وحسب . إن طبيعة العصر جعلت لهذين المفهومين المتناقضين : الغزو الثقافي ، والاتصال الحضاري تلازما وثيقا في المجال والتأثير.

ويدور مفهوم الأمن الثقافي الذي تبناه وزراء الثقافة العرب في اجتماعهم الرابع في الجزائر

عام ١٩٨٣ الذي خصصوه لبحث هذا الموضوع حول ثلاثة محاور رئيسية : الأول يتعلق بالإطار القومي ، ذلك أن الثقافة العربية وأداتها التعبيرية اللغة العربية تحملت رسالة الوحدة عضويا ووظيفيا وثقافيا ، وأصبحت المنطلق الحقيقي لمواجهة القضايا القومية من التجزئة القطرية، والتخلف الاجتماعي ، والتسلط الأجنبي ، والعدوان الصهيوني ، وصولا إلي الوحدة والتحرر والتقدم ، تلك الغايات التي يصنعها الإنسان القادر الذي لا تتهيأ له القدرة إلا عن طريق الثقافة، فهي التي تتعهد قابليات الإنسان بالإعداد الاجتماعي والسياسي والفكري والعلمي والفني .

ويدور المحور الثاني حول الثقافة العربية في الإطار العالمي أو ما يعرف الآن بالغزو الثقافي، وهو يستند إلي الحقيقة التاريخية التي يعيشها العالم المعاصر في عصر ثورة المعلومات والحاسبات الاليكترونية ، وتقنيات الاتصال الجماهيرية العملاقة وعصر الأقمار المصنوعة والتوابع الفضائية المسخرة للاتصالات المختلفة ، وفي مقدمتها البث الإذاعي والتليفزيوني ، وأن هذه التقنيات المتطورة بقدر ما هي عون نوعي لتقدم الثقافة الإنسانية ، وإثراء للمعرفة البشرية تشكل في الوقت نفسه خطراً متزايداً علي المجتمعات المتلقية التي لا تملك حرية الاختيار ، أمام هذا الاقتحام الضاري ، وهو أمر يفضي إلي نتائج سلبية بالنسبة للثقافات القومية . وتتعاظم هذه النتائج بمقدار عزلة تلك الثقافات وضعفها ، فهي تؤدي في المقام الأول إلي عملية إحلال لثقافات أخري حتي علي مستوي القواعد الجماهيرية ، ابتداء من العادات والممارسات والسلوك اليومي إلي سلم القيم ونمط الحياة ، مما يغير شخصية تلك المجتمعات بإعادة صياغتها علي نمط كوني معين ، هدفه في عاقبة الأمر ، هدف اقتصادي وسياسي .

ويدور المحور الثالث حول الصناعات الضرورية للثقافة أو ما يمكن تسميته بالمقومات المادية للإنتاج الثقافي ، والمقصود منه أنه في إطار مفهوم الأمن الثقافي ، فإن تأمين الموارد الأولية الضرورية للإنتاج الثقافي كالورق والأقلام والأحبار ، وأدوات ذلك الإنتاج مثل الطباعة وصناعة المحابر ، وأجهزة الاتصال والتسجيل والعرض وغير ذلك من متطلبات البحوث العلمية والوسائل التعليمية وما شابه ذلك ، يتخذ أولوية عالية اقتصاديا واجتماعيا .

ويشير خبراء منظمة اليونسكو كما يؤكد خبراء الإعلام العرب [١] العلاقة الوثيقة بين الإعلام والثقافة التي تكاد تشكل منهما كيانا واحدا ، يتأثر كل جزء منه بالجزء الآخر . والثقافة في كل الأحوال تشكل مضمون المواد التي تنشرها وسائل الإعلام المختلفة . ومن ثَمَّ فإن مفهوم الأمن الثقافي لا يقف عند المؤسسات التربوية والثقافية بل يمتد إلي الأنشطة التي تتولاها وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر .

وتناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية [٢] الأمن الثقافي مصطلحا ومضمونا فقالت :

---

(١) سعد لبيب - الأمن الثقافي والعمل الإذاعي - الدراسات الإعلامية - العدد ٤٩ - أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٧ .

(٢) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الأول - الكويت - ١٩٨٦ - صـ١٤٢ ، صـ١٤٣ .

«الأمن الثقافي ليس مجرد تعبير لغوي سلبي ، ولكنه مصطلح أو مفهوم مشتق من الأمان ، ومن ضرورة الحفاظ علي مقومات الثقافة العربية في أبعادها ومجالاتها ومظاهرها لتتابع دورها القومي ، ومضمونها الإنساني ، ومسئوليتها الحضارية في سياق المعاصرة ، وبالمشاركة الفاعلة علي المستويين القومي والعالمي . وبالرغم من النكبات التي حلت بهذه الأمة في العصر الحديث، فقد ظلت الثقافة العربية حصن وحدتها ، ودفعت بلغتها لتصبح إحدي لغات المعترك الدولي . علي أن هجمة وسائل الاتصال الحديثة ، بالشكل الكثيف ، والاقتحام الضاري الذي يتم الآن ، لا يهدد التمازج الثقافي الذي ترحب به الثقافة العربية ، ولكن يهدد بإحلال ثقافة أخري محلها ، حتي علي مستوي القواعد الجماهيرية ، بدءا من العادات والممارسات اليومية ، وإنتهاء بسلم القيم . يضاف إلي ذلك الهجمة الصهيونية الاستيطانية التي تعمل علي تدمير الثقافة العربية . لأن ذلك هو وسيلتها لإلغاء المقاومة العربية . إن هذا كله إنما يدعو إلي التحرك لضمان ما نسميه بالأمن الثقافي . ويقوم هذا الأمن علي أمرين :

١- استكمال المقومات الأساسية للثقافة العربية وتجديد قدراتها الذاتية .

٢- أن تكون الثقافة العربية قادرة في إبداعها وعطائها ، علي تحويل علاقاتها مع الثقافات الأخري من الاستيلاب إلي الحوار والمشاركة . ومن الاستسلام إلى إبراز الخصوصية والتفاعل المشترك » .

ويمكننا أن نوجز استراتيجية مواجهة الغزو الثقافي لعالمنا العربي المعاصر في مبحثين رئيسيين : أ- الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي، ب - الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي .

أ- الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي :

يقول الله تعالي : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلي الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ (سورة النساء آية ٨٣) .

علينا أن طرق باب القرآن الكريم بترتيب المصحف لنري صورتنا في مقاومة الغزو الثقافي، أو بمعني أدق لنري كيف تكون صورتنا مقاومين لهذا الغزو من جوانبها المختلفة .

سورة البقرة :

غشاوة الغزو الثقافي :

* ﴿ ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (آية٧ سورة البقرة) .

الكذب والتلفيق في مضامين الغزو الثقافي :

* ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ (آية ٤٢ سورة البقرة) .

كشف سلوك المصدر في الغزو الثقافي :

* ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلي بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ (آية ٧٥ ، آية ٧٦ سورة البقرة) .

الارتباط بين القتال والفتنة :

* ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ (آية ١٩١ سورة البقرة) .

* ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ (آية ٢١٧ سورة البقرة) .

صرعى الغزو الثقافي :

* ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلي النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلي الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (آية ٢٥٧ سورة البقرة).

سورة آل عمران :

أهداف الغزو الثقافي :

* ﴿ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ (آية ٧ سورة آل عمران) .

* ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ (ثم بقية الآيات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢، ٧٣ من سورة آل عمران) .

* ﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب... ﴾ (آية ٧٨ سورة آل عمران) .

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ (آية ١٠٠ سورة آل عمران) .

التحذير من الارتماء في أحضان الغزاة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا * ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ (الآيات : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ من سورة آل عمران).

الثقة بالنفس في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آية ١٣٩ سورة آل عمران) .

التحذير من الانسياق في طاعة الغزاة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم علي أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ (آية ١٤٩ سورة آل عمران) .

قوة الإرادة والعزم في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (آية ١٨٦ سورة آل عمران) .

سورة النساء :

أهداف الغزو الثقافي :

* ﴿ ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ (آية ٤٤ ثم آية ٤٥ و آية ٤٦ من سورة النساء) .

* ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً ... ﴾ (آية ٨٩ من سورة النساء) .

التحذير من اتباع سلوك الغزاة :

* ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا ﴾ (آية ١٤٠ من سورة النساء) .

التحذير من اتخاذ الغزاة قدوة ومثلا عليا :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينًا ﴾ (آية ١٤٤ من سورة النساء) .

سورة المائدة :

التحذير من سلوك الغزاة في عدم الوفاء بالعهود ، والتحريف ، والخيانة :

* ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعَنَّاهُم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع علي خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (آية ١٣ سورة المائدة) .

التحذير من الاحباط بسبب تفشي ظاهرة الغزو الثقافي :

* ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ... ﴾ (آية ٤١ من سورة سورة المائدة ثم آية ٤٢) .

تكرار التحذير من فتنة الغزاة :

* ﴿ ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .. ﴾ (آية ٤٩ من سورة المائدة) .

تصوير الصراع بين معسكر الإيمان وقوي الغزو الثقافي وتحليل موقف رواد التغريب :

* ﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فتري الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشي أن تصيبنا دائرة فعسي الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا علي ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ (آية ٤٩ إلي الآية ٥٢ من سورة المائدة) .

تحذير مباشر من اتخاذ قوي الغزو الثقافي أولياء ومثلا عليا وقدوة:

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ (آية ٥٧ من سورة المائدة) .

كشف موقف الغرب من الإسلام والمسلمين :

* ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون ﴾ (آية ٥٩ من سورة المائدة) .

التحذير من التطرف :

* ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا عن سواء السبيل ﴾ (آية ٧٧ من سورة المائدة) .

تحليل فصائل الغزو الثقافي وعدم التعميم :

* ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصاري ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ (آية ٨٢ من سورة المائدة) .

سورة الأنعام :

الالتزام في مقاومة الغزو الثقافي وعدم الإسفاف :

* ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلي ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ (آية ١٠٨ سورة الأنعام) .

المراحل التي يمر بها صرعي الغزو الثقافي : الإصغاء الانتقائي ، الرضا به ، الاقتراف :

* ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف

القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ (آية ١١٢ ، وآية ١١٣ سورة الأنعام).

التحذير من الانسياق وراء أكاذيب مصدر الغزو الثقافي :

* ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (آية ١١٦ سورة الأنعام) .

مجافاة مضامين الغزو الثقافي لقواعد العلم وإغراقها في الميول والأهواء :

* ﴿ ... وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ... ﴾ (آية١١٩ سورة الأنعام) .

دمغ رواد التغريب بصفة أعداء الإسلام :

* ﴿ ... وإن الشياطين ليوحون إلي أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ (آية ١٢١ سورة الأنعام) .

ضيق مصادر الغزو الثقافي بالحوار ونفورهم من المناقشة :

* ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس علي الذين لا يؤمنون ﴾ (آية ١٢٥ سورة الأنعام) .

سورة الأعراف :

حَجَرُ الزَّاوِيَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْغَزْوِ الثَّقَافِي الالْتِزَام الْكَامِل بِالْهُوِيَّةِ الْعَقَدِيَّة والثقافية :

* ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ (آية ٣ سورة الأعراف) .

سورة هود :

سُلُوكُ أعْدَاء الإِسْلَام فِي عَدَم التَّعَرُّض لِلْفِكْرِ الإِسْلَامِي وحَجْبُه عَن الْعُقُول والقلوب :

* ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ (آية ٥ سورة هود) .

تحصين المجتمع المسلم بتفسير التقدم عند الكافرين، لأنهم يأخذون بالأسباب . ولكن ذلك لا ينفي اخفاقهم عقديا وروحيا :

* ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون*

أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (آية ١٥ ، ١٦ سورة هود) .

سورة النحل :

إدعاء الغزاة بتفوق « ايدلوجياتهم » وإدعائهم بتحقيق نظمهم خير البشرية :

* ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ... ﴾ (من الآية ٦٢ من سورة النحل) .

التحذيرُ من تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحل الله بالتفلسف الكاذب والحذلقة الخاطئة :

* ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا علي الله الكذب إن الذين يفترون علي الله الكذب لا يفلحون ﴾ (الآية ١١٦ سورة النحل) .

سورة الكهف :

صورة للأيدلوجيات الضالة مثل النازية :

* ﴿ قل هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (آية ١٠٣ وآية ١٠٤ من سورة الكهف) .

سورة الحج :

صُورة لتخبط معقولات صرعى الغزو الثقافي وانتقالهم من الشيوعية إلي التطرف العلماني :

* ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ (آية ٣ سورة الحج) .

صورة للإستكبار والتشبث بالخطأ الذي يسلكه صرعي الغزو الثقافي :

* ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله ... ﴾ (الآية ٨ ومن الآية ٩ من سورة الحج) .

صفات وخصائص معسكر العملاء :

* ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ (آية ١١ سورة الحج) .

الذين يروجون للغزو الثقافي :

* ﴿ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ (آية ١٣ من سورة الحج) .

خصائص وصفات وملامح معسكر الغزو :

* ﴿ وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا .. ﴾ (آية ٧٢ سورة الحج).

سورة الفرقان :

خصائص وسمات صرعي الغزو الثقافي :

* ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ (آية ٤٣ ، ٤٤ من سورة الفرقان).

سورة لقمان :

إغراق صرعي الغزو الثقافي في اللهو والسخرية والاستكبار والاستعلاء:

* ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلي عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ (آية ٦ ، والآية ٧ من سورة لقمان).

سورة الأحزاب :

هل توجَد صورة للجُواسيس أو العُملاء أو الطابُور الخامس أو الثُورة المضادة أو القوي المتربصة في الداخل مثل هذه الصورة ؟ :

* ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشي عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة علي الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك علي الله يسيرا ﴾ (آية ١٩ من سورة الأحزاب).

صورة الدهماء المنساقين وراء رواد التغريب والغزو الثقافي :

* ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ (آية ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب).

جسامة المسئولية في مواجهة الغزوالثقافي :

* ﴿ إنا عرضنا الأمانة علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ . (آية ٧٢ من سورة الأحزاب) .

سورة الجاثية :

صورة للنرجسة البشرية في العقائد والأيدلوجيات ومدي ضلالها وانغلاقها :

* ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علي علم وختم علي سمعه وقلبه وجعل علي بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ . (آية ٢٣ من سورة الجاثية) .

سورة محمد :

انغلاق قلوب المعسكر المعادي للإسلام وانغلاق عقولهم ونفوسهم وأرواحهم :

* ﴿ أفلا يتدبرون القرءآن أم على قلوب أقفالها ﴾ . (الآية ٢٤ من سورة محمد) .

تظهر المضامين المستترة في الغزو الثقافي التناقض ، والكذب فيها ، وهي إنعكاس لأحقاد الغازي :

* ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ . (آية ٢٩ ، الآية ٣٠ من سورة محمد) .

سورة المجادلة :

تكرار التحذير من اتخاذ مصدر الغزو حليفا وصديقا مهما كانت الأواصر والروابط :

* ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ... ﴾ . (من الآية ٢٢ من سورة المجادلة) .

سورة الممتحنة :

تكرار التحذير في القرآن الكريم من اتخاذ مصدر الغزو الثقافي وليا ومثلا اعلى وقدوة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ... ﴾ . (الآية ١ ، الآية ٢ من سورة الممتحنة) .

صورة الوحدة الوطنية في المجتمعات العربية والإسلامية :

* ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا علي إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ . (آية ٨ ، الآية ٩ من سورة الممتحنة) .

تحذير متكرر من الانقياد والولاء تحت راية مصدر الغزو الثقافي :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ . (الآية ١٣ من سورة الممتحنة) .

سورة الكافرون :

العزم والتصميم والإرادة الصارمة في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون . ﴾ . (آية ١ ، آية ٢ من سورة الكافرون) .

سورة الناس :

تصوير لعملية الغزو الثقافي في العقول والقلوب والصدور والأرواح:

* ﴿ السورة كلها ﴾ .

هذه الآيات القرآنية وغيرها تضع لنا إطارا عاما نبني داخله الأساسي الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي . إن تَدَبُّر هذه الآيات وتفسيرها يجعلنا نُطِلُّ على سوق الغزو الثقافي من شرفة مُطِلَّةٍ علي كافة زوايا ومواقع السوق .

أورد صاحب (١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ستين آية من آيات القرآن الكريم تحدثت عن الفتنة بجوانبها المختلفة . اخترت منها ثمانية وثلاثين آية يمكن أن تشير إلي مفهوم الفتنة (٢) الذي يوضح لنا الغزو الثقافي . وهي علي النحو التالي :

* وكذلك فتنا بعضهم ببعض (آية ٥٣ الأنعام) .

* قال فإنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (آية ٨٥ طه) .

* ولقد فتنا الذين من قبلهم (آية ٣ العنكبوت) .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - دار الحديث خلف الجامع الأزهر ، ودار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ صـ٥١١ ، ٥١٢ .

(٢) في لسان العرب لابن منظور يبدأ فَصْل الفاء بشروح معاني الفتنة . فهي الابتلاء والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة إذا أذبتها بالنار لتميز الرديء من الجيد . والفَتْنُ : الإحراق . ويقول ابن الأعرابي : الفتنة الاختبار ، والمحنة ، والكفر، واختلاف الناس بالآراء . ويقال فلان مفتون بطلب الدنيا قد غلا في طلبها .

والفتنة : إعجابك بالشيء ، والفتون : الجنون . والفاتن : الشيطان لأنه يضل العباد . وفي حديث قَيْلَة : « المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان علي الفَتَّان» : الشيطان الذي يفتن الناس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي ، فإذا نهي الرجل عن ذلك فقد أعانه علي الشيطان . وفتن الرجل أي أزاله عما كان عليه ، ومنه قول الله عز وجل ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴾ أي يميلونك ويزيلونك . والفتنة : الإضلال .

* ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم (آية ١٧ الدخان) .

* ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني (آية ١٤ الحديد) .

* إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . (آية ١٠ البروج) .

* يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان (آية ٢٧ الأعراف)

* علي خوف من فرعون وملائيهم أن يفتنهم (آية ٨٣ يونس) .

* واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما نزل الله إليك (آية ٤٩ المائدة) .

* وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك (آية ٧٣ الإسراء) .

* ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به (آية ٩٠ طه) .

* ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا (آية ١١٠ النحل) .

* قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (آية ٤٧ النمل) .

* أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين (آية ١٢٦ التوبة) .

* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (آية ٢ العنكبوت) .

* فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين (آية ١٦٢ الصافات) .

* فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون (آية ٥ وآية ٦ القلم) .

* وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل (آية ١٩١ البقرة) .

* وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله (آية ١٩٣ البقرة) .

* والفتنة أكبر من القتل (آية ٢١٧ البقرة) .

* فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة (آية ٧ آل عمران) .

* كل ما ردوا إلي الفتنة أركسوا فيها (آية ٩١ النساء) .

* وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم (آية ٧١ المائدة) .

* واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (آية ٢٥ الأنفال) .

* وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (آية ٣٩ الأنفال) .

* إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير (آية ٧٣ الأنفال) .

* ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة (آية ٤٧ التوبة) .

* لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتي جاء الحق (آية ٤٨ التوبة) .

* ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين (آية ٨٥ يونس) .

* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلي حين (آية ١١١ الأنبياء) .

* وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه خسر الدنيا والآخرة (آية ١١ الحج) .

* ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض (آية ٥٣ الحج) .

* فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة (آية ٦٣ النور) .

* وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (آية ٢٠ الفرقان) .

* فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله (آية ١٠ العنكبوت) .

* ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها (آية ١٤ الأحزاب) .

* بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون (آية ٤٩ الزمر) .

* ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا (آية ٦٠ الممتحنة) .

وهذه الآيات القرآنية تساند الآيات التي سبق أن استخلصتها من المصحف وفق ترتيب السور ، ورأيت فيها صلة رابطة بموضوع الغزو الثقافي كما نعرفه في حياتنا المعاصرة . وإذا كانت الآيات الأولي تمثل في تصوري إطارا عاما تستطيع أن نبني داخله الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي فإن الآيات الثانية تعمق وتثري مفهومًا وجدت أنه أقرب ما يكون إلي مفهوم الغزو الثقافي . ومن ثم فإن الآيات المتعلقة بالفتنة في معناها القريب من الغزو الثقافي تدلنا علي تفريعات الغزو وتضيف تراكما في أذهاننا يثري عقولنا في وضع الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي الذي نسعي إليه لصوغ استراتيجية المواجهة . ولم أشأ أن ألجأ للتحليل الكمي بذكر تكرارات لفئات المعاني المتعلقة بمدلول جوانب الغزو الثقافي . ثم أضعها في جداول تحصي لنا تكرار المعاني ، وما شابه ذلك . لأنني أري أن مثل هذه الجداول والنسب تبعدنا في مثل هذا المقام عن الواقع ، إلي جانب أنها تُفْضي بنا إلي نظرة جزئية أو آحادية أو غير شاملة .

وإذا انتقلنا إلي أحاديث رسول الله ﷺ فإننا نتساءل : هل تناولت السنة النبوية موضوع الغزو الثقافي ؟ إن حديثا نبويا شريفا عن رسول الله ﷺ يكاد يُجْمل جوهر التحذير من الوقوع في حفرة الغزو الثقافي . يشرحه الدكتور يوسف القرضاوي [1] قائلا : وصدق في ذلك ما أخبر به من لا ينطق عن الهوي حين قال « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتي لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصاري ؟ قال : فمن ؟ »

وفي بعض الروايات : التعبير بـ « فارس والروم » بدل « اليهود والنصاري » .

(١) د. يوسف القرضاوي - نحن والغزو الثقافي - جريدة الشعب - القاهرة - بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٨٦ .

والحديث ينكر علي الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها . إلي حد تغدو فيه ذيلا تابعا للأخرين من أصحاب الديانات السابقة ، أو أصحاب الحضارات السائدة .

وفارس والروم لا يوجد اليوم بهذا الاسم والعنوان ، ولكن معناهما موجود في الدولتين العظميين اللتين تمثلان : المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، كما كانت فارس والروم عند ظهور الإسلام .

ويعبر الحديث عن مدي هذه التبعية الذيلية بقوله « شبرا بشبر » ، « وذراعا بذراع » .... ويضرب « جحر الضب » مثلا لهذا النوع من الاتباع الأعمي فجحر الضب يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة ، ومع هذا لو دخل أولئك « المُقَلِّدون » هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المُقَلِّدون . وبتعبير عصرنا : تظهر « مودة » جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز ، تسمي « مودة جحر الضب » ! هذا مع حرص الإسلام البالغ في تشريعاته وتوجيهاته ، علي أن تظل الشخصية المسلمة مستقلة متميزة في مخبرها وفي مظهرها ، حتي لا يسهل ذوبانها في غيرها ، وبالتالي تفقد خصائصها ومشخصاتها . وهذا معني الدعاء اليومي المتكرر للمسلم في صلاته ، سبع عشرة مرة علي الأقل ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . وفي هذا ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » .

وهكذا يتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة الركن الأول من أركان الأساس الفلسفي والفكري والعقدي لاستراتيجية المواجهة .

أما الركن الثاني فهو هوية استراتيجية المواجهة ، والتي تتمثل في هوية الثقافة ذاتها ويلخص الدكتور يوسف القرضاوي [1] الحوار والجدل حول ماهية الثقافة العربية والحضارة العربية : أهي عربية أم إسلامية ؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام ؟ أهي صلة تكامل أو صلة تناقض ؟ فيقول : « لا غني للعروبة عن الإسلام ، ولا معني للإسلام بدون العروبة » . ويلخص حيثيات حكمه علي ماهية هذه الثقافة بأنها عربية إسلامية معا بالأدلة التالية :

* هي ثقافة عربية بحكم اللغة الأساسية . التي كتبت بها ، وعبرت عنها .
* بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها ، والمؤثرة في أعماقها .
* بحكم تأثير البيان النبوي العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها .
* بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها .
* بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها ، ومنطلق دعوتها .

---

(١) د. يوسف القرضاوي - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة - ندوة الثقافة العربية ، الواقع وآفاق المستقبل ، ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣ - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر - الدوحة.

* وهي مع ذلك ، وقبل ذلك ، ثقافة إسلامية بلا ريب .

* بحكم الأهداف التي تتوخاها ، والحوافز التي تدفعها .

* بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها وتفجر طاقاتها .

* بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عربا وعجما .

* بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالا لها من الصين شرقا إلي شواطئ الأطلس غربا .

وبذلك يقرر الدكتور القرضاوي بأنه من الأصوب أن نقول ثقافة عربية إسلامية وحضارة عربية إسلامية . ويزداد في رأيه هذا الأمر وضوحا عندما نبين مكونات هذه الثقافة ، وهي الإسلام ، والعربية ، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة علي مدار التاريخ .

ويحلل تأثير الدين علي أبنائه وسلطانه المتغلغل في نفوسهم ، ويؤكد القول بأن نصاري العرب ثقافتهم عربية وعقيدتهم نصرانية ولا تعارض في ذلك . ويقول بأن صلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية ، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها ، سواء كان هذا الدين سماويا أو وضعيا ، حقا أم باطلا ، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب . والثقافة الغربية علي سبيل المثال - كما يري القرضاوي - هي نبت الديانة المسيحية ، بعقائدها وتصوراتها ومواريثها وتقاليدها المختلفة . ويستشهد القرضاوي بقول « ت . س . إليوت » في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوروبية ، حيث يقول « إليوت » : في المسيحية نمت فنوننا ، وفي المسيحية تأصلت - إلي عهد قريب - قوانين أوربا . وليس لتفكيرنا كله معني أو دلالة خارج الإطار المسيحي . وقد لا يؤمن فرد أوربي بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله ويأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية ، ويعتمد في معناه علي تلك الثقافة . وما كان يمكن أن تخرج « ڤولتير » أو « نيتشه » إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوربا يمكن أن تبقي حية إذا اختفي الإيمان المسيحي إختفاء تاما ، ويؤكد « إليوت » بأن اقتناعه بذلك ليس إلي كونه مسيحيا بل إنه مقتنع به أيضا بوصفه دارسا لعلم الاجتماع . ويقول : إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة . يجب أن تنتظر حتي ينمو العشب ليغدو الضأن ليعطي الصوف الذي سيصنع منه رداؤك الجديد . ويعقب القرضاوي علي قول « اليوت » بأن مثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند ، والبوذية في ثقافة الصين وكوريا وغيرهما . بل يذهب القرضاوي إلي القول بأنه لا ثقافة بغير دين ، أيا كان هذا الدين . حتي الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريا وعمليا ، كالماركسيين ، لم يسعهم إلا أن يضعوا للناس دينا جديدا ، يقوم مقام الدين القديم ، إلهه المادة ونبيه ماركس ، وجنته الشيوعية الموعودة ، وشيطانه الرأسمالية ، إلي آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة التي أطلق عليها في أحيان كثيرة عبارة أديان بغير وحي .

أما عن المكون الثاني للثقافة العربية الإسلامية وهو اللغة العربية عند القرضاوي فإنه يري

أن اللغة العربية ممزوجة بالقرآن مزجا . ومن هنا نجد محاولات أعداء الإسلام تفريغ اللغة من هذه الظاهرة الأصيلة فيها وعزلها عن القرآن والسنة . كما تري ذلك واضحا في المعجم المعروف باسم « المنجد » الذي تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث في أي مادة لغوية. وكذلك كانت الدعوة إلي العامية بذرة بذرها أعداء الأمة العربية من المستشرقين والمبشرين والأجانب ومن تبعهم ليعزلوها عن لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي كله . كانت محاربة العربية هدفا. فعل ذلك «دنلوب» في نظام التعليم في مصر . وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة ، وإحلال الحرف اللاتيني محله ، كما فعلوا ذلك في « تركيا » وفي « ماليزيا » وفي بعض البلاد الإفريقية . وكان هَمُّ الحلم العلماني في «تركيا» تفريغ اللغة التركية من الكلمات العربية التي تشغل منها حيزا كبيرا ، لتوضع موضعها كلمات لاتينية ، بدعوي أنها كلمات عالمية ! وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحاؤها في نفس كل مسلم ، كما أنها تذكر أبدا بالقرآن والإسلام ، وتؤكد دائما روابط الإخوة الإسلامية .

ويستعرض الدكتور القرضاوي خصائص الثقافة العربية فيما يلي :

١- الربانية : بمعني أن الوحدانية الخالصة والتوحيد الخالص نجدهما في شعرها ونثرها وعلمها وفلسفتها ومختلف أوجه فكرها وفنها .

٢- الأخلاقية : كانت الأخلاق النبيلة مثل الكرم والشجاعة وما شابه ذلك من القيم القديمة عند العرب قبل الإسلام . ثم جاء الإسلام فعمق هذه القيم ووسع دائرتها وربطها بأهداف أرحب وأرقي . ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء في الدنيا والآخرة . ولا تعترف الثقافة العربية الإسلامية بتجزأة الأخلاق . أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخري لغير المسلمين . فالخير خير للجميع والشر شر علي الجميع . ولا تعترف بأن الغاية تبرر الوسيلة .

٣- الإنسانية : من خصائص هذه الثقافة احترام الإنسان ورعايته ورعاية كرامته وحقوق الإنسان، فهي تقوم علي اعتبار أن الإنسان مخلوق مكرم من ربه لقوله تعالي في القرآن الكريم : { ولقد كرمنا بني آدم } (سورة الإسراء آية ٧٠) لذلك فالثقافة العربية الإسلامية تقوم علي تكريم الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو موطنه أو طبقته.

٤- العالمية : وما دامت ثقافة لكل إنسان فهي ثقافة عالمية المنزع والوجهة . وهذا ما حدث في بناء الحضارة الإسلامية لقد اشترك فيها عرب وعجم ومسلمون ونصاري ويهود .

٥- التسامح : من أهم وأقوي دلائل التسامح هو الاعتراف بالآخر ، بمعني أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالي وبحكمته .

٦- التنوع : من خصائص هذه الثقافة (التنوع) ، فهي ليست ثقافة دينية « لا هوتية » ، بل هي ثقافة واسعة متنوعة فيها الدين بفروعه وعلومه واللغة والأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية

والرياضية والإنسانية والفنون المختلفة .

٧- الوسطية : يكمل خصيصة التنوع خصيصة أخري هي الوسطية أو التوازن . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط للأمة ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها .

٨- التكامل : التكامل فيما بين جوانبها والتكامل مع الثقافات الأخري . فهي لا تدعي أنها تنشئ كل شيء من الصفر ، بل إن النصوص القرآنية تبين أن المؤمن هو كل من آمن بالرسالات السابقة علي محمد وأن شرط إسلامه هو الإيمان بالرسالات السابقة . لذلك كان طبيعيا أن يقتبس المسلم الحكمة والعلم النافع من أي وعاء خرجت وحيثما كانت .

ومن صور تكامل جوانبها المختلفة أن الثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية . وهي تغذي الثقافة الإنسانية . وكل ذلك تستفيد منه الثقافة العلمية .

وعندما تناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية تحديد الأهداف ، والمبادئ الأساسية لها ، استقت هذه الأهداف والمبادئ في طابعها المثالي من خمس منابع هي التي أملتها :

* الإسلام بوصفه دين الله القويم ، ودين الحياة للناس تشريعا وقيما وفكرا .

* الهوية الحضارية في قيمتها الثابتة وتراثها عبر التاريخ : بوصفها عنصر التميز للثقافة العربية بين الثقافات العالمية .

* حاجات المجتمع العربي المعاصر والمقبل بوصفها أكثر الضرورات إلحاحا في التنمية وأقوي الدواعي إلي التجديد الثقافي والتحديث .

* تحديات المستقبل المتمثل في التطورات العالمية معارف وعلما وتقنية ومشاركة في العطاء الإنساني .

* دفع الجمود والعدوان سواء جاء من قوي محلية أم من الاستعمار والصهيونية .

وترتبط الأهداف مع المبادئ من جهة ، ومع هذه المنابع من جهة أخري ارتباطا عميقا متينا لتشكل مجموعة أيدلوجية واحدة متماسكة العري، وليترتب عليها عدد من المنطلقات والسياسات الثقافية والقطاعية [١] .

وهكذا نري أن الركن الثاني من أركان الأساس الفلسفي والفكري والعقدي لاستراتيجية المواجهة هو التحديد الواضح لهوية الثقافة العربية .

أما الركن الثالث فهو الوحدة الوطنية . وما أكثر الشواهد التي تؤكد العلاقة العضوية بين الوحدة الوطنية والأساس الاستراتيجي لمواجهة الغزو الثقافي . ولو تأملنا ذلك التحليل التاريخي لتبين لنا عمق الرابطة .

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) - المجلد الثاني - صـ٢١ .

يقول الدكتور يونان لبيب رزق :

إن المصريين استقبلوا انتشار النشاط التبشيري الذي واكب الاحتكاك الأوربي بمصر في أواخر القرن الثامن عشر بمنتهي الحساسية ، وبرغم ذلك كان اتهام الغرب للمصريين بالتعصب. ويمضي الدكتور يونان [1] قائلا :

« ومعلوم أن لبنان ومصر كانتا أولي البلاد العربية التي عرفت النشاط التبشيري ، غير أنه لما كان قد حدث في الأولي بالأساس داخل المجتمع الماروني . ذي العلاقة الضاربة مع أوربا فإنه لم يثر من ردود ما أثاره في مصر .

ويلفت النظر هنا أن رد الفعل لم يقتصر علي المسلمين بل امتد أيضا إلي الأقباط ، ويروي لنا القس واطسون أحد رجال الإرسالية الأمريكية في مصر ، واقعتين تدللان علي هذه الحقيقة في كتابه تحت عنوان « الإرسالية الأمريكية في مصر ١٨٥٤ - ١٨٩٦ » .

الواقعة الأولي اتهم فيها الأقباط بالتعصب والذي تطور ، كما قال ، إلي « صدام مكشوف عام ١٨٦٥ عندما أرسل جون هوج (مبشر أمريكي) لإنشاء مركز دائم في أسيوط، فذهب أحد المطارنة الأقباط إلي المدينة محذرا من الهراطقة أصحاب البدع وتعاليمهم » .

الواقعة الثانية اتهم فيها المسلمين حين أشار إلي حادثة جرت عام ١٨٦١ قال عنها إن «المتعصبين المسلمين » قد قبضوا علي وكيل الإرسالية الأمريكية في أسيوط بتهمة محاولة إغراء سيدة مسلمة علي اعتناق المسيحية ، ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القنصل الأمريكي . »

هذه الوقائع التاريخية الثابتة تبين لنا أن الغزو الثقافي الأمريكي والأوربي لمجتمعاتنا العربية كان شاملا للمسلمين والمسيحيين . وهذا ما يؤكد أساس استراتيجية المواجهة في كونها تحشد وحدتها الوطنية والقومية . فالمسلم العربي المصري يشترك مع المسيحي العربي المصري في الإيمان بالله ثم بوحدة العروبة وبرابطة العروبة ثم بالتساوي الكامل في المواطنة . وتبقي حوادث التاريخ شاهدا علي أن الغزو الغربي لا يصيب طائفة منهم خاصة سواء كان عسكريا أو ثقافيا .

ب) الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي :

في هذا الأساس تقوم الأعمدة الثلاثة التخطيط والتطبيق والتنفيذ متلاحمة ومترابطة ، ولكن يستقل كل عمود من الأعمدة الثلاثة بشيء من الاستقلال ، وهي تختلف في طبيعتها عن التوازي الذي يشكل طبيعة الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي، فهذه الثلاثية متوازية ومتوحدة وأي منها يعني الآخر أو يعني الآخرين .

ومفهوم الخطة يشير إلي التنظيمات والترتيبات التي سبق تحديدها والتي تسعي إلي تحقيق

---

(١) د. يونان لبيب رزق - ملف الإرهاب - قراءة عربية - المتعصبون - مجلة المصور بتاريخ ١٥ / ٥ / ١٩٩٢ ص٢٨ .

أهداف معينة ومحددة . ومن هذا المفهوم لمصطلح الخطة نجد أنه يتضمن عنصرين أساسيين : العنصر الأول هو وجود أهداف معينة محددة تسعي الخطة لتحقيقها ، والعنصر الثاني هو وجود تنظيمات وترتيبات تم اختيارها وتقررت لتحقيق الهدف .

والتخطيط الثقافي لمواجهة الغزو الثقافي وتنمية الاتصال الثقافي يعني حصر الواقع القومي ومعرفته ثم تحديد الأهداف ثم اختيار أنسب الوسائل لتحقيقها ثم متابعة ذلك وتقييمه بين الحين والآخر ، حتي يمكن التأكد من سلامة تحقيق الخطة لأهدافها ، وحتي يمكن إجراء التعديل إذا لزم الأمر واستجدت ظروف لم تكن في الحسبان ، وحتي يمكن وضع خطط جديدة متتابعة مستمرة .

في المجال الثقافي العربي يحدث التخطيط علي مستويات متعددة . فردية ، ومحلية ، ووطنية، وقومية . وفي مجال الغزو الثقافي تعد الخطط القومية الأولي بالرعاية والاستبصار والأخذ منها للخطط المحلية وخطط المؤسسات بل وخطط الأفراد .

وعندما ننتقل إلي الجهود القومية لتحديد الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي بصفة خاصة لحماية الثقافة العربية بصفة عامة ، نجد جهود جامعة الدول العربية تمثل جهودا متوالية متصلة الحلقات عبر ما يقرب من نصف قرن من الزمان هو عمر الجامعة .

منذ تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ودور الثقافة حاضر في أروقتها . وكانت إدارة الثقافة من أبرز إداراتها منذ التأسيس . بل إن الاتفاق الثقافي العربي كان أول اتفاق وَقِّع في تاريخ جامعة الدول العربية . وعقدت عشرة مؤتمرات للثقافة العربية فيما بين عامي ١٩٤٧م و ١٩٧٠ م . وأنشأت الجامعة مؤسسات ثقافية علي المستوي القومي أهمها معهد المخطوطات العربية عام ١٩٥١ م ، ومعهد الدراسات العربية العليا عام ١٩٥٤م .

وفي عام ١٩٦٤ م وُقِّع ميثاق الوحدة الثقافية العربية . وفي عام ١٩٧٠م أنشأت الجامعة العربية منظمة متخصصة للثقافة هي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وضمت إليها المؤسسات المرتبطة بالعمل الثقافي في جامعة الدول العربية ، وهي الإدارة الثقافية ، ومعهد المخطوات العربية ، ومعهد الدراسات العربية العليا . وأوكلت إلي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مهمة العمل علي تنفيذ ميثاق الوحدة الثقافية العربية .

وكان مؤتمر الوزراء العرب المسئولين عن الثقافة في الدول العربية عام ١٩٧٦ م والذي تضمن بيانه مسلمات ومبادئ وتوصيات تتعلق بالثقافة العربية ، خطوة متقدمة للنشاط الثقافي لجامعة الدول العربية . وكان هذا المؤتمر تمهيدا لظهور الخطة الشاملة للثقافة العربية عام ١٩٨٦م.

والخطة الشاملة للثقافة العربية التي صدرت في عدة مجلدات تحوي التقرير النهائي للجهد الجماعي الذي قامت به لجنة مختارة للإعداد ، كما تحوي البحوث التي كتبها متخصصون في جوانب الثقافة العربية المعاصرة ، وتحوي أيضا الندوات والحلقات البحثية حول الجوانب المعاصرة

للثقافة العربية .

اختص المجلد الأول من الخطة بدراسة شاملة حول مبررات الخطة ، ومنهجها ، وتبويبها ، وأسس عملها ووسائلة . والهوية الثقافية العربية ، باعتبار الثقافة مستودع الهوية والأصالة القومية. والقيم العربية الإسلامية التي تتميز بها الثقافة العربية . والهوية الثقافية العربية في العصر الحديث . وكان المجلد الثاني عن التوصيات وعن المبادئ الأساسية للخطة .أما المجلد الثالث فهو أضخم مجلدات الخطة ، وقد طبع في ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يزيد عن المجلد الأول أو المجلد الثاني . وفي الأجزاء الثلاثة من المجلد الثالث طبعت البحوث والندوات .

والخطة الشاملة للثقافة العربية مصدر للمشتغلين بالثقافة العربية فياضا وموحيا ومباشرا برغم التحفظات والنقد الذي لابد منه في مثل هذا العمل الجماعي الكبير . وحبذا لو نشرت المقالات التي تناولت الخطة بالنقد في طبعاتها القادمة . وأهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الأساس هو أهداف الخطة ، فقد حددت الخطة الشاملة للثقافة العربية [1] أهدافها في ستة أهداف رئيسية هي :

* إغناء شخصية المواطن العربي لتأكيد وعيه بعقيدته وبذاته وبحريته وكرامته ، وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر ، والمشاركة الفعالة فيه . إن الإنسان يأخذ من الثقافة ويفيد منها بقدر غناه الداخلي بعناصرها ، ويعطي منها بقدر قواه الإبداعية ، وهذان الأخذ والعطاء هما أساس الحيوية الثقافية للأمة .
* تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي بوصفها ركن البناء الحضاري، فالثقافة ليست كيانا مغلقا على ذاته بل هي تفاعل دائم مع ما يحيط بها . والعلاقة بين الثقافة والاقتصاد والاجتماع تجعل الثقافة مؤثرة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع ، متأثرة بها ، في دورة متصلة من التأثر والتأثير .
* إبراز الهوية الحضارية العربية الإسلامية ، وتنميتها والمحافظة عليها بوصف الثقافة مستودع الأصالة . فالتراث الثقافي العربي الإسلامي كنز واسع من الخبرات والقيم والعطاء الحضاري والمادي والمعنوي المكتوب والشفوي ، كما أنه الأساس الذي تقوم عليه الهوية الثقافية للأمة، والجذر الذي يغطي طاقاتها الإبداعية ، وثقتها بنفسها ، ويلهم تطورات المستقبل . إن الشخصية الأساسية للأمة إنما تكمن وترتسم كل خطوطها في التراث الذي يجب أن يكون واقعًا متفاعلاً لا ماضيا متحجراً ، وقوة دفع لا قوة جذب ، ومصدر ثقة لا نموذج تقليد .
* تأكيد الوحدة بين أقاليم الوطن العربي ، وزيادة أواصرها . فالثقافة العربية هي النسيج المكون لرابطة التآخي بين العرب ، وهي السند المرجعي فيها ، ولولاها دينا ولغة وتاريخا وآمالا لكان الوطن العربي أجزاء متفرقة وكان له مصير آخر .

* التحرر القومي بوصف الثقافة عنصراً للتبعية والاستلاب والتشويه ، بقدر ما هي عنصر بناء وإبداع وتأكيد للهوية ، فالكوارث التي أخذت تنهال علي الأمة العربية وبخاصة في العقود الأخيرة مع الغزو الصهيوني جعلت من الثقافة الحصن الأخير للدفاع وجعلت الأمن الثقافي بين الأوليات الأساسية في الاهتمام .

* تنمية العطاء الحضاري قوميا وإنسانيا بوصف الثقافة مصدر إبداع وعطاء وسبيل تعاون مع مختلف الثقافات العالمية . وما من أمة تستطيع العيش في هذا العصر في عزلة حضارية . والأخذ والعطاء هما سمة هذا العصر الحديث وقانونه أكثر من أي عصر مضي ، لاتساع وسائلهما وقيام الحاجة إليهما .

هذه الأهداف الرئيسية للخطة لحقت بها المبادئ الأساسية التي توجه هذه الخطة . وهي علي النحو التالي :

١- تقوم الخطة الشاملة للثقافة العربية علي مجموعة من المبادئ تعتبر بمثابة الأسس والأركان لها ، وهي رغم تشعبها وشمولها مناحي شتي من الحياة مبادئ متلازمة بعضها مع بعض. تشكل في مجموعها إطاراً فكريا للخطة المقترحة .

أولاً : إن الثقافة هي من إبداع الشعب الذي ترتبط به وتعود إليه . وحياة الشعب هي المنبع الأساسي لكل إبداع ثقافي ولكل استمتاع . وهي تستمد قوتها وإبداعها ، وتطورها المستمر ، من الحياة النابضة بالحيوية للمبدعين فيها . كما تستمدها من إدراك المستفيدين والمتمتعين بها . وكلما زاد التجاوب بين الطرفين عمقًا وسعة وتفاعلاً كان ذلك من دلائل الأصالة، والارتباط بالثروة الثقافية الموروثة ، وبالهوية الثقافية وبنموها وتجددها .

ثانيًا : إن الثقافة هي ما يميز أمة من غيرها ، لذا فإن تنمية الثقافة العربية تنمية تميز أبناءها والعاملين عليها وتعطيها دورها الخاص في النشاط القومي والإنساني هو أحد المبادئ التي تقوم عليها الخطة .

ثالثا : حق الإنسان في اكتساب الثقافة ، وفي حرية التعبير عنها ، والتمتع بها . وهذا يعني تفتيح الآفاق للمبدعين ، والالتزام بنشر إنتاجهم للجماهير الواسعة ، فلا منة في العملية الأولي ، ولا تكرُم المتفضّل في الثانية .

رابعًا : إن عملية التخطيط التنموي عملية متكاملة شاملة، وهذا يعني أن الثقافة بعد أساسي من أبعاد التنمية ، وعلي علاقة تأثير متبادل وعضوي مع نواحي التنمية الأخري . ولا يتم تطوير البني الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلي تخطيط ثقافي جذري يحدد طرق العمل ووسائله، كما يحدد الأهداف المستقبلية للأمة .

خامسًا : إن التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية والنبع الأصيل فيها عقيدة وقيمًا وتشريعًا ، وهو الذي يميزها عن غيرها من الثقافات الإنسانية . وإذا

كان تراث الإسلام هو أهم ما تمخضت عنه العبقرية العربية وأعظمها ، فالإسلام بدوره قد منح العروبة وجهها الخاص بين الثقافات الأخري ، ومكنها من العطاء ، ومن العالمية في السمات.

سادسًا : إن الصلة بين اللغة العربية والفكر الإسلامي تفوق كل صلة بين أية لغة وأي تفكير تعبر عنه تلك اللغة . ذلك أن الجزء الأساسي في الدين الإسلامي لا يقع سليمًا دينيًا إلاَّ إذا أُدِّيَ باللغة العربية . وفي مقدمة ذلك العبادات ، والقرآن الذي أُنزل بلسان عربي مبين ، والذي لا يمكن أن تكون ترجمته هي القرآن المتعبد بكلماته . وهكذا فإنَّ الفكر الإسلامي هو قوام رئيس للثقافة العربية ، أثَّر في كل اتجاهاتها الفكرية من الفلسفة إلي الطب والفلك ، وفي ألوانها الفنية من العمارة إلي الزخرفة وفي أنواعها الأدبية من الشعر إلي المقامة .

وقد كان للعلماء المسلمين ، من كل الجنسيات ، وما يزال عطاؤهم في أركان المعمورة في كل المجالات . وهذا العطاء يصب في النهاية في الثقافة العربية ، ويزيد في خصبهاو عالميتها .

وتراث الإسلام ، وإن كان تراثًا مشتركًا لعدد من الشعوب الإسلامية ، إلاَّ أنه في الدرجة الأولي تراث عربي مشترك لكل من آمن به ، أو أسهم فيه ، أو تبناه من أبناء العروبة ، أيًا كان أصله ، أو انتماؤه الديني ، أو تعبيره اللغوي المحلي .

٢- يبقي بعد هذا أن نضيف خمسة مبادئ أساسية أخري :

أولها : ديمقراطية الثقافة . وتعني الحق الإنساني في المشاركة الفردية والجماهيرية الواسعة علي السواء ، في مجالي إنتاج الثقافة والإفادة منها ، باعتبار أنها إمكان في الإبداع مفتوح للجميع وغذاء مباح للجميع . وفي تراث المجتمع العربي وتقاليده ما يؤكد حرصه علي أن تكون الثقافة جهداً يقوم علي المشاركة الجماعية ، في مجالي إنتاجها ، والإفادة منها . ولا يكفي إيصال الإنتاج الثقافي إلي المواطنين ، بل من الخير تمكينهم من إبداء رأيهم فيما يقدم إليهم منه ، إغناء للثقافة ذاتها .

إن ديمقراطية الثقافة شرط أساسي من شروطها سواء في الإبداع الذي لا تضمنه إلاَّ الحرية الكاملة في التعبير ، أم في الاستمتاع الذي تتساوي فيه فرص التمتع بالثقافة دون تميز في العرق أو الجنس أو اللغة أو المكانة الاجتماعية . غير أن ديمقراطية الثقافة وحريتها تحتملان الكثير من التعقيد عند التطبيق ، لأن رسم الحدود بينها وبين القيود التي لابد من وجودها حولها ، أي الجمع بين مبدأ الحرية وبين التقنين لها مشكلة تعترض كل الأنظمة العالمية ، وتشكل واحداً من همومها. ومازال تدخل الدولة في الثقافة يساء استغلاله بدرجات متفاوتة من بلد إلي آخر . وإذا كانت أنظمة الهيمنة الجماعية تسيطر علي المبدعين الثقافيين بحجة الحفاظ علي أهداف المجتمع وتيسر للجماهير ما تري أنه يخدم تلك الأهداف ، فالأمر في النظم الأخري قد ينتهي إلي ترك الثقافة للتسلط التجاري والربح . والوصول إلي الصيغة التي تجمع بين مزايا الحرية والقيد ، أمر لا زال الاختلاف حوله قائمًا ، ويصعب الحسم فيه . إلاَّ أن تحديد ما هو أساسي وجوهري في ثقافتنا يسهم في حل هذه المعضلة وفي ضمان الحرية الثقافية .

٣- ومن ناحية أخري فإن ديمقراطية الثقافة تعني ديمقراطية المجتمع كله . وتتطلب التفاعل الحر بين مختلف القوي الاجتماعية ، ويظل الأساس هو تشجيع العملية الإبداعية وتغذيتها علي أوسع نطاق ممكن ، وتشجيع عملية الانتفاع بأفضل الأنشطة الثقافية لأكبر عدد ، والمشاركة الجماهيرية في اتخاذ القرارات بشأن الحياة الثقافية ، والتوسع المستمر دون انقطاع في هذه العمليات الثلاث ، وهذا يتطلب ارتياد سبل جديدة للديمقراطية عن طريق تكافؤ الفرص في مجال التربية والتعليم والثقافة ، واللامركزية في النشاطات الثقافية جغرافيًا وإداريًا .

ثم إن من العقبات في مجال ديمقراطية الثقافية ما يكمن في النزعة البيروقراطية التي قد تسيطر علي العمل الثقافي فتعزله عن اهتمام الجماهير ، كما تكمن في احتكاره .

٤- المبدأ الثاني الأساسي هو :

قومية الثقافة : فالثقافة تراث قومي قبل أن يكون إنسانيًا ، وإبداعها عطاء قومي بالإضافة إلي أنه إنساني ، وقومية الثقافة تعني أولاً العطاء علي المستوي القومي والنشر الثقافي علي المستوي نفسه أيضًا ، كما تعني ثانيًا التكامل بين الأقطار العربية فالتكامل يسمح بالتنوع، وتعدد الألوان الثقافية وتساندها ، كما أن التكافل يفتح آفاقا لنقل الخبرات وإغنائها ، وللتعاون في البناء الثقافي الموحد . وأخيراً فإن قومية الثقافة تعني أن الثقافة العربية واحدة موحدة ، وأن لغتها هي العربية ، وإن تراثها هو ذلك التراث العريق الأصيل الموروث الذي يجده كل عربي في داخل ذاته ، بشكل عفوي .

٥- علي أن قومية المعرفة والثقافة لا تكون كاملة إلاَّ بالتكافل القومي العربي ، أخذاً وعطاء، لتنمية الثروة البشرية العربية ، وتكوين القدرة العربية العامة . ويبرز ذلك بخاصة في ثلاثة مجالات ذات شأن خاص بالنسبة للثقافة العربية :

أ) في مجال حقوق المواطنة القومية وواجباتها . وهو حق يتصل بحق الأطفال العرب وواجبهم في التعليم الأساسي ، وحق الأميين في أبجديتهم ، وتأهيلهم وتحويلهم من أرقام سكانية ، إلي قوي اجتماعية منتجة ومشاركة . وهذا يعني مشاركة رأس المال العربي المادي في إعداد رأس المال العربي البشري ، باستكمال القدرات القطرية العربية علي مواجهة استيعاب المستحقين للتعليم .

ب) في مجال إعداد القدرات العلمية والفكرية : بتأمين الدراسات العليا وتكوين الباحثين العلميين في إطار قومي ، لإيجاد القدرات العربية الذاتية في مجال العلوم والتقنيات ، وتأصيل القيم وإبداعها . وذلك :

- بتكوين القياديين ضمن المناخ العربي في جامعة عربية للدراسات العليا والبحوث ، فإنشاؤها تجسيد لقومية المعرفة .

- بتدريس التعليم العالي بالعربية فإن ذلك يوصل العلم والتقنية في هذه اللغة تعليمًا وفهمًا

وإنتاجًا وبحثًا ويسمح لها بالتطور .

- بتدبير الأسباب الدافعة لهجرة الكفايات وإدماجها ضمن تيار التنمية القومية الشاملة .

جـ) في مجال دعم اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية : ومع أن هذا التوجيه القائم علي مستويات مختلفة في المشاريع القطرية وفي الممارسات العلمية إلاً أنه يحتاج إلي إرادة جماعية تتمثل في خطة قومية شاملة . ويحمد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنها أنشأت جهازاً متخصصا لهذه المهمة القومية ، هو « جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية » وأقامت له صندوقًا خاصًا ، وجعلت له مجلس أمناء ومجلس إدارة يسهران علي وضع مشروعات نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية خارج الوطن العربي، يتم تمويلها بإسهام عربي طوعي من كل حكومة أو هيئة أو مؤسسة أو شخص قادر علي ذلك . كما يحمد للمنظمة العربية أنها أنشأت مؤسسة الموسوعة العربية التي ستصدر موسوعة تتيح للقارئ أن يطلع علي ما توصل إليه الفكر الإنساني في جميع حقول المعرفة ، قديمها وحديثها ، بلغة عربية مبينة .

٦- ولا تعني قومية الثقافة في كل هذا أي مفهوم عربي، أو تعصب أعمي ، أو تعال علي الشعوب الأخري ، وإنما تعني العنصر الثقافي التعبيري المميز لهذه الثقافة والذي كان وما يزال- يجمع شتات الأمة ؛ ويحدد ذاتيتها ، ويشكل هويتها الحضارية التي تميزها عن غيرها من الأمم .

إن قومية الثقافة لا تنفي تعدد الأصول المكونة للأمة ، أو تنويع اللهجات اللغوية ، أو طرق التعبير للمشاركين فيها ، ولكن تعني أن الدائرة الثقافية العربية هي التي تجمع الجميع وتوحدهم ، كما تعني أنها تعتبر أصحاب هذه الأصول أو اللهجات بعضًا من مصادر الغني والخصب فيها . وتعتبر نفسها المعبر عن إنتاجهم تجاه الثقافات الأخري .

٧- المبدأ الثالث هو :

تحديث الثقافة : بمعني الارتباط بتطورات اليوم والغد ، واستيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته عربيًا وعالميًا في التحديث والانفتاح مع الحفاظ علي الأصالة والهوية الحضارية العربية والقيم الروحية والفكرية للأمة . بمعني أن التراث لا يجب أن يكون قيداً ، ولا يمكن أن يكون. وثمة ثوابت في التراث الثقافي وثمة متغيرات . وتحديد الثابت والمتغير وإن كان مهمة صعبة إلا أنه مهمة دائمة عبر العصور لكل ثقافة ، كما أنه مهمة واجهتها جميع الثقافات المتجددة وانتصرت عليها . إن ذلك وحده يثبت حيوية الأمة وأصالة إبداعها الثقافي .

ومن جهة أخري، فإن التراث نفسه في تغير دائم مستمر ولا سيما التراث الشفهي منه والتصويري والموسيقي والحرفي واللهجات اللغوية وأساليب الأدب والفكر وأذواق الجمال . وهكذا

٨- والتحديث ليس صفة تلصق بالثقافة ، ولا مجرد نقل للأشياء أو الطرائق أو التيارات الحديثة، ولكنه دخول بها في ضمير العصر ، وتجاوب مع مدّه وجزره وأجوائه ، وإبداع يأخذ الزمن بعين الاعتبار ، كما يستفيد من تراكم المعرفة الهائل في توسيع الآفاق ، ومن تقدم التقنية في الوسائل الإبداعية .

٩- ومشكلة التحديث تثير أمام الثقافة العربية (والثقافات العريقة الأخري مثلها) مسألة إثراء ذاتها بالعلم والتقنية ، دون التضحية بشخصيتها الخاصة . فثمة فجوة تزداد اتساعًا وعمقًا باطراد بين وتيرة التسارع التحديثي في هذه الثقافات ، وبين وتيرة التقدم العلمي التقني المتزايدة في السرعة . وردم هذه الفجوة هو اليوم من أكثر الحاجات إلحاحًا علي الثقافات العريقة . كما أن التخطيط لردمها هو من أبرز مشاكل العصر الحديث . لأن هذا التخطيط يجب أن يتصدي للمهمة الصعبة في إقامة التوازن بين التأثر والأصالة ، بالعمل علي استيعاب التطورات التقنية جميعًا علي أسس إبداعية لا تقليدية ، وبأن يحقق التحولات الثقافية ، من خلال السمات القومية المميزة ، وأن يأخذ بعين الاعتبار الحدود الحرجة القائمة بين الاقتباس والتبعية ، وبين اكتساب الأسس المعينة والحفاظ علي الهوية الثقافية .

١٠- المبدأ الرابع هو :

عالمية الثقافية : بمعني أن الثقافة العربية متفاعلة مع الثقافات الأخري وتشارك المشاركة الإيجابية المتفتحة أخذاً وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية . فالشعوب كانت ولا تزال تستعير بعضها من بعض ، ويغني بعضها بعضًا بالتبادل . وقد كان ذلك علي الدوام من تقاليد الفكر العربي . وثقافة الغد لأي أمة لا يمكن أن تكون إلاَّ ثقافة مولدة تستمد عناصر كثيرة فيها من الثقافات الأخري في الوقت الذي تحتفظ بسماتها الخاصة وهذا هو المعني الجديد للعالمية الثقافية، فهي لا تعني الثقافة الواحدية النمطية ولكن عالمية الأفكار ، والأسس ، وتنوع السمات والتعبير والوسائل .

وقبول عالمية التأثر والتأثير لا يعني التبعية الفكرية ، كما يرفض الاستلاب ، والحتواء ، والتغريب ، ومظاهر الخنق الثقافي ، التي تقوم بها القوي الاستعمارية الحديثة أو الصهيونية في فلسطين .

١١- أما المبدأ الخامس هو :

إنسانية الثقافة : بمعني أن للثقافة العربية خصائص ومثلاً وقيمًا وآفاقًا إنسانية متفردة ، تجري فيها مجري العناصر المكونة ، فالأخوة ، والعدل ، والمساواة ، والسلام ، والحرية ، وحق العلم ، والتسامح ، والتكافل ، واحترام العقل ، وكرامة الإنسان والتفكير في الكون ، ورفض الظلم والعدوان ، بديهيات أساسية في ذاتيتنا الثقافية ، وفي تراثنا الروحي والفكري .

وهذه العناصر الإنسانية ، قادرة علي الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد . ذلك أن التحديات التي تشكل أزمة العالم المعاصر ، وتثير الكثير من قلقه ليست اقتصادية أو سياسية

فحسب ولكنها إلي ذلك تحديات ثقافية ، لأن التوترات والحروب تنشأ أولاً في الأفكار والرؤوس، وتزول أول ما تزول منها ، ولأن الأزمة في داخلنا ، فإن باستطاعتنا وضع حد لها ، وتحويل قيمنا الفكرية إلي مذهب إنساني شامل رشيد ، يقوم علي الإقرار بوحدة البشرية ، في إطار تعدد شعوبها وثقافاتها ، وعلي مبادئ المساواة والحرية والتكافل ، وعلي إرادة التعايش المشترك ، والتضافر لصياغة المصير البشري الواحد .

من مجمل أهداف الخطة ومجمل المبادئ العامة التي توجهها يمكن علي المستوي القطري تحديد أهداف الخطط الوطنية للبلدان العربية . كما يمكن وضع إطار لمناقشة الخطط الثقافية المحلية، والسياسات الثقافية القطرية . ولقد نظر الباحث المصري السيد يسين [1] نظرة إيجابية إلي الجهد الجماعي العربي في الخطة الشاملة للثقافة العربية ، واجتهد في أن يصوغ للواقع الثقافي المصري نظرة تخطيطية للسياسة الثقافية . قائلا إن مهمة الدولة في مجال صياغة نظرية لتخطيط السياسة الثقافية ليست هينة ولا ميسورة . فنحن نحتاج - من خلال حوار فكري واسع المدي - إلي صياغة إجماع قومي حول طبيعة الدولة وأهداف المجتمع وهذا الحوار ينبغي في تقديرنا أن ينطلق من مجموعة مسلمات تكاد تكون هي المنطلقات التي بنيت عليها الخطة الشاملة للثقافة العربية :

١- حق الإنسان في اكتساب الثقافة وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها .

٢- عملية التخطيط التنموي عملية شاملة والثقافة بعد أساسي من أبعاد التنمية الشاملة .

٣- التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية غير أن ذلك لا يعني إهمال جوانب التراث المصري الأخري فالتراث الفرعوني والتراث القبطي من المكونات الأساسية للتراث المصري .

٤- ديمقراطية الثقافة أي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجالي إنتاج الثقافة والإفادة منها .

٥- قومية الثقافة ونعني بذلك أن الثقافة العربية واحدة وموحدة .

٦- عصرية الثقافة بمعني تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية واستيعاب تيارات العصر.

٧- إنسانية الثقافة بمعني إن للثقافة العربية خصائص ومثلا وقيما وآفاقا قادرة علي الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد .

٨- عالمية الثقافة وهذا يعني متابعة تقاليد الفكر العربي في التفاعل مع الثقافات الأخري والمشاركة الإيجابية المنفتحة أخذا وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية .

---

(١) السيد يسين - نحو نظرية لتخطيط السياسة الثقافية - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ - ١١ - ١٩٨٧ .

٩- مسئولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحر » .

ولم تقصر الجامعة العربية في مجال الثقافة الإسلامية ، ولا في مجال الإعلام الإسلامي بإسهامها المتواصل . لقد قدمت جامعة الدول العربية ورقة عمل للمؤتمر الأول للإعلام الإسلامي بجاكرتا (شوال ١٤٠٠ هـ سبتمبر ١٩٨٠ م) ذكرت فيها أن الإعلام الإسلامي ينبغي أن يتناول ثلاثة محاور أساسية وهي :

١- التعريف بالقيم والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام ، وتقديم النماذج الإسلامية في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه الحضاري ، وما يميزه بشكل واضح يعين علي الفهم والرؤية ، والمساهمة الفعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية علي ضوء الإسلام وبِهَدْي مِنْ تعاليمه السمحة.

٢- دراسة واقعنا الإسلامي بصورة موضوعية ، وتحليل العوامل التي أدت بالمجتمعات الإسلامية إلي القعود والضعف والتخلف ، وتحديد منطلقات الدفع لتصحيح مسار الأمة الإسلامية إلي الأصالة والتجديد والقوة والعطاء .

٣- التعمق في دراسة التحديات الحضارية المعاصرة للإسلام وللأمة الإسلامية ، والتصدي في منهجية للحملات الإعلامية المعادية والمغرضة وبالخصوص في القضايا السياسية والدينية .

كما قدمت مقترحات للنهوض بالإعلام الإسلامي علي النحو التالي :

- شمول النظرة في العناية بالإعلام المقروء من صحف ونشرات ومجلات وكتب ، وبالإعلام المرئي والمسموع من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح ورسوم ، ونشرها في العالم الإسلامي علي أوسع نطاق .

- شمول الإعلام الإسلامي للأقليات الإسلامية في مختلف الأقطار غير الإسلامية وبمختلف اللغات الحية ولغات العالم الإسلامي ، ومزيد العناية بهم ، وإعداد برامج إذاعية لهم ، وإمدادهم بما يحتاجون إليه من كتب دينية ملائمة .

- تكوين مراكز ومعاهد عليا للإعلام الإسلامي يتخرج فيها متخصصون إعلاميون في أعلي مستوي علمي وفني وتكنولوجي ، وتشجيع البحوث والدراسات في رسائل الدرجات العلمية بالجامعات في مجال الإعلام الإسلامي ، وذلك بالتعاون مع وزارات الإعلام والثقافة والتعليم.

- رصد الجوائز المشجعة للإنتاج الإعلامي المتفوق في مختلف فروع الثقافة الإسلامية ، توفيرا للمادة الإسلامية الإعلامية المتفتحة في مختلف المجالات بما في ذلك مجال الترفيه .

- إنشاء منظمة علمية للإعلام الإسلامي تكون مصدر إشعاع وتشريع وتوجيه ، وتنبثق منها مؤسسات إعلامية مع دعم الوكالات الإسلامية للأنباء .

- نشر الإعلام الإسلامي في العالم علي أوسع نطاق ممكن ، حتي لا يبقي منغلقا علي نفسه ،

وحتي لا يوسم بالتزمت والانعزالية وتطعيمه دوما بالثقافات المعاصرة التي لا تصادم مبادئ الإسلام ولا تخالف أصوله .

- وضع ميثاق الشرف للإعلام الإسلامي علي أسس قومية ، وفي مرونة تساعد علي التطبيق ، وتسمح باجتلاب أكبر عدد ممكن من الأقطار الإسلامية ، وإن اختلفت مذاهبها ، ونظمها السياسية والاجتماعية عملا بمبدأ التقريب بين المسلمين ، وضمانا لنجاح الميثاق في أهدافه العليا وغاياته الأساسية .

ولقد وضعت منظمة إذاعات الدول الإسلامية تصورا للقضايا والموضوعات التي يمكن للاستراتيجية الإعلامية الإسلامية أن تطرحها علي النحو التالي :

١- تحديد الأهداف الكبري الرئيسية لأجهزة الإعلام الإسلامية .

٢- تصحيح النظرة إلي الإسلام وتنقية الفكر الإسلامي مما علق به من شوائب .

٣- المساهمة مع الأجهزة والمؤسسات المعنية في العمل علي إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، والتعريف به بعد تخليصه من التشويه والتحريف .

٤- تسليط الأضواء علي المعطيات الحضارية والثقافية والإنسانية للإسلام ، وتوظيف قيمه في بناء الإنسان المسلم .

٥- إبراز عطاء الإسلام للحضارة الإنسانية واستمرارية قدرته علي ذلك .

٦- كشف إفلاس الحضارة الغربية بشقيها الغربي والشرقي .

٧- إظهار إمكانات الإسلام علي قيادة حركة الإنسان المسلم وترشيد مسيرة الإنسان المعاصر في عصر المعاناة والقلق والتمزق والذي لا مخرج منه - رغم التقدم المادي المذهل - إلا في ظل قيم الإسلام ومثله الإنسانية الرفيعة والواقعية . وفي ظل التوازن أو التعادلية التي تمثل سمة الإسلام . ومبادئ وتشريعات الإسلام .

٨- تعريف الشعوب الإسلامية ببعضها وتقوية وسائل الاتصال فيما بينها ، من خلال منظمة إذاعات الدول الإسلامية ووكالة الأنباء وكافة وسائل الاتصال ، فليس من المعقول أن يجهل المسلمون أحوال بعضهم ، أو تعرف الخرطوم أخبار كمبالا مثلا عن طريق لندن أو نيويورك أو موسكو ، وليس من المعقول أن تكون المسافة بين أي عاصمتين إسلاميتين أطول من نفس المسافة حين تمر بعاصمة أجنبية في أقصي المعمورة ، أو كما قيل بحق فإن المسافة من أي عاصمة أوروبية إلي أي عاصمة إسلامية أقصر دائما - من الناحية الإعلامية - من نفس المسافة في الطريق العكسي .

٩- مواجهة سيطرة الدول المتقدمة علي العملية الإعلامية وبصفة خاصة في النظام الحالي للاتصالات (صحافة - إذاعة - تليفزيون - وكالات) .

١٠- إنّ حق الإعلام أحد حقوق الإنسان ولابد من مواجهة الاختلال الرهيب في التوازن بين أخبار ومعلومات العالم المتقدم وبين أخبار ومعلومات الدول النامية ومنها الإسلامية ، ولقد نشر أن ثلاثة أرباع البشرية تقريبا وأغلبه في العالم الإسلامي لا يحظي بربع التغطية الإعلامية.

ولا يخفي آثار ذلك في التعتيم الإعلامي علي أنباء العالم الإسلامي وشعوبه وقضاياه ومشاكله وآماله ، مع تلوينها حسب الأهواء والمصالح الاستعمارية ، ومع تجاهل وتشويه أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية .

١١- لقد نقلت المنظمة في بيان لها في المؤتمر العاشر في فاس عن دراسة منشورة أن الدول المتقدمة تسيطر علي ٨٥ - ٩٠٪ من أصل الطيف للذبذبات الإذاعية ، ولا أمل في تحسن ذي قيمة في وقت قريب .

إن بعض الإذاعات المتقدمة فضلا عن ذلك تبث برامجها من أراضي دول نامية - بينها دول إسلامية - وبعضها إذاعات دينية موجهة ، لا بقصد خدمة أتباع تلك الديانات ، وإنما بقصد الغارة الثقافية والإعلامية التبشيرية الموجهة ضد العالم الإسلامي . وإذا كان نصف الدول الإسلامية لا يملك « تليفزيون » ، فإن برامج النصف الآخر تزدحم بنسب متفاوتة من برامج الدول المتقدمة بكافة آثارها السلبية الضارة .

١٢- ضرورة وضع خطة لمواجهة الغزو الثقافي الإعلامي .

١٣- ضرورة خدمة الثقافة والتراث الإسلامي من خلال الأعمال الفنية ، مع تنسيق إنتاجها وتنشيط تداولها تجاريا وتبادليا .

١٤- طرح عطاء الإسلام العقائدي في مواجهة الفلسفات والمذهبيات والنظم الاجتماعية من الشرق والغرب . وتأكيد دور الإعلام في بناء الشخصية المسلمة . والبناء الثقافي اللازم لانبعاث المسلمين ونهضتهم . بحيث تقدم مبادئ الإسلام الرئيسية مع إبراز إجمالها لما لايتغير وتفصيلها لما يتغير لتأكيد وتوضيح صلاحيتها لكل زمان ومكان . وهذه العقائدية هي التي يتوجه بها المسلمون إلي العالم ويتسلحون بها في ذات الوقت ، لمواجهة الغارة الإلحادية التبشيرية الصهيونية التي تستهدفه من كل الوجوده .

إن مثل هذه الجهود من جامعة الدول العربية ، ومن منظمة اتحاد إذاعات الدول الإسلامية، إلي جانب البحوث والدراسات التي تتعلق بهذا الموضوع يمكن أن تكون نواة لاستراتيجية إعلامية إسلامية خلال القرن الخامس عشر الهجري .

ولقد سكبت الأفكار العامة للتخطيط الثقافي العربي روحها في خطط الثقافة الإسلامية. لقد سبقت الخطة الشاملة للثقافة العربية شقيقتها الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي . وعند المقارنة بينهما نجد أنهما ينبعان من مشكاة واحدة ، حتي في علاقة غير المسلمين بالثقافة الإسلامية بحكم المواطنة في البلدان الإسلامية .

لقد أوصت اللجنة الدائمة للإعلام والشئون الثقافية المنعقدة في « دكار » عام ١٩٨٣ بأن تقوم المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد استراتيجية تربوية وثقافية للعالم الإسلامي. وقد أدرج المشروع ضمن خطة عمل المنظمة (١٩٨٥ - ١٩٨٨) وجدد إدراج المشروع في الخطة التالية (١٩٨٨ - ١٩٩١) . وقد استعانت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بعدد من الخبراء والمفكرين وأساتذة الجامعات من مختلف أرجاء العالم الإسلامي لإعداد الاستراتيجية. وتم إعدادها في مقدمة وخمسة فصول . تناول الفصل الأول تحديد المفاهيم والخصائص والمصادر ، بينما يختص الفصل الثاني بشرح الأهداف . وخصص الفصل الثالث لقضايا الثقافة الإسلامية . وتناول الفصل الرابع مجالات عمل الثقافة الإسلامية . ويختم الفصل الخامس الاستراتيجية بعرض وسائل التنفيذ .

« وعند تحليل أهداف الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي ، نجد أساس هذه الثقافة أنها إسلامية الروح والجوهر والمصدر ، حتي وإن كان العالم الإسلامي تسوده ثقافات متنوعة بعضها ليس إسلاميا . ذلك أن غير المسلمين في البلاد الإسلامية هم في حقيقة الأمر مسلمون ثقافة وحضارة . وكثير من حكماء غير المسلمين وعقلائهم يعبرون عن هذا الانتماء الإسلامي ، ويعتزون به علي رؤوس الأشهاد » [(١)] .

هذه النماذج من الترابط بين الخطط الثقافية والإعلامية علي المستويين العربي والإسلامي نجده أيضا في الأساس التطبيقي والتنفيذي . والمثل الذي يجلي الأساس التنفيذي للتخطيط الثقافي والإعلامي يتمثل في محاولة مخاطبة الرأي العام الخارجي . ومحاولة أن يكون للإعلام العربي مقعد في الساحة الدولية .

لقد وضعت ورقة عمل بشأن خطة عربية في عام ١٩٨٤ وكان مجالها الجامعة العربية .

وكانت ورقة عمل الخطة تحوي سلسلة أفكار قدمت من عدة دول عربية حول سبل مواجهة الإعلام المعادي علي الساحتين الأمريكية والأوروبية . وقد قدمت دولة قطر واحدة من أوراق العمل حول إنشاء مؤسسة إعلامية عربية مستقلة لمواجهة التحرك الإعلامي في أمريكا وأوروبا وأن تكون مكاتب الجامعة العربية في الخارج والسفارات العربية وجمعيات الصداقة العربية الأجنبية والغرف التجارية ، وأساتذة الجامعات والروابط الطلابية والمراكز الثقافية ، ومؤسسات العلاقات العامة ركائز لهذا النشاط ، بحيث تسهم جميعا في تحسين الصورة العربية لدي المواطن الأجنبي ، وإبراز الدور الحضاري للأمة العربية والتركيز علي أن الأمة العربية داعية سلام وعدل وتعاون دولي، وتوضيح القضايا العربية ومواجهة الدعاية المضادة وإبراز الدور العربي الايجابي سياسيًا

---

(١) عبد القادر الإدريسي - أضواء علي الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي - ندوة الثقافة العربية ، الواقع وآفاق المستقبل، - مرجع سابق .

واقتصاديًا علي صعيد تنمية العالم الثالث . واتخذت ورقة العمل عنوانًا هو : المؤسسة الإعلامية المستقلة .

أ) مقترحات أربعة لإنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة :

تنفيذا لما أقره مؤتمر القمة العربية الحادية عشر في عمان ٢٥ - ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ - برنامج العمل العربي المشترك - البند الثالث - المجال السياسي - الفقرة الثانية والذي ينص علي « دراسة إمكانية إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة لمخاطبة العالم الخارجي بأسلوب متطور، وفق خطة محدودة وإبراز وجهة النظر العربية الموحدة ، حيال قضية فلسطين والقضايا العربية الأخرى .

قامت الأمانة العامة في إطار ما أنجز من دراسات بالاستعانة بخبرات عربية وصديقة لبحث إمكانيات إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة ، وعلي ضوء هذا البحث تعرض المقترحات الأربعة التالية:

- **الاقتـراح الأول :** يقضي بتأسيس مؤسسة (علي غرار مؤسسة فورد) عربية دولية إعلامية مستقلة عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتمويل عربي (أربعمائة مليون دولار) يكون مقرها الرسمي بالولايات المتحدة ، وتتفرع عنه ثلاثة مكاتب في واشنطن ولندن وباريس، ويتولي الإشراف علي المؤسسة مجلس أمناء من أمريكيين من أصل عربي تختارهم الدول العربية .

- **الاقتراح الثاني :** يقضي بتأسيس مؤسسة أمريكية مستقلة ذات اهتمامات عامة يديرها أمريكيون وأمريكيون من أصل عربي ويجري تمويلها من خلال منحة من الدول العربية أو جامعة الدول العربية مقدارها (٣٠٠ - ٤٠٠) مليون دولار تدفع أقساطًا علي امتداد ١٥ سنة .

- **الاقتراح الثالث :** يقضي بتأسيس مؤسسة عربية أمريكية مستقلة (علي غرار مؤسسة مارشال الألمانية) يديرها أميركيون ، ولا تقتصر أعمالها علي الإعلام والسياسة ، ويجري تمويلها عن طريق هبة من الدول العربية لا تقل عن ١٠٠ مليون دولار ويضاعف هذا المبلغ بواسطة هبات إضافية .

- **الاقتراح الرابع :** يقضي بإنشاء ثلاث مؤسسات في الساحة الأمريكية .

١- مؤسسة إعلامية تمول من داخل أمريكا وخارجها وتكون إدارتها أمريكية .

٢- مؤسسة سياسية (لوبي) تمول كلها من داخل أمريكا ويديرها أمريكيون .

٣- مؤسسة ثقافية تمول من داخل أمريكا وخارجها ويديرها بالأغلب أمريكيون .

علي أن يكون مجمل إنفاق المؤسسات الثلاث للسنوات الخمس المقبلة ١٠٠ مليون دولار، وتركز هذه المؤسسة - وفق الاقتراحات الأربعة - علي ما نسميه بالإعلام الحضاري الذي يقوم أساسًا علي « تحسين الصورة العربية » ، في مختلف المجالات في الساحة الدولية .

ب) الصعوبات التي تعترض الأخذ بالمقترحات الأربعة :

١- الأخذ بأساليب مؤسسات دولية أجنبية :

بالنسبة إلي الأخذ بأسلوب « مؤسسة فورد » الاقتراح الأول : يلاحظ بأن مصداقية مؤسسة فورد تنبع من جذورها الأمريكية الصرف ، ومن ابتعادها عن المواضيع السياسية التي تثير الخلافات الحادة ، بل وعن كل تشيع سياسي .

بالنسبة إلي الأخذ بأسلوب « مؤسسة مارشال » الاقتراح الثالث : يلاحظ أن المال في هذه المؤسسة أجنبي إلا أن مصدره عربي و إن مؤسسة مارشال مثلها مثل مؤسسة فورد تبتعد عن القضايا السياسية المثيرة للخلاف .

٢- حصر رأس المال في العطاء من الدول العربية :

إن حصر مصدر المال للمؤسستين المنصوص عليهما في الاقتراحين الثاني والثالث بالدول العربية سيجعل الصهيونية تعمل علي تصنيف المؤسسة مسبقًا بأنها عدوة ينظر إليها الرأي العام الأمريكي نظرة ارتياب بل وأكثر من الارتياب .

٣- الاعتبارات القانونية :

هل يمكن من الناحية القانونية - ومن ثم من الناحية العملية - لمؤسسة واحدة أن تجمع بين العمل الإعلامي والسياسي والعمل الإعلامي والحضاري التثقيفي والإنساني الخيري ؟ (يهم خاصة المقترح الثاني والمقترح الثالث) .

لذا يكون من الصعب أن تستطيع مؤسسة القيام في آن واحد بأعمال إعلامية حضارية وبأعمال اللوبي وأعمال سياسية مع المحافظة علي القدر الكافي من المصداقية وعدم التعرض للتجسس بعميل أجنبي .

يتطرق الاقتراح الرابع إلي الاعتبارات القانونية بتفصيل أدق مما يجعله يوصي بقيام ثلاث مؤسسات تكون إحداها (السياسية) ممولة من مصادر أمريكية بحتة تجنبًا للمحاذير القانونية ، لكن هذا الأمر لا يمنع من حدوث خلافات سياسية .

٤- تحديد الولايات المتحدة كمقر لمؤسسة عربية إعلامية دولية :

يجعل المقترح الأول العمل الإعلامي خارج الولايات المتحدة - وفي أوروبا تخصيصًا - من مسؤوليات المؤسسة التي يكون مقرها الأصلي في أمريكا ، ويلقي بالتالي العبء علي الجمعيات الأمريكية أو الأفراد الأميركيين ولا مبرر للاعتقاد بأن لدي الأمريكيين خبرة مميزة للقيام بالأعمال الإعلامية في أوروبا أو أفريقيا كما لا نري أن الولايات المتحدة هي بالضرورة الموقع الأصلح لمقر مؤسسة دولية إعلامية عربية .

إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي رغما عن الدور المتزايد أثرا الذي أخذت تلعبه

مازالت تعاني من سلبيات عدة ، ونري أنه علي هذه الجمعيات بادئ ذي بدء أن تصحح أوضاعها ، حتي تنطلق بعد ذلك إلي المهمة الرئيسية التي تواجهها في الولايات المتحدة وهي تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي .

إن تعبئة هذه الجاليات إلي أبعد الحدود الممكنة هو الشرط الذي لابد من تحقيقه لخلق القاعدة السياسية الداخلية التي تعطي الإعلام العربي واللوبي العربي مستقبلاً القوة الضاربة والسلطان في اللعبة السياسية الأمريكية الانتخابية . إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي هي المرشحة الوحيدة القادرة علي هذه التعبئة بالاستعانة بشركات العلاقات العامة المتخصصة في هذا المجال ، إن أول الأولويات في أمريكا الشمالية - علي كل حال - يجب أن يتم بعد أن تقوم تلك الجمعيات بتصحيح أوضاعها واستنفادها لجميع إمكانات تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي .

إذا تأسست المؤسسة الأم في بلد ما والمؤسسات الفروع في بلاد أخري فلابد من مواجهة مشكلات العلاقات بين الطرف العربي الممول وإدارة / إدارات هذه المؤسسة / المؤسسات ، وكذلك مشكلات التنسيق بينها وبين الأجهزة العربية (السلك الدبلوماسي والأمانة العامة) وجمعيات الصداقة ، والجمعيات المتعاطفة مع الجانب العربي في كافة البلدان .

٥- تعدي النطاق الإعلامي التثقيفي إلي الأعمال الخيرية والبحوث العلمية :

هذا هو توجه المقترحين الثاني والثالث وإذا كان ثمة حكمة في تنويع السبل التي تنتهجها في الوصول إلي تحسين الصورة العربية في الولايات المتحدة فإن ذلك يعتمد علي ترتيب الأولويات العربية .

وبالنظر إلي واقع الإعلام في الساحة الأمريكية ، وكون الجمعيات الأمريكية من أصل عربي تعاني ما تعانيه ، والتعبئة للجاليات العربية الأمريكية ما تزال بعيدة المنال ، وبحاجة إلي جهود ضخمة لتحقيقها ، فهل يجب فتح الباب علي مصراعيه للأعمال الإنسانية والأبحاث العلمية الطبيعية ، ولمتطلبات الجاليات (من غير البيض) الأمريكية البائسة والتي لا تحصي ؟

إنه يمكن دائمًا تخصيص نسبة معقولة تتراوح بين ٢ و ٣٪ من مجمل اعتمادات أية خطة إعلامية مقترحة لمبادرات ودية محددة نحو الشعب الأمريكي .

٦- تولي العمل السياسي مؤسسة أمريكية :

ينص المقترح الرابع علي أن تتولي التعامل مع أرباب السياسة مؤسسة سياسية أمريكية صرف بتمويل أمريكي صرف ، ويميل المقترح إلي التفاؤل في إمكان إيجاد التمويل اللازم لهذه المؤسسة من داخل أمريكا .

بيد أنه ليس من الصعب تصور إمكان حدوث خلاف في الاجتهاد حول السياسة الإعلامية في القضايا الحساسة بين مؤسسة بإدارة أمريكية صرف وبين الجهات العربية المعنية .

يؤكد المقترح الرابع على الاستعانة بشركات علاقات عامة وأنه من الممكن تحسين الصورة العربية في ذهن المواطن الأجنبي في مختلف الساحات على النحو التالي :

١- إبراز الدور الحضاري للأمة العربية .

٢- التركيز على أن الأمة العربية داعية للسلام والعدل والتعاون الدولي .

٣- توضيح القضايا العربية وعلى رأسها القضية المركزية : قضية فلسطين .

٤- مواجهة الدعاية المضادة ودحض افتراءاتها وتغيير مزاعمها .

٥- إبراز الدور الإيجابي للأمة العربية في السياسة والاقتصاد العالمي ، وتنمية العالم الثالث .

٦- فضح السياسة العدوانية التوسعية لإسرائيل ضد الدول العربية .

أما عن قواعد التحرك الإعلامي وشروط نجاحه فتتمثل فيما يلي :

١- وضوح الهدف .

٢- وضوح السياسة التي يستند إليها الإعلام - قرارات مؤتمر القمة العربية وفي طليعتها مشروع السلام - قمة فاس سنة ١٩٨٢ .

٣- وضع استراتيجية متكاملة تأخذ بعين الاعتبار ضرورات كل من العمل السياسي الإعلامي المؤثر على صانعي القرار والعمل الحضاري التثقيفي المؤثر على صورة العربي السائدة في ذهن المواطن الأجنبي .

٤- الاستفادة من المؤسسات العربية والصديقة القائمة في كل ساحة استفادة كاملة .

٥- تجنيد العنصر البشري الملائم .

٦- تحديد أولويات الإنفاق ونسبه بين أدوات التنفيذ المعتمدة وكذلك بين المشروعات المقترحة.

٧- واقع التعاطف العميق الجذور لأسباب تاريخية وتراثية بين الضمير الغربي واليهودي .

٨- النظرة التبسيطية إلى الصراع العربي الصهيوني السائدة بين كبار المسؤولين في الهيئتين التنفيذية والتشريعية في عدد من الدول .

أما أدوات تنفيذ الخطة فيمكن أن تشمل ما يلي :

١- جهاز الأمانة العامة على أن تدخل إصلاحات على جهازها العامل في البعثات الخارجية للجامعة العامل في البعثات الخارجية للجامعة العربية - وهو ما تعمل الأمانة العامة من أجله - لا سيما على الساحة الأمريكية وذلك :

- بفضل العمل في هيئة الأمم المتحدة عن العمل في الساحة الأمريكية .
- بتجنيد طاقات عربية وأمريكية من أصل عربي كفوءة .

- بالاستعانة بمستشارين خبراء .

- بالاستعانة في مجالات معينة بشركات للعلاقات العامة .

٢- السلك الدبلوماسي العربي مع إحكام التنسيق بين المسؤولين عن جهاز الجامعة الإعلامي وأعضاء هذا السلك .

٣- جمعيات الصداقة (العربية - الأجنبية) المتواجدة في الساحات الدولية كافة ، وزيادة عدد هذه الجمعيات ودعمها .

٤- الغرف التجارية (العربية - الأجنبية) .

٥- الجمعيات الوطنية والدينية (لا سيما في الولايات المتحدة) والكنائس .

٦- أساتذة الجامعات والرابطات الطلابية والمراكز الثقافية العربية والأجنبية .

٧- شركات العلاقات العامة المتواجدة في كل ساحة والتعاون معها بشكل محدد .

وإلي جانب هذه الخطة كانت الجامعة العربية تبحث الدراسات المتعلقة بالخطط الإعلامية علي الساحة الإفريقية ، والساحة الآسيوية والساحة الأمريكية اللاتينية ، أسوة بما تم إعداده بالنسبة إلي الساحة الغربية .

علي أن يتم تكييف أوجه النشاط وفقًا لظروف كل ساحة في ضوء الدراسات المعتمدة ، وستحدد الخطة الإعلامية الكبري علي الساحات الدولية في ضوء :

١- الأهداف العربية الرئيسية .

٢- الأفق الزمني للخطة الإعلامية .

٣- الغايات المرسومة للخطة .

٤- الأدوات المعتمدة ودور كل منها .

٥- العنصر البشري اللازم .

٦- أولويات الانفاق في الخطة .

في مقابل التوجه إلي العالم الخارجي برسالتنا الإعلامية ينبغي أن يكون اهتمامنا الأكبر والأقرب بواقعنا الإعلامي والثقافي الداخلي .

ما هو واقع الحال لإعلامنا العربي بأغلبه ؟ يجيب الدكتور ناصر الرشيد [١] بما يلي :

---

(١) د. ناصر بن سعد الرشيد - وسائل الثقافة ، نقد وتقويم الإعلام - بحث في ندوة الثقافة العربية (الواقع وآفاق المستقبل) ١٢ : ١٥ أبريل ١٩٩٣ - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر .

١- المبالغة في المدح المذموم شرعا مما يرسخ النفاق والكذب في المجتمع وتقديس الأشخاص والذوات ، مخالفا بذلك ما ثبت شرعا من قصر التقديس ، والتعظيم علي الله تعالي وحده .

٢- إعطاء تصور زائف غير صحيح في فهم حقيقة الدين وأحكامه الشاملة بحصر الخطاب الإعلامي - فيما يتعلق بالدين - في جوانب العبادات والسلوكيات الفردية دون الأحكام التي تعالج قضايا الأمة والمجتمع ، ودون ربط كل أعمال الحياة بالتصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية وكليات الدين .

٣- تحجيم وظيفة المنابر الشرعية كخطب الجمع والأعياد ، ووسائل الإعلام والمحاضرات والندوات العامة ، وذلك بالسعي لمنع الخطباء ذوي الوعي الشرعي والعلم بالواقع ، وأصحاب النصيحة والرأي الشجاع من تسنم هذه المنابر ، ومحاولة حصر هذه المنابر علي من لا يحسن القيام بحق الكلمة وواجب البلاغ المبين .

٤- تعطيل القدرات الإبداعية بسلسلة من القيود والتعليمات الثقيلة علي الوسائل الإعلامية التي تحجز علي إبداء الرأي المشروع ، أو الصدع بكلمة الحق وتبليغ رسالة الإسلام في القضايا الكبري للأمة إذا خالفت توجيهات أصحاب القرار في هذه المؤسسات .

٥- احتكار كافة وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة لمؤسسات تملكها الحكومة أو شبه مالكة لها . ومنع الأفراد من حقهم الشرعي في إصدار وامتلاك وسائل الإعلام لنشر العلم الشرعي النافع والدعوة والإبلاغ .

٦- منع الأخبار في وسائل الإعلام المحلية مما أدي إلي اتجاه الناس لوسائل الإعلام المعادية في الدول الأجنبية للحصول علي الأخبار والحقائق التي يرغبون في معرفتها والاطلاع عليها ومنحها ثقتهم .

٧- التركيز المستمر في البرامج الإعلامية علي تقديم القيم والعادات والأخلاقيات الغربية الباطلة المخالفة للشرع ، باعتبارها القدوة والمثل العليا مما يؤدي إلي كسر الحاجز الاعتقادي والسلوكي بين أبناء الأمة وبين الكفر والنفاق والشرك .

٨- إبراز الشرائح الاجتماعية ذات الدور الترفيهي والهامشي في الحياة حيث يحتل الرياضيون والفنانون والمغنون وأشباههم مساحة واسعة في وسائل الإعلام المحلي ، ويتناول الحديث عنهم كافة أعمالهم ونشاطهم ، حتي تمكن هؤلاء من أذهان الشباب ، وصار حلم الشباب في المستقبل أن يكون رياضيا أو فنانا ، بينما تغيب عن هذه الوسائل شرائح أكثر أهمية وأعظم دورا كالعلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين وذوي الكفاءات والانجازات .

٩- التضييق الشديد علي المؤسسات الإعلامية والتسجيلات الإسلامية بمنع إصدار التصاريح والرقابة المشددة عليها في الوقت الذي يسمح فيه لكثير من مجالات التبرج والسفور بدخول البلاد ، ويسهل فتح وانتشار محلات أشرطة الفيديو الهابطة والمنافية للقيم الإسلامية.

١٠- الإكثار من برامج الأطفال التي تعتمد علي المستحيل والأساطير والتمرد، الأمر الذي من شأنه أن يزرع قيما خطيرة في نفوس الأطفال في سن مبكرة مما يكون له أكبر الأثر في تنشئتهم. وفي برامج المرأة تقديم البرامج الغربية التي تؤدي إلي تغريب المرأة المسلمة لتصبح صورة مشوهة من المرأة الغربية .

١١- الاعتماد في المادة الإعلامية المقدمة للمجتمعات العربية والإسلامية علي الإنتاج الغربي بنسبة كبيرة . وضعف الصوت الإعلامي العربي والإسلامي في الوصول إلي الساحة العالمية، وفي مواجهة هذا الواقع الإعلامي العربي يضع الدكتور ناصر الرشيد تصوره لسبيل الإصلاح في نقاط عديدة أهمها ما يلي :

١- تبني برنامج جاد وفعال يحقق نشر الخبر الصادق بدقة وشمول وموضوعية ، وتشجيع التحليل الإسلامي للأحداث من خلال تطوير المؤسسات الإعلامية ودعمها بالكوادر المؤهلة والمخلصة .

٢- السماح بإقامة المؤسسات الإعلامية الخاصة من صحف وتلفزة وغيرها للدعوة والإرشاد والتثقيف النافع وإزالة القيود التي تحد من مصداقيتها وقدرتها علي الابداع .

٣- تخصيص بث إعلامي يستهدف إبلاغ الإسلام وتعريف الناس كافة بمختلف لغاتهم ما أمكن .

وحقيقة الأمر أن التصور الذي وضعة الدكتور ناصر الرشيد لواقع الحال في إعلامنا العربي المعاصر يحمل في ذاته عوامل تصحيحه وسبل إصلاحه فما دمنا قد شخصنا الداء فإن الدواء يصبح أمرا سهلا وميسورا .

وإذا تجنبنا الأخطاء الإعلامية العربية نكون في الوقت نفسه قد حققنا عين الصواب في إعلامنا العربي المعاصر .

وفي حياتنا الثقافية العربية لابد من الوعي بطبيعة أحوالنا الثقافية المعاصرة . ولابد من التسلح بالنظرة الفاحصة الناقدة والهادئة في الوقت نفسه . إن التسلح بالوعي ضروري لحياتنا الثقافية بصفة عامة ، وهو أكثر وأشد ضرورة لنا في مواجهة الغزو الثقافي . ونستطيع أن نضرب بعض الأمثال والشواهد لأن حصر ما ينبغي أن نحيط به وعيا فوق الطاقة لأنه متغير ومتلون بتغير الزمان والأساليب والمكان .

أول ضرورات الوعي لنا في هذا المجال هو الوعي بمقولة الإمام مالك الفقيه الإسلامي المشهور « كل يؤخذ منه ويرد عليه » . فلا ينبغي أن نحكم علي الكتابات الإسلامية للدكتور طه حسين بحكمنا علي أفكاره الأدبية في العقد الثالث من القرن العشرين في الشعر الجاهلي ولا علي تصوره الثقافي في العقد الرابع من القرن العشرين في مستقبل الثقافة في مصر . وإنما يعنينا في كتاباته الإسلامية مناقشة العودة للذاتية الثقافية العربية الإسلامية . كذلك ينبغي ألا يكون تقييم الدور الذي قامت به كتب الدكتور هيكل باشا الإسلامية استنادا إلي موقفه السياسي كرئيس لحزب الأحرار الدستوريين الذي لم يكن حزبا شعبيا ولا معبرا عن مصلحة الفقراء

المصريين، أو أهداف الحركة الوطنية المصرية .

لذلك ينبغي تطهير الخطاب الإعلامي والخطاب الثقافي من الاتهام العشوائي أو الاتهام الجزئي لأعلام الكتاب والمفكرين العرب . حتي لا يتشتت الشباب ويتشتت وعيهم بكثرة الاتهامات ، والدمغ العمومي بالضلال .

كذلك لا ينبغي إهمال طبيعة الفترة التاريخية لكتابات المفكرين ، والمرحلة الحضارية لمجتمعهم عندما كتبوا وعبروا وأعلنوا، ولعل النموذج الناضج للتحول من أفكار تعلق بها المفكر ثم هجرها وأعلن ذلك صراحة ذلك النموذج الباهر للفيلسوف العربي المعاصر زكي نجيب محمود. لقد كان شديد الانبهار بالغرب ثقافة وتفكيرا ثم رجع إلي التراث العربي الإسلامي فرأي فيه كنزا من التفكير الصائب والرؤية المبصرة إنسانيا ومعرفيا . ولكن تأثير الثقافة الغربية يعكس ظلاله عليه لأنه متشرب بالثقافة الغربية العلمانية ، برغم أنه يري بعينيه طوفان الثقافة الغربية العلمانية ويحاول النجاة منها ويحذر مجتمعه محاولا نجاتهم . ولكنه - للأسف الشديد- يحملها معه مرضا متوطنا في كيانه الفكري ، وفي طريقة تفكيره .

فمثلا يقول د. زكي نجيب [1] محمود إن الحضارة العربية القديمة محورها الأخلاق والمبادئ الخلقية لأن محورها الدين . وكل الأديان رسالات خلقية قبل أي شيء آخر . فحضارتي قائمة علي رسالات أخلاقية . أما الحضارة الغربية المعاصرة فقائمة علي العلم الطبيعي.

ويقول : أنا لو اكتفيت بحضارتي القديمة ، حضارة الكلمة والشعر والأدب والأخلاق والدين لعشت في عصري هذا غريبا عليه ، وسحقت من أول ضربة مدفع ، ولكن لو تجاهلت حضارتي القديمة ، واندمجت في حضارتهم علما وصناعة لسحقت داخليا ، لما أصبحت عربيا مسلما أو مسيحيا . أنا لي هوية خاصة قوامها تذوق خاص ، تقاليد خاصة ، رؤيا خاصة للأشياء. رؤيا خاصة للمشكلات الاجتماعية كيف أحلها ، أو لا أحلها، هذه الهوية هي هويتي لا أريد أن استغني عنها . »

ثم يطرح سؤالا هو : كيف إذنْ احتفظ بهذه الهوية العربية الإسلامية مرتكزا علي الركائز الأساسية غير مستغن عن أي منها ، ولكن عليّ أن أضيف إليها أيضا الركائز الجديدة التي تجعلني أحس بالعصر الذي أعيش فيه . والسؤال هو : هل يمكن ذلك ؟

ويجيب بأنه ممكن ، ويري أن لطفي السيد وطه حسين ومصطفي عبد الرازق وتوفيق الحكيم تتجسد فيهم الصفة الجديدة التي تمزج الهوية الأصلية بالحضارة الغربية ويقول إن طه حسين شيخ أزهري وخواجه فرنسي في وقت واحد بحيث لا تستطيع أن تجد الموضع الذي يرسم فيه الحد الفاصل بين طه حسين الأزهري وطه حسين الخواجة .

ويصل إلي الهدف الرئيسي من فكرته بقوله : هكذا أمثلة كثيرة من رجالنا أنفسهم

(١) حديث صحفي لمجلة الحوادث بتاريخ ٢٣ - ٣ - ١٩٨٤ .

استطاعوا أن يجسدوا بأشخاصهم الصيغة الجديدة . ما علينا إذن إلا أن ننظر لهذه الصيغة مم تتكون ؟ وكيف ؟ لأنها لن تكون هي حياتنا الجديدة إلا إذا تسربت من قلة قليلة جدا جسدوها إلي الكثرة الغالبة من الشعب ليعيشوها . ويقول : الكثرة الغالبة من الشعب العربي ما تزال تدير ظهرها لثقافة العصر ونحن نحاول أن تتسلل ثقافة العصر في أصولها إلي أوعيته . لا نريد أن نهدم أوعيته ولكن نريد أن نملأها بمضمون عصري فيصبح عصريا عربيا مسلما في آن واحد » .

هكذا يفضي المفكر المصري برأيه الذي نستطيع مقابلته بالتساؤلات والحقائق التالية :

١- ما معني حضارة قوامها الأخلاق . هل الساعة التي أهداها الرشيد إلي شارلمان كانت ساعة أخلاقية ؟!

٢- التناقض العربي المعاصر هو غيبة الأيدلوجية وليس التمسك بها .

٣- الالكترونات والتكنولوجيا في الحضارة الغربية المعاصرة جاءت بعد المفهوم الأخلاقي للحرية والتجديد .. لقد جاء رسم المنظور في القرن الخامس عشر وجاء الراديو في القرن العشرين .

إن هذا النموذج لتأثير الغزو الثقافي علي بعض المفكرين في العالم الثالث لا يمكن فصله عن ظروفهم التاريخية والتعليمية من جانب ، وعن ظروف السيطرة للحضارة الأوربية من جانب آخره وعن غيبة الذاتية الثقافية الإسلامية من جانب ثالث .

* الوعي الثاني الذي ينبغي أن ننتبه إليه هو أن الغزو الثقافي المعاصر للعالم الإسلامي ليس غزوا غربيا أي (أمريكا وأوربا الغربية) وحسب ، بل هو غزو مشترك من الحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالي والشيوعي وغير الديني أو الديانات الوثنية المعاصرة . فالغزو الثقافي عند بعض الكتاب العرب الذين يتجهون وجهة ماركسية هو الغزو الثقافي الأوربي الذي بدأ - علي حد تعبيرهم - منذ نحو خمسة قرون لما عرف ببلدان الشرق ، أي الشرق الأوسط بالتعبير الحديث ، وبلدان افريقيا وبلدان جنوب شرق آسيا والصين وأقطار أمريكا اللاتينية وسكان أمريكا الأصليين ، والذي كان مصاحبا للغزو العسكري ، لكنه اليوم يعني أساسا الغزو الثقافي الأمريكي لدول العالم الثالث ، بما يسمي بثقافة القيم الاستهلاكية وحضارة الرجل الأبيض المتفوق وقوة الشركات الدولية والأفلام والمسلسلات التليفزيونية ، وتوجهات وكالات الأنباء الغربية المتحيزة ضد أقطار العالم الثالث [١] .

ولكن ذلك لا يفسر لنا قهر المسلمين في الصين أو في ألبانيا والمحاولات الدائبة لردهم عن دينهم . كما أنه لا يفسر اضطهاد المسلمين في الفلبين وبورما .

* الوعي باختلاف الأيدلوجيات في مقاومة الغزو الثقافي .

يطلق الباحثون الأمريكيون علي أساليب مواجهة الغزو الثقافي أو الدعاية المضادة -

---

(١) د. عبد العظيم أنيس - غين فتحة غا - جريدة الأهالي بتاريخ ٢٦ / ١٢ / ١٩٨٤ .

بلغتهم - تعبير تحصين المتلقي ضد الدعاية المضادة [1] . ومن الأساليب الفعالة في التحصين ضد المعلومات المضادة استخدام أسلوب الالتزام السلوكي الذي ندفع فيه الفرد الذي يؤمن برأي معين بالتعبير عما يؤمن به علنا . وأن ذلك يجعل الفرد مضطرا للالتزام بما قاله . ولهذا لن يحاول الرجوع عما قاله علانية حتي لا يفقد ماء وجهة بين مستمعيه . وبجعل الفرد أن يلتزم اجتماعيا بتأييد اعتقاد معين قد يكون طريقة فعالة للتأكد من مقاومته للاقناع برأي مضاد .

الأسلوب الثاني الأساسي لجعل المتلقي يقاوم الإقناع يقوم علي ربط معتقدات الفرد بالأشياء الأخري التي يعرفها . فالاعتقاد مثلا بأهمية توفير علاج طبي أفضل لكبار السن يمكن أن نربطه باعتقاد مقبول كأن نقول إن هذا عمل إنساني نعاون به إخواننا من البشر في محنتهم. وربط هذا الاعتقاد المقبول بالقيم المشتركة سيجعل الفرد أكثر مقاومة للآراء التي تحاول أن تجعله يغير اتجاهه . ولضمان مقاومة أي اقتناع مضاد علينا أن نربط الاعتقاد بجماعات مرجعية محل تقدير واحترام كبير .

الأسلوب الثالث لتحصين الفرد ضد الاقناع هو إثارة خوفه وقلقه مما يجعله يقاوم المعلومات . فقد شعر كثير من الأمريكيين مثلا إنهم يجب أن يقاوموا بعض التشريعات لأنهم كانوا مقتنعين بأن صدور هذه التشريعات سيؤدي إلي اضطرابات وإضرار بهم . وقاوم أولئك الأفراد التشريعات لأن البعض أثار توترهم حيال نتائجه غير المرغوبة .

وقد تبين أن تحصين الفرد ضد حجج الإعلام المضاد يزيد مقاومته مثل تحصين الفرد ضد مرض معين .

كما تبين أن من الناس من يظن أن بعض معتقدات الفرد أو قيمة الثقافية بعيدة عن الهجوم، لذلك لا يعد نفسه أبدا لحمايتها . فافتراض الفرد بأن معتقداته لن تهاجم هو السبب نفسه الذي يجعلها بلا حول ولا قوة . وقد أظهرت الدراسات التي قامت بمقارنة التحصين عن طريق الدفاع بتفنيد حجج الآخرين ، وبالتقوية والتدعيم لحجج الدفاع والتأييد أن الدفاع بالحجج المفندة يحدث مقاومة أكبر . أي أنه يجب توقع حجج المعارضة والإشارة إليها وتفنيدها حتي ينجح الفرد في مقاومتها .

وعندما تم الجمع بين تأثير الدفاع بالحجج المؤيدة - التي تقوي وتدعم ، وتأثير الدفاع بالحجج التي تفند وبالتالي تُحَصن كانت مقاومة الفرد أكبر وساعده ذلك في المحافظة علي معتقداته من الهجوم الذي يرمي إلَي تدميرها . لقد بينت نتائج الاختبارات المختلفة أن الدفاع بهذين الأسلوبين أكثر فاعلية من استخدام أي من هذين الأسلوبين منفردا .

كما تبين أن تحذير الفرد مسبقا يعني تسليحه مسبقا . أي أن الفرد يصبح أكثر استعدادا

(١) د. جيهان رشتي - الأسس العلمية لنظريات الإعلام - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٧٨ - صـ٢٨٣ - ٢٨٥ .

لمقاومة أي هجوم علي معتقداته إذا حذر مسبقا من هذا الهجوم . وبينت بعض الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن أن وجود الإنذار المسبق أو التحذير ، يجعل كل أساليب الدفاع أكثر فاعلية . فمجرد معرفة أن هناك تهديدا بخطر محدق يدفع الفرد للتيقن من استخدام جميع أساليب الدفاع المتوافرة لديه أفضل استخدام . وسوف يدرب نفسه علي ابتكار بعض الحجج الإضافية » .

هذا التحصين الأمريكي نقرأ عناصره قراءة تحليلية فما يتوافق مع خطتنا اقتبسنا منه ، وما هو بعيد عن واقعنا وظروفنا انصرفنا عنه . ولا ينبغي أن تلحق بنا التبعية حتي في مجال مواجهة الغزو الثقافي .

* الوعي بالنظر إلي كافة الزوايا والجهات الأصلية والفرعية ، لأنه لم يعد ممكننا حصر الباب الذي تهب علينا منه رياح الغزو الثقافي . فجسم الثقافة العربية والإسلامية معرض للنهش من قمة الشَّعْر إلي أخمص القدم .

إن الهجوم حتي علي التاريخ الفرعوني بالتزييف والتلفيق ، مثل الهجوم علي كل قيِّم العرب قبل الإسلام ، برغم أن بعضها استبقاه الإسلام وحسنه مثل الكرم ، والتكافل لنصرة المظلوم كما في حلف الفضول الذي كان قبل الإسلام ، وقال عنه الرسول ﷺ أنه لو دعي لمثله لأجاب .

ولنتأمل هذا الأمر المتعلق بالتاريخ الفرعوني لنري فيه صورة تؤكد أن الغزو الثقافي يدخل علينا من كل باب وينبغي أن نرصد دخوله في كل الاتجاهات والزوايا .

أحمد عثمان راقص في فرقة رضا المصرية ، هجر الرقص واشتغل بالصحافة في مصر ، ثم هجر مصر واستقر به المقام في بريطانيا . ألف كتابا بعنوان : « غريب في وادي الملوك » . ذهب فيه إلي القول بأن المومياء المحفوظة في المتحف المصري تحت اسم « يويا » هي جثة سيدنا يوسف نبي الله . وحاول في كتابه أن يرد علي علماء الآثار الذين ينكرون ذلك .

ولأن قصة الكتاب تبدو غريبة ومثيرة فقد كشف الكاتب المصري محسن محمد [1] غرابتها وسبب إثارتها من مقدمة الكتاب نفسه . ويتساءل محسن محمد قائلا : ما الهدف من هذه العملية ، والترويج للكتاب علي نطاق واسع ؟ قد يكون المؤلف باحثا تاريخيا وصل إلي ما اقتنع أنه حقيقة .

ولكن من مقدمة الكتاب تتضح الأسباب الحقيقية لتأليفه وصدوره . يقول الكاتب إنه كان في الثالثة عشرة من عمره عندما بدأت المعارك بين العرب ودولة اسرائيل . وقد توجه إلي أحد المعسكرات متطوعا ليقاتل ولكن رفض طلبه . جند في الجيش واشتغل بالصحافة وكتب أربع مسرحيات ويدعي أن الرقيب رفض ثلاثة منها .

---

(١) محسن محمد - مؤامرة علي تاريخ مصر الفرعوني - أخبار اليوم بتاريخ ٢٣ - ١ - ١٩٨٨ .

ويقول - في المقدمة أيضا - أن الرقيب لا يوافق علي المسرحيات التي تناقش السياسة والدين والجنس وهذه القيود لا تدع للكاتب فرصة لتناول أي عمل خلاق . وقال إنه شغل بالعداء الجنوني الواضح بين مصر وإسرائيل ، وتساءل لم لا يعيشان معا في سلام ويسويان خلافاتهما بدلا من القتال ! وهنا نتوقف أمام أخطر ما جاء في الكتاب . إنه يقول :

إن اليهود لا يفعلون أكثر من العودة إلي أجدادهم ووطنهم ، فهم ليسوا غزاة مثل الفرنسيين والبريطانيين إنها أرضهم المقدسة كما هي أرضنا المقدسة . إن العداء بين الشعبين المصري والإسرايلي مثل أي صراع أو عداء قديم طويل داخل أسرة واحدة .

ويقول أحمد عثمان أيضا نظرا لأنه أدي الخدمة العسكرية الإجبارية فإنه يمكن استدعاءه للجيش في أي وقت ولا يريد ، بأي حال من الأحوال، الاشتراك في القتال ولذلك طار إلي لندن ليستقر فيها إلي الأبد .

وقد تعلم اللغة العبرية وهي ليست صعبة - كما يقول - مثل اللغة العربية ! وقد جاءه الالهام عن يويا ويوسف في إحدي الليالي وهو يقرأ سفر التكوين في التوراة ، فتوقف عند عبارة قالها يوسف لأخ له - غير شقيق - عندما جاء إلي مصر يشتري القمح .

رفض يوسف أن يكشف لأخيه عن منصب الوزارة الذي يشغله ولكن قال له :

- أنتم لم ترسلوني إلي مصر بل الله أرسلني وجعلني أبا لفرعون .

والكلمتان الأخيرتان هما اللتان جعلتا أحمد عثمان يفكر ويربط بين يويا ويوسف ويؤلف كتابه .

وأخيرا يفصح الكتاب بوضوح عن غايته .. فما دام يويا هو يوسف وهو جد اخناتون فمعني ذلك أن فكرة التوحيد والإله الواحد التي نادي بها اخناتون لم تنطلق من فرعون مصري بل تجري في هذا الفرعون أيضا دماء اليهود ولذلك فإن فكرة التوحيد تشترك فيها مع مصر ، اسرائيل .

وهذه هي المؤامرة الجديدة علي التاريخ المصري الفرعوني القديم .

ومما يذكر أن عالم النفس اليهودي فرويد اعترف في كتابه « موسي والتوحيد » إن الديانة اليهودية منقولة عن عبادة اخناتون ، وإن اليهود حملوا معهم عندما خرجوا من مصر تعاليم ديانة اخناتون التي كانت أول ديانة للتوحيد في العالم .. واليهود يريدون أن يشتركوا مع مصر في فكرة التوحيد مثلما يقولون في أمريكا إنهم هم الذين بنوا الأهرامات أيام الفراعنة ..

ويختم محسن محمد مقاله بقوله :

ونسي أحمد عثمان ولم يذكر أنه قبل ذلك كان راقصا في فرقة رضا . ويبدو أنه لا يزال يرقص لا لحساب فرقة رضا . بل لحساب اسرائيل ! »

* الوعي بالأهداف الرئيسية والأهداف الثانوية للغزو الثقافي ، فلا نبذل جُلَّ جهدنا في مقاومة الأهداف الثانوية والفرعية حتي لا يبقي إلا القليل من جهدنا لمواجهة الأهداف الرئيسية . فعلي سبيل المثال ، لقد أخذت فتنة الملابس وفتنة العري حيزا واسعا من حياتنا الثقافية ، وأخذت قضية الملابس الإسلامية شكلا حادا في التناول سواء داخل البلدان الإسلامية أو خارجها . وتمثل الأخذ والرد داخل البلدان الإسلامية في عدة وجوه . أولها إنكار الحجاب للمرأة المسلمة من بعض صرعي الغزو الثقافي ، بل وهجومهم علي المرأة المحجبة ، وانعكاس ذلك علي بعض أوجه النشاط الحكومي مثل التلفزيون المصري الذي منذ إنشائه عام ١٩٦٠ حتي العقد الأخير من القرن العشرين لم يسمح لمذيعة محجبة أن تذيع نشرة الأخبار أو تقدم مادة إعلامية غير البرنامج الديني الذي يأخذ حكم القليل النادر .

ومن الناحية التاريخية كان إلغاء الحجاب في بعض البلدان العربية مواكبا للتشبه بالأوربيات . وحظي بتشجيع من بعض الفئات غير الملتزمة بتعاليم الدين تحت غطاء المشاركة في التحرر الوطني ، والحركة الوطنية .

والوجه الثاني هو تشدد بعض الجماعات الإسلامية في أن تغطي المرأة وجهها وقد أثارت القلة القليلة جدا ضوضاء داخل الجامعات المصرية والعربية ، ولكنها كانت عابرة ، لولا محاولات التضخيم والخوف من القائمن علي إدارة هذه الجامعات وأمنها .

أما في خارج البلدان الإسلامية فقد كانت المشكلة في ذروتها في بلدكنا نظنه معقل الحريات ، في فرنسا ، لقد طردت بعض المدارس الفرنسية تلميذتين مسلمتين لارتدائهما غطاء للرأس . وتناولت الصحف المسألة . وأبدت دوائر فرنسية عديدة بغضها للإسلام من خلال الواقعة التي حدثت في اكتوبر ١٩٨٩م . ولكن دوائر فرنسية أخري اعتبرت الملابس حرية شخصية .

هذه ظواهر الموضوع . ولكن هل اللباس مشكلة إسلامية ؟ أم مشكلة غزو ثقافي ؟

* حقيقة الأمر تنحصر في أمرين :

الأمر الأول هو أن الإسلام حدد للرجل وللمرأة قواعد لستر العورة .

الأمر الثاني أن هذه المسألة ليست نتاج اليوم أو نتاج القرن العشرين الميلادي . إنها قضية بدأت بآدم وحواء . وهي قضية ترتبط بفطرة الإنسان في أن يستر جسده . وأن يحافظ علي جسده بالملابس خشية البرد أو الحر ، وأن يتزين بها ويتفنن في نسجها وحياكتها وصناعتها وارتدائها . ويعقد الشهيد « سيد قطب » في تفسير سورة الأعراف مقارنة بارعة للعري الأول في تاريخ البشرية وللعري الذي تدعو إليه بيوت الأزياء الغربية في القرن العشرين . وذلك عندما يفسر الآيات القرآنية الكريمة : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوي ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (آية ٢٦ ، آية ٢٧ من سورة الأعراف). ثم قول الله تعالي :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. ﴾ (آية ٣١ ، آية ٣٢ من سورة الأعراف) .

وكما يذكر ابن كثير في تفسيره إن العرب في الجاهلية كانوا - ما عدا قبيلة قريش - يطوفون بالبيت الحرام عرايا ، بحجة إنهم لا يطوفون بملابس ارتكبوا الخطايا وهم يلبسونها . وكان الذين يطوفون بملابسهم أهل قريش أو من جاء بثوب جديد يطوف به أو من اقترض ثوبا من أحد القرشيين . وكانت هذه البدعة الجاهلية تجعل النساء في غالبيتهن يطفن بالليل .

يقول سيد قطب [1] :

« في مواجهة هذا الواقع الجاهلي جاءت التعقيبات علي قصة البشرية الأولي . وجاء ذكر اللباس . ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بالإغواء . وجاء ذكر حيائهما الفطري في كشف السوآت . وخصفهما علي سوأتهما من ورق الجنة » . ثم يقول سيد قطب : « في مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ، ومواجهة العري الذي يزاوله المشركون في الجاهلية ، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله علي البشر وقد علمهم ، ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذي يستر العورات المكشوفة . ثم يكون زينة وجمالا . واللباس قد يطلق علي ما يواري السوأة. وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق علي ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثوب . كما قد يطلق الرياش علي العيش الرغد والنعمة والمال . وهي كلها معان متداخلة ، متلازمة » . ويقول سيد قطب : « هناك تلازم بين شرع الله لستر العورات والزينة ، وبين التقوي . كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب . وذاك يستر عورات الجسم . وكلاهما متلازمان . فعن شعور التقوي لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعري . وأن يدعو إلي العري . العري من الحياء ومن التقوي . والعري من اللباس وكشف السوأة . إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة علي حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة ، خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر؛ وأقدرهم علي تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق . والله سبحانه وتعالي يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلي عرف البهائم ، وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل . ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلي حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلي العري الجسدي - باسم الزينة والحضارة والمودة - وبين الخطة لتدمير إنسانيتهم والتعجيل بانحلالهم » .

---

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - المجلد الثالث - الطبعة ١٤ - دار الشروق القاهرة - ١٩٨٧ - صـ١٢٧٧ ، صـ١٢٧٨ ، صـ١٢٧٩ .

* ضرورة الوعي بالحركات الحلزونية السياسية والإعلامية التي يقدمها لنا الغرب متمثلا في أوربا الغربية وروسيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وأمريكا . والتي تجعلنا ندور في دائرة مفرغة. لا نستطيع أن نفعل شيئا ، بل لا نستطيع أن نقرر شيئا ، بل لا نستطيع أن نفكر لنقدر أو نفعل . ولعل أوضح مثال معاصر علي ذلك حرب البوسنة والهرسك خلال عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ م . وقفت القوي الغربية علي بكرة أبيها وفي ذيلها الأمم المتحدة تحرم المسلمين من السلاح للدفاع عن النفس ، وفي الوقت نفسه تتيح للصرب تصفية الوجود الإسلامي علي خطوات ومراحل وتسمح للكروات بالشيء نفسه . وفي الوقت نفسه تعلن أنها تجتمع لتقرر عقوبات علي الصرب ، ثم تعلن أنها تجتمع لتزيد العقوبات ثم تجتمع لتقرر حظر الطيران ، ثم تجتمع لتقرر إنها ستوجه ضربات جوية لفك الحصار عن العاصمة « سرايفو » . ثم تقول إنها تفوض حلف الأطلنطي ، ثم ينعقد الحلف علي مستوي السفراء . ثم علي مستوي الخبراء .. وهكذا تدور الدائرة المفرغة . وفي كل يوم يموت أطفال المسلمين ونساؤهم وشيوخهم مع المجاهدين منهم بالرصاص والقذائف والجوع والبرد .

واجتماعات الغرب الصليبي قائمة تبثها أجهزة الإعلام كل يوم في سلسلة لا متناهية من الألغاز وجذب الانتباه حتي يقف العربي والمسلم مشتتا عاجزا ينتظر حدا ، أو إسدال الستار علي المسرحية التي تمثل أمامه ، والستار لا يسدل والمسلسل يدور في نظام لولبي عقيم .

في حواديت الأطفال في مصر تحكي حكاية ينام عليها الأطفال تقول إن ولدا أراد بيضة ولكن البيضة عند الدجاجة والدجاجة تحتاج إلي حبة قمح ولكن حبة القمح عند الفلاح ولكن الفلاح يريد النجار ليفتح له مخزن القمح ولكن النجار يريد منشارا ليفتح المخزن والمنشار عند الحداد .. وهكذا تدور الحكاية في سلسلة لا متناهية من الحيل حتي ينام الطفل . وهكذا فعل الإعلام الغربي والسياسة الغربية في حربها الصليبية ضد المسلمين في أوربا . ولا يعقل أن يكون مسلمو البوسنة والهرسك من المتطرفين وإنما هم أوربيون تماما إلا أنهم يوحدون الله ويؤمنون برسالة محمد ﷺ وعندما تكشف وثيقة دامغة ندرك مغزي الصليبية المعاصر . فقد نشرت مجلة صوت المسلم التي تصدر في البوسنة والهرسك خطابا بعث به رئيس الحكومة البريطانية جون ميجور إلي وزير الدولة دوجلاس هوج يوم ٢ مايو ١٩٩٣ .. يقول في بداية خطابه : «اشكرك علي تقريرك العميق عن الوضع الحاضر والماضي في البوسنة والهرسك إحدي مقاطعات يوجوسلافيا السابقة وكما تعلم من مناقشتنا السابقة سواء في مجلس الوزراء أو غيره فإن حكومة جلالة الملكة لم تغير موقفها من السياسات التالية : أولا : نحن لا نوافق الآن أو في المستقبل علي تسليح أو تدريب المسلمين في البوسنة والهرسك ثانيا : سنستمر في تأييد حظر السلاح عن طريق الأمم المتحدة في المنطقة رغم علمنا أن اليونان وروسيا وبلغاريا تساعد الصرب بالسلاح والتدريب علي حين تساعد ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتي الفاتيكان القوات الكرواتية في المنطقة ومن الأهمية البالغة أن نتأكد أن مثل هذه المساعدات لا تصل إلي القوات المسلمة في البوسنة سواء من الدول الإسلامية أو الجماعات الإسلامية .. وسوف نستمر في هذه السياسة حتي لا تتحول البوسنة إلي دولة إسلامية

في أوروبا فهذا أمر لا تحتمله أوروبا .

إن الخطأ الذي ارتكب في تدريب وتسليح المقاتلين الأفغان ضد قوات الاتحاد السوفييتي السابقة قد خلق ما يسمي بالمجاهدين الأفغان . هذا الخطأ لن يتكرر مع الشعب المسلم في البوسنة والهرسك لأن هذا يقود إلي مشاكل حادة في المستقبل خاصة مع تزايد عدد السكان المسلمين في المنطقة « الرجا النظر في الورقة المرفقة من الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان « فجر أوروبا الإيرانية » ثالثا : حتي تستقر مشكلة يوجوسلافيا السابقة يجب بأي ثمن أن نتأكد من عدم نشوء دولة إسلامية في هذه المنطقة ، ومن هنا يجب الاستمرار في خطة فانس - أوين ومباحثات السلام حتي نؤجل أي حركة في الأحداث لضمان غياب دولة البوسنة والهرسك كدولة وتفرق أهلها من الأرض .. ولقد يبدو لك هذا سياسة قاسية ولكن صناع القرار السياسي وخبراء القوات المسلحة يرون أن هذا هو الطريق لأوروبا مستقرة في المستقبل تقوم قيمها علي قيم الحضارة الغربية المسيحية .. وهذه الرؤيا هي « رؤية » الحكومات الأوروبية وحكومة أمريكا الشمالية .

هذا أهم ما جاء في الخطاب الذي نشرته الجريدة البوسنية ، وهو وثيقة دامغة تؤكد المؤامرة » [1].

ولقد حاولت جهات إعلامية غربية القول بأن الوثيقة مزورة . ولكن الرد البليغ هو الواقع المؤلم حقا . إن كل ما فيها تم أمام عيون العالم أجمع . ولكن المخطط يمضي في سبيله .

وفي محاولة لتغطية هذه الفضيحة سلطت أجهزة الإعلام الصليبية علي موقف صغير الأضواء الباهرة لتبين إنسانية بريطانيا والغرب بصفة عامة . لقد نقلت طائرة بريطانية طفلة مسلمة مصابة في المخ بشظية قذيفة صربية إلي لندن للعلاج . وأصبحت هذه الطفلة التي يلقي الآلاف من أخوتها المصير نفسه - والأسوأ منه - خبرا يتصدر نشرات الأخبار الغربية الصليبية في محاولة رد وتمويه علي النموذج المعاصر للحروب الصليبية .

بعد هذه النماذج نتعرض لقضيتين تبرزان الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي لمواجهة الغزو الثقافي في عالمنا العربي المعاصر . القضية الأولي هي قضية الترجمة ، والثانية هي قضية التراث .

قضية الترجمة :

تعتبر الترجمة الجسر الذي يصل بين الثقافات المختلفة ، والوسيلة التي نتمكن بها نحن العرب من الإطلاع علي ما توصل إليه الآخرون وأبدعوا فيه في ميادين العلوم والآداب والفنون[2] .

---

(١) أحمد بهجت - وثيقة دامغة - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ - ٧ - ١٩٩٣ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث - القسم الثاني ص٦٤٩ .

وتمثل الترجمة الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري .
ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلي اللغة العربية . وإن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأنا كبيرا في الدولة العباسية ، وبخاصة في عصر المأمون الذي اهتم بالترجمة اهتماما خاصا ، وأنفق عليها بسخاء . ثم جاء الدور علي أوربا في نهضتها الحديثة لتترجم كتب العرب إلي اللاتينية ، ولتترجم الكتب اليونانية من النص العربي .
ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات . « لقد دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا . وذلك بأن مكتبا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠ م ينقل أهم كتب العرب إلي اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، وأن أعماله في الترجمة كللت بالنجاح ، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد ولم يقتصر الغرب علي ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلي اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها أيضا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلي لغتهم : كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلي اللغة اللاتينية علي ثلاثمائة كتاب . والقرون الوسطي لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها العربية وبفضل هذه الترجمة أطلعت أوربا علي كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني[1] » .

ويؤكد الدكتور يوسف زيدان [2] الدور التاريخي الحضاري عندما ترجم العرب علوم السابقين عليهم في الحضارة فيقول :

لما خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية فاتحين ما حولهم من بلدان ، أرادوا تأسيس حضارتهم واستكمال مسيرة الحضارة الإنسانية . فاتجهوا إلي ترجمة تراث الأمم السابقة عليهم كاليونان والفرس والهنود .. فكان أول ما ترجموه هو كتب العلم . فنقلوا إلي العربية مؤلفات إقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم من علماء اليونان في الهندسة والفلك . وفي مجال الطب. نقلوا عن اللغة الهندية كتاب (شاناق) في السموم ، وعن اليونانية نقلوا إلي العربية جميع مؤلفات أبقراط : الفصول الطبية - تقدمة المعرفة - حانوت الطبيب - الكسر والجبر - أوجاع الرأس - الصرع .. إلخ ، وجميع مؤلفات جالينوس (التي عرفت باسم : منتجات الاسكندرانيين) مثل : فرق الطب - النبض - التأتي لشفاء الأمراض .. إلخ .

كانت هذه هي أضخم عملية ترجمة في تاريخ الإسلام ، وقد استهلكت جهود ثلاثة أجيال من المترجمين الذين نقلوا مئات الكتب والرسائل العلمية إلي اللغة العربية ، بل إن (حنين ابن إسحاق) قام وحده بترجمة ما يزيد علي مائة كتاب طبي يوناني ، وكان ذلك بتكليف من

(١) جوستاف لوبون - حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) الطبعة الرابعة - مطبعة عيسي البابي - القاهرة - ١٩٦٤ ص٥٦٨ .

(٢) د. يوسف زيدان - درس تاريخي في الترجمة - جريدة الأهرام بتاريخ ٥ - ٣ - ١٩٩٢ .

الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، الذي وضع (حنين) علي رأس (بيت الحكمة) ببغداد ، وكان يزن الكاتب المترجم إلي العربية بالذهب ، فيكافئ به القائم بالترجمة وكانت بعض الأسر العربية تتخذ لنفسها مترجمين خصوصيين ينقلون لهم التراث العلمي اليوناني إلي العربية ، مثل أبناء (موسي بن شاكر) الذين انفقوا الكثير لترجمة كتب الميكانيكا .. وتمت هذه العملية في القرن الثالث الهجري علي نطاق واسع ، لتبدأ في القرن التالي عملية الإبداع العلمي العربي ، ذلك الإبداع الذي تجلي - طبيا - في جهود الرازي وابن سينا والزهراوي وظل ممتدا حتي القرن السابع الهجري متمثلا في جهود ابن النفيس ومعاصريه .

ولاشك في أن هذه العملية تعطينا اليوم دروسا كثيرة ، درسا في كيفية انفاق العرب الأجداد لأموالهم في العلم والترجمة - وذلك في مقابل إنفاق العرب الأحفاد لأموالهم في الملاهي الأوروبية وعلي شراء السلاح لقتل بعضهم البعض .. ودرسا في وعي الحكام الأوائل بأهمية العلم وبضرورة الأخذ العملي بأسباب تطوره - وذلك في مقابل اهتمام الحكام الأواخر بحياكة المؤامرات لبعضهم والدعاية الجوفاء لأشخاصهم .. ودرسا في إدراك الأسر الغنيمة لأهمية اقتناء أصول العلم وبذل المال في الترجمة والتعريب - وذلك في مقابل سعي الأسر الحالية لتكديس أموالها في بنوك الغرب .. إلي آخر تلك الدروس المستفادة من عملية الترجمة الكبري التي تمت في بدء الحضارة العربية . لكن الدرس الأهم الذي ينبغي علينا إدراكه ، هو إن الأوائل كانوا علي وعي تام بما يجب أن يترجم وينقل إلي اللغة العربية ، كان لديهم معيار للانتقاء ، فأقبلوا علي كتب العلم.

.. ولما أرادت أوروبا الخروج من عصورها المظلمة إلي عصر نهضتها التي نري ثمارها اليوم، أقبلت علي القيام بعملية الترجمة الكبري الثانية ، فقامت بنقل كتب العلم العربي إلي لغتها القومية . ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) نشطت مراكز الترجمة من العربية إلي اللاتينية ، وانفتحت شهية المترجمين ، فقام (أندريا الباجو) بترجمة مؤلفات ابن النفيس - ونسبها لنفسه - وقام غيره بترجمة : القانون في الطب لابن سينا والجامع في الصيدلة لابن البيطار ، التصريف في الجراحة للزهاوي .. وغير ذلك من أمهات كتب الطب العربي لتتواصل بعد ذلك البحوث الطبية في الغرب . حتي يأتي (كلود برنار) ليضع الصياغة المعاصرة للطب الغربي المؤسس علي قاعدة التجريب الدقيق .. التجريب الذي كان الأطباء العرب المسلمون قد بلغوا فيه مبلغا عظيما .

ونعود للدرس التاريخي المستفاد من هاتين العمليتين ، فنري أن العرب حين نقلوا عن تراث السابقين ، والأوروبيين حين نقلوا من اللغة العربية .. كانت عملية النقل والترجمة تنصب علي الجانب (العلمي) من تراث الآخرين ، وهو الجانب الذي يعد تراثا إنسانيا تراكميا ، ولا يمكن اعتباره ثقافة محلية خاصة . العرب لم يترجموا عن الهندية (الرامايانا) ولم يترجموا عن اليونانية (الإلياذة - الأوديسة - الأعمال والأيام) وذلك لأنهم أدركوا أن هذه النصوص علي عظمتها . هي محض نصوص أدبية ودينية تكشف عن طبيعة الثقافة الخاصة بالهند واليونان ، وما كان يعنيهم في الحقيقة هو العلم المتمثل في كتابات شاناق وأبقراط وجالينوس

والاسكندرانيين . وعندما كتب البيروني (الآثار الباقية عن القرون الخالية) تحدث عن إسهامات السابقين في الفلك والطب والهندسة والتاريخ والتقاويم ، ولم يتوقف كثيرا عند الأدبيات .. وعلي هذا النحو ، استفاد العرب بما يعينهم علي استكمال مسيرة الحضارة الإنسانية ، ولم يتوقفوا كثيرا عند ما يشغلهم عن مهمتهم ويعرضهم لخطر الذوبان في ثقافة الآخر .

وحين ترجم الأوروبيون عن العربية ، لم يترجموا (المعلقات السبع) ولم يهتموا كثيرا بأشعار المتنبي ونقائض جرير والفرزدق ، وإنما أقبلوا علي ما هو عام للإنسانية من نصوص العلم العربي ، فصارت مراكز الترجمة في صقلية وباليرمو وأسبانيا تهتم بالأعمال العربية العلمية التي تعينهم علي التواصل مع المسيرة التراكمية للعلم ، وخرجوا بذلك من مأزق الذوبان في ثقافة العرب وتراثهم الديني والأدبي .

وكان خطؤنا الأكبر حين بدأنا نترجم عن الغرب في هذا القرن ، فقد سعينا - دون هوادة - نحو ترجمة التراث الأدبي الغربي ، وما حوله من فلسفات ورؤي غربية .. فصرنا نترجم ما هو معاصر من ثقافة الغرب ، تاركين العلم الغربي الذي يهمنا في المقام الأول ، فكانت النتيجة هي الذوبان في ثقافة الآخر الغربي - وساعد الاستعمار القديم والمعاصر علي هذا الذوبان - وابتعدنا عما هو إنساني عام من إنتاج الغرب .. ويمكننا اليوم أن نقارن كم ما ترجمناه - وأعتنقناه واختلفنا حوله - من النصوص الأدبية والفلسفية الغربية ، بما ترجمناه من كتب العلوم المعاصرة .

ويختم الدكتور يوسف زيدان هذا السياق قائلا :

.. مما سبق يتضح لنا ضرورة الإقبال علي ترجمة العلم الغربي المعاصر ، ومنه الطب بالطبع، لتصحيح مسار السعي الخاطئ في علاقتنا بالإنتاج الحضاري الغربي . وتعريب الطب هو خطوة نحو تصحيح هذا المسار ، خاصة إن الطب - كعلم - هو في النهاية إنتاج إنساني متراكم عبر التاريخ ، وكونه اليوم متقدما في الغرب ، فذلك لأن الغرب هو الذي طور مرحلته الأخيرة التي لابد أن تتلوها مراحل أخري . ما دام البشر والميكروبات يعيشان معا علي هذه الأرض» .

وفي عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب في أغلبها اتجاها ذا تدفق واحد ، من الحضارة الأوروبية المعاصرة إلي العالم الثالث . وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظي بالترجمة إلي إحدي اللغات الأوربية . لذلك كانت ضمن مقترحات مصر في مؤتمر السياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢ تحت مظلة منظمة اليونسكو اقتراح بإنشاء مركز عالمي للترجمة يتبع منظمة اليونسكو ، تكون مهمته تلقي ما ترشحه الهيئات الثقافية في دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته في وقت واحد إلي اللغات الأوربية وطبعه ونشره وتوزيعه في كل الشعوب التي تتكلم هذه اللغات مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولي ، حتي يمكن تعريف المثقف العالمي بإنتاج مثقفي دول العالم الثالث .

ولقد شغلت قضية الترجمة عددا من المترجمين والمثقفين العرب كما شغلت هيئات ثقافية وأكاديمية ووزارات العمل الثقافي . وكان من المنطقي أن تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم ساحة لمناقشة قضية الترجمة في عالمنا العربي المعاصر .

علي المستوي المهني أدلي المترجمون العرب بشهادتهم في المشاكل المعاصرة للترجمة . يقول الدكتور محمد عناني :

لم يعد بيننا من ينكر أن ترجمة الأدب العربي المعاصر إلي الانجليزية تفتح الطريق إلي العالمية أمام كتابنا - شبابا وشيوخا - وإن الترجمة قد أصبحت اليوم طريقا ذا اتجاهين بعد أن أمسي لدينا كتاب كبار يشهد لهم العالم بالتفوق والامتياز المطلق . واعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد ثقتنا بأنفسنا - أدباء وفنانين ونقادا - بعد أن أعلن العالم اعترافه بنا ، ولم يعد من المستساغ أن يرمي بعضنا بعضا بالقصور - وهو اتهام يستند في أحسن حالاته علي خطأ في التقدير ، ويرجع في أسوأ حالاته إلي دوافع لا تليق بشعب له مثل تراثنا الحضاري ومثل حاضرنا المشرق .

ولكن ترجمة الأدب العربي إلي الانجليزية باعتبارها أكثر لغات الأرض انتشارا - وفقا لتقديرات الأمم المتحدة - تكتنفها عدة مشاكل أوجزها فيما يلي : لدينا أولا المشكلة الفنية أي مشكلة الترجمة ذاتها وهي كما يعرف ممارسو الترجمة عملية شاقة لأن مترجم الأدب ينبغي أن يكون ملما باللغتين (المترجم منها والمترجم إليها) إلماما يتجاوز حدود الإجادة العامة إلي التخصص الدقيق ، وهو التخصص الأدبي الذي يمكنه من التجاوب مع النص الذي يترجمه تجاوبا يصل إلي درجة الاستغراق والتمثل ، ثم هو مطالب بعد ذلك بإعادة صياغته باللغة التي يترجمه إليها صياغة أمينة تبرز مواطن الإبداع الأدبي الكامن في النص الأصلي دون أن تجور علي مصطلح اللغة المترجم إليها . أي أن المترجم الأدبي في صورته المثالية ينبغي أن يكون عالما وأديبا معا ولو تفاوت حظه من هاتين الخاصيتين . وهذا - علي ندرته - ليس مستحيلا فأعظم المترجمين العالميين كانوا كذلك سواء كانوا من أبناء اللغة المترجم إليها أو منها .

أما المشكلة الثانية فتتصل بالقدرة الإعلامية إذ أن قدرة الأدب المترجم علي النفاذ إلي أسواق بلدان العالم بدلا من الانتظام في رفوف مكتبات الجامعات والمعاهد تتوقف علي قدرة الجهاز الإعلامي المصري علي النفاذ إلي الأسواق الأجنبية إما بالتعاون مع دور النشر الأجنبية - وهذا هو الطريق الميسر المفتوح ولو كلفنا ذلك بعض المال - وإما بصورة مستقلة عن طريق المعارض والإلحاح علي أسواق المكتبات بالإنتاج المصري .

ولدينا ثالثا مشكلة العمل نفسه أي مشكلة اختار النصوص وتكليف المترجمين والمراجعين والدارسين الذين يكتبون مقدماتها أو دراسات نقدية عنها . ولا يستهين أحد بهذه المشكلة التي واجهتها وأواجهها منذ أن بدأنا العمل في هيئة الكتاب في مشروع الأدب العربي المعاصر بالانجليزية فالظروف المادية عسيرة إلي أبعد الحدود والمقابل المادي الذي تحدده الدولة محدود إلي درجة مثبطة ، والقول بالدافع المعنوي أو الأدبي وحده مردود عليه بأن أمام المترجم الكفء أبوابا أخري مفتوحة يستطيع فيها تحقيق المكسب الأدبي والمادي جميعا ، ولا أستثني من هذه الظروف

ندرة من يجيدون الطباعة بالانجليزية والمصححين ومن يصممون الأغلفة أي القائمين علي إخراج الكتب بصفة عامة .

هل معني ذلك إذن أن نترك ترجمة الأدب العربي للمستشرقين ودور النشر الأجنبية ؟ بالقطع لا ! فإن هذا إهمال في حق أدبائنا لا يعدله إهمال ، والاعتماد علي الأجانب معناه الاستهانة بقدراتنا النقدية واللغوية والإعلامية والتسليم بتعذر التغلب علي المشاكل التي ذكرتها. فالواقع أنها لا تستعصي علي الحل وإذا تحلينا بقدر من الواقعية في تحديد أجر المترجم مثلا ، ونهض جهازنا الإعلامي الخارجي بما هو متوقع منه ، ونشطنا في التعاون مع الأجهزة الثقافية الحقيقية في الخارج مثل كبري دور النشر والصحف وأجهزة الإعلام ووكالات التسويق (من خلال أجهزة وزارة الثقافة ومصلحة الاستعلامات) استطعنا أن نخرج بمشروعنا الوليد إلي العالم بحيث تمثل كتبنا المترجمة أدبنا المعاصر وبحيث تجد طريقها إلي أسواق العالم [1] »

وتروي الدكتورة ابتهال يونس عضو هيئة التدريس بقسم اللغة الفرنسية بجامعة القاهرة تجربتها في ترجمة رواية نجيب محفوظ « زقاق المدق » أو بمعني أدق إعادة ترجمتها فتقول :

* بدأت أولا بترجمة العنوان والدلالات المصاحبة لهذه الترجمة ثم أشرت إلي الأجزاء الهامة من النص الأصلي الذي أغفل المترجم ترجمتها وما أدي إليه هذا الإغفال . وتقوم دراسة السياق الثقافي في النص المترجم علي ثلاثة محاور :

* أولا : هو محور الترجمة الخاطئة الناتجة عن قراءة سريعة سطحية وعن عدم الإجادة العميقة للغة العربية والاكتفاء بالمعني المعجمي من خلال القواميس أي للمعني الاشتقاقي المباشر وتجاهل المعني المجازي .

* المحور الثاني : يختص بالترجمة الخاطئة الراجعة لعدم فهم أو جهل السياق الثقافي المصري بصفة عامة والسياق الخاص بالأحداث .

ولقد قمت بدراسة المحورين معا وذلك لتداخلهما وصعوبة الفصل بينهما أحيانا .

* أما المحور الثالث : فهو الخاص بنقل تعبيرات شديدة الارتباط بالسياق الثقافي للنص الأصلي إلي السياق الثقافي الغربي من خلال الترجمة الحرفية فأصبحت بلا معني ومن هنا يستحيل الانتقال من سياق إلي آخر .

ولا تقتصر الصعوبة في الترجمة علي الإنتاج الأدبي بل تتعداه إلي لغة الإعلام المفترض فيها شدة الوضوح . تقول الصحفية المصرية مها عبد الفتاح :

أغرب ما قرأت عن انفتاح جورباتشيف هو التشكيك في المعني اللغوي ذاته لكلمة «جلاسنوست » الروسية وهي الكلمة التي ترددت وذاعت وصارت أشهر كلمة روسية حفظها

---

(١) د. محمد عناني - عن ترجمة الأدب العربي - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤ - ١١ - ١٩٨٨ .

العالم عن ظهر قلب ودخلت القاموس الشعبي لقراء الصحف من الناس العاديين !

ولكن سفيرا أمريكيا يعتبر حجة في الشئون السوفيتية والكتلة الشرقية اسمه (ويليام ليوورز) كتب في المجلة المتخصصة الشهيرة في السياسة الخارجية (فورن افيرز) يؤكد أن المعني اللغوي لكلمة جلاسنوست ليس هو الانفتاح كما ردد العالم وصدق الكثيرون وإنما شيء مختلف !

قال ليورز - وكان سفيرا للولايات المتحدة في تشيكوسلوفاكيا حتي عام ١٩٨٦ أن الترجمة الصحيحة للكلمة هو : النشر في الهواء أو علي الملأ .. وإن الكلمة المقابلة لها في اللغة التشيكية هي : (هلازيتوست) Hlasitost بمعني الصوت العالي أو بأعلي الصوت .. ويقول هذا السفير الأمريكي إن التشيك يستخدمون حاليا الكلمة الروسية جلاسنوست في وصف جهود جورباتشيف ولكنهم يعلمون جيدا مثلهم مثل غيرهم من شعوب الكتلة الشرقية إنه لا تعني «الانفتاح» كما هو شائع في العالم وإنما هي تؤدي معني « الدعاية » .. وأكد أن هذا هو المعني الموجود فعليا في القواميس الانجليزية - الروسية من ترجمة لكلمة جلاسنوست .

وتفسيره في ذلك هو أن « الإعلام » الأمريكي والبريطاني هو الذي قام بتشويه معني الكلمة بترجمتها علي هذا النحو ! وهو يتحدي ويقول لكل من يشكك في قوله أن يفتح أي قاموس روسي - انجليزي ويبحث عن المرادف لكلمة جلاسنوست وهي .. نشر أو دعاية !

وبعد نشر هذا المقال بدأ البحث والتنقيب في أصل ترجمة الكلمة منذ البداية وتبين أن وكالة رويتر للأنباء قد استخدمت كلمة « دعاية » كمعني مرادف لكلمة جلاسنوست وذلك عندما أعلن جورباتشيف لأول مرة عن سياسته الجديدة .. أما وكالة أسوشيتد برس فقد ذكرت « انفتاح أو دعاية » وهكذا بدأ سريان تعبير انفتاح وتناقلته الألسن والأقلام و .. قد كان !

ثم يدخل إلي الموضوع خبراء التحليل السياسي والنفسي أيضا فقالوا إن كلمة « انفتاح » تستدعي إلي الذهن مشاعر ودودة وإحساسا منعشا وكأنها توحي بتحول ما نحو القيم الغربية.. بينما تعبير دعاية أو مذاع علي الملأ وهو المعني الدقيق لكلمة جلاسنوست إنما يستدعي أشياء أخري أقلها أن تستخدم المعلومة في خدمة القيادة .. أي الدعاية !

ويدخل في المسألة أعضاء حزب المتشككين في كل ما هو سوفييتي « أو جورباتشوفي » قالوا إذن لابد أن نوجد تعبيرا آخر غير كلمة انفتاح لأنه علي هذا النحو إنما نقدم إليه هدية مجانية علي طبق من الفضة أي إلي جورباتشيف .. وغير هؤلاء هناك من انهال باللوم والتقريع علي هؤلاء الكتاب والصحفيين الذين بدلا من أن يكونوا حراسا علي اللغة السياسية تحولوا إلي إشاعة الأوهام والآمال الكاذبة من جراء إهمالهم وتواكلهم وتكاسلهم عن استنباط تعبيرات دقيقة وجديدة ! [١] »

ولعل من أفضح صور الغزو الثقافي تسمية الاستعمار . فهذه الكلمة في اللغة العربية

---

(١) مها عبد الفتاح - انفتاح جورباتشوف خطأ في الترجمة - جريدة الأخبار بتاريخ ١٨ - ١١ - ١٩٨٧ .

تعني السعي والطلب في العمران والتقدم . وبرغم أن الوجدان تجاه الكلمة يدرك المعني الأصوب وهو الاستخراب إلا أن اللفظ مشكك في حد ذاته . وبرغم أن الفهم العربي والعقل العربي يُكّن للكلمة حشدا من البغض والكراهية فإن ظلا من الخلل يعكسه هذا الاستخدام اللغوي الخاطئ الناتج عن ترجمة خاطئة .

إن للترجمة دوراً تاريخيًا في الاتصال الثقافي علي مدي الحضارات والعصور . وهذا الدور شأنه شأن الوسائل الأخري من وسائل الاتصال . يمكن أن يكون صالحا إذا أحسن استخدامه ، ويمكن أن يكون مفسدا إذا اقتصر علي ترجمات دعائية مقصودة ، أو ترجمات فاسدة ومفسدة . وعلي البلد النامي أن يختار ، وأن يخطط لما يترجمه . ولكن المشكلة أن ظروف التخلف كثيرا ما تجعل هذا الدور مفتقدا . ويصبح التنبيه إليه والاهتمام به ضرورة ثقافية ملحة . ومثال علي الاهتمام بقضية الترجمة ودورها المفتقد كانت ندوة الترجمة والتنمية الثقافية التي عقدتها في مصر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلي للثقافة بالاشتراك مع هيئة الكتاب (عام ١٩٩١) . جاءت هذه الندوة تعبيرا عن هذا الاهتمام ، ويقظة الضمير الثقافي في مصر للسلبيات التي ترتبت علي غياب دور الترجمة . ولقد اشتركت في جلسات هذه الندوة مجموعة كبيرة من أساتذة الجامعات ورجال الفكر في مصر . وطرحت الندوة اجتهاداتها لإعادة الفعالية لحركة الترجمة . وأبانت عن أهمية الترجمة في حركة التنمية الثقافية القومية . وقد انتهت الندوة بعد مناقشاتها إلي إصدار التوصيات التالية :

* إنشاء مركز توثيقي يتبع لجنة الترجمة - بالمجلس الأعلي للثقافة - به معلومات عن المترجمين والكتب المترجمة . ولابد أن يقوم هذا المركز بتحديد الكتب التي تجب ترجمتها حسب الأهمية - علي أن تشارك في هذا المركز الجامعات والمؤسسات المعنية بالترجمة .

* تنظيم ندوات متتابعة تتناول الموضوعات الهامة والخاصة بالترجمة وإعداد المترجمين .

* إصدار مجلة فصليه أو سنوية تختص بالترجمة وبحوثها تحت إشراف وزارة الثقافة .

* ضرورة إصدار ملحق بالمصطلحات الجديدة الواردة في النص المترجم إلي العربية وأن تلتزم دور النشر بذلك عند إصدارها للكتب العلمية المترجمة من اللغات الأخري .

* إنشاء بنك للمصطلحات بواسطة الحاسب الاليكتروني لخدمة المترجمين .

* رصد جائزة دولة تقديرية خاصة بنشاط الترجمة .

* رفع أجر الترجمة إلي مستوي يتفق مع مقتضيات العدالة الاجتماعية والعمل علي سرعة إصدار القرار الجمهوري بتعديل مكافآت الترجمة المعروضة علي مجلس الوزراء .

* ضرورة وضع برامج لتدريب المترجمين وتنظيم حلقات نظرية وعملية لهم في الجامعات.

* ضرورة تنفيذ مشروع الموسوعة العربية . وإصدار معاجم مختلفة ثنائية اللغة عامة ومتخصصة . ومناشدة مجمع اللغة العربية نشر المعاجم التي تصدر عنه علي نطاق أوسع .

* ضرورة إصدار ثبت ببيلوغرافي للأعمال المترجمة إلي اللغة العربية في كل البلاد العربية.

* إنشاء رابطة للمترجمين والعمل علي حماية حقوقهم الأدبية والمادية » [١] .

وبرغم أهمية المؤتمرات علي المستوي القطري التي عقدت في البلدان العربية إلا أن الخطة الشاملة للثقافة العربية عرضت .خطة قومية للترجمة ، تتجاوز في أهميتها كافة التوصيات السابقة لها ، وتصبح مرجعا هاما للهيئات المشتغلة بالترجمة في الوطن العربي . وهذه تفاصيلها[٢] :

ملامح الخطة القومية :

لابد لنا عند صياغة مشروع خطة قومية للترجمة من التعرض إلي هذه الموضوعات :

أ - المنطلقات .

ب - الأهداف .

جـ - الأسس .

د - الوسائل .

هـ - المراحل .

و - طرائق التنفيذ .

أ - المنطلقات :

١- إن العرب أمة واحدة ولو تعددت أقطارها ودولهم . تجمعها مقومات القومية التي عز أن تجتمع لأمة أخري مثلها ومن أهم هذه المقومات وحدة اللغة ووحدة الثقافة .

٢- بني العرب حضارة اتسمت بالشمول والغني والأصالة والانفتاح علي الحضارات الأخري وانعقدت لهم الريادة في مجال الفكر والثقافة قرونًا عديدة .

٣- أسهم العرب في إغناء المعرفة الإنسانية عبر العصور وقدموا للبشرية منجزات جليلة الشأن في ميادين الفكر والأدب والفن .

٤- يسعي العرب في هذا العصر للتغلب علي التحديات التي تواجههم : التخلف والجهل والتجزئة والتسلط الأجنبي وذلك لبناء مجتمع عربي نام متحرر وموحد .

٥- يعمل العرب للانفتاح علي الفكر الإنساني السليم والعلم الحديث والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة علي أساس العدل والسلام والتعاون بين الشعوب .

---

(١) عبد العال الحمامصي - دور الترجمة - مجلة اكتوبر - بتاريخ ٢١ - ٤ - ١٩٩١ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث - الجزء الثاني - ص٦٥٩ إلي ص٦٦٩ .

ب- الأهداف :

تتوخي الخطة القومية للترجمة تحقيق الأهداف التالية :

١- إغناء الفكر العربي وإخصابه بروائع التراث العالمي .

٢- إرساء نهضة علمية بنقل العلوم المختلفة والتكنولوجيا الحديثة .

٣- نقل الدراسات العميقة في شتي فروع المعرفة لتعزيز البحث العلمي .

٤- المساعدة علي تعريب التعليم بشتي مراحله وأنواعه في جميع البلدان العربية .

٥- تعريف المواطن العربي بقضايا العصر ومشكلاته .

٦- تعريف العالم بنتاج الفكر العربي .

٧- تطوير اللغة العربية بحيث تصبح قادرة علي التعبير عن متطلبات الثقافة الحديثة .

جـ- الأسس :

تقوم الخطة القومية للترجمة علي أسس صحيحة في اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين، واللغات التي يترجم منها .

اختيار الكتب : تختار الكتب التالية :

- الكتب التي أحدثت اتجاهًا جديداً أو مدرسة فكرية في الثقافة الإنسانية في العلم والأدب والفن.
- أمهات الكتب ، أي الكتب التي تجمع شتات المعرفة في ميدان واحد أو فرع واحد وتعتبر مراجع في موضوعاتها .
- الكتب التي تلبي احتياجات حقيقية عند الطفل والشاب والكهل وعند القارئ العادي والمثقف والمتخصص ، وتنمي ثقافتهم وتساعد علي نشر الثقافة الجماهيرية .
- الكتب التي تسهم في تنمية الثقافة العلمية والمهارة التقنية .
- الكتب التي تعالج شؤون التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتنقل تجارب الشعوب والدول في هذا المضمار .
- الكتب التي ألفت عن البلدان العربية وبخاصة القضية الفلسطينية - قضية العرب الأولي .
- الكتب التي تتناول الفكر العربي الإسلامي في الماضي والحاضر بموضوعية ونزاهة .
- الكتب التي تمثل نتاج الفكر العربي الخلاق ، قديمة وحديثة ، لنقلها إلي اللغات الأجنبية الرئيسية .

اختيار المترجمين والمراجعين : يشترط في المترجم ما يلي :

١- أن يكون متمكنًا في موضوع الكتاب وإذا كان الكتاب في العلوم والتكنولوجيا يجب أن يكون مختصًا في الموضوع . وأحيانًا ينبغي توافر التخصص الدقيق في موضوع بعينه .

٢- أن يكون متقنًا اللغة العربية وعارفًا قواعدها الصرفية والنحوية وملمًا بأصول البلاغة إلي حد القدرة علي إنشاء الجملة القوية والعبارة السليمة .

٣- أن يكون مطلعًا علي المصطلحات العلمية وطرائق وضعها : الاشتقاق والتعريب والمجاز والنحت وما إلي ذلك .

٤- أن يكون متقنًا اللغة الأجنبية التي ينقل عنها ، قواعد وأسلوب .

٥- ويشترط في المراجع أن يكون جامعًا شروط المترجم بل متقدمًا عليه معرفة وخبرة في الموضوع المترجم واللغتين العربية والأجنبية المنقول منها كي يستطيع ضبط الترجمة واستدراك ما فيها من نقص وتقويم ما يشوبها من خطأ أو ركاكة .

وإذا تعدد مترجمو الكتاب الواحد اقتضي الأمر تعيين منسق بينهم يعني بتوحيد المصطلح والأسلوب .

٦- ينبغي أن تتوافر مثل هذه الشروط فيمن ينقل كتابًا عربيًا إلي لغة أجنبية .

اختيار اللغات :

لابد من تحديد اللغات التي يترجم منها وإليها وينبغي :

١- أن تكون الترجمة من اللغة التي كتبت بها المؤلفات - ولا يصح النقل عن لغة وسيطة إلا في حال الضرورة .

٢- أن تكون الترجمة من اللغات التي توضع بها المؤلفات المشتملة علي البحوث والمعلومات العلمية المتطورة وهي : الإنكليزية والفرنسية والروسية وينظر مستقبلاً في الترجمة من لغات أخري . أما الآداب فيجب نقلها عن اللغات التي كتبت بها في الأصل إلا في حالات خاصة يتعذر في مثلها العثور علي المترجم القدير .

٣- أن يتم نقل المؤلفات العربية إلي اللغات الأجنبية الأكثر شهرة واتساعًا .

د- **الوسائل :** يتطلب تنفيذ الخطة القومية للترجمة تأمين الوسائل التالية :

١-المعاجم والمصطلحات :

من شروط الترجمة الناجحة أن ينقل النص من اللغة الأجنبية إلي اللغة العربية بألفاظ عربية فصيحة بعيدة عن العامية والخطأ وتتألف في جمل وتراكيب خالية من التعقيد والغموض كيما يتم إيصال المعني إلي القارئ إيصالاً حسنًا فيتناول النص بلا عناء فيفهم معانيه ويتأثر بما يتضمن من مشاعر وصور ، وينبغي للمترجم أن يستعمل اللفظ الدقيق الملائم مقابل اللفظ الأجنبي ولا سيما إذا كان مصطلحًا علميًا . ولابد له إذا ما أراد العثور علي المصطلح الصحيح .

ولا سيما في الموضوعات العلمية الدقيقة . من معجم أو معاجم يستعين بها ويطمئن إلي ما تقدمه إليه من تحديد وشرح وإيضاح للمفردات التي يرغب في استخدامها . ولا يوجد حتي الآن ، علي كثرة المعاجم الموجودة في السوق العربية . المعجم الذي يسد الحاجة ويفي بالغرض . ولذا نري من الأهمية بمكان العمل علي إيجاد : معجم إنجليزي - عربي ، وعربي - إنكليزي ومعجم عام ثان فرنسي - عربي ، وعربي - فرنسي ، يكونان وافري المادة ومتميزين بالدقة . وعلي إيجاد : معاجم متخصصة ثنائية اللغة أو ثلاثية اللغة في كل باب من أبواب المعرفة: معجم طبي، معجم هندسي ، معجم في الفيزياء ، معجم في علم النفس ... وينبغي أن تستوعب هذه المعاجم جميع الجهود التي بذلت في الوطن العربي في الحقل المعجمي والإفادة منها . وفي مرحلة متقدمة ينبغي إيجاد مثل هذه المعاجم بالنسبة للغات الروسية والألمانية والإسبانية .

إن النتائج التي توصل إليها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط علي الرغم من الجهود التي بذلها طوال عشرين سنة لغرض تنسيق المصطلحات العلمية وإصدار معاجم بها لا تفي بالغرض حتي الآن ، علي أهميتها ، إذ أنه لم يتوصل بعد إلا لإقرارقسم من مصطلحات التعليم العام وشرع في رسم مصطلحات التعليم العالي ، ولابد من مضاعفة الجهد واختصار الزمن لإكمال العمل الجليل الذي ينهض به .

إن جهداً عربيًا كبيراً يجب أن ينصرف إلي إنجاز توحيد المصطلح العلمي وإصدار معاجم عامة ومتخصصة . وهذا أمر يقع العبء الأول فيه علي عاتق مجامع اللغة العربية التي يجب عليها كذلك أن تضع كتابًا دليلاً يضم القواعد (المنهجية) التي تعين علي وضع المصطلح أو تعريبه، هذه القواعد التي تتضمنها أعمال المجامع وقراراتها في نصف القرن الأخير .

٢- إعداد المترجمين :

إن الرغبة في الترجمة تختلف عن القدرة عليها ، فإن الشروط الأولية للمترجم المجيد هي اختصاصه في موضوع الكتاب المترجم وإتقانه اللغة العربية واللغة الأجنبية المنقول منها . ولكن الترجمة هي أكثر من المعرفة العلمية والأدبية واللغوية هي فن يحاذي التأليف ويقارب الإبداع . إن الفهم الدقيق للمعني المراد نقله واستشفاف العاطفة المستترة وراء العبارة واستجلاء الصورة المرتسمة في خيال الكاتب ثم اختيار اللفظ العربي الملائم والجملة البارعة الصياغة . كل هذا يدني النص المترجم من النص الأصلي .

الترجمة معرفة وممارسة ، ولا يصح أن تترجم كتب علمية أو ثقافية علي سبيل التعليم أو التمرن أو التكسب ، إن عدم ترجمة كتاب ما خير من ترجمته ترجمة رديئة تشوه معانيه وتسيء إلي المؤلف والقارئ في آن واحد .

ومن هذا نستنتج أن ثمة ضرورة لتأهيل المترجمين أو زيادة كفاءتهم عن طريق إقامة دورات تدريبية لهم . ومن الممكن تنظيم دورة تأهيلية لكل فئة منهم تعمل في مجال معين من مجالات العلم أو الثقافة ، في إحدي الجامعات أو مراكز البحوث والدراسات تتم فيها مناقشة أصول

الترجمة وأساليبها وتترجم فيها نماذج من النصوص مع مناقشات لغوية . وكذلك ينبغي الاستفادة إلي الحد الأقصي من خريجي معاهد الترجمة في الأقطار العربية وأقسام الترجمة في جامعات الوطن العربي .

٣- تشجيع المترجمين :

إن الأجور التي تدفع للمترجمين باسم تعويضات أو جوائز أو مكافآت لقاء عملهم ما تزال حتي الآن ، وفي أغلب الأحيان ، غير مجزية ودون الحد المطلوب ولا سيما أنهم يقومون بعمل الترجمة في أوقات راحتهم لكونهم غير متفرغين لها . ولذا يحسن بالجهات المسؤولة عن العمل الثقافي أن تشجع المترجمين ولا سيما المجيدين منهم وذلك بتقديم جوائز تشجيعية لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع : علمي أو أدبي أو فني ، وجوائز تقديرية لأفضل المترجمين في مجال ما ، عن مجمل إنتاجهم وتقديراً لما قدموا من خدمة للثقافة العربية . ويظل هدفًا مهمًا أن يتفرغ المترجمون المجيدون لعمل الترجمة وتكفل مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية والخاصة لهم دخلاً كافيًا يستغنون به عن كل عمل آخر .

هـ- المراحل :

إن تحديد منطلقات الخطة القومية للترجمة وأهدافها وأسس اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين واللغات التي يترجم منها . ووسائل الترجمة ، يمهد لمعرفة الطريق الواجب اتباعها ويساعد علي وضع برامج تنفيذية تعتمد علي أولويات تعينها حاجات المجتمع العربي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المعتمدة في البلدان العربية وبرامج التدريس في التعليم العام والجامعي وحاجات القراء علي اختلاف أعمارهم وميولهم الثقافية .

إن العمل في ميدان الترجمة عمل متكامل لأن المعرفة كل لا يتجزأ والثقافة وحدة لا تنفصم ، ولكن التدرج وفق سلم أولويات ، ضرورة عملية يقتضيها التخطيط السليم ، وفي مقدورنا أن ندرج ، وفقًا لذلك السلم ، التدرج التالي :

أولاً : كتب العلوم والتكنولوجيا :

١- كتب العلوم الأساسية (البحتة : الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والجيولوجيا ، والبيولوجيا ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان) .

٢- كتب العلوم التطبيقية :

أ - العلوم الطبية : الطب البشري ، طب الأسنان ، الصيدلة ، التمريض ، الطب البيطري .

ب- العلوم الهندسية : الهندسة المدنية ، والمعمارية والميكانيكية والكهربائية والنفطية والصحية والإنشائية ، الإلكترونيات والحاسبات .

جـ- العلوم الزراعية : المحاصيل الزراعية والبساتين والغابات والآفات الزراعية والنباتات البيئية والصناعات الغذائية ، وتربية الحيوان .

٣- كتب العلوم الاجتماعية الإنسانية : علم النفس، علم التربية ، علم الاجتماع ، علم السكان، التاريخ ، الجغرافيا ، الاقتصاد ، المالية ، علم السياسة ، اللسانيات ، المذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

مع مراعاة نوعين من هذه الكتب : ما يصح أن يكون كتابًا مقرراً أو منهجيًا وما يصح أن يكون مرجعًا موسعًا .

ثانيًا - الكتب العلمية المبسطة :

الغرض منها توجيه الجيل الناشيء إلي التعلق بالعلم ومنجزاته وتنمية ميله إلي الابتكار والاختراع : كتب مبسطة في الفيزياء والكيمياء والكهرباء والفلك وعلم الفضاء ...

ثالثًا - الروائع الفكرية :

يقصد بها الآثار الفكرية : الفلسفية والأدبية التي يشهد لها بالامتياز علي الرغم من مرور زمن علي وضعها : مؤلفات ديكارت وغوته وديكنز وتولستوي وهيغل ...

رابعًا - روائع الفكر العربي :

السعي لنقل تراثنا الفلسفي والأدبي والعلمي القديم والحديث إلي اللغات الأساسية في العالم .

ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التسلسل قد يصعب التقيد به تقيداً صارمًا ولكنه دليل مفيد ومؤشر صالح .

ومن المؤكد أن باب الترجمة لن يغلق في المستقبل من العربية إلي اللغات الأخري وبالعكس. لأن التواصل بين الشعوب والثقافات صار سمة العصر وسيظل في نمو مستمر . لأن الدراسات والبحوث في ميادين العلم تأتي كل يوم بجديد . وفي كل بقعة من العالم تظهر أعمال أدبية تستحق الترجمة من لغة إلي أخري دون انقطاع .

و- طرائق التنفيذ :

إن تنفيذ الخطة القومية للترجمة يتم علي أساس التعاون الفعال بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبين الأجهزة والمؤسسات المختصة في البلدان العربية .

إن نهوض المنظمة بعمل التخطيط والتنسيق علي المستوي القومي لا يقلل من دور أي بلد من البلدان العربية في التخطيط والتنسيق علي المستوي الوطني ، بل يؤكده ويكمله ، لأن الخطة القومية هي حصيلة الخطط الوطنية في كل بلد من جهة والدافع إلي تطور هذه الخطط من جهة ثانية . ونستطيع القول أن تفاعلاً دائمًا يجب أن ينشأ بين هذه وتلك فيقومان بالعمل في خطين

متوازيين فلا يتوقف أحدهما علي الآخر ، بل يسيران جنبًا إلي جنب بغية التكامل وتحقيق القصد.

وسنتعرض فيما يلي إل دور كل من الدول العربية في تنفيذ الخطة القومية للترجمة : يمكن تلخيص دور كل قطر من الأقطار العربية في هذا المجال بما يلي :

١- الإدارات والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة والقوانين الناظمة لأعمال الترجمة :

بدأ عمل الترجمة بمبادرات أفراد ثم تولته دور نشر خاصة يملكها أفراد أو شركات ثم أحدثت إدارات ومؤسسات حكومية لهذا الغرض ويلاحظ رجحان دور المؤسسات الحكومية علي دور النشر الخاصة في بعض الأقطار والعكس في أقطار أخري مع الاتجاه إلي تخصص المؤسسة أو دور النشر بموضوع علمي أو أدبي أو فني معين .

وانطلاقًا من هذا الواقع يحسن بكل قطر عربي القيام بما يلي :

أ - تقديم الدعم المعنوي والمادي لمؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لتتمكن من أداء مهمتها علي الوجه المطلوب ومساندة دور النشر الخاصة مع إدخال نشاطها من مخطط الدولة العام للترجمة والنشر وتشجيع هذه المؤسسات والدور علي التخصص في موضوعات معينة .

ب- إحداث إدارات أو مؤسسات للترجمة والنشر أو التشجيع علي قيام دور للترجمة والنشر خاصة في الأقطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها العدد الكافي .

جـ- إصدار التشريعات اللازمة لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها وحماية حقوق المترجمين وتحديد واجباتهم .

٢-التخطيط والتنسيق والتنظيم والتوثيق:

حرصًا علي إيجاد ترتيب ملائم للحركة ضمن القطر العربي الواحد ولا سيما إذا وجد فيه عدد من الإدارات والمؤسسات ودور النشر التي تعني بما تترجمه ، يحسن إنشاء جهاز (هيئة أو لجنة دائمة) تتمثل فيه تلك الإدارات والمؤسسات والدور ويتولي المهام التالية :

أ - وضع خطة للترجمة والنشر علي نطاق القطر ، وفق الاحتياجات القائمة والإمكانات المتوافرة.

ب- تبادل المعلومات والتعاون فيما بينها في النواحي الفنية والمالية والتسويقية والإعلامية .

جـ- تنظيم الاتصال والتعاون مع الأجهزة المماثلة في الأقطار العربية الأخري .

د - تنظيم الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومدها بالمعلومات والقوائم والكشوف التي تملكها ، والتعاون معها علي تنفيذ الخطة القومية للترجمة .

هـ- تنظيم الاتصال مع المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والهيئات الدولية والأجنبية والعربية الأخري مثل اتحاد المترجمين الدولي واتحاد الناشرين العرب واتحاد الموزعين العرب والجامعات والمجامع العلمية واللغوية والمجالس والاتحادات العلمية والمهنية . وإصدار

ببيلوغرافيات بالكتب المترجمة سنويًا وتنظيم سجل لها .

٣- حقوق المؤلفين :

إن موضوع حقوق المؤلفين مطروح منذ سنوات عديدة وتعمل منظمة اليونسكو وهيئات دولية خاصة علي إقراره ، ويلاحظ أن عدداً من الأقطار العربية تأخذ بمبدأ الاستئذان من المصدر الأصلي للكتاب : المؤلف أو الناشر أو كليهما وفقًا للاتفاقيات بهذا الشأن ، وبعضها الآخر لا يأخذ بهذا المبدأ . ويبدو مهمًا في هذه المرحلة مراعاة حقوق المؤلفين العرب والمصادقة علي الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف التي أقرها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي في دورته الثالثة المنعقدة ببغداد من ٢ - ٥ / ١١ / ١٩٨١ . ولذا يحسن أن توقع جميع الدول العربية هذه الاتفاقية وتراعي أحكامها .

٤- اختيار الكتب المترجمة :

إن نقطة البداية في نجاح الترجمة هي اختيار الكتاب المراد ترجمته لأن الإنتاج الفكري في العالم المتقدم قد بلغ من حيث الكيف والكم حداً معجزاً ، مما يستدعي انتقاء ما يراد ترجمته. ويحسن في عملية الاختيار اعتماد الأسس التالية :

أ - أن يلبي الكتاب حاجة أساسية لدي فئة من فئات القراء أو يلبي متطلبات التنمية والتقدم في هذه المرحلة التاريخية التي يجتازها المجتمع العربي في الوقت الحاضر .

ب- أن تراعي (الحداثة) في الاختيار إذ إن للكتب العلمية ، بخاصة ، أعماراً تنقضي بفعل التطور العلمي ونتيجة البحوث والكشوف الجارية . وهذه الأعمار تختلف من موضوع علمي لآخر ولكنها أخذت تقصر باستمرار بسبب التطور السريع الذي يطرأ علي المعارف العلمية في الحقبة الأخيرة .

جـ- إيجاد توازن بين الأنواع المختارة : علوم ، آداب ، فنون ، كيلا يغفل نوع يكون ثمة حاجة إليه ، مع وضع سلم أوليات لأنواع الكتب المطلوبة ، ومراعاة تعدد المصادر واللغات المترجم منها كيلا يكون التقيد بلغة واحدة ومصدر واحد ، إذ المفضل هو البحث عن الأفضل في كل مكان وبكل لسان .

د - الاهتمام بما ينمي التفكير العلمي لدي القارئ لأن التفكير العلمي هو المدخل إلي كسب العلم بشكل صحيح فهمًا وتطبيقًا .

أما اختيار الكتب المراد نقلها من اللغة العربية إلي اللغات الأجنبية فينبغي انتقاؤها علي أسس محددة أيضًا تستهدف إبراز العربية المعبرة عن الإبداع العربي في القديم والحديث .

٥- المستوي الفني للترجمة :

إن الترجمة إلي اللغة العربية ينبغي أن يتوافر لها مستوي فني معين من الإجادة والدقة في نقل المعني وصوغ العبارة واستخدام المصطلح . ويمكن الاعتماد من حيث المبدأ علي مراعاة

عربي عام للمترجمين يقيم صلات تعاون مع الاتحاد الدولي للمترجمين .

٨- تداول الكتاب المترجم وتوزيعه :

يلاحظ أن رواج الكتاب داخل القطر الذي ترجم فيه مقبول ، بل يسبق أحيانًا توقعات المسؤولين عن ترجمته ونشره ولا سيما أن مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية تعمد إلي بيع الكتاب المترجم بسعر التكلفة وأحيانًا بأقل منها باعتبار أنها تؤدي بذلك خدمة ثقافية للمواطنين.

بيد أن تداول الكتاب بين الأقطار العربية ليس مرضيًا ولا يسيراً بسبب الصعوبات الناشئة عن المراقبة وكلفة الشحن والرسوم المالية والجمركية والإجراءات الإدارية والمصرفية .

وفي هذا المجال يحسن أن تثابر المؤسسات الحكومية علي خطتها في تقديم الكتاب المترجم للقارئ بسعر مخفض وأن يعمد إلي تخفيف القيود التي تعرقل انتقال الكتاب من قطر عربي إلي آخر كما يحسن أن تعقد اتفاقات ثنائية بين قطرين عربيين بشأن تسهيل انتقال الكتاب وتخفيف أجور الشحن والرسوم .

ومن وسائل ترويج الكتاب المترجم في الوطن العربي يمكن الأخذ بما يلي :

١- الإعلان عنه والتعريف به ونقده أو نشر ملخصات أو تعليقات أو أجزاء منه في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخري .

٢- إقامة معارض متجولة للكتب المترجمة ، تنتقل بين الأقطار العربية للتعريف بها وتيسير اقتنائها للقراء .

قضية التراث :

تظل كتب التراث موضوعا حيا وساخنا في الثقافة العربية والإسلامية وتظل منابع التراث زادا حضاريا يمكن الاستفادة به في صنع المستقبل . وعندما يذكر التراث يذكر الكتاب المخطوط والوثائق والكتاب المحقق الذي تم نشره .

ويرتبط الكتاب بالتراث ارتباطا وثيقا . لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث . وفي عالمنا العربي والإسلامي الرباط أوثق . وتبدو كلمة التراث فخمة ومحاطة بشيء من القداسة في حين أن التراث عموما يحوي أحيانا أشياء عديمة القيمة ، بل وأشياء ضارة كما أن الأغاني الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال « الفولكلور » تصنف ضمن التراث . ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربي علي وجه الخصوص يطلق علي كنوز المعرفة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية في عصور ازدهارها ، برغم ما بها من بعض الشوائب . هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكري الإسلامي الذي يسير في حياة الأمة العربية سير الدم في العروق . وهذا التراث (الديناميكي) قد نحس به وقد لا نحس ولكنه يحكم حياتنا المعاصرة إحكاما شديدا . وهذا الإحكام الشديد ما يجعل مشكلة التراث في حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتعلة متجددة .

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هي إحياء التراث . فنقول تحقيق

الهدفين التاليين :

١- الناحية اللغوية للتأكد من سلامة اللغة العربية من حيث بنية الجملة وتركيبها ومراعاة قواعد الصرف والنحو والإملاء تحاشيًا لكل خطأ قد يقع فيه المترجم .

٢- الناحية النصية : لضبط المعاني والتأكد من توفر الأمانة في النقل وعدم إغفال جملة أو كلمة أو حاشية أو تعليق في النص . ولذا يحسن أن يراعي القائمون علي الإدارت والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة المهتمون بالترجمة المستوي الفني للترجمة والاعتماد علي المراجعة ، كلما وجدوا ضرورة لذلك.

٦- تكوين المترجمين وتدريبهم :

إن المتراجم الجيد لا يتكون مصادفة بل بفعل التعليم والتدريب والممارسة . ويلحظ وجود عدد لا بأس به من المترجمين العرب في فروع المعرفة المختلفة إلا أن المجيدين منهم قلة .

وبغية تكوين مترجمين أكفاء يحسن العناية بالترجمة في مراحل التعليم المتوسطة والثانوية من خلال تعليم اللغات وإحداث معاهد للترجمة بعد المرحلة الثانوية أو بعد مرحلة الدراسة الجامعية الأولي أو فتح أقسام خاصة بالترجمة في كليات الآداب لإعداد مترجمين كتابيين ومترجمين فوريين .

إن بعضًا من خريجي هذه المعاهد والأقسام يستطيعون ، إذا ما توفر لهم الميل والموهبة أن يمارسوا الترجمة العلمية والثقافية ولو في بعض الميادين .

ومن الممكن من أجل دعم الترجمة التخصصية أن تنظم دورات تدريبية مكثفة لمترجمين في مجال محدد كالطب أو الهندسة أو النفط أو الإلكترونيات .. تساعدهم علي الإرتقاء بمستوي الترجمة وإتقان أساليبها وطرائقها .

كذلك يمكن للدولة أن تمنح جائزة تشجيعية في عام محدد لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع ما أو تمنح جائزة تقديرية لمن قدم إنتاجًا مترجمًا متميزاً .

٧- جمعيات المترجمين واتحاداتهم :

إن الترجمة عمل قائم بذاته ومستقل عن كل عمل آخر وتبعًا لذلك ينبغي أن يلتقي المترجمون في تنظيم مهني ، رابطة أو جمعية أو اتحاد . يرقي بمستوي العمل ويحدد واجبات المترجمين ويوحد صفوفهم ويدافع عن حقوقهم المعنوية والمادية . وقد دلت المعلومات التي تم الحصول عليها علي وجود اتحاد للمترجمين في الجمهورية العراقية والجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في حين أن المترجمين يقبلون أعضاء في اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية وأعضاء في رابطة الأدباء والكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية . ومن المستحسن أن ينشأ تنظيم نقابي خاص للمترجمين في كل قطر عربي ، ولا سيما في الأقطار التي يتوافر عدد كاف من المترجمين فيها ، وبعدئذ تلتقي هذه الاتحادات في اتحاد

التراث، ونقول مشكلة التراث، ونقول الاهتمام بالتراث . وهذه القضية لا يكاد مفكر عربي إلا وأدلي فيها بدلوه .

يقول الدكتور حسين مؤنس التراث يشمل ثلاثة أشياء : تراث يختص بالكتب والمؤلفات، وتراث العلم الذي انتقل إلي الغرب وبلاد العالم ، وأصبح جزءا من حضارة العالم ، وتراث التقاليد والعادات والمأثورات ، وهو غير مدون في كتب وإنما يتمثل في الناس والأشخاص . فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أي أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العربي ، ويكفي أن أذكر أننا نقدر أعداد الكتب العربية وأعني (المخطوطات الموجودة في مكتبات العالم العربي والإسلامي وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما في المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر من عشرة آلاف مخطوط . إن تراثنا الحضاري العربي الإسلامي قد تناول كل نواحي العلم والمعرفة ، التي عرفت في العصور الماضية، ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمرا إلا وطرقوه وخاضوا في تفاصيله فالأمة العربية أبدت فعالية ونشاطا كبيرين في أوج تألقها . والمشكلة أن جانبا كبيرا من تراثنا غير محقق ولا مجموع .

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفي علي حد تعبير الدكتور فؤاد مرسي ، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياتي . وهذا التراث الحياتي موصول وموجود في عروقنا كالدم . إنه التراث المتحرك . ويمكن تلخيص العلاقة الإيجابية بين الكتاب والتراث في واقعنا العربي المعاصر في أربعة نقاط رئيسية هي :

١- تحقيق المفيد من التراث ونشره والمفيد هنا بمعني المفيد لحياتنا الحاضرة فالدكتور زي نجيب محمود ، عندما يتناول قضية إحياء التراث يري إنه ليس من الإحياء في شيء إعادة طبع كتاب أصفرت أوراقه في كتاب ابيضت فيه تلك الأوراق . أو نقل (المادة) من (مخطوط) إلي كتاب (مطبوع) دون النظر إلي قيمة المخطوط والفائدة التي يمكن أن تجني من وراء تحقيقه ونشره أولا وقبل أي شيء . وإنما الهدف من الإحياء أن يخرج قارئه ودارسه ه بروح يستمدها مما قرأ أو درس ليبثها في حناياه ، فإذا هو مصطنع لنظره جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه حتي لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المتشكك. فالقارئ لديوان المتنبى مثلا قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم . وقارئ (فكر المعتزلة) القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنسانا يعتد بإرادته الحرة التي أسبغت عليه كرامة الإنسان لأنها ألقت علي كتفيه تبعات الإنسان. إن هذا النوع من القراءة الإحيائية لا يحول ، بأية حال في أن نقف من شعر المتنبى والفكر المعتزلي موقف الناقد البناء الموجه .

ويري الدكتور شكري فيصل أن إحياء التراث ليس عملا تاريخيا يرتبط بالماضي بل هو عمل يرتبط بالمستقبل . إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد .

إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس .

٢- البحث في التراث . أي كتابة بحوث عنه وحوله ، ونشرها لأنه جزء من الفكر الإنساني ويري الدكتور يوسف بكار أن إحياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية إنسانية لكل أمة تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه في حاضرها ومستقبلها ، وتقدمة للإنسانية (هدايا) تنم عن (مقدار مهديها) .

٣- نقد التراث حتي لا يصبح مثل الآبار المسممة ، بغير علامات تحذر من يشرب منها أو مثل السير في حقل ألغام ، بغير خريطة تبين مواقع الألغام ، وسبل تجنبها .

٤- التنسيق بين البلدان العربية حول إحياء التراث ونشره . فما دام التراث ملكا للأمة برمتها ينبغي إذن التنسيق بينها في نشره . ولو في أبسط أشكال التنسيق . ففي معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل في مجال إحياء التراث ونشره هذا إلي جانب الجامعات العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين فإذا تمكنت الجامعة العربية ممثلة في منظمتها المتخصصة في التربية والثقافة والعلوم في وضع أساس للتعاون وللتنسيق بين هذه الجهات ، لتحققت فائدة كبيرة . إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائي هي حاصل جمع الجهود الجزئية ، في حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدها بالتكرار والعشوائية والتخبط .

ويحذرنا الدكتور جابر عصفور[1] من الأوهام التي تحيط بقضية التراث قائلا : خمسة أوهام تحيط قضية التراث في ثقافتنا المعاصرة :

* أول هذه الأوهام إننا نستشعر العزاء في حاضرنا باللجوء إلي ماضينا ، بل إننا في واقع الأمر نفر من معضلات الحاضر الذي نشعر نحوه بالعجز إلي كهوف الجبال القديمة نلتمس في بعدها البعيد أمانًا وهميًا ، فلم تعد جبال الماضي بمنأي ولا بحصن أو قلعة ، لدينا أزمات اقتصادية وسياسية طاحنة نعجز عن حلها ولا نجد سوي الفرار إلي زمن أدبر بخيره وشرِّه لم يفكر أصحابه إلا في مواجهة مشاكلهم ، ولا تجدي حلولهم نفعًا لما يواجهنا من مشكلات . هكذا تصبح العودة إلي التراث نوعًا من « التعويض » عن تعاسة حاضرنا . هذا هو الوهم الأول في رؤية جابر عصفور .

* أما الوهم الثاني فهو الخلط المتعمد حينًا والعشوائي أحيانًا بين الدين والتراث ، فالبعض يلجأ إلي أسباغ الصفات الدينية علي التراث مما يضفي عليه قداسة ليست له لأنه ببساطة من عمل البشر . وليس من بشر معصوم . وليس من عمل بشري يستحق أية صفات مطلقة يستعصي بها علي نسبية التاريخ وإمكانية الخطأ .

* والوهم الثالث ينبني علي افتراض أنه « الأفضل » بين تراثات الأمم ما دمنا « خير أمة أخرجت

(١) د. جابر عصفور - ندوة مستقبل الثقافة العربية - مسقط - ١٢ إلي ١٤ أكتوبر ١٩٩١ .

للناس » . وهو استدلال متعسف من تفسير متعسف للآية الكريمة التي يشير سياقها إلي معني « الأمة » الوارد فيها إلي غير ما يتوهمه الذين يرون في أنفسهم مهما أتوا من المعاصي والكبائر والشرور « خير أمة » . لا ، ليست هذه الأمة في كل التاريخ وفي كل البيئات هي الأفضل . وإنما كانت الأمة في وقت من الأوقات ويمكن لها أن تكون في مستقبل الأيام كما كان الأخيار من المسلمين الأوائل في مقدمة الأمم الفضلي . لذلك لا يجوز الوهم بأن تراث أمتنا بخيره وشره في كل العصور هو « الأفضل » بين تراث الأمم في العالمين .

* والوهم الرابع إننا ننظر إلي التراث علي أنه « مرآة » نري فيها ما نريد أن نراه من ذات أنفسنا ، نسقط حضوره التاريخي لنجتر همومنا الخاصة .

* والوهم الخامس هو تبرير الحاضر السياسي علي أساس التراث ورفض كل جديد إلا بوصفه يجد شرعيته في الماضي .

ولقد كان من حظ الثقافة العربية ، وخط الدارسين للتراث أن العالم العربي الراحل الدكتور شكري فيصل [1] هو الذي قدم البحث الرئيس في هذا الشأن في الخطة الشاملة للثقافة العربية .

لقد بدأ هذا العمل الرفيع بقوله : شغلت المخطوطات العربية اهتمام المثقفين العرب علي اختلاف نزعاتهم . فالذين اجتذبتهم إليها الأصالة والذين شدّهم إليه التجديد بعيدا عن القديم ، والذين اهتموا بالجانب الأدبي والذين اهتّموا بالجانب العلمي كل أولئك كانوا سواء في اهتمامهم بالمخطوطات وبالتراث عامة ، إقبالا عليه أو تنفيرا منه . إيمانا به أو تحديا له وخروجا عنه .

ثم يضيف قائلا : لقد تعودنا خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، أن نبدأ بالحديث في مثل هذه الموضوعات بالتدليل علي قيمة التراث والدفاع عنه . والغريب أن الذين حملوا عليه كانوا علي أقل المعرفة به ، وأن الذين دافعوا عنه كانوا يصدرون عن حدس داخلي وإحساس عفوي صادق بأثره أكثر مما كانوا يصدرون عن تمرس به . وكلا الفريقين لم يكن يستطيع أن يضع يده علي التراث نفسه وأن يملأها منه . لأن كثرة ما نشر منه لم يكن قد نشر بعد . وإنما كانت هناك خلفيات فكرية وراء هذا الموضوع تريد أن تتحكم فيه .

ثم يصل بنا الدكتور شكري فيصل إلي خطته للعمل في حقل التراث تحت عنوان معالم للعمل في التراث فيقول :

المتتبع للأعمال العربية المتراكمة تَتَبّع ملاحظة أو تتبُّع مشاركة ، يخرج من هذه الملاحظات أو الممارسات ببعض الملاحظات . أبرز هذه الملاحظات وأوضحها أننا - في كل مرحلة جديدة أو ظرف جديد - نستأنف الطريق من بدايته .. فإذا جئنا مثلاً نعمل في حقل المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، تجاهلنا كلّ ما قيل من قبل ، وأنسينا كل ما كتب ، وبدأنا نعمل وكأننا أول الذين يزرعون الخطي في الطريق .. وقد تتراءي لنا آثار بعض الروّاد قبلنا فنتجاهلها ، وكأن كلاً

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث القسم الأول - صـ١٧٣ إلي صـ١٩٥ .

منا يريد أن يكون الرائد الأول . إننا لم نتعوّد المتابعة ، ولا الاستفادة من جهود الآخرين الذي تقدمونا .. ونؤثر مشقة البدايات علي دمائة الطرق الممهدة .

١- العمل السابق في المخطوطات :

ومن هنا أسمح لنفسي أن أقول إن أبرز ما يمكن أن نفعله وأصحّ ما يمكن أن نفعله أن نتبيّن ماذا فعل الذين قبلنا في موضوع المخطوطات .. إن جهود الجامعة خلال وجودها في القاهرة لم تكن عبثًا من العبث ، وإني لأذكر من تفاصيل جهود معهد المخطوطات في الميادين المختلفة لهذا العمل ما يدفعني دفعًا إلي تقديره ، وإلي الدعوة لاستثماره ومتابعة خطاه ، وإصلاح ما يكون قد طرأ علي هذه الخطي من انحراف .

إن وصفًا دقيقًا ودراسة مفصلة لما فعل المعهد في أمر المخطوطات تبدو لي هي البداية المنطقية لعملنا وتفكيرنا .. ما دام العمل مرتبطًا بالتفكير ونتيجة له .

ولن تكون القرارات السياسية حائلاً بيننا وبين ذلك .. فما أكثر المتغيرات التي تخضع لها هذه القرارات السياسية .. فلماذا نكون أسري قبضتها .

ولست أدري إذا كان بين يدي اللجنة هذه الدراسة المفصلة لما فعل المعهد ، تجنبًا لتبديد الجهد أو معاودته . ولذلك سأحاول أن أعرض تصوّري لما يمكن أن نقوم به ، متسنداً إلي واقع المخطوطات العربية وكنت جديراً أن أعرض لهذا الواقع . ولكنه من الشيوع بحيث لا أجد الحاجة إلي وقفة عنده . ومن ذلك يمكن تلخيص هذا الواقع بما يلي : المخطوطات العربية متشظِّية في الثنائيات التالية :

١- في البلاد العربية والبلاد الإسلامية .

٢- في البلاد العربية الإسلامية وفي البلاد الأجنبية (الأوروبية والأمريكية) .

٣- بعض الدول الأجنبية والإسلامية تسمح بالتعرف إليها ونقلها وبعضها لا يسمح .

٤- بعض المخطوطات تحت سيطرة الدولة وبعضها في ملك الأفراد .

٥- ما هو في سيطرة الدولة يتبع وزارات مختلفة في البلاد المختلفة ، ووزارات متعددة في البلد الواحد مثل وزارة الثقافة ، وزارة التعليم العالي ، وزارة الأوقاف ، ورئاسة الوزارة .

٦- ما هو في ملك الأفراد ، أفراد من العلماء يقدرونها ، وأفراد من عامة الناس لا يقدرونها .

٧- ومن الأفراد من يرغب في تقديمها ومنهم من يضنّ بها .

ثم هي تخضع لثنائيات أخري :

٨- فبعضها قد صوّر وبعضها لم يصوّر بعد .

٩- وما لم يصوّر : بعضه مما يمكن تصويره لوجود الآلات أو إمكانية وجودها . وبعضها مما لا

يمكن تصويره في الحالة الحاضرة .

١٠- والمصوّر بعضه مما يحتاج إلي تجديد بسبب مضيّ الوقت وبعضه لا يزال صالحًا .

ولا تقتصر هذه الثنائيات علي المخطوطات وحدها وإنما تتناول العناصر البشرية التي تعمل لها :

١١- فالعمل موزع بين الأفراد وبين الجماعات .

١٢- والجماعات بين أن تكون جماعات رسمية كالجامعات والمجامع ومراكز البحث العلمي والمجالس العلمية أو أن تكون جماعات خاصة . والجماعات الخاصة عربية إسلامية أو غربية «جمعية المستشرقين الألمان » .

وأسلوب العمل كذلك يمكن أن يمدّنا بفيض من التشعبات والثنائيات أو الثلاثيات .

١٣- فهناك مثلاً الأسلوب الذي يحرص علي أن يضيف إلي النص كل ما يحتاج إلي فهمه ولهذا الأسلوب منطقه ومسوغاته .

١٤- وهناك الأسلوب الذي يريد أن يخرج النص أقرب ما يكون إلي الصورة التي أرادها صاحبه دون أيّ تدخل من المحقق في الشرح أو التوضيح أو التعليق .

هكذا تتفرع الشجرة وتتعدد الأغصان متكاثرة ، وتخيّم الظلل ، ويضل النظر إلي الثمرة إلاَّ بعد تتبع دقيق .

إن هذه الثنائيات المتشعبة تنتهي بنا إلي حقيقتين :

الأولي : وهي تأكيد لما قدمنا من القول : لابدّ من الاستفادة من الجهود السابقة .

الثانية : أنه لابدّ من دراسة هذا التشعب في كل مرحلة من مراحل العمل التي سنتحدث عنها ، ودراسة أثر ذلك علي طريقة العمل .

ففي المرحلة الأولي ، مرحلة جمع المخطوطات مثلاً ، لابدّ من دراسة الأوضاع القانونية في كل بلد والتلاؤم معها ، ولابدّ من دراسة الظروف العامة والخاصة لكل مكان تتواجد فيه المخطوطات ، بغية التكيّف مع هذه الظروف .

وفي المرحلة الثالثة ، مرحلة توظيف التراث يحسن أن نتابع ما كنا بدأنا به من قبل من مؤلفات أو سلاسل أو نشريات .

هذا كله عن تصوّر واقع ما كان أيام معهد المخطوطات . ولابدّ كذلك من متابعة تصور واقع ما كان بعد توقف المعهد ... ذلك أن العمل للمخطوطات لم يتوقف ، بل لعله نشط نشاطًا بارزاً بعد غياب المعهد ، وأحيانًا خلال وجوده في بعض البلاد والمؤسسات العربية .. فالذي أعرفه أن بعض الدوائر الجامعية في العربية السعودية تعمل بجهد نادر في تصوير مخطوطات أوروبية ، ووصلت إلي نتائج طيبة بفضل جهود أفراد بأعيانهم تدعمهم الدولة .

تصوّر العمل في المخطوطات

تصوّر العمل يأتي نتيجة لتصور الواقع ، وأحسبه كان يكون نتيجة للتقرير الذي تمنّيت أن يكون بين الأيدي عما فعل المعهد وعما كان بعد توقف المعهد . ولا أشك في أن اللجنة آخذة بذلك أو متجهة إلية . وغياب هذا التقرير لا يعني أن نتوقف عن متابعة التصورات .. ففي حدود ما يعرف المرء يمكن تصوّر العمل وعرضه في المراحل التالية :

مرحلة التعرّف .

مرحلة التعريف .

مرحلة التوظيف .

وسأوضح ذلك فيما يلي :

وأحسبني في غني عن أن أنبه إلي أن هذه المراحل ليست متباعدة أو منفصلة ، وليست كذلك محكمة في تدرجها وتتاليها ، وليس بينها هذه الجدر الحديدة .. بمعني أن المرحلة الأولي منها يجب أن تسبق أي عمل يتصل بالمراحل الأخري ، أو أننا لا نبدأ المرحلة الثانية إلاَّ عقب إنجاز المرحلة الأولي .. فليس شيء من ذلك مما يمكن أن يكون في عمل يخضع لهذه التشعبات التي أشرت إليها .. إن العمل يمكن أن ينهض من نقاط متفرقة ، وأن يرتفع فوق سلسلة من الأعمدة تبني في آن واحد .

وأحسبني كذلك في غني عن أن أنبه إلي أن هذه المراحل إنما تتشعب عندي علي هذا النحو، علي أساس من نوعيّة العمل ، وإنها ليست تصوراً ذهنيًا مجرداً ، وإنما هي منطلقة من الواقع الذي أشرت إليه . وأخيراً فإن ضبط هذه المراحل وامتحانها إنما يكون بتكاملها وعودة مرحلة علي أختها أو ابنة عمها بالفائدة .. وقياس نجاحها أو أحكامها يتمثل بهذا التكامل وضمان المردود الكامل لإحدي هذه المراحل علي المراحل الأخري . وهذا تصوّري لهذه المراحل .

المرحلة الأولي : مرحلة التعرّف

تتأتي هذه المرحلة عن الوصف الذاتي الذي أطلقته علي هذه المخطوطات حين قلت أنها متشظية مبعثرة . ولذلك فإن من الطبيعي أن تكون الخطوة الأولي في هذا العمل إنما هي معرفة هذه المخطوطات . وتشمل هذه المعرفة : معرفة أماكنها ، ومعرفة أسمائها ، ومعرفة فهارسها .

أ - عن الأماكن : إذا تجاوزنا المراكز الكبري التي تجمعت فيها هذه المخطوطات ، فإن هناك مراكز صغري موزعة هنا وهناك تضمّ كذلك جزءاً من هذه المخطوطات ، وهناك مراكز وعواصم علمية إسلامية نحن علي مثل اليقين بأنها تنطوي علي ثروة من هذه المخطوطات .. ونحن في حاجة إلي مخطط جغرافي دقيق يدلنا علي هذه المراكز التي نعرفها والتي نحدس وجودها .. في تركية مثلاً أو في الهند أو في الجمهوريات الإسلامية من الاتحاد السوفياتي .

ب- عن الأسماء والفهارس : بعد معرفة المراكز التي تجمعت فيها هذه المخطوطات ، تكون المعرفة

بأسمائها .. ونجد هذه المعرفة علي نحوين :

أ - فهارس منظمة علمية وصفية .

ب- جداول أو قوائم سردية .

وهذا يقودنا إلي عملية تجميع لهذه الفهارس المطبوعة أو تصوير لهذه القوائم ، علي نحو مستوف شامل .

المرحلة الثانية : مرحلة التعريف

تتداخل هذه المرحلة مع المرحلة السابقة . وأما التعريف فيتناول تعريف العلماء والباحثين بهذه المخطوطات ووصلهم بها . وبعض الطرق إلي هذا التعريف تكون عن طريق : طباعة أو تجديد طباعة ما يمكن طباعته من هذه الفهارس أو تصويره أو إعادة نشره علي شكل مضغوط مما تتيحه وسائل التقنية الحديثة: (الورق الخفيف - الحرف الأدّق - طريقة الميكروفيش .. أو ما يماثلها) . فإذا تعذر ذلك أمكن للمعهد أن يتولي عملية التعريف بحيث ينشأ فيه قسم خاص للرد علي الأسئلة وتوجيه الباحثين . وأذكر هنا أنني كنت اطلعت علي كتاب بلغة أجنبية هو فهرس لكل فهارس المخطوطات العربية وتنّد عن ذاكرتي الآن جزئيات التعريف به : الاسم ، المؤلف .

ومصدر هذا الرأي موصول بما أقدره من أن العمل في المخطوطات يجب أن يكون مشتركًا بين الأفراد والمؤسسات ، وإننا يجب أن نحذر كل تدبير يقود إلي استئثار السلطات بذلك وأن نحذر منه .. إن الجهد الفردي العربي جهد متفجر الإنتاج ، وخاصة حين تيسّر له الوسائل . ولذلك فإن نشر مثل هذا الكتاب يفتح الطريق أمام الباحثين ويدفعهم إلي الرحلة في سبيل استكمال أداتهم ، ويوجههم نحو الإطلاع المباشر ، دون أن يكونوا عالة ، في كل خطوة، علي معهد المخطوطات . واستعراض بعض التجارب يضعنا أمام كثير من الحالات التي استطاع فيها الأفراد أن يحققوا الكثير مما وقف المعهد دون تحقيقه .

صناعة الفهارس :

ومرحلة التعريف مرحلة تأسيسية لأنها تتناول التعريف بكل ما لم يعرف عن هذه المخطوطات . ولذلك فهي لا تقتصر علي إشاعة الفهارس بطريقة أو بأخري ، وإنما يجب أن تتناول صناعة هذه الفهارس . ذلك أن كثرة من المخطوطات العربية في البلاد العربية نفسها لا تزال مجهولة .. وأنقاض منها مكدسة لم تر الطريق إلي فهرستها أو حصر أسمائها .. ولذلك فإن عملاً كبيراً يواجه معهد المخطوطات هو الاهتمام بهذه الفهرسة . والفهرسة تحتاج إلي منهج نظري، وقوة بشرية . وقد سبق أن شاركت في ندوة عقدت في بغداد للاتفاق علي صيغة بطاقة الفهرسة ، وأحسب أن من الضروري أن توضع أبحاث هذه الندوة كلها بين يدي اللجنة لتكون من وثائقها . والاستفادة من هذا المنهج الذي أقرته الندوة يؤكد الفكرة التي كنت وقفت عندها ودعوت إليها وهي فكرة المتابعة . أما القوة البشرية فمن المؤكد أن هذا العدد يجب أن تجند له أفواج من

العاملين يختارون من مستوي معيّن ، وتقام لهم دورات تدريبية تغني معارفهم وتؤهلهم فنيًا وعلميًا وثقافيًا لهذا العمل ، ثم يوزعون في الأقطار المختلفة بعد التمهيد لهم في هذه الأقطار عربية إسلامية أو أجنبية.

وهذا العمل (الفهرسة) يقترن ، في صورته الكاملة ، بالوصف .. ولكن وصف المخطوط نوع من دراسته .. وأعرف أستاذاً في ألمانيا الغربية أمضي سنوات في إعداد فهرسة مخطوطات « توبنجن » أو علي الأصح في استكمال فهرستها لأنه كان مسبوقًا إلي ذلك .. لأن عمله كان نقله لكل كلمة أو جملة أو إشارة في صفحة الغلاف أو في الخاتمة أو علي الهوامش ، من مثل أسماء المتملكين له أو قارئيه أو الإجازات التي تنثر هنا وهنا أو ملاحظات بعض قرآئه . وأجد المجال هنا طيبًا لإثارة قضية هامة في إحياء المخطوطات في مراحلها كلها هي :

مستوي العمل ، والتمييز ، في كل ما سنقابله ، بين مستويين : المستوي المثالي ، والمستوي العملي . المستوي المثالي في عملية الفهرسة إنها عملية علمية تقف عند كل ظاهرة في المخطوط في كل ما يتصل به : خطًا ومداداً ، وجلداً ، وتملكات ، وتعليقات ، وهوامش وإجازات وسماعات .. إلي آخر ما يتطلبه العمل العلمي الدقيق . والمستوي العلمي الذي يكون أكبر هدفه أن يعرّف بوجود الكتاب ومعالمه البارزة من أقصر طريق .

وفي عملنا في المخطوطات بل وفي عملنا الثقافي في جملته ، نحتاج إلي هذين المستويين.. يفرض ذلك جملة من العوامل : تكدس التراث وتكراره من نحو وإننا في سباق مع الزمن ومحاولة لحاق بالركب الحضاري من نحو آخر .

وإنما يحدد أحد هذين المستويين الظروف التي نمرّ بها ، وطبيعة العمل ، ومدي جدواه ، وإمكانية تجزئة الصورة المثلي دون جور علي فائدته .

المرحلة الثالثة : مرحلة التوظيف

ماذا نعني بتوظيف التراث ؟ وكيف توظف هذه الثروة في حركتنا الثقافية ؟ وهل من سبيل إلي تحديد بعض الضوابط والقواعد ؟ ومن الذي ينهض بهذا التوظيف ؟

توظيف التراث يعني استخدامه الأمثل في حركة النهضة العربية ، في كل آفاق هذه النهضة وجوانبها . ولا يمكن أن يتمّ هذا الاستخدام إلاَّ إذا نشر هذا التراث ، فتولي علماء إحياءه ليقدموه إلي زملاء لهم ، علماء آخرين ، يعرّفون به ، يفيدون منه دراسة واستنتاجًا . ومن العسير أن نتبيّن سلفًا وجوه توظيف التراث قبل أن ننشره ، أي قبل أن يتفحص هذا التراث ، وأن يكوّن فكرة واضحة عن مضامينه .

ولكن توظيف التراث ليس مرهونًا بمعرفته فحسب ولكنه مرهون كذلك بالجوّ الثقافي الذي يرافق نشره ، والقضايا الفكرية المطروحة آنذاك .. إن هناك تزامنًا بين عملية توظيف التراث وبين حركة الفكر العربية وقضاياه التي تطرحها ظروفه ، وبين حركة الفكر العالمي وقضاياه التي

يطرحها تقدمه . فإذا جئنا نتحدث الآن عن توظيف التراث فنحن محكومون بظروفنا واهتماماتنا ومقادير معرفتنا بهذا التراث .. وذلك كله يتّسم بالجزئية والجانبية . ومن هنا يتبدّى، بوضوح آخر ، وجه الصعوبة ، ومعني المغامرة ، في الحديث عن توظيف التراث قبل معرفته ونشره . غير أن ذلك لا يعني طيّ الموضوع أو السكوت عنه .. وفي وسعنا أن نتقدم ببعض الأفكار مستفيدين من الواقع العربي الذي نعيشه : من واقع التراث وما ننشره منه، ومن واقع المعاناة الفكرية وما نواجه منها . وبمعني آخر ، إننا - قياساً علي ما نعرف وما نواجه ، قياساً علي ما بين أيدينا وما نعاني - نستطيع أن نتمثل ميادين مختلفة لتوظيف التراث :

ففي ميدان الدراسات الإنسانية بعامة ، نجد الحاجة ماسة إلي التراث .. إننا واثقون من أن في طياته ما يساعدنا علي ضبط تاريخ الفكر العربي ورصد حركيته ، ومعرفة اتجاهاته .. فلا تزال جوانب من هذا الفكر العربي مستغلقة ، ولا تزال آفاق من آفاقة غائمة ، ولا تزال تفاصيل من حركته تخضع للأفكار العامة والأحكام الكلية .

وفي ميدان الحياة الإسلامية تبدو كذلك الحاجة ملحة لهذا التراث، لدراسة أدقّ للشرخ الذي أصاب الحركة الإسلامية في عهودها الأولي ، وتتبع أسبابه وأصحابه ، وفي موضوعية وتجرّد . وفي ميدان الدراسات الإسلامية تأريخًا وفكراً ، وعقيدة وتشريعًا ، ونظمًا وحضارة ، نجد ونحس أن أطرافًا كثيرة من ذلك لم تكشف بعد ، أو أن الذين تولوا الكشف عنها إنما نظروا إليها من زاوية ضيقة ، أو من نصوص دون نصوص أخري ، أو من مصادر غير موثقة .. وغياب سيرة واضحة ودقيقة ومفصلة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أدلّ الدلائل علي هذا النقص الذي لا يسده إلاّ استكمال نشر التراث .

وفي ميدان الدراسات اللغوية والأدبية ، نزعم لأنفسنا أننا فعلنا الكثير ، ولكننا حين ننظر فيما بقي حبيس الصحف المخطوطة لا نلبث أن نقول أن الذي لم نعرض له بعد أكثر من الذي عرضنا له .. وحسبك أنه ليس لدينا نشرات موثقة محققة للأصول الأولي في اللغة والأدب والشعر والنحو والغريب .

وفي ميدان الدراسات التاريخية ما أشد حاجتنا إلي عديد من الأصول والمصادر التي لم تنشر أو نشر بعضها .. وأي تحرك في هذا المجال لرسم التاريخ السياسي أو الحضاري يقتضي الاستعانة بكل ما في التراث من جزئيات لم تكشف بعد ، وذلك لاستكمال الصورة والتوثق من الأسباب .

وفي ميادين الدراسات العلمية نلاحظ أن الإسهام الذي قدمه العرب والمسلمون في حركة العلم مجهول أو كالمجهول .. لا في مرحلة الأخذ ولا في مرحلة العطاء .. لا في مرحلة الحفاظ علي الفكر الإنساني ولا في مرحلة إغنائه وتنميته والإضافة عليه .. وما أقل ما نعرف من دقائق ذلك ، وما أكثر ما يداخله من أحكام عامة ليس بين أيدينا تفاصيلها وجزئياتها .

وأيًا كان الرأي في حاجة هذه الميادين جميعها إلي التراث ونشره ، فإن هناك حقائق أخري

كبيرة في الحياة الفكرية تطلّ علينا دائما ، وتشدنا إلي استثمار هذا التراث دائمًا .. هذه الحقائق تتجاوز ضرورة معرفة الحياة العربية معرفة دقيقة للتوصل بتقدير الوجود العربي وتقييم أثره .. فقد بات واضحًا أن الحياة العربية والإسلامية مظلومة في أذهان الغربيين ، وأن جملة من الأفكار السوداء الخاطئة والأحكام المضللة تخالط عقول رجال الفكر في الغرب في كل ما يتصل بالعرب والإسلام ... ثم تتبدّي آثارها في صلات ما بين العرب والمسلمين من نحو والغربيين من نحو آخر.. إننا في الذهن الغربي ضحايا تصوّرات خاطئة وتعصب مقيت ..

ويجاوز الأمر الذهن الغربي إلي أسلوب التعامل .. فقد نهل الغرب من ثقافتنا وبني عليها، وقدمنا له ثقافة أجداده الأولين وزدنا عليها .. ولكنه جاء بنظر إلينا نظرته إلي شعوب ليس لها حظ من حضارة أو فضل عليها .. ثم أقام تعامله معنا علي أساس هذه النظرة .. فإذا لم يكن من تعلقنا بهذا التراث إلاّ تصحيح هذه النظرة وإلاّ الدعوة إلي قيم جديدة في التعامل الإنساني وتخليص الجماعة البشرية والإنسانية من هذا التعصب الظالم ومن آثاره ، وإنقاذ الشعوب العربية والإسلامية من عقد النقص التي خلقها الاستعمار ، وإطلاق قواها في دعم الركب الإنساني .. لو لم يكن للتراث إلاّ العمل علي ذلك من خلال نشره ودراسته وتسخيره لهذه الغايات النبيلة لكفي .

وكذلك نري أن أمامنا في توظيف التراث آفاقًا واسعة .. بعض ذلك في نطاق حياتنا الفكرية الخاصة وجلائها وإلقاء الأضواء عليها .. وبعض ذلك في نطاق صلاتنا الحضارية بالغرب.. وفي كلا النطاقين معًا يكون للتراث وظيفته العلمية الحضارية ووظيفته الإنسانية .

هنالك إذن هذه الصلة الوظيفية العضوية بين توظيف التراث ونشره .. فما من سبيل إلي تحقيق وظيفته إلاّ بعد نشره وما يقود إليه النشر من دراسات ، ومثل هذه الصلة تحملنا علي أن نري في مرحلة التوظيف هذه وجهين : أحدهما الوجه الذي يقابلنا وهو استثمار هذا التراث وتوظيفه ، والآخر الوجه اللصيق الذي يختفي وراء التوظيف ويكون بمثابة التمهيد له ، وهو الإحياء أو التحقيق والنشر . وذلك يقودنا بطبيعة الحال إلي الحديث عن عملية الإحياء والتحقيق والنشر .

وسيكون حديثنا محاولة جواب عن سؤالين كبيرين : ماذا ننشر ؟ ومن ينشر ؟ وكيف نشق طريقنا إلي ذلك من واقع هذا التراث وطبيعته دون أن نحمل عليه نظريات مفروضة ، وتصورات قبلية .

الإحياء والنشر:

يتراءي لي في البداية أن نشر التراث يمكن أن نلاحظ فيه قضيتين أساسيتين :

القضية الأولي:

وتتمثل في أننا ما دمنا نؤمن جميعًا أن النهضة الثقافية يجب أن تولي العلم عناية خاصة

بعد أن استبد بنا ، فترة طويلة ، الاهتمام بالدراسات الإنسانية .. لذلك فإن المبدأ الأول الذي نعتمده في مرحلة التوظيف هو : التوجه نحو التراث العلمي ، والحرص علي كل ما بين أيدينا منه ، ونشره مصاحبًا بدراسات مقارنة مع المعطيات العلمية الحديثة ، أو ممهداً لهذه المعطيات ، أو موصولاً بها علي نحو ما من أنحاء الاتصال .

إن مثل هذا التوجه نحو التراث العلمي (هل قلت التوجه ؟ .. لعلّي أردت الأولوية) لا يعني أننا نفاضل بين الدراسات العلمية والدراسات الأدبية ، وأننا نريد أن ندير ظهورنا للدراسات الإنسانية كما لو كنا ننكر أثرها في صياغة العقل العربي وتوجيهه .. إن شيئًا من ذلك لا يخطر لنا في بال .. لأننا لا نريد أن نخوض جدلاً عقيمًا في هذه المفاضلة ، والبدهية التي ننطلق منها أن قطار الفكر العربي يجب أن يتحرك علي هذين الخطين المزدوجين المتوازيين اللذين يشاركان معًا في تسديد الثقافة العربية وترشيدها وبلوغ أهدافها ، والمجتمعات لا يمكن أن تقوم علي ساق واحدة دون أن تفقد توازنها .

القضيةالثانية:

إن هذا التراث غزير غزير .. ونحن نحتاج إلي كلّ ما فيه ، حاجة تعرّف واستثمار ، أو حاجة تعرف واستبعاد : والمدي الزمني لا يتسع لكل ما نريد منه .. وصراعنا مع الزمن ، وحركتنا نحو اللحاق بالحضارة وتمثل ما انتهت إليه ، ومتابعة الركب الإنساني - كل ذلك يقتضينا هنا شيئًا من تنظيم نقدم فيه الأهم علي الهام ، والأصيل علي الهجين ، والجوهري علي الثانوي .. إنه لابدّ لنا هنا من قائمة أولويات ندعو إليها دون أن نلزم الناس بها .. الأجهزة الرسمية تأخذ بهذه القائمة وتتقيد بها ، والعلماء الأفراد يأخذون بالذي يهوون .. وتنسجم عملية الإحياء علي نحو عفوي منتج .

إن هذه الدعوة إلي هذه الأولوية ليست متابعة أو تقليدا لمناهج أخري .. وإنما هي دعوة تنبع من طبيعة حركة التأليف العربي . ذلك أنه من المعروف أن هذا التأليف كانت له تقاليده وأعرافه .. كان في كثير من الأحيان أقرب إلي المفهوم اللغوي للفظة (تأليف) .. أي أقرب إلي الجمع .. ولذلك نجد في التراث كثيراً من ظواهر التكرار .. وقد يرافق هذا التكرار شيء ضئيل من إبداع . وإذا كان هذا حقًا - وهو حق فيما أقدر عند عديد من المؤلفين وفي عديد من المؤلفات- فإننا مضطرون إلي الأخذ بمبدأ الأولويات . ولكن هل يتحقق ذلك أم أن تحديد الأولويات يقتضي نشر التراث نفسه .. إن المسألة تشبه أن تكون الدائرة المغلقة : فلتحديد الأولويات لابدّ من معرفة دقيقة بالكتاب المنشور ومعرفة أدق بالكتب التي تعاقبت علي موضوع واحد .. وهي معرفة يصعب أن تتأتّي إلاّ بعد النشر .. هل يجب أن نجد حلاً منذ الآن لهذه القضية أم أن سير عملية الإحياء نفسها سيهتدي اهتداءً ذاتيًا إلي تقدير الأولويات ؟! قلت إن التراث غزير ، والجهات التي تقوم بالإحياء جهات محدودة .. فكيف ننهض بهذه الأمانة ؟

هنا نواجه الحاجة إلي جيل من المحققين يجب أن نعدّه . فالتحقيق صناعة علمية تحتاج إلي

الدربة ، وتحتاج إلي الموهبة ، وتحتاج إلي أقدار من المعرفة العلمية التي تتصل بموضوع الكتاب المحقق ، وأقدار من الثقافة العامة .. ولابدّ للمحقق من هذه الأقدار الخاصة والعامة حتي يستطيع أن يبدأ بعد ذلك دربته وأن يصقل موهبته . ومعني ذلك أن هناك زاداً يجب أن يتزوّد به المحقق . وهذا يعني أنه لابدّ له من إعداد .. بعد أن توقفت المراكز التي كانت تنشئ ، بطريقة عفوية ، هؤلاء المحققين .. ولابدّ من الأخذ بيده ، وتزويده بالمعرفة ، وصقله بالدربة ، والوصل بينه وبين التراث وبينه وبين ما يحتاج إليه تحقيق التراث ، عن غير طريق المادة والتعويض والمرتب .

لقد مضي جيل من المحققين كانت تعدّه الحياة العربية بصورة عفوية بما كان من أساليبها في التعليم وطرائقها في التثقيف .. ثم لم نجد من يخلف هذا الجيل . وإذا نحن نعاني أشد النقص ، وإذا الجيل الجديد منصرف عن هذه الصناعة الثقافية التي تقع في الصميم من مجري الحركة الثقافية والحركةالفكرية .. لا ينصرف عنها لأنها تأكل نور عينيه فحسب ، فقد تحمل الحياة صاحبها علي ما هو أشد . ولكنه ينصرف عنها لأنه لا يملك أداتها ولا يجد من يمهد له السبيل لامتلاك هذه الآداة . واقتصر الأمر علي بعض (المريدين) الذي ظلّوا أوفياء لأساتذتهم أو الذين عني أساتذتهم بتنشئتهم ، وعلي بعض الهواة الذين أحيوا هذه الصناعة .. ولكن عدد أولئك وهؤلاء لم يبق كذلك دون ما تحتاج إليه الثقافة العربية ودون ما يحتاج إليه التراث العربي وهو يتطلع إلي النور والحياة ونفض التراب الذي أنقض ظهره وأثقل كاهلة طيلة قرون . فما الذي نستطيع أن نفعله لتدارك هذا النقص ؟ .. هل نترك ذلك للظروف والزمن والمصادفات ؟ هل نستسلم للمقولة الشعرية : إذا مات منا سيد قام سيد .. ومن الذي يضمن قيام السيد الجديد في الحياة العملية ؟

هنا نجد أنفسنا في صميم الحاجة إلي التخطيط الشامل الذي نعمل له .. وهنا نواجه الحاجة إلي العنصر البشري الذي لا يمكن أن يستعار أو يستورد ولا تعوضه الآلات والأدوات والخبرات المشتراة . فكيف نصنع لإعداد هذا الفوج البشري الذي نحتاج إليه في إحياء هذا التراث الغزير. في تجارب التراثيين أو المؤمنين بالتراث ، كان هنالك تجربة دعا إليها أستاذنا المرحوم أمين الخولي .. منطلقها أن التراث أمانة في أعناق المتعلمين جميعًا ، وأنه لابدّ أن ينهض كل مثقف بنصيبه من هذه الأمانة .. وتتمثل هذه التجربة عمليًا في أن تقترن كل أطروحة جامعية عليا : الماجستير أو الدكتوراة أو الدبلوم ، بنصّ محقق إلي جانب البحث أو الدراسة . وقد وفق الأستاذ الخولي إلي إقرار ذلك ، وبخاصة مع الذين كانوا يعملون معه .. وحقق نتائج أدناها أنه أقام هذه الصلة بين التراث وبين كثير من الخريجين .. وعقد هذه الصلة معه كان كفيلاً بعد ذلك أن يؤدي إلي نوع من الميل إليه ، والإقبال عليه ، والتعامل معه ، عند مجموعة طيبة من هؤلاء الخريجين .

وأشهد ، بل الواقع يشهد ، أنه كان لهذه التجربة أطيب النتائج .. إذ كان من ثمراتها أن أعلامًا من أعلام المحققين تخرجوا بهذه التجربة ، بها بدؤوا ومنها انطلقوا وعن طريقها كانت هذه الجملة الضخمة من كتب التراث التي أخرجوها محققة .

وفي تقديري أن للتجربة أساسها النفسي الذي يضمن - في أغلب الأحوال - نجاحها .. وغياب هذا النجاح أحيانًا لا يقلل من أهميتها . فهل نكتفي بهذا الأسلوب ؟ قد يكون لهذا الأسلوب فضائله الطيبة ونتائجه الإيجابية في التراث الأدبي .. لأن الدراسة الأدبية تهبه بعض أدواته ، وتساعده علي بعض خطواته .. أما حين نتحدث عن التراث العلمي الذي نحب أن نعني به فإن الأمر يحتاج إلي إعداد آخر . وحتي في التراث الأدبي نحسّ أن هذه التجربة متروكة للطالب ينهض لها ويتمرس بها من غير سابق إعداد .. والعمل الذي يتطلع إلي مردود قيّم لابدّ فيه من إعداد سابق يساعد علي بلوغ هذا المردود العالي . وإذن فلابدّ لنا من أسلوب آخر أمام الآفاق التي نتطلع إليها ، والشعور بمسؤولية التخطيط الشامل يقتضينا البحث عن هذا الأسلوب.

من هنا تبدو الحاجة إلي أن يكون هناك ، من بين ضروب الدراسات العليا ، دراسة خاصة لإحياء التراث ، لها ما للدراسات الأخري مما يشجع عليها ، ويدفع الدارسين إليها .. بديلاً عن المشقات التي يعانونها والعزلة التي تفرضها المخطوطات والعمل لها ، علي أصحابها . وشروط هذه الدراسات ، إذا أردنا لها أن تكون مثمرة ، التفرّغ لها .. وتفرّغ الطلاب ، حتي لا تبدو وكأنها عمل إضافي أو فرعي أو لحق من اللحق .

هل نوزع العمل في التراث ؟

قلت قبل : إن التراث غزير غزير .. فكيف نوزّع العمل فيه بعد أنْ يتحقق لنا إعداد هذه العناصر البشرية ؟ إن انقسام الوطن العربي تمثّل هنا في جملة من الاقتراحات .. منها أن تنفرد بعض العواصم أو بعض الجامعات ببعض ألوان المعرفة .. فهل نلجأ إلي مثل هذا التوزيع ؟

في تقديري أنه يحسن بنا أن نترك لهذه الأشياء حريتها وطلاقتها وظروفها التي تكون وراءها والمناسبات التي تحتاجها .. إن وجود علم كبير في بلد أو جامعة يخلق حوله هالة من العاملين معه في مثل اختصاصه .. والتعامل هنا بين العلماء ومريديهم أو تلامذتهم يتمّ علي نحو طبيعي .. وقد يكون التدخل فيه ضاراً ، فيحجب قوة ناشئة أو يكرهها علي مسار غير المسار الأفضل لها أو الأجدر بها . وكلّ الذي ينشده أصحاب فكرة التوزيع هو الحؤول دون تكرار الجهود في التحقيق ، فلا يتعاقب محققان علي أثر واحد ، ولا ينشر الكتاب الواحد مرتين .

الحاجة هنا إذن هي الحاجة إلي التنسيق وليست الحاجة إلي التوزيع .. وإن التنسيق يمكن أن يتم عن طرق مختلفات ليس هنا مكان تفصيلها .. ومع ذلك فأنا أخشي أن تكون قضية التكرار هذه قد داخلها أقدار من التضخيم ، ومنحت من العناية فوق ما تستحق ، فحركة التحقيق لم تسجل ، خلال هذه العقود ، إلاّ مظاهر قليلة لهذا التكرار ، وفي مرات كثيرة كان هذا التكرار لمصلحة الكتاب المحقق .

آية هذا كله أن العمل في التحقيق والعمل للتحقيق لا يمكن أن يترك عملاً لا خطة له .. إنه، كما قدمت ، صميم مشكلة التراث .. واجهتها وخلاصتها .. ولذلك يجب أن يكون عملاً مفروضًا أو كالمفروض .. أن يكون مفروضًا في بعض مراحل الدراسة .. وأن يكون كالمفروض في

إعداد جماعة له ، وقصرهم عليه وتفرغهم له . وليس في ذلك شيء من إسراف أو مبالغة . لأننا إذا كنا نؤمن بأن المرحلة القريبة - بعد استقرار بعض المفاهيم وإقرار بعض المبادئ - هي مرحلة الكشف عن الذات الفكرية والنفسية والعلمية من خلال التراث الذي أفرزته هذه الذات ، فإن أقل ما يستوجبه ذلك أن تقصر عليه جهود ، وتعدّ له برامج ، ويفرد له ناس ، وينفرد به علماء وأخصائيون » .

رابعًا : الاتصال الثقافي :

أ- ضرورة الاتصال الثقافي ومعوقاته :

الاتصال الثقافي:

لا خير في إنهاك القارئ وإجهاده في البحث عن الفروق الأكاديمية بين مصطلحات الاتصال الثقافي ، والتفاعل الثقافي ، والتثاقف ، وغير ذلك من المسميات . ولكن تحديد المفهوم العام ضرورة للقارئ وللباحث حتي يكونا علي بينة من القول . لذلك فإنني أحدد مفهوم الاتصال الثقافي بأنه أوسع دوائر الاتصال . فإذا قلنا إن الإنسان يتحدث إلي نفسه ويخاطب ذاته كما يري صورته في المرآة فإن تسمية هذا الاتصال هي الاتصال الذاتي . ثم تتسع هذه الدائرة فيخاطب الإنسان أسرته ويتحدث إلي زملائه وأصدقائه ويكتب خطابا لصديق أو يبعث برقية تهنئة لقريب ، فتسمي هذه الدائرة الاتصال الشخصي . وعندما يستخدم الإنسان الراديو أو الصحيفة أو الكتاب فإن ذلك يسمي الاتصال الجماهيري . وهذه الدائرة وهي دائرة الاتصال الجماهيري تليها أوسع دوائر الاتصال وهي الاتصال الثقافي . هي إذن اتصال ثقافة بثقافة أو اتصال حضارة بحضارة بوسائل تشترك مع وسائل الاتصال الشخصي والجماهيري أو تختص بها ، وبوسائل تكنولوجية أو وسائل قديمة عرفها الاتصال منذ بدء الخليقة . ولكنها في مضمونها اتصال بين ثقافات أو حضارات .

وفي علم الاجتماع عدد من المصطلحات [١] تقترب من معني الاتصال الثقافي وفي الوقت نفسه تقربنا إلي مفهومه المعاصر . يستخدم مصطلح الانتشار الثقافي Cultural - Diffusion للدلالة علي انتقال عنصر ثقافي ، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي ، من جماعة محلية إلي جماعة محلية أخري ، سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة ومتمايزة . أما مصطلح الانتشار Diffusion فقد استخدم في علم « الانثروبولوجي » (تاريخ الإنسان الثقافي والتكنولوجي) للدلالة علي امتداد عناصر بعينها من ثقافة ما إلي ثقافة جماعة أخري ، إما بشكل فردي بمعني امتداد عنصر وحيد ، أو بشكل جماعي أي امتداد شبكة متداخلة من العناصر ، بحيث تتأثر جماعة أجنبية بعناصر ثقافة أخري. وقليلا ما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلي انتقال عناصر الثقافة في إطار الجماعة الواحدة . وربما كان ويليام روبرتسون - عالم

---

(١) مصطلحات فكرية - جريدة الأهرام بتاريخ ٧ - ٣ - ١٩٨٦ وتاريخ ٤ - ٩ - ١٩٨٦ وتاريخ ٣٠ - ١٠ - ١٩٨٧ وتاريخ ٨ - ١٢ - ١٩٨٩ .

الاجتماع واللغات البريطاني في القرن الثامن عشر (١٧٢١- ١٧٩٣) هو أول من استخدم فكرة « الانتشار » لتفسير التشابه الشديد إلي درجة التطابق بين عناصر ثقافية بعينها لدي قبائل وشعوب أمريكا الشمالية ، وجزر المحيط الهادي ، وشمال وجنوب شرق آسيا . ورغم ذلك فقد كان روبرتسون نفسه هو الذي اقترح فكرة : تشابه الظروف المناخية ، وتشابه الحالة الاجتماعية وبنية المجتمع والتطور التكنولوجي عند جماعتين متباعدتين مكانيا ، ولكن التشابه يفرض «حلولا» وأشكالا من التلبية للحاجات متشابهة أو متطابقة . وفي القرن التاسع عشر ، كتب الأب فيلهلم شميث (١٨٦٨ - ١٩٥٤) الذي عاش حتي منتصف القرن العشرين كتابه : منهج التاريخ الثقافي للسكان ، الذي أكد فيه نظرية الانتشار ، واقترح وجود عدة « أصول » جذرية متعاصرة للثقافة الإنسانية كلها ، ثم ظهور منابع فرعية تنتشر عناصرها الثقافية بعد ذلك (مصر، وادي الرافدين ، وادي السند ، جبال كانتون ، ساحل الأناضول ، سواحل اليونان ، والساحل اللبناني ، اليمن ، روما ... إلخ) بحيث تبدو الثقافة الإنسانية - تاريخيا - في صورة دوامة رئيسية ، تتكون إلي جوارها دوامات فرعية ، تصبح رئيسية بدورها في مرحلة بعينها بينما تصبح الدوامة الرئيسية الأولي فرعية أو تتلاشي ، وهكذا بشكل متتابع ومتسلسل .

المصطلح الثالث هو التفاعل الثقافي Acculturation وكان علماء الاجتماع البريطانيون يستخدمون مصطلح « الاتصال الثقافي « Culture Contact » للإشارة إلي عملية اكتساب الفرد أو الجماعة (أو حتي المجتمع بأسره) الخصائص الثقافية لجماعة أو لمجتمع آخر من خلال الاتصال والتداخل . ولكن علماء الاجتماع الأمريكيين رأوا أن تعبير « الاتصال» بالمعني البريطاني يعني تأثر «الطرف الأضعف » بثقافة الطرف الأقوي إما لتفوقه السياسي والاقتصادي أو لتفوقه التكنولوجي . دون أن يتأثر الطرف الأقوي ؛ وعلي ذلك رفضوا المفهوم البريطاني واستبدلوا به مفهوم « التفاعل » الذي يعني تبادل التأثر بين مختلف الجماعات أو المجتمعات بصرف النظر عن قوة كل منهما السياسية أو الاقتصادية أو التكنولوجية . ومن وجهة نظر فردية، فإن عملية التفاعل الثقافي أشبه بعملية « التعلم الاجتماعي » حيث تتعلم جماعة أساليب وقيم جماعة أخري ، أو أشبه بعملية تعلم الفرد لغة جديدة تدفعه إلي اكتشاف أساليب للتفكير ولتنظيم أفكار لم يكن يعرفها . ولكنها من وجهة نظر اجتماعية تتضمن عملية التفاعل الثقافي انتشار القيم الأكثر صلاحية لمواجهة الحياة وتلبية احتياجاتها في مرحلة تطور أو في وضع تاريخي بعينه من وجهة نظر الجماعة الناقلة للقيم والأساليب الفنية للعمل والإدارة ، والمؤسسات بما تتطلبه عملية النقل والتفاعل من تعديلات في بنيتها وسلوكياتها وقوانينها طبقا لتغير الظروف . وقد تؤدي عملية التفاعل إلي « صراع ثقافي » بين قيم ومؤسسات وأساليب عتيقة وإن كانت أصيلة - وبين الأخري المكتسبة الجديدة - التي لابد من عملية فرز اجتماعية ومنهجية طويلة لمعرفة ضرورتها وفائدتها أو ثانويتها وضررها . كما تؤدي إلي تعميق الاقتباس والنقل بما يقوي الخصائص الثقافية الأصلية ويدعمها ويساعدها علي التطور والصمود ، أو قد ينفيها تماما إذا كانت قد أصبحت بائدة ومتخلفة وغير صالحة لمواجهة التطور الجديد - خصوصا تطور أساليب

العمل والحياة . ولم تتطور نظرية التفاعل الثقافي بسرعة إلا مع ظهور أعمال كل من مالينوفسكي وفورتس في بريطانيا - منذ الأربعينات . وريدفيلد ولينتون في الولايات المتحدة منذ الخمسينات ، التي أدت إلي النظر للثقافة - نظرة وظيفية - باعتبارها نظاما أو نسقا محكوما . وليس مجرد « تجمع » لخصائص وأنشطة منفصلة ، وبذلك أصبحت «الثقافة» والتفاعل الثقافي ، من العوامل المهمة في فهم وتفسير التغير الاجتماعي ككل .

والمصطلح الرابع هو الانتشار الثقافي Cultural - Diffusion ويقصد به انتقال عنصر ثقافي ، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي ، من جماعة محلية إلي جماعة محلية أخري. سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة أو متمايزة .

وهذه المصطلحات وغيرها محطات في طريق العلوم الإنسانية تقرب لنا المصطلح أو المفهوم الذي نتحدث عنه وهو الاتصال الثقافي لأنه أشمل وأوسع ولأن الاتصال يعني التبادل والتفاعل ، الأثر ورد الفعل .

فالدكتور سيد عويس [1] مثلا « يؤكد علي أن حضارة مصر هي أول حضارة إنسانية أعطت العالم الكثير وإنني لا أذكر ذلك وأؤكده عبثا . فعبارة « اعرف نفسك » التي تنسب للفيلسوف اليوناني « سقراط » « ٤٦٩ - ٣٩٩ ق . م » كانت معروفة عند المصريين القدماء ويعلمها علماؤهم ومكتوبة علي جدران معابدهم ، وإن « الفضائل الأساسية » المنسوبة للفيلسوف اليوناني « أفلاطون » « ٤٢٨ - ٣٤٨ ق. م » وهي الحصافة والعدل والاعتدال « ضبط النفس » والجلد قد نسخها هذا الفيلسوف وهو يدرس « العلم المقدس » عن أيدي الكهنة المصريين لمدة ثلاث عشرة سنة ، وإن علوم اللغة والبلاغة والمنطق والحساب والموسيقي والفلك كانت العلوم والآداب المصرية التي نقلها الإغريق . وإن الطلبة الإغريقيين قد عبروا البحر ليصلوا إلي مصر للدراسة والاطلاع في المكتبات المصرية ، وإن الفلاسفة اليونانيين لم يرحب بهم في بلادهم وبدأوا يحضرون إلي مصر للدراسة منذ عام ٥٢٥ ق . م وإن بعض أعمال الفيلسوف أفلاطون أخذت من « كتاب الموتي » المصري « منذ ٥٠٠٠ عام » وإن علم اللاهوت المنفي « نسبة إلي منف » مصدر الكثير من الفكر الإغريقي . »

هكذا يسيل التراث الإنساني الثقافي من مجري إلي مجري ليصب في نهر مشترك . لذلك فإن الاتصال الثقافي واقع تاريخي وفي الوقت نفسه ضرورة معاصرة .

والمشكلة هي كيف نفرق بين الاتصال الثقافي ومن الغزو الثقافي كما عرضنا ذلك في الفصل الأول . وكيف يمكننا أن نفرز ونفْصِل كلا منهما عن الآخر فنتجنب الغزو ونتفاعل مع الاتصال ونثريه بالتأثر به والتأثير فيه .

ولم تغفل الخطة الشاملة للثقافة العربية العلاقة الجدلية بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي فقالت [1] : ليس البديل للغزو الثقافي هو الانغلاق، لأنه غير ممكن من جهة ، ولأنه

(١) د. سيد عويس - من صور الغزو الثقافي - جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ - ٢ - ١٩٨٥ .

انقطاع عن الإنسانية وإفقار للوجود الذاتي من جهة أخري . وليس البديل هو الاستسلام المطلق والذوبان في الآخر ، وتبني الأنماط الوافدة ، لأنه ينتهي بدوره إلي النتيجة ذاتها من ضمور الوجود الذاتي ، بالإضافة إلي خسارته الإنسانية ، لأنه يلغي تعدد الرؤي الثقافية بمحاولة فرض لغة واحدة ، وأسلوب حياة واحد ، وإحلال فكر دخيل محل الفكر الأصيل . وهكذا فالتحدي الكبير أمام العالم الثالث ومنه البلاد العربية ، هو الحفاظ علي التنوع الثقافي الإنساني ، بإبراز وتأكيد الهوية الحضارية للأمة ومتابعة العطاء المبدع من خلالها .

وتمضي الخطة الشاملة للثقافة العربية قائلة : برغم اعتقادنا الجازم بأن الثقافة إنما تأمن علي نفسها بالعطاء والإبداع والامتداد لا بالمدافعة والتحصين ، إلاّ أن النقلة من حالة الضعف الثقافي وهو ما نحن فيه اليوم - إلي حالة العطاء ، تفترض وجود نوع من الأمان يحمي الإبداع حتي يقوي ، والعطاء حتي يستحصد . إن بنيان الثقافة الموجودة في مختلف أقاليم الوطن العربي، بما دخل عليها من التخلخل ، ليست من المتانة والأصالة ، بحيث تصمد أمام التدفق العنيف للتيارات الثقافية الغربية بخاصة ، والوسائل التقنية القاهرة التي تستخدمها . وهكذا فاتخاذ وسائل الحماية ، في هذه المرحلة هو جهد مطلوب قوميا ، تمكينا للثقافة العربية من أداء دورها الحضاري . وهذا هو اللباب في الأمن الثقافي .

وعن شروط الحوار الثقافي تقول الخطة [٢] إن الثقافة حق من حقوق الإنسان الأساسية ، وتكافؤ الفرص بين الثقافات شرط من شروط التعاون الدولي والإنساني ، كما أنه الأساس في العطاء الثقافي المتنوع والإيجابي البناء ، ولا يقوم الحوار البشري المثمر إلاّ باتصال الحوار ، وتداخل العلاقات المتكافئة ، بين الثقافات تعزيزا لتفاهم الشعوب ، وإثراء لعطائها . ولهذا كله لابد من توطيد الأمن الثقافي بين الشعوب عامة ، ومن دعم قيم الثقافة العربية خاصة وذلك :

١- بمقاومة محاولات الطمس والتشويه للثقافة العربية ، وبالقضاء علي جميع مظاهر السيطرة الثقافية الأجنبية .

٢- بتعزيز الهوية الثقافية العربية ، وذلك بدعم اللغة العربية ، وتنشيط التنمية القومية ، ورفض الهيمنة الثقافية الأجنبية .

وقد ذكرت الخطة عبارة جديرة بالاعتبار وهي أن الحوار تقليد ثقافي عربي عريق . وأن هذا التقليد الراسخ في الثقافة العربية قد أضحي اليوم ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة ، يحتمها الواقع ، وتفرضها العلاقات المتزايدة بين البشر . فإن التطور الفائق السرعة الذي حققته التقنية في مجال الاتصال بين الأمم والشعوب لم يجعل الحوار والتعاون ممكنين فحسب ، ولكنه جعلهما فرضين إلزاميين أيضا . يضاف إلي هذا أن الثقافة إنما تنمو ، وتزدهر ، وتزداد إشعاعا وقيمة في

---

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) صـ١٤٣ ، صـ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق صـ١٤٥ ، صـ١٤٦ و صـ١٣٤ ، صـ١٣٥ .

الحضارة الإنسانية بقدر تفاعلها مع الثقافات الأخري ، وبما تقدمه لتفاهم الشعوب وتعاونها مع إسهام في إغناء الحضارة . وهذا المفهوم العربي للثقافة والمنفتح بشكل تلقائي علي ثقافات العالم قد يتناقض مع ثقافة الغرب التي تدعي أنها الثقافة الأولي والأخيرة وأن ما عداها من ثقافات في العالم لا قيمة كبيرة لها حقا ، إن هذا النمط الثقافي الغربي ليس بالكامل وليس بالنهائي . وبالرغم مما أعطي الإنسانية من الرفاهية والرخاء المادي ، فإنه قد أضاع عليها الكثير من الفرص. وإن في العالم ، ولدي العرب ، كما لدي الجماعات الإنسانية الأخري ، في الصين، أو في الهند ، وأمريكا اللاتينية أو إفريقية رؤي ثقافية وحضارية أخري ، ومسالك من الفكر والفن والروح من شأنها إذا ما امترجت بها الثقافة العربية الإسلامية ، وتعاونت معها ، أن تغني في ذاتها ، وأن تغني الثقافة الإنسانية من ورائها . وتمنح الإنسان أبعادا جديدة ومستقبلا أكثر إشراقا.

ويري بعض الباحثين العرب [1] أن التفاعل الحضاري جهد إيجابي شاق في الدراسة ، والبحث والتمحيص للحضارة الحديثة ، ثم في الاختيار والاقتباس ثم في الأقلمة و التكيف مع خصائص الحضارة الأصلية ومع ظروف البلاد .

وقبل التفاعل الحضاري يحدث عادة ما يمكن أن نسميه التحدي الحضاري . والتحدي كما يقع بين حضارتين مزدهرتين يقع أيضا بين حضارة متفوقة وحضارة متهالكة . وأمام هذا التحدي يحدث أحد أمرين : الأول أن يواجه أبناء الحضارة المتهالكة هذا التحدي مواجهة إيجابية بالتفاعل الواعي أي بالأخذ والعطاء ، والثاني المواجهة السلبية بطرفيها : الرفض المطلق أو الخضوع المطلق. وفرق كبير بين إدانة الغزو الفكري الاستعماري وفضحه وكشفه وبين الموقف السلبي العام من الحضارة الحديثة . والخلط بين الاثنين يعني إقامة حاجز سميك بيننا وبين الفكر الإنساني.

والكاتب الإسلامي الدكتور مصطفي محمود [2] يرحب بالاتصال الثقافي ويري إنه ضرورة جغرافية لتوسطنا في العالم . وضرورة حضارية ولكن مع الوعي بالغزو الثقافي وأهدافه وأساليبه. لابد أن نضع علي عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقي وتجادل وتناقش كل ما يلقي إليها . لابد أن نعيش في رباط . ونضع علي ثغورنا الشرطة والعيون . شرطة عقلية لا شرطة قمعية وعيونا تأملية لا عيون بوليسية وحراسة جدلية لا حراسة عسكرية حراسة تناقش الفكر بالفكر وتقابل النظر بالنظر . التعددية الفكرية مطلوبة فالله أراد بالدنيا أن تكون مائدة غنية متعددة المآكل والمشارب ليبتلي اختيارنا ومواقفنا . ولو كانت هناك فكرة واحدة سائدة لما كان لحرياتنا معني .

والإسلام كفكر لا يخشي الالتحام ولا يهاب المواجهة . بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا بالالتحام وطاقاته لا تنقدح إلا بالاحتكاك وقوته لا تتجلي إلا بالتحدي ورأيه لا يسود إلا بانكسار الآراء الأخري في معارك حرة محايدة . فأنا مع الانفتاح الكامل لكل من الوعي التام في

---

(١) عبد الحليم محمد أحمد - خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر - مجلة المسلم المعاصر - العدد الأول نوفمبر ١٩٧٤ .

(٢) د. مصطفي محمود - عن الغزو الثقافي وكلام الوزير - جريدة الأهرام - بتاريخ ٢٠ - ٧ - ١٩٩١ .

ذات الوقت بحقيقة وخطر الغزو الفكري .. ورفاعة الطهطاوي لم يفقد نفسه كما فقد سلامة موسي نفسه في باريس ولم يفقد جذوره في أول لقاء مع نيتشه وداروين وماركس وفرويد كما فقد سلامة موسي جذوره ولم يقل كما قال سلامة موسي :

كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وزاد شعوري بأني غريب عنه وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها أريد من أدبنا أن يصبح أدبا أوروبيا وأريد من نسائنا أن يصبحن نساء أوروبيات . هذا رجل أصابه الطمس الكامل والمحو الكامل ففقد وجهه وأحشاءه وهويته وذاتيته فلم يبق منه شيء . وهناك كثيرون يؤمنون بهذا المذهب السلاموني مثل إخواننا الذين جلبوا لنا بضاعة الاشتراكية البائرة وروجوا لها . ولكن الأسوياء ينظرون إلي كل جديد وافد بمصفاة العقل والنظر . ومن أمثال هؤلاء ، رفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبده والعقاد والحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ ، هؤلاء رسل تنوير أخذوا النافع والمفيد من كل جديد وانتقوا الصالح من كل حضارة ونبذوا الضار والباطل ، فأثمرت أفكارهم في النهاية ثمارا مصرية وفاكهة عربية ، ولم تفقد جذورهم هويتها ولم تفقد صلتها بالتربة العربية ولا بالأرض المصرية العريقة ولم تنطمس بصائرهم ولم تذب شخوصهم . ومن هؤلاء كان الشيخ سلامة حجازي وسيد درويش وعبد الوهاب . كانوا نجوم تنوير في الموسيقي وسفراء تجديد في النغم أخذوا من الغرب وتعلموا منه دون أن يفقدوا مذاقهم وشرقيتهم . وقد احتفظ كل منهم برأسه في طوفان الجديد الوافد لأنه كان يؤمن بأنه غني في ذاته وأنه يملك شيئا أصيلا وأن له حضارته وجذوره وعطاءه .

الإيمان بالهوية الذاتية والثراء الحضاري كان حصنهم وحمايتهم . واليوم .. الانفتاح أصبح حقيقة ، ولم نعد في حاجة للسفر إلي باريس ، لأن باريس تقتحم علينا غرف نومنا ، وتدخل علينا لندن من تحت الباب ، وتنقض علينا أمريكا من القمر الصناعي . العزلة غير ممكنة والتقوقع مستحيل والرفض غير مجد . وأيضا الاستسلام للأفكار الغازية وأخذها بالأحضان وتشربها بلا تمييز النافع فيها والضار هو انتحار حضاري .

إنما الموقف السوي هو اليقظة والوعي والإيمان العميق بالذات والإيمان بالهوية التاريخية .. فمن تلك الهوية التاريخية خرجت أنوار النبوات وأشرقت المعرفة الإلهية علي العالم .. فكيف نتقازم . مفتونين أمام الدمي الالكترونية واللعب الفضائية الوافدة علينا من الغرب ، إن لهم علومهم ولكن لنا نحن أيضا علومنا .. ولهم تراثهم ولنا تراثنا . ونحن نستطيع أن نضيف أكثر مما أضافوا . ومن هذا المنطلق من الندية نستطيع أن نأخذ ونعطي ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبتا جديدا » .

وفي ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي التي عقدت في مسقط

في إبريل ١٩٨٥ وقف الدكتور عبد العزيز كامل [١] أمام التعابير الثلاثة : الحوار الحضاري . التحدي . التفاعل ، وقال إنه سيستخدم تعبير الحوار لأنه في نظره هو المفهوم الشامل ، حتي إن الحرب - كما يقول - في أحدث تعريفاتها حوار بين القُوي . ويقول : إن الحوار الحضاري لا يقف عند الحدود السياسية في عصر أصبحت فيه أجهزة الاتصال وأقمار الفضاء في حوار دائم لا يعرف الحدود . وأصبح العالم كله عند أطراف أصابع الملايين ، وأمام أعينهم علي شاشات التليفزيون والكمبيوتر والتلكس. ولكن مع كل هذه الأمواج والشبكات علينا أن نجد طريقنا. تماما كما يتخير الربان الماهر طريقه بين الموج والصخر والشطوط والشعاب . نحن فعلا في حاجة إلي «خرائط حضارية» نستعين بها علي مسارنا ونضيف إليها الجديد. ونحذف منها ما جرفته تيارات الحياة.

وللدكتور عبد العزيز كامل [٢] دعوة في مواجهة الغزو الثقافي يسميها وقف النزيف الثقافي العربي الناتج عن الصراعات السياسية .. وهو يبسط دعوته قائلا : لا يشترط في الغزو الثقافي أن يكون من الخارج ، فالتمزق الداخلي لا يقل عنه خطورة ، إن لم يزد . ونحن نقرأ قول الله تعالي ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (الأنفال:٤٦). أليس من الغريب أن نجد اثنين من المسلمين من مذاهب دينية مختلفة يتحدثان بكل الحذر ، ويخشي كل منهما الآخر .. بينما إذا جلس أحدهما إلي أوربي أو أمريكي أو ياباني كان منطلقا في الحديث والتعبير والمؤانسة ؟! لاحظت ذلك في أكثر من مؤتمر دولي . وأحسست أن هناك حواجز نفسية أو أسوارا نفسية تعزل قطاعات المسلمين فإذا جمعهم قطر تعاملوا بهذا الحذر والتوجس .

وكأن النزف في الجهود الثقافية يقابله حصر في جهود أخري ، يفقد بها الفكر العربي والإسلامي الكثير من توازنه وكفاءته في مقابلة الحياة وتحدياتها والحوار الناجح في قضاياها .

كيف تستطيع مناهج التعليم وأجهزة الإعلام وحملات التأليف أن تقابل هذين العدوين : النزف والحصر . وأن يلتقي العرب والمسلمون علي حوار سواء ؟ هذا هو الإطار الذي يحمي جهودنا في اللسان والتنمية والتقدم في آفاق العلم . ومن المحتوي والإطار تتكون خطوط الدفاع أمام الغزو الثقافي ونستطيع أن نحتفظ بذاتيتنا الثقافية وأن نرعي تنميتها دون انغلاق عن الحياة ، ولا ذوبان في تيارها المتدفق ، ويزدهر في مجتمعنا حوار بلا أسوار يكون عونا علي اجتياز عقبات الطريق » .

يقول الدكتور [٣] عرفان عبد الحميد رئيس قسم الفلسفة بجامعة بغداد (١٩٨٥) إن

---

(١) د. عبد العزيز كامل - وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي - مرجع سابق - صـ٣٥ .

(٢) المرجع السابق - صـ٦٣ ، ٦٤ ، صـ٦٥ .

(٣) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي - مسقط - سلطنة عمان - في الفترة من ١ - ٣ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ ابريل ١٩٨٥ - الناشر - مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياضة ١٩٨٧ - صـ٣١٩ - ٣٣٣ .

الدخول في حوار فكري مع حلقات الفكر العالمي لتحقيق المعاصرة لم يكن في عالمنا العربي المعاصر وليد تطور ذاتي وتاريخي لمنطق الأحداث في بنية الفكر العربي نفسه ، بل قام تحت وطأة عوامل نفسية يمكن أن نصطلح عليها بعقدة محاكاة الغرب Westernization وفي ظل ظروف اتسمت بالتقهقر العربي ، وهكذا جاءت دعوة المعاصرة مبتسرة ، ولا تعبر عن حاجة طبيعية لأمتنا العربية بقدر ما كانت تمثل جنوحا فكريا وخضوعا للفكر الغربي .

ويحاول الدكتور عرفان أن يؤصل دوافع الإخفاق في الحوار الحضاري بيننا وبين الغرب في نقاط جوهرية علي النحو التالي :

* إن التاريخ في تراثنا العربي الإسلامي قد ارتبط بوثاق متين بالعقيدة والرسالة . لأن انتصارات العرب الخلاقة المبدعة في الحياة ممثلة ومشخصة في إقامة الدولة بمؤسساتها المعقدة ، وفي انتشار القوة والسيادة ، وفي ازدهار العلم والثقافة والحضارة ، كل ذلك قد ارتبط في الوعي العام المشترك للأمة بالعقيدة والرسالة . وهكذا ساد تصور عام بأن الالتزام بالعقيدة ينتج عنه لزوما التقدم في ميدان الحياة العملية . وأن عدم الارتباط الأمثل بالعقيدة يؤدي إلي الإخفاق في التعامل الموضوعي مع الواقع المادي وشروطه . وهكذا تقلصت المسافة الفارقة الفاصلة بين ما هو فكر وواقع أو عقيدة وتاريخ ، بل إن المفهومين توحدا إلي حد التطابق ، فالعقيدة والرسالة والحضارة والسلوك والثقافة والتاريخ ، كل ذلك حزمة واحدة ووحدة جامعة مشتركة في بنيان الأمة العربية ، يصعب فصله ، ولهذا فقد تحول الواقع إلي ساحة اختبار وميدان تجربة لصدق الوفاء بالرسالة منهجا وسلوكا .

أما الغرب فالأمر علي ساحته خلاف ذلك تماما . فالغرب في تقاليده الفكرية وبنيته الحضارية ثنائي النشأة والتكوين . فقد اعتمد علي مقومات حضارية جذورها يونانية - رومانية خالصة ، أما العقيدة الدينية ممثلة في المسيحية ، فشرقية الأصل والمنابت ، لذلك ظل خط الفصل والتمايز بين الواقع الغربي العلماني في مفرداته وتفاصيله ، والرسالة الشرقية الروحية في تعاليمها وقيمها واضحا ومؤكدا وثابتا ومتصلا .

وكان التاريخ الأوربي علي النقيض من التاريخ العربي الإسلامي - محاولة دؤوبة ومستمرة، وقتالا مريرا متصلا لتأكيد هذا الفصل والانفصال حتي لا تتداخل شئون الدنيا بأمور العقيدة . وظل خط الفصل بين الأمرين واضحا ومحدداً .

* إن عملية التفاعل الثقافي أو التثاقف في فهم الفكر العربي الإسلامي وفي عرفه وتقاليده تختلف اختلافا جذريا عن فهم الغرب لها . ففي الفكر الأوروبي لا يفهم التثاقف Acculturation علي أساس من الحرية في الأخذ والعطاء والمساواة في الأقدار ، والاعتراف المتبادل بالمنجزات بين حلقات الحضارة الإنسانية ، وبالحرية أيضا في الانتقاء والاختيار ، بل فهم الغرب عملية التثاقف باستمرار في صورة الاستلاب الحضاري Inacculturation والتنكر التام لمنجزات الطرف المقابل الحضارية والثقافية ، وأرادها دائما أن تتحول إلي وسيلة للسيطرة والهيمنة

وإلغاء للهوية الذاتية المستقلة للأمم المستقلة والشعوب والحضارات ، إلي حدود اقتربت في مضامينها من الاغتيال الثقافي للآخرين . مع ما يسبق ذلك عادة من تسفيه عقول الآخرين وتجريحهم والافتئات علي ثقافتهم .

والغرب في ذلك كله يصدر عن نظرية عرقية مؤداها تمايز العقل الأوربي وسمّوه ، فهو - كما يقولون - عقل علمي النشأة والتكوين ، فلسفي النزعة والتوجه خلافا للعقل السامي (العربي) الذي هو في زعمهم غيبي التوجه ، معاد للعلم وللموضوعية ، يميل بطبعه إلي التجزئة والمباعدة ، والفصل بين الأشياء . وهكذا برزت إلي الوجود نظرية عبء الرجل الأبيض في حمل رسالة العلم والمعرفة إلي الآخرين . وساد حكم عام ومطلق مفادة أن الغرب هو مركز الاستقطاب الفكري للإنسانية . وأن الفكر الغربي ممثلا في قواعده وأصوله اليونانية والرومانية هو وليد ذاته ، جاء علي غير مثال سابق، فهو من صنع وتقدير المعجزة اليونانية الخالدة . وعلي هذا فاليونان هم الذين أنشأوا المنهج الرياضي ، وابتدعوا العلم التطبيقي ، وابتكروا الفلسفة ، والمنهج العقلي وهم الذين طوروا مناهج المعرفة العلمية حتي خلقوا بها تفسيرا متناسقا - رائع التناسق للإنسان والكون والحياة .

أما الفكر العربي الإسلامي فإن التفاعل الحضاري في عرفة وفهمه وتقاليده هو التواصل الفكري والإخاء المذهبي بين حلقات الحضارة البشرية ودوائرها المتلاحقة والمتتابعة .

هذه النظرة الإنسانية يلخصها حديث الرسول محمد ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة » . بهذا التواضع وبهذه الروح الإنسانية ورحابة الصدر كان الفهم العربي للتفاعل الحضاري والحوار الثقافي .

* إن الاستقلال في الإراد والاختيار لدي الأمة العربية من شأنه أن يفتح من جديد منافذ الاجتهاد والحوار . ويصبح التفاعل الحضاري أساسا لمعادلة متوازنة بيننا وبين الغرب . وأن يتم الجمع بين الأصول والجذور العربية وبين ما تفرزه الحضارة المادية المعاصرة لتتفاعل المحاور والمنطلقات الأصلية في بنية الفكر العربي الإسلامي مع حقائق الحياة المعاصرة في حزمة واحدة تأبي الانسلاخ وتؤكد في إصدار علي التجديد وإعادة البناء » .

ومن شروط الاتصال الثقافي القدرة علي التفاعل مع الآخرين . ومن الكتاب [1] من يشبه القدرة علي التفاعل مع الآخرين بامتلاك الجسور التي تمتد بين أصحاب الثقافتين . و« يدلل علي ذلك بأن الميزة الكبري في الحضارة العربية الإسلامية وإبان ذروة ازدهارها هي طاقتها الخلاقة في الحوار مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها . فالتواصل مع الآخرين يعني في خاتمة المطاف إننا

---

(١) د. غالي شكري - رؤية نقدية - جريدة الأهرام بتاريخ ٦ / ٩ / ١٩٨٩ .

ملاحظة : يقول الله تعالي : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ (آية ٨٥ سورة الأعراف) .

نملك ما نعطيه لهم ، والحوار يعني الاعتراف بالآخر ، ولكن الحوار شيئ ، والاستراتيجيات السياسية ذات البعد الثقافي شيء آخر . فنحن مثلا لنا استراتيجيتنا في الاستنارة العقلانية والانتماء الوطني والقومي والحرية وحقوق الإنسان والعدل الاجتماعي والمساواة بين البشر . وهناك استراتيجيات في العالم تلتقي معنا وأخري تختلف . هناك استراتيجيات تقدس مركزية الغرب وأبدية التفاوت الاجتماعي وتجزئة الديموقراطية . هذه الاستراتيجيات لا يعنيها إقناع شعوبها فقط، وإنما يعنيها في المقام الأول السيطرة علي عقول العالم وذاكرته ومخيلته . لذلك فهي تحاول الهيمنة علي الآخرين ، وتحاول أن تفرض عليهم رؤاها للماضي والحاضر والمستقبل، وهي تفرض ذلك بأكثر الوسائل حداثة وتطورا ، وأحيانا عبر قنوات محلية تكونت مصالحها في ظل التبعية .

هذه الاستراتيجيات شيء ، والتفاعل أو اللقاء أو الحوار الثقافي بين مختلف ثقافات العالم شيء آخر ، العالم ليس هو الغرب . إنه الغرب والشرق والشمال والجنوب . من شرق آسيا إلي أمريكا اللاتينية ، من إفريقيا إلي أمريكا الشمالية ، مرورا بأوروبا هنا وهناك . والعالم ليس هو المراكز الثقافية الرسمية ولا برامج التبادل الثقافي بين الحكومات التي تخضع أخيرا للمواصفات السياسية ، وإنما هي دور النشر والمعارض التشكيلية والفرق الغنائية والمسرحية والمجلات والصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون التي لا تخضع لاستراتيجيات الهيمنة أو استراتيجيات التبعية ، وإنما تسلم قيادها لسوق المواطن العادي والحوار الثقافي المفتوح بين جميع الشعوب . هناك حواجز الرقابة والعنصرية والرواسب القديمة واختلاف النظم السياسية ، ولكن المشاركة في بناء الضمير الإنساني المعاصر تستحق أن ندق من أجلها أبواب السوق ، فذات يوم سوف تنفتح ، لأن لدينا ما نعطيه .. ولأن لديهم ما نحتاج إليه .. ولأن العالم يحتاج في طريق التقدم والحرية إلي الجميع . »

ومن الكتاب [1] من يحذرنا من الخلط بين التفاعل الحضاري بمعني الأخذ والعطاء ، وبين التفاعل مع المصالح الأجنبية والرضوخ لمطالبها علي حساب القيم المحلية والتطلعات القومية .

والدكتور عاصم الدسوقي [2] يري أن التفاعل الحضاري عملية مستمرة عبر التاريخ وأن انتقال المعارف من مكان إلي آخر ومن شعب إلي آخر عبر الأزمنة والعصور يؤكد تداخل الحضارات ويثبت اشتراك الجميع في صنع الحضارة . وأن كل عصر يفرز علومه وفلسفاته وقوانينه وعلاقاته وأن هذه الأمور ليست من المتغيرات التي تتحول وتتطور حسب الظروف والأحوال . والدكتور عاصم يدعو إلي قيام جمعية عربية تتكامل بحوثها وأنشطتها لدراسة التداخل والتفاعل الحضاري بين العرب والعالم . ويري أن دراسة التداخل الحضاري لابد وأن تقلل - علي المدي البعيد - من حجم التعصب وروح التعالي بين البشر إن لم تلغه ، وتغرس بدلا منه فضيلة التسامح والاعتراف

(١) أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي - الناقد - العدد ١٧ بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

(٢) د. عاصم الدسوقي - التداخل الحضاري بين العرب والعالم - جريدة الأهرام بتاريخ ٩ - ٦ - ١٩٨٩ .

المتبادل بالفضل . كما سوف تثبت أن لا حضارة تعلو علي أخري وتتفضل عليها أو تفضلها . فبقدر ما تكون حضارة ما منبعا وأساسا لبعض القيم والمعارف والانجازات بقدر ما تكون مصبا في الوقت نفسه لحضارات أخري ، حيث تتداخل المتناقضات وتتمازج وتصنع مركبا جديدا ينتقل إلي أخرين ليمر بالدورة نفسها . وهكذا يؤدي الإيمان بفكرة التداخل الحضاري إلي فهم وإدراك القيم المشتركة بين البشر جميعا وهي قيم تقفز بطبيعتها فوق حواجز اللون والجنس والعقيدة وتؤكد علي أن ما يجمع الإنسانية أكثر مما يفرقها.

علي أن هذا لا يعني بالضرورة إسقاط الدور المميز من الاعتبار لأي حضارة من الحضارات أو تجاهله فمع اعتقادنا بفكرة التداخل الحضاري تبقي خصوصية النسق الحضاري من حيث النشأة والإسهام . وهنا يأتي أحد مجالات الجمعية المشار إليها ، فالجمعية بعد أن تؤكد علي التداخل الحضاري بمختلف جزئياته في العلوم والآداب والفنون .. لابد وأن تسعي لاكتشاف القانون الذاتي لنسق الحضارة العربية باستخدام المنهج العلمي ، وليس بتطبيق نظريات تمت صياغتها في إطار اجتماعي وزمني معين ، وضرورة البحث في الفروض المناسبة للوصول إلي القانون والإشكالات المصاحبة وأيضا اكتشاف الشروط الموضوعية للإسهام العربي في الحضارة الإنسانية ».

ولقد نظر بعض الكتاب العرب [1] إلي اهتمام مالك بن بني المفكر الجزائري بقضية البناء الحضاري الإسلامي الجديد نظرة جديرة بالاعتبار ، فحاول زكي أحمد استكشاف مكونات القوة وعناصر الإيجاب في فكر مالك بن بني في النقاط التالية :

أولا : التركيز علي القضايا الأساسية في العالم الإسلامي .

ثانيا : تجاوز الحساسية الطائفية .

ثالثا : التخصص في العمل الفكري .

رابعا : الفاعلية والديناميكية .

خامسا : غلبة فكر البناء علي الهدم .

سادسا : إضافة مصطلحات جديدة .

سابعا : العمق والإبداع .

وحقيقة الأمر أن مالك بن نبي يعد رائدا في طرح أفكار المواجهة العربية والإسلامية للقوة الغربية الحضارية المعاصرة ومحاولتها المستمرة في الهيمنة والسيطرة . وما كشف عنه زكي أحمد في مقاله عن مكونات القوة في فكر مالك بن نبي يفتح الطريق للتأمل والتفكير في استراتيجية المواجهة وأساليبها . ففي النقطة الأولي وهي التركيز علي القضايا الأساسية في العالم الإسلامي

(١) زكي أحمد - مكونات القوة في فكر مالك بن نبي - مجلة العالم - العدد ٣٨٨ بتاريخ ٢٠ - ٧ - ١٩٩١م.

يسوق لنا الكاتب عبارة مالك بن بني المشهورة « إن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع تفكيره إلي مستوي الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها » . ومن ثم نلاحظ ما لاحظه الكاتب بالأثر السلبي للصائحين من الإسلاميين الذين يفتتون المشكلة الإسلامية المعاصرة ، والذين يقضون عمرهم في إبراز نقاط الخلاف داخل الأمة الإسلامية والذين يصرفون جهدهم وعمرهم في المسائل الفقهية الصغيرة مثل الطهارة والحيض والنفاس ، ولا تمتد أبصارهم إلي مصير الأمة وقضاياها المعاصرة . وفي النقطة الثانية وهي تجاوز الحساسية الطائفية يري الكاتب أن مالك بن بني لم تتلوث كتاباته بالمهاترات أو الحساسيات بين الفرق والمذاهب الإسلامية. ويوضح الكاتب مفهوم النقطة الثالثة وهي التخصص في العمل الفكري عند مالك بن بني فيسوق عبارته القائلة : « إن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، ولو أردنا محاكاة هذه الجملة بصورة أخري مع اعتبار ما بين الحضارة والثقافة من ربط وثيق لقلنا إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة ، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة ، وإذن فمَصير الإنسان رهن دائما «بثقافته»، وكانت فكرة مالك بن بني أن مجتمعا مُعينًا قد يفقد السيطرة علي عالم الأشياء في ظروف معينة مثل الهزيمة العسكرية ، ولكن احتفاظه بعالم الأفكار سليما هو القوة والقدرة علي بناء عالم الأشياء من جديد ، لأن القوة الخلاقة هي قوة الأفكار . ويعقب الكاتب بقوله : ولاشك أن مالك بن نبي قد تقدم بدرجة كبيرة في حقل الاختصاص الفكري ، واكتسب العديد من ميزات هذا الحقل الهام . والساحة الإسلامية ينقصها بشكل حاد المفكرون الذين يهتمون بمشكلات الحضارة وقضايا النهوض الحضاري إلي درجة الاختصاص الذي يتيح القدرة علي الإبداع والطرح النوعي الشامل بالإضافة إلي عامل الكم والكثافة . وفي النقطة الرابعة الفاعلية والديناميكية يري الكاتب أنه من القواعد الرئيسية لمعرفة صحة الفكر وسلامته جريان روح الفاعلية والحيوية في عروق وشرايين الفكر . والفكر الذي لا يتصف بالديناميكية فكر عقيم ومشلول الإرادة والقوي . والفكر الذي لا يحمل الإنسان المسئولية ويجعله يحس بالواجب ينبغي أن نشك في صحته . والفكر الذي يعطل طاقة الأمة ويجمد إبداعها ويكبل انطلاقها يتعارض مع الفكر الإسلامي . لأن الإسلام جاء لتحرير الإنسان من كافة القيود والإغلال التي تقف أمام نهضته وانطلاقته في البناء والإعمار والتنمية والإنتاج والإبداع والابتكار. ويسوق الكاتب قول مالك بن بني : « إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها ، وإنما بفتح دروب جديدة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي ، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات النماء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه » وفي النقطة الخامسة وهي غلبة فكر البناء علي فكر الهدم ، يلاحظ الكاتب أن معظم أعلام الفكر الإسلامي الحديث غلب علي كتابتهم من حيث الكم فكر الهدم أكثر من فكر البناء، ويضرب أمثلة بفكر جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ هـ - ١٣١٥ هـ - ١٨٣٨م - ١٨٩٧م) الذي ارتكز علي مواجهة الاستبداد السياسي في الداخل ومقاومة الاستعمار في الخارج . وفكر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨م - ١٩٠٢م) . غلب عليه جانب الهدم الذي

يبرز من خلال كتابيه « طبائع الاستبداد » ومصارع الاستعباد » . وفي كتابات سيد قطب (١٩٠٦م -- ١٩٦٦م) يغلب جانب الهدم وكذلك كتابات علي شريعتي (١٩٣٣ م - ١٩٧٧م) يغلب عليها جانب الهدم . وفي مقابل هؤلاء المفكرين يري الكاتب أن من المفكرين المسلمين في العصر الحديث من كانت كتاباتهم متوازنة بين الهدم والبناء ، ويضرب مثلا بكتابات الشيخ أبو الأعلي المودودي (١٩٠٣م - ١٩٧٩م) ، ثم يقول الكاتب أن مالك من بني أشار لهذه الفكرة في أكثر من موضع أهمها في تحليله لتطور الثقافة الأوربية الحديثة حيث يقول : لوحظ في الثقافة الغربية في عهد النهضة ، حين كان « توماس الأكويني » ينقيها - ولو عن غير قصد منه- لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية ، ولم تكن ثورته ضد ابن رشد وضد القديس «أوغسطيس» إلا مظهرا للتجريد السلبي حتي يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثا « ميتافيزيقيا » للكنيسة البيزنطية . وأتي بعده «ديكارت» بالتجريد الإيجابي الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي . الطريق الذي بني علي المنهج التجريبي .

وإذا كان جانب الهدم لدى معظم المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث قد غلب علي جانب البناء فذلك بسبب الظروف التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي في الاستبداد والاحتلال العسكري . ومالك بن بني عندما يبحث موضوع النهضة يقول : وهكذا حين نتحدث عن النهضة نحتاج إلي أن نتصوها من ناحيتين :

١- تلك التي تتصل بالماضي . أي بخلاصة التدهور ، وتشعبها في الأنفس وفي الأشياء .

٢- تلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل .

وهذا التمييز الضروري لا يتصل بمظاهر الترف العقلي لطائفة من الناس ، وإنما يهتم بتكييف حالة شعب وتقرير مصيره . ومن أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها ، حتي يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلي الحياة .

وفي النقطة السادسة وهي إضافة مصطلحات جديدة يري الكاتب أن مالك بن نبي أثري الثقافة العربية بمصطلحات جديدة مثل القابلية للاستعمار ، ومثل الأفكار الميتة وهي الأفكار التي خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعدلها جذور في محيط ثقافتها الأصلي، ومثل الأفكار القاتلة وهي الأفكار التي نستعيرها من الغرب وتتناقض مع مكونات واقعنا الاجتماعي .

أما في النقطة السابعة وهي العمق والإبداع فإن النقاد جميعا يؤكدون الرؤية الجديدة لمالك بن نبي في الثقافة العربية والإسلامية بصورة تحفز الفكر العربي والإسلامي لاكتشاف الحقائق وتحفزه للتحليل والصواب .

عندما قدم « أحمد مختار أمبو » المدير العام لليونسكو تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال في أواخر العقد الثامن من القرن العشرين ذكر أن الاتصال قام ويقوم بإتاحة

فرص التقارب بين أفراد المجتمع وفرص اندماجهم فيه ، وقام الإعلام بالحد من التوتر وحل النزاعات . وفي بداية الأمر كان الاتصال قائما علي مجتمعات محدودة ، أو مجموعات من الشعوب المتجاورة . ولكن مثل هذا الاتصال اكتسب في أيامنا بعدا عالميا لا تنفصم عراه ، بفضل سرعة وسائل الإعلام وشبكة من العلاقات من شتي الأنواع امتدت عبر العالم كله .

ويقول « مختار أمبو » : لا يمكن اليوم لأي شعب كان - إلا إذا استثنيا جماعات سكانية متفرقة في مناطق يتعذر الوصول إليها - أن يعيش بمعزل عن العالم ، فقد أصبحت كل أمة تشكل جزءا من الواقع اليومي لسائر الأمم ، ولئن لم يكن يتوافر للعالم وعي حقيقي بتضامنه فإنه يشهد تكافلا يزداد باطراد [١] .

وعندما يتناول التقرير الدولي مشكلات الاتصال يتحدث عن التكنولوجيا الاتصالية حديث تفاؤل ، وحديث مستقبل مبشر فيقول :

« هذه التكنولوجيا الجديدة التي يتركز استخدامها حاليا في عدد قليل من البلاد الصناعية أساسا ، قد مهدت السبيل لعصر جديد في مجال الاتصال . فالمسافات لم تعد عقبة ، والإمكانية متوافرة لإقامة نظام اتصال عالمي يربط بين أي بقعة وأخري علي كوكب الأرض إذا ما توافرت الإرادة الجماعية لذلك . وقد أصبحت المعدات أرخص ثمنا بعد أن كانت مكلفة. »[٢]

ولعل أهم ظاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين - كما يبين تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال - هي حصول أكثر من ثمانين شعب علي الاستقلال ، الأمر الذي أدي إلي تحرر أكثر من بليوني شخص من السيطرة الاستعمارية .

ولقد أصبحت الشعوب في كافة أنحاء العالم تعتمد علي بعضها البعض بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وذلك بفضل التقدم التكنولوجي . ويمكن أن تؤدي مجموعة الشبكات العالمية الالكترونية المترابطة وظيفة مماثلة لوظيفة الجهاز العصبي حيث تربط بين عقول ملايين الأفراد علي نحو يؤلف ذكاء جماعيا هائلا . وتهدف العوامل الاقتصادية والاجتماعية إلي تحقيق هذا التكافل . إن دور الاتصال في العلاقات الدولية دور هام وحاسم إذ أنه يتحكم في قدرة الرأي العام الدولي علي حصار المشكلات التي تهدد الجنس البشري مثل التلوث والأمية والتحيز العنصري والمجاعات وغير ذلك ، ومن ثم يمكن إيجاد حلول لها بعد أن يقوم الإعلام بإبراز مدي خطورتها وتغلغلها وتأثيرها وكيف أنها تهدد كافة الشعوب والأمم . إن وسائل الإعلام تقوم بدور هام في إيقاظ الرأي العام العالمي تجاه مثل هذه المشكلات بجعلها مفهومة علي نحو أفضل.

---

(١)أحمد مختار أمبو (المدير العام لليونسكو فيما بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٨٧) . تصدير تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال - الذي نشر مترجما باللغة العربية بعنوان : أصوات متعددة وعالم واحد - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر - ١٩٨١ .

(٢) أصوات متعددة وعالم واحد - المرجع السابق - صـ٤٦ .

وفي حفز الإرادة لحل تلك المشكلات .

هذا التفاؤل التكنولوجي الصادر من قلب مثقف مسلم أفريقي ، هو المدير العام لليونسكو. وهذا التفاؤل الذي أكده الخبراء الدوليون في تقريرهم يقابله واقع شديد العفن من قلوب صليبية عليها أقفالها ، وعليها تراكمات من الضلال والكراهية تمتد مئات السنين ، وهذه القلوب العفنة هي التي تستأثر بالتقدم التكنولوجي والإعلامي وتجعل التفاؤل التكنولوجي تشاؤما شديد السواد ، وتحجب بممارساتها العنصرية أي بارقة أمل في اتصال ثقافي أو إعلامي عادل أو متكافئ .

إن مجرد المقارنة بين كتابات القرنين السابع عشر والثامن عشر بكتابات العقد الأخير من القرن العشرين تبين بجلاء أن السد المانع للاتصال الثقافي بين العرب والمسلمين من جانب ، والأمريكيين والأوربيين من جانب آخر ، هو الكراهية العمياء من الغرب للإسلام والعرب .

في تاريخ الاستشراق يعد سيمون أو كلي Simon Ockley ١٦٧٨ - ١٧٢٠ م من المستشرقين الذين كتبوا عن الشرق بإنصاف . هذا المستشرق عندما يصف النبي محمد ﷺ يصفه بأنه رجل خبيث جدا وماكر ، وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع . ثم يأتي المستشرق « هادريان ريلاند » المتوفي عام ١٧١٨ م فيكتب عن الديانة المحمدية ، كتابات توصف في الدراسات الاستشراقية بأنها منزهة عن المواقف اللاهوتية الشديدة العداء والافتراء علي الإسلام. فيقول : ينبغي علي المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية ، وأن يسمع محمدا نفسه وهو يتحدث في لغته ، كما ينبغي علي المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يري بعينيه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن . فقد أعطي الله العقل لكل الناس . وقد كان في رأيي دائما أن ذلك الدين الذي انتشر انتشارا بعيدا في آسيا وافريقيا ، وفي أوربا أيضا ليس دينا ماجنا أو دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحيين » ثم يمضي « ريلاند» قائلا : صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء جدا وضار بالمسيحية إلي حد بعيد ، ولكن ، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيلة ؟ إن الأحري هو أن يسعي المرء للتعرف علي الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشد قوة [١] » .

هذا المستشرق الأخير منعت الكنيسة ، تداول كتابه حتي بهذه الروح والمبررات ..؟

وفي ديسمبر ١٩٩٠ تنشر مجلة الأيكونوست[٢] حوارا متخيلا بين محمود المسلم وبين فرانسيس المسيحي تحت عنوان الإسلام والغرب . ووصفت محمود وفرانسيس بأنهما مسلم مستنير

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري - الطبعة الثانية ، - كتاب الأمة - قطر ١٤٠٤هـ - صـ٣٣ ، صـ٣٤ .

(٢) العدد الصادر من الأيكونومست بتاريخ ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٠ .

ومسيحي مستنير .

الإسلام والغرب :

الأسقف والإمام يسألان : هل يجب أن نتقاتل حقيقة ؟

يقولون الآن إن التعددية هزمت الشيوعية ، وأن المعركة الكبري القادمة ستكون بين الإسلام والنصرانية ، أو بين القوتين الكبريين في العالم اللتين نمتا في ظل فكرة الله والإنسان . لهذا نظمنا مناقشة بين رجل دين مسيحي وآخر مسلم من ذوي العقول المتفتحة . وأطلقنا علي أحدهما فرنسيس وعلي الآخر محمود . وقد بدأ المسلم المعتدل حديثه :

محمود : يؤلمني أن كثيرا من الناس يعتقدون أن المرحلة القادمة من التاريخ ستكون معركة بيننا وبينكم .. نحن نعيش جنبا إلي جنب علي امتداد المساحة بين بحر قزوين وحتي الطرف النهائي للبحر المتوسط غربا . لقد حدثت احتكاكات مؤلمة حقيقة بيننا مرات عديدة في الماضي ، ولكن بعد مرور نحو ألفي عام علي مولد مسيحكم ، وما يزيد علي ١٤٠٠ عام علي ميلاد محمدنا ، دعوني أبدأ بالسؤال عما إذا كان يجب أن يحدث ذلك ثانية ؟ إننا قبل كل شيء «أهل الكتاب » . إننا نؤمن - مع اليهود - بفكرة إله واحد . إننا نشترك أيضا في فكرة المسئولية الفردية أمام الله ، فالقرآن يقول ﴿ لا تزر وازرة وزر أخري ﴾ .

هذه الأشياء قد تبدو بلا معني بالنسبة لكثير من الناس الذين لا يؤمنون هذه الأيام بأي إله علي الإطلاق . ولكن هذه هي الأفكار الأولية التي تشكل كل الثقافات ، وتمهد الطريق الذي نعيشه . هناك هوة كبيرة بين الطريقة التي يعيش بها كل منا ، والحياة المعقدة للثقافة الهندية متعددة الآلهة ، أو الحياة الأحادية للثقافة « الكونفوشيوسية» التي ليس لها إله . دعني أذكرك بأنه عندما خرج محمد من مكة في زيارته للسماء فيما تطلقون عليه ٦٢١ بعد الميلاد ، توقف في القدس ليصلي جنبا إلي جنب مع إبراهيم وموسي وعيسي . إن هذا يثير مشاعري .

فرنسيس : إنه يثيرني أيضا . ولكن يجب أن نواجه حقائق التاريخ . الحقائق تقول إننا أهل الكتاب تشاجرنا مرارا وتكرارا بصورة مخيفة . ليس هناك مشاجرات مثل مشاجرات الأسرة . دعني أذكِّرك في المقابل بالوقت الذي شق فيه شبابنا الكادحين من حملة الدروع في أوربا الغربية الواثقة من نفسها طريقهم إلي القدس ليبدأوا سلسلة القتل والخداع الذي نسميه الحملات الصليبية، وما حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين حينما ابتلعت أوربا القوية كل العالم الإسلامي تقريبا في امبراطورياتها المختلفة .

محمود : وطالما أن كل منا يتذكر الأوقات التي مضي فيها فريقه بعيدا ،دعني أتذكر لك أن الجيش العربي اندفع في شمالي افريقيا إلي أسبانيا وفرنسا ، متحمسا بدين جديد في قرنكم الثامن (وفي قرننا الأول)إلي أن أوقفه تشارلز مارتيل في بواتيه Poitiers ، وكذلك فتوح ما نسميه الآن روسيا الأوروبية إلي أن صدها دوق موسكو ، منذ نحو ٦١٠ سنوات مضت،والاندفاع التركي في أوربا الشرقية الذي صده علي أبواب فيينا منذ ٣٠٧ سنوات مضت ملك بولندا .

فرنسيس : نعم كلانا لديه ذكرياته . أوربا والإسلام لم يمرا معا بأوقات هادئة . فمعاركهما معا من أشهر روايات التاريخ ، فهل هناك مبرر للاعتقاد بأن هذه الروايات انتهت ؟

محمود : هناك فارق كبير بين ما حدث في الماضي والآن . في معظم تلك الصدامات المبكرة كان الطرف الذي بدأ بالهجوم مترعا بالثقة في النفس بسبب ما قد نسميه الآن أسباب أيديولوجية وتكنولوجية ، وفي المقابل كان الطرف المدافع منقسما وضعيفا . إن الجيش العربي الرائع الذي حمل الهلال الوليد بعيدا إلي بواتييه كان يهاجم أوربا التي تعيش في عصورها المظلمة. كما أن الصليبيين الذين أعاد فرسانهم الصليب إلي المقدس بعد ٣٥٠ سنة ، تقدموا بمباركة من البابا ضد عالم إسلامي غير منظم في حينه . كذلك فإن الأتراك الذين شنوا الهجوم المضاد حتي فيينا كان لديهم أفضل الامبراطوريات تنظيما في ذلك الوقت ، كما أن بناة امبراطوريتكم الذين ربطوا في القرن العشرين بين الحماس الديني والكفاءة العملية ، كلاهما واجه معارضة ضعيفة .

إن ما حدث في الماضي لا يشبه الوضع الراهن . إنني أوافق علي أن إسلامي الآن يحظي بحماس ديني أكبر من نصرانيتكم أو نصرانيتكم السابقة : غالبيتنا مازال مؤمنا ، معظكم ليسوا متأكدين إن كانوا مؤمنين أم لا . ولكن باقي المعادلة لا ينطبق. إنكم ما زلتم الجانب الذي له التفوق الكنولوجي والاقتصادي ، والذي نختطف من علي مائدته فتات الحياة الحديثة . إن أورباكم تتجمع معا في وحدة جديدة ، بينما المسلمون وخصوصا العرب مازالوا منقسمين .

فرنسيس : إنني أقبل هذا الفارق ولكني لست مرتاحا تماما لسببين أحدهما أن العالم العربي أظهر في هذا القرن لأول مرة في التاريخ علامات جادة لمحاولة توحيد نفسه ، ولو فاز صدام حسين العراق في المواجهة في الخليج فإنه كان قد استطاع أن يُوَحد بالفعل جزءا كبيرا منه تحت قيادته .

محمود : إنني شخصيا أعتقد أن ذلك كان سيكون كارثة ، فصدام حسين سوف يوحده تحت نوع خاطئ من النظام السياسي - إنه ديكتاتورية قميئة - ولأهداف خاطئة هي نشر أفكاره الخاصة عن القوة العربية في العالم الحديث . ولكن يجب أن أقول لك - وأن أحذرك - إن كثيرين من رفاقي المسلمين معجبون به كثيرا .

فرنسيس : حسن . وهذا يقودني إلي السبب الثاني لعدم اطمئناني لمقارنتك التاريخية: إنك ربما أغفلت أهم شيء . فمعظم هذه الموجات التوسعية المبكرة للإسلام في أوربا وبالعكس كان سببها الاقتصاد . إن العرب الذين اندفعوا من الصحراء العربية في القرن الذي أعقب وفاة محمد كان يحركهم الحماس الديني ، ولكن كان يحركهم في الحقيقة أيضا أنه لا توجد واحات كافية في الصحراء للحفاظ علي حياتهم . وقد هاجر الأتراك وقبائل أخري من وسط آسيا لأسباب مشابهة . من ناحية أخري فإن أبناء الطبقة الأوربية الجديدة التي ظهرت مع استقرار الاقتصاد الريفي في مرحلة ما بعد العصور الوسطي لم يكن لديهم ما يفعلونه ، وكانوا يبحثون عن الإثارة .

إن بناة امبراطورية القرن التاسع عشر كانوا أمثال هؤلاء أيضا . إن ما يقلقني الآن هو أن العالم الإسلامي في جنوب وشرق أوربا لديه شبان كثيرون ، وليس لديه في الوقت نفسه ما يطعمهم به ، أو ما يشغلهم به . أربعة دول فقط من بين ١٩ دولة بها كثافة سكانية عالية تقع بين المغرب وإيران . وهي المغرب وتونس واليمن وتركيا - لديها اقتصاديات تنمو أسرع من زيادة عدد الأفواه التي يجب أن تطعمها . أما في الخمسة عشر دولة الأخري فإن الشعوب تزداد فقراً ، وفي أربعة من هؤلاء الخمسة عشرة دولة فإن ما يزيد عل نصف السكان تحت سن ٢٥ سنة ، وفي تسعة ما يزيد علي ٦٠٪ تحت هذه السن . إن هذه الأوضاع تؤدي بالفعل إلي فيضان من اللاجئين اقتصاديا ، وإذا أدي البؤس الاقتصادي إلي قمع سياسي أكثر فسينجم عند ذلك فيضان من اللاجئين السياسيين أيضا ، يكون من بينهم عدد كبير من الثوريين الغاضبين . إن هذا سوف يتسبب في مناقشات بين أوربا - التي ستقول إنها لا تستطيع أن تأوي كل هؤلاء اللاجئين - وبين الحكومات التي تريد أن تتخلص منهم . إن هذه المناقشات يمكن أن تتداخل مع أشياء أخري منها حرية الحركة بين جزئينا من العالم ، وإيجاد مدخل لأوربا إلي البترول العربي ، وطموحات الجيل التالي لصدام حسين . إن هذا النوع الخاطئ من قيادة عربية جديدة سوف يخلق نوعا خاطئا جديدا من الثقة العربية بالنفس في عالم من الأسلحة الكيماوية والصواريخ النووية . إنني لا أستطيع الإدعاء بأنني أتنبأ بالنتيجة ، ولكن هناك ما يصنع الاضطراب .

محمود : هناك حقا بعض الاضطراب وحتي إذا كنا نختلف بشأن التفاصيل ، فلنقل إننا قلقان بشأن كيفية مرور واجتاز الإسلام وأوربا الخمسين عاما القادمة بدون صدام . ماذا يستطيع الرجال ذوي النوايا الطيبة في كلا الجانبين أن يفعلوا للحد من الخطر ؟

فرنسيس : أعتقد أن هذا يعتمد علي ما إذا كنا نستطيع الاتفاق علي الطبيعة الأساسية للعالم الذي سنعيش فيه في القرن الحادي والعشرين . وإذا استطعنا فيجب أن نكون قادرين إذن علي أن نسأل أنفسنا كيف ستستطيع تقاليدنا المختلفة المسيحية والإسلامية أن تتكيف مع هذا النوع من العالم .

إن العامين ١٩٧٩ و ١٩٩٠ - قد أوضحا كثيرا الطريقة التي ينظم بها الإنسان حياته اليومية هنا علي الأرض . بعد هزيمة الشيوعية أصبح ممكنا الاعتقاد بأنه يمكن ترك السياسة والاقتصاد تحت سيطرة حفنة من الناس الذين يدعون بأنهم « يعرفون » كيف يديرون هذه الأشياء.

لقد عدنا إلي المسئولية الفردية ، وإلي الاعتقاد بأن كل إنسان يحمل عبء حياته الخاصة؛ وهي فكرة يشترك فيها المسلمون والمسيحيون كما تقول . ويبدو واضحا لي أنه في المستقبل سوف يريد كل فرد في العالم الديمقراطية للجانب السياسي من الحياة ، وحرية اختيار السوق كأساس للحياة الاقتصادية .

محمود : إن تصوري للديمقراطية قد يختلف قليلا عن تصورك ، ولكن عموما فإنني أوافقك . وإذا كانت تعوزني اللباقة فإنني سأشير إلي أن إسلامي كان أفضل كثيرا من

مسيحيتكم خلال السبعين عاما الماضية فيما يتعلق بالشيوعية . ففي الجزء المسيحي من العالم وصل كثير من الحكومات الشيوعية إلي السلطة ، أما في الجزء المسلم فإن ذلك لم يحدث أبدا إلا إذا كان قد تم فرضه من الخارج .

بعض الحمقي من المسيحين اعتادوا القول بأن الشيوعية كانت « هرطقة مسيحية أخري » في حين أن كل مسلم رأها - كما كانت - عدوة لكل منا . ومع ذلك دع هذا يمر . إننا نتفق أنه في المستقبل سوف يأمل الناس في كل مكان أن يكون لهم رأي أكثر في كيفية تنظيم حياتهم علي الأرض .

فرنسيس : إذن دعنا ننطلق من هنا . إنني أدعي أن الأفكار التي قدمتها المسيحية في جزئي من العالم هي أساس أفضل لمسيرة الديمقراطية من الأفكار التي قدمها الإسلام . فمن المسيحية تكلمنا عن الفكرة الجوهرية للفصل بين الكنيسة والدولة .

وفي إدارة حياتنا اليومية عليي الأرض - إذا كنا نريد أن نجعلها بطريقة ديمقراطية فإننا يجب أن نقبل أن رأي الإنسان الآخر جيد مثل رأينا . هذا هو عالم النسبية والشك الأمين . لقد قيل ذلك للمسيحيين منذ البداية . « اعط قيصر ما لقيصر ، واعط اللّه ما للّه » . القرآن - أرجو أن تسامحني - ليس به شئ من هذا يقوله للمسلمين . علي العكس من ذلك قيل لكم إن مثل هذا الفصل خطيئة .

محمود : لقد احتاج ذلك من المسيحيين وقتا طويلا كي يضعوا هذا المبدأ موضع التنفيذ. أباطرتكم الرومان المقدسين وباباواتكم في العصور الوسطي توصلوا إلي كثير من الترتيبات السياسية مع بعضهم البعض . بصفة عامة ، وبغض النظر عن التجربة المبكرة المثيرة للإعجاب التي قامت بها سويسرا ، فإن الأمر تطلب منكم ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ سنة - وهي فترة أطول من التي عاشها الإسلام حتي الآن - قبل أن تبدأوا في تطوير الديمقراطية التي تقول إن الفصل بين الكنيسة والدولة شرطها الأساسي .

إنك يجب أن تعطينا الوقت أيضا . حقيقة أنه علي الرغم من أنه ليس لدينا عبارة عظيمة للاستشهاد بها مثل الاقتباس الذي أوردته عن المسيح من الانجيل ، فإن معظم الدول الإسلامية تمارس بالفعل فصلا بين الدولة والدين . إننا نسير ببطء كبير لعمل ذلك بطريقة ديمقراطية ، وأنتم كنتم كذلك .

فرنسيس : ومع ذلك فإن الديمقراطية تمضي بعمق أكثر من الفصل بين الدولة والدين . إن ممارسة الديمقراية يتطلب موقفا خاصا تجاه الآخرين . من الضروري أن نتقبل عقلا وقلبا أن الإنسان الآخر مهم أيضا مثلنا . إن مظهره قد لا يبدو جيدا أو ماهرا ، وقد لا يكون قارئا جيدا لأرسطو

وآدم سميث ، ولكنه مهم كذلك . هذا شيء لا يشعر به الرجال بشكل طبيعي ، ولا يمكن تعلمه في دروس الاجتماع في المدرسة . إن الوسيلة الوحيدة لتعلمه تدريجيا هو داخل مناخ الأفكار التي نتربى فيها . وثقافتنا هي هيكل الأفكار التي تشكل حياتا . إنني سأضغط عليك بشدة . «أحب جارك كما تحب نفسك » قالها مؤسس المسيحية مضيفا إياها بعد حب الله ، مما جعل ذلك أهم القواعد علي الإطلاق . إنني لا أستطيع أن أجد شيئا مشابها في القرآن . فالقرآن قال الكثير عن حب الله ، وهذا رائع ولكنه غير كاف .

إن العهد الجديد ملئ بالمواعظ التي تدعونا إلي أن ننظر إلي رفاقنا باحترام وبدون تأكيد للذات . إن فهرس النسخة التي معي من القرآن ليس به شيء عن « الشفقة » و « الرحمة » ، ولكن به مدخل واحد عن « السلام » ككلمة تقولها عندما تقابل أحدا . هناك بعض الآيات الصغيرة عن الصبر في سورة ١٦ وعن التواضع في سورة ٣١ ، ولكن ذلك ليس هو الشيء نفسه.

تعليق : (انظر كيف يحكمون علي القرآن من ترجمة فهرس بأرقام السور ؟ وهذه هي موضوعية ألا يكونومست التي هي موضوعية الغرب) .

وبدون الدخول في علم اللاهوت أقول باختصار أن ما أعتقده لكمية في جذور ذلك . بالنسبة لأي شخص يعيش في العالم المسيحي - حتي إذا لم يكن مؤمنا - يبدو واضحا أن النظرة المسيحية عن كيف يجب أن يفكر الإنسان في إنسان آخر مرتبطة بفكرة الثالوث المقدس - الأب والابن والروح القدس - فإذا قيل لك إن الله فصل جزء الابن عن نفسه كي يصبح بشرا - كما حدث - وصُلبَ ، فإنك ستكون عرضة لأن تبدأ الإحساس باحترام أكثر تجاه جميع البشر : إن الإسلام بإنكاره الثالوث ينكر عن نفسه هذه الفرصة .

تعليق : (انظر كيف يجعلون من الشرك بالله أساسا للرحمة بين البشر .. هكذا زين لهم شيطان استكبارهم سوء الفكر والاستنتاج) .

محمود : إنني إذا لم أقبل بفكرة الثالوث فستفهم أن ذلك لصالح السلام ، هذا ليس نكتة. ولكنه الحقيقة .

دعني أكرر : يجب أن تعطينا وقتا . إن العهد الجديد به إشاراته القوية بما فيها ما يقوله عن حب الجار ، وكذلك القرآن ، خصوصا بالنسبة لمعجزة الله .

ولكن منذ ٦٠٠ عاما مضت ، عندما كانت المسيحية في مثل عمر الإسلام الآن ، فإن سياسات النصرانية لم تكن تحظي بإعجاب أكثر مما تحظي به سياسات الإسلام الآن . في عامكم ١٣٩٠ كانت أوربا المسيحية فاشستية وحشية لها بابا وبابا معادي ، وكانت تتساءل عما إذا كانت في القرن الحادي عشر أم في القرن الثالث عشر ؟ إن التغيير الكبير لأوربا الصليبية للأفضل كان لا يزال بعيدا . لقد أثرت الاقتصاديات في المناقشة مبكرا لتسجل نقطة ضدي . دعني استخدم الاقتصاد الآن . إن هذا التغيير الأوربي الكبير للأفضل - بما فيه نمو الديمقرايطة - تم جزئيا لأن أوربا ازدادت ثراء . إن نمو الثروة ووقت الفراغ والتفكير ساعد علي تحرير قوي الروح

التي أحدثت النهضة والإصلاح ، والتي قادت بدورها إلي مجيء الديمقراطية . لقد كانت قوي الروح هذه هناك تنتظر ، ولم يكن النمو الاقتصادي أكثر من مفتاح ضمن مفاتيح أخري تفتح لهم الباب ، ولكنها قامت بدورها . إنني واثق من أنه إذا استطاع العالم العربي الحصول علي اقتصادياته ، فإن بابا مشابها يمكن أن يفتح أمامنا ، وإذا حدث ذلك فإن ديمقراطيتنا قد يكون لها ميزة خاصة أو ميزتين .

فرنسيس : إذا كنت علي حق فإننا يمكن أن نتنفس ثانية . فما كان يمثل خطرا رئيسيا بالنسبة لسلام القرن الحادي والعشرين قد خفت حدته .

إنني أقبل رأيك فيما يتعلق بأهمية الاقتصاد . حقا إنني اعترف بامتنان . أن أوربا اليانعة في عصر النهضة والإصلاح الديني ساعدها كثيرا من الناحية الاقتصادية والعلمية ما استوردته من العرب منذ ٦٠٠ عاما أو يزيد . لقد تعلمنا منكم من جديد العلوم الطبيعية والأشياء الأخري التي تعلمتموها من اليونان ، لقد كان هذا أحد أسباب يقظه أوربا .فشكرا لكم.

ولكن ماذا تقصدون بقولكم أن نسختكم من الديمقراطية سوف تكون أفضل من نسختنا إذا جاءت ؟

محمود : لقد قدمتم ما تعتقدون أنه مزايا دينكم كأساس للديمقراطية . إنني سأقدم الآن ميزتين أعتقد أنهما توجدان في ديني. إحداها أننا نحن المسلمين أفضل في مسألة الجنس التي ستؤثر كثيرا في القرن القادم . إن القرآن واضح في ذلك منذ البداية . إنه يقول بأن البشر أمة واحدة ، ثم يقول : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ ويمنعنا أن يحقر بعضنا بعضا . وإذا نظرت حول العالم ستجد أننا طبقنا المبدأ جيدا .

فرنسيس : لقد كان لديكم في شرق أوربا حتي وقت قريب تجارة العبيد البغيضة ، كما كان عندنا في غرب أوربا .

محمود : حقا يجب أن نعترف نحن وأنتم بفشلنا . ولكن علي وجه الإجمال فإن سجل الإسلام في هذا الشأن ليس سيئا .. إن أحد تعاليم محمد الأخيرة إلي العرب هي عدم معاملة غير العرب علي أنهم أدني منزلة . إن هذا سيكون مناسبا علي ما أعتقد في القرن القادم .

أما الميزة الأخري فإنها قد تكون صعبة الفهم بالنسبة للناس في الغرب الحديث ، ولكنها أكثر أهمية علي المدي البعيد ، وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يشير إلي الخطر الكامن في انتصار الغرب ، والضعف الكامن في قوته .

وكما قلت فإن مولد الديمقراطية والرأسمالية أصبح ممكنا بإزالة جزء من عالم المطلق . في عملية التعددية ليس هناك خطأ دائم أو صحيح دائم ، وحكم الإنسان يعتمد علي حكم إنسان آخر. فعندما تقرر الأغلبية شيئا سوف يتم عمله ، وإذا غيرت رأيها فلن يتم عمله . وسواء احتل قطيع من الغنم أو مصنع للكمبيوتر حقلا من الحقول ، فإن ذلك يتوقف علي تفضيل ملايين الأفراد

لحروف مشوي أو مطبوعات . إنه نظام فعال مثير للإعجاب ، وفي عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ زعمتم إن ذلك ما يريده العالم كله ، ولكن هذا ليس صحيحا تماما .

إن قرارات الأغلبية تؤدي أحيانا إلي نتائج يري كثير من الناس أنها ليست مناسبة مؤقتا فقط ، ولكنها خاطئة أيضا . وهذه يمكن تصحيحها إذا تغيرت الأغلبية ، ولكن ليس هناك ضمانا أنه سيتم تصحيحها .

من ناحية أخري فإنه في أي نظام يقوم علي اختيارات فردية ، فإن بعض الأفراد سوف يظلون عند القاع ربما بصفة دائمة . فهذا النظام ليس هناك من يراقب من خارجه ، وكلما أصبح النظام أكثر عالمية فإن قلقي يزداد بشأن نقص مجموعة من القواعد الإرشادية .

وإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية هي النظام العالمي في المستقبل فإن كثيرا من الناس سوف يبدأون في الإحساس بأنهم يعيشون داخل آلة لا أخلاقية .

إن الإسلام الذي يصر علي أن الحياة اليومية هي جزء من كل أوسع ، وأن هناك دائما حقائق موضوعية يجب احترامها يكون تذكرة لكل هذه النقائص . إنني لا أعرف بالضبط كيف سيتم إصلاح هذه العيوب ، ولكن أحدا لم يكن يعرف منذ ٦٠٠ سنة كيف سيتم إنقاذ النهضة والإصلاح الديني . إنني لا أطلب منكم أن تكونوا مسلمين ، ولكنني أقترح فقط أن تقدموا أنفسكم بطريقتكم الخاصة إلي العمل الذي لم يتم بالنسبة للتعددية .

فرنسيس : كمسيحي فإنني أوافقك بالطبع علي الرغم من أن الكثيرين في العالم الغربي قد يرون أننا نجري « دردشة » بمناسبة « الكريسماس » . كم سيكون رائعا لو أن الإسلام الذي ساعد في إيقاظ المسيحية في نهاية العصور الوسطي أن يساعد الغرب الحديث في تشكيل قرونه القليلة القادمة .

هكذا عرضت الإيكونومست في أواخر أيام عام ١٩٩٠ تصورها للجدل بين الغرب والإسلام. وبرغم محاولتها في الالتزام بالموضوعية فإن جذور الفهم الخاطئ للإسلام . وعقدة استعلاء كل ما هو غربي وعصمته من الخطأ بدت ظاهرة واضحة .

ويظل العداء الغربي للإسلام أشد السدود أمام الاتصال الثقافي :

* ففي عام ١٩٩٣ يطرح أستاذ أمريكي بجامعة « هارفارد » هو الدكتور صمويل هانتجتن Samuel-P- Huntington دراسة جديدة يؤكد فيها أن الصراع القادم بعد انتهاء الحرب الباردة هو صراع حضاري وصراع ديني The Clash of Civilizations ونشر خريطة جديدة للعالم قائمة علي أساس تصوره للصراع الذي بدأ بين الديانات : الديانة المسيحية التي تغطي أغلب دول القارة الأوربية وكذلك أمريكا وكندا وأمريكا اللاتينية . والديانات الأخري وأبرزها الإسلام، وديانات آسيا الكبري . وفي بحث طويل في مجلة « الشئون الخارجية » الأمريكية يحدد « صمويل هانتجتن » نوع الصراع الذي سيسود العالم مع بداية القرن الحادي والعشرين بل حتي قبله

بسنوات بأنه صراع بين أديان وحضارات وعداوات قديمة كانت كامنة . ويقول إن الاتجاه الذي أصبح سائدا هو العودة إلي إحياء الأحقاد القديمة والصراعات العرقية التي كانت قد تجمدت في ظل التقسيمات « الأيدلوجية » والتحالفات السياسية والعقائد التي سادت أثناء الحرب الباردة .

هذا ما يبشر به أستاذ أمريكي في جامعة « هارفارد » ، وهو ما يعكس الروح الصليبية والكتابات الاستشراقية الضالة وتراكمات الحقد والكراهية العمياء بغير مبرر . وهذا الاتجاه المتولد بعد انتهاء الحرب الباردة يبين لنا أن النظام الغربي في بحثه الدائم عن عدو مثله مثل النار التي تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .

وفي احتفالات عيد الثورة الفرنسية ، عام ١٩٩٣ وقعت مشاجرات ومصادمات بين العنصريين الفرنسيين والمهاجرين الأجانب ، خاصة العرب والزنوج . ويعلق أحمد عبد المعطي[١] حجازي علي ذلك قائلا : « كيف يمكن للمرء في هذا الجو الموبوء بالكراهية أن يحتفل بانتصار الحرية ، وكيف يتمثل روح الإخاء والمساواة . هذا الشر الذي يعصف بالعالم كله . وقد تتغير سحنته وتتعدد ألوانه وشعاراته ، لكنه هو الكراهية .. كراهية الآخر لأنه يحمل لونا آخر ، أو لسانا آخر ، أو دينا آخر ، أو فكرا آخر .. كراهية الآخر هي كراهية كل ما صنعه الإنسان طوال تاريخه ليخرج من التوحش إلي التحضر ، ومن الكهف إلي المدينة . فليست الحضارة إلا أن نعيش مع الآخرين . والكلاب وحدها هي التي تنبح الغرباء .. »

كذلك من معوقات الاتصال الثقافي سطحية فهم الغرب . واستخفافه بالشرق بصفة عامة فكثيرا ما يُرْسَل المحرر الصحفي إلي بلد غريب دون أي إعداد أو خبرة تؤهله لذلك ، بل يكمن المؤهل الوحيد في براعته في التقاط الأشياء بسرعة ، أو لمجرد وجوده في مكان ملائم قريب من المكان الذي تجري فيه الأحداث التي تحتل الصدارة في الأخبار . وهكذا نجد هذا المحرر بدل أن يحاول أن يعرف المزيد عن ذلك البلد ، يلتقط أقرب الأمور منالا ، وهي في العادة جمل «كليشيهية» معينة . أو حكمة صحفية لا يحتمل أن يتحداها القراء في وطن الصحفي . ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه ، مع وجود ما يقرب من ثلاثمائة مراسل صحفي في طهران خلال الأيام الأولي لأزمة الرهائن (عام ١٩٧٩ م) دون أن يكون بين هؤلاء من يتكلم الفارسية.!! »[٢]

وهكذا يمكننا أن نتبين معوقات الاتصال الثقافي علي الساحتين المحلية والعالمية ، ومنها علي سبيل المثال ما يلي :

* من معوقات الاتصال الحضاري غيبة الديمقراطية في الحياة الوطنية لجماعة من الجماعات. إذا كان الفرد في بيته لم يتعود الحوار ، وفي مجتمعه لم يشارك في الاختيار الوطني، فكيف

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي – الكتابة نزال دائم – جريدة الأهرام بتاريخ ٢٨ – ٧ – ١٩٩٣ .

(٢) د. إدوارد سعيد – تغطية الإسلام ، كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم. (ترجمة : سميرة نعيم خوري) الطبعة الأولي – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ١٩٨٣.صـ١١.

نتصور أن عقله يتسع لحوار الحضارات وللاتصال الثقافي العالمي ؟! وتمثل المجتمعات العشائرية وبعض بلدان العالم الثالث نموذجا لذلك .

* من استمع إلي خطاب رئيس وزراء إسرائيل في أول نوفمبر ١٩٩١ في مؤتمر السلام في مدريد يستطع أن يتصور أن الأيدلوجية المغلقة تمثل سداً أمام الاتصال الحضاري .

* من أسباب فشل الاتصال الحضاري غيبة الندية فإذا كان الطرف الغني اقتصاديا يتحاور من موقف الاستعلاء ، والطرف الفقير يتحاور من موقف الاستجداء والاستخذاء ، فشل الحوار ثقافيا وإعلاميا .

ولعل فشل الحوار بين الشمال الجنوب وفشل النظام الإعلامي العالمي الجديد في الربع الأخير من القرن العشرين نموذج علي ذلك .

* تراكم التشويه يمثل حاجزا ، ولنضرب مثلا بصورة العربي في الإنتاج الثقافي والإعلامي الغربي خلال القرن العشرين ، إنها صورة تهدم كافة محاولات الحوار والتفاعل الثقافي.

* إن نجاح القيم الثقافية في اختراق ثقافة أخري ليس بالضرورة دليلا علي صحتها ، وقد أصبح من المسلم به في علم التنمية أن انتقال القيم يجلب معه أنماط استهلاك لا تعبر بالضرورة عن التقدم الإنساني أو الحضاري بقدر ما تعكس عادات الدولة الأعظم . وربما مثل ذلك العقبة الأساسية أمام صوغ استراتيجية تنمية ناجحة كما يقول « فورتادو » ، وكان ابن خلدون قد عبر عن هذه الفكرة أحسن تعبير عندما ذكر أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب اعتقادا منه أنه لولا صحة العوائد والقيم التي يملكها لما غلب وسيطر . بينما الصحيح أن أسباب القوة والغلبة ليست موجودة كلها في الثقافة أو مستمدة منها . « والواقع أن الفرق بين التبعية الثقافية والتبادل الثقافي ناجم هو نفسه من طبيعة العلاقة القائمة بين الثقافات . فالتبادل يقتضي الحد الأدني من التكافؤ بين الثقافتين المتبادلتين ، سواء أكان ذلك علي مستوي الامكانيات أو علي مستوي التمكن الحضاري . أما الغزو أو الامبريالية الثقافية فهي الناتج الطبيعي لكل تبادل بين ثقافات غير متكافئة . وإذا كان من الصحيح أن إعاقة التبادل الحر للأفكار من الأمور المفقرة للثقافة والتي لا يمكن أن تقود علي المدي الطويل إلا إلي التخلف الثقافي ، ومن ثم التخلي المتزايد عن الهوية ، فإن من الصحيح أيضا أن هذا التبادل ليس متساويا ولا متكافئا ، ولا يمكن أن يكون في أي حال بين ثقافات ليست علي درجة واحدة من النضج الحضاري ولا تتمتع بالوسائل والإمكانات والقدرات التقنية والمادية والسياسية نفسها . والمشكلة التي تواجهها الثقافات النامية هي إذن مشكلة حقيقية ، فالانفتاح يهدد بالاستيلاب والانغلاق علي الذات يهدد بالافقار والانحطاط والتقهقر الحضاري ، وأمام هذه المشكلة المعقدة لا يمكن للمسؤولين السياسيين استسهال الحلول بفرض الرقابة الثقافية أو بالعكس ، وفي اعتقادنا أنه إذا كان من الضروري التأكيد علي عدم جدوي الانغلاق ومخاطره فإن تبني نظام التبادل الفكري والثقافي الحر لا يمكن أن يعطي نتائجه الإيجابية في العالم النامي إذا أصر علي عدم إدراك مخاطر الانفتاح وسلبياته .

ومن هنا فإن الصراع بين أنصار مفهوم التبعية الثقافية. وأنصار مفهوم الحرية الثقافية لا يمكن أن يجد علاجه إلا في تطوير مفهوم جديد هو السياسة الثقافية . وتعني السياسة الثقافية مجمل الاستراتيجيات التي تصوغها جماعة ما من أجل تنظيم علاقاتها الثقافية مع الثقافات الأخري بحيث تستطيع أن تنمي التبادل الثقافي بقدر ما تستطيع ، مع العناية في الوقت نفسه بتطوير كل الوسائل الممكنة لمقاومة الآثار السلبية التي يبعثها عدم التكافؤ الحضاري بين الثقافات بحيث تكون الثقافة الوطنية هي المستفيدة الرئيسية من التبادل وليس العكس . فلابد إذن من مرافقة الانفتاح بسياسات إضافية يكون في مقدمتها دعم الإبداع الثقافي الوطني وتوسيع دائرة الإنتاج المحلي بالتعاون مع الثقافات القريبة في الوطن العربي ، من خلال صوغ استراتيجية تنشيط وتنمية ثقافية شاملة ومشتركة . فليس الحل إذن في غلق الباب أمام الأفكار ولكنه لا يكمن أيضا في تجاهل علاقات السيطرة التي تميز التبادل الثقافي ، ومن ثم الاستسلام إلي فكرة العالمية الثقافية التي كثيرا ما تخفي تخلي الدولة عن مسؤولياتها الأساسية في حماية الثقافة القومية ودعم الإنتاج المحلي .

وهذا يعني أن التبادل هو شرط البقاء الأول لكل الثقافات الإنسانية التي لا تريد أن تسقط في القدم والجمود والتحجر . ولكن مقاومة روح الاستسلام والتسليم التي تقود إلي قتل ملكة الإبداع والانجاز لدي الثقافات الأضعف . هي شرط تحقيق هذا التبادل المثمر ومكافحة نزعة الانمحاء الثقافي والاغتراب ونزع الشخصية وهذا لا يعني تحديد حرية الثقافة بقدر ما يعني خلق الحوافز ووضع الإمكانيات التي تنظم هذا التبادل وتسمح له أن يتحقق فعلا بما هو أخذ وعطاء وليس استسلاما واستهلاك . ويتعلق الأمر هنا إذن بصوغ خطط التنمية الثقافية عامة وتشجيع الإبداع المحلي وتحرير المجال الثقافي الداخلي وتوسيع التبادل بين الأقطار النامية نفسها .[١] »

كان الأمل معقودا بالتقدم التكنولوجي لزيادة الاتصال الثقافي . ولكن هذا التقدم أصبح موضعا للتشاؤم في ذلك الشأن . والكاتب المصري محمد سيد أحمد [٢] يري أن التقدم التكنولوجي له نتائج سلبية علي الديمقراطية ويقول :

« في الندوة التي عقدها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام حول « انهيار الاتحاد السوفييتي وتأثيراته علي الوطن العربي » ، جادلني الدكتور سعد الدين ابراهيم حول صحة إدعائي بأن التكنولوجيا المعاصرة تتعارض مع الديمقراطية .. وهذه إشكالية اعتقد أنها جديرة بأن نمعن النظر فيها ..فقد يقال - وهذا ما قاله الدكتور سعد الدين ابراهيم بالفعل - إن أحد أهم منجزات الثورة التكنولوجية العصرية هو ما يسمي بثورة المعلومات والاتصالات .. أي ثورة انتشار المعلومات علي نحو غير مسبوق .. بفضل الكمبيوتر ، والإذاعة ، والتليفزيون ،

---

(١) د. برهان غليون - الثقافة العربية بين التبعية والتبادل - جريدة الخليج - بتاريخ ٢٠ - ١٢ - ١٩٨٩ .

(٢) محمد سيد أحمد - هل تكنولوجيا العصر ضد الديمقراطية - جريدة الأهرام بتاريخ ٥ - ٣ - ١٩٩٢ .

وغير ذلك من تكنولوجيات الاتصال الفوري بالطرق المرئية السماعية .. ومعني ذلك هو تنمية وعي الجماهير علي نحو غير مسبوق هو الآخر .. وأن انتشار الوعي هو أحد أهم مقومات الديمقراطية ..

غير أن الإشكالية التي أطرحها هي أن التكنولوجيا العصرية تحمل في طياتها تعميق أوجه عدم التكافؤ في نمو المجتمعات ، وقابلية المجتمعات المتفوقة تكنولوجيا علي تعظيم شأن تفوقها باستمرار ، وزيادة البون اتساعا علي الدوام بينها وبين المجتمعات الأقل تقدما ، مما يعني خلق مجتمع دولي « هرمي » تتعزز فيه التباينات لا المساواة بين أطرافه .. وفي ذلك إهدار للديمقراطية لا ترسيخ لمقوماتها ، ووقوف التكنولوجيا عقبة في وجه « دمقرطة » Demo-Cratization الحياة الدولية .. ولذلك أسأل : لأي من وجهي التكنولوجيا العصرية الأسبقية ، وجهها « الديمقراطي » الناجم عن خاصية أنها قد ابتدعت فرصا عظيمة « لنشر الوعي » ، أم وجهها « المناهض للديمقراطية » الناجم عن أن فرص المتفوق تكنولوجيا لتعظيم شأن تفوقه أمر لا يقاوم .. ومن هنا كان اللحاق به متعذر المنال ؟ وأزعم أن وجه التكنولوجيا المناهض للديمقراطية هو الأكثر بروزا .. وأسوق في ذلك ثلاث حجج أعتقد أنها لا تحتمل الإغفال :

* حجتي الأولي هي أن انتشار الوعي بفضل ثورة الإعلام والمواصلات العصرية ينطوي علي خطر نشر « وعي مزيف » مهدر لاستقلالية الرأي وبالتالي للديمقراطية ، لا العكس ، ذلك أن ما تذيعه أدوات الإعلام المرئية السماعية هي معلومات يجري انتقاؤها ، وتصنيفها ، وتفسيرها ، وفق رؤية - وبالتالي مصالح - المجتمعات المتقدمة المتفوقة تكنولوجيا .. وليس هناك انتقاء للمعلومات ، ولا تصنيف وتفسير لها ، منزه عن كل غرض.. ويحمل ذلك خطر إضفاء صفة « العمومية » ، و « الموضوعية » ، و «الإطلاق» علي رؤي هي في حقيقتها «خاصة» و « ذاتية » و « نسبية » ، ومعبرة في النهاية عن المجتمعات صاحبة القدرة علي بث هذه المعلومات .. وهنا مصدر « تزييف الوعي»..

* حجتي الثانية هي أن التكنولوجيا المتقدمة قد أصبحت تخوض مجالات تحمل بحكم طبيعتها إمكانية « تحريف » الوعي وتوجيهه وفق مشيئة رواد استكشاف هذه المجالات .. فإن هناك إنجازات خطيرة تجري الآن فيما يعرف بمجال « الذكاء الاصطناعي » ، ثم في مجال «الهندسة الوراثية » ، وهذه بعض علوم العصر التي تنطوي علي فرص خارقة للتلاعب بمقدرات المخلوقات، علي نحو لا سابقة له عبر التاريخ كله .. فعندما تصطدم المصالح بين دول متفاوتة القدرة التكنولوجية، ألا تتيح هذه العلوم الجديدة للدول مالكة هذه التكنولوجيات فرصة «التدخل» في شئون المجتمعات المتخلفة، ولو بطرق «التحكم عن بعد » Remote Control؟.. وأين ذلك من «دمقرطة » الحياة الدولية ؟ .

* وحجتي الثالثة هي أن إحساس المجتمعات المتخلفة بأنها عرضة لأن يتلاعب الغير بمقدراتها إنما يعزز لديها ردود أفعال تزيدها عجزا - لا العكس - عن مجاراة المجتمعات المتفوقة

تكنولوجيا ، ناهيك عن اللحاق بها .. فإن الإحباط يفرز الإحساس بالغربة نحو الغير ، وبالهوية الجريحة ، والانكفاء علي الذات والهروب من المستقبل المجهول إلي ماض معروف أو مفترض إنه معروف ، وبالتالي تعاظم شأن « السلفية » .. وتنطوي السلفية - بشكل أو آخر - علي حرمات لا تمس ، ومحاذير يتوجب عدم التصدي لها ، وهذه آلية من شأنها الحد من فرصها في ملاحقة المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا وخوض حلبة منافستها ومزاحمتها .. ذلك أن هناك تخليا - ابتداء - من مجالات عديدة أصبحت تخوضها هذه المجتمعات المتقدمة دون شعور بالحرج ، وفي أحوال كثيرة بعمل إبداعي خارق ، ونتائج باهرة ..

هل من سبيل لجعل تكنولوجيا العصر تخدم ولا تهدر الديقراطية ؟ هل من سبل لاكتشاف قاسم مشترك بين « التكنولوجيا » و « الديمقراطية » يحقق تكاملهما لا تعارضهما ؟

هناك بالطبع العامل « البشري » .. « الإنسان » .. « أثمن رأسمال » ! .. فإن التكنولوجيا ، مهما تقدمت فإنها لم تنجح - علي الأقل حتي الآن - في اختراع « إنسان آلي » Robot يملك مواهب وخواص تتخطي قدرات عقل الإنسان .. وما زالت الأسبقية « للبشر » لا « للآلة » ..

كذلك فإن الديمقراطية لا تقوم أصلا بدون مشاركة « بشرية » فعالة .. ومن هنا كانت «التنمية البشرية » عنصرا جوهريا في كل جهد « تنموي » عصري .. إن تنمية ملكات الإنسان وقدراته هي العنصر التنموي الوحيد الذي لا يتوقف علي الموارد الطبيعية وتباينها مع اختلاف الموقع الجغرافي ، ولا علي مدي التقدم الاجتماعي وتباينه من جراء نمو المجتمعات نموا غير متكافئ ، بالذات في عصر التكنولوجيات المتقدمة ..

غير أن عملية « التنمية البشرية » تطرح بدورها معضلات عويصة ، منها إرساء أسس ونهج « التعليم العصري » القائم علي الإبداع لا التلقين ، في مجتمعات ما زالت أسيرة التخلف ويستبد بالكثير منها إحساس عارم بالإحباط وانعدام الثقة في النفس .. إن التكنولوجيا ، كي يصبح التحكم فيها ممكنا ، لا يكفي اقتناؤها بل لا مناص من الإسهام في صنعها ، ويقتضي ذلك بدوره توفير الفكر العلمي العصري المستنير ، حتي يصبح هذا الإسهام وارداً أصلا .. فهل هذا متاح ؟ »

هذه الحيثيات للآثار السلبية للتقدم التكنولوجي يزيدها سيطرة الاحتكارات علي سوق الإعلام سيطرة تتضاءل أمامها الاحتكارات الإعلامية في منتصف القرن العشرين . فهذه صحيفة الجارديان تحدثنا عن امبراطورية ميردوخ الإعلامية (١٩٩٣) بما يجعل احتكارات منتصف القرن العشرين الإعلامية أقزاما أمام العملاق الجديد بفضل التقدم التكنولوجي . تقول الجارديان :

« روبرت ميردوخ ظهر في الأفق من جديد ليحتل اسمه المانشيتات الرئيسية للصحف بعد أن وقع اتفاقا تاريخيا مع شركة الأقمار الصناعية للأخبار والدعاية الآسيوية يحصل بمقتضاه علي حق امتياز البث الفضائي المباشر إلي دول آسيا والشرق الأوسط وهو ما يحوله إلي صاحب أضخم

وأخطر امبراطورية إعلامية في العالم .

فقد أصبح صاحب سيطرة ونفوذ علي آسيا أو بالأحري العالم الصناعي الآسيوي المذهل الذي حقق ويحقق انجازات وطفرات تكنولوجية ضخمة بسببها أطلق علي القرن القادم قرن آسيا العملاقة . وبهذا الاتفاق تنضم آسيا إلي المستقبلين لبث امبراطورية ميردوخ الإعلامية التي تغطي بالفعل الولايات المتحدة وأوروبا واستراليا ، ليصبح عدد المستقبلين لإعلام هذه الامبراطورية أكثر من ثلثي سكان العالم .

بوصول ميردوخ إلي آسيا بالبث المباشر يحقق معادلة التخاطب والاتصال بعقول الآسيويين الجبارة في محاولة وصفت بأنها تهدف إلي التأثير المباشر عليهم وعلي أنماط حياتهم ومفاهيمهم حول العالم ، وذلك في وقت فشلت فيه السياسات في الحد من الانطلاق الآسيوي الضخم ، فلم تنجح الإجراءات الحمائية والعراقيل والاتفاقات التي سرعان ما تنهار ولا تؤتي ثمارها في وقف هذا الزحف الآسيوي والطوفان الهائل المذهل لتقدم هذا العملاق الأصفر ، وعلي ما يبدو أن استقبال ثلاثة مليارات للبث المباشر المكثف والملح أصبح بديلا مطروحا وقابلا لتحقيق ما عجزت عنه السياسات والإجراءات الاقتصادية .

إن التغطية الفضائية قد أصبحت سوقا رائجة للتدخل وإحداث تغييرات أكبر وأخطر من التدخلات العسكرية والحصارات الاقتصادية أو سياسات المنح والمنع .. فعن طريق الضغط علي مجموعة مفاتيح ينتقل العالم إلي شاشات التليفزيونات ، لتستمع الأرض إلي محطات الفضاء التي سوف تستقي وتتلاعب بكل فنون التكنولوجيا الحديثة في تقديم الأخبار والأحداث والوقائع والأفلام ، شبكة ضخمة من المعلومات هدفها العقول والاختراق . وفي رأي أرثر سيسكيند نائب رئيس الشركة الجديدة . إن العالم لن يحارب بالرصاص والذخيرة الحية ، وإنما الحرب ستكون بالإعلام والدعاية ، فالعالم أصبح في متناول اليد بفضل هذا البث المباشر والقوي ذي التأثير المذهل .

لقد تخصصت معاهد ودراسات في دراسة التأثير علي البشر وأنماطهم وبناء علي هذه الدراسات توجه البرامج والأفلام والأخبار لتحدث التأثير المطلوب والاستجابة المرجوة .

إن الإنسان - وفقا لتصور مثل هذه الشركات العملاقة - سوف يعاد برمجته ، وبالرغم من الإطار العريض لما يسمي بحرية تواصل المعلومات والأفكار والخبرات ، فإن الحرية بمفهومها الكلاسيكي ستكون موضع شك !! تظهر الصورة واضحة في كل من الصين والهند والهند الصينية التي ظلت لفترات طويلة تحت سيطرة الدولة علي مستوي الإذاعة والتليفزيون والصحف، بمعني آخر احتكار الدولة لمصادر الأخبار والمعلومات .. إن هذه المناطق حديثة العهد بالانفتاح الإعلامي ، ستكون متشوقة وغير قادرة علي التمييز بين التحيز أو الميل ، والموضوعية .. وبالتالي تتحول إلي ثلاث أسواق يمكن إثبات قدرة البث الفضائي المباشر علي التأثير فيها ووقوعها في متناول يد الزحف الإعلامي الخارجي الذي سوف يتجاوز مجرد نقل المعلومات أو الأفكار إلي إلحاح مكثف

مدروس من أجل إحداث انقلابات عقائدية وفكرية ويكون لها ما يسمي « بالفيدباك » أو مردود الرسالة الاتصالية .. إن لغة الاتصال وما صاحبها من تقدم تكنولوجي مذهل من فنون التصوير والتورية والمونتاج والتقديم والتأخير ، أصبحت لغة لا تقاوم خاصة مع وضع الشعوب التي كانت تحت سيطرة الدولة فترة طويلة لم يكن فيها التخاطب إلا من مستوي فوقي إلي مستوي تحتي .

ولذلك فإن نجاح هذه الشركات اقتصادياً ومالياً ، يصبح عاملا من ضمن عوامل النجاح الحقيقي ، فإن هذه الشركات تصبح شركات نفوذ وسيطرة وتحكم تتحول إلي مؤسسات للهيمنة السياسية والاقتصادية علي مستوي عال . مما يجعلها تتحرك وسط أهداف مدروسة وموجهة .

ميرودوخ عاد من جديد ليصبح المسيطر علي أكبر امبراطورية إعلامية توجه أفكار العالم.. » [1] .

أمام هذه السدود من معوقات الاتصال الثقافي هل نقف عربا ومسلمين مكتوفي الأيدي ؟ الجواب : ينبغي أن نحاول . وإذا كنا نتحدث عن ترشيد الفكر الإسلامي فإن الترويج له لا يقل أهمية عن ترشيده « برغم أنه من غير المشكوك فيه أن السيطرة علي « الأخبار » و«الصور» في الغرب ليست في أيدي المسلمين ، إلا أنه من غير المشكوك فيه أيضا أن ما يحول دون قيامهم بأي عمل في هذا الخصوص لا يعدو أن يكون التأخر الإجمالي للمسلمين في فهم أسباب اعتمادهم واتكالهم . فلا تستطيع الدول الغنية بالنفط ، مثلا ، أن تشكو من نقص الموارد. إن ما ينقصهم هو قرار سياسي منسّق لاقتحام العالم جديا ، وهو نقص يثبت أن الدول المسلمة ليست معبأة أو متماسكة سياسيا بعد ، ناهيك عن أن تكون قوة موحدة ، فهناك الكثير عن المواهب التي يجب تشجيعها أولا ، وليس أقلها شأنا القدرة علي إنتاج صورة ذاتية واعية قوية وصياغتها ، ثم تقويم جدي للقيم الإيجابية التي يدافع عنها المسلمون بطرق مختلفة . ثم إيصال ذلك إلي بقية العالم .

ولا عذر لمن يندبون عداء « الغرب » تجاه العرب والإسلام ، ثم يتقاعسون في تقوي غاضبة. حين يتم التحليل الجرئ لأسباب هذا العداء ولتلك المظاهر في الغرب التي تثيره ، فإن خطوات واسعة في سبيل تغييره قد اتخذت » [2] .

ب- وسائل الاتصال الثقافي :

أكثر ما يكون الخلط عند الحديث عن الاتصال الثقافي أو الاتصال الحضاري في الوسائل. فكثير من الباحثين يخلط وسائل الإعلام بوسائل الاتصال الثقافي . وإذا كان من الطبيعي أن تشترك بعض الوسائل في الحقلين إلا أن للاتصال الثقافي وسائل يختص بها ولوسائله ملامحها

---

(١) العالم في قبضة ميردوخ - ترجمة عن صحيفة الجارديان الانجليزية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٤ - ٨ - ١٩٩٣ .

(٢) د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام - مرجع سابق - صـ٨٩ .

الخاصة وسماتها المحددة . ويمكن حصر أهم وسائل الاتصال الثقافي والحضاري فيما يلي :

١- السياحة :

مع تقدم وسائل النقل برا وبحرا وجوا . ومع ازدياد الرغبة الإنسانية في المعرفة والمشاهدة. ومع توفر الوقت لدي الناس بسبب الاعتماد الجزئي علي الآلات في الإنتاج والخدمات . مع كل ذلك أصبحت السياحة في عالمنا المعاصر وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري . ولقد بينت الاحصائيات أن حركة السياحة العالمية في ازدياد مستمر . وأن توقعات الخبراء تؤكد الزيادة الكبيرة في المستقبل . وبرغم ما تبرزه الإحصائيات الدولية من أن حركة السياحة عالميا تتجه إلي أماكن الاستجمام والراحة والتسلية ، بعد أن كانت من قبل تتجه إلي الآثار .. برغم ذلك فإن الاتصال الثقافي والحضاري يجد طريقه في أوجه النشاط الإنساني المختلفة بين السائحين والبلدان التي يزورونها . ومن الجدير بالملاحظة أن الدول المتقدمة تحظي بنصيب الآسد من حركة السياحة العالمية.

٢- الحج :

في كثير من الديانات يُعَد الحج منسكا من مناسكها . وفي واقعنا الإسلامي يعد الحج ركنا من أركان الإسلام . والحج في الإسلام حجان . بضعة أيام في الشهر الأخير من العام القمري، ويسمي الحج الأكبر ، وله مناسك محددة في أماكن معينة داخل مكة وعلي أطرافها. ثم حج طوال الأيام الأخري من العام وعلي مدار الليل والنهار ويسمي العمرة أو الحج الأصغر . هذان الحجان في الإسلام يمثلان مؤتمرا سنويا عالميا في الحج الأكبر ولقاءً مفتوحا مستمرا طوال العام في العمرة . وفي صور الحج المختلفة نجد وسيلة اتصال ثقافي متميزة ، لأن جموع الحجاج تكون عادة في حالة من الشعور بالانتماء لعقيدة واحدة مما ييسر التقارب ، ويزيد من فاعلية الاتصال إن وجد.

٣- الحروب :

ليست كل الحروب بطبيعة الحال وسائل اتصال ثقافي وحضاري . فحروب القبائل العربية في الجاهلية مثل حرب « داحس والغبراء » ليست وسيلة اتصال ثقافي . ولكن الفتوح الإسلامية؛ والحروب الصليبية برغم ما بين كل منهما من اختلاف شديد في الأهداف إلا أنهما كانتا من الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي . والحملة الفرنسية علي مصر التي استمرت نحو ثلاث سنوات تعد أيضا من وسائل الاتصال الثقافي . في حين أن الاستعمار الفرنسي للشمال الافريقي لم يكن كذلك . وإنما كان غزوا فكريا أو بمعني أدق نموذجا للغزو الفكري في القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين . والفرق بين الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي والحروب التي لا تعد من وسائل الاتصال الثقافي لا يَكْمُن في أهدافها ، وإنما يَكْمُن في الظروف الموضوعية وفي الفترة التاريخية وفي نمو حضارة أو اضمحلالها . تلك الأحوال مجتمعة هي التي تجعل من حروب وسيلة اتصال ثقافي ومن حروب أخري ليست وسيلة اتصال ثقافي .

فإذا نظرنا إلي الفتوح الإسلامية نجد أن الجزيرة العربية أصبحت في أواخر عهد الرسول ﷺ تدين بالإسلام . وجاء بعده الصديق ينفذ ما كان قد اعتزمه النبي في تسيير الجيش الإسلامي إلي الشام بقيادة أسامة بن زيد ، ليرفع عن أهلها طاغوت حكم الروم . وجاء عمر بن الخطاب ليكمل مسيرة الفتوح التي تتابعت كماء السيل . ففي سنة ١٧هـ أصبحت فلسطين والأردن وسورية ولبنان والعراق تحت اللواء الإسلامي . وفي سنة ٢٠هـ أصبحت مصر في حوزة الإسلام . وفي سنة ٢١ هـ دخلت فارس تحت مظلة الفتح الإسلامي وفي سنة ٣٥ هـ بلغت الفتوح الإسلامية الشمال الإفريقي . وفي سنة ٥٦هـ أصبحت سمرقند تحت اللواء الإسلامي . وفي سنة ٩٦هـ وصل اللواء الإسلامي الأندلس حتي جبال البرانس ، ووصل اللواء حتي حدود الصين . وكان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله وكانوا كلما دخلوا بلدا أقاموا مسجدا ، ومكث بعض الصحابة والتابعين ينشرون الإسلام . وكان الخلفاء يمدون البلدان المفتوحة بالعلماء ، وبسرعة أصبحت في تلك الأقاليم مراكز علمية ، مزدهرة . ففي الكوفة مثلا هبط ثلاثمائة ممن كانوا مع النبي في الحديبية ، وسبعون من أهل بدر . وفي البصرة كان الصحابي أنس بن مالك والصحابي عبد الله بن عباس وغيرهم كثير .

ويروي الحسن البصري أنه أدرك ٥٠٠ من الصحابة في الشام وقد كتب « يزيد بن أبي سفيان» الوالي إلي عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء ليفقهوا أهل الشام ، فأرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء ، فأقام عبادة في حمص ، وأبو الدرداء في دمشق ، ومعاذ في فلسطين . وإلي جانب هؤلاء أعلام من الصحابة مثل بلال بن رباح وخالد بن الوليد والفضل ابن العباس بن عبد المطلب المدفون بالأردن . وفي مصر كان الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن أبي السرح . وهكذا كان الشأن في شمال أفريقيا ، والأندلس ، واليمن ، وخراسان ، وسمرقند .

وفي حديثنا عن الحروب باعتبارها وسيلة اتصال ثقافي وحضاري لاندرس المنتصر أو المهزوم ، وإنما ندرس الاتصال الثقافي من بيئة متحضرة إلي أخري في مرحلة التقبل الحضاري أو الاستعداد الحضاري أو التهيؤ الحضاري ، ويحدثنا التاريخ عن سريان الاتصال الثقافي والحضاري من المهزوم إلي المنتصر في بعض الظروف ، لقد استولي المغول علي بغداد سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨ م) وضربوها تماما ، وخنقوا آخر العباسيين المعتصم بالله بأمر رئيس الغالبين (هولاكو) . ونهبوا ما في بغداد من أموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم ، وألقوها في نهر دجلة ، فتألف منها جسر كان يمكن للناس أن يمروا عليه رجالا وركبانا . وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها ، كما روي قطب الدين الحنفي ، ولكن أولئك (الوحوش الضارية) الذين أضرموا النار في المباني ودمروا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم، خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم ، حتي أن هولاكو الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث أن صار من حماتها . وفي المدرسة العربية تمدن المغول ، واعتنقوا دين العرب وحضارتهم . وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم . وأقاموا

في بلاد الهند دولة قوية عربية وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة [1] .

وإذا كان سريان الاتصال الثقافي والحضاري في الحروب يتم أحيانا من المنتصر وأحيانا من المهزوم كذلك فإن حروبا تمتد إلي أكثر من قرنين وأخري لا تتجاوز أعواما ثلاثة يحقق كل منهما الاتصال الثقافي والحضاري . ومثال الأولي الحروب الصليبية ومثال الثانية الحملة الفرنسية علي مصر .

ولطالما ذكرت الحروب الصليبية كلما ذكر تاريخ الحضارات . ولطالما اختلف الباحثون حول دورها في نقل الحضارة العربية إلي أوربا . وقد رأي البعض أن للحروب الصليبية الفضل الأول في نقل الحضارة العَرَبية إلي أوربا ولكن مؤرخا مشهورا مثل « جوستاف لوبون » لم ير للحروب الصليبية كبير فضل في تمدين أوربا . وهو يذهب إلي القول بأن ما اقتبسه الأوربيون أثناء الحروب الصليبية هو وسائل ترف الشرقيين . وطراز العمارة والصناعة ، وهو يخالف كثيرا من المؤخين في استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة ، ويقول إنها كانت قليلة جدا بسبب عدم إدراك الجيوش الصليبية للمعارف وأصولها . وقد يكون هذا الرأي مناسبا لأول العهد في الحروب الصليبية ولكنه لا يناسب الحال بعد مرور قرنين علي دخول الصليبيين بيت المقدس في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ م . غير أن « لوبون » يعترف بأن تضعضع النظام الاقطاعي في فرنسا وإيطاليا كان نتيجة للحروب الصليبية . ويؤكد علي تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون « فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار « السنيورات » الصليبيين مع جلفهم فوجدوا في التجارة وسيلة تقليدها ، فنري اقتباس نفائس الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر علي الخصوص . وكلما نمت النفائس أدت إلي تقدم الصناعة بحكم الضرورة . وتبحث الصناعة عن المنتجات التي تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال فتحفزها الضرورة إلي القيام بذلك من فورها . وإذا كانت صناعة الخشب والمعادن والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد اقتبسها الأوربيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية . وعم أمرها بذلك في أوربا فعن « صور » أخذت « البندقية » نماذج صناعة الزجاج . وعن المسلمين أخذت أوربا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة ، وعن « سورية » أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصانعو أسلحتها ومهندسيها وتجارها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية . وذلك في أثناء اقامتهم الطويلة بها ، وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيما أيضا فقد نشأ عن إيلاف الصليبيين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية إلي مصر تهذيب أذواقهم الغليظة . ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوربا تحولا تاما » .

ومثلما كثر الجدل والنقاش حول الحروب الصليبية ودورها في نقل الحضارة كذلك كثر الجدل حول دور الحملة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة . فيذهب بعض المؤرخين إلي اعتبار أن الحملة

(١) جوستاف لوبون - حضارة العرب - (ترجمة عادل زعيتر) الطبعة الرابعة - مطبعة عيسي البابي - القاهرة - ١٩٦٤ ص١٧٨ .

الفرنسية علي مصر هي التي فتحت عيون المصريين علي الحضارة الغربية المعاصرة . والبعض الآخر ينكر دورها ويذهب إلي أن فترة الحملة التي تقل عن ثلاثة أعوام لا يمكن أن يكون لها دور تاريخي في أعمار الشعوب . ولكن الدكتور حسين نصار (١) . يوائم بين فترة الحملة ودورها الحضاري بالنظر إلي حالة التهيؤ للشعب المصري في ذلك الوقت . فهو ينظر إلي الأمر من موضع آخر ، فالنهضة - من وجهة نظره - علامة علي السخط علي الموجود والسعي إلي تغييره ، وعلي ذلك فإنه يجد هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في ولاية علي بك الكبير في عام ١٧٦٠ الذي يعد عهده بداية حقبة جديدة ، والدليل علي ذلك تلك الحركة الشعبية التي جاءت مواكبة لحركته ضد الدولة العثمانية ، ومتأثرة بها ، كالتي قامت بها جماهير مصر في أثناء الحملة الفرنسية ، وبعدها ، إلي أن نصبوا محمد علي واليا عليهم .

ويؤكد الدكتور حسين نصار علي أهمية التأثير الفرنسي في إشعال النهضة ولكنه يرفض أن يكون هذا التأثير هو الباعث الأول لهذه النهضة ، ويري أن مجيء الحملة الفرنسية المبكر بعد ثورة علي بك كان له أثره في توجيه النهضة الوجهة التي أخذتها . فقد جعل ذلك مصر أول دولة عربية أغلبية شعبها مسلمة تقع تحت التأثير المباشر للتفكير الغربي ، أو تتصل به اتصالات مباشرة ومتعددة . مما أدي إلي تغير الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها تغيرا هاما . وكانت بذلك أول دولة عربية مسلمة تستجيب لهذا التغيير .

ويرد الدكتور حسين نصار علي إدعاء البعض بأن لبنان سبقت مصر في الاتصال والتأثر بالفكر الفرنسي وعمقه ، قائلا بأنه يعترف بأن ذلك حق ، ولكن في بعض المجالات ، كما أن هذا التأثير اقتصر علي لبنان في غالبه لوجود الأكثرية المسيحية وخاصة المارونية . أما التأثر المصري فكان في خصوبة أرض مصر ، فنقل ثماره إلي بقية الأقطار العربية وعرفها بها ، وأتاح لها التأثير فيها ، ويرجع ذلك إلي عدم وجود فروق أو حساسيات بين شعوب هذه الأقطار والشعب المصري . بالإضافة إلي أن مصر لم تكن تأخذ الظاهرة الأوربية علي علاتها ، بل تنتقي منها ما يلائمها ، أو تخضعها لتحوير ، يجعلها مناسبة للمجتمع المصري العربي ، في كثير من الأحيان مما يجعلها مقبولة عند الآخرين » .

والسؤال الجدير بالاهتمام هو : هل تظل بعض الحروب وسيلة اتصال حضاري ؟ إن حروب اليوم اختلفت عن حروب الأمس في عنصر الاتصال ففي أيامنا هذه تدور الحروب دون أن يري الجنود وجوه أعدائهم . ولكن الحروب ستظل . بل ربما تبقي القاعدة هي الحروب والاستثناء هو السلام . لقد أحصي « ويل ديورانت » مؤلف قصة الحضارة سنوات السلم خلال أربعين قرنا

---

(١) د. حسين نصار - دور مصر الثقافي - العصر الحديث - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ / ٥ / ١٩٨٢ .

فوجدها أقل من ثلاثة قرون . لذلك نستطيع أن نقرر بأن بعض الحروب أدت دورا في الاتصال الحضاري دون جدال وأن حروب الغد قد تقضي علي كل الحضارات دون تمييز . وذلك بسبب التقدم المذهل في أسلحة الدمار الشامل .

٤- الكتاب :

ليس كل كتاب بطبيعة الحال وسيلة اتصال ثقافي وحضاري . كذلك لا نذهب مع القائلين بأن الكتب السماوية وعلي وجه الخصوص (القرآن الكريم) وسائل اتصال حضاري أو ثقافي أو ما شابه ذلك . إن الكتب السماوية لها مواقعها الخاصة في هداية البشر ، وتنظيم حياتهم لكسب الدنيا والآخرة . وما نقصده بالكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري وثقافي - الكتاب البشري الذي يؤلفه فرد أو جماعة سواء كان المؤلف معلوما أو مجهولا . الكتاب الذي ينتقل من حضارة إلي أخري ، ومن بيئة إلي أخري مؤثرا وحيا . ومثال ذلك كتاب (أقوال الآباء) الفرعوني الأصل والمجهول المؤلف والذي فقد أصله الهيروغليفي ، وترجم من اللغة اليونانية إلي اللاتينية في القرن الخامس الميلادي ، ثم إلي عدد من اللغات القديمة في ظل الكنيسة. وكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وكتاب الأمير لمكيافلي، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الالياذة ، وكتاب رأس المال لكارل ماركس ، وكتاب كليلة ودمنة.

والكتاب بصفة عامة لابد وأن يعكس الثقافة التي ينتمي إليها ، إن الإطلاع علي كتاب مدرسي في قواعد اللغة العربية والتعبير في الأزهر المعاصر . أو في مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافيا عن كتاب مدرسي في قواعد اللغة الفرنسية والتعبير في مدرسة فرنسية ، أو في مركز ثقافي فرنسي في قارات العالم .

وتمثل الترجمة - كما سبق القول - الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري .

كذلك من الكتب التي تذكر في وسائل الاتصال الحضاري إنتاج المستشرقين والمعاجم المزدوجة اللغة .

٥- الفيلم السينمائى :

إذا كان من واجب الإعلام في أي مجتمع أن يقدم للمجتمع الدولي الشخصية الوطنية فإن (الفيلم) يقوم بهذا كله . وبصورة أكثر شمولا وأوقع أثرا ، لأنه يستخدم عناصر الدراما ولا يقتصر علي عناصر الخبر . إن كل شعب من خلال أفلامه يريد أن يكون له صوت في الساحة العالمية سواء بقصد أو بغير قصد . وعندما اجتمعت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام النابعة من منظمة اليونسكو عام ١٩٧٩ في باريس جاء في تقريرها عن مشكلات الإعلام في المجتمع الحديث ما يتعلق بالسينما علي وجه الخصوص في أربع نقاط رئيسية :

النقطة الأولي : يختلف التنظيم العالمي لصناعة الأفلام اختلافا كليا عن تنظيم وسائل

الإعلام الأخري . وتأتي القارة الآسيوية في مقدمة البلاد المنتجة للأفلام ففي عام ١٩٧٥ أنتجت هذه القارة (١٩٦٠) فيلما طويلا من مجموع (٣٨٠٠) فيلم في العالم أجمع . وتعتبر الهند علي رأس المنتجين في العالم (٥١٠) تليها اليابان (٣٣٠) وتأتي أوربا في المرتبة الثانية من ناحية الإنتاج (١١٢٠) حيث تتبوأ إيطاليا المرتبة الأولي (٢٣٠) تليها فرنسا (٢٢٠) أما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فقد أنتج كل منهما في عام ١٩٧٥ مائة وثمانين فيلما . ويتضح من ذلك أن أمريكا الشمالية وأوربا لا تسيطران علي سوق الإنتاج كما هو الحال بالنسبة لبقية وسائل الإعلام .

النقطة الثانية : تتلخص في أن كمية الأفلام المنتجة في كل بلد لا تشكل العامل الأساسي لتداولها أو للتأثير الذي تتركه علي الأنماط الثقافية علي الصعيد الدولي . إن تداول الأفلام تسوده المصالح التجارية وأحيانا المصالح الثقافية . وتأتي الولايات المتحدة في مقدمة الدول المصدرة للأفلام تليها إيطاليا ففرنسا فالمملكة المتحدة فالهند فالاتحاد السوفييتي . ويعود الخلل هنا إلي أن البلاد الصناعية تتبوأ المرتبة الأولي في مجال التصدير بينما لا تحتل مثل هذه المكانة في مجال الإنتاج . كما أن توزيع الأفلام في العالم يخضع إلي حد كبير لعامل اللغة والثقافة . والأفلام الصينية خير مثل علي ذلك حيث توزع علي نطاق واسع في البلاد التي تضم بين سكانها عددا كبيراً من السكان الصينيين . بينما تبقي الأفلام المنتجة في لغات آسيوية أخري ضمن حدود بلادها .

النقطة الثالثة : تتولي الشركات الخاصة إنتاج الأفلام الطويلة باستثناء ما كان سائدا في الدول الاشتراكية ، وعدد صغير من الدول الأخري في مختلف أنحاء العالم . ولكن يزداد اهتمام الحكومات يوما بعد يوم بهذه الصناعة بحيث تعتبر اليوم أن المصلحة العامة تقتضي مساهمة الدولة في بعض حقول إنتاج الأفلام . وتحظي موضوعات معينة بالتشجيع علي شكل مساعدات . ولوحظ في السنين الأخيرة أن حوالي اثنتي عشرة حكومة أكثرها في أوربا الغربية قد منحت المنتجين التجاريين إعانات لأسباب ثقافية أو اقتصادية . وفي أكثر البلاد يقتصر تدخل الدولة علي تطبيق الرقابة علي الأفلام أو تقييمها حسب فئات الجمهور الذي يتاح لفئاته مشاهدتها .

النقطة الرابعة : تهتم هذه الصناعة إلي جانب إنتاج الأفلام الطويلة بإنتاج أنواع أخري من الأفلام . كالأفلام القصيرة عن أحداث الساعة ، والأفلام والصور المتحركة والأفلام الثقافية والأفلام التعليمية وما شابه ذلك . فإذا كانت الأنواع الثلاثة الأولي تصادف صعوبة للوصول إلي جمهور كبير فإن الأفلام الثقافية والتعليمية تسجل تقدما ملموسا بفضل التلفزيون والحفلات السينمائية التي تنظمها المدارس . ويقوم بإنتاج مثل هذه الأفلام إلي جانب الشركات التجارية أجهزة الدولة ومجالس السينما وشركات الإذاعة التي قد تقتصر مساهمتها علي العون المالي فقط.

٦- تبادل الوفود والبعثات :

بدءاً من السفارات إلي فرق الفنون الوطنية تعد كل أشكال تبادل الوفود والبعثات وسائل اتصال ثقافي . وهي وسيلة موغلة في القدم من وسائل الاتصال الثقافي . ولكن ظهور ما سمي بالدبلوماسية الشعبية في القرن العشرين الميلادي جعل هذه الوسيلة أكثر فاعلية مما سبق من عصور. وتتمثل الدبلوماسية الشعبية في تبادل الزيارات وعقد الندوات والمؤتمرات بين اتحادات العمال والشباب وما إلي ذلك من منظمات شعبية .

وتحظي البعثات التعليمية بأهمية خاصة في هذا المجال من مجالات الاتصال الثقافي والحضاري . إن المدرسين الذين يتوجهون إلي بلدان صديقة للتدريس في مدارسها ينقلون إلي طلابهم مع المعارف والدروس أنماطا ثقافية وحضارية . وفي بعثات طلب العلم تتحقق ميزتان رئيسيتان الأولي حالة التهيؤ النفسي للمسافرين حيث أنهم يذهبون إلي موطن العلم قاصدين التعليم والثانية أن طلاب العلم المسافرين للتعلم يمثلون نخبة من أوطانهم . وتطالعنا دائما أسماء المفكرين والأدباء المصريين الذين عادوا من البعثات في أوربا (منذ عصر محمد علي إلي ثورة ١٩٥٢) فأسهموا إسهاما كبيرا في الحياة الفكرية . وتتكرر الظاهرة نفسها في حلقات سلسلة الحضارة . يقول جوستاف لوبون « عرب الأندلس وحدهم هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتي في القسطنطينية . ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعا . وإلي بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصاري القليلون لطلب العلوم في الحقيقية . ونذكر منهم علي حسب بعض الروايات . جربرت الذي صار بابا عام ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني . والذي أراد أن ينشر في أوربا ما تعلمه . فعد الناس ما عمله من الخوارج واتهموه بأنه باع نفسه للشيطان » .

٧- الإذاعات الموجهة :

وهي وسيلة فرضتها روح العصر . وأول المشاكل التي تنحرف بها عن هويتها كوسيلة اتصال ثقافي وحضاري هي أنها لا تقدم للمستمع صورة تلقائية أو صحيحة عن مجتمعها . وإنا تتوجه للمستمع بصفة مباشرة بغية جذبة دعائيا إلي ما تريد وبرغم ذلك فإن طبيعة العصر جعلت منها وسيلة اتصال ثقافي حضاري لا يمكن إغفالها وذلك بسبب خصائص الراديو في اجتياز الحدود الجغرافية . وبسبب هذه الخصائص ذاتها نشب ما أطلق عليه حرب الأثير أو ما يطلق عليه أحيانا حرب طواحين الهواء . ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الثانية العامل الرئيسي في بروز هذه الحروب الإذاعية تم ساعدت ظروف الحروب الباردة بعد ذلك وظروف حدة الصراع العقائدي بين الشرق والغرب علي استمرار حروب الإذاعات . وأصبح في هذا المجال ما يمكن أن نسميه بالهجوم الإذاعي ثم الهجوم المضاد أو الرد ، ففي أغسطس ١٩٨٢ توترت العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة بسبب الإذاعات الموجهة أو ما يطلق عليه حرب طواحين الهواء نسبة إلي (الهوائيات) الخاصة بالإذاعة . لقد بدأت إدارة ريجان تبتكر وسائل جديدة في الكاريبي طبقتها في مناطق

أخري من العالم من قبل في حرب طواحين الهواء ، فقد بدأت تزرع بين الأشجار الاستوائية في جزيرة (كاي وست) المطلة علي شاطئ فلوريدا هوائي (ايريال) إذاعة طوله ٢٥٠ قدما ، وأطلقت عليه اسم (راديو هوزيه مارتي) وهو شاعر كوبي ثائر في القرن التاسع عشر وهذه الإذاعة تكمل الإذاعات الموجهة التي كانت تبثها أمريكا إلي الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية قبل تفكك الاتحاد السوفييتي . وإلي الشرق الأوسط (صوت أمريكا) . وعندما أحست كوبا بالخطر أعلنت أنها ستقوم وفي اللحظة التي تبدأ فيها الإذاعة الجديدة بثها بالتشويش علي مائتي محطة تجارية تبث من ٣٢ ولاية أمريكية . ورد البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) بأنه سيعتبر التشويش عملا عدوانيا .

ثم جاء التلفزيون في العقد الأخير من القرن العشرين بتكنولوجيا البث المباشر عبر الأقمار الصناعية لينقل للمجتمعات البشرية صورا حية لحياة هذه المجتمعات وثقافاتها ومعظم جوانب حياتها .

٨- التجارة :

ومن صورها المعاصرة المعارض الدولية . بل إن الحوانيت في عواصم العالم الصناعي بل عواصم العالم بصفة عامة ومدنه الرئيسية هي أظهر ما يلقاه المسافر .

وتاريخ الصحافة يحدثنا عن مدينة البندقية باعتبارها مركزا تجاريا في عصر النهضة ومركزا اخباريا بسبب قدوم التجار من الشرق فيحدثون الصحفيين بما شاهدوا وسمعوا . فيكتب الصحفيون من أفواه التجار ومن مكان تجمعهم . ولقد كانت رحلة الشتاء ورحلة الصيف قبيل ظهور الإسلام رحلتا التجارة إلي اليمن وإلي الشام من وسائل الاتصال الحضاري . ولقد دخل الإسلام بعض بقاع الهند مع التجار المسلمين الذين وجد أهل هذه البقاع فيهم قدوة إنسانية وحضارية .

وفي أيامنا هذه تحمل السلعة لمحات من الشخصية الحضارية للمنتجين . إن الدقة والنظام أو صغر الحجم مثلا يكاد يتعرف عليها المستهلك العادي في البضائع اليابانية أو الألمانية أو ما شابه ذلك دون أن يقرأ عليها اسم البلد المنتج .

ومن هذه المساحة العريضة للتجارة باعتبارها سلعة . وللتجارة باعتبارها نشاطا اقتصاديا وللتجارة باعتبارها نظاما عالميا للأسواق ولاعتبارات عديدة متشابكة أدت التجارة وما تزال تؤدي دورا في الاتصال الحضاري والثقافي .

٩- اللغة :

يري بعض الباحثين أن اللغة وسيلة إعلام . وعندي أن اللغة ليست وسيلة إعلام . وإنما هي وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد وتسجيلها . وهي ليست وسيلة تخاطب وحسب وإنما هي تحمل ملامح وسمات من يتكلمون بها .. تحمل صورتهم الثقافية . وهذا ما يجعلها وسيلة اتصال

حضاري وثقافي . وعلي ضوء هذا المفهوم نفسر جانبا من قول الرسول ﷺ (من عرف لغة قوم أمن مكرهم) بأن تعلم الإنسان للغة قوم يمكنه من معرفة طريقة تفكيرهم .

وليست كل لغة بطبيعة الحال . تعد وسيلة اتصال حضاري وثقافي . فالشروط الضرورية لكي تصبح لغة ما وسيلة اتصال حضاري هي بصورة أو بأخري الشروط الضرورية للنمو الحضاري أو الازدهار الثقافي . وجملة القول إن العلاقة بين اللغة وبين الحضارة هي علاقة اطراد ، وبعض الباحثين يري [1] أن اللغة هي العامل الرئيسي في العلاقات الحضارية . فالتوسع الثقافي - في نظرهم - هو توسع لغوي قبل كل شيء ، وأن معرفة لغة تسمح لمن يعرفها بالتأثر الثقافي . وأنه إذا نمت حضارة وازدهرت أقبلت الأمم الأخري علي تعلم لغتها للانتفاع من معطيات تلك الحضارة ونقلها إلي لغتها .

ونحن نري أن الرأيين لا يتعارضان . وإنما يعبران عن حقيقة واحدة . وهي العلاقة العضوية بين ازدهار ثقافة وحضارة وانتشار لغتها .

واللغة كائن حي يعتريها ما يعتري الكائن الحي من ميلاد ومن شباب ومرض وموت . بل ما يعتري الكائن الحي نفسيا من قوة وإرادة أو ذبول ويأس . لقد استوقفني في تاريخ الشعر العربي أن الغساسنة والمناذرة دولتان عربيتان لما يقرب من خمسة قرون علي اتصال مباشر بالقوتين الأعظم في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وهما الروم ، والفرس .. هاتان الدولتان العربيتان لم يظهر في أي منهما شاعر . وكان الشعراء ينبغون في الجزيرة العربية بدوا وحضرا ويذهبون لمدح ملوك الغساسنة والمناذرة . ويروي ابن سلام الجمحي أنه كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به . وأن هذا الديوان آل إلي بني أمية . لقد استوقفتني هذه الظاهرة وهي أنه لم يظهر شاعر واحد من الغساسنة أو المناذرة برغم أنهما كانا من حيث المظهر الحضاري واستخدام الوسائل الحضارية المعاصرة ووسائل الترف أكثر من بقية أهل الجزيرة بأشواط بعيدة . ولقد ألح علي السؤال : لماذا لم يظهر شاعر أو لم يظهر شعر في أي من الدولتين علي مدار خمسة قرون ؟

وكانت الإجابة - في رأيي - تتخلص في فقدان الذات . ماذا كان مَثَلُهم الأعلي ؟ التبعية..؟ وهل التبعية وفقدان الذات الثقافية تجعل قلبا ينبض ؟ إن التبعية لا تنتج فنًا ولا فكرًا. ولابد لازدهار الفكر والفن من شيء ينبع من داخل النفس . واللغات والشعوب والحضارات ككل كائن حي لابد من شيء نبيل يحركها .

وتتعرض اللغات لمحاولات القتل أو السجن في الصراعات البشرية . وذلك ضمن الغزو الفكري في التاريخ الحديث . ونضرب مثلا بمحاولات سجن اللغة ، ومثلا بمحاولات قتلها بما

---

(١) د. علي محمد القاسمي - اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخري - جامعة الرياض - ١٩٧٩ صـ٣١ .

تعرضت له اللغة العربية في مصر والشام من جانب ، وما تعرضت له في الشمال الإفريقي من جانب آخر . وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين . لقد تعرضت اللغة العربية في الشمال الإفريقي للقتل والوأد ، بينما تعرضت في مصر والشام للسجن والتقييد . وبمقارنة الإنتاج الأدبي والثقافي للأدباء والكتاب الصحفيين في مصر والشام بإنتاج إخوانهم في الشمال الإفريقي تتضح لنا درجات التأثير . ويتبين لنا مدي الضرر .

وتقول الإحصائيات الدولية أن عدد اللغات المستخدمة شفويا في الكرة الأرضية نحو ٣٥٠٠ لغة بينما يبلغ عدد اللغات المكتوبة ٥٠٠ لغة . ويقول علماء اللغة أن كل لغة تموت يولد مقابلها لغتان أو لغة ونصف . ومن هذه الإحصائيات يتبين لنا الموقع الممتاز الذي تتمتع به اللغة العربية في عالمنا المعاصر . فهي واحدة من ١٦ لغة يتحدث بكل منها ٥٠ مليون نسمة علي الأقل في العالم . ومزيد من الإحصائيات يدعم صورة الموقع الممتاز للغة العربية علي خريطة لغات العالم . تقول الاحصائيات أن عدد اللغات في إفريقيا يصل إلي ١٢٥٠ لغة . وفي أوربا ٢٨ لغة وطنية رسمية . وكانت مشكلة تعدد اللغات في أوربا عائقا أمام تبادل البرامج الإذاعية (راديو وتليفزيون) ولكن الخبراء واستخدام التكنولوجيا والترجمة مكنتهم من إيجاد حلول حاسمة لهذه المشكلة . نضيف إلي تلك الاحصائيات الحقيقة التاريخية والحضارية وهي ما نسميه بالمجال الحيوي للغة من اللغات . ومن ثم نجد اللغة العربية علي أساس أنها لغة القرآن تتبوأ مركزا ممتازا في دائرة الاتصال الثقافي والحضاري لو ازدهرت لأصحابها حضارة وثقافة .

١٠-الهجرات :

تمثل الهجرات منذ فجر التاريخ وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري . ويذهب مؤرخو الحضارات إلي حدود تثير الدهشة في حديثهم عن الهجرات القديمة وهم يقتفون آثارها. ويري عباس العقاد [١] أن من سلالة العرب نزحت أقوام إلي أواسط أوربا منذ خمسة آلاف سنة علي أقل تقدير . ويقول أن كل ما استفاده الأوربيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربي أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد . ويؤكد بأن هذا التراث يشمل كل ما هو أصيل عريق عند الأوربيين في شئون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة وهي :

١- العقائد السماوية .

٢- آداب الحياة والسلوك .

٣- فنون التدوين والتعليم .

٤- صناعات السلم والحرب وتبادل الخيرات والثمرات .

(١) عباس محمود العقاد - أثر العرب في الحضارة الأوروبية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٥ - ص١٤ إلي ص١٦ .

ويتتبع العقاد كل ذلك بالدليل والبرهان . فهو يقرر بأن الأوربيين تلقوا على الأقوام العربية الأولي في هجراتها عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وسلطانها علي الأحياء . ولا تزال أسماء الأيام الافرنجية تحمل طابع العقائد السماوية كما كان يعتقدها أسلاف العرب المغرقون في القدم . والعقاد يسوق نصا عن الجزء الأول من إخوان الصفا عن أوائل ساعات الأيام جاء فيه (أعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة . فأول ساعة من يوم الأحد للشمس . وأول ساعة من الاثنين للقمر . وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ . وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد . وأول ساعة من يوم الخميس للمشتري . وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة وأول ساعة من يوم السبت لزحل . ثم يسوق العقاد قرائن الاتصال الحضاري والثقافي في تأثر الأوربيين بالهجرات العربية الأولي فيذكر أن يوم الأحد يعرف في الانجليزية باسم (سنداي) Sunday أو يوم الشمس . ويوم الاثنين يعرف فيها باسم (منداي) Monday أو يوم القمر . ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم (تيوزداي) أي يوم تيوز إله الحرب عند أمم الشمال الأولي . وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم «مارس» وهو المريخ . ويوم الأربعاء يعرف في الانجليزية باسم (ونزداي) Wednesday أو يوم «ودين» إله المعارف والفنون عند قدماء (التيوتون) وتوضحه التسمية الفرنسية أيضا لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أي يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure وبالانجليزية Mercay ويوم الخميس يعرف في الانجليزية باسم (ثورزداي) Thursday أو يوم (ثور) إله الرعد عند قدما « التيوتون» . وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس يعرف فيها باسم Jeudi أي يوم المشتري أو الإله «جوبيتر » ، ويرجع هذا إلي اسم ياهو Jehova الذي يشير به أبناء الأمم السامية إلي الله . ويوم الجمعة يعرف في النجليزية باسم فرايداي Friday أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد ، ومقابلة الزهرة في صفاتها ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الجمعة فيها يعرف باسم يوم الزهرة Ven-dredi أو يوم فينوس . ويوم السبت يعرف في الانجليزية باسم (ستارداي) Saturday أو يوم زحل Saturn في تلك اللغة إلي اليوم . ويمضي العقاد معقبا بأنه يتبين لنا من معاني أيام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التي أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغلت في شعوبهم الأوربية من أقصي الشرق إلي أقصي الغرب ومن أقصي الشمال إلي أقصي الجنوب، وهي العقائد التي ترتبط بالمعيشة اليومية وطوالع الأوقات وسلطان الأفلاك العليا علي الأحياء وحوادث الأيام . وهكذا يمضي العقاد في القرائن والبراهين التي تؤكد لنا أهمية الهجرات في الاتصال الحضاري .

ويحدثنا التاريخ أنه عندما قامت دولة البطالمة في مصر استقدموا إلي الاسكندرية العلماء من جميع أرجاء بلاد الإغريق مثل إقليدس وارستوفانيس وكاليما خوس وزودوهم بكل وسائل الراحة من متحف شهير ومكتبة عظيمة ومدارس كثيرة ورواتب مجزية ليبدع كل في عمله وفنه . وجاءت الثمرة عظيمة لا تنسي . فقد صانوا هم ومن جاء بعدهم في العهد الروماني أعمال الإغريق والغنوسطيين والمانويين التي ضاعت أصولها . وتركت معارفهم الرياضية بصماتها في

الرياضيات الهندية ، ثم انتقلت عن طريقها إلي الفارسية فالعربية .

هكذا كان المد الحضاري في مصر وكانت وسيلته الهجرات . ويروي لنا التاريخ صورة للجذر الحضاري ووسيلته أيضا الهجرات . كان ذلك عند فتح العثمانيين لمصر فقد جمع سليم الأول العمال والصناع المهرة من مصر وأرغمهم علي السفر إلي الاستانة لمزاولة فنون الصناعات والحرف هناك ونشرها في بلاده .

وفي عالمنا المعاصر تمثل هجرة العقول والأيدي العاملة وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري إذا كانت الهجرة مؤقتة ، وإذا ظل المهاجر مرتبطا بوطنه الأم ولو بقضاء العطلات فيه.

١١-الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي :

ومن أمثلتها الإعلام الدولي والمنظمات الدولية والألعاب الأولمبية وكأس العالم وما شابه ذلك . وتعد اليونسكو (Unesco) أبرز وأهم المنظمات في هذا المجال ومنذ ١٩٤٦ تاريخ إنشاء هذه المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم باعتبارها إحدي المنظمات التابعة للأمم المتحدة قدمت أعمالا باهرة في مجال الاتصال الثقافي والحضاري بين معظم شعوب العالم . وتضم المؤتمرات العديدة التي تعقدها اليونسكو صفوة المفكرين والخبراء في الدول الأعضاء . وتعد مؤتمرات اليونسكو ساحة فسيحة لاختلاف الآراء وتعددها حول المفاهيم الثقافية في عالمنا المعاصر ويشمل النشاط اليومي (الروتيني) للمنظمة مجالات متسعة للاتصال الحضاري بين شعوب العالم . ومن هذه العناصر وغيرها تسهم اليونسكو إسهاما كبيرا وفعالا في الاتصال الثقافي والحضاري وتعد وسيلة ضمن الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي . تلك الأوجه التي مكن لها الإعلام المعاصر بأن جعل الكرة الأرضية قرية اتصالية .

المقارنة بين الوسائل :

ومما لا شك فيه أن لكل وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري أبعادها المتعددة التي تكشف جوانبها الإيجابية والسلبية. ولكننا في هذا المجال نقتصر علي تحديد وسائل الاتصال الحضاري عسي أن يفتح هذا التحديد بابا للباحثين في علوم الإعلام وتاريخ الحضارات وغيرهم للدراسة والبحث. وعلي سبيل المثال ليس ما يراه السائح في معظم الأحيان هو الصورة الحقيقية لحضارة البلدان التي يزورها. إن ولع السائح «بالفولكلور» مثلا وبأماكن المجون واللهو يحجب عنه أشياء كثيرة من صلب الحضارة والثقافة التي يتصل بمواطنها وأهلها. فهل مصارعة الثيران مثلا تعبر عن الدور الحضاري لأسبانيا ، وهل ملاهي شارع الهرم تعبر عن مصر وعاء الثقافة العربية الإسلامية ؟ .

ولا شك أيضا أن درجة التأثير في الاتصال الحضاري تختلف من وسيلة لأخري . يقول

أجنتس جولد تسهر [1] أن التأثيرات الروحية أقل تجاوبا إذا صدرت عن كتاب إلي كتاب مما إذا حصلت عن طريق اعتناق الآراء التي تملأ البيئة . وتنتقل بواسطة الاتصال الحي ولا سيما إذا كانت موضوع اختلاف قوي الحيوية في الأفكار وبرزت إلي الصف الأول من الاهتمام . ولابد أن الجدال قد حصل بين أطراف النقاش » .

كذلك يمثل مضمون الاتصال عاملا حاسما في عملية الاتصال الحضاري من حيث الأثر ورد الفعل يقول جوستاف لوبون [2] :

« ويجب علي من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلي قواعده الفلسفية بل إلي مدي تأثير عقائده . والإسلام إذا نظر إليه من هذه الناحية وجد من أكثر الأديان تأثيرا في الناس ، مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة ... إلخ . يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع ، وهو يعرف فضلا عن ذلك ، أنه يصب في النفوس إيمانا ثاقبا لا تزعزعه الشبهات » .

إن المقارنة بين وسيلة وأخري من وسائل الاتصال الثقافي لا يفسد مبدأ التكامل بينها . أو كما نقول في مستويات الإعلام بأن الاتصال الشخصي ليس نقيضا للاتصال الجماهيري . وإنمايدعم كل منهما أهداف الآخر .

(١) د. عبد الحليم النجار – مذاهب التفسير الإسلامي للعالم المستشرق أجنتس جولد تسهر – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٩٥٥ صـ١٧٣ .

(٢) جوستاف لوبون – حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) الطبعة الرابعة – مطبعة عيسي البابي الحلبي – القاهرة – ١٩٦٤ صـ١٢٥ .

خاتـمة

يقول الله تعالي :

﴿ وإذْ قالت أمةٌ منهم لِمَ تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبُهم عذابًا شديدا، قالوا معذرة إلي ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[1].

والقردة الخاسئون - فيما أري - هم الواقعون صرعي الغزو الثقافي سواء بغفلتهم أو بإرادتهم أو بعنادهم أو بعدم إعمال عقولهم أو بعدم الاستجابة لما يحييهم .. إنهم العاتون عما نهوا عنه . وهذه هي القوانين العلمية في الحياة سواء في قوانين العلوم البحتة أو في قوانين العلوم الاجتماعية . إنها سنة الله التي لا تجد لها تبديلا . وتظل صورة القردة الخاسئين تتشكل وتتغير علي امتداد التاريخ الإنساني ولكنها تعبر عن حقيقة واحدة .

لعل صفحات الفصول الأربعة لهذا الكتاب قد أقامت الحجة والبرهان علي أن الغزو الثقافي ليس مجرد وهم ، أو ضيق أفق أو تعصب . وأنه ليس هاجسا عربيا أو إسلاميا ولكنه مشكلة العالم الثالث علي وجه الخصوص ، بل ومشكلة عالمية . ولعل بعض صفحات الفصل الأول بَيَّنَت أن بعض البلدان الأوروبية الغربية المتقدمة أعلنت أجهزة إنذارها الثقافية المبكرة عن الغزو الثقافي الأمريكي .

ولعله أصبح واضحا وجليا ومحددا أن القول بأن عالم اليوم بسبب ثورة الإعلام والاتصالات أصبح قرية واحدة ، تتفاعل وتتبادل التأثير والتأثر ، والبقاء للأفكار الأصلح والثقافة الأصلح .. يشبه قراءة نصف الآية القرآنية ﴿ لا تقربوا الصلاة .. ﴾ والسكوت عن النصف الثاني ﴿ وأنتم سكاري ﴾ . لأن الهيمنة علي الإعلام عالميا في الأيدي الأمريكية وقلة من التوابع الأوروبية الغربية .

وإذا كانت مقولة الشيخ « الشعراوي » في الجامع الأزهر يوم ٢ - ١ - ١٩٨٩ في مؤتمر حاشد : « اعلموا جيدا أننا لا نستطيع أن تكون كلمتنا من رأسنا إلا إذا كان قوتنا من فأسنا » مقولة صائبة وصادقة فإن تحقيق الاستقلال الواقعي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا يمكننا من الاتصال الثقافي وَيُجَنِّبُنا أمراض الغزو الثقافي . وهذه سنة الله التي يُعَبِر عنها البعض بقانون ترابط عناصر الحياة .

وترتيبا علي ذلك فإنه ينبغي ألا تشغلنا الرؤية الاستشراقية المنحرفة عن بناء أنفسنا . وينبغي ألا تكون فكرتنا عن الغرب المتآمر ضدنا عائقا في الاتصال الثقافي . بل علينا أن نلتفت

(١) الآيات ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ من سورة الأعراف .

إلي عيوبنا أولا لنصلحها ، لا أن نستريح لأن القائل بها عدو لنا ولثقافتنا . فنحن مطالبون بأن لا نجعل القرآن عضين . أي أن لا نفتته ونقطعه عضوا عضوا كما يفعل الجزار مثلا بالذبيحة ، وذلك وفق النص القرآني الذي يحذرنا من سلوك المقتسمين الذين يقبلون ويرفضون وفق الهوي: ﴿كما أنزلنا علي المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (آية ٩٠ ، آية ٩١ من سورة الحجر) . لأن الإسلام يحرص علي نقاء الإنسان المسلم فيكون ظاهره كباطنه . ولأن الإسلام نظرة شاملة للحياة الإنسانية والحياة الكونية ، لذلك كله نجد أن ما يُصْلِح الأمور الداخلية في المجتمعات الإسلامية هو بعينه ما يصلح أمورها الخارجية . وأول هذا الإصلاح والصلاح هو النظر في شروط الصحوة ووضع الضوابط لها . وتنقيتها من عناصر الغلو ، أي التطرف . وتنقيتها من عناصر الخروج بها إلي شكل مشوه « للأيدلوجية » الغربية المتأزمة بحجة المعاصرة أو الضرورة .

كذلك فإن القرآن يحدد لنا شروط تحقيق الهدف بفعل الإرادة وبقوة الإرادة وتكريس العقل والقلب والطاقة حتي تتحقق الأهداف . والفارق بين الاعتناق وبين الإيمان فارق كبير . إنك تستطيع أن تقول بأن غالبية المثقفين العرب والمسلمين يعتنقون فكرة مواجهة الغزو الثقافي. ولكن الإيمان خطوة أشد وأخطر من مجرد الاعتناق . إنه الفارق الذي عبر عنه القرآن الكريم : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولَمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم ... ﴾ (من الآية ١٤ سورة الحجرات) .

إن التاريخ المعاصر يبين لنا صورة أقرب إلي واقعنا وأذهاننا عندما تصبح الشعوب شيوعية أو رأسمالية ، ولكنها لا تؤيد حكوماتها ، وليست ضد حكوماتها إلي حد الثورة عليها ، وإنما الوضع برمته مائع لا طعم له ، وحائل اللون ، تتبينه فقط في أن السلطة محرومة من المساندة الشعبية الحقيقية . والشعب ساخط بغير إرادة التغيير .

إن وظائف الشريعة الإسلامية كما يقررها فقهاء المسلمين تتلخص في الحفاظ علي المصالح الخمسة : الدين - والنفس - والعقل - والعرض - والمال . وإذا كان ما يهدف إليه الغزو الثقافي بصورة مباشرة هو تخريب العقل والنفس أو الاستحواذ عليهما . فإن التصدي للغزو الثقافي يعني الدفاع عن خمسي المصالح بصفة مباشرة وعلي الثلاثة أخماس الأخري بصفة غير مباشرة .

وعلي المستوي الإنساني والعالمي فإن مسئولية المثقف المسلم والعربي في قضية الغزو الثقافي ليست فقط في الدفاع عن مجتمعه من آثارها . وإنما في الشهادة عليها بالصدق والعدل. وفي الاعتراف بالاتصال الثقافي وتنميته علي المستوي الإنساني والعالمي ، وفي الوقت نفسه في الشهادة علي الغزو الثقافي وبيان باطله . وهذا هو التطبيق الإنساني لأن تكون الأمة الإسلامية شاهدة علي الناس .

ما هي مبررات أن تكون الأمة الإسلامية شاهدة علي الناس؟ وما هو مفهوم هذه الشهادة؟

المبرر الأول : هو الاعتراف ، فالمسلم مُعْتَرِفٌ (بحكم دينه وبحكم أن يكون مؤمنا بالإسلام) بالأديان والأنبياء والرسل السابقين لمحمد - الذين أرسلهم الله للبشرية عبر القرون

والأجيال والأمم . **والمبرر الثاني :** أن الإسلام هو آخر الأديان السماوية . **المبرر الثالث :** أن رسالة الإسلام شملت الجوانب التشريعية التي لم تكن بصورة شاملة في الديانات السابقة والشمولية والعمومية للبشر جميعا وللناس جميعا وضمان حقوق الإنسان غير المسلم في ظل الإسلام، كان ذلك كله مبررات أن تكون الأمة الإسلامية في موقع الشاهد .

ولكي نحدد مفهوم الشهادة ، ولكي نحدد دور الشاهد ينبغي أن ندرك المعني القضائي والمعني الثقافي في مجال الشهادة . إن المعني يتلخص في أن تقوم هذه الأمة بشهادة الحق في الفصل بين القيم والأحكام والثقافات التي لدي الأمم الأخري . فَتُجْلي ما هو متفق مع الحق ، وتُبيِّن ما هو مُوَافق للباطل .

وتلخص آية في القرآن الكريم [1] مفتاح الشهادة بقول الله عز وجل : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ بمعني أن القرآن فيه تصديق الرسالات السابقة ، وهو في الوقت نفسه شامل وعام وجديد وناسخ لما قبله .

ومفهوم الشهادة هنا ليس مفهوم استعلاء ، وليس مفهوم سيطرة ولا تسلط ، ولكنه مفهوم العدل والاعتدال ، ومفهوم الاستنارة والوعي واليقين ، وهو من أجل الأمة ذاتها ، حتي تكون علي بصيرة ، وللناس جميعا لأن رؤيتها وحكمها علي الثقافات والقيم والأحداث معلن وواضح .

وقد يَسْخَر صرعي الغزو الثقافي ، كما قد يسخر الغازون من هذا التحليل ، في زمن أصبح المسلمون فيه تحت حصار الجوع والفقر وتحت حصار المدافع الصليبية وتحت حصار التبعية الاقتصادية والسياسية وتحت حصار العجز العقلي والتشتت وخيبة الأمل وغيبة الهدف . وهذا في جملته شبه صحيح . ولكن حال المسلمين ليس هو حال الإسلام باعتباره فكرا وأيدلوجية . وهذا سبب الضرب المستمر بالأيدي الصليبية المتوحشة لجسد هزيل . لأن الوحوش الصليبية تعرف أن هذا الجسد الهزيل تنقصه الإرادة . وأن الخطورة ليست في الجسد الهزيل ، ولكن في القلب والعقل المسلم إسلاما حقيقيا .

يقول شاتليه [2] : إن الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له ، سوف يفضي بعد انتشاره في كل الجهات إلي انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلي نشأتها بشكل آخر . ثم يقول : إن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية ، والتقسيم السياسي الذي طرأ علي الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتي يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية »

---

(١) سورة المائدة من آية ٤٨ .

(٢) شاتليه – الغارة علي العالم الإسلامي (ترجمة مساعد اليافي – ومحب الدين الخطيب) .

ماذا فعل الرسول ﷺ ؟ وكيف تصرف المؤمنون معه في الأوقات الحالكة السواد ؟

في غزوة الخندق التي تسمي بغزوة الأحزاب ، حيث تَجمَّع كفار قريش ، مع معظم قبائل العرب لاستئصال شأفة المسلمين ، والقضاء علي محمد وعلي الإسلام . وحاصروا المدينة المنورة. وانضم إلي الأحزاب الكافرة يهود بني « قريظة » برغم حلفهم مع الرسول والمؤمنين وكان المسلمون في هذا الموقف الصعب كما قال الله تعالي :

﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك أبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ (آية ١٠ ، آية ١١ سورة الأحزاب) .

وأشار سلمان الفارسي علي الرسول ﷺ بحفر خندق حول الأجزاء المكشوفة من المدينة يحول دون اقتحام المهاجمين لها . وظلت المدينة تحت الحصار ، وخلال حفر الخندق ، والقوي الكافرة تحيط بالمسلمين الذين بلغت قلوبهم الحناجر كما صور القرآن الكريم صعوبة موقفهم . في ذلك الجو العام القاتم « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب بالمعْوَل فصادف حجرا صلدا ، فأخذ رسول الله ﷺ منه المعْول فضرب بها الحجر مرتين في كل مرة يتطاير منه الشرر وفي الثالثة تفتت الحجر مع بَرْقَة الشررَ . فقال سلمان : يا رسول الله رأيت المعْوَل كلما ضربت به أضاء ما تحته . فقال : أليسَ قَد رأيت ذلك ؟ قال : نعم . قال النبي ﷺ : إنَي رأيت في الأولي قصور الشام ، ثم رأيت في الثانية ، قصور اليمن ، ورأيت في الثالثة قصر كسري الأبيض بالمدائن . وجعل يصفه لسلمان فقال : صدقت والذي بعثك بالحق ، إنَّ هذه لصفته ، وأشهد أنك لرسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان ، لتُفْتَحَنَّ الشام ، ويهرب هرقل إلي أقصي مملكته ، وتظهرون علي الشام فلا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن ، وليفتحن هذا المشرق ، ويقتل كسري بعده . قال سلمان فكل هذا قد رأيت » [1] .

عندما نروي هذا الحدث في حياتنا الإعلامية والثقافية المعاصرة يقول صرعي الغزو الثقافي لنا : كفاكم حديثا في الغيبيات والخوارق . ولكن علي الجانب الآخر يقفون مبهورين بصورة التقدم الغربي والإسرائيلي فقد نفذت اسرائيل خلال إحدي وعشرين ساعة متصلة من يومي الجمعة والسبت ٣١ - ٥ ، ١ - ٦ - ١٩٩١ عملية سليمان التي رحلت فيها عبر جسر جوي حوالي ١٥ ألف يهودي أثيوبي (الفلاشا) من إثيوبيا إلي اسرائيل . كان وقع الخبر علي الضمير العربي والإسلامي قاسيا . لقد « فرضت الأحداث علينا خبر تهجير يهود الفلاشا ، وهو خبر خطير له دلالاته ، وهو تصديق لكلمة بن جوريون « إن انتصار إسرائيل النهائي سيتحقق عن طريق الهجرة المكثفة » .

« بالنسبة لي . كان أكثر ما استفزني في الخبر ليس هو كفاءة العملية ، ولا الرشاوي التي

(١) كتاب المغازي للواقدي - تحقيق مادسون جونس - الجزء الثاني - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٤ - ص٤٤٩ ، ٤٥٠ .

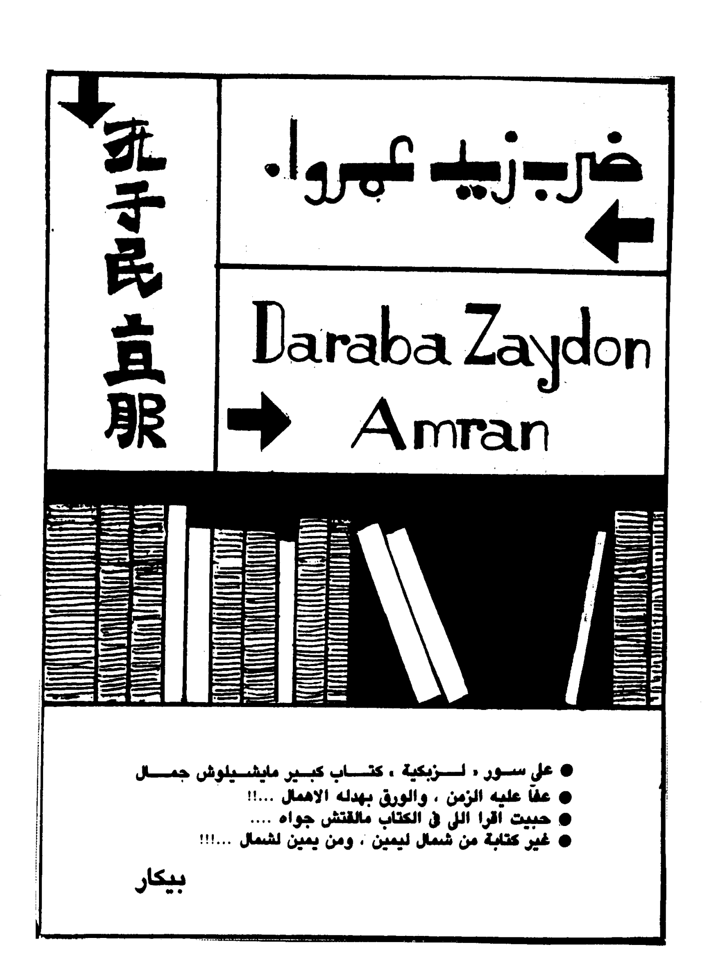
أنفقت عليها ، ولا الشخصيات الهامة التي تورطت فيها ، ولا السرعة التي تم بها نقل اليهود. استفزني هذا كله - لست أنكر - ولكن أكثر ما أقلقني كان تسمية العملية باسم نبي الله سليمان. وقبل ذلك تمت عمليتان للفلاشا باسم « عملية موسي » و « عملية سبأ » ، وقد كشف الستار عن هاتين العمليتين كتاب وثائقي ظهر حديثا للأستاذ محمد مكاوي . ولقد توقفت طويلا عند هذا الاستخدام للرموز الدينية من دولة اسرائيل ، إن المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعا متدينا.. رغم أن فيه جماعات متدينة ومتعصبة ، ورغم ذلك تلجأ دولة اسرائيل لإحياء الرموز الدينية دائما . وتوقظ المشاعر الدينية دائما ، وتجعل تاريخ الأنبياء وأسماءهم أحداثا حية ومتحركة ومؤثرة في المجتمع اليهودي المعاصر .

إن تسمية العملية باسم سليمان إشارة إلي قدرات سليمان الخارقة ، لقد سأل ربه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، واستجاب الله تعالي له ، وسخر له الجن من بين ما سخر ، وقهرهم علي العمل في خدمته ، وكان سليمان بهذا المعني نبيا لا يصمد له أحد ، لا يغلبه أحد، وهذا هو المعني الذي تحاول دولة اسرائيل اسباغه علي صورتها .. إنها دولة لا يغلبها أحد .. إن لها أفعال الجن الخارقة .. ولست ضد سيدنا سليمان أو سيدنا موسي عليهما الصلاة والسلام ، بل لعلي أحبهما وأعرف عنهما أكثر من كثير من اليهود ، ولست ضد تسمية العملية باسم عملية سليمان ، لأن هذا ذكاء يحاول بعث أمجاد الماضي ، ويستخدم التاريخ كعامل منشط وموقظ للحاضر ، وهذا كله من حق أي شعب .. كل ما يحزنني ويثيرني أنه في الوقت الذي تقوم فيه دولة اسرائيل باستخدام الرموز الدينية تقوم دول كثيرة في العالم العربي والإسلامي بالوقوف ضد الرموز الدينية الإسلامية ، وتعتبرها مسألة شخصية بين الإنسان وخالقه ، ولا علاقة لها بإحياء التاريخ أو إيقاظ الحاضر أو تشكيل المستقبل .. وهذا يعني أن هناك من يجردنا من سلاحنا ويتركنا مهزومين أمام عدونا [1] ».

بقي أن نذكر ماذا قال المنافقون داخل المدينة أيام الحصار في غزوة الأحزاب في الحديث النبوي الذي رفع الروح المعنوية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار . قال المنافقون : يعدنا محمد كنوز كسري وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لحاجته .

ولقد صدقت وقائع التاريخ المادية ما قاله رسول الله ﷺ . وبرغم ذلك ما تزال مقولات التشكيك والتيئيس تحيط بنا من صرعي الغزو الثقافي شعرا ونثرا وصورا ورسوما وبالكاريكاتير، انظر إلي ما نشرته جريدة الأخبار بتاريخ ١٣ - ١ - ١٩٨٩ لتعرف رؤيتهم للتراث العربي والإسلامي .

(١) أحمد بهجت - عملية سليمان - جريدة الأهرام بتاريخ ٣١ - ٥ - ١٩٩١ .


ضرب زيد عمروا
Daraba Zaydon Amran
● على سور الأزبكية ، كتاب كبير مايشيلوش جمال
● عفا عليه الزمن ، والورق بهدله الاهمال ...!!
● حبيت اقرا اللى فى الكتاب مالقتش جواه ....
● غير كتابة من شمال ليمين ، ومن يمين لشمال ...!!!
بيكار

وعلي الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط يلقي المهاجر العربي والمسلم المقيم في أوربا- يخدمها - جرائم متكررة من العدوان عليه من جماعات ما تزال قلوبها وعقولها تعيش عفن وأوهام الحروب الصليبية . بل إن المسلم الأوربي أصلا وجنسا وهو يمثل أقلية صغيرة يلقي التصفية والتدمير بما هو أشد وأقسي من القتل في البوسنة والهرسك مثلا . بل إن المسلم الأوربي شحما ولحما ودما إذا هداه الله للإسلام لقي العنت من قومه وبخاصة إذا كان من ذوي المكانة العقلية الرفيعة . عندما أسلم « هوفمان» السفير الألماني بوزارة الخارجية الألمانية هاجت الصحف ووسائل الإعلام تطالب بفصله من عمله . ومن قبله كان موقف الإعلام الغربي من إسلام «جارودي» موقفا شائنا بكل المقاييس .

كان إسلام « جارودي » أشبه بإسلام الصحابي عبد الله بن سلام . كان جارودي قبل إسلامه مفكرا وفيلسوفا وسياسيا ذائع الصيت في بلده فرنسا وفي العالم . وعند فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي من لجنته المركزية عام ١٩٦٩ ، كانت قصة خلافه مع الحزب الخبر الرئيسي في وسائل الإعلام الغربية .

وكان الحُصَيْنُ بن سلام ، كما يروي الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات ، حَبْرا من كبار أحْبَار اليهود في المدينة . كلاهما اقتنع بالإسلام اقتناع المفكر والعالم . وكلاهما واجه من قومه العنت واللوم عند إسلامه .

أما عبد الله بن سلام وهكذا سماه الرسول ﷺ عند إسلامه ، بدلا من الحُصَيْن بن سلام، فقد أسلم أول قدوم الرسول ﷺ المدينة . وذلك أنه عندما سمع بمقدم الرسول ذهب إليه في بني النجار مستعجلا ، وألقي عليه أسئلة لا يجيب عنها إلا نبي . ولما سمع ردوده آمن به ساعته ومكانه . وقال له إن قومه قوم بُهْت إنْ علموا بإسلامه قبل أن يسألهم عنه سبوه . فماذا فعل رسول الله ﷺ ؟ بعث إلي قومه ، وأدخل عبد الله البيت ، وسألهم عنه فقالوا أَعْلَمُنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم . فقالوا : أعاذه الله من ذلك ، قالوها مرتين أو ثلاثة ، فخرج إليهم عبد الله ، فقال أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فقالوا شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه .

أما روجيه جارودي فقد أسلم في رمضان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م . وسمي نفسه رجاء جارودي . فلم تنشر وسائل الإعلام الغربية خبرا واحدا عنه ، إلا صحيفة «لوموند» التي نشرت في خبر صغير داخلي أنه متوجه إلي الحج بعد أن أعلن إسلامه . وكان من قبل موضوعا رئيسيا علي أغلفة مجلاتها ومانشتات جرائدها ، ومتصدرة أخباره نشرات إذاعاتهم ومحطات تلفزيوناتهم ..! يريد الإعلام الغربي أن يطفئ نور الله بأفواهه ولكن النور يسطع في الغرب يوما بعد يوم وكتابات المفكرين والفلاسفة الأوربيين الذين هداهم الله للإسلام تعد زاداً حضاريًا جديداً لمنظومة الكتابات الإسلامية التي تنطق بشهادة الحق .

في مايو ١٩٩٠ حظرت الحكومة الفرنسية توزيع كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون» ..

وإذا قارنا هذا القرار بحظر تداول وتوزيع وبيع كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، بالغضبة الشرسة دفاعا عن كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي تبين لنا كيف يكيل الغرب بمكيالين .. وكيف يكون له قلبين : قلب يكره الإسلام ، وقلب يحب من عاداه .

برغم هذه الصورة التي يبرزها الإعلام الغربي وتبرزها الثقافة الغربية ، فإننا ينبغي أن نَجِّدَ في الاتصال الثقافي بهم ، لنحقق تصحيح الصورة قدر الطاقة ، ولنتفاعل مع إنتاجهم الثقافي الحسن ونستوعبه ونتمثله في عقولنا تمثيلا غذائيا . والمسلمون الأوربيون الذين يزداد عددهم يوما بعد يوم ستكون إنجازاتهم الثقافية بعد سنوات جدولا رئيسيا وهاما في النهر الجديد للحضارة العربية الإسلامية .

لقد طالعنا صورة الاستشراق المتمثلة في الهيمنة والمعرفة الخاطئة ولكن علي المستوي الفني الجمالي نجد للاستشراق معني مختلفاً « في عام ١٨١٤ » - انفتحت أبواب مصر أمام الخبراء الفرنسيين بعد توقيع محمد علي والي مصر اتفاقية التعاون مع فرنسا . وفي عام ١٨٣٠ بدأت حملة الجيش الفرنسي علي الجزائر . وكان هذا التطور في تدعيم نفوذ فرنسا السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي في هذه المنطقة من الشرق سببا مباشرا في انفتاح أبواب الشرق الإسلامي أمام قوافل الفنانين والأدباء والديبلوماسيين والعلماء والرحالة والتجار والإرساليات الفرنسية . فقد زار الشرق في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ١٥٠ فنانا فرنسيا . وبرغم اختلاف إسهاماتهم في تطوير الاستشراق إلا أن الاستشراق شكل تيارا أساسيا داخل الحركة الفنية التشكيلية الفرنسية استقطب غالبية فنانيها ، كما أكسب الاستشراق الرومانسي الفرنسي سمته الشرقية الإسلامية ، خلافا للمدارس الرومانسية الأوربية الباقية ، نظرا لغلبة الموضوع الشرقي الإسلامي في الفن الفرنسي آنذاك [(١)] » .

وفي المقابل غلب الموضوع الشرقي الصيني والهندي في المدرسة الفنية الرومانسية الإنجليزية والألمانية .

إن إرادة الإنسان هي العنصر القوي في الاتصال الثقافي . والهامش المتاح دائما في مجال الاتصال الثقافي يسمح بالتحرك الإيجابي إن توفرت الإرادة . وهي مسئولية لا تجدي معها العلل، وإنما يصلح لها الاقتحام .

يقول مالك بن نبي [(٢)] إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلي الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها .. وما الحضارات المعاصرة ، والحضارات الضاربة في

---

(١) د. زينات بيطار - الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - يناير ١٩٩٢ - ص١٦ .

(٢) مالك بن نبي - شروط النهضة (ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي) - الطبعة الثانية - مكتبة دار العروبة - القاهرة - ١٩٦١ .

ظلام الماضي ، والحضارات المستقبلة إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلي نهاية الزمن . هذا أول ما يجيب عن سبب اهتمامنا بالاتصال الحضاري . نضيف إلي ذلك الواقع المعاصر للوطن العربي والعالم الإسلامي بصفة عامة ، والظروف التي يمر بها حضاريا والتي يمكن أن نسميها مرحلة الإرهاص الحضاري أو مرحلة التهيؤ للدخول في طور الحضارة .

أما السبب الثالث فهو أهمية أن تواكب وسائل الاتصال حركة المد الإسلامي لدي الشباب في معظم البلدان الإسلامية فهي قوة دافعة في البناء الحضاري بل هي أقوي القوي والدوافع بشهادة الجميع حتي منكري الألوهية والرافضين لفكرة الدين بصفة عامة . ويقول (سيجموند فرويد) العالم النفسي الشهير والذي أفرد كتابا بعنوان (مستقبل وهم) ينعت فيه الدين بأنه مجرد وهم .. يقول سيجموند فرويد هذا في كتابه قلق في الحضارة [1] .

« لكننا لا نتخيل سمة أكثر تمييزا للحضارة من القيمة المعلقة علي النشاطات العليا من إنتاجات فكرية وعلمية وفنية . ولا مؤثرا ثقافيا موثوقا كالدور القيادي المنسوب إليها . وبين هذه الأفكار تحتل الأنظمة الدينية أرفع مكانة في سلم القيم وقد حاولت في وضع آخر أن أسلط الضوء علي بنيتها المعقدة . وتصطف إلي جانبها في المرتبة الثانية التأملات الفلسفية ، ثم أخيرا ما يمكن أن يسمي بالإنشاءات المثالية لبني الإنسان أي الأفكار المتعلقة بإمكان تحسين وضع الفرد أو الشعب أو البشرية قاطبة » .

وبعد .. ألسنا في حاجة إلي معرفة الطريق لنسلك الطريق ؟ إننا بالنظر إلي وسائل الاتصال الحضاري وبتعمق أبعادها نسلك سبيلا يؤدي بنا - كعرب - إلي دخول بوابة الحضارة الإنسانية من جديد .. تلك البوابة التي خرجنا منها في ليل طويل دون أن ندري أننا خرجنا .

وعن تمايز المنابع الثقافية يقول د. زكي نجيب محمود في حديث له في التلفزيون المصري عام ١٩٨٨ أجراه معه الشاعر الأديب فاروق شوشة : « كل يتميز في صفة حاسمة في ثقافته . فبينما الشرق الأقصي : الهند والصين واليابان كانت تعيش ثقافيا علي إدراك البصيرة ، وهو الإدراك الذي نراه في الفن وفي التصوف وفي الإيمان الديني بصفة خاصة ، علي هذا النوع من الإدراك المباشر بنوا ثقافاتهم القديمة كلها . في الطرف الآخر كانت أوربا كما رأيناها في اليونان ومن بعدهم ، هؤلاء بنوا ثقافتهم علي أساس إدراكي آخر وهو الإدراك العقلي الصرف الذي يستدل النتائج من المقدمات وهم الذين صاغوا منطق التفكير ، لم يخلقوه وإنما صاغوه بعد أن حللوا تفكير الإنسان كيف ينتقل من فكرة إلي فكرة .

والمعجزة العربية الإسلامية هي القدرة الفطرية عند العرب علي الجمع بين الطرفين . العربي لا يلفق أي يأتي بالرؤية الصوفية الفنية من الشرق الأقصي ، ويأتي بالأساس العقلي الاستدلالي

---

(١) سيجموند فرويد - قلق في الحضارة - (ترجمة جورج طرابيشي) - الطبعة الأولي - دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٧ - صـ٤٨ .

المنطقي من الغرب ، ويلفق صورة لنفسه .. أبدا ، إنما هي فطرته ، عندما جاء عصر الترجمة في القرن الثالث الهجري ترجم العرب علي السواء عن اليونان والهند وهما طرفان متناقضان. والمعدة الثقافية للعربي خلقت لتهضم الاثنين معا ، وكأنما هما ضرورتان في التكوين الإنساني . بل إن هذين الطرفين نجدهما كأنما هما بعدان لكل موقف فكري عربي إسلامي . كل موقف فكري ستجد فيه البعد العقلي من ناحية والبعد الصوفي أو القيمي أو الفني أو الأخلاقي من ناحية . ونتمني أن يحقق العربي اليوم ما هو في فطرته من حيث هو عربي . أن يجمع العقل إلي الوجدان ، العلم إلي الفن والتصوف ، وفن الشعر علامة قوية في هذا الموقف العربي . والفقه علامة قوية في هذا الموقف العربي - وهو منطق - ولا تجد مجالاً لتطبيق المنطق الصارم في الاستدلال أروع مما تجده في عمل الفقهاء ، فهذا وذاك معا في نفس المسلم الواحد العربي الواحد . لكن في عصرنا هذا حدث خلل لظروف حضارية ولظروف تاريخية وغير ذلك . والحل هو عودة العربي إلي فطرته .

وفكرة الأصالة والمعاصرة . في حياتنا العربية في النصف الثاني من القرن العشرين تم طرحها باعتبارها عملة متداولة ، ولكن الفهم لها ينبغي أن يكون واضحا جليًا .

والدكتور زكي نجيب محمود يؤكد علي أن فكرة الأصالة والمعاصرة وقفة ذات عنصرين مضفورين معا في كيان واحد . وأن تكون هذه رؤية الإنسان العادي في الشارع . وهذا ما نريده للإنسان العربي . إن الفكرة تجسدت في أفراد أعلام هم معاصرون وهم ملتزمون بتراثهم منذ رفاعة الطهطاوي . وينبغي ألا تصبح مقتصرة علي الأفراد الأعلام . وقال فاروق شوشة لزكي نجيب محمود وهو يحاوره : أعتقد أن كلمة السر في فكرة الأصالة والمعاصرة هي كلمة «المضفورين» فكلمة مضفورين تنفي ما يتصوره بعض الناس من أن المسألة وكأنها الجراب الذي يتسع لبضاعة من الماضي وبضاعة من العصر ، ونضع البضاعتين جنبا إلي جنب ، ويتصورون أنه هنا تحقق المثال . إن التصور الصحيح هو أن الأصالة والمعاصرة ليستا أمرين وإنما هما أمر واحد في حقيقته ، وأن الالتفات إلي الماضي هو موقف عصري ، كما أن الموقف العصري يتضمن بعدا في الماضي ، فلا فَصْل بين الرؤيتين لا زَمَنا ولا إدراكا ولا توجُها . فرد عليه الدكتور زكي نجيب محمود بأن الفصل بين الأصالة والمعاصرة مرض . وإذا ضربنا مثلا في الاصالة والمعاصرة بآبائنا العرب ، عندما تُرجم اليونان ، كان اليونان هم الخارج ، هم أوربا ، هم الغرب ، فلما هُضم ما جاء من اليونان مع الاصالة العربية أنتجت الجاحظ نثرا وأبا العلاء المعري شعرا . إذا وقفنا عند هذين الشخصين ونظرنا ونحن نقرأ للجاحظ مثلا فإننا لا نقرأ شيئا مما كان في الجاهلية ، ثم لا نكاد نري أين الفارق بين ما استفاده من اليونان وما هو عربي أصيل ؟ وإنما نري نثره كتلة واحدة. وكذلك الشأن مع أبي العلاء المعري فإن إنتاجه كيان واحد ، شخص واحد ، عقل واحد، قلب واحد. هكذا يكون التصور الصحيح لمفهوم الأصالة والمعاصرة أن نتغذي بالغذائين معا وأن نكون هاضمين ولسنا مقلدين . ويدعو د. زكي نجيب محمود إلي دماغ عربي مشترك ويقول بأن المتأمل في ثقافتنا العربية القديمة يلاحظ اتصالا دائما » .

يقولون إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة . وإذا كان الأمل كبيرا وعظيما فإن مجرد

الاقتراب منه يمثل خطوة . والنموذج الذي قدمه لنا رسول الله ﷺ بأن إماطة الأذي عن الطريق صدقة . ونصحه لنا بأن نتق النار ولو بشق (نصف) تمرة ، يبين لنا بوابة الطريق لمواجهة الغزو الثقافي . ولقد كثر الحديث عن مواجهة الغزو الثقافي ومواجهة سلبياته . ولكن كل ذلك من موقف الدفاع وفي الجانب الدفاعي من المواجهة . فماذا عن الجانب البنائي ؟

يتمثل الجانب البنائي للمواجهة في ثلاثة محاور رئيسية هي :

١- **المحور التربوي** : ويتمثل في دور المدرسة ، والجامعة . وفي التربية المستمرة أي في التَعَلُم بصفة عامة .

« كيف يعرف علماء النفس [1] التعلم ؟ وكيف يقاس التعلم ؟

يعرف التعلم بأنه تغيير دائم نسبيا في السلوك يحدث نتيجة للخبرة . ويقيس علماء السلوك ما تفعله الكائنات الحية وذلك للتوصل إلي فهم عملية التعلم ، إلا أن التعلم هو نشاط يحدث داخل الكائن لا يمكن ملاحظته بصورة مباشرة . ويتغير المتعلمون بطرق غير مفهومة تماما حيث يكتسبون الجديد من : الارتباطات ، المعلومات ، الاستبصارات ، المهارات ، العادات ، وما شابه ذلك » .

بهذا المفهوم العريض للتعلم يصبح الإنسان العربي معاصرا في كل يوم . ويصبح قادرا علي فهم العصر . وقادرا علي التفاعل معه والتأثير فيه .

٢- **المحور التبشيري** : ويتمثل في دور وسائل الإعلام وأجهزة الثقافة .

هناك أفكار متنوعة عن العلاقة بين وسائل الاتصال والسلطة ، فرأي يقول بأن الإعلام أداة حيوية لمراقبة السلطة بصفة دائمة ، بل هو قوة موازنة لها ، ذلك أن مهمة وسائل الإعلام هي أن تعمل بمثابة مرآة تعطي صورة صادقة لما تفعله الحكومات .

والرأي المناقض هو أنه ينبغي للإعلام أن يكون في خدمة الدولة حتي يساهم في إيجاد نظم سياسية جديدة تتسم بالقوة والاستقرار . ويتبين من واقع الخبرة في بلاد عديدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن حرية وسائل الإعلام لا تزال هي حجر الزاوية في التجديد الديمقراطي ، ولكن من الضروري أن نفهم المستجدات والتغييرات التي جعلت العلاقة بين وسائل الإعلام والسلطة قضية رئيسية أكثر من أي وقت مضي . هذه المستجدات والتغييرات تتمثل في ثورة المعلومات ، ذلك لأن صناعة المعلومات قد نمت نموا هائلا . وأصبح اعتماد المؤسسات علي البيانات والمعلومات ضرورة عمل واستمرار . وأصبحت مؤسسات إعلامية عديدة تقوم بوضع البنية الأساسية للمعلومات مثل (الوكالات الصحفية - معاهد الرأي العام - مراكز التوثيق) ، وكذلك أصبحت هذه المؤسسات الإعلامية مجالا لعلوم هامة مثل الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس وتحليل النظم . وبهذا أصبحت وسائل الاتصال - إلي حد كبير - ترسانة للاشارات والتعليمات تُعَزز سلطة

(١) لندا .ل. دافيدوف -مدخل علم النفس (ترجمة د. سيد الطواب وآخران) -دار المريخ -الرياض- صـ١٩٤.

المنظمات الكبري ، العامة والخاصة ، الوطنية وغير الوطنية . وتتمتع مثل هذه المنظمات بقدرات علي وضع التخطيط المتقدم واتخاذ القرارات ، ومن ثَم فإن القدرة علي التحكم تفوق كثيرا قدرة المجموعات المفككة من المواطنين الذين لا يملكون سوي قدر ضئيل من المعلومات . وعلي ذلك فكل المعلومات التي يمكن استخدامها هي مصدر للسلطة ، ولهذا السبب فإن هناك حاجة إلي إحداث تغيرات في النظرة والسلوك من جانب أولئك الذين يتحكمون في مصادر المعلومات ووسائل النشر [1] »

هذا التحليل لدور الإعلام المعاصر والمعلومات يُشْبه قوة الطرد وقوة الجذب التي تحفظ التماسك وينبغي للإعلام أن يؤدي المهمتين معا بتوازن دقيق .

٣- **المحور الاجتماعي :** ويتمثل في دور المسجد والمنظمات السياسية والاجتماعية والثقافية. إن إحياء الذات الإسلامية بالمعني الشامل يكتمل بدور المسجد والمنظمات الاجتماعية . ويتكامل مع المحورين السابقين التربوي والتبشيري . إن الإحياء الثقافي للأمة هو إحياء ذاتها الحضارية. وتكاد اللغة أن تسعفنا بمدلول الإحياء الثقافي ، فنحن نستخدم لفظ الإحياء عندما نستصلح الأرض البور ونزرعها . ونحن نستخدم لفظ الإحياء عندما نحرك الهواء علي كوم الرماد لنتيح لجمرة النار الخابية أن تشتعل وتتوقد .

الإحياء الثقافي إذن هو مفهوم نفسي وعقلي ووجداني يتجاوز حدود المعاني إلي حدود المحسوس والملموس .

وعلي المستوي الفردي يستطيع الإنسان العربي أن يمارس دوره في مقاومة الغزو الثقافي . يستطيع مثلا أن ينزع السلسلة الذهبية التي تحيط رقبته لأنها في حقيقة أمرها رمز لعبودية التقليد، وتأكيد لمعني الغزو الثقافي حتي رقبة الرجل . إن الذهب محرم في الإسلام باعتباره زينة للرجال . وليس من عادة العربي أن يتشبه بالمرأة ، كما أنه ليس من عادة المرأة العربية أن تتشبه بالرجال . والسلسلة الذهبية حول جيد العربي مجرد مثال . وقد يظن البعض أن هذا أمر هين . ولكن القرآن الكريم يعلمنا أن بعض الأمور الصغيرة تؤدي إلي مخاطر كبيرة إن لم نتداركها . «ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» . إن الإصابة بالكوليرا في مجتمع من المجتمعاتْ إذا بلغت واحد في المليون فهي خطر . فإذا بلغت واحد في المائة ألف فهي كارثة صحية تؤدي بالمجتمع إلي التهلكة .

وعلي المستوي القطري يستطع الإعلام والمؤسسات الثقافية تنقية الخطاب الإعلامي والثقافي من شوائب الغزو ، ومن المصطلحات الغربية ، مثل مصطلح الإرهاب الإسلامي لجرائم يقوم بها أفراد أو جماعات منحرفة عن الدين ، في الوقت الذي لا يطلقون فيه اسم الإرهاب

---

(١) اليونسكو - أصوات متعددة وعالم واحد - تقرير شون ماكبرايد وآخرون - الترجمة العربية نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٨١ - ص٦٩ ، ص٧٠ .

المسيحي علي الجيش الجمهوري الإيرلندي أو علي « المافيا » في أمريكا وأوربا ، أو الإرهاب اليهودي لدولة اسرائيل .

ينبغي تنقية الخطاب الثقافي والإعلامي من هذه المصطلحات المقصودة حتي لا تصبح كلمة الإسلامية تهمة وشُبْهَة وجريمة .

ومن زاوية أخري ينبغي للخطاب الثقافي والإعلامي العربي أن يملأ عقل الإنسان العربي وقلبه ووجدانه ، لا يصبح ما تقدمه الثقافة وما يقدمه الإعلام تافها قليل الفائدة فيمتلئ العقل العربي والوجدان العربي بالتفاهة والفراغ . ونحن في اللغة العامية عندما نصف إنسانا بالتفاهة نقول : « إنسان فاضي » هذا المعني لوصف إنسان بقلة القيمة والفراغة وعدم الفاعلية أو التأثير يجسده القرآن الكريم في وصف الكافرين والمنافقين بأن أفئدتهم هواء .

ولكن علي المستوي القومي أي علي مستوي الأمة العربية ينبغي أن يكون المثقف العربي المشتغل بالثقافة جنديا في ساحة مقاومة الغزو الثقافي ، وجنديا في ساحة البناء الحضاري والاتصال الثقافي . وأن يكون ذلك موقفه الثابت في الدفاع عن الثقافة العربية . وعن التقارب الثقافي العربي مهما اختلفت الظروف ومهما كان دور الحكومات .

وليس الحديث عن دور إيجابي للمثقفين العرب بغير وصاية حكوماتهم أو هيمنتها نوع من « العنتريات » أو دعوة إلي تخاصمهم مع حكوماتهم . وإنما في نطاق المتاح وهو غير قليل . فما بال المثقفين العرب لا ينتبهون إلي خروج قطار الثقافة العربية [1] عن خطه وبعده عن قضبانه ودورانه حول خلافات سياسية عقيمة ؟

ولماذا لا يتفق المثقفون العرب علي تجنيب قطار الثقافة العربية مزالق الخلاف السياسي العقيم والتشرذم والتعصب ومختلف سمات التخلف والحماقة ؟ إن الطريق مفتوح أمام المثقفين العرب لتجاوز النزاعات والاحتكاكات السياسية بين حكوماتهم .

الطريق مفتوح بأمرين رئيسيين الأمر الأول : هو معالجة الواقع المعاصر معالجة عقلية والأمر الثاني : هو تحديد الدور الذي يستطيع المثقف العربي المعاصر تأديته في المرحلة الراهنة .

* أولا : ماذا تعني المعالجة العقلية للواقع العربي المعاصر في زاوية الثقافة أي في المجال الثقافي ؟

تعني أن ندرك واقع التدهور والمقاطعة في العلاقات العربية ونحلله تحليلا موضوعيا

---

(١) قطار الثقافة العربية إلي أين ؟

تحت هذا العنوان كَتَبْتُ في جريدة الأهرام (٢٤ - ٧ - ١٩٨٦) وبعد ما يقرب من عشر سنوات وأنا أراجع الفصل الرابع من كتابي الغزو الثقافي هذا وجدت أن كلمات صيف ١٩٨٦ هي كلمات صيف ١٩٩٣ في هذا الشأن. وأن القطار لم يغادر محطة ١٩٨٦ بعد سبع سنوات كاملة !! . وكان هذا مفزعا كما أن تكراره أكثر فزعا .

ونحاول التعامل مع هذا الواقع المرير في حده الأدني .. كيف ذلك ؟

نضرب مثلا واحدا فالمجال لا يتسع للإفاضة التي يمكن أن تستوعبها ندوات ومؤتمرات وبحوث . هذا المثل الذي نضربه هو إعادة قراءة ميثاق الوحدة الثقافية العربية والنظر فيما يمكن أن نتمسك به في حالتنا الراهنة التي تشبه حالة الواقعين في قاع الجب ويحاولون البحث عن سبيل للنجاة .

لقد صدر ميثاق الوحدة الثقافية العربية في بغداد في آخر الشهر الثاني من عام ١٩٦٤ وتبلغ مواد الميثاق ٣٢ مادة إلي جانب « الديباجة » وتتعلق المواد من الأولي إلي الرابعة عشرة في جملتها بالتربية والتعليم وكيفية تنشئة جيل عربي واع ومستنير .. كما تتعلق المواد الأربع الأخيرة من الميثاق بالطرق المنظمة للانضمام والانسحاب وإيداع وثائق التصديق .. تبقي أمام موضوع حديثنا هذا المواد من الخامسة عشرة إلي الثانية والعشرين .

إن هذه المواد علي الترتيب تتعلق - باختصار شديد - بالأنشطة التالية :

* إحياء التراث العربي .
* تشجيع الترجمة وتنشيط الإنتاج الفكري .
* توحيد المصطلحات العلمية والحضارية .
* إنشاء مجلس للمجامع العربية .
* تبادل المؤلفات والفهارس بين دور الكتب والآثار .
* تبادل الخبرات في الإعلام والموسيقي والفنون .
* حماية الملكية الأدبية العلمية والفنية .
* التنسيق في إيداع المطبوعات و « البيبليوجرافيا » .
* تبادل الأساتذة والخبراء بين المعاهد العلمية .
* تبادل الطلاب وتيسير قبولهم وتوحيد شهاداتهم .
* تلبية الرحلات الثقافية .
* تشجيع الرحلات الكشفية والرياضية .
* التقريب في الاتجاهات التشريعية التربوية والثقافية .
* التنسيق في المجال الدولي وبخاصة مع منظمة اليونسكو .

هذه الأنشطة يمكن ممارستها حتي في ظل المقاطعات وفي ظل الممارسات الحالية بين الحكومات بشرط أن يبذل المثقفون العرب جهدا معتدلا في هذا السبيل .. وقد يري البعض أن تبنيه لوصل الحبال العربية قد يعرضه في وطنه إلي تأخير ترقيته الوظيفية أو إلي النظر إليه نظرة

الشك في إخلاصه لحكومته . أو ما هو أكثر من ذلك أو أقل علي أية حال فإن محاولة المثقف العربي - داخل الوظيفة الحكومية أو خارجها - في وصل الحبال العربية ممكنة . وعلي وجه الخصوص في تلك الأنشطة بالذات . وكل ما تحتاج إليه قوة الدفع لتحرك القطار الثقافي العربي في تلك المجالات التي تبدأ من التراث إلي التنسيق في إطار « اليونسكو » هو قليل من شجاعة المثقفين العرب ودعم من الرأي العام في كل قطر عربي لهذا القليل من الشجاعة . وإذا خلع المثقفون العرب عن عقولهم وقلوبهم ونفوسهم أقنعة الخوف وهواجس عدم رضا الحكومات لتبين لهم أن المصلحة العامة - بما فيها مصلحة الحكومات المتخاصمة - تقتضي تحرك قطار الثقافة العربية ولتبين لهم أن بعض تلك الأنشطة لم يتوقف حتي في ظل المقاطعة والخلافات والتصادم . والمطلوب هو بث الحياة في تلك الأنشطة والتخطيط لتنميتها وتطويرها .

* ثانيا : ماذا يعني تحديد الدور الذي يستطيع المثقف العربي المعاصر تأديته في المرحلة الراهنة ؟

لكي نحدد هذا الدور لابد أن نعترف بأن المشتغل بالثقافة في الوطن العربي يقف بين واقعين متناقضين : واقع يدفع باليأس إلي القلوب والنفوس والعقول وهو الاحتكاكات السياسية- بل والعسكرية أحيانا - بين بعض الحكومات العربية والذي يجعل المثقف العربي متشائما شديد التشاؤم وواقع تؤكده الثقافة الواحدة لهذه الأمة وتؤكده انعكاسات هذه الثقافة في ظروف التضامن العربي أمام الأخطار التي تواجهها الأمة العربية وفي مقدمتها أخطار الحروب من المغول والتتار والصليبيين إلي الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية .. لقد كانت ثقافة الأمة هي درعها لصد العدوان ومقاومته .. وبناء علي ذلك الواقع الثقافي للأمة يصبح المثقف العربي شديد التفاؤل لدور عربي قومي في أوجه الحياة كافة .

* من هذا الواقع التاريخي والحضاري تبدأ المهمة الأولي للمثقف العربي وهي أن يغرس الأمل في النفوس وأن يدخل اليقين في القلوب بأن الدور العربي القومي بل الوجود العربي بأسره قائم علي تدعيم القواعد الثقافية العربية وإنه إذا انهارت الأساسات الثقافية العربية تهدم البناء العربي بأكمله .. وأن يبشر الناس بأن القواعد الثقافية العربية قائمة وعلينا دعمها وحمايتها وتقويتها بصفة مستمرة .

* اتساقا مع هذه المهمة « الاستراتيجية » تبرز أهمية إدراك الواقع القطري ، ففي مصر - مثلا - تصبح مهمة المثقف المصري إقناع مذيع ومذيعة صوت العرب بأن الثقافة العربية والوجدان العربي والمصير العربي هي ثقافة مصر ووجدانها ومصيرها . وإن المقاطعة العربية لمصر اختلاف سياسي عابر وليست هي التاريخ المصري أو التاريخ العربي . وفي الوقت نفسه تصبح - مثلا - مهمة المثقف الخليجي إقناع الأديب الشاب في الخليج بأن علي محمود طه وطه حسين والزيات والعقاد ليسوا خاضعين لقرارات المقاطعة لأنهم جزء من التراث العربي الذي هو تراث الأديب الخليجي . ومهمة المثقف الليبي - « مثلا - أن يقنع الشاعر الليبي المعاصر بأنه يشترك مع أبي

القاسم الشابي في الوجدان والعاطفة والمنبع ، وأن شعر الشابي لا ينطبق عليه قرار الاستغناء عن العمل الأجنبي في ليبيا .

* وعلي المثقفين العرب أن يدركوا طبيعة العصر في ظل الكيانات الكبيرة العملاقة ثقافيا وأن يدركوا مخاطر الانغلاق القطري والتشرذم والحساسية الإقليمية في مسألة بالغة الوضوح هي الثقافة الواحدة المشتركة .

* لقد فرضت طبيعة العصر أهمية كبري لوسائل الإعلام في عالمنا المعاصر لذلك أصبح الدور الإعلامي يكاد يوازي الدور الثقافي أو يكاد الجدول الثقافي مع الجدول الإعلامي يلتقيان.. وإذا ضربنا أمثلة لما يمكن أن يؤديه رجل الإعلام العربي في المجال الثقافي نقول :

١- ينبغي أن يقاوم ظاهرة الخصام الإعلامي وبخاصة عندما تتعرض لقيم الشعوب وعندما تقلل من تضحياتها .

٢- ينبغي أن يقاوم ظاهرة النفخ في الدخان عند وقوع خلاف سياسي بين الحكومات .

٣- مقاومة ظاهرة التشويش والتشويه والإظلام الإعلامي ومحاولة تضييق ذلك إلي أقل حد ممكن. إن ظاهرة التعتيم الإعلامي للعمل العربي أصبحت من التكرار في حكم المرض المتوطن في الإعلام العربي . ولو ضربنا مثلا بمؤتمرات الأدباء العرب علي المستوي القومي فماذا نجد ؟

إذا أتيح لباحث أن يتتبع ما نشر عن هذه المؤتمرات في الصحف العربية وما أذيع عنها في الإذاعات العربية فسيجد عجبا فكثيرا ما يتجاهل إعلام دولة ما مؤتمرا لأنه عقد في عاصمة ليست العلاقات السياسية معها علي ما يرام . !! علما بأن النشر حول هذه المؤتمرات وظيفة إعلامية وضرورة لتنمية الثقافة العربية ..

إن المثقف العربي مطالب بالدفاع عما شاده الأجداد وما بذل فيه من الدم والجهد والعرق.. وهو حصن الثقافة العربية .. وهذا الموقف ليس ضروريا ليومنا الراهن وحسب ولكنه أكثر ضرورة لغدنا .

وعلي المستوي العالمي لابد من إدراك دورنا الحضاري بعيدا عن التبعية . لابد من الوعي بالميلاد الثقافي العربي الجديد ، برغم سواد الواقع الاقتصادي والسياسي العربي المعاصر .

يقول أحمد بهجت [١] : لا نختلف مع التحليل الذي يقدمه الدكتور حازم الببلاوي حول فشل مشروع تقليد المجتمع الغربي .

وهو يري ومعه - الحق - أن حركة التغيير نحو الغرب جاءت بعد صدمة الاتصال بالغرب . والهزيمة العسكرية والسياسية ، وبذلك لم تأت هذه الحركة نتيجة تطور طبيعي للمجتمع المصري والعربي ، وكان هذا المجتمع راكدا ، ومن ثم تم التغيير في مجتمع راكد نتيجة لعنصر خارجي

---

(١) أحمد بهجت - الخيال والديمقراطية - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ - ٤ - ١٩٨٦ .

مفروض ، ولم يصاحب هذا التغيير قدر كاف من الخيال .. لأن المجتمع الراكد هو في نهاية الأمر مجتمع يفتقر إلي القدرة علي الخلق ويتميز بنقص الخيال . ولقد أعجبني إبرازه لعنصر الخيال والمعلومات وربطه لهذين العنصرين بعنصر الديمقراطية. إن الإنسان له تاريخ لأنه - من بين الكائنات - صاحب خيال ، والخيال يقوم علي التغذية المرتدة .. أو يقوم علي المعلومات . وبقدر ما يتوافر للعقل البشري من معلومات ، يستطيع أن يتجاوز واقعة ويخلق عالما جديدا . وقد بدأ مشروع تقليد الغرب دون علم كاف .. وعندما توفر العلم وبدأ ينتشر ، استخدم في أغراض غير أخلاقية ولأسباب انتهازية .. ومن هنا فإن نقطة البدء الجديدة يجب أن تكمن في البحث عن زيادة قدراتنا علي الخلق والخيال ، دون اعتقالها في هدف محدد سلفا وغير طموح .. هو مجرد اللحاق بالغرب .. وإن كان هذا لا يعني أيضا مجرد الرغبة في مقاومته .

فكرة المعلومات تقتضي التفتح لكل خبرات العالم المتراكمة ، والغرض من توفير المعلومات هو خلق إمكانيات جديدة للتفنن والابتكار في الذهن البشري ، أي أن المقصود هو خلق قدرات وليس أدوات . ولسوف يؤدي نشر المعلومات إلي خلق قيم جديدة تجعل القيم الذهنية والفنية في مرتبة عليا .. والمعلومات هي وسيلة لتحرير الأذهان واطلاق قدرتها ومن هنا كانت الديمقراطية هامة جدا كضمان لكي لا تتحول المعلومات إلي وسيلة قهر . وبغير الديمقراطية سوف يبقي الخيال والمعلومات معا سجينين في قمقم السلطة ، وسيوجه الإثنان معا لإقناع جماهير الناس بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

نحن نتفق معه في هذا كله . ونحمد الله علي هذا كله في نفس الوقت ، لأن التقدم لا يعني تقليد الغرب واللحاق به والاندماج فيه بحيث تذوب شخصيتنا وتنعدم في أسلوب حياته . ونحن نعرف إن البديل المطروح في الساحة الآن ، وهو بديل تحتضنه كثير من المستويات الثقافية رغم تفاوتها واختلافها .. هذا البديل هو التجربة الإسلامية أو النموذج الإسلامي » .

والسقوط « الأيدلوجي » الشيوعي الذي حدث في العقد الأخير من القرن العشرين بتفكك الاتحاد السوفييتي ، ومعاناة الدول المتفسخة منه من ظروف اقتصادية متدهورة وصعبة لا يعني لنا عقديا أن النصر والفلاح والصواب نصيب الأيدلوجية الرأسمالية . لا . إن سقوط « أيدولوجية » منافسة ، ليس حتمية لانتصار الأيدلوجية المعادية لها أو المقابلة لها . وإنما لابد أن يكون لدينا ميزاننا الذي نزن به . وليست المشاهدة التاريخية هي كل ما نملك من أدوات التقييم الأيدلوجي . ولاشك أن سقوط الرأسمالية الاحتكارية قادم بشهادة مفكرين غربيين شرح الله صدرهم للإسلام .

يقول جارودي :

إن عملية جرد إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية تضطرنا - من منطلق التصور الغربي - إلي مراعاة ثلاثة مناهج فكرية هي :

١- الوعي بالتقهقر الغربي الراهن وتحليل أسبابه .

٢- فحص أسباب إشعاع الإسلام الحالي والمفارقة مع دوره الثانوي علي المسرح العالمي اليوم .

٣- النظر في شروط صحوة إسلامية مباركة تجعل هذا الدين روحا للكفاح ضد الحركات المشبوهة التي تقود العالم لحتفه » .

وبعد .. هل طريق المستقبل للمجتمع العربي مظلم أم مضيء ؟ إن ذلك يتوقف علي إرادة الإنسان العربي .

الفهارس

رقم الصفحة

رقم الصفحة

أهم مصادر الكتاب ومراجعه

أولا : كتب عربية ومعربة

١- ابراهيم خليل أحمد ، الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ، مكتبة الوعي العربي، ١٩٧٣ .

٢- د. ابراهيم عبده، تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١ ، ط٤ ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ .

٣- أبو الأعلي المودودي ، نحن والحضارة الغربية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٨٤ .

٤- د. أحمد بدر ، الإعلام الدولي ، دراسات في الاتصال والدعاية الدولية ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٧ .

٥- أحمد بهاء الدين ، أفكار معاصرة ، سلسلة كتاب الهلال رقم ٢٣٠ ، القاهرة ١٩٧٠ .

٦- أحمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .

٧- أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أونابليون بونابرت في مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٢٥ .

٨- أحمد حسنين طاهر ، دور الشاميين المهاجرين إلي مصر في النهضة الأدبية الحديثة ، ط١ ، دار الوثبة ، دمشق ١٩٨٣ .

٩- د. أحمد حسين الصاوي ، فجر الصحافة في مصر : دراسة في إعلام الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

١٠- د. أحمد كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة ، دراسات حول الإسلام والعصر ، سلسلة كتاب العربي ، العدد ٧ ، الكويت ، أبريل ١٩٨٥ .

١١- د. إدوارد سعيد ، تغطية الإسلام : كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم، ترجمة سمير نعيم خوري ، ط١ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٣ .

١٢- د. إدوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة . السلطة . الإنشاء ، ترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٣ .

١٣- اسماعيل القباني ، محاضرات في الثقافة العربية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٤- أ. ك . شاتليه ، الغارة علي العالم الإسلامي ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، ط٣ ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٨٥ هـ .

١٥- أكرم ضياء العمري ، التراث والمعاصرة ، سلسلة كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، قطر ١٩٨٥ .

١٦- إكرام لمعي ، الاختراق الصهيوني للمسيحية ، ط١ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩١ .

١٧- أنور الجندي ، حتي لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .

١٨- أنور الجندي ، كيف يحتفظ المسلمون بالذاتية الإسلامية في مواجهة أخطار الأمم ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .

١٩- أنور الجندي ، الصحافة والأقلام المسمومة ، ط١ ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٠ .

٢٠- أنور الجندي ، هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٣ .

٢١- أنور الجندي ، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلي أوائل الحرب العالمية الأولي ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .

٢٢- أنورعبد الملك ، تغيير العالم ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٩٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ .

٢٣- د. أنور عبد الملك ، ريح الشرق ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣ .

٢٤- د. أنطونيوس كرم ، العرب أمام تحديات التكنولوجيا ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٥٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٢ .

٢٥- د. برهان غليون، اغتيال العقل : محنة الثقافة بين السلفية والتبعية، ط٣ ، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠.

٢٦- جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٧- جمال البنا ، موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة ، دار المحايد العربي ، القاهرة - (بدون تاريخ) .

٢٨- جوان جليسبي ، ثورة الجزائر ، ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢٩- جي . إي . براون ، أساليب الإقناع وغسيل الدماغ ، نقله بتصرف د. عبد اللطيف الخياط ، دار الهدي للنشر والتوزيع ، الرياض ١٩٨٨ .

٣٠- جيلان حمزة ، كواليس راديو مونت كارلو ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ .

٣١- د. حامد ربيع ، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإدارة التكامل القومي ، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٢ .

٣٢- د. حامد ربيع ، مستقبل الإسلام السياسي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ١٩٨٣ .

٣٣- د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١ .

٣٤- حسين عمر حمادة ، شهادات ماسونية ، ط٢ ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٨٣ .

٣٥- د. حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، بحث استطلاعي اجتماعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ .

٣٦- حمدي قنديل ، اتصالات الفضاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥ .

٣٧- د. حورية توفيق مجاهد ، الاستعمار كظاهرة عالمية ، حول الاستعمار والامبريالية والتبعية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٥ .

٣٨- رجاء النقاش ، الانعزاليون في مصر ، ط٢ ، دار المريخ ١٩٨٨ .

٣٩- روجية جارودي ، حوار الحضارات ، ترجمة د. عادل العوا ، ط٣ ، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٦ .

٤٠- د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، ط٧ ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ١٩٨٢ .

٤١- د. زكي نجيب محمود ، ثقافتنا في مواجهة العصر ، ط٤ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩.

٤٢- د. زكي نجيب محمود ، في تحديث الثقافة العربية ، ط١ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٧.

٤٣- سعيد الجزائري ، الماسونية ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٠ .

٤٤- سليمان صالح، الانتفاضة الفلسطينية: ثورة الذات الحضارية، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٢.

٤٥- د. سمير حسين ، تحليل المضمون ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٣ .

٤٦- سمير عبده ، تحديث الوطن العربي بين الميكانيكية العقلية والميكانيكية الخرافية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١ .
٤٧- سمير عبده ، العرب والتكنولوجيا ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١ .
٤٨- د. سهير عبد الغني بركات ، الإذاعة الدولية ، مؤسسة علي الصباح ، الكويت ١٩٧٨ .
٤٩- صابر طعيمة ، الماسونية ذلك العالم المجهول ، دار الجيل ، بيروت (بدون تاريخ) .
٥٠- صافي ناز كاظم ، الحقيقة وغسيل المخ ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٩٨٥ .
٥١- د. عائشة عبد الرحمن ، قراءة في وثائق البهائية ، ط١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٦.
٥٢- د. عبد الباسط عبد المعطي ، الإعلام وتزييف الوعي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٩ .
٥٣- عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، دار الشعب، القاهرة ١٩٥٨ .
٥٤- د. عبد العظيم رمضان ، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥.
٥٥- د. عبد اللطيف حمزة ، الإعلام والدعاية ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٨ .
٥٦- د. عدنان محمد وازن ، الاستشراق والمستشرقون : وجهة نظر ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة يناير ١٩٨٤ .
٥٧- د. عزت حجازي ، الشباب العربي ومشكلاته ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٦ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٧٨ .
٥٨- عزيز الحاج ، الغزو الثقافي ومقاومته ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .
٥٩- د. علي حسن الخربوطلي ، المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨ .
٦٠- علي لبن ، الغزو الفكري في المناهج الدراسية ، ط٢ ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة (مصر) ١٩٩١ .
٦١- د. علي محمد جريشة ود. محمد شريف ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٨ .
٦٢- د. عماد الدين خليل ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ط٢ ، كتاب الأمة ، قطر ١٩٨٣ .
٦٣- د. عواطف عبد الرحمن ، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة رقم ٧٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٤ .
٦٤- فرانسوا شاتليه ، أيديولوجيا الغزو، ترجمة جوزف عبد الله ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤ .
٦٥- ف. كورتونوف ، صراع الأفكار في العالم الحديث ، ترجمة حنا عبود ، دار دمشق ، دمشق وبيروت ١٩٨١.
٦٦- فؤاد بن حالة ، الحرب الإذاعية ، ترجمة انشراح الشال ، دار نهر النيل ، القاهرة ١٩٨٨ .
٦٧- د. فؤاد زكريا ، خطاب إلي العقل العربي ، كتاب العربي، الكويت ١٩٨٧ .
٦٨- د. فؤاد زكريا ، العرب والنموذج الأمريكي ، دار الفكر المعاصر ، القاهرة ١٩٨٢ .
٦٩- د. فؤاد زكريا ، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥.

٧٠- د. كرم شلبي ، الإذاعات التنصيرية الموجهة إلي المسلمين العرب، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٩١.
٧١- مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ١٩٦٠ .
٧٢- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ .
٧٣- محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، ط١ ، كتاب الأمة ، الدوحة ١٩٨٤ .
٧٤- محمد أبو القاسم حاج محمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، دار المسيرة ، أبو ظبي ١٣٩٩هـ.
٧٥- محمد جلال كشك ، الغزو الفكري ، ط٤ ، المختار الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٥ .
٧٦- محمد جلال كشك، القومية والغزو الفكري ، ط٢ ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٠.
٧٧- محمد جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكري ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٦٥ .
٧٨- محمد خير الوادي ، من خفايا وأسرار إذاعة لندن ، دار ابن هاني ، دمشق (بدون تاريخ) .
٧٩- محمد سليم قلالة : التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٨ .
٨٠- محمد السماك ، تبعية الإعلام الحر ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩١ .
٨١- محمد فريد وجدي ، مهمة الإسلام في العالم ، ط١ ، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ، القاهرة ١٩٨٩ .
٨٢- د. محمد سيد محمد ، الإعلام والتنمية ، ط٤ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٨ .
٨٣- د. محمد سيد محمد ، المسئولية الإعلامية في الإسلام ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٣.
٨٤- محمد صالح البيداق ، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، ط٢ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ .
٨٥- محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، جـ١ ، ط١ ، المطبعة التعاونية (بدون مكان النشر) ١٩٦٥ .
٨٦- محمدعمارة ، ماذا يعني الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية والإسلامية ، دار ثابت ، القاهرة (بدون تاريخ).
٨٧- محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ .
٨٨- محمد محمد حسين ، في وكر الهدامين ، الناشر الشيخ عبد المهيمن أبو السمح (بدون تاريخ).
٨٩- محمد محمد الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٩ .
٩٠- محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط٢ ، كتاب الأمة، قطر ١٩٨٣ .
٩١- د. محمود السمرة ، مراجعات حول العروبة والإسلام وأوربا ، سلسلة كتاب العربي رقم ٤، الكويت ١٩٨٤.
٩٢- محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلي ثقافتنا ، كتاب الهلال العدد ٤٤٢ ، اكتوبر ١٩٧٨ .
٩٣- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام ، الغزو الإسرائيلي للبنان : اتجاهات الصحافة الإسرائيلية . مختارات من المقالات ودراسة تحليلية ، إشراف د. علي الدين هلال ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ١٩٨٤ .
٩٤- منير شفيق ، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ، ط٢ ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٩٨٧ .
٩٥- مها معتوق ، وقائع الحرب الاسرائيلية الفلسطينية في لبنان ، مؤسسة مطابع المعتوق ، بيروت ١٩٨٣ .
٩٦- نديم البيطار ، حدود الهوية القومية : نقد عام ، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٢ .
٩٧- هربرت أشيللر ، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبد السلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٠٦ ، الكويت ١٩٨٦ .

٩٨- هنري لابوريت ، المجتمع الإعلامي ، ترجمة حسن قصاص ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية ، دمشق ١٩٨٠ .

٩٩- يوسف العظم، رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر، ط١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٠ .

١٠٠- اليونسكو ، الثقافة والاتصال ، مركز مطبوعات اليونسكو ، القاهرة ١٩٨٣ .

ثانيا : بحوث ومحاضرات ومحاضر اجتماعات ومقالات

أ) بحوث ومحاضرات ومحاضر اجتماعات :

١- مجموعة بحوث اليونسكو حول مشكلات الإعلام عام ١٩٧٧ الصادرة بعنوان أصوات متعددة وعالم واحد : الاتصال والمجتمع اليوم وغدا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ .

٢- ندوة آفاق العمل العربي المشترك في المجال الثقافي ، شئون عربية ١٩٨٣ .

٣- ندوة التبعية الثقافية ، التربية المعاصرة ١٩٨٤ .

٤- ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، المستقبل العربي ١٩٨٥ العدد ٦٩ .

٥- مجموعة بحوث ملتقي الفكر الإسلامي التاسع عشر بالجزائر عن الغزو الثقافي ١٩٨٥ .

٦- مجموعة بحوث وندوات الخطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦ .

٧- سلسلة بحوث مصر بين التبعية والاختيار الاشتراكي ، كتاب قضايا فكرية ، الكتاب الثاني، يناير ١٩٨٦ .

٨- مجموعة بحوث وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي في الفترة من ٢١ - ٢٣ أبريل ١٩٨٥ مسقط - سلطنة عمان ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ١٩٨٧ .

٩- مجموعة بحوث ندوة وسائل الإعلام والهوية الثقافية في العالم العربي، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٨٩ .

١٠- مجموعة بحوث ندوة مواقف الإسلام والحداثة ، ط١ ، دار الساقي ، لندن ١٩٩٠ .

١١- مجموعة بحوث ندوة الثقافة العربية بعنوان « الواقع وآفاق المستقبل » ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣ ، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، الدوحة .

١٢- ندوة العرب أمام الغزو الثقافي ، الوحدة ، العدد الثالث .

١٣- الوثيقة الفكرية الختامية لمؤتمر الغزو الثقافي بتونس ، الوحدة ، العدد الثالث .

ب) المقالات :

١- د. أحمد صدقي الدجاني ، الفكر العربي والتغيير في المجتمع العربي ، مجلة المستقبل العربي، العدد ٦٩.

٢- د. أحمد فؤاد أبو زيد ، أسطورة الغزو الثقافي ، مجلة الهلال ، مارس ١٩٨٨ .

٣- د. أحمد كمال أبو المجد ، المسألة السياسية : وصل التراث بالعصر والنظام السياسي للدولة، المستقبل العربي العدد ٧١ .

٤- د. أحمد عبد الرحمن ابراهيم ، الغزو الثقافي : هل هو شبح أو حقيقة ؟ جريدة الأهرام في ١٣ - ١٢ -

١٩٨٣ .

٥- أحمد عبد المعطي حجازي ، هذه الحملة المسعورة ، جريدة الأهرام في ١٣ / ١١ / ١٩٩١ .

٦- اسماعيل سرور شلش ، السياسات العلمية في الوطن العربي ، قضايا عربية ، فبراير ١٩٨١ العدد الثاني .

٧- الياس مرقص ، ندوة « الوحدة » حول حوار الحضارات ، الوحدة العدد الخامس صـ١٦ .

٨- أنطوان فيرجوت ، الدين والدنيوية في أوربا الغربية : اتجاهاتهما ومستقبلهما بالنسبة للحوار الثقافي مع العالم العربي ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ العدد ٢٨ .

٩- أنطوان المقدسي ، الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ ، العدد٢٨.

١٠- أنطوان المقدسي ، التحديث والتغريب في مواجهة الغزو الثقافي ، مجلة الوحدة ، العدد الثالث .

١١- د. باسل البستاني ، حوار الشمال والجنوب وانسياب التكنولوجيا من الدول الصناعية إلي الدول النامية ، المستقبل العربي ، العدد ٧٥ .

١٢- د. برهان غليون ، الثقافة العربية بين التبعية والتبادل ، جريدة الخليج في ١٩٨٩/١٢/٢٠ .

١٣- د. تركي صالح ، أضواء علي سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر : ١- المعركة من أجل التعريب ، المستقبل العربي العدد ٥٧ .

١٤- جمال الغيطاني ، الواقع الأدبي بين الحقيقة والزيف ، أدب ونقد فبراير ١٩٨٤ العدد(٢).

١٥- جمعة الفخراني ، المشروع الحضاري العربي الجديد ، مجلة الوحدة العدد (٦) .

١٦- جميل طراد ، الغزو الثقافي الأمريكي لأوربا والعالم الثالث ، الوحدة ، العدد (٣) .

١٧- د. جونتر ديل ، مكانة وأهمية حضارة أوربا الغربية في عالم اليوم ، شئون عربية ، العدد ٢٨ .

١٨- حافظ الجمالي ، موقف المثقف من إشكالية النهضة ، الوحدة ، العدد (١٠) .

١٩- حافظ الجمالي، الوجود العربي بين مصيرين ، الوحدة ، العدد (٥) .

٢٠- حافظ الجمالي ، حوار الحضارات بين الواقع ، والأمل ، الوحدة ، العدد (٤) .

٢١- د. حسام الخطيب ، الجديد في الحوار الثقافي بين الشرق والغرب ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .

٢٢- د. حسن فتح الباب والسيد خميس ، الواقع الثقافي في مصر : الغزو والمقاومة ، قضايا عربية العدد (٢).

٢٣- خلدون حسن النقيب ، العقلية التآمرية عند العرب ، مجلة العلوم الاجتماعية شتاء ١٩٨٤ .

٢٤- رئيس حسين ، الهجرة من المغرب العربي إلي فرنسا : ماضيها وحاضرها ، المستقبل العربي، العدد ٥١ .

٢٥- د. زكي نجيب محمود ، إحياء التراث وكيف أفهمه ، العربي ، ديسمبر ١٩٨٠ .

٢٦- د. زكي نجيب محمود ، نريدها صورة واعية ، الأهرام في ١٩٨٥/٣/١٨ .

٢٧- د. زكي نجيب محمود ، هذه الأجهزة وحرية الإنسان ، الأهرام في ٢٧ / ٢ / ١٩٨٤ .

٢٨- د. زكي نجيب محمود ، المسلم الجديد، الأهرام في ١٢ / ١١ / ١٩٨٤ .

٢٩- د. زهير حطب ، أوضاع البحث العلمي في ميدان العلوم الإنسانية في الوطن العربي، قضايا عربية ، فبراير ١٩٨١ ، العدد (٢) .

٣٠- سامح كريم ، الثقافة بين الغزو والاستغزاء ، الأهرام في ١٤ / ٦ / ١٩٩١ .

٣١- سامي خشبة ، قراءة في الخطة الشاملة للثقافة العربية ، الأهرام في ١ ، ٨ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٩ /١٩٨٨/١ وفي ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ١٩٨٨/٢/٢٦ .

٣٢- سعد الدين ابراهيم ، المسألة الاجتماعية بين التراث وتحديات العصر ، المستقبل العربي ١٩٨٥ العدد ٧١ .
٣٣- سعد لبيب ؛ الأمن الثقافي في مجال العمل الإذاعي ، الدراسات الإعلامية في أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧ العدد ٤٩ .
٣٤- سليم سحاب ، آثار الغزو الثقافي في الموسيقي العربية ، مجلة البحوث العراقية في ١٤ أبريل ١٩٨٥ ، العدد ١٤ .
٣٥- سمر روحي الفيصل ، البث التليفزيوني والإنسان العربي ، العربي في فبراير ١٩٨٥ .
٣٦- السندرو بوزاني ، تصور أوربا الغربية للحضارة العربية وتجاوبها معها ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ العدد٢٨ .
٣٧- د. سهام محمود العراقي ، أزمة التعليم النظامي في الدول النامية وعلاقتها بالاتجاهات السياسية ، التربية المعاصرة سبتمبر ١٩٨٤ ، العدد الثاني .
٣٨- د. سيد عرب ، من صور الغزو الثقافي ، الأهرام في ١٩٨٥/٢/٢٦ .
٣٩- د. شبل بدران ، البحوث الأجنبية وخرافة تطوير المجتمع المصري، التربية المعاصرة ، سبتمبر ١٩٨٤ ، العددالثاني .
٤٠- د. شبل بدران ، التربية والتعبية في مصر : دراسة في التعليم الأجنبي ، التربية المعاصرة مايو ١٩٨٥ ، العدد الثالث .
٤١- شحادة الخوري ، الترجمة والرقي الحضاري ، المجلة العربية للثقافة .
٤٢- شفيق الحوت ، « المافيا » الثقافية ، الشرق الأوسط في ١٩٨٥/١١/١٧ .
٤٣- صلاح الدين حافظ ، التحرر الإعلامي والذاتية الثقافية ، الدراسات الإعلامية أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧ العد٤٩ .
٤٤- صلاح ذهني ، حرب السينما والفيديو والمواقف العربية ، العربي فبراير ١٩٨٥ .
٤٥- طارق البشري ، المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي ، المستقبل العربي ١٩٨٥ العدد٧١ .
٤٦- عبد الباسط عبد المعطي ، التعليم وتزييف الوعي الاجتماعي : دراسة في استطلاع مضمون بعض المقررات الدراسية ، مجلة العلوم الاجتماعية شتاء ١٩٨٤ العدد الرابع .
٤٧- الطاهر أحمد مكي ، الاستعمار والتخريب الثقافي ، أدب ونقد، فبراير ١٩٨٤ ، العدد الثاني .
٤٨- عبد الحكيم أجهر ، المثقف العربي وسلطة الثقافة الأوربية ، الوحدة العدد ١٤ .
٤٩- عبد الرازق البصير ، تعريب التعليم في الجامعات ، العربي أغسطس ١٩٨٥ .
٥٠- عبد العظيم أنيس ، غين فتحة غا ، الأهالي في ١٩٨٤/١٢/٢٦ .
٥١- عبد الفتاح كليطو ، اللغة والهوية ، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي ، الوحدة العدد الخامس .
٥٢- د. عبد الكريم اليافي ، الدين والإحياء الروحي في الوطن العربي اليوم : دلالتهما في الحوار الثقافي مع أوربا الغربية ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ العدد ٢٨ .
٥٣- د. عبد الله عبد الدائم ، المسألة الثقافية بين الأصالة والمعاصرة ، المستقبل العربي ، العدد ٧١ .
٥٤- د. عبد المجيد مزيان ، مفهوم الأمن الثقافي بين الواقع والتصور ، المجلة العربية للثقافة .

٥٥- د. عبد المنعم سعيد ، الحوار العربي الأوربي : علاقة قوة أم اعتماد متبادل ، المستقبل العربي العدد ٥١ .
٥٦- د. علي الراعي ، الإنتاج الثقافي العربي المعاصر وعلاقته بالمجتمع ، المجلة العربية للثقافة .
٥٧- عون الشريف قاسم ، مقاومة الانهزام الثقافي أولا ، العربي أغسطس ١٩٨٥ .
٥٨- فاروق عبد العزيز ، التليفزيون : قوة توجهنا أو نوجهها ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .
٥٩- د. فايز بكداش ، نظرة علي المسألة الثقافية في العالم الثالث : كيف نجعل من الثقافة قوة تحرر ، أدب ونقد ، أكتوبر ١٩٨٥ العدد ١٦ .
٦٠- د. فهمي جدعان ، إبداع التراث ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .
٦١- فهمي هويدي ، تفكيك الأمة ، الأهرام في ١٩٩١/١٠/١٥ .
٦٢- د. فيصل دراج ، الثقافة الوطنية والثقافة التابعة ، المواجهة ، سبتمبر ١٩٨٥ العدد الخامس.
٦٣- قسطنطين زريق ، النهج العصري : محتواه وهويته .. إيجابياته وسلبياته ، المستقبل العربي، العدد ٦٩ .
٦٤- قيس خزعل جواد ، حوار الثقافات ، الوحدة العدد الرابع .
٦٥- د. كمال نجيب ، التبعية والتربية في العالم الثالث ، التربية المعاصرة ، سبتمبر ١٩٨٤ العدد الثاني .
٦٦- د. كمال نجيب ، دور العلم في استراتيجية الولايات المتحدة التوسعية ، المواجهة ، سبتمبر ١٩٨٥ العدد الخامس .
٦٧- د. لويزلمياء الفاروقي ، الغزو الثقافي في مجال الفنون ، ترجمة د. محمد رفقي عيسي، المسلم المعاصر سبتمبر ١٩٨٥ العدد ٤٥ .
٦٨- د. محمد الرميحي ، اليابان : مائة عام من النهضة ، العربي ، فبراير ١٩٨٥ .
٦٩- د. محمد السيد سعيد ، حول مقولة الغزو الفكري ، الأهرام في ١٩٨٤/٨/٢١ .
٧٠- د. محمد عابد الجابري، المثقف العربي وإشكالية النهضة ، الوحدة العدد العاشر .
٧١- د. محمد عابد الجابري، إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، المستقبل العربي العدد ٦٩ .
٧٢- د. محمد عابد الجابري ، المشروع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات، الوحدة ، العدد السادس .
٧٣- محمد عزيز الجبالي ، الحضارة الإنسانية وحضارة التصنيع ، الوحدة ، العدد ٤ .
٧٤- د. محمد عمارة ، العلمانية ومصر الإسلامية ، الأهرام في ١٩٨٥/٣/١٨ .
٧٥- د. محمد عمارة ، حول الموروث والوافد ، المستقبل العربي ، العدد ٦٤ .
٧٦- محمد نور الدين آفاية ، في الهوية والاختلاف : معان وحدود ، الوحدة ، العدد السادس.
٧٧- محمد المهدي سعودي ، المؤسسة التربوية ومستقبل الثقافة في الوطن العربي ، الوحدة العدد ١٤ .
٧٨- د. محيي الدين الحضري ، الوطن العربي بين تحديات الحاضر وآفاق المستقبل ، الوحدة العدد السادس .
٧٩- د. محيي الدين صابر ، الأمن الثقافي : مفهومه ومقوماته ومتطلباته ووسائله ، المجلة العربية للثقافة .
٨٠- د. محيي الدين صابر ، الحضارة العربية بوصفها حضارة عالمية ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ ، العدد ٢٨ .
٨١- محيي الدين صبحي ، جدلية الذات والمصير في جذور وامتدادات ندوة تونس حول الغزو الثقافي ، الوحدة ، العدد الثالث .

٨٢- د. مديحة السفطي ، التعليم الأجنبي في البلاد العربية ، شئون عربية ، ديسمبر ١٩٨٢ العدد ٢٢ .
٨٣- مشهور مصطفي ، مشكلات الهوية والتثاقف في علاقة الطالب العربي بالمجتمع الغربي ، الوحدة ، العدد الخامس .
٨٤- مصطفي خضر ، مشروع الوعي العربي، الوحدة ، العدد العاشر .
٨٥- د. مصطفي محمود ، صيحة في واد ، الأهرام في ١٩٩١/١١/٣٠ .
٨٦- د. نادية حسن سالم ، التنشئة السياسية للطفل العربي، المستقبل العربي العدد ٥١ .
٨٧- د. نادية رمسيس ، النظرية الغربية والتنمية العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٦٤ .
٨٨- د. نواف عدوان ، الإعلام العربي ودوره في التصدي للمخططات المعادية لقضايانا القومية ، شئون عربية ، سبتمبر ١٩٨٤ ، العدد ٣٩ .
٨٩- ياسوموزا كورودا ، التحديث والاغتراب في اليابان ، المستقبل العربي ، العدد ٧٦ .
٩٠- يحيى خلف ، الثقافة في مواجهة الاحتلال ، الوحدة ، العدد الثالث .

ثالثا : دوريات عربية

١- شئون عربية .

٢- العروة الوثقي .

٣- المسلم المعاصر .

رابعا : الوثائق

١- منشور الحملة الفرنسية الذي تم توزيعه علي المصرين عام ١٧٩٨ .

٢- المنشور الذي وزعته الحملة الفرنسية علي الجزائر عام ١٨٣٢ .

٣- المنشورات التي ألقتها الطائرات الإسرائيلية علي بيروت وجنوب لبنان عام ١٩٨٢ .

خامسا : كتب وبحوث إفرنجية

1- Alex S. Edelstein and others, Communication and Culture (A Comparative Approach) , Longman , New york, London ,١٩٨٩

2- Denise Winn, The Manipulated Mind : Brainwashing, Conditioning and Indoctrination, The Octagon Press , London ١٩٨٣ .

3- Gabriel Esquer, Iconographie Historique D'Algerie, Libraire Plom (11) , Paris, MGMxxix, 1929 (Collection du Centenaire de L'Algerie) .

4- Garth Jowett, Propaganda and Communication : The Re-emergence of a research Tradition, Journal of Connunication vol. 37 No ١ .

5- Henri Gobard , La Guerre Culturelle : logique du désastre , Copernic , Paris ,١٩٧٩

6- James B. Lemert, Does Mass Communication change Public Opinion After All ? Chicago . Nelson Hall ١٩٨١ .

7- Klaus krippendorf , content Analysis : An Introduction to its Methodology , second edition, sage publication, London ,١٩٨١

8- Larsy E. Smith , English for cross culture communication , Macmilan ١٩٨٥ .

9- L. John Martin , Disinformation as a form of propaganda : An Instrument in the propaganda Arsenal , political communication and persuasion . Vol 2 . No. ١ .

10- L. John Martin, International political Disinformation in Africa. African communication Review, vol 1 & ٢ .

11- Martin J. Medhurst and others, communication and the culture of technology , W S U press, washington ١٩٩٠ .

12- Murray Dyer, The weapon on the wall , Baltimore MD : Johns Hopkins press ١٩٥٩ .

13- Norman Daniel , Islam And the west , Edinburgh, Britain , ١٩٨٠

14- Ole R. Holsti, Content Analysis for the social Sciences and Humanities , Addison wesley Publishing company , ١٩٦٩ .

15- Rogger Morris, Beirut - and The press - under Siege , Columbia Journalism Review , Nov. Dec. ١٩٨٢ .

16- Shearon Lowery and Melvin Defleur, Milestones in Mass Communication Research , Longman , New york , ١٩٨٦ .

17- United states , Department of the Army The Art and science of Psychological operations : Case studies of Military Application . (Panphlet No . 525 - 7 - 1 & 525 - 7 - 2) . Washington , D. c : Headquarters, Department of the army .

18- Wilson P. Dizard , The Coming Information Age, Longman New york ١٩٨٥ .

19- Werner J. Severin and others, communication Theories : Origins, Methods, Uses, Hasting House , Newyork ١٩٧٩ .

20- Yves Eudes, La Conquête des Espris - Paris ١٩٨٣ .

كتب للمؤلف

في الدراسات الإعلامية :

* الإعلام والتنمية - الطبعة الرابعة - دار الفكر العربي - ١٩٨٨ .
* صناعة الكتاب ونشره - الطبعة الثالثة - دار المعارف - ١٩٨٣ .
* الإعلام واللغة - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٤ .
* المؤسسة الصحفية - الطبعة الثانية - مكتبة الخانجي - ١٩٨٤ .
* المسئولية الإعلامية في الإسلام - الطبعة الأولي - مكتبة الخانجي ودار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٣ . الطبعة الثانية - الجزائر المؤسسة الوطنية للنشر ١٩٨٦ .

في الدراسات الأدبية :

* الزيات والرسالة - دار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٢ .
* هيكل والسياسة الأسبوعية - دار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٢ .
* الصحافة بين التاريخ والأدب - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٥ .

في الشعر :

* موعد في النجوم (ديوان شعر) - دار « تي » - ١٩٦٧ .
* سجين الربذة (مسرحية شعرية) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٧٩ .
* ما ينفع الناس (ديوان شعر) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٨٣ .

في الترجمة :

* ليوناردو دافينشي . دار الثقافة العربية - الطبعة الثانية - ١٩٨٩ .
* أغنية المسير (مسرحية) - دار الثقافة العربية - ١٩٨٩ .

رقم الإيداع : ٥٩٨١ - ٩٤
الترقيم الدولي I . S . B N
٩٧٧ - ١٠ - ٠٦٨٦ - X